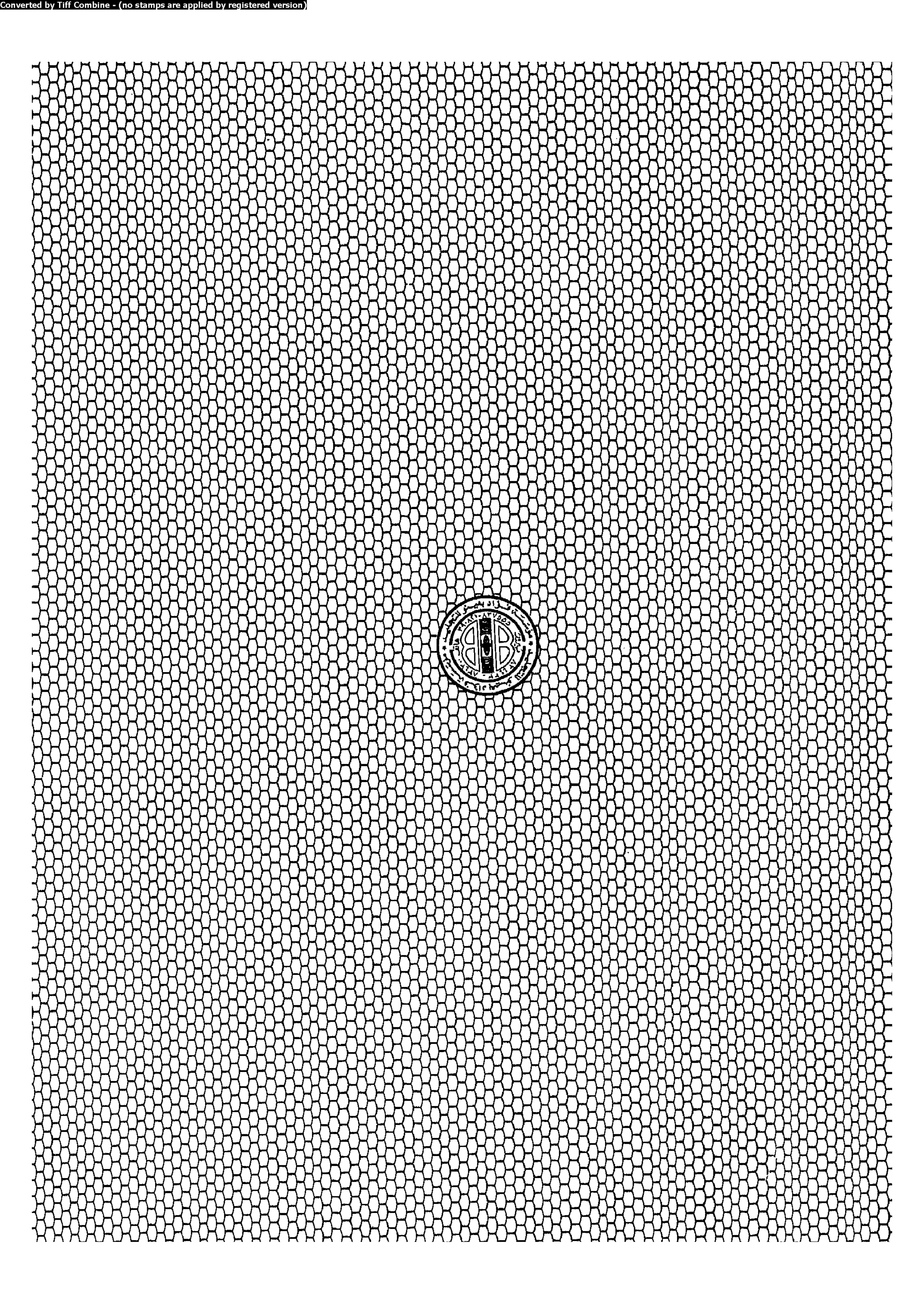
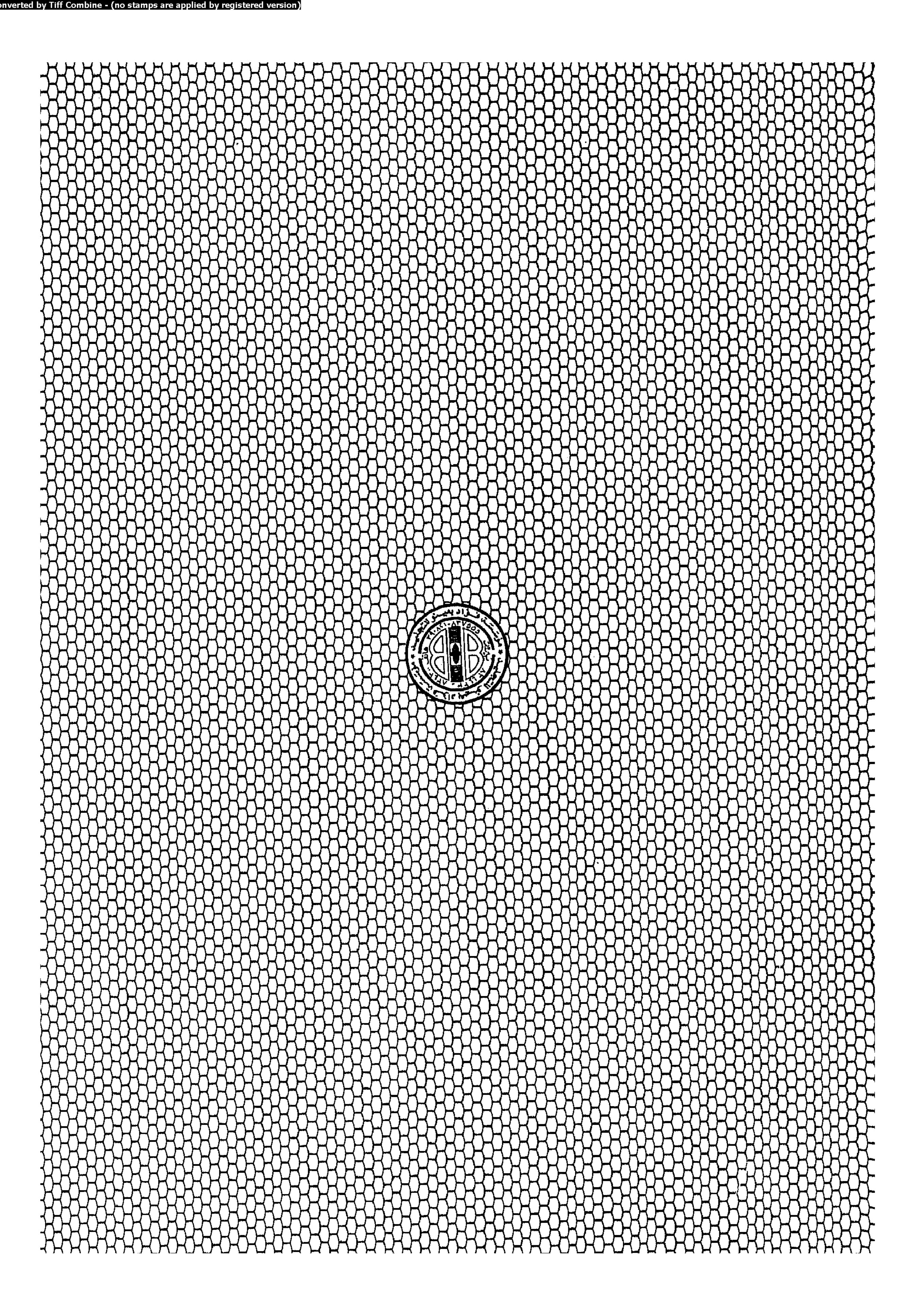


الدكتور محمّد صالح الجابري
محمود بيرم التونسي
في المنفى
حياته وآثاره
الجزء الثاني
دار الغرب الإسلامي
Bibliotheca Alexandrina
0160092







محمود بيرم التونسي

في المنفى

حياته وآثاره



الدكتور محمّد صالح الجابري

محمود بيرم التّونسي في المنفى

حياته وآثاره

الجزء الثاني



الطبعة الاولى

1987 - 1407

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

هذا التراث وأهميته

يضم هذا المجلد جل ما كتب ونشر محمود بيرم التونسي في تونس من آثار فكرية تناولت الحياة السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، ومن أعمال إبداعية تمثل إنتاجه القصصي ومقاماته، وقصائده، ومقالاته النقدية، ونظرياته في الأدب ودراساته حول بعض الأدباء العرب من مختلف العصور، وبعض الفنانين المعاصرين له.

وهناك قدر يسير جداً من هذه الكتابات صرف النظر عنه لأسباب مختلفة، فقد استغنيت في هذا الصدد عن فصوله التي كان نشرها بعنوان (مذكرات المنفي) لصدورها في كتاب جامع عن الدار التونسية للنشر، حيث طبعت هذه المذكرات أكثر من مرة في طبعات مبتورة، توليت بتكليف من الدار إضافة بعض ما كان ينقصها من فصول، وتصويب أخطائها، وتصديرها بمقدمة مقتضبة عن حياة الكاتب.

كما استغنيت عن جانب هام من مقاماته المصرية التي ان أعاد نشرها بتونس بعد تغيير عناوينها وأسماء أبطالها، وأماكن الحوادث، وتعديل في بعض المواقف، وزيادة وحذف فيما تضمنته من أشعار، وكان الأستاذ طاهر أبو فاشا قد سبق إلى نشر هذه المقامات في كتابه (مقامات بيرم) فاكتفيت في الدراسة التي وضعتها عن الكاتب وحياته في تونس بالإشارة إلى أوجه الاختلاف بين هذه المقامات في جدول وضعته لهذا الغرض.

ومما صرفت النظر عنه كذلك بعض المقالات والقصائد التي تناول فيها بيرم بالتجريح الفاحش بعض خصومه من التونسيين، وخاصة الشاعر حسين

الجزيري، والكاتب مصطفى بن شعبان، وقد بدا لي أن الكاتب خرج في هذه الكتابات عن حدود الخصومة واللياقة الأدبية إلى الشتم، والبذاءة التي تنبو عن الذوق، وتأباها الأخلاق.

واستثنيت من هذا الإنتاج جانباً هاماً من الاعلانات التي كان يحررها بيرم، وينشرها في بعض الصحف التي أشرف عليها أو أصدرها للترويج لبعض المنتوجات والدعاية لبعض المحلات التجارية، ورغم أهميتها وطرافتها فإنها كانت بعيدة كل البعد عن الأغراض الفكرية والأدبية، ولم يكن لها من هدف سوى الحصول على المال لتمويل هذه الصحف.

وعدا هذه الكتابات فإن هذا المجلد يضم مختلف إنتاج بيرم الذي نشره في الصحف والمجلات التونسية التي أشرف عليها أو أصدرها أو ساهم في تحريرها كثيراً أو قليلاً وهي على التوالي صحيف: (الزمان) و (السرور) و (الشباب) و (السردوك) و (القلم الحر) ومجلة (الجامعة). وقد قمت بمسح شامل لجميع الصحف والمجلات الصادرة خلال حقبة إقامته بتونس، فتبين لي أن الصحف المشار إليها هي كل ما نشر فيه بيرم إنتاجه وإن اختلف هذا الإنتاج كثرة وقلة من صحيفة إلى أخرى، بحكم علاقة بيرم وعمله في هذه الصحف وصلته بأصحابها.

ففي حين نجد معظم إنتاجه يتركز في جريدة (الزمان) التي كان ترأس تحريرها فترة طويلة من الزمن، وجريدة (الشباب) التي أصدرها بنفسه، نجد بعض إنتاجه الآخر موزّعاً بين (السردوك) التي شارك في تحرير عددين من أعدادها فقط، وجريدة (السرور) التي شارك في كتابة بعض المقامات والمقالات القليلة فيها، في حين لم ينشر في جريدة (القلم الحر) و (الجامعة) إلا عملين أدبيين، صدر أحدهما في مجلة (الجامعة) بعد إبعاده عن تونس ببضعة شهور، وصدر الثاني بعد رحيله عن تونس بنحو السنة.

والمتأمل في هذا الإنتاج الوافر المتعدد الجوانب، والمتنوع الوضوعات يترآى له ما يلي:

1 ــ أن فترة إقامة بيرم في تونس كانت حافلة بالعطاء الفكري والأدبي، وأنه لم يكن يتيح لنفسه فرصة الراحة أو الاستجمام، وقد يكون مرد هذه الوفرة أن الكاتب كان مجبراً على الإنتاج المتواصل، لأنه مورد رزقه الوحيد، وأنه كان يضطر عند عزوف الصحف عن نشر كتاباته، أو استكتابه فيما يأبى الكتابة فيه من موضوعات لا تتماشى وأفكاره إلى تعاطي بعض المهن الأخرى، كقيامه بصنع الحلويات والطواف بها على الباعة لاكتساب القوت، أو العكوف على كتابة الأغاني والأزجال، والمسرحيات، والسيناريوات السينمائية، وإرسالها إلى بعض الفنانين المصريين للحصول منهم على بعض المال الذي كان بحاجة إليه للتغلب على صعوبات العيش.

وفي كل هذه الحالات فقد حتمت الظروف على بيرم أن يكتب طائعاً حيناً، ومكرهاً أحياناً أخرى لأن حياته كانت مرتبطة بهذا الإنتاج، ولأنه احترف الأدب، وارتضاه سبباً من أسباب بلائه وشقائه، وجعله متنفّسه ومخرجه من الأزمات التي كانت تحيط به، ولهذه الظروف يعود الفضل الأكبر في هذا العطاء الوفير، والإنتاج الغزير الذي لم يثر الحياة الفكرية والأدبية في تونس فحسب، ولكنه أغنى الأدب العربي بهذه الصفحات الرائعة.

2 ــ وسوف يلاحظ قارىء هذا المجلد أن بيرم تغلغل منذ الوهلة الأولى لوجوده في تونس في أعمق أعماق هذا الشعب، وتعرف على أخص خصائصه، وشام بحدسه الملهم تطلعاته، ولمس جراحه، وتحسس مواطن عطبه، وتكشف عن أسباب تخلفه وعوامل نكبته، فعمل جاهداً من خلال ما كتب وأنتج على تخفيف هذه المحنة، من خلال ما اتسم به هذا الإنتاج من سخرية، وفكاهة وإضحاك أسهما مساهمة مباشرة في إزاحة الكابوس القابض على النفوس، وإشاعة البسمة، وبث التفاؤل، وشحذ الهمم بكل الوسائل.

في هذا الإنتاج أعمل الكاتب قلمه وأشفى غليل الناس من الاستعمار، بما كتبه عنه من مقالات سياسية جريئة، تناولت بالنقد المباشر وغير المباشر السلطة الاستعمارية، وأعوانها من أجانب وتونسيين، فجعل بذلك الجرأة والاقدام والنضال مبدأ من مبادىء الكتابة، وصفة من صفات الكاتب ورجل الفكر.

كما لم يتوان في هذه الظروف العصيبة عن شد أزر جميع الوطنيين التونسيين، والمجاهرة بموالاته لأهمّ حزب وطني مكافح وهو الحزب الحر الدستوري الجديد، ومدح رجاله والتنويه بخصالهم، وحث الناس بكل الوجوه على الالتحام بصفوفهم، رغم ما كانت تجلبه عليه مثل هذه المواقف، ومن رجل مبعد في مثل وضعه من سخط الاستعمار، ونقمة الطبقة الموالية له.

3 ــ على أن بيرم الذي كرس كل إنتاجه للشعب والدفاع عنه، لم يكن يحجم أو يتهيب في كثير من الأحيان من مواجهة الشعب نفسه، وتوجيه سهام نقده لضروب الانحرافات التي كان يلمسها ويشاهدها في الحياة العامة للناس، وكان يعدها من أهم العوامل التي أفقدت الشعب قدراته وسلبته إرادته، وشلت عزيمته، وحجبت عنه الحقائق الكامنة. فكان ذلك من أهم الدوافع التي جعلته يهتم بالصغائر والكبار، ويتناول بالتشريح والتحليل سلوك الناس وأهوائهم، ويجرد قلمه لزعزعة سباتهم وهز ركودهم، وتحريضهم على التبصر بواقعهم، والثورة على نفوسهم، والتمرد على الاستعمار الذي كان سبب بلائهم.

ومن خلال هذا الإنتاج يمكن للقارىء الآن الاطلال بوضوح على مختلف ما كان يسود فترة الثلاثينات من أوضاع سياسية واجتماعية، وأدبية، واقتصادية، وما كانت تزخر به تونس من مشاهد يومية، حيث لم يغادر الكاتب كبيرة أو صغيرة إلا أحصاها.

فمثلما كتب عن الزعماء والأبطال والفنانين والممثلين، ورجال الدين، وتعرض للمجتمعات والعائلات، وصف لنا وصفاً دقيقاً حارات تونس وأحياءها وطرقاتها، ومغازاتها، وحرف الناس وصنائعهم وتجارتهم، بما في ذلك مواخيرها وبؤرها، وإشارات المرور، وحراس الليل، وكناس الشوارع.

ويكفي القارىء أن يغمض عينيه، ويسرح بخياله في جميع هذه المشاهد، فيستحضر كل ما فاته بدقة وتفصيل كما لو أن الأشياء لم تبرح مكانها، وأن الزمن توقف عن الدوران.

4 ــ وأخيراً فإن متأمل هذا الإنتاج سوف يترآى له أنه كان من

الضروري والمحتم جمع هذا التراث الهام، لا لأن الصحف التي طوته قد أخذت في البِلى والتآكل فقط، ولا لأنه بعض الوفاء للرجل الذي قدم لتونس وللعروبة أجلَّ التضحيات، وكرس جزءاً من حياته لمشاركة شعبها كفاحه وآلامه وأحزانه فحسب، ولكن بالإضافة إلى هذا وذاك فإن هذه الصفحات سوف تحمل على إعادة النظر في جميع ما كتب عن بيرم، وسوف تتيح للدارسين مراجعة دراساتهم في ضوء هذه الوثائق الهامة.

د. محمد صالح الجابري



مقــالاتــه السيــاسيّــة



من (الشباب)(*) إلى الشباب

وبعد فاضحك أيها الشباب. لأن كل شيء حولك يسير على ما يرام.

بلادك تجود للعالم بأكبر محصول من الزيت المبارك. وتخرج أجود أنواع التمر الشهي، ومقادير هائلة من القمح الممتاز. وفيها مناجم غنية بالفوسفاط والرصاص والبترول، ولكن آباءك وأعمامك هؤلاء يضعون أيديهم على خدودهم ويقولون والدموع تنهمر من أعينهم: «الله غالب. بلادنا فقيرة، معدمة، مجدبة، بائسة» وهم صادقون...

فهذه المباني الشاهقة المؤلفة من عشر طبقات، والآخذة في الزيادة والامتداد، وهذه الفيلات الضخمة المحاطة بالحدائق، وهذه السيارات الخصوصية التي تبلغ عشرات الألوف... كل هذا جلبه الافرنج في حقائبهم من الخارج ووضعوه فوق أرض تونس...

ولك أيها الشباب مجلس نيابي يجعل بلادك مساوية للبلاد البرلمانية من انكلترا إلى موناكو. يمثّلك في هذا المجلس نواب توفرت فيهم كل المزايا اللازمة للنواب الأكفاء كالجهل بالقراءة والكتابة، والتجرد من الوطنية الصادقة والكاذبة، والاستهانة بتونس ومن عليها. وقد قاموا لك بواجبهم النيابي على أكمل وجه فاستطاعوا تأجيل ما عليهم من الديون، وزوجوا بناتهم «وطهّروا»[1] أولادهم وعلقوا النياشين وتشرّفوا بمعرفة كبار الموظفين.

(*) افتتاحية العدد الأول من جريدة (الشباب) التي كان أصدرها محمود بيرم بتونس يوم 29 اكتوبر 1936 واستمرت إلى غاية شهر مارس 1937.

(1) ختنوا أولادهم.

وحولك أيها الشباب متاجر ومخازن ودكاكين. كلها قائمة على أساس متين ونظام حسن، فالقاراج[1] اليوم يتحول غداً إلى اصطبل أو صالة غناء. ودكان الحجّام[2] أو العطار[3] يتحول إلى فطايري[4] أو خضار أو مكتب «عـدل». وبسبب هذا التقدم المطرد والحركة الدائبة اكتسبت تونس ثقة البيوت المالية مثل «الكريدي اليوني» و«الكونتوار ناسيونال» و«بنك فرنسا».

ولك نقابات وجمعيات يدخل فيها من يشاء من النصابين الأشراف، والجواسيس المخلصين، والعاطلين العباقرة، وتتمتع هذه الهيئات بنعمة الخلاف والتناحر والانشقاق لتصل بتونس إلى أوج المجد والعز كسائر الأمم التي تعيش تحت الشمس.

هذا هو محيطك الذي تعيش فيه أيها الشباب. فاضحك إذا شئت ساخراً منه، مودّعاً له أقبح توديع. أو اضحك إذا شئت مبتهجاً بمستقبلك السعيد الذي هو أمامك والذي هو لك وحدك.

اضحك على كل حال.

جريدة (الشباب) 29 اكتوبر 1936

---

(1) المرآب.

(2) الحلاق.

(3) بائع المواد الغذائية.

(4) بائع الفطائر.

البـــرلمـــان التونسي

في المنام:

«رأيت نفسي في ضاحية تشبه ضاحية «باردو»[1] مطرزة بالحدائق اليانعة كأنه فصل الربيع في وسط الضاحية قصر ضخم قامت على واجهته أعمدة شاهقة في أعلاها «عصابة»[2] عريضة بديعة النقش وفي وسطها مكتوب:

(البرلمـان التـونسـي)

تلك العصابة تحمل العلم التونسي علامة على أن جلسة البرلمان منعقدة.

ولم أنس في عالم الرؤيا أنني صحفي يحق لي الدخول في كل مكان، فتقدمت إلى باب البرلمان فوجدت عليه شاوشين[3] برتبة «برقادي»[4] عليهما ملابس مزركشة بالذهب وقد أدركت أنني أعرفهما في عالم اليقظة.

فأحدهما السيد محمد شنيق، والثاني السيد الطاهر بن عمار.

ولما أظهرت لهما بطاقتي الصحفية أديا لي التحية بالانحناء فدخلت وبكل سهولة عرفت «اللوج» المخصص للصحفيين، فجلست فيه بجانب زملاء أعرف بعضهم وأجهل الآخر.

---

(1) ضاحية (باردو) هي إحدى ضواحي العاصمة التونسية حيث يوجد حالياً (مجلس النواب) وتعدّ هذه المنامة إحدى الرؤى العجيبة للشاعر، الذي كان تكهن بموقع البرلمان التونسي، في حين كان مقر (المجلس الكبير) في الثلاثينات بشارع باريس.

(2) لافتة.

(3) حاجبين، فراشين كما يقال في الشرق.

(4) ضابط شرطة.

انبهرت ممَّا أرى:

أعضاء يزيد عددهم عن المائة فيهم الساحلي[1]، والجريدي[2]، والبدوي، والبلدي[3]، والعصري. وكلهم على اختلاف أشكالهم يكسوهم البهاء، تشرق وجوههم بأنوار الصلاح والإخلاص. وليس بينهم واحد من أعضاء (المجلس الكبير) ذلك القائم في شارع باريس.

منصة فخمة يجلس فيها رئيس البرلمان وهو الوزير «خيرالدين»[4] بلحيته الوقورة وبجانبه وكيل البرلمان ولم أتبين صورته تماماً.

تقابلها منصة أخرى أعرض منها وأرفع فيها الوزراء السبعة، وقد جلس بينهم رئيسهم الدكتور محمود الماطري. أما الوزراء فكانوا:

وزير الحقانية الحبيب بورقيبة

وزير المعارف البحري قيقة

وزير الداخلية شخص لا أعرفه

وزير الخارجية والحربية الطاهر صفر

وزير الصحة الدكتور حجوج

وزير الأشغال صالح بن يوسف[5]

وكان الأعضاء وقتئذ يوجهون إلى الوزراء الأسئلة البرلمانية عن الأمور التي تختص بوزارة كل منهم.

وقف نائب الكاف[6] ووجه إلى وزير الخارجية السؤال الآتي:

---

(1) نسبة إلى الساحل التونسي.

(2) نسبة إلى منطقة الجريد بالجنوب التونسي.

(3) من سكان العاصمة.

(4) هو المصلح خيرالدين باشا التونسي الذي تولى الوزارة في أواخر القرن التاسع عشر وعرف بنظريته الإصلاحية المدرجة في كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك).

(5) أسماء بعض زعماء الحزب الحر الدستوري الجديد آنذاك، وقد تولى معظمهم مناصب وزارية بعد استقلال تونس في سنة 1956.

(6) إحدى مناطق الشمال الغربي بتونس.

ـــ «اطلعت في جريدة التيمس» على قرار الحكومة الانقليزية بزيادة الأداء القمرقي على الدقلة [1] التونسية باعتبارها من الكماليات».

«كما اطلعت على مقال في جريدة انقليزية أخرى يشنع فيه كاتبه بثمن الدقلة ويصفها بأنها طعام ميكروبي قذر».

والواقع أن في انقلترا تدبيرات خاصة لمقاومة المحصولات التونسية بأية حجة؟

أليس من الواجب أن نقابل هذه المقاومة بمثلها ونرفع الأداءات على الواردات الانقليزية كالويسكي مثلاً؟

وهل اهتمت الحكومة بهذه المشكلة وإذا وقع ذلك فما هي التدابير التي اتخذتها؟.

فأجاب الوزير:

ـــ أشكر للعضو المحترم غيرته في اهتمامه وأطمئنه بأن سفير تونس في انقلترا اهتم بالأمر، وراجع الدوائر الرسمية المختصة في لندن، وحصل منها على وعد بإلغاء القرار المذكور. كما أن مكتب الدعاية للمحصولات التونسية هناك سيعمل على محو الدعاية السيئة التي تنشرها الصحف ضد حاصلاتنا.

فجلس نائب الكاف شاكراً، وقام نائب البرج «دي بوف»[2] ووجه إلى وزير الحربية السؤال الآتي:

ـــ «طلبتم زيادة الاعتماد المختص لوزاراتكم نصف مليار من الفرنكات وقد فهمنا من البيان الذي ألقاه المقرر بالجلسة الماضية، أن معظم هذا الاعتماد ذهب لاصلاح ميناء بنزرت التي غنيت بموقعها وطبيعتها عن كل إصلاح».

«وقد علمتم بلا شك من التقرير الذي رفعه إليكم القائد العام للجيش التونسي على أثر زيارته لمطار البرج دي بوف، أن هذا المطار في حالة سيئة لا تليق بكرامة الدولة التونسية».

---

(1) أحود أنواع التمور التونسية.

(2) أحد المنافي بالجنوب التونسي كان نفي إليها زعماء الحزب الدستوري سنة 1934

وقام وزير الحربية وقال في شيء من الحدة:

– لا نسمح بعرض المسائل الحربية للمناقشة في البرلمان لأنها فنية أكثر منها سياسية.

وهنا قام الوزير خيرالدين الرئيس وخاطب ذلك الوزير:

– هذا المجلس الذي يملك جميع السلطات لا يسمح للقوة التنفيذية (أي للحكومة) بالانفراد بأي عمل قبل أن يطلع عليه.

فأجابه الماطري رئيس الوزراء:

– أقترح تأليف لجنة برلمانية وأخرى من الحكومة لنفحص المسألة في غير الجلسات.

ولكن العضو البنزرتي بقي واقفاً مصراً على إلقاء سؤاله، وتلقي جواب وزير الحربية عنه، وارتفعت في أنحاء المجلس أصوات مختلفة اضطرت الرئيس لقرع الناقوس عدة مرات فسكتت الضجة، فأبصرت رجلاً مكشوف الرأس يجلس وحده على منصة خاصة لم أكن رأيته من قبل، تبينت هذا الرجل فإذا هو كثير الشبه بالموسيو قيون [1] ممثل فرنسا، وقد ألقى في روعي أننا ارتبطنا مع فرنسا برباط وثيق من المحبة والوداد، وأن ممثلها يخص برلماننا بصفته ممثل الدولة الأقرب إلينا من غيرها والتي تربطنا بها علائق دامت أكثر من نصف قرن، ولا يحضر برلماننا إلا ليسدي مما عنده من النصح الذي يعود علينا وعلى دولته بالصلاح، قال هذا الرجل في أدب جم:

– لا أريد إبداء أي ملاحظة في هذا الموضوع، ولكن أؤيد وزير الحربية في العناية بميناء بنزرت الذي لا يزال يأوي إليه قسم كبير من الأسطول الفرنسي في ضيافة صديقه الأسطول التونسي، فإن هذا الميناء رغماً من مناعته الطبيعية لا يستغني عن المعدات الحديثة التي يوجبها التطور المطرد في التسليح.

وأرى أن دولة رئيس الوزارة عرض عليكم باللجنة التي اقترحها الحل الموفق.

---

(1) المقيم العام الفرنسي آنذاك على تونس وهو أرمان قيون.

وقامت في المجلس ضجة أخرى لم أفهم تفاصيلها، ولكنها انتهت بقبول الرأي الذي اقترحه دولة الماطري، ووافق عليه فخامة مندوب فرانسا.

كنت أشعر بأني في منام رغم ما أرى وأسمع، وكنت أود أن يطول أجل الرؤيا مدى الحياة وإن كانت لا تستغرق في عالم الأعلام جزءاً من مليون من الثانية.

إلاَّ أن «بائع الفطاير» الذي يمر في الساعة السادسة صباحاً قطع علي المنامة بصوته الذي يَرن.

جريدة (الشباب) 6 نوفمبر 1936

مجلس السواقر والسيقار والقهوة والشاي و«الابيريتيف»

الصحف الأسبوعية الحقيرة كالشباب مثلاً لا يسمح لها بدخول حظيرة (المجلس الكبير)، لسماع مناقشات نوابنا الكرام.

ويكتفي المجلس من ممثلي الصحافة العربية بممثل أمنا (الزهرة) وخالتنا (النهضة)[1]. لكن الصحفي العاقل لا يأسف على حرمانه من حضور مناقشات هذا المجلس التي ليس فيها غير جعجعة، وصرصعة، وبعبعة، تدور كلها حول مواضيع مقررة، ومشروعات مدبرة، وقوانين مسطرة، ثم تنتهي بتنفيذ إرادة أولي الأمر والنهي.

أما الفائدة الوحيدة في هذا المجلس فهي في الفرجة على «البوفية»[2] الذي يستريح فيه الأعضاء ويستقبلون زوارهم.

في هذه الفرجة من اللذة والمتعة والفوائد ما لا يوجد في حظيرة المناقشة المقفلة الأبواب، فلا تكاد الجلسة تنتهي حتى يهرع الأعضاء إلى احتلال مقعد في هذا «البوفية»، والالتفاف حول مائدته الطويلة التي يغطيها «القرصون»[3] في كل دورة برلمانية بالأغطية المشهبة، ويصفف فوقها الأكواب البراقة، والفناجيل النظيفة، وتوجد في «البوفية» صحون فيها سواقر من ثلاثة أنواع: «بدل» و«أرقي» و«تونسيان» ذات العلم الأحمر، وصحون أخرى فيها كميات وافرة من السيقار الفخم الذي يبلغ طول الواحد منها 15 سنتمتراً.

---

(1) (الزهرة) و (النهضة) صحيفتان كانتا تصدران بتونس حلال تلك الفترة.

(2) مقصف المشروبات.

(3) النادل.

وزجاجات من أنواع «الابيريتيف» المختلفة الألوان موجودة أيضاً لمن يشتهي.

كل ذلك أيها القارىء يعطي للنواب مجاناً.

قف وتفرج:

عضو يبتسم للقرصون كما يبتسم العريس للعروسة، ويتلطف معه في القول والإشارة وهو العضو المؤدب.

وعضو يفهم جيداً أنه جالس على مقعد (المجلس الكبير) بإرادة الأمة التي هي مصدر السلطات، وأن هذه الخيرات التي على المائدة من مال الأمة، وأن هذا «القرصون» خادم الأمة، فلا يبتسم له ولا يتلطف بل يطلب منه ما يريد لنفسه ولزواره بلهجة السيد الآمر وهو العضو «الزوافري»[1].

وعضو يستعمل دهاء عزرائيلي ليحصل على عشرين أو ثلاثين سيقاراً أكحل[2] دون أن يتفطن إليه «القرصون» أو غيره.

وأبين كيف فعل ذلك:

أبصر صحن السيقار على «الكونتوار» فجذب منه واحدة ووضعها في فمه، لم نذكر أن بجانبه أصدقاء ومعارف، فقبض على كمشة ليوزعها عليهم فمنهم من تناول السيقار، ومنهم من رفض فوضع آخر ما بقي في جيبه، وتناول سيقاراً آخر من الصحن وأدناه من فمه ليشعله وكأن قد نسي أن في فمه سيقاراً من قبل، فوضع الجديد في جيب معطفه وأشعل القديم.

ولاحظ أحد الخدم يحمل طبقاً آخر من هذه السواقر ويخرج به إلى الصالة، فانسحب من موقفه بخفة بعد أن قال لمن معه:

ــ دقيقة بالله.

وذهب فسبق الخادم الذي يحمل الصحن ثم عاد فاستقبله بالوجه، ونظر إلى الصحن نظرة جديدة وأعاد العملية.

---

(1) الذي لا خلاق له.

(2) أسود

هذا العضو يلبس كسوة «سموكنج».

أما «كيَّافة» القهوة من نوابنا فأحدهم يكرع منها، ويملأ بطنه بالاحتياطي للدورة البرلمانية المقبلة.

ويؤخذ «الابيريتيف» في السر. فإذا قام أحد النواب من الجلسة و(لعذر شرعي)، فالمعنى أنه ذاهب إلى «البوفيه» ليخبط ثلاثة «كاب كورس» أو «فيرموت»[1] في غفلة عن العيون «والبوفية» فارغ ثم يعود إلى الجلسة سخي القلب والجنان وينطلق لسانه في المناقشة والخطابة.

ومن مثل هذا النائب ينتفع «القرصون» «بالبوربوار»[2] الطيب.

وتعال نتفرج على نوابنا عند خروجهم إلى الشارع.

فالسيقار الطويل المطرطر في فم كل منهم لأنه أفخم آثار (المجلس الكبير)، ويخرج أحدهم محرمته فيسقط معها السيقارة البيضاء التي لا يدري كيف دسها في جيبه، فيتجافى عن التقاطها من الأرض ويتركها بعد أن ينبه إليها أحد الفقراء.

وتظل الهدايا المنوبة من بوفيه (المجلس الكبير) مع الأعضاء مدة أسبوع على الأقل، يوزعونها على الأصدقاء والناخبين كما كان يفعل الغزاة عندما يعودون بالأسلاب والغنائم من الجهاد في سبيل الله.

جريدة (الشباب) 6 نوفمبر 1936

(1) نوعان من أنواع الكحول.

(2) البقشيش.

خطبـــة الســـردوك

الحمـد لله الـذي خلقنـا آدميين   فجعلْنـا أنفسنا بهـائم متنـافـرة
وأنزل لنا كتبه على ألسنة النبيين   فـانطلقنا بعدهـا وحوشـاً كـاسـره
والصلاة والسلام على محمد رسول الله   مـصـلح الـبـشـر
الـذي تـركنـا شـرعـه ونسينـاه   فصـرنـا مـع البقـر
أما بعد فإن الحق في كلِّ زمان   كـوجـودِ الله واجب
لا تطفئه النيران، ولا يخبئه المظلمان   «القائد» و«المراقب»[1]
وهذا زمان فيـه الفقر أكبـر العار   حـقـيـقـة ظـاهـره
ولا يصلح فيـه الفقيـر إلا للنـار   في الـدنيـا والآخـره
فمن اكتفى في الدنيا ببلْغة وهدمة   وقـطعـة من عجـين
عـاش كذابـاً قلّابـاً خرب الـذمة   وحشر مع المجـرمين
والشعب التونسي لا يرضى بهذه الغبينة   التي صيَّرته من الأوباش
ولو وظفوا منه عامل الأحواز وشيخ المدينة   والمترجمين و«الشواش»
وقد صرح (م قيون) مسَّاه الله بالخير   وكـافـاه المحسنـات
أن الإدارة التونسية سبب كل ضير   ومـصـدر السـيئـات

جريدة (السردوك) 7 أفريل 1937

---

(1) خطتان إداريتان يشغلها تونسي هو (القايد) وفرنسي هو (المراقب) وهو الذي يشغل الخطة الأعلى، ومهمتها إنابة السلطة في النواحي.

تــونس القــديمــة

مما لا يسر ولا يفرح أن يتبدل كل شيء في تونس من حسن إلى أحسن إلا هذا الشيء السمى «بالقياد»[1] فإنه باقٍ على حاله من زمن الفتح. فأمامك العامل الذي كان يرسل مثله الأمير حاكماً مطلقاً يختاره كيف شاء، وهناك من حوله أعوانه وكواهيه الذين اختارهم بدوره من طينته، وعلى شاكلته، يتصرفون في الحكم ولا معقب، ويقضون كما يشتهون بلا مراجع. وقد علَّمنا التاريخ ولا يزال يعلمنا الزمن الحاضر أن الإدارة المؤسسة على هذا الشكل لا تثمر خيراً. ومعروف أن «القياد» والعمال لا تقع سلطتهم إلا على رؤوس التونسيين وحدهم، وترك الحرية لهم معناه قلة الاهتمام بما عسى أن يبدر منهم من تصرفات تعتبر شاذة في العصر الحالي عصر الدواوين والقوانين والنظام.

ولسنا في حاجة لشرح ما يجري من الفساد، ولكن نقول من قريب إن تولية الوظائف في أعمال «الإيالة»[2] وسيلةٌ للثراء العاجل، ورزق وفير يتهافت عليه الشطار الناشطون من كل طبقة، والحكومة والأهالي بعد ذلك على علم تام بالتفاصيل التي يؤسف لها. يراد من هذا الشعب أن يكون هادئاً مطيعاً وهو كذلك، ولكن من حقه أن تعنى الحكومة بالإدارات التي تخصه وتنظمها، كما نظمت المؤسسات التي تخص العناصر الأخرى.

(1) هي الخطة التي تماثل خطة الوالي أو المحافظ الآن، ولكن القائمين عليها لا يتقاضون رواتب الحكومة، وإنما تكون مرتباتهم من الشعب ممّا يجبون من الضرائب، وما يفرضون عليه من الاتاوات، مما يُشجع على الجور والتنكيل بالناس.

(2) الاسم الذي كان يطلق على تونس.

نعد على أصابعنا عدداً قليلاً من هؤلاء «القياد» حمد الشعب سيرتهم، ويتمنى كل عمل في الإيالة أن يتولاه واحد منهم، ثم نرى بعد ذلك نماذج لا يوجد لها نظير إلا في بطون التاريخ. لقد آن الوقت لتنظيم هذا الفرع من السلطة الحكومية على أحد الأنماط الحديثة، ونعلم أنه عمل يكلف الميزانية نفقات كبرى، ولكن فائدته أكبر من كل نفقة، إذ يوجد العمل لمئات الأكفاء العاطلين بشهاداتهم العليا ويوفر على جيوب الناس ما يدفعون من أموال زائدة وهدايا متنوعة فوق ما يدفعون من ضرائب مقررة مشروعة.

وموسيو (قيون) الذي رأى جرأة أسلافه في تنظيم الإدارات، وقلب اختصاصات الدواوين رأساً على عقب، لا تعوزه جرأة من هذه في قلب هذا النظام الأثري العتيق الذي لا يشعر بثقله إلا أقوام دون أقوام.

قد يقول البعض إن هذا النظام الحالي بعد التجربة والبراهين من خير ما يصلح للعرب، وعليه اعتادوا، وله انقادوا، وقد تجد هذه الأقوال من رجال السياسة العليا أذناً صاغية إلا أن المنطق ينقض هذا الزعم، فسكان السواحل والآفاق مطالبون اليوم بفهم القوانين، وبقراءة الرائد الرسمي، والإحاطة بكل ما تحدثه الدولة من النظم والخضوع لها، والاندماج فيها فلم يعتبرون من سكان هذا العصر في الأمور المتعلقة بالدولة، ويعتبرون من سكان القرون المظلمة فيما يتعلق بمصالحهم؟!.

جريدة (الزمان) 26 ماي 1936

حطوا الكلب في الحبس

تحترق قلوب «القياد» و«العمال» غيظاً على الحكومة التي عزمت على تجريدهم في هذا العام من السلطة العدلية، أي سلطة الحكم على أي شخص بالسجن إلى خمسة عشر يوماً.

ولكنهم مع هذا الغيظ والخوف، لم ينقطعوا عن الانتفاع بسلطتهم كالعادة. فما كادوا يستلمون مقادير القمح التي سلفتها الحكومة لفقراء الزراع حتى أعطوها للقادرين على دفع عشرين أو ثلاثين فرنكاً للشكارة الواحدة، وصرفوها عن العاجز التعيس.

بل قد بلغت حركة البيع في هذا العام مبلغاً لم يعرف في أي عام آخر، واشتط بعض «القياد» في الثمن، وزاولوا عملية البيع على المشكوف فاضطرت الحكومة لإيقاف بعضهم والتحقيق معهم.

ولا شك أن هذا التحقيق سيكون الضربة الأولى من عملية التنظيف التي تنويها الحكومة.

أباحت الحكومة للقائد أن يصد أمره المشهور: (احبسوا الكلب).

والكلب هنا هو الذي يماطل في دفع الأداء الرسمي.

ولكن «القائد» توسع في إصدار الأمر بحبس «الكلاب» في مسائل تخصه وحده حتى أنكر الناس أنهم يعيشون في القرن العشرين.

وإذا كانت الحكومة ترى أن تغيير نظام «القياد» يكفي لرفع المصائب عن

الناس، فنحن نرى أن التغيير يجب أن يتناول أشخاص القياد أيضاً لأن الأشخاص منبع الشر وهم الذين يُسيئون استعمال النظم والقوانين.

ونرى من المضحك في عصرنا هذا أن الشبان الذين يحملون الشهادات العليا كالحقوق وغيرها لا يجدون الوظائف الكتابية الصغيرة. ووظيفة «القائد» المعدودة من أكبر مناصب الدولة يتولاها من يكاد يجهل القراءة والكتابة، أو من ليس له من أدوات الرئاسة غير كبر البطن وخشونة الصوت.

إن أسوأ ما يروى عن هؤلاء «القياد» أن رجلاً منهم شريفاً ـ ولكل قاعدة شواذ ـ إذا ولي العمل واحتاج إلى الكتاب والموظفين لا يجد من يتقدم إليه ويقبل العمل معه لعلمهم بقلة الدخل والربح في ظل الرجل الشريف.

فإلى دياركم أيها القياد، أو إلى المقاهي، أو إلى حيث...

جريدة (الشباب) 1 جانفي 1937

نحن لا نعيش في القرون الوسطى
العمال. . الخلفاء. . المشايخ

هذه الوظائف الثلاث منحصرة في الوطنيين التونسيين، يتولونها في أقاليم المملكة، والذي يتأمل أحوال بعض هؤلاء الموظفين مع الشعب يخيل إليه أنه يقرأ صحيفة تاريخية عن العصور البائدة.

كثير من العمال يعين في منصبه بلا مرتب، ومرتبه هو الجُعَل الذي يتناوله مما يحصله من أموال الدولة. كذلك خلفاؤه ومشائخه يعملون بنفس الأجرة. . . وللعامل بجانب هذا سلطة لا يقبض عليها اليوم موظف في أي حكومة، إذ يستطيع أن يضع في السجن من يشاء مدة عشرين يوماً بلا محاكمة، وله أن يفرض على الناس الغرامات حسبما تقتضي الظروف. وقد يبدو أن هذه السلطة تساعد العامل وأعوانه على القيام بالمهمة الحكومية في شعب أمي عصي القيادة. ولكننا لا نرى ما يضمن سيرها ني سبيل العدالة، فهي تكاد تكون سلطة مطلقة لا تخشى أي رقابة أو مراجعة.

أول ريبة يقف الإنسان أمامها، هي أنَّ هذه الوظائف التي لا مرتب لها كانت منذ القدم مطمح أنظار النهمين إلى المجد، والثروة العاجلة، يبذلون الغالي والنفيس في الحصول عليها. والخليفة الذي يحصل على وظيفة مرتبها 300 فرنكاً في العام يعد نفسه غانماً. فما معنى هذا كله؟.

روى أحد العمال المجمع على نزاهتهم أن طلاب وظائف الخلافة والمشيخة لا يطرقون بابه على كثرتهم ونشاطهم في السعي. وقد يحتاج إلى أحدهم فلا يجده بسهولة ذلك لأنهم لا يجدون في ظله حريتهم في العمل. . .

وإزاء هذا يذهب الظن بالإنسان في كل واد، والحقائق التي تروى في كل

مكان تتلخص في أن مصالح الناس في الأقاليم معقدة في أيدي هؤلاء الموظفين، وكل عقدة لا تحل إلا بمفتاح خاص.

ومثل هذا النظام في طبيعته يجلب مفاسد لا تحصى عدداً ولا توصف بشاعة. أقلها أن البريء لا يأمن على نفسه من السجن بدسيسة يدبرها له أعداؤه وما أكثر العداوات والإحَن في صدور عباد الله المسلمين وأمس الدابر وضع عامل (المنستير) أعيان تلك الجهة ورجالاتها في السجن، بعد أن أنزل بالمدينة كارثة جرت فيها الدماء ولولا أن ذهب مقيم قديم جديد أطلق سراحهم، وطرد العامل لكانوا إلى الآن موضع المساومة والمفاوضة لإخراجهم من السجن.

إلى هذه الساعة يرتع ساداتنا هؤلاء في ربيع دائم، يتخمون منه ويبشمون، ولا يحسبون حساباً لأي عدل يأتي من السماء أو الأرض. وأصبحوا لا يبالون بما يقال فيهم ويروى عنهم، بل هم يفخرون به ويعتبرونه قوة لهم تزيدهم رهبة عند الناس وقرباً من الرؤساء.

لقد اقتربت ساعة الغربلة والتطهير، وجناب المقيم اليوم في طريقه إليهم لينبش دفائنهم، ويريح الناس من بلائهم.

جريدة (الزمان) 10 أكتوبر 1933

تونس تحتـــل اسبانيا

لما سقطت مدينة طليطلة وجه أحد الشعراء إلى الشعب الأندلسي هذا النداء:

شدُّوا رحالكم يا أهل أندلسٍ   فما المقام بها إلا من الغلط

وبالفعل أخذ الأهلون يحزمون ما قدروا عليه من الأمتعة كما يفعل جماعة «الخلايعية»[1]، ويغادرون بيوتهم هاربين إلى شواطىء أفريقيا الشمالية فقراء أذلاء إلى هذه الساعة.

مضت ست قرون وبيوتنا العربية ذات الشرفات والنوافذ المشبكة تضج من سكانها الجدد ذوي البنطلونات والقبعات الواسعة، وبعد أن كان يرن بين جدرانها توشيح:

الـعـــود   تــرنّــم   بــأحـسـن تـلحيـنّ
وسـقـت   الــمـيـــازب   ريـــاضَ الـبسـاتـيـن

أصبحت تتصدع بصخب القيثارة وعربدة مصارعي الثيران. وأطلت من سقوفها الكتابة العربية تقول:

لا غالب إلا الله.. لا غالب إلا الله

اليوم يدور الزمن ويفنى جيراننا «الأعزاء» عليها، وقد بلغ عدد القتلى

(1) رواد الشواطىء.

من الذكور الشبان إلى هذه اللحظة ثمانين ألفاً أو يزيدون. أعني أن عدد النساء اللائي يحتجن إلى الرجال زاد بقدر هذا العدد.

وقد قيل لنا أن الأمة الاسبانية حنّت أخيراً إلى أصلها العربي، وألفت جمعيات تعمل على إعادة العلائق بينها وبين أبناء عمها، وأخذت تدرس اللغة العربية، وتطبع مؤلفات أجدادنا المحفوظة عندها، فبارك الله في هذه الهمة وجزى أقاربنا خير الجزاء.

ولكننا نريد نتيجة عملية.

يجب أن نستعد من الآن للرجوع إلى ديارنا، والتأهل ببنات عمنا على قاعدة الأقربون أولى بالمعروف.

لتستعد من الآن (الجمعية الرشيدية) لإحياء حفلة الافتتاح في قصر الحمراء.

وليستعد أمير شعرائنا الشاذلي خزنه دار[1] لنظم قصيدة يلقيها حيث كان يقف بن خفاجة الأندلسي وابن هانىء.

ولنحمل معنا ما عون «الكسكسي»[2] وطائفة من إخواننا الذين اختصوا بتقطير «البوخة»[3] وعمل «الصـلاط»[4] المشوية ليتم الأنس والسرور، ويذهب منا وفد يرتاد البلاد، ويمهد لنا الطريق قبل أن يسبقنا إخواننا الجزائريون أو المراكشيون وهم مثلنا يدعون ميراث الأندلس.

جريدة (السرور) 6 سبتمبر 1936

(1) أشهر شاعر تونسي في الثلاثينات.

(2) أكلة شهيرة بشمال أفريقيا.

(3) مقطرات كحولية.

(4) سلاطة الفلفل.

جريمــة (المتلــوي)

الزنجي في سوق الأشغال التونسية يعتبر أعلا قدراً وأغلا ثمناً من أخيه العربي.

والذي يعلي قدره ويغلي ثمنه هي قناعته بكسرة من الخبز وجهله بالنقابات وقوانين العمال.

وترخص قيمة العربي لأنه يحاول شراء ثوب نظيف يكسو به بدنه، ويحاول تعليم أولاده ومداواة أمراضهم.

هذه المحاولات يكرهها الرأسماليون وينقمون عليه من أجلها، لأنه إذا اكتسى وتعلّم وصحَّ بدنه فقدوا الحجج التي يصطادونه بها، ولا يجدون من يقولون له اذهب أيها القذر المُعدي، وابعد أيها الجهول المتوحش.

ولهذا قامت ثائرة حكومة المناجم في (الملتوي)[1] عندما رأت العامل العربي يقلد الباريسي ويحتل مكان العمل حتى ينال حقه المشروع بقوة القانون.

وأرادت أن تثبت لعمالها أنها ليست بشركة تجارية تجمع الثروة، بل إنها حكومة لها قيود وأغلال ولها «مكاحل»[2] ورصاص، وسجون.

فبضعة عشر فقيراً يفارقون الحياة، ويبيتون مجندلين بالرصاص، وتغرب الشمس وأطفالهم بلا عشاء.

---

(1) تقع بلدة المتلوي بالجنوب الغربي للجمهورية التونسية، وهي من أهم مناجم الفوسفاط وأقدمها.

(2) البنادق.

وحكومة «الملتوي» تعلم بأن الكارثة عظمى. ولكنها لا تعجز عن التبرّإ من تبعتها بأي عذر يحضرها.

فأحد القتلى من العمال ــ كما تقول تلك الحكومة ــ أشهر مسدسه وأطلقه على الجندي فاستدارت الرصاصة ودخلت صدره، بل إلى ظهره.

والثاني سقط على الأرض وهو يجري فانكب على وجهه فدخل في بطنه الخنجر الذي كان يحمله للاعتداء وخرج من ظهره.

والثالث ضرب رأس نفسه بالعصا فشدخها وخرج منها «يافوخه» ليأخذ تعويضاً قانونياً من الشركة المسكينة.

والرابع قيد يديه بالأغلال ووضع نفسه في السجن وأغلقه وأعطانا المفاتيح ليتهمنا بمصادرة الحريات...

وليس لأحد أن يطالب حكومة المتلوي بأعذار أوجه من كلّ هذه، ولو كانت الحكومة الفرنسية نفسها لأنها على أية حال حكومة، والحكومات لا تكذب. ولأن العمال على أية حال عرب، والعربي كذاب متهور كما هو المعروف.

ومن المؤكد أن العربي يكون كيّساً لطيفاً متمدناً لو كان يشتغل 12 ساعة في اليوم بفرنكين لا غير.

جريدة (الشباب) 12 مارس 1937

بين اللين والشدة تظهر الحقائق

في سوسة ألقى المقيم العام كلمة يحسن بنا أن نقف معه تحت ضوئها، ونتفاهم.

قال جنابه: «إن الأمة الإسلامية بهذا البلد، أظهرت من تلقاء نفسها يوم حلولي بهذا القطر رغبتها في رفع الالتباس الذي ربما نشأ عن حوادث لا أريد أن أرى فيها ما يدل بالنسبة لدار الحماية على وجود أوهام لا مبرر لها.

وقد أثلج صدري هذا الاستقبال، وعن طيب نفس أضع ثقتي في هذه الأمة، وأنا على يقين من أنها ستمدني بإعانتها بدون قيد ولا احتراز.

والبرنامج الذي اتخذته لنفسي خصصت النصيب الأوفر منه للفلاحين الذين يكدون ويتألمون من الأزمة الحالية. وسأذهب أكثر ما يمكن لأراهم بنفسي بجهاتهم وأبحث عن حاجياتهم ومرغوباتهم. ويقدمون إلي مثلما أذهب إليهم بكل ثقة. ولكنني لا أبقي أدنى مكان للمشوهين، وإذا حدث ما ينبئني بعدم رجوع الرشد والعقل إلى مقرهما فإني أصرح بالرجوع عما لي من الحِلم، ولا أتأخر عن تطبيق العقوبات التي لا آسف على استعمالها لأن الحكومة تكون إذذاك متحققة من أنها بذلت ما في وسعها من الرأفة واللين».

ومن هذه الكلمة يتضح أن جنابه يرى في هذا البلد خيراً وشراً، وهو يريد تنمية الخير والثواب عليه. ومحو الشر والعقاب عليه. فالخير أنه استروح من هذه الأمة الوداعة والمسالة واستبشر بتحقيق تفاؤله، وما كان يتوقعه منها من إظهار عواطفها الطيبة. وقد أبى إلا أن يباشر كل شيء بنفسه، فهو اليوم يطوف الأقاليم ويذهب إلى الفلاحين في عقر دارهم لينشلهم من آلام

الفاقه، وسيهديه طوافة وبحثه إلى كثير من مواطن الألم وأسباب الشكوى. وسوف يتضح له أن المسألة التونسية مسألة اقتصادية الآن قبل كل شيء أو أنها مسألة الحياة والقوت، ولا حاجة لها بالاضطرابات والتشويش. وربما يتحقق أيضاً بنفسه أن ما حصل من الاضطرابات راجع إلى مسألة الحياة وإن ظهر مصبوغاً بألوان أخرى. وما دام في نيته الاستمرار في معالجة الداء وإصلاح الفاسد، فسيرى حوله كتلة تؤيده وتكون خير معين في مهمته. هذه الكتلة هي نواب الأمة وممثلوها، والراشدون من جميع طبقاتها، وهم الذين ينادون من زمن طويل بأصوات هادئة، ومنطق معقول أن تونس لا تريد غير الحياة. فإذا أحل جناب المقيم هذه الكتلة محل الاعتبار وقبل معونتها في الغاية التي ينشدها، فقد انتفى الشر كله. وشعرت الأمة بالارتياح التام. وبذا تختفي العناصر المشوشة من تلقاء نفسها، وتموت في أوكارها لأن الجو لا يسمح لها بالظهور. وما كانت تظهر إلا في ظلام الأزمات الخانقة، حيث تكون النفوس قابلة للانقياد، واتباع كل ناعق.

وتونس تعلم أن هؤلاء المشوشين غير مخلصين في غايتهم ولا جادين في عملهم. وتعلم أنهم طلاب قوت يلتمسونه بأعجز الوسائل وأعقمها. وجناب المقيم يقول في كلمته إنه لا يتأخر عن إنزال العقاب بالمشوشين، وها هو سيعرفهم بسهولة. وسيعرفهم بجهلهم وصعلتكهم، سيعرفهم بأعمالهم وسيرتهم. فقد طالت أعمارهم. وامتدت فسحتهم، وتنوعت جرائمهم جهاراً. وكل جريمة تدفع ثمنها تونس من دمها وكرامتها وحريتها، فرغبة تونس في قمع الشر ليست أقل من رغبة جناب المقيم. وها نحن نسير وأمامنا الأيام.

إلا أنه لا ينبغي اعتبار الشبيبة المثقفة بأوروبا والتي تدين على الأخص بثقافتها لفرنسا من جملة المشاغبين، وجعلها هدفاً للتهم. وهذه الشبيبة هي بلا شك خير من ينطق بلسان تونس، ويفصح عن حاجتها فإذا ما أبعدت من الميدان، وكمّت أفواهها فلا يبقى إذن غير الطفيليات الضارة التي يكرهها كل إنسان. على أنه ليس من العدل أن تحمل غلطات شرذمة حقيرة على كاهل الأمة بأسرها، وفي مقدمتها شبيبتنا المثقفة التي تدين بثقافتها إلى فرنسا. وإن كانت

هذه الشبيبة اندفعت في بعض الأحيان تحت تأثير الشباب وحماسة المبادىء الحرة والديمقراطية التي رضعتها في فرنسا نفسها، في شيء من هذا دليل على الجُحود وسوء النية. ويوجد فرق كبير بين الصعاليك الآخرين الذين يسلكون سياسة اليأس إن كانت لهم سياسة وهي التي تأباها تونس وتتبرأ منها.

وأملنا من جناب المقيم وهو الرجل الواسع الخبرة بشؤون المسلمين، وفهم نفسياتهم أن يعمل بخبرته ومهارته على رد كل شيء إلى نصابه بعد عودته في القريب العاجل.

جريدة (الزمان) 29 اوت 1933

«كرميس» السفارة الخيري

ما ألطف مدام وموسيو قيون.

كانت هذه السفارة تعمر في كل وقت وآخر بحفلات خيرية كالتي أقيمت في هذا الأسبوع.

وكان المسلمون يجلسون في تلك الحفلات كعقارب المساجد.

أما حفلة هذا الأسبوع التي أقامتها (مدام قيون) للطفولة فقد تجلى فيها الكرم والمؤاخاة، ودعي إليها حتى (محمد بنيس)[1] (ومحمد عبدالرحمان الصنادلي)[2].

وكان المدعوون مختلطين ببعض افرنجاً وعرباً، نساء ورجالاً.

ويعجز الواصفون عن وصف اللطف الذي أظهره (الموسيو قيون) للمحتفلين على اختلاف طبقاتهم، ورغم ما ظهر منهم.

فبعد العشاء وتمزز أكواب «الشمبانيا»، افتتحت السوق الخيرية لشراء الهدايا التي قدمها المحسنون.

وكان أهم الهدايا التي قدمت سوار مرصع بالديامونت (على الفوندو) قدمه السيد عبدالعزيز الجلولي عامل صفاقس، والسوار يساوي على الأقل ستة آلاف فرنك.

وانفتح المزاد على الطريقة الأميركية وهي أن يقدر الشيء بثمن أساسي قدره

(1) مدير جريدة (الزمان).

(2) مدير جريدة (الزهرة).

مثلاً ألف فرنك فإذا زاد أحدهم مائة فوق الألف وجب عليه أن يدفعها في الحال. فإذا زاد الآخر مائتين أو خمسمائة أخرجها فوراً من جيبه، وهكذا تتجمع النقود المزادة. وفي النهاية يبقى الشيء المباع لأصحاب السوق أي للأطفال.

ولكن عندما انفتح المزاد جاء أحد «القياد» الثقلاء وافتتح المزاد.

هل تعرف بكم؟

ــ بفرنك واحد.

ولكن المحسنين تباروا في المزاد بالمبالغ اللائقة،وكان بين المتبارين الجواهرجي الشهير المسيو بيانكي الذي انسحب من المعمعة عندما بلغ المزاد 6000 فرنك، واستمر المزاد بعد ذلك بين السيد الطاهر بن عمار[1] وموسيو بوندان بائع القهوة المشهور.

ثم استمر المزاد على بقية الهدايا التي قدمها السيد محمد جمال التاجر الشهير وهي (ركلامات مجانية)، ولا تخرج عن المصنوعات الجلدية من «البنتوفلات»[2]وبلغ. ففي وسط هذا «الكيف» حيث النفوس منشروحة وعلى الخير مقبلة، جاء السيد محمد بن رمضان نائب الجهة الرابعة ومن خلفه الرفيق الدكتور محمد التلاتلي واقترب من نفس الموسيو قيون وأفضى إليه بما يأتي:

«لا يخفى على فخامتكم أن الجهة الرابعة والخامسة تمثلان ما ينيف عن نصف الإيالة التونسية، وأن عدد سكانها وما فيها من الحمير، والبغال، والثيران يجعلانها (أي الجهة الرابعة والخامسة) من أغنى الجهات التونسية، وبالرغم عن ذلك فالأغلبية الملعونة في (المجلس الكبير) التي يرأسها ذلك الرجل المسمى شنيق قد سخرت من زياتيننا، وأبقارنا، وبغالنا، وحميرنا، وناخبينا. ورفتتنا من اللجنتين المالية والجهازية الاقتصادية. . .

فتثاءب م. أرمان قيون والتفت يميناً وشمالاً لعله يجد من ينقذه من هذا

(1) أحد كواهي المجلس الكبير، وأحد رؤساء الحكومات السابقين.

(2) أحذية من الصوف.

الاستجواب البرلماني، وكان ينتظر من حضرة الشاكي أن يقدر الموقف ويعرف أن لكل مقام مقالاً ولكنه رآه واقفاً هو والذي خلفه مصرّين على انتظار الجواب.

وأخيراً أحالها على السيد الطاهر بن عمار بصفته كاهية المجلس الكبير المختص بالنظر في الموضوع.

إلى هذه اللحظة كانت «الشمبانيا» أخذت مكانها في الأدمغة واحتلت المكان الأكبر من دماغ الدكتور محمد التلاتلي فقام يخطب بصوت مبحوح والرذاذ (أي البصاق) يتطاير من فمه موجهاً كلامه إلى القياد والعمال:

ادفعوا وشاركوا في الخير يا من خقلكم الله لجمع النقود والأموال
ادفعوا يا من ملأتم بطونكم من البقشيش والهدايا.
والحق أنه كان طريفاً إلى درجة.

ولكن الحاضرين تضايقوا من هذه النصائح، فخاطبه أحدهم قائلاً:
— إن امتصاص دماء دافعي الضرائب أقل إثماً من استثمار مرضى المستشفيات والمساومة مع الحكومة وقت اللزوم.

ولنترك هذا ولنعد إلى ما في الحفلة من أضاحيك ومسرات.
كانت (الدبيش تونزيان)[1] (أي الناصر الجلولي) تتجول بين الموائد فنَادَاه أحد المدعوين قائلاً:
— «قرصُون».
ولا تنسى أن «القرصونات» جميعاً في هذه الحفلة كانوا يلبسون «الفراك» مثل الناصر الجلولي تماماً.

فانتهز الناصر هذه الفرصة وقال لمن ناداه:
— 40 فرنك.

وكان المنصف العقبي في الحفلة — وهو جوهرتها ودرتها — وهو الذي كان يمثل الخفة التونسية والرشاقة التونسية المزوجتين بالرشاقة الباريسية. فكان

(1) إحدى الصحف التونسية التي كانت تصدر باللغة الفرنسية.

يراقص ويخاصر الجنس اللطيف من المدعوات. ومنهن (وما أحلاهن) كريمة رصيفنا المحترم الموسيو «سيمون زانه» صاحب جريدة «البتي ماتان» وغيرها.

وقد رقص تقريباً مع كل المـدعوات. ثم لاحظ أن سيدة تجلس بمفردها بعيداً لم يرقص معها أحدٌ، فاقترب منها ليجبر خاطرها لا سيما وقد لاحظ أنها من البدينات اللاتي يصلحن لفصل الشتاء، واقترب ليخاصرها فوجد نفسه أمام الأستاذ الطاهر الصافي.

وإلى هنا لم يعرف مندوبنا شيئاً لأنه هو أيضاً كرع من الشمبانيا إلى النهاية.

جريدة (الشباب) 12 نوفمبر 1936

فرنسا أمام الميكروفون

أبنائي الأعزاء،

أرسلتكم للبقاع القاصية في هذه الأرض لتبلغوا أهلها رسائلي المقدسة وهي ــ إن كنتم نسيتموها: ــ الحرية ــ العدالة ــ الإخاء، ولتجعلوا منهم أصدقاء أتطاول بهم على الأعداء. وأبادلهم المعونة في العسر واليسر فنسيتم الوصية، وذهب كل منكم والمال نصب عينيه، يجمعه من أرض يملكها أو وظيفة يتربع فيها فجعلتم لكل صقع ميزانية ثلثاها لجيوبكم والباقي لحراستكم.

صاح «الانديجين»[1] لقد مسنا الضر، ولكن هذا الضر مس أيضاً أمّكم فرنسا، فمعاملها معطلة، وبضائعها كاسدة لأن أولئك «الانديجين» عاجزون عن الشراء، بل أصبحوا عالة عليها، تمدهم بالقرض بعد القرض والمنحة بعد المنحة. فأين هي ثروتهم الطبيعية من أرض وشجر ومناجم؟

كلها في جيوبكم وستعودون بها إلى الوطن، وأنتم أفراد قلائل لتقضوا بقية حياتكم مرفهين في ضواحي باريس، و «الكوت ديزير»، و «مونت كارلو».

ستقولون إنكم أحييتم الأرض الموات. وأقمتم الادارات، وبلّطتم[2] الشوارع وأكثرتم الأنوار وكل هذا حق. ولكن أسألكم: هل أمكم فرنسا أم حرية وعدالة ومساواة، أم هي مجلس بلدي على وجه الأرض؟

(1) تسمية تطلق على الأهليين من سكان البلاد في معرض الاحتقار.

(2) عبّدتم.

وستقولون إن «الانديجين» بلداء؟ وهم فقراء لأنهم جهلاء. ولكنكم المسؤولون عن جهالتهم لأنكم تشرفون عليهم منذ نصف قرن أو قرن كامل.

وسيقولون إنهم أعدائي يضمرون لي الشر، يتأهبون للثورة وما أكذبها دعوة.

فإن وفودهم تأتي إلى أرضي أفواجاً تلتمس وتسترحم. والعدو لا يلتمس ولا يسترحم، وإنما يكظم غيظه حتى يجد الضربة القاتلة أو يموت كمداً.

أبنائي الأعزاء

اقبلوا نصيحةَ أمكم وتنازلوا عن ربع ما تطمعون فيه من الثروة، واقتبسوا الأمثلة العليا التي يقدمها الشرقيون الذين تعاشرونهم، وهي أن طعام اثنين يكفي ثلاثة، والثلاثة ملايين من الفرنكات تساوي أربعة.

جريدة (الشباب) 12 فيفري 1937

في المــوسـم الأســود

المطلوب لإغاثة العراة الجياع هو الملابس القديمة والنقود. . . وستتظافر الأمة والحكومة على تقديمها إليهم في أقرب وقت.

ولنا في الموضوع كلمة.

لا خير في الملابس التي يقدمها الأفراد فإنها لن تكون أكثر من المعاطف المهراة و «الكلسُونَات» المزقة، والقمصان المرقعة، و «القلاسط»[1] المقددة وكل ما لا يشتريه باعة «الروبافيكيا»[2].

ولئن طابت نفس أحدهم من بذلة نصف عمر، وحذاء فيه بعض الرمق فقد يتكاسل عن حملها صرة تحت إبطه إلى المقر الذي ستعينه اللجنة لقبول الأسمال والخِلع.

الأفضل أن تتبرع الحكومة نفسها بملابسها القديمة التي تبيعها كل عام في سوق (النحاس)[3]، وهي كساوي الشواش، والحجاب، وعساكر البوليس تلك الميتة الحوك والتي تكفي الواحدة منها ذلك الأعرابـي في مدى الأزمات العشر المقبلة إن شاء الله.

والنقود؟ فقد قيل إن كل صاحب إيراد سيتبرع بيوم واحد من دخله الشهري أو السنوي، وهذا أيضاً تضييق في أرزاق المساكين، الأفضل أن يترك الميدان مفتوحاً للأريحية مع نشر أسماء المتبرعين في الصحف.

---

(1) الجوارب.

(2) باعة الملابس القديمة المستعملة.

(3) أحد أسواق لبيع الملابس المستعملة.

فالموقف رياء يتبارى فيه عشاق الظهور ومحبو الخير على السواء، وهو رياء محمود غير مذموم. فالبخيل الذي تخرج روحه قبل أن يدفع الصانتيم إذا رأى شخص المسيو (أرمان قيوم) ألقى بالألف فرنك كما يلقي عقب سيقارته.

والشيخ المثري الذي يقبض خمسة آلاف فرنك في الشهر إذا رأى وجه الدكتور الماطري أو الطاهر بن عمار لم يكتف بخطبة يحث فيها المسلمين على الدفع، بل يتقدم أيضاً بما تيسر من تلك الأوراق المدموغة الملونة.

والتاجر الذي يشتري تذكرة من ذات الفرنك وهو مكره يخجل من رؤية قوائم الإحسان خالية من اسمه، أو فيها اسمه مقروناً بعشرة فرنكات.

فتحديد الإحسان بيوم واحد من ربح كل إنسان معناه الإصرار على الشح مقدماً.

اجعلوا الحد الأدنى لصدقات الموظفين مائة فرنكاً. وليرتفع بعدها ذوو اليسار منهم على قدرمرتباتهم.

العبد الفقير الذي لا يربح أكثر من أقل موظف يتبرع بها ويحملها إلى صندوق الإعانة من وقته وساعته.

جريدة (الشباب) 19 فيفري 1937

أهــلاً وسهـــلاً

تشرفنا بحضوركم يا مسو فيينو[1].

قلتم إن إقامتكم محدودة في تونس. ووقتكم ضيق، فلا يمكن لأحد مقابلتكم إلا بمطلب يقدمه من قبل. ويأخذ به نمرة مثل نمرة «الفوتي» في السهرات الكبرى النادرة. نخشى أن زيارتكم لا تأتي بالغرض الذي تقصدونه، وهو معرفة الحقائق إذا هجمت عليكم الطوائف الآتية:

المعمرون وسيطلعونكم على أرزاقهم ونعيمهم، وما أنشأوه من مزارع منظمة، ويقارنون بينها وبين الأرض الموات التي لا تزال في أيـدي العرب لتشجعوهم على المضي في سبيلهم.

وسيتقدم إليكم الموظفون بالتقارير المختومة الرسمية لكي تصـدقوهـا وتكذبوا كلّ ما عداها.

وسيقـول لكم أعضاء (المجلس الكبير) إنهم سـراة البـلاد وأعيـانها، والمستعدون للتفاهم مع فرنسا دون غيرهم، فاجعلوا اعتمادكم عليهم ولا تثقوا بأحد غيرهم يصلح لأن يكون خير وسيط بين فرنسا والشعب التونسي.

وسيتقدم إليكم آخرون من متأنّقي البلاد ولابسي «الاسموكنج» ليدعوكم إلى حفلات شرفية، وعشاء في (دار زروق) أو في دار واحد منهم لتأخذوا أسماءهم في مذكرتكم . . .

---

(1) مبعوث فرنسي أوفد من قبل حكومته لاستطلاع أحوال المجاعة التي اندلعت بسببها اضطرابات شعبية سنة 1937.

كل هذا عبثٌ يا جناب الضيف الكريم.

وقبلك جاء ضيوف فاجتمع عليهم الطوائف التي ذكرناها وذهبت زيارتهم سدًى.

سَلُوا كل من يستقبلكم:

ما هو مقدار الأراضي التونسية، وكم منها في يد التونسي، وكم يملكه غير التونسي؟

كم مقدار الميزانية التونسية وما يصرف منها على أبناء البلاد وعلى غيرهم؟

هل القوانين تشمل جميع السكان بلا استثناء ولا فرق، أم هناك قوانين للأوروبي وقوانين للأنديجين؟

بهذه الأسئلة الأصلية تتبين لكم الحالة في تونس بالتفصيل.

ولكم أن تجيبوا على كل مبتسم بابتسامة، وعلى كل مضيفٍ بكلمة شكر.

ثم استخلصُوا الحقيقة بعد ذلك وأبلغوها إلى إخواننا في فرنسا.

جريدة (الشباب) 19 فيفري 1937

م. فيينو يتفرج في صندوق العجائب

صاحب الصندوق:

اتفرج يا مسيو فيينو[1]. انظر إلى القصر الرفيع، ذي النقش البديع وأعمدته المطنبة، والسقوف المذهبة. كان لعائلة رفيعة المجد، فوق الحد، فتشردوا بعضهم في الجبَّانات، وبعضهم في القهوات. واليوم يسكنه خليط من السيسليان[2] ومهاجرون الألمان والاسبان.

بيع هذا القصر في «التريبونال»[3] بعشرة آلاف فرنك، بكمبيالة على البنك، صرفها المرابـي الحقير الخنزير بن الخنزير.

وتفرج يا مسيو فيينـو، على الشعب المـزطول المسكـين، بالتكـروري والهيروين. وجوه صفراء، وملابس مقطعة غبراء، وجيوب فارغة جـوفاء، يبحثون عن العمل فلا يجدون، وإن وجدوه عجزوا وما يقدرون، وقد كانوا بين حدَّاد ونجار، ونقَّاش وحراريري وشواشي[4]، وقهوجي، وعطار، وكوشجي[5] وسمسار فحلَّ محلهم أوباش المتجنسين ودخلاء المقبَّعين، وها هم لا يجدون السميد والزيت.

---

(1) مبعوث فرنسا إلى تونس في شهر فيفري 1937 للتحقيق في المجاعات التي سادت البلاد ونتجت عنها مظاهرات واقتحام دكاكين.

(2) الايطاليون.

(3) المحكمة.

(4) صانع الشاشية.

(5) صاحب بالفرن.

وتفرج يا مسيو (فيينو): الجاليات الأوروبية كل أنثى معها ذكر، وكل عائلة لها «تموبيل» معتبر، ومتجر كبير، أو منصب خطير، لا يعرفون العبوس، من كثرة الفلوس، لهم السينمات، والدانصينقات.[1]

وتفرج يا مسيو فيينو: على الكاتيدرائية[2] كل يوم أمامها عرس، بالأزهار والبخور، والطبول والزمور. وفي الأحياء العربية لا نـرى إلا مغازة مقفـولة أو جنازة منقولة.

وتفرج يا مسيو فيينو: هذه الدار، ذات الأسوار، فيها سبـع بنات مسلمات جائعات عاريات، لا يعرفن صنعة ولا تجارة، ولا يجرؤن على التسول ولا الدعارة، يعولهن قريب عاجز أعور أعرج أفطس الأنف يوماً يربح فرنكين، وأياماً يعود صفر اليدين، فهن لا يجدن الخبز الذي تجده الكلاب، ولا يجدن الموت الذي يرحهن من العذاب.

جريدة (الشباب) 26 فيفري 1937

(1) المراقص.

(2) الكنيسة القائمة إلى اليوم بإحدى ساحات العاصمة التونسية.

الموظفون الفرنسيون يتظاهرون. . .

مظاهرة مضحكة:

مساء السبت في 10 مارس الجاري تظاهر نفر من الموظفين الفرنسيين، ولسنا بمبالغين إذا قلنا أن هذهالمظاهرة كانت مضحكة ومخجلة في آن واحد.

اجتمع هؤلاء «المساكين» على الساعة السادسة بقاعة الشغل بنهج باب الجزيرة، وارتقى بعض أفراد منهم منصة الخطابة فكنت لا تسمع إلا بكاء وعويلاً كأنما حل بالجالية الفرنسية خطب عظيم أو رزية جمة.

وبعد أن برهنوا على إحساساتهم نحو التونسيين الذين لم يشملهم الأمر الأخير القاضي بطرح «منحة الاقامة» للمتوظفين الفرنسيين البالغ مرتبهم فوق الاثني عشر ألف فرنك، وبعد أن تبين خلال خطاباتهم ما يكنونه نحو التونسيين من الحقد والحسد غادروا قاعة الشغل مستصرخين آلهة الأرض والسماء، يحسبهم المارون ضحايا البطالة والمجاعة التي فتكت بالتونسيين ولا تزال تنتشر أذيالها وتنشب مخالبها في العائلات التونسية مما أحزن القلوب وبعث الحيرة في الأفكار.

وصل هؤلاء «المساكين» أمام دار السفارة العامة، وكان عددهم لا يقل عن سبعمائة شخص، وفي مقدمتهم روّاد يحملون خشباً على رأسها ألواح مكتوب عليها: «ليسقط الاستبداد، خفضوا من نفقاتكم اليومية»، . . . ولما أحدقوا بدار السفارة أخوا يصيحون بأعلى صوتهم: «الجواب، الجواب» يعنون بذلك إرهاب جناب العميد[1] كي يرجع في الأمر العلي المشار إليه

(1) المقيم العام الفرنسي.

أعلاه. . . يا للفضيحة يا للعار، هؤلاء الذين أتوا ليمدونونا ويعلمونا معنى الامتثال والطاعة إلى السلطة العليا. . . هؤلا الذين لم ينقص أحدهم سيارة أو «فيلة» والمتمتعون بجميع الامتيازات على اختلاف أسمائها وتنوعاتها. . .

هؤلاء الذين يتقاضون من الميزانية التونسية التي يصب فيها عرق جبين مليونين من التونسيين «ثمانين مليوناً» من مجرد «الثلث الاستعماري» بينما كافة الموظفين التونسيين من ملِكهم إلى أصغرهم لم ينلهم من تلك الميزانية إلا ستون مليوناً فقط، أي مرتباتهم دون الثلث الاستعماري الذي لا حقَّ للموظف التونسي فيه. . .

هؤلاء الذين احتلت كل الإدارات التونسية أزواجهم وزوجاتهم وأولادهم وبناتهم وحتى خدمهم في بعض الأحيان. . .

نعم هؤلاء الناس هم الذين ملؤوا الجو صراخاً وتظاهروا مساء يوم السبت لأن كبار موظفيهم ممن تبلغ جرايتهم السنوية فوق المائة ألف فرنك حرموا مؤقتاً بسبب الخلل الموجود بالميزانية من ستة وستين فرنك في الشهر. . . يا لها من مسخرة، ويا له من إدراك ممقوت، نعجب كيف تطاول هؤلاء الناس على مجاهرتنا بأن بعدهم لا شمس ولا قمر، وإلا فهل من الإنسانية أن يتظاهروا في وقت يتحققون فيه ما وصل إليه التونسي من العجز والفقر المدقع، مما أدى به إلى مد يده البائسة المرتشعة، خجلاً وضعفاً في الشوارع وفي المقاهي يتطلّب الصدقة والإحسان بالرغم عن النفس الكبيرة التي تكمن بين جوانحه، والتي في كثير من الأحيان حملته على شراء تراب الموت قبل النزول إلى حضيض الاهانة والكسوف.

قولوا لنا أيها الناس بربكم وما تعبدون إلى أيّ حد تريدون سلخ الجلود، وامتصاص الدم وأنتم على معرفة تامة من نعيمكم وبذاختكم ومن حالة البؤس والشقاء التي أصبح عليها التونسي الذي ــ يا للقدر ــ أتيتم إلى هذه البلاد بقصد تحسين حظه مادياً وأدبياً. . . ألم يبلغكم عجز الحكومة أمام الخلل الحاصل بالميزانية التونسية؟. أنتم صمّ عن الأخبار الواردة من نواحي الإيالة والمنذرة بالدمار؟

نقص كباركم ستة وستون فرنكاً في الشهر فقامت قيامتكم وعج عجيجكم وأتيتم تنوحون وتندبون أمام السفارة العامة على سمع ومرأى منا. . . أنسيتم أم تناسيتم هؤلاء الذين يموتون جوعاً لأنهم لم يجدوا في بلادهم كسرة خبز تسد رمقهم، وتعلل صبر فلذة أكبادهم؟ أيجدر بكم يا أنبياء المدنية والرفق والحنان أن تكون هذه سيرتكم بعدما علمتم وعلِمنا أنكم تتقاضون عسفاً ما تسمـونه «بالثلث الاستعماري» تلك المنحة التي استحوذتم عليها والتي كلما فكرنا في الظروف السانحة لكم بها إلا وازدادَ تألمنا وتوجّعنا.

أليس بعد الحرب الكبرى فقط أي سنة إثر تضحية وانهمار دم التونسي بالتراب الفرنسي نِلتم تلك الميزة كأنما أردتم بذلك إجازتنا إزاء دفاع التونسي عن فرانسا دفاع الأبطال؟ لعلكم تحسبوننا بسكوتنا راضين بكبت عواطفنا وبمعاملتنا معاملة الأنعام ــ كلا ثم كلا ــ أنتم تعلمون علم اليقين أن عدم المساواة لمن أكبر الإهانات والمظالم، ومن المستحيل أنكم إذا خلوتم إلى ضمـاركم لا تشعرون بتأنيب عنيف ينبعث من أعماق صدوركم ويقبح في أعينكم مثل هذه المظاهرات المضحكة التي وإن تكررت لا تصلون بها إلى شيء.

فإن جناب العميد لعلى بصيرة من حالة البلاد وأنه مثلما صرح به لا يقدم على إصلاح إلاَّ وقد وافقت عليه حكومة الجمهورية.

إذن خلُّوا عنكم جانباً مظاهر التدجيل والافتراء.

جريدة (الزمان) 13 مارس 1934

الحــزب الدستوري المخيف

رست الباخرة التي تحمل الغول المخيف الحبيب بورقيبة[1] على ميناء تـونس فاحمـرت السماء وأمـطرت بترولاً وبنـزينـاً، ورجمت البـلاد بفلذات الديناميت.

ولما سمع التونسيون بقدوم زعيمهم ألفوا موكباً لاستقباله وحملوا الخناجر والزلالط، وساروا صارخين والشرر يتصاعد من أعينهم والدخان من أفواههم، وفي طريقهم إلى الميناء دخلوا «المغازان جنيرال»[2] فنهبوا كل ما فيها من البضائع ووضعوها في جيوبهم، ثم عرجو على محل «مونيبري»[3] فحطموه واستولوا على من فيه من البنات الجميلات، وقد صعدت فرقة منهم إلى أحد المساكن في شارع «إيتالي» فلم يجدوا فيه سوى طفلة صغيرة عمرها ثلاثة أعوام فاعتدوا على عفافها وذبحوها. ثم انتظم الموكب ثانية وواصل السير إلى الميناء وهو يحطم المصابيح ويقلع بلاط الشوارع ويذبح كل من يصادفه، وكانت الدماء تجري في الشوارع، والمتظاهرون يلطخون بها وجوههم على سبيل الزينة والزخرفة، وقد رشق كل واحد منهم رأس قتيل في زلاطه أو علقه على صدره.

ولما حاذى الموكب باخرة الزعيم ظهر على سطحها وعلى رأسه عمة خضراء قدر قبة الكاتدرائية العظيم، فاتحاً فمه كالمغارة تظهر منه أسنان زرقاء بارزة

---

(1) هذه المشاهد من خيال الكاتب الذي تصوّر ما سيكون حال التونسيين من هيجان عند عودة زعيمهم من المنفى وما سيكون عليه حال الاستعمار من الرعب والخوف.

(2) المغازة العامة.

(3) مغازة عامة.

كالمعاول الحديدية، فنخر نخرة هاجت لها أمواج البحر واضطربت، فرد عليه الشعب بمثل نخيره وهذه هي التحية الدستورية التقليدية.

وقبل أن ينزل من السلم ذبح أتباعه تحت قدمية عشر بنات من الأبكار الجميلات السافرا ت فخاض في دمائهن وشرب منها حتى ارتوى، وسار الموكب بزعيمه يهمهم ويدمدم وكان في كل خطوة وأخرى يطيح منزلاً من منازل(باب بحر)على من فيه إلى أن تهدمت معظم المباني الكبرى في الأحياء الأوروبية. ولم ينقطع الشر في هذا الاستقبال الدامي إلا بعد أن دخلت هذه الوحوش إلى كهوفها ومغاراتها، وهنا فقط وجد الأعضاء النواب الفرنسيون في (المجلس الكبير) الفرصة لكتابة احتجاجهم الذي أرسلوه إلى رئيس الوزراء، يطلبون فيه إيقاف النشاط الدستوري عند حده، وحماية الجالية الفرنسية من الخطر الوحشي التونسي الافريقي.

كان الله في عونهم وحفظهم من كل شر!.

جريدة (السرور) 13 سبتمبر 1936

أَحِــزب أم عصابة؟

يسمع الشرقيون أن في هذا البلد المسكين حزباً سياسياً يدافع عن مصالحه فيلقي في روعهم أنه حزب على نمط الأحزاب القائمة عندهم، يديره طائفة متنورة من أبناء البلاد، وله مركز وفروع وجرائد وكتاب وخطباء، ولو بنسبة البلد وعدد سكانه. والحقيقة أن تونس من هذه الوجهة أتعس بلاد الشرق والغرب فحزبها[1] عبارة عن شرذمة يرأسها متشرد، وهذا المدير الرئيس على عطله وتشرده يعد أحسن الأعضاء حالاً، وأشرفهم منزلة[2] إذا علمت أن هؤلاء الأعضاء يتألفون من عمال كسالى ومَنْ هم أشر من العمال الكسالى، استتروا تحت اسم حزب ليخلعوا على أنفسهم حلية يظهرون بها في مظهر الوقار والرجولة، وينظر الناس إلى أشكالهم نظرتهم إلى المجاهدين الشهداء الذين أفنوا أموالهم ومجدهم ورفاهتهم في خدمة بلادهم.

والجماعة يظنون أن هذا الستار الممزق يكفي لستر الشناعات والمخازي التي لم يجتمعوا لشيء غيرها. فإذا أعوزهم الأكل عقدوا مجلساً في إحدى القهوات، وتفاوضوا في الطرق التي يحصلون بها الأموال من الناس باسم اشتراكات للحزب أو إعانات للحزب، وقد أكسبهم طول الممارسة معرفة عدد

---

(1) الحزب الذي يعينه الكاتب في هذه المقالة هو (الحزب الحر الدستوري التونسي) القديم وقد كانت له خصومات ومعارك مع بعض أعضائه، ومعروف أن بيرم أيد الميثاق الجديد للحزب الدستوري بزعامة الحبيب بورقيبة، وكان من أنصاره بمجرد ظهوره إلى حين إبعاده عن تونس.

(2) يعني عبدالعزيز الثعالبي الذي كان يقيم بالمنفى.

لا بأس به من المغفلين، أو البسطاء ينفحونهم من وقت لآخر بما تيسر. فإذا امتلأت بطونهم وتحركت فيهم الشهوة البهيمية فأمرها أسهل من جمع المال: يدعون أطفال المدارس لسماع «الخطب» و «المحاضرات»، وعندما تغلق الأبواب ينقضون عليهم كالوحوش الكاسرة وطالما انفلت الأولاد من أيديهم، ومروا مذعورين إلى ذويهم يقصون عليهم ما جرى. فإنْ عدم الجماعة أولاداً غيرهم استغنى بعضهم ببعض:

فـإذا غلا شيء علي تـركه فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

فأنت ترى عصابة شريرة دستورها أي قانونها نهب الكبار، ولا بد لمن يباشر هذه الجرائم، ويعيش فيها طويلاً أن يتخذ ما يستطاع من وسائل الاحتياط والدفاع ووسائل الحيطة التي يتخذها المجرم، تكون أحياناً أشنع من الجريمة نفسها فقد تكون غايته سرقة خمسة فرنكات، ولكنه للاحتياط يقتل خمسة أرواح. والعدو الوحيد الذي تخشاه هذه العصابة هو الصحافة، ولذلك أدخلوا ثلاثة من باعة الجرائد أعضاء عاملين في الحزب يحملون بطاقاته، وقد أقسموا معهم على تنفيذ الميثاق الملي وهو عدم بيع الجرائد التي تتعرض لهم، وتبقى مهمة الأعضاء الآخرين قاصرة على الدق على أبواب الناس يرجونهم أن لا يشتركوا في تلك الصحف. أو خطابات يرسلونها إلى فقهاء الأقاليم وصعاليكها يخبرونهم أن الجرائد التي تتعرض لهم ما هي إلا جرائد صهيونية أو ماسونية يحررها كفار ملحدون أو خونة مارقون.

ولهم وصائف في الدفاع عن أنفسهم أحقر من هذه:

لهم جريدة حقيرة لا تعيش إلا والغة في دماء الجرحى، وأصحاب المصائب فهي وهم متفقون في الغاية والمقصد يكرمونها وتكرمهم ليتسقر في أذهان الناس أن العصابة حزب وأن الوريقة جريدة.

والسكوت على هذه المساخر يعد إساءة لتونس المسكينة فواجب كل صحيفة تحترم نفسها أن تشغل لوجه الله والوطن شيئاً من بياضها تسوده بمخازيهم وموبقاتهم.

جريدة (الزمان) 13 مارس 1933

قدمـــاء بـــني آدم

كل شيء قديم يجب أن يكون له قيمة، وهكذا يفهم السادة الذين يسمون أنفسهم قدماء الدستوريين[1] فأرادوا أن يعرضوا أشخاصهم القديمة للهواء والشمس قبل أن يأكلها السوس، فاختاروا مدينة صفاقس ذات الأسوار والأبراج. وكاتبوا الفرع الدستوري القديم أيضاً والكائن في (برج النار) على مقربة من مساكن قديمات العاهرات. فجاءهم الرد من الفرع المذكور بأن مدينة صفاقس عن بكرة أبيها وأمها وعمتها وخالتها تنتظر قدوم الفطاحل الغطاريف على أحر من جهنم الحمراء.

فالتف القدماء بالملابس الثقيلة، وساروا بما معهم من خطب وقصائد وتوشيح وريبورتاجات.

وما إن احتوى عليهم فرع (برج النار) حتى أغلقوه بالمزاليج الحديدية وسندوه من الخلف بالأخشاب الغليظة.

وجاءت الطائفة الأولى من الشعب الصفاقسي الذي كان يذوب شوقاً للاستماع بمشاهدة الزعماء والاستماع لخطبهم. وهي طائفة مكونة من شبيبة صفاقس فأبى الباب أن ينفتح فواصلوا الدق والإلحاح، ففتح لهم خفير الفرع وهو شخص قوي البدن يدعى (علي معلاً) وأبلغهم أن السادة القدماء كلفوه بمنعهم من الدخول ولو بالقوة. قال هذا وأغلق الباب ثانية. ولكن الشوق غلب

(1) تتضمن المقالة صورة من حملة الكاتب على الجناح القديم من الحزب الحر الدستوري التونسي.

الشبان فتسلقوا من فجوة في أعلا باب وفتحوه عنـوة فدخلت جماعة الشبيبة. وكان الخبر قد نمى إلى جماعة «الترحي الرياضي» الذين كانوا في صفاقس للاشتراك في أحد «الماتشات» فانضموا إلى الشبيبة واحتلوا المحل، فقام أحد الخطباء ولاحظ لرئيس الفرع السيد علي القرقوري أنه هو وإخوانه لم يرضوا بدخول النادي إلا عندما أبصروا الورقة المعلقة على الباب والمكتوب فيهـا «اجتماع خاص».

أما وقد أصبح الاجتماع فوق العام فالخطباء في حل من الإضراب عن الخطابة، وكان هذا التمحل الوجيه مبدأ الهرج والضجة. فلم تعرف من أين جيء بالطماطم والبطاطة وقشور الموز التي انهالت على قدمائنا الأعزاء من كل صوب فانحلت المعركة عن خروج القدماء من الترتيب الآتي:

سيدي الشاذلي خزنة دار أمير الشعراء أصابته ضربة قوية في بطنه الوافر البسيط، وخرج تحت وابل من القشور يقول «بالحرام ما نقعد في صفاقس» ـ بالحرام ما عد انجيها ـ «بالحرام ما ندخلها».

وهذا كل ما سمع منه في ذلك الاجتماع الشيق.

وقال الأستاذ الشاذلي الخلادي وهو يجري ليفلت من المقذوفات الطرية «هاكة اللي يسمع كلام الوليدات»... وصالح فرحات وبقية القدماء الذين انهزموا معه. وشيع الصفاقسيون ذلك الوفد القديم بالهتاف المقلوب إلى أن ركبوا السيارة التي جاءت بهم، فانطلقوا إلى بلدة المحرص ليبيتوا فيها. وكان أول ما فعلوه عندما بلغوها أنهم اعتذروا للمحرصيين عن الخطابة وإنشاد الشعر لأن حناجرهم بحت وريقهم جف من الخطابة في مدينة صفاقس فسمحوا للزعماء الأجلاء بالمبيت.

والمرجو عند ذلك أن لا تقرأ (صدى الأمة) عبارات الثناء التي تسديها «للكمونيين» الذين يتشبثون بالقديم ويديرون مثل هذه الاجتماعات.

جريدة (الشباب) 29 جانفي 1937

روايـــة

في مقهى يكثر مرور الناس أمامه، جلس المحامي المورم يتناول «النفة»[1] تارة، ويهرش في قفاه مرة أخرى، وقد ربط عنقه بمنديل قرمزي يلفت إليه جميع الأنظار، وبجانبه رجل عليه سيماء الدلالين غليظ في حجم الكركدن ولونه، وقد جعل ديدنه تحريك المنظار القائم على أنفه للذاهب والغادي.

قال الكركدن للمحامي المورم:

ـ أظن أن حزبنا[2] لن تقوم له قائمة حتى مع ما وقع لرؤسائه من الأذى.

قال المحامي:

ـ حسبك ضربة قاضية أن رجلاً يتوفاه الله من هذا الحزب الوطني فيذهب أعضاء الحزب ويرفعون عريضة للحكومة يلتمسون فيها العناية بأطفال الشهيد وتربيتهم.

ـ من بالله عليك صاحب هذه الفكرة المشؤومة.

ـ الحزب كله، أو الأمة كلها إذا أردت الحقيقة.

ـ لقد حق لك أن تسمي نفسك مرشد الأمة... لعلك أنت الذي أشار بذلك أيها الكركدن الذكي.

---

(1) المنشوق.

(2) في هذه المقالة التي صيغت بشكل قصصي تهكم واضح من أساليب أعضاء الحزب الدستوري القديم.

فأجاب الكركدن بعد أن وسَّط جسمه على الكرسي:

ـ وإذا كنت أنا المشير على الحزب بطلب الإعانة من الحكومة فأي بأس في هذا إننا من الحكومة وإليها، لا نرجو سواها ولا نخاف سواها هل تتجاهل هذه الحقيقة يا خطم الخنزير؟.

وكان خطم الخنزير مختنقاً بنوبة سعال فأفاق منها وقال:

ـ تالله إن جمعكم لا يزن خردلة، ولولا أن جماعتكم تزدان برجال القانون مثلي لما كان لكم شأن يذكر.

فقطع الحديث شخص ثالث حيا الرجلين وجلس فقال الكركدن لهذا الثالث:

ـ إن خطم الخنزير يعيب علينا طلب الإعانة من الحكومة لرجلنا الذي انتقل إلى رحمة الله.

ـ والله إنه محق.

ـ وأنت أيضاً يا قرد الصحافة تستنكف من قبول صدقة الحكومة؟

فحرك الصحفي القرد عمته وقال مهتاجاً:

ـ لا وإنما كان يجب أن نلتمس هذه الصدقة سراً لا علناً، فليس من صالح حزب أمتي (أي منوب للأمة) أن يطلب الجزاء على تضحياته من غير الأمة.

خطم الخنزير:

ـ أكاد أقول أن وفاة المرحوم كانت ضربة مزقت الغطاء على كيانكم السياسي، وأظهر مكانتكم في قلوب الأمة ولم يهب فرد منها ولا جماعة لمساعدة أطفال الفقيد.

القرد الصحفي:

ـ أوافقك رغم أنف الكركدن، على أنها غلطة شنيعة، وأعترف لك بأنه لم يكن لي رأي فيها، إلا أنني سأصلح هذا الفساد وأجبر هذا الكسر، اتركا المزح واصغيا لما أقول:

ـ تعلمون أن صحفنا قد عطلت.

خطم الخنزير مقاطعاً:

ـ عطلت بإرادتكم وسعيكم.

القرد الصحفي:

ـ فليكن ذلك دعني أتم حديثي، سيسافر في هذا الأسبوع كبير من تونس إلى مصر. ومن المعقول أن الصحف المصرية ستنشر خبر قدومه نظراً لمهمته التي تعرفانها. إذن فالفرصة مناسبة لأن تنشر في إحدى الصحف المصرية مقالة يتبين لمن يقرأها أنها نشرت من قلم هذا التونسي الكبير.

الكركدن مقهقهاً:

ـ فكرة لا بأس بدرجتها في السخافة، وماذا تقول في هذه المقالة؟.

فاعتدل القرد واقترب بمقعده من زميله حتى صار الثلاثة كأثافي القدر وقال وهو يعد على أصابعه:

ـ نذكر في المقالة أولاً أننا أصحاب الحزب ومؤسسيه الأصليين، ثانياً أن الذين انشقوا علينا غلمان حمقى غرتهم ثقافتهم الأوروبية ولولاهم لنالت تونس استقلالها، ثالثاً نقوم بحملة على الحكومة تشرفنا أمام الأمة.

الكركدن:

ـ ابتعد عن هذا الخطر.

خطم الخنزير (بسخر وشماتة):

ـ استمع يا قرد الصحافة لنصيحة الكركدن ولا تحمل في مقالك على الحكومة.

قرد الصحافة:

ـ إن الكركدن الكريم مصيب في ملاحظته، ولكن (ملتفتاً) أيها الكركدن سوف تحصر مسؤولية الحمل له على الحكومة في شخص هذا الكبير التونسي، وأني أضمن لك أن الحكومة ستصدق أنه كاتب المقال.

خطم الخنزير:

ــ وهل يرضى ضميرك بهذا الفعل المشخطم.

الكركدن (بلهجة المفتي): إن الضرورات تبيح المحظورات، ويحق لأهل السفينة المشرفة على الغرق أن يرموا بعض أخوانهم إلى البحر في سبيل نجاة الأكثر.

القرد الصحافي:

ــ لقد انتصرنا.

المحامي المورم:

ــ ومن الذي سيكتب المقال؟.

القرد الصحافي:

ــ سيان عندي أنا أو أنتم، وكل ما أريده أن تعترفوا بوجاهة فكري وإحكام تدبيري.

خطم الخنزير:

ــ فكرة طيبة أيها القرد الذكي، وكان من حقي أن أسبقك إليها لولا أني أعلم أنكم قوم لا تصغون إلى النصيحة، دعني إذن أكتب المقال.

ويظهر أن القرد كان عنده ما يشغله فقام وهو يقول:

ــ الليلة في (المرسى) يا خطم الخنزير.

وابتعد ليذهب إلى شأنه.

فقام الكركدن وقال برجاء:

ــ لا بد من حضوري لأحرر المقال بعبارة راقية تنطبق على نسبتها للكبير التونسي وأنا بصفتي أقدم منكما في الصحافة أستطيع الإجادة أكثر منكما.

قال الراوي: وشاع خبر هذه المؤامرة الغريبة بعد تدبيرها بساعات، وأخذ الكثير من الناس ينتظرون النتيجة. وإذا بجريدة (البلاغ) تدخل تونس وفيها المقال.

وانتهت الرواية.

جريدة (الزمان) 5 مارس 1935

ضلال الأحزاب في الشرق

في الشرق يسود مبدأ الفردية أو الأنانية، وليس لفكرة الجماعة حياة طويلة مهما كانت قوتها، ومهما كان شأن القائم بها حتى أن الأديان وكتبها وأنبيائها وهي التي جاءت لخلق الجماعة لم تلق النجاح الجدير بها إلا إلى أجل قصير، فلا يكاد نبي من الأنبياء يوارى في قبره حتى ينقسم أشياعه الذين اجتمعوا على يديه، ويجعلون كتابه ومبادئه ألعوبة يتسلون بها أو تجارة يغنمون منها.

وظهرت فكرة الجماعة في هذا العصر بواسطة الأحزاب فلم يكن نصيبها من الفشل أقل من نصيب الأديان، وسريعاً ما ينقسم الحزب الواحد إلى شُعب والشعب إلى أفراد، بل ينقسم الفرد الواحد على نفسه كبعض أنواع الميكروبات. وتاريخ الأحزاب الشرقية الحديثة يدعو كله إلى الأسف، أو الضحك، وأكبر قوة حزبية عرفها الشرق هي (الوفد المصري) وقد دب إليه الفساد في أول نشأته. وانشق مؤسسوه وأقطابه على أنفسهم، ولم يحتفظ بكيانه بضعة عشر عاماً إلالا بقوة زعيمه الجبار سعد زغلول. وبعد موت الرجل عادت الطبيعة الشرقية الملعونة للقيام بوظيفتها، وقد نجد ما يدفع هذا القول من الحركة التركية التي أفلحت كل الفلاح، ولكن لا ننسى أن زعيمها لا يزال على قيد الحياة، ولعل التاريخ يقول عن هذه الحركة كلمة أخرى بعد موت مصطفى كمال.

وأكبر سبب في فشل هذه الأحزاب أن غايتها بعيدة، وغرضها الذي ترمي إليه لا يمكن لمسه باليد إلا بعد أزمنة طويلة وجهاد شاق مستمر، والشرقي

المعمم المغفل ذو الملابس الفضفاضة لا يعمل للغايات المؤجلة الفائدة وإنما يريد شيئاً يضعه في يده لوقته ويأكله لساعته.

ولكن هذا الشرق المسكين يحتفظ بزعماء صدرت الصحف بخطبهم وبلاغتهم، نظروا إلى حركات الأحزاب السياسية من بدئها إلى نهايتها، وكانوا يبتسمون سكوتاً وعرفوا ما هو مرض المريض وما هو دواؤه فتقدموا في غير ضجة وفي غير مظاهرة، وعملوا فأفلحوا وصار حزبهم الأغلب المسيطر، واندمج فيه الوفدي، والدستوري، والشعبي، والاتحادي. نذكر من هؤلاء الزعماء محمد طلعت حرب باشا الذي أسس بنك مصر، وكان دعامة يقوم عليها أكثر من عشرين شركة صناعية وتجارية يعمل في كل منها الألوف من الموظفين والعمال المصريين، ورسم هذا الرجل العظيم الطريق فجرت فيه الشبيبة تتسابق في ميدان الأعمال الحرة، وأفاق الناس من غشيتهم وفتحوا أعينهم على الحقيقة وعرفوا أن ما يمكنهم تحصيله من طريق السياسة في عشرات السنين هو في تناول أيديهم إذا التمسوه عن طريق العمل الاقتصادي، وأصبحت الزعامة الحقيقية لرجال الاقتصاد، والواقع أن المصالح المادية والمنافع الملموسة أدعى إلى اجتماع القلوب، واتحاد الأيدي من الدعوات السياسية التي تفلح وتخفق ويتخذها العاملون صناعة يأكلون منها ويغشون الناس. ولا تستطيع عصبة من الدجالين إنشاء بنك أو شركة ولا إنشاء دكان. ولكنها تستطيع إنشاء ألف حزب دستوري حر، ووطني وبلدي، وعربي ومالطي...

فالمشاريع الاقتصادية المؤسسة على النظم الثابتة، والمتجهة إلى غاية سديدة هي اليوم أنفع وأجدى للشرقي الفقير من العاجل والآجل.

ويكون من المضحك بعد ذلك أن يقوم العاملون، ومن لا صناعة لهم ولا حيثية ولا معرفة في قليل أو كثير من الأمور، ويستظلوا تحت خباء مقطع من الوطنية والاستقلال ويسيطروا من تحته على البلاد وأهلها ويجعلوا نصب أعينهم معاداة رجال المال وأقطاب الأعمال ليظهروا هم وحدهم في هذا الوجود، وينصبوا أنفسهم أصناماً تعبدها الشعوب في ضلال الأحزاب الشرقية.

جريدة (الزمان) 18 أفريل 1933

الزعامــة في الشــرق

ليس الشرق بلاد الجماعات ولا الأحزاب، بل هو في كل أدواره يقاد بزعيم يجره إلى الهدى أو الضلال. ولم تنجح فيه حركة تغيير إلا وكان اسم الزعيم فوقها، سواء كان هذا الزعيم خليفةً أو ملِكاً أو شيخ زاوية. وحتى عندما سلك طرق الغرب في الانقلابات الاجتماعية كان في سلوكه هذا تابعاً لزعيم، وبحسب ما لشخصيته من القوة يكون نجاح الحركة. وعلى هذا يجب أن تحاط الزعامة بهيبة وعزة كما تحاط النفائس بالحراس والحراز. فلا يتعرض لها الأجلاف والأغبياء وطلاب القوت، مهما كانوا مخلصين في نواياهم غيورين على أمتهم، وحسبهم أن يكونوا في الصفوف لا فوق الرؤوس، والمتزعم إذا هجم على ما لم يخلق له ولم يستكمل لأجله العدة من جاه ومال وعلم وحسب ونسب فتح لغيره من الدهماء باب المنافسة والإقدام، فتضيع هيبة الزعامة وهي رأس مال الشرق في تطوره. وهي مع الأسف ضائعة مغمورة لكثرة منتحليها والمتصدرين لها. وقد تكون الزعامة شهوة في نفوس الكثيرين من الشرقيين والغربيين، ولكن هذه الشهوة عند الغربيين تخطر في نفوس الأغنياء والأذكياء ومن لهم نصيب وافر من العلم، أما عند الشرقيين فيولع بها كل مفلس الجيب، خاوي الرأس يلتمسها ولو بينه وبين نفسه، ويعلنها بين شلة من أخوانه، أو بين أربعة جدران في بيته، ومن هنا كثرت في الشرقيين ألقاب الرئاسات والأمارات كشيخ سجادة الطريقة الفلانية، وزعيم الطائفة الفلانية، ومولانا الأكبر زيد والأفضل عمرو. وأعرف من غلبته شهوة الزعامة فراح يجمع جنوده ويثبت حسبه ونسبه وما له من فخر قديم وجديد، فيكتب بطاقته على هذه الصورة:

فلان . . .

«رئيس ذرية سيدنا عمر بن الخطاب».

ولعل الناس لو سرحوا كالسائمة لكانت حالتهم أفضل من قيادتها برئيس من هذا النوع، أذكر أنني حادثت أحد الموظفين بوزارة المعارف المصرية في هذا الموضوع فقال:

جاءني خطاب في البريد ففضضته فإذا هو كما يأتي:

نقابة المعلمين.

هذه النقابة تتشرف بدعوتكم لحضور اجتماعها الذي سنعقد في شارع كذا تحت رئاسة الأستاذ فلان للنظر في أحوال المعلمين الخ . . .

قال هذا الموظف الذي يشرف على كل كبيرة وصغيرة من أعمال المعلمين، فأخذني العجب من رئيسنا هذا، ألف نقابة في بيته بين عشية وضحاها، وراح يدعونا إليها بالبطاقات المطبوعة. وذهبت على سبيل الاستطلاع فوجدت مغروراً من طريدي الأزهر، اجتمع حوله عشرات من المعلمين المرفوتين من مدارسهم، ومن آخرين يريدون تقديم أنفسهم لوظائف التعليم. قال وحاولت إقناعهم بأنهم هازلون فخابت محاولتي. وكانت هذه النقابة سبباً في وجود عدة نقابات أخرى على هذا الطراز الممسوخ.

وكذلك تفعل بقية الطوائف والهيئات الأخرى ولا تلبث الحرب أن تشتعل بينهم وتعصف بمصالح من يتبعونهم.

وأخطر الزعماء وألزمهم للشرق، هو ذلك الزعيم الذي يحمل تالد المجد عن قومه الغابرين، ويشتد بسواعد متينة عن عصبية قومه الحاضرين، يضيف إلى هذا جهاده الذي قدمه بين يديه في حياته كلها، وسجاياه العالية التي تميزه عن الغوغاء والمتشابهين. ولن يفلح بعد هذا كله حتى يكون من رجال الوقت متسلحاً بعلوم العصر. إذا تكلم ارتفع صوته على كل صوت. ورن صداه في كل سمع. بل لن يفلح بعد هذا كله إلا إذا كان عظيم الألفة عالي الهمة بعد

نفسه بضعة من أمته. يفنى في سبيلها ولا تفنى في سبيله. وهذا الزعيم هو المستبد العادل الذي وصفه الحكماء للشرق.

وقـل لي بعد ذلك ما هي الزعامة التي يقفز إليها الرعاع من الدكاكين، وكراسي القهوات بعد أن عرفوا في كل حياتهم بوخامة المنبت، ورثاثة الحياة، وعاشوا يمدون أيديهم إلى أنصاف الفرنكات، ويشاركون كل مخلوق في قوت يومه واليسير من كسبه؟ إنها رزية تبلى بها الأمة. وكارثة دونها كوارث القحط والجراد. وقد خابت كل أمة يقف على رأسها، ويبقى على زمامها مخنث مائع، أو جبان خائر يدمغها بحقارته أو يسمها بميسم جبنه وخنوثته، ثم تنتهي زعامته بالغنيمة له والخسارة على الأمة.

هذه الزعامة الحقيرة تقوم في الأمة التي تفقد أفرادها قوة التمييز وينقادون لكل ناعق بمبدأ كاذب، أو متاجر بسلعة موهومة، فلو التفت كل فرد إلى قيمة زعيمه، وتفقد فيه كل ما يجب للزعماء من الصفات لعرف لمن يولي ثقته وأين يضع آماله.

أما إذا عميت الأبصار فالمتشرد زعيم، والمتسول زعيم، والسخيف والأبله والمعتوه زعماء... واللص زعيم الجميع، والله أعلم.

جريدة (الزمان) 28 نوفمبر 1933

الذكرى السادسة لزعيم مصر

فرغت مصر في الشهر الماضي من الاحتفال بإحياء ذكرى زعيمها العظيم (سعد زغلول باشا) عاهل الشرق كله في القرن العشرين. ولا شك أن تونس وغيرها من الأقطار الشرقية تشارك مصر الكبرى في تجديد شعورها نحو فقيدها في كل عام.

وبهذه المناسبة يجمل بالقارىء التونسي أن يكون بين يديه من هذه الجريدة عـدد يشتمل على بعض ما يجب معرفته عن ذلك الزعيم المحبوب، فالذكرى لها في النفوس أثر معروف.

تلك هي الذكرى السادسة لفقيد البلاد وزعيمها الخالد سعد زغلول. وقد رأيناأن نورد بهذه المناسبة نَتفاً عن حياته منذ نشأته إلى اليوم الذي تغمده فيه الله برحمته، بعد أن أدرك المجد كله، مجد الزعامة ومجد التقدير والاحترام، من جميع من عرفوا مصر ووقفوا على نهضتها الأخيرة.

من هو سعد ووالد سعد[1]؟

هو المرحوم الشيخ إبراهيم زغلول من بلدة «أيانة» بمديرية الغربية. وكان سيد قومه وعمدة بلده. عظيم الجانب جليل القدر. جعل داره الفسيحة منتدى عامراً بقومه، يؤمونه في أوقات الفراغ على غرار ما يصنع الفلاحون، ليصيبوا منه متعة السمر، وطرافة الحديث، والشكوى من المظالم الفادحة، ومعالجة وجوه الحيف والعدوان.

---

(1) يداخلنا الشك في أن هذه المقالة قد يكون بيرم نقلها عن مصدر مصري لم تقع الإشارة إليه، وإن كانت تشير إلى مكانة سعد زغلول في نفس الكاتب.

وكان والد الزعيم يهوى السلاح فيمتشق السيف الهندي، ويلتف برداء حريري ويمتطي كرائم الخيول، ويلقى ركبه الحافل بمظاهر الجاه في هاتيك السنين من الإكبار والتوقير ما هو خليق بشيخ جليل القدر مثله.

وكان محبوباً في قومه، وتلك سجية غير متكلفة فيمن يسودون على أهل القرى، فكان لا يبالي أن يبذل ماله وجاهه في سبيل ذي الحاجة والمضطر، ويدفع ضريبة الجاه عن نفسه بما يملك من قوة وجهد وستطاعة. مواسياً للضعيف آخذاً بيد العاني والمظلوم.

ومما يروى عن استهانته بالأخطار في سبيل الدفاع عن كرامته، أن كانت مصر في ذلك الحين ترزح تحت أعباء الطيش والاستبداد من أولئك الأتراك الذين كانت أنوفهم متورمة غروراً وكبراً، وأقفيتهم صاعدة إلى الوراء تيهاً وصلفاً. وحدث أن عمدة في مديرية الغربية اعتدى على موظف ـ من أولئك في مرتبة مأمور مركز ـ وكان يلقب حينذاك بناظر القسم فكان جزاء العمدة أن قضي بشنقه، وأن تلبث جثته ثلاثة أيام في ساحة المديرية ليتعظ منها كل من تحدثهم نفوسهم أن يعترضوا على الناظر في سلطان كبريائه وغروره، وطاف في ذلك الحين «ناظر القسم»، على زراعة الشيخ إبراهيم زغلول. وكان أنف الناظر يعالج أن يحدث ثغرة في السماء. ثم لقيه مصادفة وراح الناظر يحادثه متعجرفاً طاغياً حتى لقد أغلظ للشيخ في القول، فما كان من والد الزعيم إلا أن جذب الناظر من فوق جواده، وأوقعه حتى الأرض وراح يضربه بكل ما يملك، وانتهى الخبر إلى صهره المرحوم عبدالله أفندي بركات (والد المرحوم فتح الله بركات باشا)، وكان في حداثة الصبا فجاء سريعاً، وعاتب الشيخ على ما حدث وأثار ذكرى العمدة الذي شنق. فلم يبال الشيخ ما عسى أن يكون مصيره ما دام قد انتقم لكرامته، ثم مضى المرحوم عبدالله بركات سريعاً حتى أدرك الناظر وظل يروحه عن نفسه ويساومه حتى رضي أن ينزل عن إهانته لقاء مائة دينار.

وعجيب ما يستخلص المرء من حادث كهذا، أن كان إبراهيم العظيم يفتدي كرامته بروحه. وأن يكون المرحوم فتح الله بركات باشا خبيراً بالدهاء

والحذق، فينال حقه كله من طريق سهل ميسور. ولعل القراء يذكرون أن سعداً كان ينفح قراء (البلاغ) بمقالاته المحكمة البليغة. وأنه كان يذيلها التوقيع «س. أ.» وذلك لأن اسم والده ابراهيم زغلول واسمه «سعد» فكان يأمر كاتبه أن يوقع بهذا الامضاء. ولم يكن الكثيرون يعرفون اسم والد الزعيم الكامل.

والدة الزعيم:

هي المغفور لها السيدة مريم ابنة المرحوم الشيخ عبده بركات، ونسبه يتصل بسيدنا أبـي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان المرحوم الشيخ عبده بركات من الموسرين، وقد اشترك مع ساكن الجنان المغفور له محمد علي باشا والي مصر في زراعة الأرز بالبلاد الشمالية بمديرية الغربية. وكانت تسمى تلك المناطق في العرف القديم بدهليز الملك.

وقد تزوجت السيدة مريم بوالد الزعيم في نحو عام 1270 هجرية أو 1271 هجرية وكانت بارة صالحة. وقد ولد الزعيم الخالد في شهر ربيع الأول سنة 1273 هجرية على ما حققه المرحوم فتح الله بركات باشا.

نشأة سعد:

كان سعد في الخامسة من عمره حين توفي والده إلى رحمة الله عن خمسين عاماً فأدخل في مكتب القرية وظل فيه نحواً من خمس سنوات وقد أدرك في خلالها تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم. وفي الثالثة عشرة من عمره قصد إلى الأزهر الشريف في عام 1290 هجرية مع ابن خاله عبده بركات سعد يسكن منزلاً مستقلاً في جهة سيدنا الحسين بربْع العناني. وكان منزله محط رحال الكثير من أصدقائه ومن الذين كتب لهم التفوق والبطولة في تاريخ مصر. من بينهم الأستاذ الإمام محمد عبده والشيخ عبدالكريم سليمان. وإبراهيم الهلباوي بك، والسيد وفاء إبراهيم اللقاني بك.

وكان سعد في ذلك الحين يرتدي الزي الأزهري من جبة وقفطان وعمامة. فلما عين في وظيفة «باشمعاون» لمديرية الجيزة خلع هذا الزي وارتدى الزي الافرنجي، وقد توفي رحمه الله وفي حوزته عباءة من الصوف الأحمر كان يرى مرتدياً لها في أخريات أيامه.

وفي ذلك العهد كان سعد يدخن. ويكثر من التدخين إلى أن أصيب رحمه الله بالربو في سنة 1904 ــ وكان مستشاراً ــ فمنعه الطبيب من التدخين فامتنع فعاودته الرغبة فيه، ثم امتنع مرة أخرى إلى النهاية. فلم يكن يطيق في أخريات حياته أن يشم رائحة الدخان.

ومكث سعد بالأزهر الشريف أربع سنوات. وكانت روحه لم تطق الصبر على ما كان عليها الأزهر حينذاك من فوضى وبرم بها. وكان فقيد الشرق المرحوم جمال الدين الأفغاني ككل عصري ديني ــ يعالج في بحوثه الآراء الجديدة، ويعمل على أن يستمد من الدين الحنيف وسائل النهوض بالشرق كله وهنا كان لا بد أن تصطدم آراءه بالاستعباد الذي يجري في ربوع الشرق فلم يكن يبالي أن يحاول هدم صروحه بكل قوته: ومن هنا كانت له الحظوة في نفوس شبان الشرق عامة ومصر خاصة. وكانت الثورة العرابية ما تزال تبذر بذورها لتثبت، وكان الظلم الكثير يمهد للثورة ويفتح أمامها أبواب التحرر.

وعند هذا التحق سعد في سنة 1881 بوظيفة محرر في جريدة «الوقائع المصرية» وكان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبده. فلم يكن عسيراً على سعد الذي أشربت نفسه مبادىء الحرية والرغبة في الخلاص أن يخرج بالمقالات مما كان لها من أسلوب عقيم ومغزى سخيف في ذلك العهد، إلى أسلوب طليق متحرر ومغاز جليلة سامية في محاربة حكم الفرد، والتغني بالحرية والاستقلال، وحار الرؤساء في هذه الجرأة. فلم يلبث طويلاً في هذه الوظيفة، بل نقل منها «باشمعاون» الجيزة.

ونشبت الثورة العربية حينذاك، وطارت هذه الشرارة التي لم يكن بد من أن تطير لتحرق كل ما هنالك من حصون الطغيان والظلم، وتدمر ما ابتنى الأتراك من معاقل الفساد والشر. وظلت الثورة مشبوبة تعصف بكل شيء إلى أن استقرت فقبض على سعد بتهمة أنه عضو في جمعية سرية تعمل لقلب نظام الحكم. وبقي في السجن شهوراً ثم أفرج عنه وقد بريء. وحينئذ اشتغل بالمحاماة في سنة 1884 ميلادية. وذاع عن سعد في هذا الحين ما جعل حظه في

الاقبال وفيراً. وكان معروفاً عنه أنه لا يقبل قضية إلا أن تكون عادلة. وكانت المحاماة في ذلك الحين لا تتورع أن يندس في صفوفها غير الأكفاء. فلما استوى سعد في مقعد المحامي الضليع، عظم شأن المحاماة وارتفع قدرها.

وخرج من المحاماة إلى منصب الاستشارة. فكان فيه القاضي العادل الخبير ــ فوق ثقافته القانونية بما هنالك من أسرار المجتمع المصري وأحاجيه ــ ومن الاستشارة إلى الوزارة حيث عين وزيراً للمعارف في سنة 1906 في وزارة المرحوم مصطفى فهمي باشا، وكان من قبل رئيساً لمشروع الجامعة المصرية لأنه كان قد فكر في مشروعها وهو مستشار مع زملاء من بينهم المرحوم قاسم أمين بك.

وعندما عين سعد وزيراً للمعارف كان سلطان «دانلوب» قد طغى على كل شيء. ولم يعد لأحد معه رأي، وكان يبغي أن يقبض على عنان التعليم في مصر ليحيله إلى سخرية فاضحة. فجاء سعد إلى وزارة المعارف وكان أول عمله أن جعل ينزل بمستر «دانلوب» من سماء جبروته وكبريائه حتى أوصله إلى المكان اللائق به بين موظفي الوزراة؟ ثم عين سعد وزيراً للحقانية مرتين في وزارة بطرس غالي باشا. وأسفرت جهود الأمة حين ذاك عن نوع من الشورى انتهى إلى إنشاء الجمعية التشريعية. ثم أجريت انتخاباتها فاختير سعد وكيلاً منتخباً لها، وظل في موقف المعارضة حتى عطلت الجمعية التشريعية بنشوب الحرب العالمية.

وهنا اعتكف سعد في منزله يستجمع قواه كلها للحدث الجليل المنتظر. فلم تكد تضع الحرب أوزارها حتى وثب سعد ينادي بحرية بلاده. وكان ما يعرف الناس في مصر وفي غير مصر من إجماع الأمة على اختياره زعيماً. ثم نفي إلى مالطة وظلت الأمة وفية له تدافع عن قضيتها وتجاهد في سبيل خلاصه حتى أفرج عنه وسافر إلى باريس لشهود مؤتمر السلام.

وجاءت لجنة ملنْر إلى مصر. ثم اقتنعت بأن لا سبيل إلى التفاهم مع المصريين إلا أن يأذن سعد فجرت المفاوضات بينها وبين الوفد، وأسفرت عن خضوع ملنر.

وفي سنة 1921 عاد سعد إلى مصر فكتب التاريخ بأحرف جليلة لمجده سطوراً من نور في صفحاته الزاهية عن جلال استقباله والحفاوة بمقدمه.

وفي سنة 1922 نفي سعد ورفاقه إلى عدن أولاً ثم إلى سيشل ثانياً. وبعد هذا انتزع سعد من رفاقه ونفي إلى جبل طارق، وظل هناك إلى أواخر سنة 1923 حيث أفرج عنه وعاد إلى عرينه أسد في ثياب زعيم.

وجرت الانتخابات في ذلك الحين للبرلمان فأسفرت عن فوز منقطع النظير. ودعي سعد في سنة 1924 إلى تأليف الوزراة فألف وزارة الشعب. وظلت في مقاعدها، وسافر سعد في هذه السنة إلى أوروبا بعد أن وقع عليه حادث الاعتداء الأليم من شاب طائش، للمفاوضة مع وزارة العمال الأولى، غير أن هذه الوزارة كانت تعاني أخطاراً داهمة ثم عاد سعد وظل في دست الوزارة حتى وقع حادث السردار المشؤوم. واحتل الانجليز القمارق وأطلقوا أيديهم في السودان، فاستقال سعد من الوزارة لهذا الغرض، وظل سعد يدافع ويجاهد ويناضل حتى سقطت وزارة زيور باشا بقوة الائتلاف وأعيدت الحياة النيابية، وانتخب سعد رئيساً لمجلس النواب إلى آخر حياته.

هذه لمحة يسيرة من سيرة سعد العظيم في حياته كلها. تدل على أن الرجل كان زعيماً منذ ولد. وأن زعامته ليست وليدة النهضة الأخيرة. رحمه الله رحمة واسعة وألهم مصر العزاء في مصابها الفادح بفقده وإن كان العزاء فيه غير ميسور.

خطب سعد:

خطب سعد تسمى بالمكان الذي ألقيت فيه كخطبة شُبرَا، أو خطبة البرلمان، وخطبة سان استفانو، ولكل واحد منها مزية من البلاغة، وقوة السبك والعظمة النفسية، ويتذاكرها الناس كما يتذاكرون المعلقات السبع، ويحفظ كل قارىء وقارئة في مصر ما يستطيع من هذه الخطب أو فقراتها، كما كانوا يحفظون في الزمن السابق مختارات من فحول الشعراء والخطباء. ولا أعلم غذاء للذهن الشرقي أدسم ولا أنفع من خطبة لسعد يتأملها القارىء ويحفظها. وهنا

نستأذن لضيق المقام بنشر أقصر خطبة وهي المسماة سان استفانو التي ألقاها في الاسكندرية، بعد عودته من مفاوضة مستر مكدونالد رئيس الوزارة الانجليزية.

إحدى خطب سعد:

سادتي:

ليس من قصدي أن ألقي في هذا المكان خطبة، لأن المكان واسع جداً، وصوتي أضعف من أن يبلغ المسامع، فلهذا أقتصر على كلمة شكر أوجهها إلى الأمة المصرية جمعاء في أشخاص حضراتِ شيوخها العظام ونوابها الكرام. أشكر الأمة على هذه الحفاوة البالغة في حضرات أولئك المحترمين. وإني لفخور، وإني لمسرور، لأن أرى هذا الاحتفال بعودتي، مع أني عدت ولم أحقق أماني لبلاد (هتاف وتصفيق).

أماني البلاد وعزائم الأمة:

نعم. لم تتحقق أماني البلاد في هذه المرة. ولكن ما شعرت به من اتحادكم، وأحسست من حرارة حماستكم، وما علمت به من تصميمكم على أن تصلوا إلى حقكم، يشجعني على أن أسير معكم إلى النهاية (هتاف شديد متوال). ومن ذا الذي لا يتشجع بهذهالعزائم المنعقدة. بهذهالأصوات المرتفعة من أعماق القلوب. بهذه الحماسة المتأججة في الصدور، لما سميتموه سعياً كريماً، ذلك السعي الذي يتكلل بالنجاح. نعم، عزائم تحملني على أن أستميت في السعي للحصول على استقلالنا.

الكرامة مصونة والحق محفوظ:

لقد صرحت غير مرة في البرلمان وخارجه، أنني مستعد لأن أحدث أي إنسان كان في شؤون بلادي. واثقاً من نفسي، وعارفاً بأمانتي. أريد أن أناقش أي شخص في حقوق بلادي، فإن أقنعته وظفرت منه بغايتي فهذه خدمة أديتها. وإن لم يقتنع فواجب قضيته. على هذا الاعتقاد سافرت. موطناً النفس على أني أحادث من أشاء في أي مكان صادفت في شأن بلادي. فلما أتيحت الفرصة للمحادثة مع كبير وزراء الانجليز انتهزتها، وذهبت وقلت: إما أن نال حقوق

البلاد، وإما أن أعود كما أتيت، والكرامة مصونة والحق محفوظ (تصفيق حاد وهتاف ليحيا الرئيس الأمين).

المحادثـــات:

سارت المحادثات، وأيدت مطالبكم كما رأيتموها في الكتاب الأبيض. ولكن قد أغفل منها مطلب أريد أن ألفت الأنظار إليه، ذلك المطلب أن يكون مقام المندوب السامي في مصر مثل مقام أي وزير لأية دولة أجنبية.

ضمان المعاهدات وضمان القوة المادية:

لم تبحث كل هذه المطالب، مطلباً مطلباً، لأن البحث شمل أولاً القنال. فأريد أن يكون هناك قوة عسكرية لحمايته. وألا يكون لهذه القوة دخل في شؤوننا، ولنا أن نشترط ما نشاء من الضمانات والشروط التي نتقي بها تدخل هذه القوة في شؤوننا الداخلية. طلبوا هذا، وأصروا على طلبهم، وقالوا: إن هذا لازم لحفظ كيان الدولة الانجليزية، أو بعبارة أخرى لسلامة الأمـلاك الانجليزية وأبوا أن يجعلوا الأمر كما تقتضيه إتفاقية سنة 1880 من الحيدة. تلك الاتفاقية المعقودة في الأستانة، كما أبوا أيضاً جعل القتال تحت حماية الدول. وقالوا: إننا نريد أن تكون هنا أمور إيجابية مادية لسلامة أملاكنا، لأنه لا معنى لضمان الورق!. الورق لا يعتمدعليه في مقل هذه المهام، وإنما يعتمد على وجود قوة مادية. فقلنا لهم إن كانت الأوراق في يد القوي لا ضمانة فيها، فكيف تكون ضمانة في يد الضعيف؟ إننا نريد أن تخلو بلادنا من عساكر الأجنبـي نحن أصحاب الأرض التي يمر القنال فيها. فنحن المكلفون بحراسته، فإن لم تكن الحراسة كافية، وهذا القنال أصبح طريقاً عمومياً، فمن المناسب أن يكون تحت حماية الدول جميعاً، أي عصبة الأمم، هذا هو الشيء الطبيعي اللازم في هذه الحالة لحماية القنال. فقالوا: إننا نريد أن يكون الأمر بيننا وبينكم، ولا دخل للدول فيه. نعم. الأمر بيننا بينكم. هذا أمر عام ومنفعته عامة للجميع، فلا معنى لأن يختص بالحماية منتفع دون منتفع آخر. فأظهروا التشدد في هـذه المسألة. كما عرفت أنهم متشددون في ما يختص بالسودان، وأنهم لا يريدون أن يغيروا من حالته الحاضرة شيئاً.

بعد قطع المحادثات:

فقطعت المحادثات. وعدت إليكم حافظاً حقوقنا، فاستقبلتموني هذا الاستقبال الباهر. إننا لم نخسر شيئاً، بل كسبنا أن واجهناهم بحقوقنا وأدلتنا عليها، وأنهم يأبون علينا بغير حجة ولا دليل، وأننا لا نعتمد إلا على أنفسنا، فالواجب علينا مضاعفة جهودنا، وتمتين إتحادنا، وأن نتشدد في التمسك بحقوقنا، وألاَّ ندع فرصة تمر إلا ونطالب فيها بحقوقنا فما مات حق وراءه مطالب.

لواء واحد وكلمة واحدة:

إن الأمم لا تعرف اليأس مطلقاً، الأمم يجب عليها أن تكون دائماً آملة، ساعية في تحقيق أمانيها، وسبيلنا كما قلت لحضراتكم أننا نظل متماسكين، متساعدين متضامنين ونسير نحو لواء واحد وتحت كلمة واحدة، هي الاستقلال التام لمصر السودان (هتاف متواصل).

التمسك بالسودان:

نقول ذلك ولا نعتبر مطلقاً، ولا يحل لنا أن نعتبر أن السودان منفصل عنا، بل جزءٌ لا يتجزأ منا، يجب أن تكون عند كل مصري عقيدة لا تتزعزع، وإيمان لا يتخلخل بأن السودان جزء غير منفصل عنا، كما كان جزءاً متصلاً بنا دائماً، ويجب أن نحتج بكل ما فينا من قوة على كل عمل وكل شيء يخالف هذا الحق، وكل عمل يراد به فصل هذا الجزء من الكل. نحتج عليه ولا نعتبره ولا نقبله بحال من الأحوال، ما دام فينا نفس يتردد.

لا بد من الجلاء:

وكذلك لا نقبل بعد أن نهضنا هذه النهضة، ضحينا بكل الضحايا، وبعد أن سرنا هذه الخطوات ولا يحل لنا مطلقاً لا نحن ولا من يأتي بعدنا، أن نقبل أن يكون على أرض مصر عسكري أجنبي (هتاف شديد وتصفيق حاد).

مبادىء الأمةمبادىء الوفد:

إذا قلت هذا لكم الآن، فلم أقل جديداً، ولكني أكرر ما قلته قديماً،

هذه مبادئكم التي استقيتها منكم، ورددتها الآن عليكم، هذه مبادىءالوفد من يوم تأليفه، والتي رددها أعضاؤه، والتي هو متمسك بها إلى الممات.

إن كانت حياتي قصيرة فإن حياة الأمة طويلة، يجب على الآباء أن يلقنوا هذه المبادىء وهذه الحقائق لأبنائهم.

تجديد عهد الوزراة لتنفيذ برنامجها:

إن سبيلنا ونحن في الحكم ألا نفرط في شيء من حقنا، وألا نترك مصلحة من مصالحنا المشروعة، وأن نبقى أمناء على البرنامج الذي وضعته الوزارة يوم تأليفها. نبقى عاملين على تنفيذ ذلك البرنامج في الداخل والخارج. هذه هي طريقتنا التي عاهدناكم عليها، والتي نجدد العهد الآن بالسير على مقتضاها، والله يفعل ما يشاء.

جريدة (الزمان) 5 سبتمبر 1933

النهضة الاقتصادية في مصر

قبل خمسة عشر عاماً كان المصريون إذا شرعوا في تأليف شركة أو إنشاء بنك لاقوا من أمتهم ما يلاقيه الآن مؤسسو المشاريع في تونس. ذلك أن الكثيرين منهم ألفوا الشركات العديدة وانتهت بالخيبة، إما لعدم الخبرة بإدارتها، وإما لتلاعب الأعضاء بالأموال واقتسامها بينهم، حتى صار الشعب المصري ينفر من كل من تحدثه نفسه بإنشاء أي مشروع اقتصادي ولا يوليه غيرَ سوء الظن.

ولكن رغم هذه الكبوات ظهر فرسان الاقتصاد في الميدان، وعزموا على الجولة التي لا تخيب، فبدأ طلعت حرب باشا بإنشاء بنك مصر بعد أن جعله بنك الأمة الذي لا يحق لغير المصري حمل أسهمه، وأعلن أنه ليس بنك أشخاص يقتسمون ربحه، فأقبلت جميع الطبقات على شراءالأسهم، واشترتها في مدة قليلة فزادها صنفاً آخر من الأسهم فاختطفتها الناس، وأخذ البنك يستغل هذه الأموال في إنشاء الشركات الوطنية البحتة التي لا ينتفع منها أجنبي بقرش واحد، وجعل يوزع على مساهميه كل عام أرباحاً أدهشت جميع البنوك في مصر، وأولته الأمة ثقتها إلى حد أن طلعت باشا اليوم عندما تخطر في رأسه الفكرة، فما هي إلا إشارة من بنانه حتى يهب الشعب لتنفيذها. واليوم أي في مدى خمسة عشر عاماً يملك بنك مصر نحو خمسة عشر شركة. في واحدة منها وهي شركة النسيج يعمل 12 ألف عامل يعولون 12 ألف عائلة.

ولم يغير الله ما بمصر حتى غيرت ما بنفسها، فقد كان المثري المصري صلب الرأس لا يحب أن يخرج ماله من صندوقه إلى دار أخرى يجهل نظامها. وما يجري فيها، وكان يظن أنه ما من شركة صناعية، أو بنك إلا وأموالها نهب

ليد المدير والأعضاء يغترفون منها ما يشاءون، فلما فتح عينه وعرف أن في الدنيا شيئاً اسمه الحساب والنظام، ولمس بيده نزاهة من تعرضوا للأعمال الاقتصادية أقلع عن الجمود وبدل ظنه المسيء بالثقة العمياء.

هذه الحركة المخيفة حملت انجلترا على النظر في الأمر، رأت أن تنشىء في مصر وزارة تسميها وزارة التجارة تشرف على الأمور الاقتصادية أي تضع يدها على كل كبيرة وصغيرة من مرافق البلاد. وتعادل بين مصلحة المصريين ومصلحتها. ولكن الذين يتذوقون حلاوة العمل والربح، أجدر أن لا تصدهم عن المضي في سبيلهم أية حيلة. وقد دبت روح المنافسة بين الأفراد الذين كانوا لا يتلمسون الرزق من غير الحكومة، فأنشأوا وحدهم الشركات الحرة تعضدهم أموال مواطنيهم وثقتهم.

نريد أن نقول في النهاية إن الأعمال الاقتصادية تقوم على قواعد علمية وفنية ثابتة، ولا يتطرق الفشل لأي شركة تقوم على هذه القواعد حتى ولو كان الفاتحون بأمرها من أكبر اللصوص وفاسدي الذمم. ولا يلزم للنجاح إلا أن يكون المؤسس والمساهم من المتنوّرين العارفين. وقد شاهدنا بعض الممولين من تعرض عليه الاشتراك في المشروع الواضح المضمون الربح فيشترط أولاً قبض الربح ثم يعدِ بالمساهمة فيما بعد. . .

كان أمثال هذا الشخص كثيرين في مصر وهم في تونس اليوم أكثر حتى على كثرة المتعلمين. حدثنا السيد محمد بدره[1] عن النشاط الاقتصادي الذي شاهده في مصر وعن روح النظام التي تشمل القوم كأنهم في «لفربول» أو «هامبورج». فعسى أن تتغير النفوس في بلادنا المحتاجة إلى تعاون أفرادها أكثر من غيرها، وتتخذ مصر مثلاً تحتذيه فليس هناك فرق كبير بين الشعبين.

جريدة (الزمان) 30 افريل 1935

---

(1) محمد بدرة وجه بارز من وجوه النخبة التونسية، وهو الذي يعزى إليه فضل استقدام بيرم إلى تونس. وقد كتب عنه أوّل مقال في جريدة (الزمان) بتاريخ 2 جانفي 1933 يقدمه للقراء التونسيين، وقد استمرت صلاتها حميمة إلى حين إبعاده عن تونس.

مصير عصبة الأمم

... والأمم بعد أن مزق بعضها بعضاً شر ممزق، في تلك الحرب العظمى، ذاقت عظم الخسارة، وفداحة الهول، وأشفقت من الوقوع مرة أخرى في حرب عظمى أو صغرى، فهداها التفكير إلى إنشاء عصبة مباركة، تخرس أفواه المدافع وتوقف جريان الدماء...

فأرسلت كل أمة رهطاً من عبادها الصالحين، ونساكها المتهجدين، وبنوا هيكل السلام في (جنيف)، ووضعوا جميعاً أيديهم عليه مقسمين بأن يكون هنا المرجع والمآب لكل مشكل عالمية.

وتنادوا في العالم يبشرون الضعيف بالانتصاف من القوي. ويقولون بالمساواة بين الأبيض والأسود، فأطلقت الأمم المستضعفة زغاريد الفرح، وعلقت آمالها بأستار هذه الكعبة الجديدة.

وقف السادة الأميركان مخترعو هذه اللعبة بعيداً، يتفرجون منها على أوروبا ومقدار حبها للسلام فبدأت العصبة عملها المبارك بوضع أيدي الدول المستعمرة على رقاب البقية الباقية من الشعوب الضعيفة، وهي فلسطين والعراق، وسوريا، وشرق الأردن، تسلمتها حلالاً طيباً بلا حرب. وإنما بانتداب، ونظنه أشنع أنواع الحرب وأروع ضروب الانتصار.

أقصت العصبة عن رحمتها أمماً هي في مقدمة الأمم، وسمتها المغلوبة المنبوذة، وهذه أيضاً خطوة كبرى في استئناف السلام المنشود...

وألقيت أمام العصبة أول مشكلة عالمية، وهي مشكلة «كورفو» فأجفلت

منها، وقال قساوسة السلام لا يجب تعريض سمعة عصبتنا لخطر الإخفاق في التوفيق بين المتخاصمين، وهي في أول عهدها بالحياة، وكذلك فعلوا بمشاكل أخرى وأحالوها على «لاهاي»، وأحياناً على الله عز وجل.

واتضح أن (عصبة الأمم) ليست إلا بعض الأمم المشهورة بحب السيطرة والتسلط، وباقي أعضائها «نوامر» تصوت لها في جلب المنفعة ودفع المضرة.

وفهمت اليابان وهي عضو في العصبة أكذوبة السلام المكتوبة على بابها، فمدت بلا استئذان يدها إلى منشوريا، وإذا بالاستعماريين يتعرضون لها، ويريدون عرض المشكلة على العصبة أي على أنفسهم. ولولا لباقة اليابان التي بصقت على باب العصبة، وانسحبت لعرضوا المشكلة فعلاً على بساط البحث، وأصدروا أحكامهم بوجوب كف اعتداء اليابان على منشوريا المسكينة الضعيفة. فوق هذا اغترت العصبة بجلالة صرحهاوقدسية حظيرتها، ولا تزال تبدي احتقارها لأعظم أمم الأرض وتعدهم من أنفها بأنها سوف تقبلهم إنشاء الله، إذا برهنوا في المستقبل على أنهم من البشر.

وقُسم للعراق على أن تبرهن أنها من البشر بالبترول الجاري تحتها. فجرتها انجلترا من يدها وألقت بها على مقعد مع الآخرين، وراحت تنتظر هفواتها لتطردها ثانية. وكانت قد ربت لها بضعة آلاف آشوري يتجولون في شوارع بغداد بالخناجر والبنادق، وأوصتهم شراً بالعراق وأهله. فلما أدبتهم الحكومة هناك زأر الأسد البريطاني، وانتصبت قامة العصبة لتحكم في هذه المشكلة التي هي من اختصاص قومسار البوليس في كل أمة. ولا تحسب أن إدخال العراق العصبة كان لمجرد إكرامها وإثابتها على آبار البترول، وإنما ليكون عنقها في أيدي الأمم كلها بدلاً من بريطانيا وحدها.

وكم ساوموا الألمان على دخول العصبة حتى جعلوها آخر الداخلين، وجعلوا بقاءهم فيها رهيناً بحسن سلوكهم. ولكن الألمان بعد أن عرفوا الحقيقة أساءوا السلوك عمداً، وخرجوا منها هازئين فارتجت جدرانها، ولكنها تتجلد وتتظاهر بالغطرسة. ومن الصعب بعد ذلك أن تجد العصبة زبوناً جديداً يرتمي على

أعتابها ويساومها على استقلاله ومصالحه ثمناً لكرسي من كراسيها. وتنصف الدول التي لا صالح لها في الاستعمار وإذلال العباد لو انسحبت هي الأخرى ما دام وجودها في العصبة قاصراً على تعضيد المعتدين، والتصديق على رغبات الطامعين.

وإذا كانت أمّتان من أرقى الأمم تبرأتا من العصبة، وتنكران وجودها فأولى بالمساكين ألا يقفوا على بابها، أو يرجوا منها الإنصاف، فشكواهم ضائعة وآمالهم خائبة، والعصبة على مقربة من الافلاس.

جريدة (الزمان) 24 اكتوبر 1933

مـــؤتمـــر المســـك

ذاعت إشاعـة تحت أعماق البحار عن انعقاد مؤتمر عالمي سمكي يقرر مصير السمك تحت البحر. وبالفعل أخذت وفود الأسماك تتوافد على مكان المؤتمر، وهو هضبة عظيمة في عمق المحيط الاطلنطيكي.

وكان (الفوك) هو الذي أذاع الدعوة وأخذ على عاتقه تنظيم المؤتمر، وكان أعوانه يتقبلون الوفود، ويضعون كل صنف منها في المكان الذي يليق به.

وكانت ساعة الاجتماع رهيبة فخمة حيث بقيت رأس الهضبة خالية ــ لمكان الرئيس ــ ودارت حولها فصيلة من الأسماك الكبيرة الحمراء وهي أرقى أنواع السمك تليها فصيلة (التن) الفضية اللون، ثم جماعة (النازيلي) وفروعها من (لـوت) و(قارص) وخصصت آلاف المقـاعد الفـردية والمغـاور لاقامـة السرطانات بمختلف كلاليبها عقاربها، وكذلك الحلزونات والمحارات الكبرى التي لا تقوى على الحركة.

كما جاء إلى المؤتمر مليارات من الأسماك الفوسفورية، فكانت ترسل من أجسامها النور الكافي لإضاءة المكان.

وهبط الرئيس متدلياً من الطبقات العليا في أبهة وجلال حتى استوى على مكانه بين تحيات الوفود. ولما ساد الصمت أعلن الدلفين افتتاح المؤتمر، فوقف الرئيس قائلاً:

---

(1) مقال سياسي رمزي عن الصراع البشري، وتطاحن الأمم، وابتلاع القوي للضعيف.

أبناء جلدتي الأعزاء،

يشغل البحر أربعة أخماس الكرة الأرضية، ويحوي في قاعه من عجائب الخلق ما لا يخطر على ذهن بشري، وهو بأمواجه وعواصفه ينافس اليابسة في جبروتها وطغيانها. ثم هو الحرم الأمين الذي يمتنع على أعظم الجبابرة من الانس والجن، ومع هذه العظمة فالبحر في نظر الآدميين ليس إلا مورد غذاء يملأون منه بطونهم، ويردون إليه ما تخرجه هذه البطون، وقد بلغ من بعض الآدميين أن يسموا أنفسهم سادة البحر.. ولو شاء البحر لأخفاهم عن عين الشمس بموجة واحدة.. وقد طال سكوت البحر مدى خمسين ألف قرن أو أكثر استخفافاً بأمر اليابسة ومن عليها. ولكن اليابسة غرها هذا السكوت، وتركت أهلها يتناسلون إلى أن زاد عددهم اليوم على مليارين آكل. كلهم يحب السمك أو نوعاً منه على الأقل حتى (الببوش)[1] المسكين يجد من يحتال على صيده وأكله.

وقد رأيتم أيها الأخوان مختلف الشباك والشراك التي تحاك لصيدنا بغدر ودناءة، ولا يبعد أن يأتي يوم ينزل فيه الصيادون إلى قاع البحر ويقبضون علينا بالأيدي. فما ترون؟

قال الدلفين: يجب علينا معشر الأسماك أن نحترم أنفسنا قبل أن نطالب الغير باحترامنا. إنني شخصياً لا أشعر بمضايقة الآدميين، إذ لا يرغبون في لحمي، ومن ناحية أخرى فإني لا أقترب من شواطئهم، وأكتفي بالاقامة في القاع المظلم أكثر فصول السنة. ولم يكن حضوري هذا المؤتمر إلا على وجه التضامن النوعي. أما الذين وقع عليهم الضرر فلا يعنون بأمرهم هذا. مثلاً سمك (الماكرو) الذي لقب بأوسخ الألقاب جعل الكسل طبعه لا يتحرك للسعي على رزقه كبقية المخلوقات. وإنما ينتظر غيره ليأتيه بالرزق فارتخى قوامه وسقط قشره، وماتت حيويته حتى يكاد الآدميون يقبضون عليه باليد، فلو أن هذا المخلوق ترك الكسل واستعمل جوارحه لما خلقت له وعود نفسه على العيش في المياه العميقة الباردة، ثم حذت حذوه بقية الأسماك الحقيرة «كالسردين»

---

(1) القواقع.

و«النزلي» لانصرف الآدميون إلى أكل الحيوانات التي تعاشرهم على وجه الأرض.

فأجابت سردينة: إني أحتج على صدور هذا الطعن من السيد الدلفين، وأطلب طرده من المؤتمر لأنه على الأقل ــ السمكة الوحيدة التي تعطف على الآدميين وتنقذهم من الغرق.

الدلفين: لو علمت الحقيقة أيتها السردينة لتبين لك أنني أدافع عن كرامتك، أنت وأبناء جنسك تباعين بسعر 16 صولدي الكيلو، و«الماكرو» ليس أحسن منكم حالاً ولو كنت كالقروص العزيز النفس، العالي الهمة لاحترمك كل مخلوق.

فتقدم التن من الدلفين وقال: أراك تزهو وتفخر بخفة حركتك ومقاومتك للأمواج ونسيت أن في هذا المؤتمر من هو أقوى منك وأشرف أصلاً وعائلة. إنني ملتصق بالآدميين أكثر منك، وأتبع بواخرهم التي تروح وتغدو فألتقط مما يتساقط منها من مأكولاتهم ولحومهم. ومع هذا فلا أحبهم مثلك.

الجرّاف: تذكرت حكاية البواخر، قد تبعت مرة إحدى بواخر (المساجري مارتيم) من مرسيليا إلى بيروت فلم يسقط منها شيء.

الورقة: تكذب يا حضرة الجراف، المراكب التي لا تلقي شيئاً في البحر هي المراكب اليابانية، أما المراكب الفرنسية لا سيما (المساجير مارتيم) فإنها تلقي الدجاجة الناضجة، والفخذ المشوية وطبق الفاكهة بما فيه، وقد صحبت مرة إحداها فوجدت مريوس البحار يقذف زميله انطوان بالبيض المسلوق. وكان يتساقط كله في البحر وألتهمه أنا.

السبارس: كل حقير الشكل خسيس الأصل لا بد أن يكون حقير التفكير. هذا مؤتمر عقدناه للنظر في حالة القاطنين تحت الماء بلا فرق بين الجميع، وقد شرح لنا جناب الرئيس الغاية التي يجب الوصول إليها فإذا بي أجد بعض الأخوان ينسى كل هذا. ويدخل في خصام فرعي ولا يفيد المؤتمر. إنني ألاحظ الخطأ في جعل المؤتمر عاماً لجميع الأسماك، وكان من حقه الاقتصار

على سكان البحر الأحمر والأسود والأبيض، والبوسفور، والأرخبيلات الحقيرة. انظروا لماذا اجتمعنا؟ وانظروا ماذا يقال؟ خصام.. شتم.. بيض مسلوق.. 16 صولدي، ما هذا الهذيان؟

اللانقوست: تبارك الله الذي يضع الحكمة على لسان أضعف الخلق. انظروا ماذا يقول السبارس المسكين. يعني سبارس وطز حكمة.

السبارس: أتهزأ بـي يا ذا القرنين.

اللانقوست: إذا طال لسانك فإني أبتعلك.

اللانقوست: وماذا تصنع هـذه الأشواك.. وهـذه القرون.. وهـذه القرّامات؟

الفوك: اسمعوا جميعاً، إنني بلا شك أرقاكم في النـوع، أعيش في البحر والبر وأعرف أنثـاي، ونرضع أولادنا، وأحافظ على نظام الملكية، ويمكنني أن أحصل رزقي بالطرق الشريفة، ولعلكم لا تجهلون جميعاً أنني اشتغلت مدة لاعب كرة في (الفولي برجير) بمدينة باريس. فأنا أغناكم عن النظر في أمر البحر وسكانه. وقد كفاني أن أعرف من هذا المؤتمر أن قومي لم يخلقهم الله لغير الأكل، وعليه عولت على أن أكون أول الآكلين.

وأعلمكم الآن بانفضاض المؤتمر.

جريدة (القلم الحر) 26 جوان 1938

وصـــايا الفـــاشيست العشر

وهي التي تستمد منها الفشيستية الايطالية روحها وقوانينها:

1 ــ اعلم أن الفاشيستي يجب أن يعتقد باستحالة السلام الدائم.

2 ــ إن أيام السجن ذات بركة وثواب.

3 ــ إنك تستطيع حماية الوطن بصفيحة بنزين.

4 ــ الرفيق يجب أن يكون أخاً لأنه يعيش في وطنك ويفكر كتفكيرك.

5 ــ لم تعط لك البندقية لتتركها للصدأ، بل لاستعمالها في الحرب.

6 ــ لا تقل أن الحكومة هي التي تدفع ــ لأنك أنت الدافع، وأنت الذي أردت الحكومة، وأنت الذي تلبس ملابس الحرب.

7 ــ النظام نور للجنود وبدونه لا يوجد غير الفوضى والتشويش.

8 ــ موسوليني دائماً على حق.

9 ــ ليس للفاشيستي عذر إذا عصا.

10 ــ ليس عندي في هذا العالم أغلى من حياة موسوليني.

جريدة (الزمان) 18 افريل 1933

مقـالاتـه الفـكـريـة



الإســلام شجــرة مباركة

قبل أن يوجد على وجه الأرض مسلم واحد، أي منذ 1352 عاماً قمرياً كان فيها عدة أديان أقلها عمراً المسيحية، وعمرها هذا خمسة قرون، ومعتنقوها في الشرق والغرب عشرات من الملايين، دعْك من اليهودية، والبوذية، وتغلغلهما في القدم، فالإسلام ولم يتم بعد أربعة عشر قرناً إلى اليوم يعد أقصر الديانات عمراً، ولكنه يضم أربعمائة مليون إنسان، أي أنه يزيد عشرين ضعفاً تقريباً عن اليهودية التي تعيش منذ نيف وخمسين قرناً.

فإذا قارنا بينه وبين الأديان الأخرى مع مراعاة نسبة تاريخها وعدد معتنقيها لرأيناه ينتشر بسرعة فائقة، ويسير بخطى حثيثة، وليس له من وسائل النشر والدعاية غير كتاب واحد مكتوب بلسان واحد وهو القرآن العربي. ومع هذا فعدد المسلمين من غير العرب خمسة أو ستة أضعاف العرب المسلمين. ونحسب أن لو كان القرآن كبقية الكتب الدينية مترجماً إلى جميع اللغات، وكان للإسلام دعاة ومبشرون منتشرين في كل ناحية من الأرض كما هو حال المسيحية اليوم، لكان هذا الإسلام دين الإنسانية جميعاً. ولنعد على أصابعنا كم من المارقين خرجوا من الإسلام لا ليدخلوا ديناً آخر، ولكن ليلتمسوا منفعة حقيرة أقل من القليل، ولنحسب عدد المارقين من الأديان الأخرى ليدخلوا في الإسلام أفراداً وجماعات وقبائل وشعوباً بحذافيرها، رغماً عن الدعايات الشنيعة التي تفترى على الإسلام نجدهم أكثر من الكثير.

ولو أتينا بإنسان سليم الفطرة، خيّر النفس لم يسمع قط بالأديان، وعرضنا عليه الديانات كلها لأرشدته فطرته إلى هذا الدين البسيط، الذي لا يقاوم

الطبيعة الإنسانية، ولا يتبرج في كهنوت معقد، ولا يجعل الناس أرباباً لبعضهم ولا ينكمش في جنس واحد من البشر، ولا يطلب من معتنقه إلا أن يكون شخصاً مطمئن النفس، رحيم القلب، عف الضمير يعرف حقوق غيره نافعاً للمجتمع، وهذه كلها فضائل يستشعرها الإنسان في طبيعة نفسه، ويرى أنه مدفوع إليها، ولو لم تدلّه عليها، رسل وحواريون ونبينا عليه السلام يقول الإسلام دين الفطرة، وإن شئت قل الفطرة السليمة هي الإسلام.

فدين متصل بالنفس البشرية هذا الاتصال ويمازجها هذا الامتزاج، لا خوف عليه من دعاة يحاربونه، أو ضعيف ينصرف عنه.

جريدة (الزمان) 2 ماي 1933

محمد صلى الله عليه وسلم

ما من مسلم إلا ويرغب من صميم قلبه أن لو عاش في زمن النبي الكريم ليملأ قلبه من نور طلعته، وهيبة شخصه الجليل. وما من مسلم إلا ويود لو منّ الله عليه برؤية أبي الزهراء في عالم الأحلام والأرواح، فإن من رآه في المنام كمن رآه حقاً كما قال عليه الصلاة والسلام.

أطيل التفكير في أوصافه الشريفة التي جاءت في كتب السيرة، وأتبين أوصاف جميع بني الإنسان لعلي أجد فيهم بعض ما عرف من أوصاف النبي الكامل، فلا أجد وصفاً من أوصافه إلا في كل رجل معروف بالعظمة والكمال. كان إذا صافح رجلاً لا يرسل يده حتى يكون مصافحه الأول الذي يرسلها. وأنت تشعر في مصافحة الناس بشيء كثير من أخلاقهم شعوراً يسري إليك من اللمس. فتعرف من يبغضك ممن يحبك. ومن يود إطالة رؤيتك ممن يود التخلص منك. ألا ترى بعضهم لا يكاد يصافحك حتى يسحب منك يده كأنما لسته عقرب. وآخر يمدها مرخاة كالعجين المائع لا تحس منها حرارة ولا قوة، لأنه يصافحك بلا قلب.

محمد الرقيق الشعور العظيم الأخلاق يخشى أن يسحب يده من مصافحه كيلا يترك في نفسه أثراً يحزنه. وإذا التفت التفت معاً.. انظر إلى العظمة التي تنهال عليك من هذا الوصف الذي يقرؤه الكثيرون ولا يلتفتون لما فيه، أو يحسبونه بعض الأوصاف العادية التي تعرف عن شخص بعينه، وتلازمه دون غيره. الالتفاف معاً ولا يكون إلا من شجاع مقدام لا يستعمل في الالتفات نصف عينه أو ربع وجهه، أو يدير رقبته دون جسمه ليتلصص خائناً أو يتجسس

مخاتلاً أوليفاجىء فريسة. والمخلص الطاهر هو الذي يلتفت إليك كله بجسمه وقلبه ليقول لك، ها أنا ذا بقلبي وقالبي لا تخشى مني دسيسة، ولا تتوقع مني خبيثة صلى الله عليه وسلم.

في كل عام تعلق الرايات على بابك، وتشعل الأنوار فرحاً بمرور هذا اليوم عليك وأنت تحمل اسم المسلم، ولكن هل تفقدت شخصك وعرفت أن كنت تتحلى ببعض شمائل المصطفى؟ اجتهد أن تقلد نبيك في بعض خصاله فإنه المثال الأعلى للرجل الكامل الذي تنشده الإنسانية منذ خلقت. اللهم عطر قبره بصلواتك وسلامك، وعمِّر قلوبنا بمحبته واحترام شريعته وسنّته.

جريدة (الزمان) 2 جوان 1936

الإســلام يتمــطّى

بعد نوم طويل رأينا الإسلام يبعث برسله إلى آفاق الدنيا ليبشروا به كما تفعل الأديان الأخرى، غير أن الفرق، هو أن الإسلام لم يعرض نفسه، بل كان مطلوباً مرغوباً فيه. وقد وردت على إدارة الأزهر في هذه الأيام خطابات من جميع أنحاء العالم تطلب إليه أن يرسل علماء من المسلمين لينشروا دين محمد. وكان الأزهر قد أرسل إلى الصين بناء على رغبتها ثلاثة من العلماء فعادت الصين تطلب أضعاف هذا العدد. ومثلها اليابان أرسلت تطلب عدداً من العلماء بنسبة سكانها، بل أن جماعة من الأمريكان تقدموا برغبتهم إلى إدارة الأزهر لتوفد إليهم من يعلمهم الدين الإسلامي لأنهم عرفوا طرفاً من تعاليمه، فاستشعروا بأن في هذا الدين سعادة قلبية تلطف كثافة الحياة المادية المملولة.

وليس إرسال البعثات للتبشير بالدين بدعة جديدة، فهو نفس ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حيث بعث للعالم رسله بكتبه، ففتح هؤلاء الرسل بالكتب أكثر مما فتحه المحاربون الغزاة.

لكن المسلمين قنعوا بما وصلوا إليه من عشرة قرون فتأخروا. واستطاب السادة العلماء طعم الراحة بعد أن تأبطوا أوراق الشهادات بأنهم «علماء» وحتى الدين الذي يترفهون على حسابه لم يلتفتوا إليه، لا من ناحية الناس، ولا من ناحية أنفسهم.

اليوم يقتنع الأزهر بوجوب إرسال الرسل إلى أنحاء الأرض، ولا ندري إن كان ذلك لكثرة العلماء العاطلين من الوظائف، أم أنهم شعروا بقدسية هذه المهمة ووجوب منافسة الأمم الأخرى التي تنشر أديانها بكل وسيلة، ولو صاح بالأزهريين منذ خمسين عاماً من يأمرهم بالضرب في الأرض لإرشاد الناس إلى

دين الحق، لما عدم فيهم من يرميه بالكفر، ويجادله بالآيات والأحاديث، وقد كان هذا موقف الأزهريين مع كل صائح ونذير. فالإمام محمد عبده كان كافراً عند معاصريه من المعممين، ثم جاء بعدهم خلف استحسن دعوته فقط ولم ينفذها.

واليوم جاءت طبقة أخرى تضعه مع الخلفاء الأربعة، وتعترف بإخلاصه لله وعباد الله ولكن هذا الاعتراف وهذا التحول لا يتم في وسط كوسط الأزهريين إلا في خمسين عاماً أو أكثر. . . لأن عقول هؤلاء الناس تزحف ببطء شديد، أو هي آسنة عفنة إن أردنا التعبير الصحيح.

لو كان للأزهر فضل فهو في وجوده لا في مجهوده، ولولا أن الناس يأتونه من كل فج ليتعلموا، ولولا أن الصين، أو اليابان أو أندونيسيا تطلب العلماء ضامنة أرزاقهم بطبيعة الحال ما تحرك أزهري واحد.

لقد عرف الأزهر اليوم رغبة البشر في اعتناق الإسلام، ورأى نجاح العلماء القلائل الذين أرسلهم، فهل تأخذه الكبرياء، ويستولي عليه الدلال ويقف عند هذا الحد. إن الواجب يفرض على الأزهريين في هذه الحال أن يستعدوا لهذا النوع الجديد من الجهاد فيضعوا برنامجاً يدرسه العلماء الذين يريدون الرحيل إلى بلاد الله، ويتعلموا مختلف اللغات، ويدرسوا تواريخ وعادات الشعوب التي يرحلون إليها ليترجموا كلام الله وأحاديث نبيه. وحسبهم أن يرحلوا خفافاً لا يحملون أموالاً لإرشاد الناس أو حملهم على الدخول في الإسلام.

هذه النية المباركة تستطيع أن تجعل الألوف الذين يتخرجون منها كل عام ملائكة تحمل العرفان، وأكاليل السلام على رؤوس الشعوب بمالها من الميزانية الوفيرة والأوقاف الكبيرة. بل ستجد من المحسنين من يمدها بالمال كما يفعل كل الأغنياء في الأديان الأخرى.

الآن يتمطى الإسلام، وعسى أن يكون هذا التمطي مقدمة للانتباه والنشاط. والحق أن علماء المسلمين من أزهريين وغيرهم إذا لم يهيئوا أنفسهم لنفع الناس وخدمة الدين، واقتصروا على مدِّ أيديهم للقبلات، فلن يقال إلا أنهم عاطلون يعيشون عالةً على شعوبهم.

جريدة (الزمان) 3 جويلية 1934

الإســلام الــبريء

ناشدتك الله من هم المسلمون اليوم؟ هل هم المقبَّعون؟ أم المعمَّمون؟ لا جناح عليك إذا قلت إن الإسلام قائم في أوروبا، وأمريكا ومعدوم في الشرق ولك ألف دليل.

قل وأنا معك:

فرض الإسلام على المسلم الظهور بالكرامة والمروءة وحثه على معرفة واجبه نحو نفسه ونحو المجتمع، وأنت لا ترى في مدينة إسلامية إلا المناظر المزرية بكرامة سكانها من العِليَّة إلى السفلة. في كل ركن مظلم مخلوق هارب من البرد، هارب من النور الذي يفضحه، ويكشف أطماره البالية التي تزيد في كراهة الناس له. وليس إلا في المدينة الإسلامية ترى ألوفاً من صغار الأطفال يعولون أنفسهم بأجسامهم الضعيفة وعقولهم القاصرة، ويباشرون أحقر المهن مباشرة تضرهم أكثر مما تنفعهم، وما برحت المدينة الإسلامية «فابريكة»[1] بشرية تقدم للعالم طوائف البؤساء وذوي العاهات «فابريكة» دائمة الحركة مباركة الإنتاج.

والمدينة الغربية تستنكف أن يمشي في شوارعها عاجز يتسول فيجرح كرامتها. وتستفظع أن يتشرد فيها طفل يفتش على قوت ساعته. بل إن هذه الأنواع انقرضت منها لا بالذبح ولا بتركها تموت جوعاً ولا بكلمة «الله ينوب» وإنما الملاجىء أنشئت لحماية صغيرها وطفلها. وديار الإصلاح فتحت لتثقف

(1) مصنع.

جاهلها وعاطلها. والمعامل أسست لنفع القوى منها والانتفاع به. فهذه المبادىء الإسلامية قائمة هناك يراها المبصر بعينه. ويلمسها الأعمى بيده.

وبعد، فمن هم الذين يجب تسميتهم بالمسلمين؟

الجواب بين دفتي المصحف. والمسلمون لا يفتحونه كثيراً، وإنما يمسحون عليه بأديهم، ويمرون بها على وجوههم تبركاً، ويقبلونه معتذرين عن جهلهم بما فيه. قالوا ولا يفهمه إلا الله تعالى، ولهم الحق. لأنهم آخذون في الابتعاد عن لغتهم العربية بتفشي الأمية فيهم، وبانصراف المتعلمين منهم إلى اللغات الأجنبية.

اعلم أنه لا إسلام ولا نصرانية ولا يهودية حتى ولا وثنية تتشرف وتفخر بأن ينتسب إليها البلداء ذوو العواطف الجامدة المستسلمون للكسل والذين إذا مرحوا في النعيم قست قلوبهم، وتصامموا عن الصوت الخفي اللطيف الذي يهمس في ضمير كل إنسان. وإذا صاح بهم هذا الصوت الإلهي وألح بهم: «أن اطعموا البائس الفقير» أخرسوه بقطعة من البرونز أو النحاس، ومروا في سيارتهم على أجساد النائمين في طرقاتهم، ويخيل إليهم مع هذا أنهم أعرف الناس بالمروءة، وأشدهم محافظة على الظهور بها، ويحصرونها أعزك الله في ما يأتي:

الإسراع في المشي مخل بالمروءة كما قال الإمام زيد. حلق اللحية مسقط للشهادة عند الإمام فلان. النعل الأسود مكروه بإجماع المذهب... ولا تحسبهم يجهلون الأمر، بل يطوون جوانحهم على الحقيقة، كما يفعل المجرم الفطن. فإذا نوقشوا الحساب على ترك كتاب الله، والتعامي عما فيه حكموا على مناقشهم بالحكم الواجب أن يحكم به عليهم ــ وهو الكفر. الكفر نعم لأنه حكم سهل إنه قريب المأخذ له صبغة شرعية تطمئن إليها النفوس، ومناسب لدعوى التعلق بالإسلام والظهور بالذب عنه.

والفرنجة اليوم لا يبالون أن ينسبوا إلى الإسلام كل ما في هذه المخلوقات من المخازي. ومن أين لهم أن الإسلام بريء؟ هل بعث منهم محمد عليه الصلاة والسلام.

جريدة (الزمان) 8 جانفي 1933

العــام الجــديــد

اليوم يبدأ العام الثاني والخمسون بعد الثلاثمئة والألف، وهي مرحلة طويلة قطعها الإسلام تحت الشمس وأخذ مكانه المنيف فوق الأديان الأخرى، وظلت منائره تعج بأصوات الداعين إلى توحيد الله، حتى هذه الساعة. وإذا كان في أهله من انصرفوا عنه وتناسوه فشأنه في ذلك شأن الأديان الأخرى في هذا العصر المادي الذي قست فيه القلوب، وانصرفت إلى المنافع الملموسة.

اليوم تعاد ذكرى الهجرة النبوية، وتسجل الحركة المباركة التي قام بها عظيم العالم وسيده محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام خارجاً من مكة، حيث تألب عليه جماعة الجاحدين المعاندين إلى مدينة يثرب مهد الحرية، وإعلان الحق.

يعود هذا اليوم على المسلمين وهم بين ضارب بالبندير، أو نافخ في مزمار، أو مترنح في غيبوبة وصرع، أو عاقل يفخر بترك الصلاة والصوم.

تعود ذكرى انبلاج الإسلام فترى المبادىء القويمة التي جاء بها قائمة في غير المسلمين وتظل هي بينهم غريبة كاسفة.

هؤلاء الزعانف الأخلاط الذين يتبرأ منهم كل دين وشعب هم الملتصقون بالإسلام زوراً وصفاقة. قيل لهم أنكم مسلمون فاكتفوا. وقيل لهم أنكم سلالة الأقوياء الفاتحين فصدقوا.

هذا يوم يطلع على المسلمين وكأنه يطلع عليهم فجأة لأنهم لا ينظرونه ولا يحسونه، والجمهور الساحق من المسلمين يعرف مارس، وأبريل، وأغسطس ثم يفيق من ذهوله إذا قيل له ويل أبيك اليوم أول المحرم.

انظر إلى الخلف لتعرف ماضي الإسلام، بل انظر إلى فوق لأنك الآن في الحضيض لتعلم أنك هابط إلى الأسفل لا سائر إلى الأمام.

انظر إلى عرش عبدالملك بن مروان، وهارون، وصلاح الدين، وقارن بينه وبين عرش شرقي الأردن، وبغداد، ولحج، وزنجبار وأشباهها.

وانظر إلى الرازي، وابن زهر، وعبداللطيف البغدادي، وابن رشد، وابن خلدون، وقارن بينهم وبين «العالم العلامة» و «الزكي الفاضل» و«الشريف المحترم».

أيها العام لست أحسن من سابقيك وإخالك شراً منها جميعاً، فادخل غير محتفل به، واذهب كغيرك غير مأسوف عليه، إلا أن يكون في ظهر الغيب ما يجهله البشر جميعاً...

جريدة (الزمان) 2 أفريل 1933

تـــجّـــار الصـــلاة

تأمَّل في طوائف المصلين تجد أن فيهم من أخذ نفسه بتأدية الفريضة حبّاً في طاعة الله، حتى جلبت عليه نفسه، وحتى لا يستطيع تناسيها والزوغان منها، لا يعنيه أن يراه الناس وهو يتوضأ أو وهو يخر ساجداً، بل لا يسائل قلبه عما أعده الله له، وللمصلين من الثواب العاجل أو الآجل.

هذا الصنف من المصلين قد تجده في صف التجار، والصناع، والموظفين الصغار، وأوباش الناس، تجده في جِلّة العلماء وسراة القوم. إلا أن المصلي الذي نستخير الله في الحكم عليه بالكفر هو ذلك الذي لا يذكر الصلاة إلا وهو وسط جمهور من الناس في سوق، أو في دار قد يكون عندهم ضيفاً، فيطلب أولاً الذهاب إلى المرحاض، ثم الطست والابريق يشغل بهما خادماً، ويشتغل آخر بالانتظار بالسجاة، ويقترح ألّا يصلي إلا في المكان الهادىء فيعزلون له الحريم إلى سطح الدار، ويغلقون الأبواب، وينهرون الأطفال إلى أن تنتشر في البيت سحابة من الكآبة تكبس على أنفاس القوم نصف ساعة، فإذا فرغ من هذه الصلاة عاد يقول: لقد دعوت الله أن يعمر بيتكم، ويديم عزكم، ويشفي مريضكم، ويردَّ غائبكم، ويستجيب الله لدعائي فيكم كما استجابه لي في غيركم.

فإذا كانت الصلاة في المسجد أرسل التحيات إلى أهل السوق من الجانبيْن، وتلكّأ قبل أن يلج المسجد ليصافح الأصدقاء والمعارف مستفسراً عن صحتهم وعافيتهم. ثم له مع الإمام جلسة، ومع المؤذن قصة، ومع المصلين ابتسامات أو إشارات، وتعلم أن هذا المصلي إمَّا ناظر وقْفٍ بينه وبين المستحقين ألف نازلة أمام المجلس الشرعي، وإما تاجر بينه وبين عملائه ألف مشكلة في

«الدريبة»[1] و«التريبونال»[2]. وتراه يدرس من القوانين ما ينفعه في مراوغة أصحاب الحق وتأجيل قضاياهم إلى يوم القيامة، وكلما أفلح في نصبه، أو نجح في اغتيال حقٍّ عدَّ ذلك من نعمة الله وبركة مواظبته على الصلاة، ويعتقد أنه في حلٍّ من أكلِ أموال عملائه في التجارة، ومستحقي الوقْف لأنهم تاركو الصلاة، وأن الله قد سلطه عليهم ليمحق أرزاقهم ويلحقهم بالتراب، وله الشكر سبحانه وتعالى أنْ خصه دون غيره من الصالحين بالانتقام من الصلاة من المتكبرين عن عبادته، فواعزة الله وجلاله ليصدعنَّ بأمر الله فيهم ولا تأخذه فيهم لومة لائم.

وأنت تعجب حين ترى المحتال الأْشِر، والنصَّاب الخطِر يحافظ على الصلاة ويؤديها في أوقاتها، مع أن الصلاة لا تنفع صاحبها في الحيل القانونية والمراوغات الفقهية، وفي إمكان النصاب والطمَّاع أن يباشر عمله بدون حاجة إلى هذه الصلاة، سواء كان يؤديها مخلصاً أو مُرائياً، وتَحار كيف يمكن الجمع بين النقيضتين، فاعلم أن الله قد سلط على كل امرىء ضميراً يحاسبه على ذرة الخير وذرة الشر، لا يستطيع أشد الناس ضراوة، وأصلدهم قلباً الهروب من ذلك الشيخ الواقف له في يقظته ونومه، فهذا المصلِّي الآثم إذا باتَ منتصراً أمام القاضي على الأرملة الجائعة، واليتيم الشريد والفقير المضطر، وحكم له القضاء بهضم حقوقهم لجهلهم بطرق المقاضاة فليس أمامه قوة بشرية تخيفه، ولم يبق إلا الإله الذي لا يعترف بالإجراءات القانونية، ولا تنطلي عليه جميع الأحكام. هذا الإله له ركعتان في الصبح وأربع في الظهر، ومثلها في العصر. وما أيسر ركعات المغرب والعشاء عندما يؤديها المصلي في الساعة التي يكون فيها غيره على موائد «الابيريتيف»[1]، والنتيجة هي الرضى المضمون من الله عز وجل والانتصار في الدنيا والآخرة، فالتاجر الماهر الحسوب هو الذي يسرق، ويقلب ويصلِّي!

جريدة (الزمان) 10 ديسمبر 1935

---

(1) هي المحكمة الشرعية.

(2) هي المحكمة المدنية الفرنسية.

(1) موائد الشراب.

الحمد لله

كانت للخطبة المنبرية في صدر الإسلام من الأهيمة ما للبلاغات الحكومية التي يصدرها اليوم الحكام المسيطرون، وكان المنبر بمثابة الجريدة الأسبوعية الرسمية التي ينتظرها الجمهور ليعرف منها ماذا يجري في المملكة.

ولما اتسعت رقعة الفتوحات ناب الولاة والعمال عن الخليفة في إلقاء الخطبة، ولكن الخطبة بقيت محتفظة بقيمتها كما لو ان الخليفة يلقيها بنفسه، ولكن في دور الانحطاط عُهد بإلقاء الخطب إلى شيخ منقطع للعلوم الدينية بعيد عن السياسة وعن الدنيا وما حوت. وأصبحت الخطبة لا تتغنى إلا بمواضيع الآخرة ولا ضرر من ذلك، لأن الذوات في قبضة أكفاء آخرين من غير علماء الدين يتعهدونها كما ينبغي لها.

إلا أن المتحذلقين من المسلمين غفر الله لهم أرادوا أن يكتبوا خطباً من إنشائهم يلقيها بقية العلماء على المنابر في كل بلاد الإسلام وعلى كر الدهور والأيام. وتوجد اليوم عدة دواوين من هذه الخطب يحتوي الواحد منها على خمسين خطبة بعدد أسابيع العام، وهي عبارة عن تقويم بعض فضائل رمضان ووقفة ذي الحجة، وحرمة المحرّم ونصف شعبان مكتوبة بعبارة مسجوعة تافهة لا جلال عليها ولا وقار، أضف إلى هذا أنك تسمعها منذ ثلاثين عاماً من شيخ يلقيها بتفخيم ووديع كصرير الدولاب أو الساقية، تسمعها منه اليوم كما سمعها أجدادك من عشرة قرون وسيسمعها أحفادك بعد عدة قرون أخرى.

أنا أحد المسلمين الذين يقضون فريضة الجمعة لم أهتز قط لما يقوله خطباؤنا مُكرَّراً معاداً، ولقد حفظته وحفظه المصلون. وإذا رأيتنا مطرقين فليس

معنى ذلك أننا نصغي لما يقول الشيخ وإنما كل منا يفكر في شيء آخر بعيد عن الخطبة وعن الصلاة والجامع كله.

لا نطلب من خطبائنا أن يقصوا علينا أنباء المعاهدات والحروب ولا شيئاً عن ميزانية الدولة، وإنما نقول لهم إن للمسلمين اليوم عيوباً وأدواءً لا يستنفذوا صبغها الخطب ويجد فيها كل خطيب موضوعاً خصباً لا ينفذ، وفي مقدور الخطيب أن ينهي أهل هذا الجيل عن البصق في الطريق، وعن سبِّ الدين آناء الليل وأطراف النهار وعن الضغينة التي مزقت شمل الألفة وجعلت الناس وحوشاً متناحرة.

لا تفهم أن حمى الدِّنج ملأ تحصد في العباد ويريد الناس أن يعرفوا كيفية الشعوب الوقاية منها بأي واسطة، ثم نرى الشيخ في ذلك الوقت يقف على المنبر ويقول للمرة التاسعة والتسعين بعد الألفين: عباد الله اعلموا أن الدنيا دار فناء ومفر، وأن الآخرة دار بقاءو ومقر.

نريد شيوخنا أن يعرفوا ما هو (البوكر)[1] ويصفوا بشاعته وسوء أثره. وأن يقرأوا شيئاً عن المخدرات البيضاء والخضراء والسوداء ليقولوا هل يحل تعاطيها أو يحرم، نريد أن يدرسوا حالة المزارعين وأصحاب الأملاك ويقفوا على مقدار تورطهم في الربا وينهوهم عنه ويرشدوهم إلى الخلاص منه.

سبقتنا اليوم بعض الممالك الإسلامية في إصلاح الخطبة المنبرية وتحويلها إلى أداة نافعة وهي من أقوى أدوات الإصلاح لأن المجتمعين في المساجد أكثر ألف مرة من المجتمعين في المدرسة الفلانية أو المسرح الفلاني. ففتحت مسابقات ووضعت جوائز للإمام الذي يتفوق على غيره في الخطابة وموضوعها فمنهم من نال الجائزة لأنه ألّف أحسن خطبة في مقاومة الآفات الزراعية، ومنهم من نالها لأنه يحسن الالقاء والتسلط بنبرات صوته على قلوب السامعين ومنهم من أخذها لبراعته في الوعظ الذي يلين القلوب ويسيل الدموع.

---

(1) نوع من القمار.

فهل لنا أن نلتمس من مشايخنا الأجلّة بدون عرض مسابقة وجوائز التطوع لتأليف خطب تصلح للآخرة والدنيا معاً.

إن إلقاء الخطبة المنبرية من دفتر مطبوع على الحجر منذ قرون لا يليق بقوم نسبهم مصابيح الدجى وأعلام الهدى وحَفظة الشرع وورثة الأنبياء.

جريدة (الزمان) 7 افريل 1936

هل تحترمون دينكم؟

هذه الطغمة الفاسقة تقترف من ضروب المعاصي ما يلحقها بسكان السعير الأسفل، وتبيت ناسية جرمها مطمئنة إلى إثمها، لا تذكر من كتاب الله آيةَ زجر، ولا من حديث نبيه كلمة وعظ، حتى إذا اشتجر منها رجلان على موسى، أو حذاء قديم خرج الاثنان إلى الميدان متسلحين بالمصحف، يتقاذفان بآياته الكريمة في خصامهما الوضيع. ومن هذه الطغمة وحدها تسمع الترامي بكلمات الكفر والالحاد، بينما المكلفون بالمحافظة على الدين خُرس بُكمٌ، لا وجود إلّا لأشباحهم.

كل السفلة تتغير أساليبها في الحياة، فلا تبقى اللصوص على طريقة واحدة، ولا الظالون على وتيرة واحدة، إلا سفلة الأديان، فالدين هو السلاح القديم والجديد لا يعنيهم أن الناس عرفتهم واستسمجت دعاويهم. ومعظم هؤلاء الرعاع يحمل القلم ليستعمله في تكفير من لا يعجبه. أو من لا ينتظر منه فائدة، ولكن يكون هذا التكفير إلا على صفحات الجرائد. وأما في أوكارهم التي ينكمشون فيها فالدين أول مسبوب على ألسنتهم، والتاجر ورفقائه، لا عمل لهم إلا أكل لحوم المسلمين بالغيبة، وتدبير المؤامرات لعباد الله الجادّين المخلصين. ثم لا يجدون ما يسترهم إلا التلفع بجبة التقوى يمشون بها في الأسواق، ولو كان لأحدهم بدلاً من هذه الجبة قليل من المال المهم أو الجاه، لما ظهر إلا في المواخير، ولا ذكر الدين بلسانه طول حياته مهما انمحق هذا الدين وكثر عدد الكفار والملحدين.

ويا ضيعة الدين الذي لا يجد من الأنصار غير مخنث يستغفر الله ويذكره.

ولص يستنجد بالله ويستنصره. وجهول لا يعرف الإيمان من الكفر، تطوع للجهاد في سبيل الله فوضع قبلته على يد المجوسي وبصاقه في وجه المؤمن ولا يدري الفرق بين العملين.

ويا ضيعة جيش جرار من المسلمين الذين يحترفون الإسلام بمرتبات شهرية يأخذونها فتنسيهم العالم بما فيه من أديان وأنبياء، ولا يحمدون الله إلا يوم الجمعة في ورقة يقرؤونها فوق المنبر، وكفى بالله شهيداً.

من عهد قريب ألقى الأستاذ العبيدي[1] محاضرة من الشعر التونسي، ليس فيها غير درس أطوار هذا الشعر، وترتيب درجات الشعراء في تونس ووصف أساليبهم وبيئاتهم فرماه بالكفر أديب مثله ويزيد عليه بأنه يقرض الشعر...

وبالأمس مثّلت إحدى الفرق رواية عربية مؤلفها الأستاذ عبدالله عفيفي، الذي هو إلى طبقة الفقهاء أقرب من الأدباء، والذي يكتب المقالات الحماسية المتتابعة في جريدة «البلاغ» طافحة بالإحساس الديني والغيرة الإسلامية، ونجحت الرواية لأول مرة في المسارح التونسية وقوبلت من الجمهور بحماس عظيم. وبدلاً من أن يتقدم حضرات حملة الأقلام بكلمة نقد، أو تقريض لهذه الرواية، قفز أحدهم ونشر في إحدى الصحف أن الإسلام في خطر عظيم من هذه الرواية.. ونصح المسلمون بمقاطعتها فأجاب عباد الله المسلمون الأذكياء نصيحته. ومن تفاصيل هذه الغزوة الدينية الناجحة تعرف تفاصيل تاريخ الجهاد الديني في هذه البلاد معرفة تامة، وتعرف بأنه إجرام متشعِّب تمتد شعبه إلى كل ناحية.

الذي أفتى بخطر هذه الرواية على الإسلام كاتب يعيش من أوساط الممثلين، وقد لا يعرف كم هي نواقض الوضوء، وفتواه هذه التي نشرها ترتب

(1) يعد الأستاذ الهادي العبيدي أحد أعلام الصحفيين التونسيين، وصديق بيرم، وقد تولى بعد إبعاده عن تونس رئاسة تحرير جريدة (السردوك) التي كان يحررها بيرم بعد إغلاق جريدته (الشباب).

عليها حرمان الفقراء الذين تعولهم الجمعية الخيرية من بضعة آلاف فرنك في هذه الأيام التي يعسر فيها الحصول على الصنْتيم.

وترتب عليها بعد ذلك إحراج رجل فاضل كالبشير معاوية رئيس الجمعية، فعدل عن قبول الرواية لفائدة الجمعية ما دامت إشاعة السوء قد قامت أمام وجهه تاركاً بعد ذلك نفسه عرضة لانتقاد الواقفين على حقائق الأمور.

وأخيراً اندك المسرح التونسي بضربة تقعده عن المسير إلى الأمام.

هل كانت كل هذه الجرائم في سبيل الله؟

كلا فهي من قرائنها وظروفها جريمة دبرتها جمعية تمثيلية أخرى، لا تطيق رؤية غيرها متفوقاً عليها فلم تأت خصمها من طريق الفن، ولا بمنافسة شريفة، ولكنها تعمَّمت والتَحت وأمسكت السّبحة، وقس على ذلك كل دعوى تسمعها من حماة الدين في هذا البلد.

أكاد أقول أن نسيان هذا الدين بالمرة، أوجب لاحترامه والمحافظة عليه، وأبعد به عن لعب الفجار الذين لا يلعبون به إلا في أحط أغراضهم.

جريدة (الزمان) 12 ديسمبر 1933

عــاشــوراء . . .

في هذا الشهر العربي يقوم أحد الأركان الخمسة التي بنى عليها الدين الإسلامي، واليوم يتمشدق المسلمون بالمحافظة على الدين بما لم يعـرف من أصحاب الأديان الأخرى. ونريد أن نبين مبلغ قيام الدين في هذه الأيام، ونعرف صحة دعوى هؤلاء المنتسبين إليه.

نعيد الدرس الذي ألقاه المؤدب علينا في الصغر وهو «بني الإسلام على خمس»:

شهادة أن لا إله إلا الله:

فهذه أخفّ القروض، ولا تكلف قائلها غير الألفاظ الخفيفة، ونصيبها من عناية الكسالى أكبر من نصيب الفروض الأخرى، فألفوا الكتب في بيان فضائلها وثواب قائلها، وحصروها بأعداد وكميات لكل منهامقدار كذا من أشجار الجنة وحورها، وولدانها، وقصورها. بل أصبحت تجارة يعيش منها عدد كبير من المخلوقات هم أرباب الطرق، ومن المحقق أن تسعين في المائة ممن يذكرون كلمة الجلالة عشرة آلاف مرة في اليوم لا يفقهـون لها معنى.

ومع هذا كله فالأغلبية الساحقة من المسلمين هم الذين يسبون الدّينَ علناً طول يومهم وليلهم.

إقامة الصلاة:

أول فرض ثقيل يستلزم الوضوء والحركة خمس مرات في اليوم، وقد تركوه من زمن طويل. والأقلية التي تغشى المساجد لا تشرف المسلمين أمام دينهم.

وهذه الحانات العامرة، والملاهي المكتظة تنبىء بمقدار المصلين وعددهم، والمسلمون يقولون إنهم يؤدون الصلاة في البيوت لأنها تجوز في كل مكان، والذي يتيسر له زيارة المعاهد الدينية، وهي المساجد، يرى الطلبة الذين يدرسون الدين مضطجعين على جنوبهم، أومنكبين على هذرهم في كل أوقات الصلاة.

إيتاء الزكاة:

قيل وما هي الزكاة؟ فكان الجواب إنكم أيها المسلمون مفروض عليكم إخراج ربع العشر من أموالكم للفقير والمحروم في يوم عاشوراء، ولا تغربن شمس هذا اليوم عليكم وفي حيازتكم دانق واحد من حق الفقير. فتنحنحوا وهرشوا، وقام كثيرون من علمائهم يحتالون على الهروب من الدفع بحيل مختلفة، أشهرها أن أحدهم كان يخرج زكاة ماله كاملة ثم يدفنها في قفة قمح ويعطي القفة لفقير ثم يشتريها منه بثمن مرتفع بالنسبة لثمن القمح، وبهذا تكون الزكاة قد خرجت من ذمته بطريقة شرعية وعادت إلي بطريقة أيضاً شرعية. أما بقية السواد من المسلمين، فقد توقفوا عن الدفع لعدم وجود «بروتيستو» يخيفهم، ولذعتهم ضمائرهم، فأعادوا السؤال عن الزكاة، فقال لهم بعض العلماء المحتالين إنها «التوسيع على العيال» فذهبوا إلى سوق «الفكة»[1] واشتروا البندق، والجوز، واللوزمن أنابيب«الفوشيك» التي يفرقع بها العيال وقالوا هاكم أيها العيال، ها نحن قد وسعنا عليكم، وأشبعناكم وأضحكناكم لنكون من المسلمين المكتوب لهم الجنة، وكل شيء بثمن حتى الشيء الذي نأكله.

ولعمر أبيك إن أعجبك هذا القسم: أن فرض الزكاة هو المحك الوحيد لمعرفة المسلم الحقيقي من المزيف المعمم، المجبّب، المبرنس وهو لا شيء. . .

لا تؤاخذوا العصبيين فهم أصدق الناس عاطفة، أنتم أيها المدَّعو الإسلام تمثلون الوثنية في أحمق تقاليدها، والجاهلية في أظلم عصورها.

---

(1) سوق المكسّرات بتونس.

صوم رمضان:

وهو الجوع. وإذا لم نقل إنه استمرار في الجوع الناشيء من الفقر، فهو تظاهر بالقوة كما يقال:

وتـجـلّدي لـلـشـامـتـيـن   فإنّي لريب الدهر لا أتزعزع

أو هو رياء يلجأ إليه المتظاهرون بالفتوة أو التقوى والورع، لأنه صيام تنقصه الواجبات الدينية الأخرى وأولها الصلاة، والصدق، وحسن الخلق.

حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً:

مع تحسن المواصلات واستطاعة أي كان قطع الألوف من الأميال ترى المسلمين يسافرون إلى فيشي، وكارلزباد، وأمريكا، واليابان. ولا يسافر منهم إلى الحج إلّا تاجر عامي، أو غني أمي، يرى الحج متمماً لبرنامج حياته التي بدأها بالزواج ثم النسل، ثم تزويج نسله، ثم هذا الحج.

وبعد سقوط هذه القواعد، وتعطيلها يغالبنا الضحك عندما نرى الحفاة الجنبينْ، والهزالى المدمنين، والجهلة المحرومين يهبون ثائرين ويندفعون ناطحين، ولم هذا؟ لأن الدين في خطر وهم حماته وتسألهم ما هو هذا الدين؟

يقولون: هو.. هو الإسلام.

جريدة (الزمان) 9 ماي 1933

البؤس في المدينة المنورة

وصلت حال سكان مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أقصى درجات الضنك، وهم الذين يعمرون يثرب ويجاورون الحرم الطاهر، لا زرع لهم ولا ضرع، ولا صناعات ولا مرافق، يبتغون من جيرة النبي صلى الله عليه وسلم مرضاة الله ومغفرته.

زار المدينة أخيراً أحد تجار الاسكندرية المشهود لهم بالصلاح والفضل، فأبصر شعباً لا يكاد يوجد فيه رجل أو طفل إلا وهو بالي الثياب هزيل الجسم، ورأى المنازل تكاد تنهار على من فيها مما اعتورها من الخراب، فطيرٌ إلى الصحف المصرية نداء يستندي فيه أكف المسلمين بالإغاثة، وقد أفاض في وصف ما حل بهؤلاء النساك من البؤس فانفتحت الاكتتابات في الصحف الكبرى، وبادر كل مؤمن بدفع ما يقدر عليه، وتألفت اللجان في جميع المدن والقرى ولم تبق هيأة أو جمعية أو نقابة إلا وسارعت في الاشتراك في عمل الخير. وحتى أقباط مصر المسيحيين لم يتعاموا عن واجب لا يلزمهم فترى في قوائم الاكتتابات عشرة جنيهات مدفوعة من انطوان بسخر، وخمسة من شنودة تفطر. . .

والمأمول أن تكون العناية بأهل المدينة في هذا الظرف موضع نظر العالم الإسلامي كله، ونعرف أن تونس في مقدمة البلاد التي تهتز لذكر الإسلام والمسلمين، فقد وجب عليها أن تتحرك لإغاثة مسلمي المدينة المنورة بما في طوقها. ونعتقد أنه لا يوجد فيها إنسان مهما بخل وشح إلا وفي نفسه بقية من الخير يريد صرفها في موضعها الذي تستحقه.

ليس للمسلمين اليوم أمل في غير إخوانهم وبني ملتهم فاصرفوا بعض

الحماس الذي نراه منكم في الملاهي والمسرات إلى البر بمن يستغيثون بالعالم الإسلامي وأنتم منه.

إن على الصحافة واجب النشر والدعاية وقد قصرت في هذا الباب أشنع تقصير ولم تشر واحدة إلى كارثة جيران النبي، ولم نسمع أحد شيوخ المسلمين وعلمائهم وجه إلى المصلين كلمة من فوق منبر الخطابة كما هو الواجب، كلنا صم بكم ونحن نعلم الخبر اليقين، أن التعامي يجوز على الناس ولا يجوز على الله فلتتحرك الضمائر ليختبر أصحابها أنفسهم إن كانوا مسلمين حقاً، أم هم يغشون أنفسهم بهذه التسمية.

للاكتتاب طرق عدة، أما أن يرسل المتبرع ما تجود به همته إلى جريدة (الجهاد) المصرية أو (البلاغ) وإما إلى بنك مصر باسم طلعت حرب باشا وليثق أن اسمه سينشر مع قيمة ما تبرع به، وبأن المبالغ ستصل إلى أربابها الفقراء كاملة غير منقوصة.

هذه الجريدة تفتح صفحاتها لكل رأي واقتراح في هذا الشأن وسلام على من سمع فوعى وقدم أخراه على دنياه.

جريدة (الزمان) 5 مارس 1935

الشمائل التونسية في نظر الغريب

تونس مدينة وديعة تستقبل الداخل إليها بمبانيها البيضاء المنخفضة، التي تلوح من بعد كأنها عقود اللؤلؤ المتناثرة، ترصعها شبابيكها الخضراء كفصوص الزمرد، ويشعر السائر في شوارعها الضيقة تحت الأقبية المعقودة والأقـواس المتعاشقة بأريحية وقوة تجذبه إلى أن يضل ويضيع في هذه الشوارع والأسواق الزاخرة بالمادة. وعن اليمين واليسار حوانيتها المزينة بمنسوجات البلد وملابسه، ويذكرك تاجرها في جلسته المربعة أو اضطجاعه على جانبه بتجار بغداد الخاليين الذين قصت أخبارهم ألف ليلة وليلة، وهذا الجمال لا يشعر به أهلها لأنهم يملكونه، ولكن الغريب القادم يحسه.

والتونسيون بحسب موقع إقليمهم واعتدال مناخه، يعدون من أجمل الأمم الشرقية تزينهم برانسهم التي تنهدل على مناكبهم برشاقة، ويلعب بأطرافها النسيم. وهم يمشون بتؤده وتبختر يدل على رقة العاطفة ودماثة الخلق، وأشباههم متقاربة يكاد يكون منهم عنصر مستقل. وليست تونس كالقاهرة مثلاً والتي تشتمل على الأبيض والأصفر، وسائر أشباه البشر.

ويمكن وصف الشبه التونسي وتصويره بصورة شخص معتدل القامة مليء الخدين، ينظر بعيني صقر فيهما سنة من النوم، صافي الأديم والبشرة، يصافحك بيد رقيقة ووجه متهلل وبابتسامة تناسب مقدار معرفتك به. ومما يلفت النظر تعدد الملابس والأشكال والأزياء كأنه قضاء محتم على جميع البلدان الشرقية. فالذين لبسوا الثياب الافرنجية والشاشيات (الطرابيش) سلموا من النقد وكادت أشكالهم تفوق أشكال الأوروبيين.

والعين الفضولية التي تنظر إلى العمق والنهاية ترى أن المرأة الأوروبية في تونس تختلس من الفتى التونسي نظرة حارة. وتكتم في قلبها ما تكتم، وأصحاب البرانس والعمائم لم يتخطوا حدودهم ولم يخرجوا عن تقاليدهم الموروثة. وأما الأمر الذي فيه قولان كما يقول رجال الفقه هو الطربوش المجيدي فوق الملابس العربية كأنه (البوظة على الشوربة) أو «الفونغراف على التربة». وقد مر تاريخ الملابس في مصر بهذا الدور عندما شرع ذوو الملابس العربية في لبس الطربوش، ويذكرون أن جماعة منهم دخلوا مدينة رشيد المشهور أهلها بالإجادة في (النكتة) فلما أبصروا أشكالهم سأل أحد الرشايدة الآخر:

ـ إيه دول؟.

فقال:

ـ دول فقهاء افرنجي.

والمرأة التونسية حفظها الله لا تزال متدثرة بمئزرها الأبيض المنسوج من الصوف أو الحرير، يبدأ من فوق حاجبيها وقد غطاهما ويحيط بجسمها كله حتى الأرض وتغطي وجهها بقناع كثيف أسود كأنه كمامة الميدان، ومنظرها في الحقيقة ليس رشيقاً ولا جميلاً ولكن مشيتها المختبلة وخطاها المضطربة ورأسها المطرق، كل هذا يوجب لها العطف والاحترام في القلوب وربما ظهر بعض أناملها البيضاء الصقيلة فتفعل بالنفس ما لا تفعله رؤية العاريات على شواطىء «دوفيل» و «لهافر».

وأكبر ميزة للشعب التونسي هي دقة إحساسه وعمق شعوره، وهو أكثر الشعوب الشرقية تأثراً بالموسيقى. والموسيقى أدق مسبار لاختبار الإحساس، ولا تخلو طبقة من طبقات الشعب من وجود أفراد بل جماعات يتناقشون في علم الألحان والضروبات بمعرفة تامة، ويتبع هذا الإحساس حرصهم على حسن سمعتهم واهتمامهم بما يقال عنهم. وكم من فقير أو متوسط الحال يكلف نفسه ما لا يطاق في سبيل إكرام ضيفه أو خدمة صديقه. فإذا سمع بعد ذلك كله سوء تربية من غريب أو قريب هاله الأمر وانعقدت المجالس للحساب والمناقشة، وفي أغلب الأحيان يكون الحساب عسيراً، وتفضي المناقشة إلى الشر والتقاطع.

تكثر رؤية المتصافحين في الشوارع أفراداً وجماعات، يتوقف بعضهم بعضاً للمحادثة، ألصغر المدينة ومعرفة الناس ببعضها؟ أم لأن الوقت رخيص؟ أم لأن الألفة متمكنة من القلوب؟.

والأجنبي الذي يسعده الحظ بزيارة المنازل التونسية يرى ما لا عهد له برؤيته، والكثير من هذه المنازل يصلح لأن يكون أعجوبة فنية يشاهدها السياح الذين يقصدون الشرق. ورغم بساطة المنزل من الخارج ترى من داخله الرخام المصقول يقوم مقام الدعائم الخشبية، وبلاط القيشاني المزخرف بالألوان البهيجة يكسو الجدران من الأرض إلى السقف. وتتدلى من السقوف المختلفة الارتفاع ثريات البلور العتيقة الصنعة، بعضها معلق في صحون قباب تتلاعب فيها النقوش الذهبية والبعض يبرز من الجدران. وللقوم ذوق جميل في ترتيب الأثاث يحتفظون فيه بأحسن الأساليب الشرقية ويقتبسون له خير القواعد الأوروبية.

وما يلاحظ في تونس عامة ديمقراطية أهلها ومساواتهم بين الغني والفقير، فلا يلتفتون إلى ما عند الناس من مال، ولا إلى ما عليهم من ثياب، ويكتفون من الشخص بأخلاقه وآدابه.

وليس هذا بالقليل لطول حياة الأمة.

جريدة (الزمان) 9 جانفي 1933

تــونس في الليــل

لم يسمع في العالم بمدينة يمسي عليها الليل في هذا الزمن، ولا أثر فيها لرجال البوليس إلا تونس العربية، والبوليس التونسي لا تحسبه إلا كموظفي البنوك والإدارات يفرغ من خدمته في الساعة الرابعة بعد الظهر، بعد أن تنهك قواه مطاردة الباعة، وإيقاف السيارات لتغريمها.

واللصوص في تونس ــ وهم من مختلف الأمم والنحل ــ يشعرون في الليل بالسلطة المطلقة، ويتبخترون في نواحيها التي تمسي تحت سلطانهم تماماً.

وفي تونس يتاح للإنسان دراسة جميع أنواع اللصوص وطرقهم ومدارسهم القديمة والحديثة، ويخرج من ذلك بكتاب مفيد يضاف إلى تاريخ هذه المدينة المشؤومة منذ وجودها في العالم.

المنطقة التي تتألف من شارع «الغني» وشارع «الفارسي» ونهج «الحكام» و«الأندلس» «وسيدي بو خريصان»[1] وما يتشعب من هذه الشوارع تختص باللصوص الذين يمزقون جسم فريستهم بالمدى ليسلبوه عمة أو طربوشاً، أو بضعة صوارد تكفي لشراء علبة «التكروري»[2] ويستطيع كل إنسان يدخل بيته بين الحادية عشر والواحدة بعد منتصف الليل أن يقص من حوادث اللصوص التي حدثت له شخصياً ما لا يصدق.

ويكفي أن يتصور الإنسان نفسه أمام عدة أشخاص أحدهم في ملابس

(1) أسماء بعض شوارع المدينة العتيقة التي يقطنها الأهليون.

(2) نوع من المخدرات التي كانت كثيرة الرواج في الثلاثينات، ويستخرج من نبات تكثر زراعته بالبساتين التونسية.

الأفاقين والآخر في زي الفعلة، وثالث «زوافري» صريح، يستوقفه أحدهم لسؤال تافه عن الوقت، أو عن «الوقيد» ويحيط به البقية يصارعونه ويصارعهم، ولا يعبأون بجريه ولا بصياحه ولا يعفونه من سرقة أي شيء ولو أدى الأمر إلى الصراع طول الليل.

وطائفة أخرى تختص بمعالجة الأبواب ومهاجمة أصحابها مهاجمة غزو وحرب لا سرقة وقتل، ولو استطاعت لفتحت ديار تونس الواحدة بعد الأخرى بالترتيب والاطمئنان.

أما سادتنا أصحاب «الكاسكيتات»[1] والسوالف الطويلة فقد سادوا اللصوص جميعاً، واختصوا بنهج «المقطر» مقر المواخير، وامتد سلطانهم إلى حي «الجزيرة» بأكمله وهم بحق قياصرة تونس في الليل لهم الحكم وإليهم يرجع الأمر كله، يسرقون ما يشاؤون ويضربون من يريدون، والضرب اختراع جديد ظهر من هؤلاء السادة لم نكن نعرفه من قبل، يضربون من لا ترجى منه فائدة ومن لا يعجبهم شكله ومن يضايقهم مروره، والضرب أحياناً ينتهي بالمضروب إلى عاهة مستديمة تلازمه طول حياته، وبعد اعتدائهم على الناس لا يفرون ولا يتوارون، ولكن يقفون في مكانهم للاستمرار في عملهم بلا خوف ولا حذر، والمضروب في الغالب يخجل من إبلاغ الأمر إلى البوليس، أو يقنط من الفائدة المرجوة من الشكوى، ومن الذين ضربهم هؤلاء الصعاليك المتشردون شاب تونسي عاش في فرنسا سبعة أعوام درس فيها الطب، وعاد إلى تونس من مدة قريبة متألماً من صدره الذي قاسى من برد فرنسا ما قاسى. مر هذا الشاب في الساعة العاشرة بنهج «القصبة»، وكان على الرصيف ثلاثة من هؤلاء الرعاع المقبعين بالخزي والإجرام، فصفعه أحدهم على سبيل المزاح، وتصدق عليه الآخر بلكمة قوية في صدغه، ورفسه الثالث باليمنى واليسرى وما زالوا به حتى تعبت أيديهم وتكرموا عليه بالانصراف، وفتانا الضعيف الهزيل ينام الآن بالمستشفى الفرنسي بالعاصمة.

جريدة (الزمان) 25 جويلية 1933

---

(1) القبعات.

عاصمة بلابوليس

بوليسنا في النهار يكر على الباعة «والبراوطية» كر الأسود على الظباء لينظم حركة المرور.

وفي الليل يذهب ليستريح كموظفي البنوك وأرباب الحرف والصناعات.

عندئذ يتفرغ اللصوص والسراق لعملهم على أكمل وجه وهم مطمئنون.

فلصوص الطرق يستوقفون عابري السبيل ويجردوهم من نقودهم وثيابهم وأحذيتهم وهم يضحكون.

ولصوص الديار والمتاجر يعالجون الأبواب ومعهم المركبات اللازمة لحمل الأثاث أو البضائع ثم يسيرون بغنائمهم في الطريق بلا خشية من معترض أو رقيب.

وكم أغاروا وكم استغاث الناس ولكن الاستغاثة لا تصل إلى «البيرمانانس»[1] إلا بعد نجاة اللصوص بالغنائم، وحيث لا يبقى للضحايا من عزاء غير الإجراءات، بطريقة كالسؤال عن ساعة وقوع الحادث وإحصاء المسروقات وتقييد ذلك كله في الدفاتر الرسمية مع الوعد بإجراء البحث...

عاصمتنا هذه تشبه في خلوها من البوليس فرنسا، ولكن مع فارق كبير. فهناك يشتغل الناس عن احتراف السرقة بما عندهم من حرف وصنائع يعيشون منها. وهم جميعاً يحملون الأوراق التي تحدد شخصية كل منهم، فلا تكاد ترى في

(1) مركز الشرطة المستمرة.

ظلام الليل متسكعاً أو متشرداً تريبك حركاته ومنظره. وعاصمتنا هذه تعج بعدد عظيم من العمال العاطلين، والأعراب الوافدين أو الباعة الذين خالفهم البوليس وقضى على رؤوس أموالهم، وهؤلاء يجدون عندنا المأوى الكافي من وكائل[1] ودواميس وبؤر خفية يؤلفون فيها جموعهم ويدبرون فيها خططهم.

وهنا شيء لا يستطيع أحد أن يتعامى عنه. وهو أن القسم الأوروبي من مدينتنا قلما تقع فيه حادثة سطو على شخص أو على دار أو على متجر.

والبلاء كله واقع على القسم العظيم من المدينة.

ذلك لأن سكان القسم الأوروبي يستطيعون استخدام الحراس الخصوصيين، وعندهم من الأنوار ما يكفي لتنفير اللصوص، وعندهم من التليفونات ما يسعفهم ساعة الخطر وعندهم الأسلحة اللازمة للمقاومة.

ونحن لا نملك شيئاً من هذا.

لنضرب مثلاً بالقاهرة وهي مدينة شرقية تشبه تونس من جميع الوجود مع الاحتفاظ بنسبة المساحة وعدد السكان، فهناك طوائف مختلفة من عاطلين وفلاحين وصعايدة ومتشردين وكلهم يعيشون في المدينة بلا ضابط ولا نظام، ولكن بجانب هذا يوجد في كل مائة متر خفير من نوع هؤلاء «الغرابة»[2] متسلح بزلاط[3] وفي بعض الأحيان بمكحلة فلا يكاد الصارخ يستغيث حتى يجمع عليه عشرات منهم. وهناك مكاتب البوليس لا تغلق أبوابها مطلقاً. كل هذا النظام في جملته لا يتكلف من المصاريف أكثر مما يلزم لخمسين فتاة من اللآتي يشتغلن على الآلة الكاتبة.

ولا يخفى على حضراتنا وجنابنا أن الغرض الأول من إيجاد الحكومات هو المحافظة على الأرواح والأموال.

جريدة (الشباب) 8 جانفي 1937

---

(1) نوع من المساكن التي تضم الفقراء والعائلات البائسة.

(2) الحراس الذين هم أصل مغربي، وقد انفردوا بتعاطي هذا النوع من العمل.

(3) هراوات.

مـــدينة بـــلا حراســـة

بعض مدن فرنسا التي تعادل تونس في المساحة والسكان، قد يخيم عليها الظلام ولا يوجد فيها عشرة من رجال البوليس. ومع ذلك قلما يحدث حادث سرقة أو شجار لأن الناس هناك غارقون في نومهم ليهبوا صباحاً لأعمالهم. والظاهر أن أولي الأمر هنا يحسبون تونس كإحدى هذه المدن الفرنسية، وأن تعيين الحرس لخفارتها يعد من التبذير والإسراف.

والمعروف أن تونس العربية تحوي العنصر العربي بجميع طبقاته، وعدداً كبيراً من الإسرائيليين على اختلاف درجاتهم. وفيها أحياء تغص بالطليان، والمالطيين من كل معروف ومجهول، وهذه العناصر المختلفة ليست مع الأسف متصافية ولا متعارفة، ونسبة العاطلين والمتشردين فيها كبيـرة، فوق ما يتصوره الإحصاء. وإذا تأملنا ما يجري في النهار من شجار واصطدام وسباب عرفنا ما يجري في الليل البهيم. ولا نكرر هنا ما نقوله كل مرة من أن الإنسان لا يصل إلى بيته إلا بعد أن يتجاوز أزمة تأخذ بأنفاسه طول الطريق، حيث يتوقع الشر من كل حركة. ونستطيع أن ندل على أن تونس في الليل مدينة مخيفة كئيبة، جهمة المنظر، بدليل قريب، وهو دار الموظف (الغير عربي) الكائنة في نهج (الغنى). فهذه يخفر بابها ليلاً اثنان من رجال البوليس، حتى لنتمنى أن يهب لكل حي موظفاً من هذا النوع ومعه خفيران يخيفان الأشرار، وتضيء فوق رأسيهما الأنوار، وتنقطع من موطىء أقدامهما أنهار البول المتدفقة من شارع إلى شارع.

ترى القسم الأوروبي من المدينة قد قام فيه على كل باب حانوت خفير

خصوصي، يعينه أصحاب المحل. هـذا مع كثـرة الأنوار وحصـانة المبـاني والأبواب، وهيبة من فيه من السكان. فماذا ترى إذن في تلك المغاور والأزقة الحلزونية غير الأوباش الكامنين، والطغاة المترصدين الذين يعلمون أن بينهم وبين مكاتب البوليس أميالاً مربعة، وأن موظفي هذه المكاتب قائمون فيها يستقبلون القتلى والجرحى، ولا يعلمون بمثات الحوادث الأخرى.

أما وأن تونس ليست «جرينوبل» ولا «ديجون»[1] فلاينسى أحد أنها مدينة أفريقية وساحل تطأه أقدام اللاجئين والمتشردين والهاربين، وطالبـو الرزق ولا مناص لها من تعيين الحرس قليلاً كان أو كثيراً لأن وجود قطة واحدة في الدار يكفي لاختفاء الفئران كلها. وهناك نوع من الحرس أنشأته بعض المدن الشرقية كالاسكندرية والقاهرة، بعد أن كان الحال فيها كما هـو في تونس. وهو فرقة من الريفيين تابعة للبوليس ومدربة نصف تدريب على النظام العسكري، تحمل السلاح الناري أو الخشبي، ولا يتجاوز مرتب الفرد من هذه الفرقة، ما يعادل 120 فرنكاً في الشهر، فإذا كان لتونس مائة حارس من هذا النوع فقد انتهى المشكل وأمن الناس على راحتهم.

جريدة (الزمان) 29 أوت 1933

(1) مدينتان من مدن فرنسا.

مستقبل المـــرأة التونسية

منذ أعوام قامت في هذه البلاد ضجة حول المرأة لا يزال صداها يرن في الآذان كريهاً مزعجاً، ومن أصعب الأمور العودة إلى فتح هذا الباب الذي يحرسه غلاة المحافظين ويوثقونه كل يوم بقفل جديد. غير أنها إقفال سيعلوها الصدأ وتسقط أثر بعضها، أوكلها جملة، فهل ننتظر حتى تسمح «الظروف»؟ ـ لا.

المرأة هنا يحجبها رجل غيور كالنمر. وأقل ما توصف به غيرته أنها غيرة جاهلية صماء لا تخضع لمشورة ولا تلين لنصيحة. لا يختلف غيور هذا العصر عن الغيور الجاهلي الذي كان يئد بنته حية في حفرة. فهذا يتركها تموت على رسلها تعتورها وسائل الهلاك والتلف، خير عنده من أن يذكرها ذاكر أو يسأل عنها سائل.

وأمام هذا الحارس العنيد يمر رجل يحمل راية الإصلاح والتجديد وهو غير كفء لحملها، ويصيح ولم يرن صوته بعد مخاطبة الشعوب: اطلقوا حرية المرأة.

فظن الحارس العنيد أن الرجل يدعوه إلى إخراج نسائه للجلوس في القهوات سافرات مع زيد وعمرو وما إلى هذا. فأبى واستكبر وجرد سلاحه لمحاربة «المجدد المفسد» وهكذا ابتدأ الاصطدام وساءت الظنون. فلنترك المحافظين والمجددين يتخبطون ونقول:

إننا لا نعيش الآن في زمن عمر بن الخطاب الذي كان يحمل كيس الدقيق على ظهره ويذهب به إلى دار الأرملة واليتيمة، ولا في عصور الخلفاء الذين

ينفقون من بيت مال المسلمين على الضعيفات والمنكوبات. إنما نحن في عصر المزاحمة والمغالبة عصر كثير المطالب والحاجيات، كمالياته أكثر من ضرورياته وأشد لزوماً منها. لا يكاد الفرد الواحد يقوم بأود نفسه ويسد كل مطالبه. فماذا يقال عمن عنده بضعة نساء يعولهن وهو في حاجة إلى من يعوله؟ إنهن بلا ريب في أتعس حالة يقاسيها إنسان في أي عصر من العصور. وإذن من حق المرأة أن تتعلم لتعيش من عمل يديها أو قريحتها، والصناعات التي يحتاجها المجتمع اليوم لا يكفي فيها أن تجلس عجوز لتعلم البنات بالإبرة أو المغزل ولكنها صناعات أخرى لا بد لمن تباشرها من معرفة القراءة والكتابة وشيء قليل من كل شيء ليتيسر لها أن تخدم وتستخدم. وليس للحارس المجهول حق في إيصاد الباب عليها ودفنها في قبر مظلم إلى الأبد.

إنه يخشى على الصبية من المعلم أو «المؤدب»، ويخشى إن هي تعلمت القراءة والكتابة أن تراسل الشبان ويراسلوها.. ويعتقد أن فتاة المدرسة لا تخرج إلا سافرة رافلة في الحلل الافرنجية، ويزيد أعاذك الله صلابة وتعنتاً بل كلما فتحت له باباً وضع فيه صخرة ينزلها الشيطان على رأسه ويفضل أن تبقى المرأة محجوبة فقيرة مع العفة...

وليس أوبل على العفة وأضر بها من الفقر والحجاب، فالفقر هو المنجل الأول الذي يحصد نبات الفضيلة وأثمارها، والحجاب هو «الغرارة»[1] التي تستر كل رذيلة وتجعلها بمعزل عن العيون والظنون.

ليس من الضروري أن يكون المعلم رجلاً، ولا من اللازم أن تخرج الطفلة سافرة فلا حاجة لأحد برؤية وجهها جميلاً كان أم قبيحاً، إنما يراد لها أن تكون سعيدة هانئة مطمئنة على حياتها وعفتها، فالخوف من تعليم المرأة ناشيء عن حماقة وجهل، وتفتش في تونس من أقصاها إلى أقصاها عن مدرسة للبنات أو شبه مدرسة فلا تجد، فالعقلاء الذين يفهمون الأمور زجوا ببناتهم في المدارس الأوروبية يخرجن منها لا يعرفن العربية ولا تعرفهن، وهذا شر عظيم ولكنهم

(1) كيس مصنوع من الشعر والوبر، يستعمله الأعراب الرحل لادخار المؤن.

لا يلامون عليه لأن عددهم قليل شأن العقلاء في كل أمة لا يستطيعون إنشاء مدارس للبنت العربية المسلمة، وإنما يكون هذا من عمل الأمة جميعاً ولا يعارض في تعليم البنت إلا غبي يستر غباوته بالتدين، أو بخيل يخترع الحجج ويتظاهر باليأس من إصلاح الحال وتبديلها بأحسن منها.

إلا أن الأمة مستهدفة للمرضة الأخيرة وهي مرضة الموت، ودواؤها كامن في هذه المرأة التي لا تعرف الأرض من السماء وهي بجهلها تربي الرجل، النذل، الكسول، الكذاب، المرائي، المؤذي، الجبان إلى آخر الأشكال التي ترونها بأعينكم وتأسفون على وجودها بينكم، وتودون أن يجتاحهم طاعون جارف أو تخسف بهم الأرض وما هم إلّا خريجو تلك الأستاذة مدبرة المنزل ومصدر الداء والبلاء.

جريدة (الزمان) 23 جانفي 1933

السيدة ناجية، رضي الله عنها

العائلة التونسية منقسمة اليوم إلى شطرين: حديث وقديم، فالحديث من البنين والبنات قد خسرتهم تونس إلى الأبد. . أولاد ليسوا بمسلمين، ولا مسيحيين، ولا وثنيين صناعتهم لعب القمار، وتسليتهم سب الدين وتبادل الكلمات البذيئة.

وبنات على هذا النحو ولكن بدلاً من لعب القمار يذهبن إلى «الحجامين»[1] ويسفرن أمام من يسمى «البير» و«جورج» و«موريس» أقارب أصدقائهن في المدارس.

وكل أولئك البنين والبنات يتكلمون الفرنسية إذا كان الكلام في أمور هامة مثل الحب أو الشغل. فإذا احتاجوا للكلام بالعربية فلكي يقولوا لك: يلعن د. . . بوك ويلعن ز. . . أمك أو يا سي خـ. . . ويا سي ز. . .

والشطر القديم مؤلف من جهلاء وجاهلات. فالرجال منه تضمهم طرق العيساوية، والجيلانية أكثر مما تضمهم الجمعيات الأدبية أو النقابات، والنساء يرتمين تحت أقدام المنجمين والدجالين وشيخات الاسطامبالي والأطباء الروحانيين.

ونشرنا في أحد الأعداد الماضية خبر الحرايري المتقاعد الكسول الذي يداوي نساءنا من العقم ببركة النبي والإمام علي.

(1) الحلاقين.

ونسوق إليكم خبر الفتاة الشيخة ناجية القاطنة في حي «الحجامين» والتي أصبح لها سلطان على عقول فريق عظيم من نسائنا.

بدأت السيدة ناجية الخطوة الأولى في الولاية بأن غادرت دار أهلها مع أحد الفتيان، وأبلغوا عنها دوائر البوليس إلى أن عثروا عليها في صحن السيدة المنوبية[1] بعد أن تركها الذي صحبها معه. إلا أن الفتاة أبلغت أهلها بأن هروبها لم يكن لغير السيدة المنوبية التي أفاضت عليها الولاية والكشفة وخلعت عليها لقب سيدة.

وذهبت السيدة الطاهرة إلى دارها معززة مكرمة، وأسبغت عليها «البروبقاندة»[2] اللازمة، فأقبل عليها سيداتنا المغفلات بالهدايا والوعدات من نقود وعروض، والتف حول الفتاة رهط من عجائزنا الفاجرات، بعضهن يندس بين الزائرات ويتعرف أخبارهن ويسبق بها للسيدة ناجية لتفاجئهن بها والبعض يشتغلن في «السرفيس»[3] الداخلي. وهذا (السرفيس) ينقسم إلى عدة وظائف. تشغل الوظيفة الأولى امرأة تتفقد الزائرات وما يحملن من الهدايا فترفض كل زائرة تحمل هدية تافهة كالشمعة أو ليترة الزيت.

ويشغل الوظيفة الثانية عدة نساء يجبرن كل زائرة على الاستحمام قبل الدخول على السيدة ناجية الطاهرة التي لا تحب غير المطهرات.

وعملية الاستحمام التي تجري للنساء تذكرنا نحن الرجال بما يجري لبعضنا في حي سيدي عبدالله قش عندما يتجرد من ثيابه. فلا تكاد الزائرة تخلع ثيابها حتى يطالبها النساء بأن تدفع قبل كل شيء ثمن سطل الماء المقدس الذي سيصب على بدنها، ولا يقل ثمنه عن خمسة فرنكات كاملة للفقيرات، وقد لا تجد الزائرة في جيبها غير فرنكين أو ثلاثة فيأخذنها منها ويطردنها مضروبة بالقباقب مسبوبة الآباء والأجداد، مغضوباً عليها من ولية الله ناجية. أما الزائرة

(1) ولية من وليات تونس لها مزار معروف يرتاده الناس.

(2) الدعاية.

(3) الخدمات.

التي تدفع أجرة الحمام مضاعفة، وتثبت أنها ستدفع بقية رسوم الزيارة فيدخلنها على ناجية مزفوفة بنشيد طويل هذا نصه:

نـادوا عـلى لـلاَّ نـادوا سـيـده بـلغ مـرادو
تـتمـثـل كيـف العـصفـور تخرج من تحت الحجبة تدور
وسخـابها يلعـج لعْجـان فـي بـابْ الـبـيـت
يـا داخـل ثبت سـاقيـك خَـروجـا راهِ تـعـطيـك
ضربـة علْـمْسـلان

فإذا دخلت الزائرة إلى البرزخ الأعظم وجدت سيدتنا ناجية جالسة خلف ستارة لأنها تكره أن تقع عليها أعين البشر. ووجدت موظفات أخريات يأمرنها بغض البصر لأن نور النبي (صلى الله عليه وسلم) ينبعث من خلف الستر. ومن نظر إلى نور النبي يعمى...

وتبدأ ناجية من خلف الستار هذيانها بصوت خافت وجمل مضطربة والموظفات يفسرن ما تقول:

فمن نبواءاتها المشهورة أن أحد السماسرة أفاء الله عليه بشغلة كسب منها مبلغاً وافراً من المال. فبعث زوجته لتستشير ولية الله ناجية هل يشتري بالنقود قطعة ملك أم يشتري بقراً يربيه فأفتت ناجية بأن الرجل لو اشترى الملك فسيقبض الله روحه في ظرف ثمانية أيام. وخيرله أن يشتري البقر فاشترى البقر ولكن الله قبض أرواح البقر كلها في ظرف الثمانية أيام وبقي الرجل على قيد الحياة.

ولا يزال الإقبال عظيمًا على السيدة ناجية.

حسبنا أنفسنا وقد هجرنا المساجد ونسينا القرآن وانغمسنا في المعاصي أننا سنترك أيضاً الخرافات لنكون كالفرنسيين أو الأمريكان أو بني إسرائيل.

ولكننا لا من هؤلاء ولا أولئك، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

جريدة (الشباب) 16 جانفي 1937

«الهروين» فـــي الحمــام

عند بعض العائلات «البَلْدية»[1] وصيفة من النوع الأسود الجميل. يدللونها كما تشتهي، وإذا كانت العائلات البلدية تحتفظ بمثلها للكنس والمسح وغسل الصحون، فهذه العائلة تكتفي من وصيفتها بالجلوس على الأرائك أمامها «باكو السواقر»[2] «البالطو»[3] و«الكاميل»[3] وأدوات القهوة والشاي.

ولا علم لنا بسر هذا التدليل والإكرام وقد ذهبت العـائلة (ونقصد السيدات) إلى الحمام وفي مقدمتهن الوصيفة.

اغتسـل من اغتسل واستلقى عـلى الفراش من استلقى. وخـرجت «جوزفين باكير» بقامة خيزرانية لامعة وجلست في المكان اللائق بها على الفرش بين السيدات والأوانس، وبعد أن مشطت شعرها، وجملت شكلها، وتناولت بعض المأكولات الخفيفة أخرجت من حقيبتها حكة صغيرة من العاج تحتوي على مقدار من «الهروين»[4] تحسـدها عليـه معامـل «ميرك» الألمـانية. وتنـاولت «ببلومة»[5] معدنية جرعتين متواليتين أرسلتهما إلى أعماق الأنف الأثم، ثم أشعلت السيقارو الأول وأخذت في مباسطة حـريفات الحمـام، وممازحتهن

(1) تسمية (البلدية) تطلق على سكان مدينة تونس.

(2) علبة السجائر.

(3) نوعان من السجائر.

(4) نوع من المخدرات الصناعية.

(5) ريشة قلم الحبر

بالنكات الظريفة المرتجلة حتى أثارت ضجة من الضحك دار لها الدم، وتوردت الوجوه والأبدان فوق ما فعلت بها حرارة الحمام.

نحن نستقي هذا الخبر من مصدر نثق به أكثر مما نثق بالمصادر الرسمية وشبه الرسمية، ونعلم إذ ننشره أن بوليسنا النزيه يعض أصابعه غيظاً على القوانين التي لا تبيح له مهاجمة حمام كهذا الحمام. ولكننا قمنا له بواجب الإرشاد، وعليه هو اتخاذ الإجراءات لمنع شرب «الهروين» إلى العائلات الشريفة سواء في الحمامات أو بيوت النوم.

جريدة (الشباب) 6 نوفمبر 1936

تونس تعيش في الأحلام

في استطاعة أي شخص من سكان تونس أن يشتري من بائع الدخان علبة من ذلك النبات الأخضر الذي يسمونه «التكروري» فيدخنها في الغليون، ويبيت حالماً ضائعاً في عالم مزين بالقصور والحور العين، كما يفعل الصيني في كانتون.

و «التكروري» هو القنب أو الشانفر الذي يستخرج الحشيش من أزهاره. إلا أن النوع الذي يباع هنا لا توجد أزهاره بمادة الحشيش، أو أن الزراع يجهلون استخراجها. ولذلك تستعمل أوراقه نفسها للتدخين، وهي لا تقل في التخدير عن الحشيش نفسه، أو الأفيون إذا أكثر منها، ويصل مدخن «التكروري» إلى درجة الإدمان فلا يستطيع الاستغناء عنه. ويرتقي في تناول الكمية حتى لا تكفيه العلبة الواحدة أما الأثر الذي يحدثه هذا النبات في مدمنيه فهو الذي نتحدث عنه الآن.

الأنفاس الأولى من هذا النبات المبارك تظهر لذيذة مريحة للأعصاب، مفرحة للنفس، تنتقل بك من جفاف الحقائق إلى بهجة الخيال، فترى في كل شيء يقع عليه بصرك جمالاً كأنك كنت في غفلة عنه، ولا تزال في طلب المزيد من الأنفاس ليتضاعف إحساسك بجمال العالم...

هذه الخيالات المكذوبة تكلف الأعصاب جهداً طائلاً قد تظهر عاقبته السيئة من أول مرة، عندما يشعر المدخن برد الفعل. فبعد أن كان يستلذ بالنظر إلى الخد الأسيل والزهرة الناضرة، ينقلب في نهاية السهرة حزيناً متشائماً يفر من

كل شيء، ويرى الدنيا بمنظار أسود حتى أنه يبيت في فراشه نادماً تائباً عن العودة إلى التدخين، ولكنه يستيقظ في صباحه، متوتر الأعصاب، شاحب اللون لا يطيق المناقشة في أي أمر ويظل يقاوم هذه الحال عدة ساعات، من نهاره إلى أن يوحي إليه الشيطان بأن فرجه في تقبيل الغليون «السبسي»[1] فلا يكاد يلمسه بشفتيه حتى تعود إليها الابتسامة ويسخر من ملاك التوبة الذي زاره في أمسه، وفي هذه الحال يندفع إلى زيادة الكمية، وهكذا دواليك.

ويمر الدور الأول أي دور الأحلام اللذيذة بسرعة كأنها مرور شهر العسل، وفي الدور الثاني يكتفي المدخن بالتخلص من الضيق الذي يعانيه في اليقظة، ولا يعود يشعر بكل الأحلام الزاهية. أما في الدور الأخير فقد يصبح حيواناً لا فائدة منه ويفقد شخصيته تماماً ولا يبالي بكرامته مطلقاً، وسواء عنده الفضيلة والرذيلة والخير والشر.

والذي يؤسف له أن معظم مدخني «التكروري» من طبقة العمال، وقلما تجد منهم من ينجح في عمله، أو يثابر على تحصيل عيشه أو يصدق في وعده، وكلهم فقد قوته الحيوية، وعلا وجهه الشحوب والاصفرار وتدمرت أعصابه تماماً.

على أن الخيالات التي تحدثها المكيفات إن حركت بعض أذهان المثقفين مؤقتاً ــ كالكتاب والشعراء والرسامين ــ وأعانتهم على عملهم فإنها لا تعين طبقة العمال على الإنتاج، ولا توجه إرادتهم لغير الشر. فالتكارلي[2] إذا انعقدت حوله سحب «التكروري» لا يفكر إلا في الغايات الحقيرة، يسعى إليها بأسفل الوسائل، وقد يرتبك وينسى غايته، ويشتغل بالوسيلة ويجعلها غاية.

ويحسب المدمنون جميعاً أن المكيفات تعينهم على الاختلاط الجنسي، وتحسن في أعينهم الدمية المعبودة أضعاف حسنها، والواقع أن المسألة تأتي بعكس

---

(1) غليون مصنوع من القصب كان يستعمل في تدخين التكروري، وبعض أنواع المدخنات الأخرى.

(2) متعاطي المخدرات.

ما يقصدون، فذلك الحسن الذي يظنونه قد تضاعف في أعينهم باق على حاله لم يزد مثقال ذرة، وإنما هم الذين تضاءلت نفوسهم وصغرت حتى رأوا الصغير كبيراً بالنسبة إليهم، وحتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن. ويمكنك ملاحظة المدمنين في مجالسهم حيث يضحكون من لا شيء، ويحزنون من لا شيء. والعاقل فيهم من يجلس صامتاً لا يبدي حركة فرح أو حزن، خوفاً من أن يجر على نفسه اللوم والانتقاد. وليس سكوته رغبة منه في الهدوء كما يظن البعض، والأصح أنه يكتم في صدره ثورة كبرى قائمة من الهواجس والأشجان تعذبه، وتقلق ضميره ولهذا يرتاح إلى سماع الموسيقى أو أي شيء من المسليات السخيفة.

قلنا إن مدمن المخدرات إنما يعد نفسه لمقابلة المرأة ليعجب بها وتعجب به، ولكنه يعد نفسه على أسوأ حال إذ يقابلها مخذول الأعصاب، فاقداً لقوة الرجولة لا يستطيع إخضاع أنوثتها الوديعة لأنه هو نفسه وديع كالحمل. ولذلك ترى أن النساء جميعهن حتى الفاجرات منهم مجمعات على احتقار مدمني المخدرات.

وهكذا ترى أن المدمن لا خير فيه لا للمرأة، ولا لصناعته، ولا لوطنه، ولا لنفسه، والمصيبة أن عدد المدخنين قد يفوق 90 في المائة من السكان. ولا نقول أنهم جميعاً من الوطنيين التونسيين وإنما يوجد فيهم عدد غير قليل من الأجناس الأخرى تدخنه سراً وعلناً.

قيل أن موسيو بيروتون[1] قد فكر في إبطال هذا النبات مهما كان دخله لخزينة الدولة، ولعله فاعل ليفوز بالأجر والثواب.

جريدة (الزمان) 17 جويلية 1934

(1) مارسال بيروتون المقيم العام الفرنسي على تونس خلال هذه الفترة.

مكـــافحـــة التســـوّل

يشاهد عابر السبيل في العاصمة التونسية، وغيرها من مدن هذا القطر أشخاصاً مختلفة ألوانهم وأجناسهم، يحترفون صناعة التسول ويرتجون من المارة نفحهم بعـض الدراهم، ويستعملون لذلك أنواعاً كثيرة من الأغاني والأناشيد المثيرة لعاطفة الرحمة، والشفقة، وهـم بين متباكٍ ومتمـارض، بحيث يكاد الإنسان لا يفرق بين الحقيقة والباطل، من أعمال هؤلاء المشردين.

وكان التسول من آثار المسغة والحاجة. فأصبح اليوم صناعة لها قواعدها الخاصة، يجب على محترفها حذقها. وإذا نظرنا إلى هؤلاء المتسولين نجد الكثير منهم من عرب البادية الذين أناخت عليهم سنو القحط والجوائح بكلكلها فتركت بيوتهم بلقعاً، ومراعيهم قاعاً صفصفاً، فافتقدوا الضرع والزرع وأخذوا يجوبون الفيافي والقفار إلى أن انتهى بهم المطاف إلى المدن والحواضر، وهذا الصنف من المتسولين يجب أن تمد له يد الإعانة، ويقع إمداده بوسائل العيش والحياة، كفتح المعامل والمصانع في وجه أفراده، وإحداث الأشغال الدولية الكبرى، وتشغيلهم فيها كي يتغلبوا على ما هم فيه من الخصاصة والفقر.

وهذا ما فعلته غالب الحكومات والدول الصناعية، بالنسبة لقسم من أقسام سكانها وهم العملة والصناع الذين أغلقت في وجوههم أبواب المعامل والمصانع، وهذه أحسن وسيلة لمكافحة هذا المرض الاجتماعي المخطر. أما الاقتصار على دفع إعانات وقتية، فهو بمنزلة المسكنات التي يمنحها الطبيب إلى العليل لإراحته زمناً قصيراً وسرعان ما يرجع إليه المرض القديم.

هذا وهناك قسم من المتسولين قد احترفوا التسول، واتخذوه صناعة لهم،

وهؤلاء لهم وسائل عديدة. فمن ذلك جمع الإعانات لتجهيز ميت وإرجاع غريب إلى وطنه، أو ختان يتيم، أو تجهيز يتيمة إلى غير ذلك من وسائل النصب الذي لا شك فيه.

وهؤلاء يجب أن يطبق عليهم صارم العقوبات التي نصت عليها القوانين الجزائية، ولا تأخذ السلطة العامة فيهم رأفة ولا رحمة بل يجب أن يُصَلْوا بنار ملؤها الاحتقار والازدراء، والإهانة، والتعذيب. ذلك لأن هؤلاء قد توصلوا بما يستعملونه من وسائل المكر والخديعة إلى جمع أموال ذريعة ملكوا بها أملاكاً طائلة وأصبحوا أغنياء في أطمار فقْرٍ مزيف.

ومن يوم لآخر يطالع القراء في الصحف أخبار هؤلاء النصابين وغيرهم، ممن استعملوا العجز مطية لاستدرار الأموال من أكف ضعفاء الإرادة، ومن كان ظنهم حسناً فيهم. ففي الأسبوع الماضي ذكرت الصحف أن بعض المتسولين الذين يطوفون «بالبخور» على محلات للسكني والتجارة والصناعة، قد اختلست له ثلاثون ألف فرنك جمعها كلها من صناعته وهو يرتدي في حياته الماضية كلها أسمالاً مرقعة تقشعر الأبدان من رؤيتها.

ومنذ ثلاثة أعوام نشرت الصحف المحلية أيضاً خبراً من الغرابة بمكان. وهو أن عجوزاً كانت احترفت التسول منذ عهد بعيد أمام «الكاتدرال»التونسية. ولما توفيت تركت ثروة طائلة، منها بناية شامخة ذات أربع طبقات كل طبقة تشتمل أربع منازل كائنة خارج باب البحر، وإذا علمت أن المنزل الواحد يمكن أن يكون دخل كرائه في السنة ثمانية آلاف فرنك فقط، وضربت هذا المقدار في عدد المنازل أمكن لك أن تتصور دخل تلك العجوز اليومي. ومع ذلك فقد مكثت في صناعتها إلى آخر يوم من حياتها، ولم يكشف سرها هذا إلا بعد مماتها.

هذان مثالان من الأمثلة التي يمكن أن نستشهد بها في هذا الباب.

نعم إن الإنسان أحياناً، هل هو أمام لص محتال أو أحد كبار المجرمين، ويزداد الأمر غموضاً عندما يكون الماثل أمامه من الذين اتخذوا سقوطاً بدنياً متصفين به سبباً لتسولهم. وللخروج من هذا المأزق، يجب فيما نرى أن تتعاون

الحكومة والشعب على تأسيس ملجأ للفقراء والعاجزين، تضم بين عرصاته كل من وجدته محترفاً لهاته الصناعة الأثيمة وبذلك تكفينا شر مؤونة هاته الجيوش الجرارة التي تواجه الإنسان أينما حل وارتحل، وأصبح عددها أكثر من عدد المتصدقين.

وتأسيس هذا الملجأ لا يكلف القائمين به مصاريف طائلة، إذ مهمته تقصر في مبدء الأمر على التموين فقط، ثم توسع بعد ذلك في الإكساء ثم السكنى. وإذا ذكرنا الحكومة فنحن لا نقصد من ذلك إبراء ساحة البلدية التي تتحمل أكبر قسط من أقساط هذا المشروع، الذي قامت ببعض منه حينما أسست المأوى الليلي، وإن كان غير موف بالمراد لبعده عن الحالة الأهلية من جهة، وتقصير أعوانها وأعوان الحفظ في جمع وحشرهم فيه إلا أنه على كل حال سد ثلمة لا بأس بها.

هذا ما رأيناه واجباً في هاته المسألة، وعسانا نرى من ذوي الحل والعقد أذناً صاغية لتنفيذ هذا المشروع العظيم.

جريدة (الزمان) 31 أكتوبر 1933

حــديث مــع متسوِّل

لما كانت صناعة التسول من أرذل الوصمات التي تشوه وجوه الشرقيين، وتعمل الأمم الراقية على إبادتها فقد اهتمت جريدة (الزمان) فكلفت أحد مندوبيها بكتابة تقرير عن أحوال المتسولين. وها هو نصه:

لا توجد أرقام ثابتة عن عدد المتسولين، ولكن لما كان كل شارع في تونس يجلس على جانبه المتسولون والمسافة بين الواحد والآخر من عشرة أمتار إلى خمسين متراً، فيمكننا القول بأن عددهم يقرب من العشرة آلاف.

أنواعهم: يسترعي النظر في هذه الطائفة أعرابيات رشيقات القامات تعلوهن مسحة مشرقة من الجمال، ولبسهن يمثل الأناقة البدوية، وكثيرات منهن يتحلين بالأساور والعقود الفضية. وفي آذانهن الأقراط الواسعة، وهن يباشرون الصناعة مباشرة محترف حاذق يرثها عن الآباء ويورثها الأبناء. تتعرض إحداهن للمارة بخفة وابتسامة فيها شيء من الذل الممزوج بالدلال، ولا ترجع في الغالب إلا بالنقود. ولا يقال لهؤلاء البدويات تونسيات أو طرابلسيات وإنما هي طوائف متفرقة في جميع أنحاء العالم بينها وبين البوهيميين صلة تاريخية، وتناسب عريق، ومعظمهم يتسول من طريق قراءة الكف والضرب بالحلزون والمحار. ولكن البوهيميات بوهيميات تونس لا يباشرن هذه الوسائل ولعل ذلك من عدم وجود السياح في هذه الأيام، والذين يعذرون على التسول أصحاب العاهات لا سيما العميان، ومن الفضول البحث في شأنهم ما دامت العاهات حجة شفع لهم ولا مناص لهم عن التسول ما لم تشد لهم مؤسسات الإحسان ويجبرون على الإقامة فيها.

أما الأنواع البغيضة التي تستثير الغيظ في النفوس بدلاً من الشفقة والرحمة فهم أولئك الرهط الأشداء الذين فقدوا الكرامة الإنسانية، وقعدوا عن العمل أياً كان، وهم الذين أردت أن أخصهم بمقالي، وقد يكون بينهم من لم يرق ماء وجهه إلا في هذه الأيام المنكرة، وهؤلاء يمكن معرفتهم من أصواتهم الخافتة وأيديهم تنكمش حياء. ولكن أصحاب الأصوات الرنانة، والصلابة البدنية الهائلة الذين يطوفون أرجاء المدينة بأناشيدهم المزعجة، لا يجب السكوت عنهم، وقد وددت لو أتيحت لي معاشرتهم ومعرفة أحوالهم.

وقفت أمسح حذائي عند «شيات»(1) في الطريق فجاء شاب في الثلاثين رث الأطمار وجلس قريباً من «الشيات» وبدأ يصيح:

«ربـي يخلص وحْلك
ربـي يعمِّر محلك»

وحانت منه التفاتة فرآني أنظر إليه، فوجه لي شطرة من ذلك الشعر المنظوم فقلت له:

ــ أنت من تونس؟
فوجم من السؤال وهرش في صدغه وقال:
ــ أنا. . . أنا من أريانة.

وأخذ يقلبني بنظره ليتعرف كنه سؤالي والفائدة منه. فقلت:
ــ ما تحبش تخدم خير لك.

فأجاب وقد قلص صدغه:
ــ ويش نية الخِدمة الي عندك؟

والواقع أنني عجلت بعرض الخدمة عليه قبل أن أفكر فيها فوقفت أعصر ذهني لأخترع له خدمة تناسبه فعاجلني بهذا الطلب:

---

(1) ماسح أحذية.

ـ أمَّالْ هاتِ سيقارو.

فقلت وأنا أعطيه السيقارة:

ـ الخدمة هي غسل «دبوزات»[1] فارغة بالماء الساخن وحصى الرصاص، تخدم عشر ساعات في اليوم بإثني عشر فرنكاً.

فأشعل السيقارة وقال والدخان يحتبس في حلقه:

ـ أنا كيف نطلب نصور 10 وإلا 15 فرنك ما حاجتيش نخدم (ونظر يميناً وشمالاً وقال) راني مريض. وكان «الشيات» قد فرغ من عمله، وأخرجت عدة صوارد من جيبي لأنقده أجرته فبادرني الطالب:

ـ أعطيني حويجة لوجه الله.

ـ قلت:

ـ قوم اخدم.

فأعرض عني هازئاً ورفع عقيرته بالنشيد المعروف:

ـ ربي يخلص وحلك.

ـ ربي يعمر محلك.

ـ ربي يفرجْ كربك.

ـ ربي يفرِّح قلبك.

جريدة (الزمان) 21 فيفري 1933

---

(1) زجاجات.

مــن المنظــار

معرض الفنون المنزلية:

افتتح هذا المعرض في هذا الشهر بمدينة تونس بجانب حديقة (البلفيدير) ولم تدع إليه الصحافة العربية على ما نعلم، ولا عتاب على إدارة المعرض ولا ملامة فقد زرناه من جيوبنا.

وقد سمي معرض الفنون المنزلية، وأقل معروضاته كانت الفنون المنزلية، وأكثر ما يلاحظ فيه أدوات التنوير والمفروشات المعروفة. وقد كانت مساحة المعرض وعدد المخازن المفتوحة عليه مما لا يسمح بتسميته دولياً.

غير أن الزوار قد وجدوا بعض التسلية في الألعاب اللوناباركية[1]، ومن فاته رؤية المخترعات المنزلية الحديثة التي ظهرت أخيراً في معرض باريس السنوي لم يفته هنا أن يطلق البندقيات في كشك الهدف، أو يربح عصفوراً أو لعبة، أو يدور في الأراجيح الأمريكية.

والعادة أن العنصر التونسي لا يميل كثيراً للألعاب فقد كان زواره في كل يوم لا يتجاوزون العشرة وسط ألوف من الأوروبيين.

الشحـم الأسود:

المهندسون الذين كانوا يخططون مدينة تونس لم يكن في حسبانهم أن الزمن سيأتي بمخترعات جديدة، مثل عربات النقل «والكريطات»[2] فلم يسخوا على

---

(1) ألعاب التسلية.

(2) العربات التي تجرها الحيوانات.

الشوارع بأكثر من مترين من الفضاء. ولعل هذه المساحة كانت تضيق بالجمل الموقر الذي كان من وسائل النقل في ذلك العهد، واليوم عندما تمر «الكريطة» ذات العجلتين الكبيرتين يضطر المارة إلى الوقوف على الجانبين، في أركان وعلى أبواب البيوت حتى تمر صاخبة بحمارها وسائقها. وقد يصطدم سائقها مع سائق آخر فينزل كل منهما عن مركبته ويأخذان بتلابيب بعضهما ويتشاتمان، والناس وقوف ينتظرون، ومن حدثته نفسه بالمرور من الساحة الضيقة الباقية بين الحائط والمركبة فلا غنى له عن «نيشان» أسود يزين ملابسه.

ومعظم الناس يرتدون البياض لا سيما السيدات.

وكل عربة في عجلتها سوائل من الشحم الأسود تكفي لتلويث ملابس سكان تونس أجمعين.

إن من واجب المحافظة أو البلدية ـ إذا شئتم ـ أن لا تسمح بصناعة عجلات مكشوفة وفي أقل بلدان العالم تمدنا يوجد أغطية لمثل هذه العجلات الظاهرة الأذى. ولا يمكن القول أن إدارة الانتيكات مثلاً تعارض في ترك هذه الأقذار.

جريدة (الزمان) 21 فيفري 1933

الجمعيات الخيرية في تونس

بقدر ما يسرنا وجود الجمعيات الخيرية في هذه البلاد الفقيرة، يغيضنا ويكيدنا أن نراها على شكلها الحالي الذي لا يعرفه أحد. نحن نسمع بوجود هذه الجمعيات: الجمعية الخيرية الإسلامية. وجمعية أحباء الطلبة. والمعروف أن الأولى تعول اليتامى والأرامل. والثانية تمد الشبان الفقراء التونسيين الذين يرحلون إلى فرنسا لطلب العلم، ولكننا لم نر الأثر الواضح لأعمال هاتين الجمعيتين، وذلك بلا شك نقص معيب. فالعادة لأي جمعية خيرية أن تنشر في كل عام تقريراً عن دخلها، وعن مصادر التبرعات التي تصل إليها، وأسماء المتبرعين. وتبين كذلك المصادر التي صرفت فيها الأموال الموهوبة، ليطمئن المحسن المتبرع على ماله ويعرف أن إحسانه وضع في محله، وليمتنع سوء الظن على من تحدثه نفسه بالطعن في ذمة المشرفين على هذه الجمعيات.

وقسماً بالله أنه لا يكفي أن يقال أن لتونس جمعيات خيرية فأتبرع أنا وأنت بما تجود به أنفسنا، وأنه لا تطيب نفوسنا لعمل الخير إلا إذا عرفنا أنه سيصل إلى مستحقيه، فوقوف هذه الجمعيات موقف المتزمت المستتر لا يرضي المحسنين ولا يسكت المتقولين عن الثرثرة بالحق والباطل.

جمعياتنا الخيرية خلقت لنا فضائح يترفع عنها الأفراد المبتهلون. فواحدة منها قد شنت غارة كبرى على راقصة وفدت إلى هذه البلاد لأنها عجزت عن التبرع لها إلى شبيبتنا الفقيرة المسكينة في أوروبا ليعود إلينا أفرادها أطباء، ومهندسين، ومحامين، ويشاء الله العزيز القدير أن يرسل هؤلاء الطلبة كلمة إلى صحفنا اليومية يقولون فيها ما معناه:

«أيها الذين يجمعون الأموال باسمنا، قد مسنا الضر، منذ ثلاثة أعوام ونحن نستغيث بكم ولا نغاث، ونسترحمكم ولا راحم. وكتبنا لكم ولا مجيب، فهل لنا أن نعتمد عليكم؟ أم نوكل أمرنا إلى أنفسنا وننسى وجودكم»؟.

هذا هو الذي سمعناه.

أي أننا حين تبرعت بديعة مصابني بمبلغ 12 ألف فرنك نقداً عرفنا مورد جمعياتنا الخيرية، وللآن لم نعرف الوجه الذي تنفق فيه الأموال. وإذا كنت متعرضاً لفعل الخير فمن القبيح جداً أن يراك الناس وأنت تأخذ ولا يرونك وأنت تعطي، هذا أو بعضه مجلبة لسوء الظن وامتناع الناس عن عمل الخير. وكفى بذلك هدماً للجمعيات الخيرية. إلى هذا السطر من هذا الكلام لم نطعن في ذمة القائمين بأمر جمعياتنا. ولكنا نريد منهم أن يقتدوا بالجمعيات التي من هذا النوع في أوروبا والشرق الراقي فتنظم حساباتها، وتصدر في كل عام تقريراً لا يكلفها شيئاً عظيماً، فتذكر أسماء المتبرعين ووجوه الإنفاق لأن معظم المتبرعين يسرهم أن تذكر أسماؤهم في سجلات المحسنين وبذلك يقتدي بهم غيرهم.

نرجو أن لا تحمر الوجوه، وتنتفخ الأوداج لهذه الكلمة الصريحة والسلام.

جريدة (الزمان) 2 أفريل 1935

كـرنـفـال 1937

هذا عيد ظاهره المسخرة والمزح، وباطنه الجد والنقد. وفيه يرى المستعبر أساليب النقادين والمتمسخرين، فيخرج منه بفوائد لا يفطن إليها الذين ينظرون من الظاهر.

الكرنفال محاكاة للأشكال المضحكة التي يراها الإنسان في غير إبان الكرنفال، وكأنما ينتظر الناقد هذه الفرصة ليهزأ بالأشكال الممسوخة ويعرضها في معرض الهزل والزراية، ولا يحجم عن جعل شخصه آلة لذلك الهزل وتلك الزراية.

وأنت ترى طيلة حياتك أشخاصاً يرتدون الملابس التاريخية، ويبالغون في زخرفة أنفسهم بالأحمر، والأخضر، والأزرق، والأصفر، والمنقوش، والمذهب، واللامع والموّبر، وترى آخرين يلفون أعناقهم أو يغطون رؤوسهم ببشاكير الحمام. ونساء يسرن في الطريق مئتزرات بأقمشة ملونة تصلح أن تكون ستائر على الأبواب، أو أغطية للحيطان أو الموائد. ترى كل هذا وتكظم الغيظ وتنتظر يوم الكرنفال لتشفي غليلك بتقليد هذه الأشكال الممسوخة ليفطن أصحابها إلى عيوبهم، ويعرفوا الفرق بين الجد والهزل فينقحوا أشكالهم أو يغيروها.

في يوم الكرنفال تقع مباهج ومضحكات كما تقع مواعظ وعبر.

تجد أن أحد رجال فندق «الغلة»[1] يملأ جيوب بلُوزته بكمية عظيمة من النقود فيبصر في شارع (جول فيري)[2] عدة نساء من بنات عمه يمشين متلفعات

(1) سوق الخضراوات والغلال بتونس العاصمة.

(2) شارع الحبيب بورقيبة الآن.

بمئازرهن البيضاء وسط زحام «المبرنطين»[1]، فيهزه الشوق ويدفعه الحماس إلى اتباعهن، وملاطفتهن واستدعائهن إلى مركبة تطوف بهم المدينة وضواحيها، فلا يبخلن عليه بإجابة الطلب. ويدخل معهن حانة من تلك الحانات الخلوية فيراهن يرتشفن الكؤوس من تحت النقاب في خجل وحياء وخفر ودلال، فيلتهب شوقه وتسخو يده، ويستكثر من طلب المشروبات إلى أن يتم الاتفاق على الذهاب إلى مكان مستتر في الخلاء أو المدينة، حتى إذا حلت ساعة الوصال رأى أمامه أربعة من رجال من «السيسليان»[2] أو اليهود أو غير ذلك، وكلهم فحول ذوو لحية وشارب كشارب عمرو بن معد يكرب الزبيدي.

وترى شيخاً يمشي على عكاز يكلل هامته تاج من الشعر الأبيض، وقد ارتدى بدلة من ألوان قزح، وزخرف نفسه بالمداليات والمعلقات فتلوي وجهك عنه ولا تعنى بأمره، وهو في الحقيقة فتاة من تلاميذ الليسي خرجت تتمسخر على الشيخوخة وعلى الشبيبة في وقت واحد.

وأنت إذا شئت فصحح ظنك في الكرنفال، ولا تحسبه عبثاً ومجانة لترويح النفس لا أكثر ولا أقل. وانظر في شكلك أمام المرآة لعله كان من الأشكال المضحكة التي رأيتها في الموكب وأنت لا تشعر.

جريدة (الشباب) 12 فيفري 1937

(1) الذين يلبسون القبعات.

(2) من أبناء مدينة صقلية الإيطالية.

السياحة في تونس

من الجائز أن تكون تونس في مقدمة البلاد التي يقصدها أكبر عدد من السياح في جميع الفصول، في مصيف رخيص التكاليف للطبقات الصغيرة والمتوسطة، ومشتىً بديع للأغنياء الراغبين في حرارة الشمس المعتدلة. وعدا مناخها الذي يكفي وحده لجلب السياح، فهي من أغنى بلاد العالم بآثارها القرطاجنية والرومانية ثم العربية.

ولكننا مع الأسف لا نرى في اسغلال هذه الثروات مجهوداً يذكر، لا من الحكومة ولا من الشعب بقسميه الوطني والأجنبي. فالسائح لا يكاد يضع هنا قدمه حتى يأخذه الملل ويختصر مدة إقامته، لأنه لا يجد راحته إلا في القسم الأوروبي من المدينة، وهو بأسعار فنادقه ومطاعمه ومقاهيه أغلى من باريس مع خلوه من مباهج باريس ومسرّاتها.

ولا شك أن غاية السائح هي رؤية المدينة العربية نفسها، ومخالطة العرب لا أولئك الافرنج الذين فر منهم وجاء إلى هنا. وكان من الميسور أن يكون في المدينة فنادق على طراز شرقي تستهوي السائح وتحبب إليه الإقامة عندنا، وهو في تونس من الوكالات القديمة والقصور العتيقة الواسعة ما يمكن تحويله إلى هذه الغاية. كما أن المدينة العربية نفسها موضوعة اسمًا تحت إدارة «الأنتيكات»[1]، وفعلاً تحت الزمن الذي سيتولى إبادتها وتخريبها شيئاً فشيئاً. وكل ما تعلم عن تلك الإدارة أنها (تحافظ) على إبقاء المدينة بشكلها الحالي.

(1) إدارة الآثار.

ومن قواعد المحافظة على المدينة أنها تحرم بناء دور ثاني فوق البناء كما هو: دكاكين بائسة المنظر، وهي لسوء الحظ كثيرة. وقد تظن الإدارة أن هذه الأكواخ تخلع على المدينة ثوباً من الجمال الشرقي يسر أنظار السياح. وأيّ عين تسرّ من رؤية البؤس والأقذار؟. نؤكد أن السياح يهربون من هذه المناظر، ويعودون إلى بلادهم بأسوأ الذكريات عن تونس.

وعندنا من المباني والمناظر والشوارع ما يستحق العناية ولكنه مهمل. فهذه الشوارع المعقودة على الأعمدة والتي تستلفت حقاً نظر الأجنبي تكاد تنهار. فقد شققت جدرانها، وسقطت قصورها وما فيها من نقوش جميلة، وأصبحت مشوهة كريهة المنظر. والظاهر أن هذا التشويه يعد من «الأنتيكة»، وكلما زاد ازدادت قيمة «الأنتيكة» نفاسة. وعندنا من القصور التي يملكها الأفراد ما يعد آية في فن البناء التونسي. وترى من واجب هذه الإدارة أن تتفقده وتحافظ عليه رغمًا عن ملكية أصحابه له. لا سيما أن هذه القصور تخرج الآن من أيدي أصحابها الواحد بعد الآخر وتباع بالمزاد العلني بواسطة المحاكم، والمشتري دائمًا أجنبي. وقد أصبح القصر الجميل الذي كان أحصن من عرين الأسد مقسمًا إلى عدة مساكن، في كل غرفة منه عائلة من أخلاط الأمم. ولله ذلك البهو الجميل ذي القبة المذهبة تسمع تحته نشيش المقلاة، أو تنشر فيه السراويل. وبجانبه المقصف الذي كان مخبأ للدرر اليتيمة يرن فيه السطل، وطشت الغسيل. فمثل هذا القصر عندما يقدّر عليه البيع يجب أن تكون إدارة الأنتيكات أول مشترٍ. وعندئذ إنها تحافظ حقاً على المدينة وجمال المدينة، ويجد السياح ما يرغبهم في المجيء إذا كانوا سيشاهدون المناظر الغريبة عنهم. أما الآن فهم يدخلون سوق (العطارين)، فسوق (البركة) ليخرجوا من الناحية الأخرى خروجاً بلا عودة والكريم منهم من يشتري بَلْغة أو صينية بعشرة فرنكات. وهذا ولا مبالغة كل ما تستفيده المدينة العربية من السياح.

أما الآثار الرومانية كقصر (الجم)، وصهاريج (سبيطلة) ونحوها، ما كان أحوجها إلى شركات تبني حولها الفنادق والملاهي البريئة أو تغرس الحدائق

الجميلة، وتوفر كل ما يشتهيه القادمون إلينا فتأخذ تونس شهرتها الأثرية بجانب روما ومصر.

هذه كلها ثروة لو أعيرت التفاتاً وعناية، لكانت بلا مبالغة في مقام الموارد الطبيعية كالزيت والقمح، ولا يلزم لها إلا التفات أفراد الشعب والشبيبة التي لا يجب أن تغمض عيونها عن موارد بلادها على اختلاف أنواعها. وعلى الحكومة أن تقوم بواجبها كما بيناه، ولا تتبع سياسة المحافظة على القاذورات بحجة أنها آثار قديمة حتى تصبح تونس محط أنظار السياح في العالم.

جريدة (الزمان) 3 أكتوبر 1933

المجرم المنفلت (1)

في سنة 1916 وقعت في الاسكندرية نكبة مروعة ظل سكان الاسكندرية يتحدثون أعواماً عن أهوالها وما خلفته في القلوب من الأسى والحزن.

عائلة الطرابلسي الصفاقسية الأصل والتي تقيم في الاسكندرية منذ ستين عاماً، يعتبر أفرادها الأخوة الحاج إبراهيم الطرابلسي، والحاج حسين الطرابلسي، والحاج يونس، أوجه الجالية التونسية المقيمة في القطر المصري وأضخمها ثروة وأعلاها شرفاً ومجداً.

وإذا كان الناس يحسدون الأغنياء في العادة فقد كانوا يفدون هؤلاء السادة بالأرواح، ويضرعون إلى الله أن يزيد في نعمتهم ويكثر من أشكالهم، ذلك لأنهم كانوا موئل كل غريب وسند كل ضعيف وغوث كل ملهوف. وإذا أقبل يوم عاشوراء حيث تجب زكاة المال على المسلمين وفد إلى وكالتهم الألوف من الفقراء، وعادوا بالخير الجزيل والصدقة الوافرة، وكأن يوم عاشوراء يوم الطرابلسيين. وفي إحدى الليالي كان الحاج إبراهيم الطرابلسي يحتفل بعقد قران نجله على كريمة شقيقه الحاج يونس وقد نصب في ساحة الحي سيوان ضخم زين بالثريات والأعلام والأزهار، وبات المقرىء الشهير الشيخ علي محمود يشنف أسماع أعيان القطر المحتفلين بهذا العرس إلى الساعة الرابعة صباحاً. ولم يبق إلا أن يشرق نور الفجر على العروسين وهما يبسمان لحياتها المقبلة.

وما لمع نور الفجر حتى ظهرت تحته دوريات تقل قوة هائلة من ضباط وجنود إنجليز ومصريين، واختطفت الرجال الثلاثة قبل أن يأووا إلى فراشهم،

ومعهم رابع هو ابن أخ لهم يقيم هنا في صفاقس. وكانت قوة أخرى مثل هذه تحاصر مكاتبهم التجارية فحملت كل ما فيها من دفاتر وأوراق وأغلقتها بالشمع والرصاص، وباتت منازل الوجهاء الثلاثة في ظلام دامس بعد أن كانت منتدى المسامرين والزائرين من أفاضل المدينة. أما تفاصيل هذا الخراب الذي حل بهذه البيوت فما لا يتصوره الوهم وتقوى على سماعه الآذان. وفي أثناء ذلك أعلنت السلطة العسكرية الانجليزية أنها ستقدم المقبوض عليهم لمحكمة عسكرية انجليزية، وانعقدت المحكمة...

من أين جاء البلاء؟ قد يجتاح الطاعون مدينة بأكملها، وإذا حققت وجدت أن جالبَ الطاعون فأر صغير يعيش في مرحاض ولا يعلم به أحد.

وقف المتهمون أمام المحكمة ووجدوا أن الشاهد على تهمتهم؛ وكانت تهمة سياسية خطيرة، غلام صغير كان يعمل خادماً في مكاتبهم لم يكن لمثله أن يتصل بهم لولا أن أباه الصفاقسي الأصل يمت إليهم بصلة المعرفة والصداقة.. وأبصروا غلامهم الذي كسوا عظامه شحمًا ولحمًا يقذفهم أمام المحكمة بالفرية تلو الأخرى دون أن يطرف له جفن، أو يرتعش منه عضو.

وحكمت المحكمة الانجليزية على الرجال الثلاثة بالإعدام ونجا الرابع لأنه مات في السجن أثناء التحقيق. وخرج الغلام بمكافأته واثقاً بأن نفسه قد امتلأت بشرٍّ يكفيه أن يستعين به على همّ الحياة، وها هي باكورة هذا الشر قد أثمرت ثمرتها الأولى وقوضت مجد ثلاث من العائلات الكريمة.

رأى الوالد الكريم أن يعلن براءته من ابنه إلى يوم القيامة وحرم عليه دخول منزله إلى هذه الساعة. ولكن مثل هذا المجرم الشرير لا يقهره أن يقفل أبوه منزله في وجهه، وليس أحسن عنده من أن يتشرد في بلاد لا تعرفه ليشبع فيها نهمه للإجرام وقد كان، فغادر الاسكندرية وظل بضعة عشر عاماً يعمل بحاراً وغير بحار في سواحل البحر الأبيض. وقد اكتملت رجولة الكلب وازرورق ناباه، وتمرن على مزاولة الإجرام والختل والتشنيع، وحوك الأكاذيب إلى درجة لا يبارى فيها.

واليوم يقيم في تونس الخضراء.. يقيم فيها منذ ثلاثة أعوام ليستجم ويستريح ويتحفز للجهاد في سبل الشيطان، فاقتنع في أول الأمر ببيع الصحف المصرية والشرقية وهذه المهنة كثيرة عليه شريفة بالنسبة إليه لأنه لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ولكن همته دفعته لأن يكون لها مراسلاً في كل بلد يوافيها بأخباره، لا سيما إذا ادّعى أنه أمين شريف، وأنه قادر على ترويج تلك الصحف في البلد الذي يراسلها منه فاعتمدت عليه، وهي لا تعلم أن الرسائل التي ترد إليها يكتبها غيره. وفي كل مرة يكتبها واحد غير الآخر، وهي لا تعلم أيضاً أن مراسلها حقير الشكل شخت الوجه فأْفاءُ لا يحسن النطق، قذر لا يدنو منه ذو كرامة، يتجنبه الناس كما يتجنبون النجاسة.

وليت المجرم تاب واكتفى بشرف مراسلة الصحف ليمحو من الأذهان سيرته الكريهة، بل رأى أن هذه الصحف أقوى سلاح ينفذ به جرائمه، ففرض على الهيئات السياسية والأشخاص السياسيين وغيرهم مرتبات يتقاضاها منهم وهم صاغرون وإلا فالسوط في يده والصحف تحت أمره. فبينما يقبض المائة فرنك من اللجنة القديمة للحزب الدستوري لينشر مقالة لصالحها يذهب إلى اللجنة الجديدة يساومها على نشره مقالة أخرى ينقض بها ما قرره من الأولى. وبينما يقول في إحدى الصحف التي راسلها أن فلاناً هو زعيم تونس الاقتصادي ينعته في صحف أخرى أو في الصحيفة نفسها بأنه مناوىء الوطنيين، وخادم الاستعمار، والذين دفعوا له النقود ليمدحهم إذا قرأوا شتمهم وعاتبوه أقسم لهم بأن هذه الشتائم أرسلها مراسلون غيره لا يعرفهم وأنه مستعد للرد عليهم.. ولكن ـــ ادفعوا..

وتعلم أن أحقر المجرمين اللئام إذا أحسنت إليه وأخجلته بمعروفك انحنى رأسه وانكسر طرفه أمامك إلا هذا المجرم فكلما أحسنت إليه انتفخ وحسبك تخشاه وتهابه وأنك ومالك في قبضة يده ورهن إشارته.

مجرمنا هذا الذي يعيش عندنا واسطة سوء بيننا وبين الصحف المصرية، فهو لا يشرفنا عندها في صحيفة بالصورة المناسبة للأجر الذي يقبضه.

ولا يشرف هذه الصحف عندنا إذ نراها طوع إشارته، وهو كما نشاهده صعلوك قذر.

ويعلم الله إنا نشفق على رصيفاتنا الشرقية التي جل رغبتها أن تفسح في صدرها المكان الأول للشؤون التونسية نشفق أن يستغل رغبتها هذه مجرم لا تراه، ويحول فائدتها إلى جيبه.

نشفق عليها لأن ربحها الأدبي قد ذهب سدى وربحها المادي لا ينتظر، فحضرة المراسل بعد أن يقبض مئات الفرنكات من الذين يهمهم نشر المقالة في أي صحيفة شرقية، يبيع هذه المقالة بالتالي إلى الصحيفة على أنها من قلمه، وعندما تأتي الصحيفة إلى هنا يبيعها ويأكل ثمنها ثم يكتب إليها بأن الحكومة صادرت الأعداد وأنه يتوقع دخول السجن مرة بعد أخرى.

وأي سجن هذا الذي يخشاه؟ إنه يهدد الناس أحياناً بتبليغ الحكومة بأنهم سياسيون يتآمرون ضدها وأنهم (بلاشفة) يتصلون بموسكو. وكم جاء للتاجر فهدده بأنه سينشر خبر إفلاسه، وكم أخاف الموظف بأنه قادر على رفته.

بلد كتونس تتسع مع الأسف لمثل هذا الوغد لأنه يجد فيها عشرات يكتبون له رسائله بأجر ومجاناً، ويجد من يجالسه ويحادثه محادثة الند والقرين.

لعلك أيها القارىء تسألنا أين كان هذا المجرم الجلف مدى بضعة عشر عاماً وماذا فعل أثناءها.

نجيبك في الأعداد القادمة.

جريدة (الزمان) 9 افريل 1935

المجرم المنفلت (2)

لا بأس من أن تشتغل جريدة تونسية بشيء حقير وتجعل منه موضوعاً لمقالاتها الافتتاحية، فالحقيقة أن كل حقير عند غيرنا عظيم عندنا، ويكفي هنا أن يحيق الحائق فتقوم البلد وتقعد، ويكفي أن يغير إنسان من ملبسه أو معيشته فتتحدث بذلك جميع الطبقات أياماً طويلة. ولكن هذا الشيء الحقير الذي نشتغل به هو حشرة سامة لا تحتملها تونس الضعيفة، أو هذه الحشرة عندنا كارثة عظمى بالقياس لما يشغل به الناس أذهانهم من الثرثرة الفارغة فلا بأس من الكلام...

قلنا إن في تونس مجرماً شريراً يراسل الصحف المصرية والشرقية باسم تونس. وقلنا إنه انفلت من مصر بعد أن ارتكب فيها جريمة سافلة انتهت بوضع أعناق أربعة من أفاضل التونسيين المقيمين هناك في حبال المشانق. وأن أباه طرده من بيته وتشرد بضعة عشر عاماً تمرن أثناءها على الإجرام وجاء إلى هنا أفعواناً كاملاً يريد ازدراد كل ما يصل إليه، ولو اندس بين عباد الله الذين يتجرون في الهروين والحشيش لعاش في ستر وفي أمان. ولكن العمى الضارب على أفئدة الجماهير هنا جعله يقول إنه مراسل صحف، ولا تسمع قط أن شخصاً انتقل من غسل الصحون، ومسح البلاط إلى صاحبة الجلالة يراسلها وتنشر له. هذا السيد الصحفي لو عرض خدماته على أحقر صحيفة تونسية لرفضت أن يضع قدمه على باب إدارتها، لأن قذاراته البدنية على الأقل تزهد فيه كل من يراه، فكيف به وهو جهول سافل؟ إذن فالصحف الشرقية التي لا تعرف عنه شيئاً تتسع لإجرامه أكثر من غيرها.

نجح السافل المجرم في الحصول على بطاقات المراسلة من الصحف الشرقية، وحملها في يده ليرى الناس مدى قوته، وقدرته على النفع والضرر. ويأخذك العجب حين ترى الصحف الكبرى يحملها صعلوك قذر الهيأة ليس بأنظف من ماسحي الأحذية. ولم يفكر قط مع مقدار ما يربحه من هذه الصحف في تغيير شكله، حرصاً على كرامته الشخصية وكرامة الصحف التي يراسلها. حتى أن الجماعات السياسية التي تسخره من كتابة المقالات لصالحها تعاف حضوره وتنبذه في مكان بعيد إلى أن يتم رأيهم على أمر فيسلمونه إليه مكتوباً مع الأجر الذي يسمح به الحال. ولا يكاد يفارقهم حتى يذهب إلى خصومهم، فيعرض عليهم المقال، ويساومهم على أجر أكثر مما قبض ليمزق المقالة الأولى وينشر الثانية. ثم هو لا يخجل من هؤلاء ولا أولئك إذا طالبوه بالوفاء، بل لهم الويل والثبور إذا حدثتهم أنفسهم بمراجعته أو ملامته، لأنه يعتقد أن مراسلي الصحف يجب أن يكونوا لصوصاً محترمين يفرضون الضرائب والمكوس على الناس وكفى. حتى نفس الصحف التي تدفع له الأجر على مراسلتها إذا ابتلع ثمنها، وعرضت به، أو نبهته إلى سوء عمله، غضب عليها وكتب إلى الباعة ليقاطعوها ويرفضوها إذا جاءتهم.

بلغ عدد الذين يكتبون له الرسائل أكثر من عشرين وكلهم من قدماء مدرسة كذا أو جامع كذا، وليس فيهم إلا من يضمر له كل شر لأنه يسخرهم في كتابة المقال له، يربح منه مئات الفرنكات بفنجان من القهوة. ثم تبلغ به الدناءة والوقاحة أن يعتبرهم عبيده وخدمه. وعندنا أن ليس في هؤلاء الكتاب الكرام رجل يكرم نفسه عندما يجلس إلى أمي جهول، ويضع تحت أمره علمه وأدبه، ويكتب له ما يريد وهو لا يدرك ماذا يريد بهذه الكتابة.

وأعلم أن لهذا المراسل الحقير جولتين في اليوم، إحداهما في الصباح وفيها يملأ جيوبه الداخلية والخارجية بعشرات من الصحف والمجلات تطل كلها من ثيابه القذرة بشكل مضحك ليريها لمن يهمهم النشر عن أنفسهم في صحف الشرق ويشوقهم لإعادة النشر من جديد، وليتناول ما تيسر من عشرات الفرنكات ومئاتها. . . وجولة أخرى في المساء يطرح فيها هذه الجرائد لاقتفاء أثر

الأحداث من الغلمان، والمعيشة في تونس أعـزك الله كدرة يلزم تجميلهـا بالانبساط وتفريح النفس بمشتهياتها، ولماذا لا يدفع التونسيون البؤساء ثمن هذا الانبساط؟.

ليدفعوا وأنفهم راغم وإن لم يفعلوا فصحف الشرق كلها رهن إشارته. أو فالمحافظة هنا لها إذن مفتوحة لكل ما يقوله، أليس هو الذي شنق أربعة من كبار المسلمين الوطنيين؟.

رآه أحد المحسنين وهو في أسماله القذرة، فأخذ بيده إلى محلات بيع الملابس واشترى له بذلة كاملة، وحذاء، وجورباً للحذاء، وقميصاً وأزراراً للقميص وكلسوناً وفانلة ومناديل، ثم معطفاً جميلاً ليلبسه في الليل. كل هذا ليلائم شكله مع أشكال الصحفيين المحترمين. وكأن هذا المحسن كان فناناً أكثر منه محسناً، فلما ارتدى المراسل هذه المجموعة مشى منتصب القامة ويسأله أحد السائلين أين كنت؟.

ـ كنت في «الدانصينج».

ـ ومن أين أقبلت؟:

ـ جئت من «الصانصينج».

ولأول مرة يسمع منه اسم (الصانصينج) جزى الله المحسنين خيراً.

وقد أراد أن يبرهن لذلك المحسن على الاعتراف بالجميل، فانتهز فرصة وجوده في القاهرة، وكتب إلى بعض الصحف يقول إن هذا الذي يحل اليوم بين ظهرانيكم جاءكم ليبيع لكم الشاشيـة التونسيـة بأضعـاف ثمنها فـاحذروه ولا تشتروا شيئاً منه...

ويا لشؤم أم ولدتك؟

الشاشية التونسية لم تجد بعد من يشتريها بتكاليفها الأصلية، ولو اشتراها المصريون أو غيرهم بأي ثمن لكان لهم الفضل والشكر. فمن أين تنبأت بأنها ستباع في مصر بأضعاف ثمنها؟ وأنت تعلم أيها القذر أن هذا الذي كساك ليس

بتاجر شواشي ولا صانع شواشي، وإنما ذهب ليجد سوقاً ومنفذاً للصناعة التونسية عامة. فإذا وضعت في طريقه حجراً فإنما تضعه في طريق تونس التي تأويك، وتقبل من مثلك أن يجعلها وأهلها وشرفها مادة يعيش منها.

ليست محاربة هذا الوباء إلا فرضاً على كل تونسي وكل مصري وكل مسلم وكل وثني فما هو إلا بلاء على جميع الناس أحبابه وأعدائه. لم يعلم أحد أنه يحسب نفسه بعد جريمة الاسكندرية من كبار الجواسيس، وقد ذهب للسلطة العسكرية هناك يعرض عليها ذكاءه ومقدرته مقدماً بين يديه جريمته الشنيعة برهاناً على تلك المقدرة وذاك الذكاء، فاستخدمته السلطة في بعض الأمور، وأرسلت معه الجنود المدنيين، فلم تر منه غير الجهل والبلاهة والمخاتلة والكذب. فلما ضجرت من الإنفاق عليه تخلت عنه واكتفت بالخدمة الكبرى التي أداها لها.

ولعله الآن يعتمد على هذه الجاسوسية ليعيش منها بعد أن تنبذه الصحف التي يراسلها، ونقول من الآن أن أمله خائب لأن شخصه خال من تكوين الأذكياء، ونظراته جامدة حادة كنظرات الثعلبيين. وليس له بعد ذلك ثقافة يعتمد عليها في استخراج الخبايا، أو شمائل ظريفة يتقرب بها إلى الناس، أو ملابس وجيهة تسمح له بمخالطتهم. الأقذار والجهالات تحيط به من كل جانب ولو أنه يحتك بالناس من طريق الجنس أو الدين لما عرف شيئاً عن أحوالهم. والجواسيس كما تعلم يلزمهم كثير من الآلات والأدوات، واللباقة والرشاقة، وحسن الهندام، والظرف، والكياسة، وذرابة اللسان والمشاركة في المعارف.

فالذي يستخدم هذا العتل في الجوسة أجره على الله، نقولها ولا نخشى لومة لائم.

جريدة (الزمان) 23 أفريل 1935

الـــزمـــان يضحـــك (1)

علقت البلدية في التقاطع المؤلف من شارع (جولفري) وشارع (روما) مصباحاً ذا وجهين أحمر وأخضر لتنظم به حركة المرور. وكانت هذه الأعجوبة مدعاة لأن يقف عدد عظيم من المارة على زوايا المفارق الأربعة يشاهدون اختراعات المدنية الحديثة إلى هذه الساعة.

والحق أن تونس تسير نحو هذه المدنية بخطوات واسعة، خصوصاً في هذا العام المبارك، فمن ساعة ضخمة تعلق أمام «الكاتيدرال» مجاناً يقرؤها من لا يحملون الساعات أمثالي، إلى مسامير تغرز في الأرض لينحصر بينها سير المارة، كما هو المتبع في باريس، وأخيراً جيء لنا بهذا المصباح الوحيد جعله الله مباركاً على البلاد والعباد.

وسنرى في المستقبل شيئاً آخر في تونس على مثال (تور ايفل) في باريس.

قبل هذا المصباح كان يقف لتنظيم المرور ستة أنفار من رجال البوليس، ولم يقف أحد للفرجة عليهم، مع أنهم أعجب المشاهدات المسلية التي لا ترى في الفصول التمثيلية.

كان هؤلاء الستة غير متفقين فيما بينهم، إثنان منهم في وسط الميدان وأظنهما الرئيس وكاهيته، والباقي مفرقون على مداخل الشوارع. فبينما الواقف في مدخل شارع روما يشير إلى (الترمواي) والسيارات بالوقوف، وإذا بزميله المقابل له بجانب السفارة يطلق الحركة، ويأمر السيارات بالمرور مشيراً إليها إشارات ماريشالية فيصفر الرئيس ليتدارك الخطأ، ولكن صفيره يحدث سوء تفاهم جديد

فيعمد الكاهية إلى إيقاف السيارات التي مرت بإذن النفر المخطىء، بعد أن تكون قد توسطت الميدان الصغير. وهنا يتحمس النفر الواقف أمام قهوة تونس ويصفر على السيدات والآنسات اللائي ينتظرن الآن بالمرور ساعة الظهيرة، ويسمح لهن باختراق الحصار الحربي. فلو كانت السيارات، ومركبات الترام، والناس أجمعين يمرون فيما بينهم بالعرف والذوق، بدون حاجة إلى البوليس لكان هذا المرور أسهل وأسرع وأقل حوادث.

وقد توفر بهذا المصباح خمسة من رجال البوليس، نريد أن نعرف أين سيذهب هؤلاء الخمسة، تونس العربية في حاجة إلى هؤلاء الخمسة الكرام ناشدناكم الله يا أهل الكتاب لا تبخلوا بهم.

لو كان لكل حي واحد منهم يتبختر ساعتين في الليل لانقطع أثر اللصوص، وغواة الأغاني الذين يقلدون أم كلثوم بأصواتهم الحميرية.

أنا كفيل بأن يشترك أهل كل حي في توفير الراحة لجنديهم العتيد، يقدمون له على كل باب «فوتي» يجلس عليه متى شاء، وعليهم عشاؤه من أجود ما عندهم من الدجاج والبوريك، وله ما يعمر رأسه من القهوة والدخان والشراب إن كان من أبناء الكيف، فما غال أو ممتنع إلا ويرخص في سبيل الحظوة بطلعته البهية، وأنفاسه الحكومية. والقط تقتنيه الناس على كسله أو شراسة خلقه، ولكنهم يزيدون في تدليله وإعزازه، لأن مجرد وجوده في المنزل كفيل بطرد الفيران.

أين هؤلاء الجميع.

استغفر الله العظيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله قد أفقت الآن من حلمي وهذياني. وتذكرت الحقيقة المريعة: البوليس لا يشتغل في الليل...

جريدة (الزمان) 21 نوفمبر 1933

الـــزمـــان يضحـــك (2)

إذا كنت ممن يأوون إلى فراشهم في الساعة العاشرة، فلمن تشكـو أولئك الأجلاف الذين يمرون تحت نافذتهم متبخترين على مهل، ينهقون بقولهم: «أمتي الهوى يجي سوا؟».

ينهقون بالدور، من مدخله إلى مذهبه إلى آهاته إلى خواتيمه، كأنهم مأجورون على غنائه بالتمام والكمال. تمر الساعة الثانية عشر، وتدق الواحدة بعد نصف الليل، وجماعة المطربين متطوعون لتشنيف سمعك أنت وعباد الله المسلمين لا يرجون منكم جزاء ولا شكوراً. ثم نقول لمن تشكوهم؟ هذا جحود، قُلْ جزاهم الله خيراً. . .

لكن القطط بماذا يجازيها الله؟ إذا انقطعت أرجل المطربين من الطريق، بدأ الغطارفة الصيد في شن الغارة، وإرسال الصيحات المنكرات في سبيل مصلحتهم الخاصة، فصياحهم إما على ما في الكناسة من العظام ورؤوس السمك، وأما لمزاحمة غرامية لا يشاركهم فيها أحد. قد يجازيهم سبحانه وتعالى بكل خير، وقد يكون في علمه جل شأنه أنها أفضل من كثير من الآدميين، وأن لها الحق في السعي على رزقها ومباشرة شؤونها، فلم يبق إلا أن نشكوها إلى المجلس البلدي ليحسن جزاءها خيراً أو شراً.

قل إن المجلس البلدي يخجل من التعرض لحرية القطط، أو يعجز عن إخفات أصواتها لأنه مثلها في البلاد المقدر عليها، وربما كانت مصيبتها على الناس أخف من مصيبته وهو يرسل «برويطة»[1] الزبالة في الساعة الثالثة صباحاً

(1) العربة اليدوية.

تتأرجح عجلاتها على الأرض المثلمة، وتصعد من صندوقها الزنكي أصوات تحاكي الرعود في الهول. فماذا يقول المجلس البلدي للقطط المساكين؟ والبرويطة وسائق البرويطة، وكل هؤلاء جريمة متحركة يأخذ كل نائم نصيبه منها. وما قولك في ضجة عنيفة في الساعة الثالثة صباحاً أي الوقت الذي يستحي فيه الديك من الصياح بل يستحي المؤذن أن يرفع صوته بحي على الصلاح.

(البرويطة) بعد أن توقظ النائمين بصيحاتها المعدنية يبدأ عافاك الله صوت الكناس وكاهيته. فتسمع الرئيس وهو ينعق بصوته الكريه يأمر المرؤوس بعمل كذا وكذا من الإجراءات الصحية البلدية. وتقوم بينهما مناقشات وعتاب، يتناولان فيها السكان وأصحاب البيوت بالشتائم بعد أن أيقظوهم لسماعها.

مرحباً بالمغنين والمطربين، ولا بأس بالقطط، أما المجلس البلدي فإني لا أستطيع أن أقول فيه كلمة طيبة.. ورزقي على الله.

جريدة (الزمان) 12 ديسمبر 1933

مـــدينـــة الشتــــائم

من العجب أن يكون الدين في هذا البلد[2] أول شيء تضحي في سبيله الأرواح، ثم يكون أول مسبوب على ألسنة الجماهير من جميع الطبقات. ويشبه في التناقض أن الأعراض هنا شديدة الحرمة، والحجاب غليظ. والغيرة الجنسية بالغة أشدها، ثم تسمع في كل مكان حناجر تنطلق بذكر أعضاء التناسل، وتقليبها على كل وجوه الاستعارات والمجازات، ولا يقتصر ذكرها على ساعات الخصام، ولكن نسمعها في البيع والشراء والجدل والمزح. وليس من حرج على شخصين يأخذان مكانهما تحت نوافذ البيوت المقفلة على العقيلات والابكار ثم يخوضان فيما يأتيانه من فجور، وثم من كلام مكشوف لو كتبت إحدى الجرائد كلمة منه لزج بكاتبها وناشرها في السجن.

تكاد تكون تونس الوحيدة في العالم التي لا يراعي أوباشها آداب السير والحديث. ولا أخص بذلك مسلميها، فقد انغمست كل ألسنة سكانها في البذاءة وأصبحت كأنها من علامات الرجولة والفتوة. وما تسمعه من الألفاظ البذيئة باللغة العربية تسمع مثله بالإيطالية وسائر اللهجات الأخرى كأنها «طبعة»[2] تجري في ماء زغوان ينفعل بها كل من شربه.

ليس هذا التشاتم مما يصم الشعب فقط بوصمة السقوط والصغار. وإنما شره أعظم لأنه ينتهي بالتضارب والقتل واقتلاع جذور المحبة من قلوب

---

(1) يعني الكاتب بالطبع تونس.

(2) عكارة.

المتعاشرين والأهل. ولو أحصيت الجرائم التي سالت فيها الدماء، أو تتبعت الظروف التي تتفرق وتنفصل فيها العائلات وتخرب البيوت لوجدت سبب كل ذلك كلمة تافهة انطلقت قصداً أو عفواً، ولا مبالغة إذا قلنا أن أول سبب لتطاحن هذا الشعب وفشله وذهاب ريحه هو ألفاظه التي يتفاهم بها.

تمكث في المدينة الفرنسية والانجليزية خمسة أعوام دون أن تشاهد مشاجرة، وإن وجدت فالمتشاجرون يتخاصمون بالمنطق المهذب، أو بالرصاص وهو أسلم عاقبة وأجمل وقعاً مما نقوله في مخاصماتنا.

إن في قانون العقوبات مواداً تعاقب من يوجه كلمات معينة إلى شخص إذا رفع هذا الشخص دعواه أمام المحكمة. ومن الحق أن يعاقب أولئك المعتدين على الآداب بألسنتهم القذرة.

إنه لا رجاء في زوال المخازي إلا بتعيين بوليس خاص للآداب، وسن قانون بوليسي يعاقب بصفة مستعجلة من لا تمنعهم حقارتهم من التفوه أو التغني بالعبارات الوقحة. وعندي أن هذه العقوبة لو كانت مالية لاستغنى بها البوليس عما يرهق به الباعة من ضروب الغرم والتنكيل، وله من عدد المتشاتمين ما يفوق عدد البائعين البؤساء.

جريدة (الزمان) 14 أوت 1934

اليـــانصيب الخـــيري

الذين يديرون جمعياتنا الخيرية مسؤولون إلى حد بعيد عن تدبير المال لها، ومسؤولون عن التقصير في تدبيره إلى حد أبعد.

لا يعجبنا من جمعياتنا الخيرية استنهاض همم المحسنين ببلاغات توجهها للصحف لا يجيبها أحد عليها. ولا بتلك التذاكر الطفيفة القيمة التي يشتريها واحد ويتجاهلها عشرات الألوف. ولا بتلك «الكيزان» التي يدور بها الأطفال لاستجداء النقود النحاسية، بل ولا بالليالي الساهرة التي تفرضها على فرق الرقص والغناء التي يقوم بسببها الشجار والمنافرات الوطنية والجنسية.

إن المورد الأكبر الذي تعتمد عليه الجمعيات الخيرية هو اليانصيب الذي يوزع في الأيالة بانتظام، وترصدْ له الجوائز الكبرى المغرية. وهذا نفس ما تفعله الجمعيات الخيرية من غير المسلمين في تونس فقد رأينا إحدى الجمعيات الإسرائيلية توزع رقاع اليانصيب في مدى عام كامل، وكلما حان موعد السحب أجلته إلى شهور لتجدد طبع الرقاع ويزداد إيرادها. بل رأينا كثيراً من الهيئات التي لا يجوز وصفها بالفقر والاحتياج تبيع كميات هائلة من الرقاع ثم تؤجل السحب إلى أجل غير مسمى وهي واثقة بأن الجمهور لا يطالبها برد المال.

وبدون أن نلقي درساً مفصلاً على أعضاء جمعياتنا الخيرية نكتب نسخة من ذلك اليانصيب الذي يجب عليها إصداره.

الجائزة الأولى ــ دار مؤلفة من طبقتين ثمنها 50 ألف فرنك.

الجائزة الثانية ــ فراش كامل لحجرة نوم وحجرة أكل صنع السيد فلان ثمنه 20 ألف فرنك.

الجائزة الثالثة ـ والرابعة ـ والخامسة ـ ثلاث كوبونات لتفصيل ثلاث بدلات عند السيد فلان الخياط.

الجائزة السادسة ـ فوتوغراف مع 20 صحناً من محل فلان.

الجائزة السابعة ـ 1000 فرنك عشرة جوائز أخرى كل واحدة بخمسين فرنكاً ثمن التذكرة فرنكان.

وسيقول أحد الأتقياء إن اليانصيب ربأ تحرمه الديانة الإسلامية.

ونجيب هذا التقي بأن إمام المتقين في هذا العصر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أصدر فتوى شرعية رسمية مختومة للجمعية الخيرية الإسلامية تبيح لها إصدار اليانصيب، ما دامت الغاية منه تربية الأيتام وإعانة الجياع وإسعاف الملهوفين.

وها هي تلك الجمعية تدير نحو ثمانين مؤسسة خيرية من مدارس ابتدائية، وثانوية، وصناعية، ومَلاَجِيء للأطفال وللعجزة، وتجهز الفقيرات، وتدفن الفقراء وتجري مرتبات منظمة للعائلات المنكوبة، وليس لها مصدر إيراد غير ذلك اليانصيب.

والذين يطلعون على الصحف المصرية يرون جمعية مثل جمعية «المواساة الإسلامية» تطرح في اليانصيب عمارة مؤلفة من عشرة أدوار ثمنها ثمانية ملايين فرنك، يربحها أحد نصارى لبنان ويستلم حجتها في يده.

يجب أن تعلم جمعياتنا أن عاطفة الخير في الجماهير لها حد تقف عنده. الذي يدفع اليوم عشرة فرنكات في تذكرة (تياترو) كانت أمامه جائزة لها قيمة، دفع قسطه من الإعانة باستمرار وبدون أسف على الخسارة.

جريدة (الشباب) 5 فيفري 937

خــراب النفــوس

الأخلاق الفاضلة لا تولد مع الناس كالغرائز والطباع، وإنما هي تحتاج لإنشاء وتأسيس، يتمحض له أنبياء وفلاسفة وحكماء يعملون طيلة حياتهم الواحد بعد الاخر. ويتعهد الخلف منهم صلاحَ كل ما تهدم من آثار سلفه. وكلمة «فضيلة» مرادفة لكلمة «بناء»، أي تدل على مؤسسات أقيمت بمجهود عظيم ولا تستغني عن الوقاية والحفظ والتحسين.

وأما الأخلاق السافلة فتأتيك عفواً بلا رسول ولا معلم، وتنبت نباتاً شيطانياً غزيراً يملأ كل ناحية. وتلوح لك بأزهار ملونة لا عطر فيها، وبثمر لا غذاء فيه، وقد يعجبك هذا النبات لأنه جاءك بلا بذر وحرث وما أحب الراحة إليك.

واشق أنواع الصراع هو صراع النفس، وكبح جماحها في هذا الميدان يظهر الإنسان الراقي من المنحط، وقد تجد في «بعض الأمم» من يجهد بدنه ستة عشر ساعة في اليوم في أشق الأعمال، وهو مبتسم راض، ولكنه لا يستطيع صد نفسه عن أي مطلب حقير، ولا دفعها للقيام بمثقال ذرة من الخير.

هذه أمة نبيها محمد العظيم (ص) وقانونها القرآن القويم، ورجالها قادة الأفكار وفاتحو الأمصار نصهرها اليوم ثم تسكبها من جديد فيظهر لك منها تمثال هذه صفاته. «حيوان» لا يوقر الضعيف، ولا يرحم العاجز، ويحتقر من يبدأه بالاحترام أما بوادر القوة فيرهبها ويخفض لها جناح الذل.

«جموده» غايته «ومبتغاه أن يرى الناس يتحطمون الواحد بعد الأخر

ولو تحطم معهم. وإذا دعوته للسعاية بأخيه والوقيعة بأقرب الناس إليه مشى معك إلى أقصى الأرض، ولو كان مقطوع الرجلين.

«فوضوي» لا يضع نفسه في العمل الذي يصلح له ولا يستطيع الاستمرار فيه، فمن تاجر إلى فاجر، ومن قهوجي إلى صحفي، ومن طباخ إلى معلم.

«منافق» زائغ البصر له سبعون ألف وجه، فاقد لقوة التمييز والحكم، لا يستطيع القول حتى يقول غيره، ولا يخطو خطوة إلا تابعاً لسواه.

«متكبر» وليس له من موجبات الكبرياء إلا ثوب أنيق أو اسم يحمله من بقايا ما خلفت عائلة بائدة نسيها الناس، وأهملها التاريخ.

«مغفل» لا يمتدّ بصره إلى أبعد من أنفه. ينظر لصباحه قبل مسائه، وليومه قبل غده، ولا يعرف من ماضيه أكثر مما يعرف من مستقبله.

«مادي» لا يقيم وزناً للأخلاق ولا للآداب، وقصاراه شيء يضعه في يديه ويراه بعينيه. هذا المثال هو الشكل الغالب في الأمم الإسلامية اليوم، حتى لم يعد فيها مكان لذوي الفضل والاباء، بل كاد ينطبع الأفاضل بطابع الأغلبية، ويصبحون هم أيضاً شرًّا على ذويهم من الوباء الجارف، نحن نمشي وحدنا إلى الفناء لا يدفعنا إليه دافع ولا يجبرنا غاصب، لكنها إرادتنا الحرة.

هذا القصر القائم الفخم «كان» للسيد فلان وبيع في العام الماضي... وهذا الشخص المتسكع في الشوارع «كان» تاجراً عظيمًا وأفلس في شهرين...؟ وذلك الفتى الجالس معتمداً برأسه على يده «كان» موظفاً ورفت...؟

ولم؟ كان الأول سفيهاً متلافاً، والثاني مدلساً غشاشاً، والثالث مرتشياً عاجزاً أو كسولاً مهملاً، وإذا خربت النفس فلا يبقى إلا الجثة التي ينتظرها القبر.

جريدة (الزمان) 7 مارس 1933

أنـــا وهـــو

«أنا» هذه كارثة متحركة لا يعلم أحد على رأس من تقع، ولا بد لها من ضحية على أية حال، وضحيتها «هو» المجهول أو المعلوم.

«أنا» أسوق سيارتي الفخمة معجباً بها وبنفسي ويحلو لي أن أصل إلى هدفي في مثل لمح البصر، و «هو» أي الإنسان أو البهيم المدهوس تحت عجلاتي لا شأن لي به.

«أنا» رأيت وأنا في بيتي في سكون الليل صورة المرحوم والدي الموقر زعيم العائلة ومؤسس مجدها معلقة على الحائط الأيمن أو الأيسر من الغرفة، وما أجملها لو كانت معلقة في صدر الغرفة لتروع الغرفة ببهجتها وتطل عليه من عليائها؟ الأمر سهل والمسامير موجودة في الدار من كل طول ومقياس، والمطرقة الحديدية حاضرة، فأنا أدق المسمار في المكان المناسب ويصادف المسمار حجراً صلداً في الحائط يأبى أن يهش تحت الدقات العنيفة المتوالية، فما أزال بالمسمار أنقله من موقع إلى آخر قريب منه حتى يصادف منفذاً بين حجرين، ويثبت ويقوى على حمل الصور ذات الاطار المذهب الثقيل فأعلقها ثم أتأملها في لحظة من الصمت الرهيب، ثم أرسل نفثة الارتياح وهذا أقل ما يجب في حق الوالد المحترم. أما «هو» أي الكلب جاري الذي يسكن خلف هذا الجدار فلا يعنيني إن كان قد طار نومه وبكى طفله المريض، وانزعجت حماته وهي في سكون الاحتضار بل لن أفكر في هذا كله أو بعضه.

و «أنا» المدلل الذي يجري دم الشباب ساخناً في عروقي، ويطالبني بإشباع

رغبة الشباب أو يذهب بنومي، ويؤرق مضجعي لماذا أكتم هذه الرغبة وأميتها ما دام هو «الأنثى» قريبة مني، انها ابنة جارنا التي أبصرها تارة ذاهبة إلى المدرسة وتارة فوق سطح الدار، لقد خرجت من عالم الطفولة من عهد قريب ونضجت أنوثتها واتلعت جيدها الفضيّ لمثلي، لكنها يا هؤلاء صعبة المنال، فهي كما يقولون جمة الأدب شديدة الحياء، تقضي عمن يحملق ويتطلع وتنفر ممن يحوم ويتحكك، ولها والد تعلوه هيبة الورع والاستقامة ومسحة العز والكرامة. أما الفتاة فلها عندي الحيل المبتكرة، والدهاء الكبير، والإيمان المغلظة على صدق حبي وشرف مقصدي وأما الوالد فأقبل يده في الطريق وأكاتفه في الصلاة، وأتصدق في المتسولين كلما جمعني وإياه مجلس، وسترون كيف يحصل «أنا» على رغبته بلا عناء كبير، ويطفىء الجذور التي تأكل جسمه، وتأتيني بعد ذلك عجوز من دار «هو» أي الفتاة تخبرني بأنها حامل أو مصابة بمرض سري.

أي لعنة الله على «هو» وعلى أبيها وعجوزها الشمطاء.

* * *

و «أنا» في مجلس من الاخوان اجتمعوا ليقتلوا الوقت بالحديث السمر، وكلهم فاضل أديب وألمعي أريب يريد أن يتكلم وأنا مثلهم بل أنا أكثرهم شوقاً للحديث، أو أنا أولاهم بالحديث فلا يلبث أحد فصحائهم أن يتمثل بالبيت المشهور لمناسبة حضرته:

ليس الحداثة من حلم بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

فأعتدل أنا في مجلسي، وأصيح بصوت يطغى على أصوات الجميع قائلاً:

«هذا البيت لأبي الطيب المتنبي وهو من قصيدة له مطلعها:

من الجآذر في زي الأعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلابيب

وألمح «أنا» «هو» وهو يهم بمشاركتي في لذة إنشاء الشعر ويحاول أن يذكر بعض أبيات هذه البائية الجميلة فأبادر وأقول:

«ومن هذه القصيدة أيها السادة قوله البديع الذي أجمع النقاد على روعته وفخامته:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

واسكتوا حتى أسمعكم كل ما يحضرني من أبياتها، وكل ما أذكره من شعر المتنبي وغير المتنبي.

وإذا انتهى الشعر فسأحدثكم عن أيام دراستي والبيئة التي نشأت فيها، وعن الدوحة التي أثمرتني والعائلة التي أنجبتني، وكيف كان والدي من أعاظم الرجال، ووالدتي من فضليات النساء، وكيف كنت باراً بهما حتى أورثاني الدعاء الصالح ورافقني التوفيق الذي ترون.

لعل «هو» الذي يسمع قد اعتراه الصراع وأخذه الدوار، أوكأنه ينظر لي وهو لا يفقه ما أقول شأن الكثيرين من المستمعين.

لعل «هو» الذي يسمع قد اعتراه الصراع وأخذه الدوار، أوكأنه ينظر لي وهو لا يفقه ما أقول شأن الكثيرين من المستمعين. كل هذا لا يشغلني ما دمت «أنا» قد كرعت من الحديث ورويت ظمئي منه.

و «أنا» العطار الذي يبيع المأكولات لأهل الحي جميعاً وقد تخلف لي عندي بقية من جبن عفن و «رنقة»[1] قديمة، وزيت زهم، وبذور مسوسة. يقول لي الشيطان الذي يسمي نفسه الضمير: الق بهذه القاذورات في وعاء الكناسة فهي لا تكلفك غير بضعة (صوالد)[2] فأجيبه («أنا» بلا، وحاشا، وكلا») لأنه أمامي هو الذي يشتري هذه الحُثالات بعدة فرنكات، وأقسم له وقد رأيت الثعابين عندما فتحت الحانوت تزحف فوق قطعة الجبن والفيران تقفز من براميل «الرنقة» بعد أن زركشتها بأنيابها ـ أقسم له أنها بضاعة طيبة طاهرة لا يزيدها القدم إلا حسناً ولذة، وإني لا أخص بها غير صفوة الأصدقاء والمعارف، ويبيت

(1) نوع من الأسماك المملّحة.

(2) وحدة العملة التي كانت متداولة آنذاك.

«هو» مع امرأته وصغاره بين القيء والإسهال والوبال والألم، بعضهم في المنزل وبعضهم في المستشفى لا شفى الله مرضاهم ولا رحم موتاهم.

و «أنا» وقد شعرت بالبرد فجأة وأنا في القهوة فجذبت طرف برنسي، وتلفلفت به بضربة واحدة وإذا بشخص اسمه «هو» يدعي أن طرف البرنس أصاب عينه واندلقت القهوة على ملابسه، ورمى بكوب الماء على الأرض، فليدّع ما يشاء، فلم أشعر بعد بوجوده حتى أصدق دعواه.

* * *

وبعد، فلو تمثلت «أنا» خلقاً يقع تحت الحس لكان «حشيرة» دنيئة لا كالنمل الفاضل الذي يعرف «هو» ويتعاون معه في حفر السراديب وبناء المخازن ومحل الكتلة الكبيرة من الخبز ونحوه، ولا كالنحل الذي خلق بفطرته ليقدم الشهد إلى «هو» الذي لم يعرفه، ولم يدن له بأدنى صنيعة أو جميل. بل حشيرة من نوع الدود دود الجيفة المنتنة حفظكم الله، كل منها تقول، «أنا» أي تنقل وحدها ولكي تنتهي تمد خرطومها من فوق جسم صاحبتها أو من تحتها أو تجتاحها كأنها لا تراها.

والأنانية غريزة ضرورية لحفظ الحياة، ولكنا لا يجب أن نحتفظ منها إلا بالقدر الذي لا يضر بالآخرين، إن كانت الحياة عطفاً وألفة، أو يصطدم بأنانيتهم إن كانت الحياة كفاحاً وسباقاً.

هذا ولو علم... عندما كلفني بكتابة كلمة لنشرها أني سأكتب مثل هذا الهراء المفصل، والهذيان المنمق لاكتفى بتتويج نشرته بحديث نبينا عليه الصلاة والسلام: «حب لأخيك ما تحب لنفسك».

مجلة (الجامعة) جويلية 1937

وحـــيُ الـــزمـــان

يا أيها الناس خرِبت الأرض ولا زلتم تفذلكون، قد خبأت في جوفها زبر الحديد فلذات من ذهب وفضة وأنتم عليها تأكلون «وتدولشون»[1]، أو لم تنظروا إلى السماء وما فيها من سابحات فوق رؤوسكم بـالغاز والبنـزين، وإذ قال «مركوني»[2] لقومه يا قوم سأسمعكم من الخطب ما لم تكونوا سامعين، وأريكم في المرآة كلما خلق الله من ذكرٍ وأنثى وبهيمة وحجر وأنتم جالسون، فصدقوه وآتاه الله من العلم والحكمة ما أنتم عنه غافلون، ولو بعث فيكم لانفضضتم من حوله تهرولون، في «برانس» و«جبايب»[3] منكمشون، ذلك لأنكم أذكياء والله بذكائكم عليم، تصنعون «البُلَغ»[4] و«المغارِف»[5] ومنجـل الحديـد، وإذا تَاجرتُمْ تاجرتم مفلسين، يا بني حزقيل ازرعوا واغنموا فأنتم المفلحون، واجلبوا البضائع بخمس وبيعوها بعشرين (قف) فإنما نحن المشترون. ومن لم يشتر فأولئك هُم المتفرجون، بل أولئك هم المحرومون، ينتظرون الجنة ومـا هم بداخلين. إن من افتقر وهومسلم فمالَه من دنيا ولا دين. وما جاء الإسلام ليفقر الناس ويجعلهم الأسفلين بل هو«بن عيسى»[6] ومن تبعه بالبنذير، فما لكم تغضبون وتسخطون. سبحان الله العظيم.

جريدة (الزمان) 16 جانفي 1933

---

(1) تتجولون.

(2) أحد المخترعين الايطاليين الذين اخترعوا أدوات الاتصال.

(3) لباس تقليدي تونسي.

(4) النعـــل.

(5) المـلاعـق.

(6) من أصحاب الطرق التي اعتاد مريدوها إظهار براعتهم في أكل الأفاعي وابتلاع المسامير وتحدي النار.

العـــاهـــات الأخـــلاقية

قد ترى في كل أمة الأوروبيين أفراداً يشتملون على كل موبقة: المدمن، والمقامر، ومعكوس الطبيعة. ولكن لا ترى في هؤلاء المصابين من يتناوم لبليته ويتركها تطغى على شخصيته كلها. وحسبه أن يرتكب ما يروق له من اللذة الآثمة في ساعةٍ من يومه، وفي مكان لا يراه الناس، ثم يبرز بعد ذلك رجلاً فاضلاً يعاملك بالصدق ويسايرك بالحشمة.

ولكن الشرقي إذا عرفت عنه عاهة أخلاقية فهو يزركش نفسه بكل أعراضها وتوابعها. فإذا عرف عنه أنه مخنث وجب أن يتصف بكل ما يتصف به المخنثون، من الكذب في القول، والليونة في الحركة، والغدر في الصداقة. وإن كان سكيراً سار في حياته كلها على مثال الساعة التي يقضيها في الحانة، يعربد ويخرق، وينصب ويقطع ويظنك تعذره في سلوكه لأنه سكّير... سقط عنه التكليف. وبالجملة فإن العاهة الكامنة في الشخص تسقط ثقته من نفسه في جميع أعماله تجارة كانت أو وظيفة أو صناعة. ويخيل إليه أن جميع الناس قد عرفت عنه إحدى الرذائل ولأجلها يحتقرونه فهو لا يبالي بعد ذلك أن يعرفوا عنه، بقية الرذائل.

إن العاهة الأخلاقية قد تصيب الشخص بحكم الحيّ الذي يعيش فيه، أو الوراثة أو بطارقٍ آخر، وكل إنسان في مثل هذا الزمن عرضة للإصابة، فإذا وجب على المصاب أن ينحط إلى جميع الرذائل لأنه وقع في واحدة منها، فسدت كل الأعمال ولم تنجح تجارة ولا صناعة.

كم ترى في الأوروبيين من يدير المعمل الكبير الذي يعج بألوف العمال، ويصدر حاصلات البلاد إلى نواحي الدنيا. ثم تعرف بعد ذلك أن هذا المدير من كبار المخنثين أو المقامرين، ولكن يفصل بين عاهته وعمله. وإذا تيسر لك مقابلته في ساعة سروره رأيتَ شخصاً، وإذا أبصرته في عمله رأيتَ تاجراً، وليس معنى ذلك الظهور بين الناس بوجهين، وإنما هو فصل بين حالتين. فإن كان السكر والمزح والمباسطة تليق بالجالس في الحانة، فهي لا تليق به وهو على المكتب.

يغيظك أنْ ترى هنا السكير مرذولاً في كل حياته، فإذا كلمك كذب. . . ، وإذا عاملك نصب وقلب، ويسوءك أن ترى المخنث في كل لحظة وفي كل حركة حتى ولو برز إلى ميدان القتال. لعلك أبصرت مرة إحدى المومسات الأوروبيات اللاتي يدرن محلات الدعارة، كيف تعيش في منزلها، ولعلك أبصرتها خارج هذا المنزل ورأيت الوقار والحزم والاحتشام والهيبة، حتى أنها لتجلس في أشرف الأوساط ولا يشمئز أحد لجلوسها.

ومثلها من الوطنيات إذا خرجتْ من منزلها احتفظت بكل رذائلها، فهي تحاول أن تسلب التاجر الذي تشتري منه طعامَها وملابسها، كما تسلب الزبون الداخل إلى حظيرة أنْسها.

إشرب ما تشاء من الخمر، ولكنْ إذا دفع لك أحد الناس عربوناً لتؤدي له عملاً فلا تأكل هذا العربون، وتهرب به من شارع إلى زقاق.

وباشر ما يروقك من اللذات ولكن لا تتدلل على كل مخلوق، ولا تكلف الناس بمراعاتك واحتمال مكارهك.

جريدة (الزمان) 9 أكتوبر 1934

الـــذوق (٦)

شيء لا يقبض عليه باليدين، ولا يؤمن بوجوده أصحاب الأمزجة الخشنة الذين لا يرونه طعاماً يؤكل أو درهماً يدخر، وهو مع هذا ربح صاف، وثروة كبرى دونها مناجم الأرض ومنتجات البر والبحر.

وكم يعيش أصحاب الأذواق السليمة منعمين متفوقين على أقرانهم في كل أعمالهم. فهذا سوق فيه عشرة من العطارين كلهم في كساد يذبون الذباب، ويطلقون البخور وبينهم واحد ينعم بالربح وتزدحم على بابه الأقدام. لأنه حكّم الذوق في عمله فنسق بضاعته بشكل جميل، وعرف أين يضع الجبن، وأين يضع السكر، أو أباريق الزيت، وكيف يلف بضاعته بحذق ويقدمها للشاري بأدب، وكيف يتكلم مع الناس. وترى عدة أشخاص يزدحمون على وظيفة فيفوز بها أقلهم كفاءة رعلمًا، وأدناهم حسباً ونسباً، فإذا بحثت وجدت أن الشخص موفق في اختيار ملابسه وتنسيق هندامه وحبْك رقبته حتى استرعى نظر الرئيس دون إخوانه.

وبالذوق السليم تعيش أمم كاملة ليست لها موارد تذكر، وليس ما تصنعه وتنتجه بأحسن مما عند غيره، ولكن شيئاً من الذوق يتجلى في مصنوعاتها يجعلها الفائزة المرغوب فيها قبل سواها. فالتمر مثلاً غذاء لذيذ اختصت به الجريد(١)، ولكن الشكل الذي يقدم به الجريدي هذا التمر ينفر الشاري والآكل، فإذا ذهب إلى أوروبا ونضدوه في العلب المستطيلة المزخرفة بالنقوش البديعة أقبلت عليه النفس وتبارى الأحباب في إهدائه لبعض.

(١) إحدى مناطق الجنوب الغربـي من الجمهورية التونسية.

والتمر هو التمر عند الجامدين الماديين، وقد خسروه وباعوه بثمن بخس، وربح منه هذا الخيالي الذي لم يزد فيه إلا وحي الخيال. وأنت تود اتخاذ ملابسك من منسوجات وطنك، ولكنك تتأملها فتجدها حمراء وخضراء ومخططة كخطوط الزبرة (الحمار الوحشي) أو جهمة المنظر، فتتركها وأنت آسف. والنساج يرى منك هذا الإعراض ويحقد عليك، ولكنه لا يفكر في إرضائك واستشارتك فيما تريد أن تلبسه، وأنت تدخل منزلاً مؤثثاً بالمفروشات الفخمة ولكن تضيق أنفاسك من الجلوس فيه خمس دقائق لأن أصحابه لا يعرفون أين يوضع الكرسي أو الخزانة، وأين تعلق المرآة أو الصورة. بينما منزل العامل الفرنسي أو الإنجليزي لا يساوي ما فيه من المفروشات قيمة ما في مطبخكم، ولكنه يشرح الصدر بحسن تنسيقه لأن فيه امرأة عرفت مكان كل شيء. فهذه المائدة، وهناك آنية الزهر، وفي هذا الركن وعاء أو منضدة قديمة، ولكن فوقها غطاء بسيط من الدنتيلا رفعها إلى قيمة الأنتيكات الثمينة.

قل لي؟ ألم تلحظ بعض السيدات اللاتي يجملن أنفسهن فتكون إحداهن سمراء، وتصبغ شعرها بالحناء الحمراء أو بالأكسجيني،ثم تمد الكحل إلى نصف وجنتيها ليتصل سواده بالحمرة المركزة على الوجنتين، فتظهر كأنها كراكوز يضحك الأطفال أو يخيفهم، ولو أوتيتْ شيئاً من الذوق لكانت درة أترابها وملكة أمثالها.

لا يستغني عن الذوق رجل ولا امرأة، ولا دكان ولا مركبة، ولا حمار، ولا شيء في العالم. وحسبك من الذوق إزالة العيوب، فلا تترك في وجهك شوارب عنترية، ولا تحلق شعرك على الطريقة التي يقصون بها جلود الكلاب في الصيف، ولا تحمل ما تشتريه من حاجياتك مكشوفاً أو ملفوفاً في جريدة قديمة أو خرقة بالية، وتمشي به في الطريق، ولا تتخذ في نفسك صوتاً رناناً أو حركات عنيفة لتظهر وسط الأخوان والأقران فريداً ممتازاً، ولا ترقد إن كنت جزاراً على مصطبة الدكان بجانب قطع اللحم، فأنا أول من يوصي الناس باجتنابك.

قلت حسبك من الذوق إزالة العيوب، فإذا ترقيت إلى أحسن وأنتجت من عندك فهو الغاية السعيدة.

جريدة (الزمان) 26 نوفمبر 1935

الـــــذوق (2)

كلمة «ذوق» من الكلمات الكبرى مثل «كون» و«أدب» و«موت» تشمل تحتها ألوفاً من المعاني والأسماء، وهي جماع علم غزير وغيرة واسعة، وتربية قيمة، واستقامة في السلوك طول الحياة.

والذوق ألزم شيء لنجاح الأمور كلها، يحتاج إليه التاجر، والصانع، والزارع، وهو كالصلاة مفروض شرع على من يجهله. وقد يكون وحده السبب في ارتقاء أمة كاملة إلى أعلى قمة المجد. نضرب مثلاً على ذلك الفرنسيين فأذواقهم هي السبب الكبير في رواج مصنوعاتهم وتجارتهم، وتشويق العالم إلى زيارة مدنهم على اختلافها. وبأذواقهم يخلقون من تافه المادة مصنوعات قليلة التكاليف، وفيرة الربح، يشتغل فيها مئات الألوف منهم. وبأذواقهم يحولون المغاور والكهوف التي تحت الأرض والتي كانت مأوى الحشرات والأقذار إلى مراقص ومقاصف تنصبّ فيها أموال أغنياء العالم، وقد تلبس فتاتهم الفقيرة ما لا يساوي خمسين فرنكاً، ولكنها تظهر للعين في شكل ساحر يجعلها ملكة في عالمها ومحيطها. والحياة عندهم حلوة طيبة لأن الذوق يلابسها ويمازجها. والظاهر أنهم هم الذين رضي الله عنهم، والفرد أو الشعب الذي لا ذوق له ماذا ترى فيه؟ ملابس تاريخية خلفها لهم حمق الزمن السالف، لا يزالون محافظين عليها، فرحين بهيادبها وألوانها، طباخ يعرض على قارعة الطريق وللآكلين كل أقذار الحياة.

امرأة من العائلات تغبّر رأسها بالأوكسجين وتضيف إلى ملابسها العربية حذاء «سواريه» من الحرير الوردي.

تاجر لا تعرف الفرق بين ملابسه وملابس الطبال والزمار.
قهواجي يدير فنوغرافه الأبدي من الساعة السابعة صباحاً.

وماذا نرى أيضاً؟ إذا انعدم الذوق رأيت المسخ والكآبة بارزين في كل شيء، ووجدت القهر والذل مخيمين على تونسها، وطرابلسها، وقاهرتها، ودمشقها، ولله الأمر يا قرة عيني.

جريدة (الزمان) 29 أوت 1933

الاتحـــاد والمحبـــة

والله إننا لأفضل من ساكني هذه الأرض، من إفرنج، وروم، وفرس، وزنوج؛ هؤلاء الأقوام المتعلمون الذين لا تبدو في حركاتهم أية إشارة تدل على رقة الإحساس وسموّ الشعور. فالإنجليزي له سلام جاف يضع يده في يد مصافحه، ويهزها مرة واحدة، وينطلق مسرعاً كالسارق الهارب. كذلك الفرنسي لا يسألك عن صحتك إلا مرة واحدة، كأن السلام يكلفه ضريبة؛ وهذه الأمم مع ذلك تدعي أنها السابقة إلى وضع قواعد الاتحاد، والمخترعة لروابط المحبة بين الأفراد.

إن مصافحة الرجال وصيغ التحيات تكون هكذا:

«كِيفنَّك، ؟ إشْحَالِك؟ متهنِّي؟ متبَحْبح؟ متريَّض؟ فرحَان؟ ما هو؟ بخير ما هو؟ إيْش نيِّه الأحوال؟ إيش تحكي جديد؟»[1].

أسئلة بسيطة مركبة من عشرة جمل، أو عشرين، تشبع السامع وتوقفه في الطريق على سبيل الراحة ربع ساعة، يستعيد فيها قواه ويلقط نفسه ليذهب إلى عمله مزوداً بنشاط جديد، مفعمًا بروح الثقة من إخوانه وأحبابه.

وأجمل من هذا هو حين ترى خمسة وعشرين أندلسياً يمشون في الطريق صفّاً واحداً بالعرض، لا يتقدم أحدهم عن الآخر ولا يتأخر كأنهم البنيان المرصوص.

---

(1) صيغ تونسية للسلام باللهجة الدارجة.

تضيق بهم الشوارع من الجدار إلى الجـدار، ويشغلون فراغ الأرض والطوار لا تزحزحهم «برويطة» ولا تفرقهم سيارة. هكذا كـان «الفشيست» عندما زحفوا على روما، وهكذا كانت جيوش المعتصم التي فتحت عمورية. أي بالاتحاد والتماسك لا بالمشي أفراداً متفرقين.

نحن أعرف الناس بطرق المحبة، وأقدر منهم على الاتحاد.

وأما ما يقال عن أن أحدنا لا يستريح إلا إذا رأى أخاه يشوي في سفّود على الجمر، أو أن أحدنا يخرج عن ماله وثروته في سبيل الانتقام من ابن عم له، فهذا كذب وبهتان لا يقوله إلا الوقحاء.

جريدة (الزمان) 14 نوفمبر 1933

المـــدح والـــذم ســـواء

خبرت منك الأمرين يا هذا، ووزنت المعدنين فوجدت مدحك وذمك كلاهما لا يساوي الالتفات إليه. لا أريد أن تعتني بالعالم العلامة الهمام المقدام، سليل الأكابر، وزينة المحافل. لأنك تكلفني الثمن غالياً أدفعه لك من مالي وعرضي وراحتي... وأنت أنت الذي إذا نزلت بـي مصيبة فلن يكون وصفي عندك إلا المدعو أو المسمى فلان بن فلانة التي كانت تغسل الملابس لجدك، أو تسمح البلاط في دار خالتك.

قد صعد بـي الزمن وهبط، وابتسم لي الدهر وكشر عن أنيابه، وأنت في موقفك تمسك لي الدق في الأولى، والنعل في الثانية، ولا تبالي أن تتغير مع الدهر ولو ألف مرة في اليوم. خلق الله الناس ليعلموا الخير والشر، فمنهم من يقاتل ومنهم من يخاتل، ومنهم من يسرق وهو ثري، وفيهم العامل الممجد والساعي النشيط. وأنت لا من طريق الشرف أو السرقة كأنك «جابـي» الكون الأعظم، أو عزرائيل الذي خلق ليقبض. أيها النذل إن مدحك إياي في أيام عزي مذلة محسوبة عليك، منقوشة في قفاك إلى الأبد. وذمك إياي في محنتي تزين هامتي، ونور يسطع على وجهي، أعجب ما فيك صفاقتـك... وجهلك بتقلبك، وغفلتك عن عيون الناس التي تراك وتحصي ذبذبتك.

تركتني في وهدة الشقاء ملعوناً مذموماً. وذهبت إلى غيري الذين طلعت بهم الظروف إلى الأوج الأعلى لتنعم بالإقدام والهمة، والعلم والمعرفة، وتقسم لهم بالله وملائكته أنك لا تنام الليل شوقاً إليهم، ولا هنالك طعام قبل أن تراهم.

أخلاقك هذه السافلة لا تعيش طويلاً، وهي كالحشيش الطفيلي يموت وحده أو ترعاه التيوس، والسفلة يعرفون أن للسفالة حداً يجب الوقوف عنده. وأراك لا عقل لك تستمر في خطتك التي اخترتها لنفسك كالمجنون الذي يمشي ملطخ الوجه والملابس بالأقذار، ولا يدري أن الناس يشيرون إليه بالبنان: بالأحذية في الحقيقة.

تونس أيتها البائسة؟ لماذا املأت بهذه الصنف من البشر؟
أهم نتاج الإسلام؟ أم ذريات العروبة؟ أم بقايا قرطاج؟

إن في الفرد الحقير ممن يمشون على ظهرك من النفاق، والكذب، والدناءة، والسفالة مما يكفي لتلويث ثمانين مليوناً من الجرمان، ومائتي مليون من اللاتين. فمن أين كل هذه الخيرات وهذه الثروة الهائلة؟!

جريدة (الزمان) 22 أكتوبر 1935

الحـــب والـــزواج

الحب والاعمـــار:

لو تأملنا جميع حركتنا ومساعينا في جميع أدوار حياتنا لوجدناها تتجه إلى غاية واحدة تقف عندنا، وهي المرأة التي وقفت في هذا العالم موقف المركز من الدائرة. فنحن لا نعرف في طفولتنا معبوداً تتجه إليه قلوبنا غير المرأة في صورة الأم، ولا نكاد نتخلص منها حتى تبـدو لنا في صورة الزوجة، والرغبة فيها أشد وأقوى في هذه المرة، وربما يتعجلها الغلام المراهق قبل استعداده وكمال قواه التناسلية، فتتراءى أمامه بصورة مختلفة تستولي على مشاعره، وهي هي المرأة التي تجعل هذا الغلام يقلد الكبار في أحوالهم، فيمشي شامخاً متكلفاً للوقار، مدخناً سيقاراً أو حاملاً للعصا. وقد يكون في وسط لا يعصمه من الزيغ فتقوده الرغبة إلى الارتطام في العادة السيئة، منقاداً لخياله الذي يصور له حبيبة قلبه المنتظرة، بل يقول أبو العلاء:

إذا بلغ الوليد لديك عشْـراً فلا يدخل على الحرم الوليد

وإذا صرنا إلى الفتوة والشباب اقتربت صورة المرأة من الذهن، وتربعت في صميم الفؤاد، وأصبحنا ولا غاية لنا إلا الاستيلاء عليها، ولا نقتنع بالخيال ولا بطيفه، ولا بد من الوصول إليها من طريق المجد والشرف والعظمة، أو من طريق الإجرام والسقوط، ولا نعلم قوة تستحيل مقاومتها غير قوة الاشتياق الجنسي. أما الغربيون فقد جمعوا بين الفتى والفتاة بعد استكمالهما لسن الزواج، وتركوا الحب يسير في مجرى طبيعي مأمون ينتهي في الغالب بعاقبة محمودة، لكن الشرق يحلُو له أن يتغفَّل نفسه، ويتذرع بكل وسيلة دينية يضعها حائلاً في

طريق الطبيعة. وقد قام بين الفتى والفتاة سد ياجوج وماجوج، غير أنه سد مثقوب من جبهات خفية، وتستمر قوة الحب في الكهل الذي لم يبلغ غايته منه وتستعر فيه نيرانه حتى الشيخوخة والفناء. والرجل بعد الأربعين يحرص على جمع المال لا لشيخوخته وحدها بل لحبه قبل كل شيء، وكثير من الشيوخ يؤدون وظيفة الرجل وهم في التسعين من العمر.

والخلاصة أن عاطفة الحب تولد مع الإنسان وتدفن معه، وما يقال فيه عن الرجل يقال عن المرأة.

الحب الخيـــالي:

لا غنى لنا عن الخيال، فهو الذي يغير ألوان الحياة، ويجعلها لذيذة مساغة، وأبهج ما يكون الخيال إذا لابس الحب وأكسبه قوة تضاعف لذته وهناءه، غير أن فيه النافع والضار، فمثل النافع ما يسبق للذهن قبل رؤية الشخص عن أوصاف جماله أو مقدرته، أو حسن سمعته، كما هو حال الممثلة التي تسبقها الإعلانات المصورة، ومقالات الصحف ثم تظهر بين ألـوف المشاهدين من أعلى المسرح فكل إشارة منها أو نبرة من صوتها تفعل في النفوس ما تفعل، ولو التقيت بهذه الممثلة في الطريق عفواً بلا سابق علم لما كان لها عندك أي شأن. وبمثل هذا الخيال يجب أن تنسج العلاقة بين الخطيبين على شرط أن لا ينقلب إلى غش، ومن المفيد أن تصل لكل منهما أخبار حسنة عن الآخر. ورب خطيبين كان كلاهما مثلاً في قبح الصورة وقد التقيا بدون سابق معرفة. فقال الرجل ما أبشع هذه المرأة وبادلته هي نفس الشعور، ولكن رسل الخير بعد عقد الخطبة حملت إلى كل منهما ما يسر قلبه عن الآخر، ونسج الخيال عليهما كلمة من السعادة عاشا تحتها إلى الأبد. ونفس هذا الخيال هو الذي يدفع الشاب الثري لإنفاق ثروته على عجوز شمطاء منكمشة الجلد بادية العروق، لا لشيء سوى أنها فلانة الممثلة أو خليلة فلان الوحيد المعروف.

وقد يذهب الخيال الضار بصاحبه إلى حد الجنون، ويعتبر مرضاً يستحق فحص الأطباء والحبس في المستشفيات، فمن أنواع هؤلاء المرضى جماعة يكتفون

بروية ملابس المرأة في واجهات المحلات التجارية، فتهيج أعصابهم وتخفق قلوبهم خفقاناً لذيذاً، وهم ينقسمون إلى أقسام، بعضهم يعجبه النظر إلى حذائها، والآخر يستحسن القمصان، أو السراويل، وغواة هذا الصنف الأخير يتسلقون أحياناً السطوح لرؤية السراويل المنشورة وشمّها وضمها وتقبيلها. والبعض يلذ له إتباع امرأة ورجل يراهما في الطريق ليتبين ماهيتهما وإلى أين يذهبان، وكلما بدرت منها حركة ذهب في تفسيرها كل مذهب يسعها خاله. ويحسب في هذا النوع جماعة المتجسسين الذين يزحفون على أطراف أصابعهم للتسمع على جيرانهم، والنظر إليهم من خروق الباب. وغير هؤلاء يوجد جماعة «المحتكين» وهم الذين يندسون في المزدحمات النسوية أو حفلات الأعياد، أو الحدائق العمومية والملاهي التي تزدحم فيها الجماهير، ويلمسون الجزء الذي يشتهونه من جسم المرأة، وقد يقف الرجل الذي يتظاهر بالفرجة خلف السيدة وقوفاً مزرياً بالكرامة الإنسانية، ولكن الزحام يشفع والمرأة تسكت، إما خجلاً أو إيجاباً، وتكثر هذه الأنواع في أوروبا، حيث أصبح الحب العادي الطبيعي مبتذلاً، لا حرارة فيه، فهم يعوضونه بخيال يغير طعمه وقد يستولي هذا الخيال على شعور المصاب به ويشغله عن كل ما عداه من الأمور، على أن الشرق لا يخلو من هؤلاء المرضى ويزيد على أوروبا بالمرضى المصابين بالشذوذ الجنسي فهو فضلاً عمّا فيه من الأذى الجسماني المتوفر الأمراض التي ذكرناها، كخلل الأعصاب واختبال العقل وانحطاط القوى فإنه يزيد عليها آلام اجتماعية تنتهي بأسوأ نهاية للأمة جمعاء. فإذا انحرف الخيال عن جادة الصواب وجب العدول عنه إلى الحقيقة مهما كانت.

جريدة (الزمان) 12 فيفري 1933

العائلة

إلى هذه الساعة يتمتع رئيس العائلة الشرقية بامتيازات خاصة دون بقية أفراد العائلة. وأترك جانباً الذين أخذوا بنظام وثقافة العصر الحاضر فهم أقلية لا تذكر وسط الملايين. إذا دخل الرئيس المنزل خرست ألسنة الكبار والصغار وانزوى الأطفال في الأركان، ووضعت المائدة له وحده أولاً، فيلتهم صدر الدجاجة وفخذها، ويتناول أطيب الطعام من مقلوٍّ ومطبوخ، ثم يجتاح معظم الحلوى والفاكهة حتى يتخم ولا يبقى في بطنه مكان «للذرة». وبعد أن يتجشأ عدة مرات بحمد الله: معناها إرفعوا المائدة.

وترفع المائدة، وليس عليها غير خشارة، وبقايا لا تصلح إلا للقطط لتتعشى منها المرأة وأولادها، ومن يتبعهم من الأقارب والخدم.

وهذا الرئيس لا ينسى أن يفرض دائماً على عائلته القيام نحوه بواجبات الحب والاحترام والإجلال والخوف، ويحسب بهذا أنه يربيهم ويضبط نفوسهم، والحقيقة أن الأم وأولادها يأتمرون به، ويحتقرونه ويخفون عنه كل شؤونهم من لدن شبابه إلى شيخوخته، وهو لا يصدق إن قيل له إنك لا تعلم شيئاً من أمور منزلك، والعائلة تمرح في سرور وحبور وحرية كاملة ما دام الغول المخيف غائباً، فإذا دخل عرف الطفل كيف يخفي ما كان يأكله. وعرفت الطفلة كيف تحول الحديث الذي كانت تخوض فيه مع أمها إلى حديث آخر، بل يتضامنون جميعاً على الكذب والتمويه، ويتقارضون المداراة والمجاملة فيما يخفونه، فلا كلمة واحدة عن الشاب الأجنبي الذي يزور الأم أو ابنتها في الهزيع الأخير من الليل، ولا كلمة واحدة عن الخاتم الماس الذي سرقه الابن الأكبر ليلعب

القمار، ولا كلمة واحدة عن القابلة التي تتردد على المنزل لتجهض إحدى القاطنات فيه.

الرئيس له ملابسه وسراويله النظيفة، ومناديله العامرة، وفراشه الوثير، ولا يمد عينيه إلى غير ذلك. وعلى هذا النظام اندك صرح العائلة الشرقية، وتفتت شملها، وكم هربت بنت مع خادم، وكم رفع ابن قضية على والده، أو أخيه أمام المحاكم ليسترد منه حقاً أو ليسلب منه حقاً، وكم تضارب الإخوة والأقارب بالأيدي والسلاح والكلام الذي تعرفونه. كل هذه المصائب تنجم من شراسة رب العائلة وانفراده وأنانيته.

وتجد المدينة الشرقية الكبيرة على طراز هذه العائلة الصغيرة، كلها أجناس متباغضة متدابرة ومن الأمثال السائرة في الشرق:

«أنا وأخي على ابن عمي. وأنا وابن عمي على الغريب».

* * *

الأمريكي أو الأوروبي يحتضن جميع أفراد عائلته كالدجاجة الرؤوم، ولا يأوي إلى فراشه قبل أن يطمئن على صغيرها وكبيرها، وهو موضوع سر العائلة ومحط أمانيها، لا يستبد بقطعة اللحم الطري والأجاصة الكبيرة، بل يشكره خدم البيت في كل ما يأكل ويشرب: يترك أولاده يلعبون ويمرحون في حضرته لأنهم إخوانه في المستقبل.

لهذا كانت بيوتهم عامرة، وبلادهم عامرة.

جريدة (الزمان) 10 مارس 1936

. . . والأكـــل

عـزيــزي،

قد علم القراء أنني وأنت من الحشاشين المدمنين على المخدرات المباحة والممنوعة، واستبشع الأذكياء والأدباء والمثقفون أن أناقشك عـلى صفحات الجرائد في الهِروين والتكروري وأيها خيٌر من الآخر.

ولئن غاب عنهم مقصدي من نشرْ ما يعترضون عن ذكره بـألسنتهم وأقلامهم، فحسبي أن تكون أنت الوحيد الذي يفهم ما أقصده. ولنستمر في إغاظتهم، ونعرض المسائل التونسية بحذافيرها. وأسألك عن الخبز وهو في نظري «مسألة تونسية» لا تشتغل تونس الآن بما هو أهم منها. ما بال الرغيف العربي في حجم وثقل القنبلة، غلافه من حديدٍ صلب، وحشوه عجين ثقيل متماسِك يوجِع القلب. خذْ رغيفاً شرقياً أو سورياً تجده يهشّ تحت أناملك كأنه أوراق البقلاوة، تقطعه بسهولة، وتمضغه بلذة، وتتلقاه المعدة بالترحاب وتهضمه فوراً. فأيّ عقل وأي دين دفعنا إلى أكل هذا الخبز مدى عشرة قرون أو نحوها. وأسألك «ثانياً» عما نتناوله من أنواع الأغذية الأخرى.

الناس يختطفون المبذور في أسواقنا من كرنب، كالسندس الأخضر يحشونه بالأرز واللحم، ويصففونه في الأطباق تحته صلصة الطماطم المقدوحة بالسمن، ومن فاصوليا كأنها أنابيب الزبرجد يسلقونها ويضعون فوقها الخـل والزيت والثوم، أو يطبخونها مع اللحم والدجاج، ومن باذنجان لامع كأن سـواده بياض، يشرّحونه ويقلونه ثم يمزجونه باللحم «المفروم»[1]، ويسكبونه بالصلصة

(1) المرحي.

على النار، ولا يفوتهم الخص المفرع والشيكوريا الهائجة، ولا أنواع البقول والنباتات لما يعرفون من لذتها وقيمتها الغذائية.

ثم هم بعد ذلك ينوعون الصنف الواحد إلى أنواع كأن كل نوع منها شيء واحد، وتعد أطعمتهم فتجدها أكثر من عدد أيام السنة. فما بال تسعة أعشارنا يأكل ثلاثمائة مرة في العام «كسكسي»؟ ثم أسألك «ثالثاً» عما نشرب.

الجرمان يشربون البيرة الخفيفة، واللاتين شرابهم النبيذ الجيد. فلم لا يتخذ المتقون الورعون شراباً وطنياً غير القهوة والتاي؟ أينما ذهبنا وغدونا استقبلنا ذانِك الأسودان: كويِّسْ التاي والقهوة نشربها راضين أو كارهين.

هل تحصى كم فينا من المصابين بالبريستاتا، ومن من المصابين بالقبض المزمن؟ وكم من الذين أحرق الزيت المقلي قلوبهم وأكبادهم. وكم من الزمنى والمشوهين. وبعد، فأنا ـ غفر الله لي ولك ـ شديد الاهتمام بكل ما اتفق الأدباء والعلماء على تسميته بالسخف، والحمق، والهذر، والهذيان، والسفاسف. ولا أتحول على غايتي مهما جلبت لي من الحقد والكراهية. ويسرني أنك وحدك الذي تقدر فائدة الكتابة عما نأكل ونشرب، إذ الأكل والشرب هما كل شيء عندنا بعد أن خلت أذهاننا من هموم الدنيا ومشاغلها.

جريدة (الزمان) 3 مارس 1936

عصـــا المعـــلم

أول شيء يفتح عليه الطفل عينيه هو العصا التي يقبض عليها ذلك المارد المسمى بالمؤدب أو المعلم، ويعلم أنها أعدت لتعليمه، أول شكل من أشكال الحياة هو العقاب؟. حياة شؤم هي التي تبدأ بالشر، والطفل قادر على فهم أ، ت، ج بدون عصاً، ولكنه يضرب حتى ولو فهم. هكذا القضاء الذي رضي به الناس لأنفسهم إن لم يوجد الشر أوجدوه، وإن لم تكن لديهم ضرورة للألم اخترعوها، وكأن المعلم بعصاه طليعة للشر الذي سنلقاه طول الحياة، فما من درس نتعلمه بلا ضرب ولا أذىً، العصا قائمة لا ينجينا منها غير القبر.

الطبيعة الإنسانية حسنة، والحياة بسامة وليس أمامنا إلا الخير، فما لنا نضل الضلال كله؟ هكذا يقول (روسو) الذي غرس بذور الثقافة الحديثة في أوروبا، ويسبقه القرآن فيقول: «وما أصابك من حسنةٍ فمنَ اللّـه وما أصابَكَ من سيئةٍ فمنْ نفسك».

خلقنا أذكياء ونحن نتباله ونتحامق، وأمطرنا برزق غزير يشبع عشرة أضعاف سكان هذه الأرض، ولكننا نتكالب على جمعه وإخفائه حتى يصبح في حكم المعدوم، لقد بدأ الفقر منذ ظهرت في القواميس كلمة «اقتصاد»، وبدأ الجهل منذ جلس العلماء لتبويب الكتب، وتدوين الفنون، وتقرير القواعد، ولئن كان في عملهم كثير من الخير فهو ضائع لا محالة في أيدي الذين يحلون محلهم ويتولون إرشاد الناس بعدهم. ورب معلم يستحق أن يجلس مجلس التلميذ، ولم تبرح الطبيعة تلد الرؤوس المبتكرة، والنفوس المتفاوتة، وطالما جاءت بأبناء علموا آباءهم ما لم يكونوا يعلمون. فوقوف المؤدب بالعصا للنسل

الجديد، جريمة مرذولة، وفرضُنا أفكارنا على الغير مجهود ضائع لا ثمرة فيه، وخير للكتب أن تكون مدونات للمراجعة، لا أن تكون قوانين مفروضة يلزم بها الناس في كل زمن.

وقد أرانا التاريخ من كان يسمى بالمعلم الأول، ومن حقه اليوم أن يسمى بالتلميذ الأخير. إن البشرية في الحقيقة تفسد ولا تصلح إلا لتفسد أكثر. والناشىء الذي لم ير العصا أبعد نظراً وأوسع فكراً ممن ضرب بها، والعصا لا تزال قائمة في المدرسة اللاتينية، فانظر أين هم السكسون، وانظر إلى نسبة السعادة والشقاء بين الشعبين:

وفي الناس بُهْمٌ تستخار لها العصا
بنو عبد قيس والبعيث بن عامر

جريدة (الزمان) 12 فيفري 1933

صـــدق وصراحـــة

هب أن إنساناً يعيش وحده في هذا العالم تره لا يحاول إخفاء شيء من عقله وجثمانه، بل تجده يجهل ما عسى أن يكون في جسمه ونفسه من نقائص وعيوب وكان يعمل وفقاً لغرائزه ونزعاته، وطبقاً لقدرته بل كان صديقاً صريحاً في غير مصانعة ولا مخادعة.

ثم اجعل هذا الإنسان يحي حياة اجتماعية ويعايش أمثاله، ودعه يخالطهم ويتواجد معهم في صعيد واحد تره قد أخذه الخوف من حكم الناس ونقدهم فيعمد إلى التنكر والإخفاء والادعاء، تقضي عليه المصلحة والمنفعة والأغراض الذاتية بالتلون والتذبذب والرياء فيسدل بينه وبين الناس حجاباً صفيقاً من الملق والدهان والتلفيق، والبهتان، وستاراً من التمـويه والمغـالطات، والتـلاعب بالألفاظ والتعابير، والتحايل بالتخريج، والتهريج والتأويل والتهويل حرصاً على سمعته ومنفعته بحيث يختلط عليك أمره ويغم عليك مظهره ومخبره فإذا هو سر من الأسرار مستغلق، ولغز من الألغاز مستبهم.

ينحصر الصدق على قول العارفين في ظهور المرء كما هو على حقيقته وعلاته شفافاً صافياً نقياً خالصاً، وفي اقترابه ما وسعه الاقتراب من ذلك المثل الأعلى: الصراحة المطلقة.

ولقد ينجلي الصدق في الأفعال ويبين في الأقوال، ويظهر طرق المعاش ومختلف الأحوال فيعرف بالصراحة وحب الحقيقة، والسيد بما يوحيه الطبع الأصيل بلا تصنع ولا خداع في الحركات والهيئات والأوضاع.

فأما الصراحة فهي أن تقول وتعمل بحيث يظهر ما تبطن من فكر ورأي ظهوراً جلياً، وكذلك ما تستشعره من عاطفة وما تريد من حاجة حتى ينم ظاهرك عن باطنك وتشي سيرتك بسريرك وتكشف سحنتك عن دخيلتك دون لف ودوران، أو زيادة ونقصان، كأن تبرز للناس على ما أنت عليه ومثلما سوتك الطبيعة والتربية سواء في لباس الخير والفضيلة، أم في زي الشر والرذيلة، وذلك أن تأوي إلى بيت من الزجاج شفاف لا يحجب شيئاً من أمورك وأغراضك وآرائك حتى لا يتوارى في زوايا الغيب ما يمكن أن يكون بك من عيب.

وأما الصراحة في القول فليس معناها اجتناب الكذب فحسب وعدم الإساءة إلى الناس بالأقوال المزورة، وإنما يراد بها أن ينفذ المخاطب إلى قرارة نفس المتكلم وصميم فؤاده فقد وجد الكلام للإفصاح والإفهام لا للتعمية والإبهام، فينبغي أن يكون أداة أمينة للاتصال بين القائل والسامع.

وأما الصراحة في الأقوال فمن الميسور ألا تكذب ولكن العمل دواماً على صورة تكشف معها أعمالنا نفوسنا بحيث ما نعمله في الحاضر يطابق ما أتيناه في الغابر، ويهيء تصرفنا العاجل ما نفعله في الأجل حتى تصير حياتنا كتلة واحدة متماسكة متناسقة، وسلسلة متصلة الحلقات بلا تعارض ولا تناقض فيستطيع أحدنا أن يتكهن اليوم بما يفعله الآخر غداً، هذه فضيلة نادرة لا يزدان بها إلا عدد قليل من الخواص ولتحقيق هذه الوحدة المتناسقة في الحياة لا بد من صراحة مطلقة نحو نفسك ونحو غيرك.

من العبث أن نطمح في مثل هذا الكمال والسمو في السلوك ولكن في مقدورنا أن نسعى في الاقتراب من هذه الغاية السامية. إننا لنضحك من رجل أو امرأة يستعينان بالأصباغ والعقاقير في إخفاء معالم الدمامة والشيخوخة ابتغاء التجميل والتصابي مع أن إخفاء حقيقة النفس أجلب للخزي والعار من ذلك الجمال المستعار، وفضلاً عن ذلك فإن أمر الجمال الحسي ليس في يد أحد وإنما هو هبة طبيعية وللمرء عذره في الاستعانة بالحسن المجلوب وأما الجمال الروحي

من صدق ووفاء وأمانة وسخاء فهو في متناول كل إنسان حسبه ليتحلى به شيء من إرادة قوية وعزم ثابت.

علينا أن نقول ما نعتقده وما يطوف برؤوسنا حقاً، ولكن هل لنا أن نغلو في الصراحة فنقول ما تتصور في كل ظرف ومناسبة؟ يقول أهل العلم: الإنسان مدني وجد ليعيش في مجتمع من الناس، وأن الحياة الاجتماعية لا تقوم لها قائمة ولا تصلح ولا تستقيم ما لم ينزل كل إنسان عن شطر من أنانيته وإرادته وحريته واستقلاله في سبيل هناءة الجماعة، وما لم تسد بين الأفراد روح المسالمة والتسامح والتساهل فلا ينبغي إذن أن يكسبنا حب الصراحة في القول قواعد البر والإحسان والمروءة فإن هناك أقوالاً مع صحتها مرة مؤلمة لا يجوز الجهر بها، ولا فائدة من ذكرها فكل تعريض بالعيوب الجثمانية، وكل تلميح يضعف في القوى العقلية، نلحظه في غيرنا، وكل إشارة إلى اعوجاج في بعض نواحي تربية النفس هي في عرف الشريعة الأدبية واللياقة عبث وخبث وسوء نية بل صراحة مرذولة ممقوتة، فعلينا أن نقدر أمثالنا تقديراً لا ينال من كرامتهم، وأن نحكم عليهم في شيء من التواضع والبصر والحذر دون أن نشعرهم بأننا نفوقهم حسباً ونسباً ونشباً وأدباً، ونبزهم سلطاناً وعرفاناً وذكاء.

وكذلك ليس من معاني الصراحة أن نذهب فيها مذهب الحمق والسذاجة فنعلن سفاسف الأمور مما لا يعني الناس قليلاً أو كثيراً، كما كان يفعل الإنسان البدائي في بداوته وغفلته وغرته وخشونته، وكذلك ليس من مرامي الصراحة التباهي في وقاحة مزرية بإتيان الموبقات والتفاخر باقتراف السيئات والمنكرات كما هو شأن بعض الجهال للظهور بمظهر الأبطال في ميدان الفساد والضلال.

وفي الجملة إذا كان الصدق والصراحة والعدل في شؤون السياسة من دواعي الفشل والخذلان، فهي في العلائق الاجتماعية والمعاملات من أسباب الثقة والاطمئنان.

جريدة (الزمان) 21 جانفي 1936

استمع لمـــا يقـــال

«إذا أردت أن تعرف حقيقة أمة فادخل مقهاها، لأن في المقهى يجلس الفقير والغني الذي افتقر، والفقير الذي سيصير غنياً».

(جمال الدين الأفغاني)

وفي عصر جمال الدين رحمه الله، لم يكن من الميسور معرفة الشعب إلا من المقاهي التي يأوي إليها الناس بعد فراغهم من العمل. أما الآن فمجرد المشي في الشوارع يعرفك حالة الشعب، لأن معظم الناس لا يملك الجلوس في المقهى، وكلهم مشّاء يقطع السأم والضجر، على قدميه. وسياح الافرنج، ومكاتبو صحفهم يكتفون للحكم على الشعب بنظرة عابرة ومن الشارع يمكنهم معرفة الكثير من الحقائق.

في القسم الأوروبـي ترى إما زوجين وضع الفتى ساعده على خصر الفتاة.. يتبختران الهوينا تحت الأشجار، كأنهما في جنة عدن، وإما ثلة من إخواننا الإسرائيليين أخذوا مكانهم في أفخم المقاهي، يناقشون أي الصفقات التجارية أربح، وأي الشطوط أجمل، وإما مقبع يسير نظيف الملبس، مسدد الخطى، يتأبط حقيبة وظيفته أو تجارته، وإما أطفال يركضون فرحين بالخروج من المدارس والأوبة إلى المنازل. دع الغانيات من الجنس اللطيف اللاتي يشعرنك بزينتهن وانسجامهن أنك تمشي في مدينة أوروبية.

وأنت لا تكاد تضع قدمك في أي ناحية من نواحي القسم العربـي من مدينتنا حتى تسمع رجلاً يقول بصوت يسمعه كل من في الشارع:

ــ أيجا يا حلوف ايجا يا كلب.

الرجل ينادي ابن عم له مازحاً، وعلى المارة جميعاً أن يعرفوا من فيهم الكلب الحلوف[1] المقصود بالنداء. ويسير خلفك إثنان بلا قصد فتسمع الأول يقول:

ــ إنه رجل مفلس.. بيعت أملاكه جميعاً.. وسيباع الباقي غداً بإذن الله لكي تقر عيني وينثلج صدري. فيجيبه الآخر:

ــ أما أنا فقد «نحيت له والْدِين أمه» وسيرى ما هو آت. وتسير أنت خلف اثنين آخرين فتقطف من غرر أقوالهما ما يأتي: «وين يا كلب.. خراوا.. نبصق.. نضرب..».

وليس من شارع أوبطحاء أوزنقة إلا وفيها أناس من جميع الأعمار يرتجلون الألفاظ البذيئة بمقدرة فائقة، وبأصوات نحاسية رنانة تخرق سمع البكر في صدرها، ويحفظها النشء عن ظهر قلب كأنها أناشيد قومية.

فهل نسميها تونس الشاتمة؟ والمأزومة الغاضبة، أم تونس الفصيحة؟. مشيخة المدينة تستطيع وضع حد لبذاءتها القومية. فمن اختصاصها المحافظة على الآداب، وهي التي تنشط من حين لآخر للتفرقة بين الموسات والأرتيستات ونحو ذلك. وفي مقدورها معاقبة الأراذل ــ لا نقول بالجلد ــ ولكن بالتغريم والسجن إن لم تدفع الغرامة والتشهير بالمقبوض عليهم لبذاءتهم العلنية.

مثل هذه الإجراءات تتخذها كل سلطة تشبه مشيخة مدينتنا في البلدان الأخرى. إذا وقعت العقوبة على رذل واحد واثنين كف الناس عن البذاءة، ورطبوا ألسنتهم بذكر الله.

جريدة (الزمان) 5 نوفمبر 1935

(1) الخنزير.

السلاح الذي يقتل صاحبه

أحسبني أكتب رواية هذا عنوانها، وهي في الواقع كذلك، وإن خلت من أسماء الأشخاص ومن الحوادث والفصول.

أستعرض في روايتي هذه أشخاصاً لا يحصى عددهم، يدبرون معركة هائلة فيما بينهم، حقيرة في الحقيقة. أسلحتهم المكر والغش والخبث والخداع وما لا يقع في حصر هذا الطراز من الأسلحة. وأحسب أن تونس من أكبر المسارح التي تدور فوقها هذه المعارك، ولكل جندي فيها ذخيرة كبرى من تلك الأسلحة، ولا أقف هنا موقف الواعظ المنصف، وأقول أن التونسيين قصروا استعمال هذه الأسلحة على قتل بعضهم بعضاً، ولكني في مقام فحص هذه الأسلحة، هل هي تنفع صاحبها أم تقتله.

يحسب الماكر نفسه ذكياً بارعاً يلعب بالرجال، ويدبر الأمور كما يشتهي، ولكنه لا يدري أن على وجهه لعنة مرتسمة بحروف كبيرة، يقرؤها الناس وهو لا يشعر وتحيطه الظنون بالشبهات قبل أن يفعل شيئاً، ثم تنطمس بصيرته وهو يرى كل شيء مقلوباً وليس بمقلوب، وأول خطوة يخطوها في جهاده لا تكون إلا إلى الخلف، وأول قطرة دماء لا تنزل إلا من مهجته، وقد ينجح الماكر يوماً، ولكنه نجاح المقامر المنتظر للغارة في غده، ولن تفيده الحيطة والاحتراس لأن أمامه موتورين لا يتركان ثأراتهم.

ويلوح المكر من أسلحة الضعيف اليائس من الانتصار بالسلاح العلني، ولهذا يتسلح به الفقراء أو المتوقعون للفقر، والجدير بهذا الضعيف أن يكون سلاحه الحق الصريح.

وإذا كان للقوي قوة ومال يستر بها مكره و. . . من شكل إلى شكل ويمد أجله من يوم إلى يوم فالماكر الضعيف يزيد ضعفه بمكره لأنه أهون على الناس من أن يحتملوا منه كذبة واحدة أو يغفروا له زلة واحدة. وإذ قام المكر في رأس رجل مثل روكفلر، وادعى أنه في أزمة لا يجد فيها قوته، فقد يجد من يصدقه ويقدم له كل مساعدة، ولكن دعوى الفقر إذا ظهرت من رجل معروف بأنه يعيش في ستر من الكفاف، فلا تقابل بغير الارتياب ولا يفسرها الناس إلا بأن الرجل يكتم ثروته خوفاً عليها ويطلب المزيد فوقها.

وبعد فهل البشرية في حاجة إلى المكر؟

ظاهر الأمر أنها تحتاج إليه وتتنافس عنه، أما حقيقة الأمر فإنها في غنى عنه. انظر إلى تقدم الشعوب من أين جاء؟ إنه جاء من الحق حيث حافظ التاجر على الأمانة، واحتفظ مدير البنك بأموال الناس، وأخلص الأستاذ في تعليم تلاميذته، وجاء من حيث بنى الناس منطقهم على الحق الذي لا يتزعزع بسفسطة ولا مداورة، وانظر إلى الخراب من أين جاء؟ جاء من الماكرين وأعني بهم رجال السياسة أصحاب الدهاء العظيم، والنظر البعيد، والتدبير الملتوي على الافهام، ونعرف أن البنك أو المعهد يستطيع أن يعيش عشرة قرون، ولكن الوزارة قد لا تعيش أسبوعين مع أن السياسيين كما هو معروف من أذكى الناس عقولاً.

وقد يفلح مكر الجماعة والأمة إذا كان منظمًا تحميه القوة والقوانين، ولكن المكر الفردي يطوي صاحبه في قبره حياً. قل لي ما هو مبلغ ظنك في محام كلفته بالنظر في قضيتك، ودفعت له مقدم تعبه فوضعه في جيبه، ووجدت نفسك أمامه محتاجاً لمحام آخر ينتصف لك منه؟، وقل لي ما مبلغ حقدك عندما تنزل بك مصيبة ويتضح لك أنها بسبب وشاية فلان وسعايته بك، وما هو مبلغ حقدك على هذا الفلان.

الذكاء الحقيقي إذا نشدته وجدت مصدره التقوى وصلاح النفس وحسن الخلق والرجل النقي ينكشف أمامه العالم كما هو، ينظر فيه كما ينظر في الغدير الصافي، وهذا معنى القول برفع الحجاب عن أولياء الله الصالحين.

والحق في ذاته لا يحتاج إلى واعظ يرشد الناس إليه أو إلى قوانين تؤيده، بل هو طبيعي قار في الجسم والدم والمخ والشرايين، ومن حاول العبث به نمَّت عليه هذه الجوارح كلها. اثنان يمد كل منهما يده لأخذ شيء، ولكن الأول يملك الشيء، والثاني يريد سرقته فترى اليد الأولى منسجمة الحركة مطمئنة والثانية مضطربة مرتعشة.

وسل الجواسيس الذين وقفوا على الأبواب ينصتون يخبروك أن أنفاسهم كانت تحتبس في صدورهم، ويأخذهم السعال وليس بهم من زكام أو بلغم. ولكن الحق يخرج أصواتهم رغمًا عنهم ليعلم الغافلون بوجودهم. صدق الله العظيم:

«إن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون».

جريدة (الزمان) 26 ديسمبر 1933

مـــن المنظـــار

اقفل:

أحدنا يجلس في قهوة على قارعة الطريق، ولا يشعر بوجود من حوله: يريد أن يبصق أو يمخط أو يتنخم فينذر الآذان بصوت بلغمي، يردده بين البلعوم والخيشوم ثم يرسلها في الفضاء كتلة هامية مصوبغة بلون القهوة أو النشوق. وإذا كان من حملة المناديل المهذبين أخرج منديلاً أعبر اللون، ونشره كالعلم الشريفي مرصعاً بالمواد اللزجة اللامعة، وبعد أن يبصق فيه يعرضه برهة على كفيه ويتأمله كأنه يطالع (دلائل الخيرات) قل له اقفل منديلك.

تصادم الآراء في الوقاية الصحية:

ينام في شوارع تونس مئات من الناس، تسمع لهم طول الليل والنهار سعالاً حافاً مخيفاً، وأمام كل منهم أدوات الطبخ، وكمية كبيرة من الخروق التي يرتديها، وكومة لا بأس بها من الزبالة، ومجرد المرود من بينهم يكفي بالاتصال بأمراضهم، وأي عقل بسيط يفكر في حالة هؤلاء التعساء يدرك أنه لا بد لهم من:

1 ــ كناسين يزيلون أوساخهم.
2 ــ بوليس يمنعهم من النوم في الطريق.
3 ــ مستشفيات تأويهم.

ولكن رأي إدارة الصحة يخالف هذا، فوسيلتها في مقاومة الأمراض اقتصرت على تعليق أوراق من الكارتون كتب فيها بالخط الأندلسي عبارات غاية

في البلاغة: «النظافة من الإيمان والوسخ من الشيطان» و«الجاهل من يجلب المرض لنفسه».

وهناك رأي طريف في الوقاية الصحية يراه أحد العطارين الذين يضعون اللبن في ماجور، ويغترفون منه بكوب واحد يشرب منه جميع الناس. طلب أحد الزبائن من هذا العطار غسل الكوب قبل أن يشرب فيه نظراً لانتشار الحمى في هذه الأيام فقال له: «اللي يخاف من المرض يجيه».

ولا بأس أن تطبع إدارة الصحة هذه الحكمة في «كرتون»[1] كالحكم الأخرى.

نبيذ الحانات:

أصبحت تونس في جملة البلدان المنتجة للنبيذ، نظراً لكثرة الأعناب وجودتها ورخص تكاليفها، إلا أن بعض الحانات تدفعها السماجة والإجرام لغش هذا النبيذ الرخيص استزادة في الربح، وقد اخترعوا نوعاً من النبيذ الأبيض وهو عبارة عن «سبيرتو»[2] مصبوغ بحمرة خفيفة يكفي كأسان منه للذهاب بعقل الشارب.

ومع أن في هذا البلد قوانين إسلامية وغير إسلامية تحرم بيع الخمر للمسلمين فأصحاب الحانات لا يبيعون نبيذهم هذا لغير المسلمين.

جريدة (الزمان) 7 مارس 1933

---

(1) ملصق من الورق المقوّى.

(2) كحول.

سلطـــة المـــوظف

نحن في الشرق وقد خسف بنا والحمد لله . . . لم نقتبس أي فضيلة من أولئك المتمدنـين الذين يعـاشروننـا غير ملبسهم الرشيق وتقليـد حفـلاتهم ومراسمهم. أما طباعنا الخاصة وأخلاقنا المنحلة فلم نتنازل عن مثقال ذرة منها، ويلذ لنا أن نسميها «الذاتية القومية» والميراث الذي تركه لنا أجدادنا الفخام.

لقد كان أجدادنا الأقربون رحمهم الله ــ إذا شاء ــ إن احتلوا الوظائف الكبرى حسبوا أنفسهم مسلطين على الأرض بمن فيها من بشر، وبقر، وحجر، وشجر. وحسبوا أن الوظائف خلقت لتضخيم أشخاصهم، وتعمير بيوتهم، ومجاملة أصدقائهم، وتأديب أعدائهم، فليس للمعلم أن يؤدب ابن الوزير، وليس لكائن من كان أن ينتقد أصدقاء أو صديقات العامل، أو يتحرش بأقارب القاضي وليس إلا عزرائيل يصدهم عن فعل ما يريدون.

الخلَف ولله الحمد صورة كاملة من السلف والبلاء كما هو باق على حاله . . .،

الموظفون عندنا يتبرعون بنفوذهم لمن يشاء . . . وفي أي نازلة . . .

فالمومس التي يصادقها موظف يجب أن لا يرفع أي مخلوق عينيه إلى شخصها الكريم . . .

وأبناء عم الموظف يُساق أعداؤهم إلى السجون . . .

والجريمة التي يرتكبها أحد أبناء الموظف تطوى وتقبر.

والصحيفة التي تمازح الموظف تعطل . . .

قل والحجام الذي يجرح خد الموظف، والجزار الذي يغش الموظف،

والقهوجي الذي لا يُكيِّف الموظف تُعقل محلاتهم وتسحب منهم رخص البيع والشراء.

هذا موظفنا وهو مقيد بألف قيد.

عما قريب ستحل عنه القيود ويفسح له في مجال الترقي ومجال السلطة.

وسيعظم به شأن الذاتية القومية وينفذ سلطته مبتدئاً أمراً، بعد أن كان ينفذها وهو تابع مأمور.

يحسن بنا أن نستعرض في مخيلتنا من الآن ما ستحدثه هذه النعمة الجديدة التي أصابت الموظفين.

سيكثر عدد الوسطاء والسماسرة الذين يفتحون الأبواب ويقضون الحاجات، وسترتفع أنوفهم وتعلو أصواتهم...

سيرتعش الناس خوفاً وهلعاً من شقيق الموظف، وخال الموظف، وخالة الموظف، وخادم الموظف...

فهل ندعو الله أن يمكن لموظفينا أبناء جنسيتنا من السلطة ويزيد في درجاتهم ومرتباتهم.

أم نضرع إليه تعالى أن ينقص عددهم، ويرفعهم إلى الأسفل ويقدمهم إلى الوراء؟

جريدة (السردوك) 14 أفريل 1937

حـلاّق النـسوان

انفتحت هوة جديدة تحت قدمي الطفلة التونسية المسلمة ولا نعني الطفلة الفقيرة التي «تسيّق»[1] البلاط في منازل الأوروبيين، بل نعني الطفلة الراقية النازلة من أصلاب الأعيان والذوات والتي تذهب إلى الليسي، ومدارس الأخوات تتحصل على شهادة الباكلوريا. .

بنات الذوات في هذا العصر يحتجن إلى الحجامة[2] كحاجة العطشان إلى الماء الزلال، ويشجعهن آباؤهن وأمهاتهن على المواظبة عليها لتظهر البنت بالشكل الذي يليق بمقام العائلة. . ولكي لا يقل هندامها عن هندام بنات أكبر الذوات الأوروبيين إذا اجتمعت بهن في سينما أو صالون أو مدرسة.

ولكن الحجام الذي يصلح للبنات ـ ولا سيما الذوات ـ لايوجد بين حجامي (الحلفاوين) أو (المركاض).

فلا بد إذن من الذهاب إلى الحجامين المختصين الذين يرجّلون الشعور مستخدمين الطرق الحديثة التي يخترعها «انطوان» الحجام الباريسي المشهور.

وقد أصبح لكل حجام من هؤلاء طائفة من البنات والسيدات يدخلن محله جهرة بعضهم سافرات كالأوروبيات، وبعضهم متزرات بذلك السفساري الحريري الشفاف الهفاف.

وليس حجام السيدات من ذلك النوع الذي يحجم لنا معشر الرجال

(1) تمسح البلاط.
(2) الحلاقة.

ويضرب بفرشاة وجوهنا كـ«البوكسير»[3] ويحيطنا بالسعال والبصق والمزح الخشن، بل هو شاب لا يقل في جماله عن ممثلي السينما. يختاره صاحب المحل من بين ألوف من الرجال، ويقدمه للسيدة نظيفاً منتوفاً في (بلوزة)[4] نقية بيضاء (تشهّي) فيمسد وجه الطفلة بأنامله الناعمة تمسيداً ينتقل بها إلى جنة عدن. وترى هي يده في المرآة وهو يلوي خصلات شعرها الواحدة بعد الأخرى فتشعر بمقدار النعيم الذي تسديه إليها هذه اليد البيضاء وتحس فخذه يضغط فخذها فيرتخي بدنها، ويميل عنقها استسلاماً للرجولة التي خلقت لها هي وغيرها من بنات آدم وحواء.

الخطر عظيم أيها الآباء وأسبابه متوفرة نسوق إليكم منها سببين:

أولاً، إن بنتكم محرومة دون نساء العالم من الرجل. وتعلم أنه لا مطمع لها في الحصول عليه عاجلاً أو آجلاً لأن معظم شبابنا عاجزون عن التقدم للزواج لفقرهم وعطلهم، والذي يتقدم منهم للزواج يجد أمامه قائمة طويلة من المهور والهدايا المحتومة.

والسبب الثاني الذي تنم به الكارثة هو وجود الرجل المطلوب في حانوت مسدولة عليه الستور أو في صالون مقفل لا يدخله رقيب ولا حسيب.

نسوق إليكم وقائع لا ينقصها غير أسمائكم وأسماء بناتكم.

في إحدى الشوارع الكبيرة التي يمر منها ترام (القصبة ـ باب فرنسا) ـ حانوت حجام أوروبي يبلغ من العمر الثامنة عشر. على جانبيه وأمامه مقاهي عربية وحوانيت عطارين.. وحجامين أيضاً. تدخل لهذا الحجام فتاة مسلمة في الخامسة عشر من عمرها تارة مصحوبة بخادم، وتارة وحدها، وقد علم الجيران والجالسون على القهوات أن زيارتها للحجام زادت على ما يلزم للحجامة. فاهتموا بمراقبتها فوجدوها في عدة أمكنة متفرقة في المدينة. وليست هذه الفتاة هي التي تتردد وحدها على الحجام الجميل، بل جلبت إليه عدداً وافراً من

(3) الملاكم.

(4) الرداء الذي يرتديه الحلاق أو غيره.

صديقاتها بنات الطبقة الراقية منهن فتاتان تبلغ الأولى الثانية عشر من عمرها والثانية تزيد عليها بعام واحد، لهما والد مشهور في عالم السياسة والوجاهة والثروة. كانت هاتان الفتاتان ترجّلان شعورهما بأمر الوالد والوالدة عند امرأة أوروبية تحجم للسيدات فلما قصت عليهما الفتاة الأولى ذلك النعيم الذي تلقاه عند حجامها تركن المرأة وذهبن إليه مع من ذهب. وأصبح صاحبنا يختار ويترك، ويأكل ويرمي لأحبابه. هذا والجمهور في الشارع يرى ويتألم وتتأزم أعصابه.

هذه حوادث تجري عند حجام واحد، ولنا أن نتصور ما يجري في حوانيت والصالونات الأخرى. إنها شبكة مترامية كبرى امتدت في مختلف الديار التونسية يقبض على أطرافها بنات العائلات والحجامون.

لا نريد من هؤلاء الآباء أن يحافظوا على أعراض بناتهم لأنهم عاجزون عن المحافظة على أعراضهم الشخصية. ولكن حسبهم أن يستقدموا الحجامين إلى ديارهم إذا كان لا بد من ترجيل الشعور. ولا يدعوا زبيدة، وعائشة، وزهرة، وفاطمة يرتمين بين أحضان الحجامين بأجسام عارية لا يسترها غير قميص النوم و «السفساري»[4] من فوقه. فإذا جرى هذا أمام جمهور المسلمين فقد يحدث ما يهدد خطر الأمن العام وفي هذا كفاية.

لقد صدق المثل الفرنسي الذي يقول:

«لا توجد امرأة فاجرة ولكن يوجد رجلٌ قواد».

جريدة (الشباب) 25 ديسمبر 1933

(5) الرداء الذي تحتجب به المرأة التونسية، ويكون عادة من الحرير.

السيـــجـــارة

هل تعلم أن سيجارتك وأنت تحرقها بين أصابعك، وتشتفها بشفتيك تدل دلالة واضحة على ما في نواياك، وما يجول في دخيلة نفسك من أفكار وخواطر. كان علماءالفراسة يعتمدون في معرفة داخل النفس على العينين وما يبدو فيهما من الحركة. ويظهر في أمريكا عالم آخر يقرر أن الشفتين مركز صالح لمعرفة أحوالنا النفسية، ومنهما تستطيع الوقوف على ما في نفس الشخص من فرح وحزن وحقد وسرور وما إلى ذلك من الخواطر.

ونضيف إلى هذا أن جوارح الجسم الأخرى لها نصيب كبير من الدلالة على حالة كل شخص، والأصابع أهم هذه الجوارح، فهي في حركة مستمرة مع حركة الذهن والقلب، عندما يغم عليك معرفة شخص يكلمك فانظر إلى أصابع يده، فلا يلبث أن يقبضها أو يشنجها إن كان مريباً. والأصابع أكثر ما تتحرك إذا كانت قابضة على شيء تلهو به كمسبحة أو قلم أو عصا، وعليك أن تراقب أيدي الناس، وكيف تعبث بما يحملونه، ينفتح لك ما كان مغلقاً أمامك من أمورهم. ومن المؤكد أن السيجارة خير ألعوبة تلهو بها الأصابع، وتباشر حركتها الصادرة عن النفس باطمئنان واستسلام. ومن كيفية وضعها بين الأصابع يمكنك إدراك حالة المدخن النفسية، فالسيجارة عادة يحملها المدخن بين الاصبعين، السبابة والوسطى، ولكل إصبع ثلاثة عقل، فإن كانت السيجارة بين العقلتين المتوسطتين كان المدخن في حالة عادية لا تلفت النظر.

والمدخن الذي يحتفظ بسيجارته بين العقلتين الأوليين مما يلي الكف هو رجل قوي الثقة بنفسه، أو مطمئن على مستقبله في حياته، أو هو متحفز

للقيام بعمل جدي ويكون في الأكثر بخيلاً أو مؤذياً قليل الخير. والذي يضع سيجارته بين العقلتين الأخريين أي بين أطراف أصابعه هو رجل محترس، شديد الحذر والخجل، يخشى أن تذاع عنه كلمة ناقد، أو يعرف فيه مغمزاً لغامز. وأكثر من يضعون سيجارتهم في هذا الموضع هم ضعاف الأبدان والمرهقون. هذا بعض ما يمكن استنتاجه من مراقبة وضع السيجارة في المراكز الثلاثة المذكورة آنفاً، وعدا ذلك فإن لها حركة أخرى يمكن أن يوضع لها ألف باء تعبر عنها وأجرومية واسعة تفسرها. ومما يمكن ملاحظته بسهولة من هذه الحركات العبث في مؤخرة السيجارة بالإبهام، ويجعل طرفها المشتعل يذهب يميناً وشمالاً، أو فوق أو تحت، وهذا يدل على اشتداد غيظه، وتوثبه للقيام من مجلسه، أو الإتيان بعمل.

والمجالس النسائية، أو مجالس الأصدقاء الحديثي العهد بالصداقة، وهي خير الظروف التي تعين على فهم لغة السيجارة، وما تشير إليه من حركاتها المختلفة. هذه ناحية خفية لا يلاحظها كل إنسان. فجرّب امتحان نفسك في اكتشاف غوامضها تحصل على تجارب لا يستهان بها.

جريدة (الزمان) 21 مارس 1933

الــربــا

بينما الفلاح يكدح بمحراثه، والنجار بقادومه، والصياد بشباكه، يقف خلف هؤلاء رجل نذل ماكر يريد أن يلتهم أرزاق الجميع، ويحول جهادهم دَماً يشربه مساغاً، ذلك لأنه يملك حفنة من النقود يقرضهم منها وقت الضرورة. هذا الرجل لا يريد أن يشارك المجتمع في جهاده، فيهرب من حمل الآلات الشاقة ويثري بالمال وهو مضطجع على فراشه.

وأشنع أنواع الربا هو ذلك الذي تعترف به المحاكم وتؤيده لأنه مستتر تحت اسم دين مشروع مثبت بسندات وكمبيالات. ولا يعلم القاضي ـ أو هو يعلم ـ أن الدين كان عشْراً فصيّره المرابي ألفاً في مدة قصيرة، بما يأتيه من ضروب الحيل واستغلال فاقة المدين. وكم يباع القصرُ الفخم والمزرعة المترامية الأطراف بثمن بخس، وفاءً لدين لم يزد في أصله على مئات الفرنكات، بل نعرف أن رجلاً احتاج إلى كيس من الدقيق لعائلته، فلم يهتد إلى غير تاجرٍ يتجر في الدقيق، ويقرض النقود في آن واحد فباعه الكيس بالنسيئة، وكتب عليه صكّاً بثمنه مضافاً إليه ثلاثين في المائة يدفعها في كل شهر، واشترط أن يتجدد الصك في كل شهر، ودفع الجوع المشتري إلى الرضوخ لشروط التاجر الشريف، وانتهى الأمر إلى صيرورة الدين الذي هو ثمن كيس الدقيق إلى بضعة ألوف من الفرنكات مكتوبة بصكوك لا سبيل للطعن فيها، وفي سبيل وفائها سيباع العقار الذي يأوي الرجل وعائلته، ويستلم المرابي مفتاحه من يد المحكمة لأن هذه العائلة المجرمة اشترت منه كيساً من الدقيق.

وكل صفقات الربا التي تجري في هذه البلاد لا تختلف عن صفقة كيس الدقيق، فما إن يضع المرابي درهمه في كف المدين حتى يعلق به إلى الأبد وينتزع بهذا الدرهم أحشاء الرجل من صدره.

الربا رذيلة اجتماعية محاها الإسلام، وأضافها إلى القتل، والسرقة والخمر، والميسر، ولحم الخنزير، وقوانين هذا العصر تعاقب الغلاة من المرابين، وتودعهم السجون ولكن المرابي قلما يجعل من نفسه حججاً للقانون الذي لا يمتد إدراكه إلى أبعد من جدران المحاكم. فينفرد الوحش بفريسته ويغلها بكل قيد ثم يقدمها إلى المحكمة لتذبحها له بسكينها، ويسير هو بعد ذلك ضاحكاً متجشئاً من التخمة والشبع. وظاهر المسألة أنها دين اقتضاه القانون من مماطل نصاب، وباطنها الحقيقي أنها بيوت خربت، ونساء وأطفال تشتت جمعها، وحفائظ تبقى في الصدور إلى الأبد.

إن ما يؤسف له أنه ليس على المرابين مراقبة تحدد تصرفهم، ولا يزال إلى الآن ينظر إليهم كأنهم من أشراف الماليين الذين يسيرون حركة العالم. مع أن الواقع يشهد بأنهم أمر خطر على الأمن ذاته، خطر على المدنية والإنسانية.

ولن يرضى هؤلاء الذين أصبحوا يلتحفون السماء عن مصيرهم دون أن يفكروا في العدالة وماهيتها الحقيقة.

ولكن اللوم يقع على السادة المقترضين وحدهم فليسوا جميعاً مدفوعين للاقتراض بعامل الفاقة، بل قد تقترض العائلة لتزوج ابنها الميمون الطلعة، المحروس العمر. . . ويقترض الفتى العصري لتكون له سيارة يكمد بها أعداءه من بني دينه وجنسه أو يقترض الشاب الراقي ليشتري عشرين زجاجة شمبانيا ليفتحها في الاحتفال بإحدى الرقصات. والآن قلما توجد عائلة لا تدفع من ميزانيتها مبلغاً كبيراً في كل شهر لأحد المرابين الجالسين في قهوات باب البحر.

ولم لا تحتكر الحكومة الربا وحدها ما دام المرابون لصوصاً؟

هذا شعب فقير مجرد من كل مورد، لا يستغني فرد منه عن الاقتراض في كل وقت، فلو كانت لديه مصارف صغيرة على مثال المصارف التي تقيمها بلديات فرنسا وتفرض على الرهن مبالغ صغيرة بفوائد صغيرة لانتهت المشكلة، وابتعد الذئب عن الخروف.

جريدة (الزمان) 28 أوت 1934

البصاق

الموضوع لذيذ في السمع، جميل في العين، خفيف في النفس. لا تغضب حفظك الله أو تسخر فبالصاق ظاهرة طبيعية، وإفراز جسماني، يجب أن تنظر إليه كنظرك للدموع والعرق والإفرازات الأخرى. بعض الأمم التي تدعي الرقي كالانجليز تعتبر البصاق العلني جريمة يعاقب عليها بالحبس. وتنتحل لذلك أعذاراً واهية: تقول إن البصاق يتحول إلى غبار، ويستنشقه جميع الناس ثانية، بما فيه من مكروبات التدرن والسل فينتقل الداء من المبتلى إلى المعافى بلا ذنب جناه. ويقولون: إن عملية البصق وجرّ القطعة المخاطية من أقصى الحلقوم، وسحبها إلى سقف الحلق ليتذوقها الإنسان، ويكرها ويجمع ما حولها من القطع المتجمدة. يقولون هذه الطريقة تعاب في المجالس وفي الطرقات ويقولون: وما أكثر ما يقولون: إن منظر البلغم وهو يتدلى من بين الشفتين كشهد النحل المنعقد ليهبط وا أسفاه على الأرض هذا أيضاً منظره كريه.

بهذه الأعذار المخترعة يريدون ــ حفظكم الله ــ تقييد الحرية الشخصية، وكتم أنفاس الناس، وما ذنبنا إذا انتقلت العدوى إلى المعافين؟. وما الذي يضطرهم لمساكنتنا في مدينة واحدة؟. ولماذا نضطر إلى مراعاة الأمزجة اللمفاوية أو العصبية التي تثار برؤية البصاق، وتلعب الصفراء في أمعاء أصحابها بمجرد سمعهم لصوت البلغم وهو يختلط ويختبط في الحلق؟. لا شأن لنا بكل هذا. فإذا ما بصقنا فغايتنا بريئة ولا نريد إلا التخلص من الآلام، فنحن قوم مأزومون والأزمات على الأخص النفسية منها تظهر في شكل سعال. ونحن بعد ذلك قوم أكثر من غيرنا تعرضاً للبرد. لسوء المسكن والملبس والمعيشة. وأخيراً نحن قوم

ندخن «الشانقر» الذي نسميه التكروري. بعد كل هذا تكتب مصلحة الصحة بطاقات مزخرفة بالنقش لأن تنصحنا فيها بعدم البصق.

ابصق يا هذا ولا تبال.
ابصق وأنت في نافذتك.
ولا تنظر إلى الشارع.

ابصق وأنت في حانوتك وارسلها إلى الخارج كالسهم الطائر ولا تبال بالمارة. ابصق وأنت في الهواء الطلق. ولا بأس إذا تطاير رذاذها على وجوه الناس فالبصاق طاهر شرعاً.

وابصق في المحفل العظيم بصقة صارخة لتشعر الناس بوجودك، وتترك على الأرض الأثر الذي يقول فيه الشاعر:

تـلـك آثـارنــا تـدل علينــا فانظروا ....

ابصق حيث تشاء
ابصق في وجهي».

جريدة (الزمان) 1 ماي 1934

الأمراض (ماهيتها ــ أسبابها ــ علاجها)

الزكـــام:

ماهيته: هو هدنة يستريح فيها الإنسان من شم الروائح الكريهة في الحارات.

أسبابه: يحدث الزكام للذين يمخطون في الطرقات، أو ينظفون أنوفهم بأصابعهم في القهاوي والأندية العمومية.

علاجه: السجن من أسبوع إلى شهر.

الفتـــق:

ماهيته: هو موهبة الاهية تزيد في وزن الجسم من كيلو إلى خمسة، والمفتوق إذا زاد وزن فتاقه على خمسة كيلوغرامات يعد بطلاً عالمياً في رفع الأثقال.

أسبابه: يحدث الفتق لا محالة من سماع المنولوجات المصرية بأصوات المغنيات التونسيات، ومن الإكثار من قراءة (اللطائف) المصورة ونحوها. وأكبر مسبباته الصياح والصراخ عند لعب الدومينو والورق، لا سيما إذا كان اللاعب في حالة جوع وضعف، والفتق أحياناً يكون داخلياً لا يرى بالعين، وقد حدثت حالات عديدة من هذا النوع وبتشخيصها وفحصها ثبت أنها متسببة من سماع بعض اسطوانات عبدالوهاب وبديعة مصابني.

علاجه: يجب دهن الفتق عند النوم بالزيت الطلياني مدة ثلاثة أيام إلى أن

يبلغ الاحمرار، فإذا لم تظهر الحرارة أو الحمرة فيجب وضع لبخة من كسكسي (الحلفاوين)[1] المطبوخ، وفي حالة النقاهة يجب على المريض اجتناب أكل «الهريسة»[2] والجلوس على أبواب المنازل.

الصـــداع:

يبدأ تاريخ هذا المرض منذ ظهور الترامويات على وجه الأرض، ويليها صفافير قاطرات السكك الحديدية. وهو عبارة عن موسيقى وألحان تعزف على أعصاب الرأس يتخدر لها باقي الجسم، ويميل المريض إلى ذكر الله والإقلاع عن الغيبة والنميمة.

أسبابه: أكثر من يصابون بالصداع هم الأشخاص الذين يهبطون على المجالس، ويأخذون في الكلام وحدهم من أول عقد المجلس إلى انفضاضه، والذي يتعرض للصداع أكثر من غيره هو ذلك الذي يضع على رأسه الكلبق الروسي، أو العمة الصفاقسي[3] الخضراء، لأن الأول يمتص بلونه الأسود أشعة الشمس المؤذية ويوصلها مباشرة إلى عظم الجمجمة، والثانية تمنع رحمة الله التي منها الهواء.

علاجه: صفع المريض خمسين أو ستين مرة من خلف الرأس، ومثلها على كل من الجانبين فإن لم يستفد من هذا العلاج وجب عراك أذنيه بحصوتين من الصوان، أو تلطيخ الرأس بالطين «النابلي»[4] الجيد.

الرمـــد:

ماهيته: كحل أحمر يكسب الوجه والملامح بهاء ورونقاً، لا سيما إذا كان من نوع الرمد الصديدي الحاد. وإذا كان من نوع العمش فهو يدعى مرض

---

(1) حي من أحياء العاصمة.

(2) الفلفل المطحون.

(3) نسبة إلى مدينة صفاقس.

(4) نسبة إلى مدينة نابل.

العشاق، ويستفيد الأعمى فوائد كبرى من النساء الجميلات لأنه يطيل النظر ويحملق في المرأة ويمد عنقه إليها، وهذا ما يعجب السيدات.

أسبابه: النظر من خروق الأبواب إلى النائمين داخل بيوتهم.

علاجه: صبغة اليود أو مكمدات البوزة.

جريدة (الزمان) 9 جانفي 1933

أدوات الموت تتجدد في كل ربيع

إذا تزينت الأرض بأزهارها، واكتست بالأبسطة السندسية، فهذا موسم الموت في تونس وعيد المناحات. شبعت الماشية واتخمت وجادت بالدر الذي يغذي الضعفاء ففاز قوم بالزبد، وآخرون بالسمن وغيرهم بالجبن، وبقيت بعد ذلك الحثالة التي يسمونها اللبن.

ويقولون إن هذا اللبن الحامض يصفي الدم، وينقي اللون، ويصلح الامعاء وكل هذا صحيح معروف حتى عند البائع الجلف الجهول، «اللبن اللبن. . ياللي تربّع».

وبعض هؤلاء الباعة وهم في الغالب من باعة الخضر يضع أمام حانوته الإناء الكبير مملوءًا بهذا اللبن ليبيع منه للشاربين بالكأس. وليس لديه غير كأس واحدة لا يغسلها مرة واحدة مهما كان عدد الشاربين، وإذا بقي من الشارب فضل من الكأس أفرغها البائع في الإناء الكبيرة مرة ثانية لأنه سور مؤمن. . ورأيت أحد هؤلاء الشاربين يرجو برفق وأدب أن يغسل الكأس قبل ملئها، فكاد البائع يمزقه وانهال عليه بقارص اللوم يقول:

وإلى متى نغسل الكؤوس؟ وكم من مرة نغسلها؟، وإذا كنّا سنفرغ لغسل كؤوسهم، فلننصرف إذن عن أشغالنا وأعمالنا ونصبح غسالين يا سبحان الله؟ ما هذه الرفاهية الممقوتة، وما هذه الحذلقة المرذولة، الأعمار يا هؤلاء بيد الله يحيـي من يشاء ويميت من يشاء.

يتم البائع الخطبة ويقطع غيظه أن يأخـذ المغرفة الكبرى، ويحرك بها اللبن

في الإناء حتى يموج ويضطرب وتطفو فيه الأجسام السوداء، من ذباب وبعوض وكل طائر وزاحف، وهو أثناء ذلك ينعق بصوت غرابي مشؤوم: «ياللي تربع». وأحسب أن معظم الشارين، أو الشاربين لا يختلفون عن حضرة البائع في اعتقاد أن الأعمار بيد الله، وأنه لا ميكروب ولا وباء ولا عدوى ولا طيرة...

من أسابيع قليلة كانت حمى «القريب»[1] تأخذ من كل منزل نصيبها البشري، وكثر دخل المروقية[2] والصيدليات بصفة خارقة للعادة، كما يقول فصحاؤنا. وهذا الرواج يحصل حتماً في كل ربيع عندما تظهر آنية اللبن على الدكاكين، أو في أيدي الباعة المتجولين.

«ياللي تربع».

أي يا من تريد فقد ابنك، أو أمك، أو زوجك، أو عزيز لديك؟ البائع بملابسه اللامعة من الوسخ، ويديه المكسوة بطبقات من القذارة وإنائه الصادىء الكريه يضمن لك ما تريد وليس لك من يحميك منه. لا إدارة صحية، ولا مجلس بلدي لأنكم جميعاً من طينة واحدة، ومن عنصر واحد فاقتلوا بعضكم إذا شئتم، وانتحروا متى أردتم، ولكن على رسلكم؟.

الأمراض اليوم تعتبر من المسائل «الأنترناسيولية»[3] فيعطس المصاب وهو في «الترام»، ويلقح برذاذه لويس وجرمين، وماري وجورج، أو أنه سيترك أثره على خد تلك التي أرت نفسها لجميع الملل والأجناس. فلا يبعد أن يكون، المريض الأصلي في نهج (الكبدة)[4] وضحيته البشرية في نهج باريس أو في إدارة المجلس البلدي نفسه. إن الطريقة التي درج عليها كل من يبيع المأكولات من إخواننا الوطنيين طريقة كريهة فالطباخ، والكفتاجي، والفطايري، ووو وكلهم، لا يختلفون في أشكالهم عن مسحة المراحيض، وليس لأقدمهم، وأعرقهم في صناعة الطهي والشيّ والقلي، أقل علم بقواعد النظافة والوقاية.

---

(1) النزلة.

(2) المروقي هو القبار.

(3) العالمية.

(4) أحد الأنهج الشعبية.

«هات نص رأس»[1]. «صحن قناوية»[2]. «صحن مرمز»[3].

لا. ويقلد أيضاً المطاعم الفاخرة فيقدم لك فوطة رطبة سمراء لتوسخ بها ملابسك، وكوباً من الدهن مطبوعاً ببصمات الأصابع والشفاه، و«فورشيت»[4] زرقاء موضوعة باستمرار على المائدة لا ترفع إلا عندما يغلق المحل. كل هذا موجود باستمرار طول العام. أما اللبن الملعون فهو وافد يفاجىء الأصحاء كل ربيع، وكل عام ونحن وأنتم بخير.

جريدة (الزمان) 16 افريل 1935.

---

(1) من نداءات الباعة في المطابخ، نصف رأس مصلي.

(2) البامية.

(3) أكلة تونسية، خليط من البصل والبهارات واللحم.

(4) شوكة.

نفسيــة الجبــان

إذا ظهرت رذيلة من إنسان فانتظر منه أخواتها الكامنة خلفها، والجبن حفظك الله من أمهات الرذائل يرقد على مئات منها تفرخ في الظروف والمناسبات الملائمة. ولا يكفي أن يقال في الجبان إنه شخص يطلب السلامة لرأسه ويبتعد عن الأخطار فقد تجده أفتك المجرمين وأخطر السفاكين إذا انفرد بخصم ضعيف لا يحميه غير الله. والجبان شخص فقد الثقة من نفسه فخذلته هذه النفس في كل موقف: يسرق ثم يندم فيتوب إلى الله بسرقة أخرى، ويكذب ثم يعود فيداوي كذبته بكذبة أشنع منها، ويعيش حياته منكمشاً كالحشرة القانعة بما أمامها لا يصل إلى غاية ولا يصعد قمة، ويكفيه يوم النزال والجلاد أن يخرج رأسه من جحره ويقول:

إذا المرءُ لم يحتل وقد جد جده	أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً	به الخطب الا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول	إذا سد منه منخر جاش منخر

حتى إذا انجلت المعركة تحول من حشرة حريصة إلى صنيع شره يريد التهام كل شيء لأنه عرض رأسه للأخطار يوم أخرجها من الجحر، وأنشد حكمته النفيسة ولكنه يخيب في هذه أيضاً. ترى الضبع وقد تحول بقدرة الله إلى ملك تحت دستة العرش، وفوق رأسه التاج، ولا أدنس إرادتي بالجري معكم في ميدان واحد لأني أرفع منكم شأنكم وغنيمتكم، فمقامي الملكي يقضي علي بالترفع عن سفاسفكم.

هذا الخلق تجده في الحيوانات الدنيئة كالفئران والخنافس، أو تجده في الرعاع من الآدميين، ولو راقبت الرعاع في خصومهم لأبصرت أحدهم صريعاً يجثم على صدره الشديد الجبار ويكتم أنفاسه وهو يصيح مستغيثاً بالناس أن يرفعوه من فوق صدره ليقوم إليه ويؤدبه ويجعله أمثولة للمتفرجين. .

وترى أحياناً من الجبناء من إذا غلب على أمره انهال بيديه على وجهه لطمًا، كأنما ينتقم من نفسه التي خانته لنفسه التي أهينت ولعله عند نفسه أحقر مما هو عند الناس، والجبان لا يطمئن إلى أحد، ولا يرتاح لمن يقرئه السلام أو يبدأه بالبشر إلا بعد أن يقضي من عمره سنواتٍ طويلة يحذر فيها ويختبر حتى لتمر أمام عينيه الفرص السعيدة ولا يجرأ على الدنو منها لا زهداً فيها ولكن كي لا يتورط في دفع ثمنها وفديتها، وحسبه أن يكون دائمًا في آخر القافلة ليلتقط سقط المتاع ما دامت تمشي في أمان الله، أو ليهرب إذا عرض لها الشر.

ومن صالح الجبان أن يعيش ضئيلاً مغموراً ولكنه إذا كان جهولاً نسي مزايا العزلة والاعتكاف، وخرج يلتمس الشهرة في الميادين الواسعة التي لا يقوى على الركض فيها، ويدعي أنه يقود الجماهير ويقاوم الغزاة والفاتحين كالأقرع الذي يأبـى أن يستر ما ابتلي به ويكشف عن رأسه للناظرين.

خير للجبان إن كان عطاراً أن يلتفت إلى عطارته. وإذا كان محامياً أن يشغل نفسه بقضاياه، وإن كان عاطلاً فحسبه مسبحة يذكر بها الله أو كتاب يهذب به نفسه.

جريدة (الزمان) 30 جانفي 1934

السرقــة فضيلــة

في الشرق داء لم تنفع في علاجه الكتُب المنزلة، وهو داء السرقة بأي شكل، وكلما زاد إيراد السارق من عمله كان موضع الإكبار والاجلال. فإذا استطاع أن يخفي جرائمه، ويهرب بها من مخاطف القانون دخل في مراتب القُواد وعظماء العالم وحسده أقرانه وغبطه جيرانه. والمرأة الشرقية على ما يظهر لا ترى بأساً في أن يكون ابنها أول سارق في درجات السراق. وهي لذلك تفخر به، وتصلي وتطلب إليه تعالى أن يقيه شر العين. وعندما تخطب عروساً لابنها المحروس فأول شيء تقوله للأصهار إن المحروس يتناول كذا مرتباً قاراً، ويربح كذا من كده الخاص، وتستشهد على صحة قولها بالأقارب والمعارف، وتعدد ما يدخل به كل ليلة في بيته من اللحوم والفواكه والأشكال وخيرات ا.

وهذه الرذيلة تكاد توجد في كل بيت وكل وسط، لأن المربيات النابغات في البيوت أصبحن يعشقن الرجل بما في جيبه، ويستدللن على مهارته بما يجلبه من المارة، ولا تعنيهن كثيراً الطريقة التي تحصل بها على المال. وكأنهم في ذلك كالسجين المحروم من أطاريف اللذات، أو المريض النائم في المستشفى الخيري، فهذا وذاك يشتهي قطعة الحلوى أو السيقار ولا يبالي إذا تناول مشتهاه من حارس السجن أو المستشفى أو من أحد المتصدقين.

والسادة الذين يمعنون في السرقات، ويبتكرون منها طرقاً عجيبة لا تأخذهم حمرة الخجل، كما هي عادة السراق في الإسلام أو المسيحية أو الوثنية. إنهم غلاظ الأضلاع، أقوياء العيون، في أجفانهم ثقل الدلال

والاعتزاز بالنفس. وقد تضطر أن تتذوق منهم ضروب الاحتقار وأمرك لله، ولكن نظام هذه الحياة يحتاج إلى الأمانة. والسارق ولا شك قصير العمر، يغيب قبل أن تخرج روحه، ويتحرك على قدميه وهو منسوخ الاسم ومدرج في عالم الأموات. فهذا كان موظفاً ورفت، وذلك كان تاجراً وأفلس، وآخر خرج عن ثروته وعن شرفه، لأنه قضى مدة كذا نزيل السجن. والسيد مدكدك القامة والمشية لأن أمره بين يدي القاضي.

ألا يا عباد الله.

هل تعرفون اللص الحقيقي الذي يأخذ كل شيء، وهو باسم الثغر مطمئن البال. إنه الرجل الشريف الصادق في المعاملة، وهو الذي يشارك الناس في أموالها ونسائها إنه أمكر الماكرين وأول الرابحين.

اسرق يا هذا ولكنها أكلة واحدة.
أما الآخر فسيأكل كل يوم.

جريدة (الزمان) 23 أكتوبر 1934

في عـــالم اللصوصية

طريقة المصريين:

في مصر نوع من اللصوصية، اللصوص مختصـون بسرقـة الجيوب، ويدعون بالنشالين ولأيديهم خفة عجيبة لا يباريهم فيها لصوص الأمم الأخرى. ويكفي أن يحتك بك أحدهم وأنت سائر في الطريق حتى لا تجد حافظة نقودك أو ساعتك، وهم طائفة منـظمة لهـا رؤساء يـديرونها، ويختص كـل رئيس هو ومرؤوسيه بقسم من أقسام مدينة القاهرة، يباشرون مهمتهم باطمئنان من قديم الأزل إلى اليوم، ولا يمر يوم دون أن تحصل عدة سرقات في شوارع المدينة، وكلها سرقات ذات قيمة، وأصحاب السرقات يبلغون عنها البوليس وما على هذا إلا السكوت وهو لا محالة يعرف النشالين فـرداً فرداً ويتصـل برؤسائهم خير اتصال.

وأكبر فرصة للنشالين هي يوم الأعياد الوطنية، والمزدحمات العامة، ونذكر يوم عودة سعد باشا من منفاه حيث احتشدت الأمة في الشوارع لاستقباله، فقد كتب أحد رؤساء النشالين بلاغاً وزعه عى الصحف قال فيه: إن طائفتهم عن بكرة أبيها قررت الإضراب عن النشل في هذا اليوم احتراماً لهذا العيد الوطني الكبير، ولم يغفل سعد باشا الإشارة إلى هذا الحادث في إحدى خطبه. والظاهر أن النشالين اليوم نسوا احترام الزعماء فقد أبلغ صاحب الدولـة مصطفى النحاس باشا وهو خليفة سعد أن ساعته وسلسلتها الذهبية ضاعتا منه في مدينة (سمنود) مسقط رأسه، ولا يعلم كيف ضاعتا منه والرجل لا يتهم أحداً.

يقول من درس أحوال النشالين أنهم لا يعتمدون فقط على مهارتهم وخفة

أيديهم، بل ينظرون إلى الشخص الذي يسهل سرقته، ويتفرسون في وجهه وما يلوح فيه من دلائل البلاهة والغفلة، أو الذكاء والحذر. . .

الأساليب الأوروبية:

واللصوص الأوروبيون يعتمدون على العقل والعنف معاً، فيهم من يغتال ويهاجم في الطريق، وإذا اقتضى الأمر استعمل السلاح. من ذلك أنهم سرقوا حانوت مجوهرات في مدينة (ليون) كائن تحت ممر عمارة ضخمة، فجاءوا في رابعة النهار في «أوتوميبيل» وقف أمام باب الممر، وجلس فيه السائق ونزل منه أربعة فدخلوا الممر حتى وقفوا أمام «فترينة»[1] الجواهر وهي تلتهب بمئات من قطع الماس الضخمة، ووقف اثنان منهم بالمسدسات يمنعان مرور الجمهور وحطم الآخران الزجاج واختطفا ما طاب لهما، وقفز الأربعة في الأوتوموبيل الذي انطلق كالبرق أمام مكتب القوميسارية الواقع في العمارة نفسها والذي يبعد عن المحل عشرين متراً.

وقد حصلت سرقة مضحكة في شارع «كانابيير» بمرسيليا في دكان جواهري معروف بإتقانه في إصلاح الساعات، وعنده خمسة عمال كل منهم منهمك في تصليح عدد من ساعات الأساور الذهبية المرصعة وغيرها من المصاغات، عدا ما في الفترينة من مختلف المصاغ. وكان المحل يغلق من الظهر حتى الساعة الثانية. وفوق المحل عيادة طبيب أسنان. ولا تدري كيف عرف اللصوص أن طبيب الأسنان هذا ذهب لتقضية خمسة عشر يوماً في الريف، فدخلوا العيادة ونقبوا أرضها بمهارة وأرض العيادة هي سقف الجواهرجي. وفي الساعة التي يغلق فيها نزلوا وجمعوا كل شيء وجدوه في لحظة قصيرة، ولما فتح المحل كانت الجماهير محتشدة على بابه تتفرج على السقف وكان ضيقاً لا يمر منه إلا طفل في العاشرة من عمره. . .

إلا أن البوليس السري الفرنسي لا يفوته مجرم ولو طار بين الأرض

---

(1) واجهة البللور.

والسماء. وكل لصوص سواحل البحر الأبيض يلجأون إلى العنف والغيلة، ويفوقهم جميعاً الكورسكيون الذين لا تنقطع حوادثهم الإجرامية.

طرق الأمريكان:

واللص الأمريكي يجتهد أن تظهر عملية السرقة كأنها أمر عادي، لا يلتفت إليه أحد، فهو يدخل الحانوت المراد سرقته شارياً أو بائعاً ثم يخرج وغنيمته في يده يسلمه إياها صاحب المحل نفسه ويصعد إلى المسكن الذي يعلم خلوه من السكان فيدق على الباب ليبعد عنه الشبهة وإذا مر به أحد الجيران ضاعف الدق بعنف حتى يخلو له الجو، فيعالج الباب معالجة بسيطة فيفتح أمامه على الترحاب، وبعد أن يسرق كل ثمين يترك لأصحاب المنزل خطاب شكر رقيق العبارة. وبعضهم إذا وجد في المنزل طعاماً أوقد النار وسخنه وأكل.

وعلى هذه الطريقة يسير لصوص القاهرة ويبتكرون فيها أساليب جديدة. منها أن يتفق لصان من اللصوص على العمل معاً، أحدهما بالملابس البلدية والثاني من طبقة الأفندية والفريسة التي يفتشان عنها هي فلاح من القرى قدم القاهرة، أو أي غريب آخر أو من يتوسمان فيه البساطة، يقف البلدي بجانب الرجل المراد سرقته، ويخترع مناسبة للتعرف به ثم يأخذان في حديث بريء حتى يأنس الرجل باللص ويجب دعوته إلى فنجان قهوة، أو يفتل معه سيجارة، وبينما هما يتحادثان يمر «الأفندي» ويلقي في الأرض محفظة نقود كأنما سقطت منه عفواً، فيلتقطها البلدي والفلاح يراه يفتحها وقد حشيت بأوراق «لوزية» تشبه أطرافها أوراق البنكنوت ذات المائة جنيه، وفوقها ورقة حقيقية من فئة الخمسين قرشاً فيضعها البلدي في جيبه ويهم بمصافحة الفلاح لينصرف ولكن هذا لا يتركه يذهب قبل أن يقاسمه بل ويلح ويهدده إن لم يأخذ نصيبه من المحفظة أن يدعوه اللص للجلوس في قهوة بعيدة عن الأنظار ليقتسما هذه الثروة العظمى. ويذهبان إلى قهوة يعرفها الأفندي وبينما هما جالسين يلوح شبح الأفندي قادماً فيضطرب اللص ويقول الفلاح:

ـ الظاهر أن صاحب المحفظة قد عرفنا، وها هو قادم إلينا ليسألنا فها أنا أسلمك إياها فضعها تحت ولا تقم أو تتحرك مهما قال الرجل.

ويجلس الفلاح على المحفظة وهو واثق أن حصته مضمونة، وأنه يشارك زميلاً مخلصاً. ويأتي صاحب المحفظة زائغ البصر هالع القلب، وبعد أن يقلب نظره في الجالسين يقصد هذين ويقول باكياً:

ـ يا سادتي الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً. . أنا رجل ذو عائلة أشتغل في أحد البنوك الأجنبية. ومنذ دقائق سقطت مني محفظة تحتوي على ألفين من الجنيهات وقد أرشدني بعض الناس إلى شخصين تنطبق أوصافها عليكما، فإن كان أحدكما قد رأى هذه المحفظة فليتكرم بردها لوجه الله وله منا جزيل الشكر والمكافأة الوافرة. . .

أما البلدي شريك الأفندي فينكر رؤية المحفظة ويظهر دهشته من الخبر، ويعقب عليه الفلاح فيقسم بالله العظيم وبنبيه الكريم وبالطلاق والعتاق بأنه لم ير المحفظة.

ولكن الأفندي لا يقتنع ويلح في تفتيش جيوبهما، فيرضى البلدي بهذا الاقتراح، ويخرج محفظته فيفحصها الأفندي ويردها إليه في أدب وأسف. وهنا يقول البلدي للجالس على الغنيمة أخرج أنت محفظتك التي في جيبك ليراها هذا السمج اللجوج وينصرف لسبيله.

فيخرجها الفلاح فإذا صارت في يد الأفندي فهنا وقت العملية الجراحية حيث يستل ما فيها من النقود بمهارة عجيبة، ويردها إليه خاوية بدون أن يشعر. ولكن الأفندي بعد هذا التفتيش يلح عليهما ليصحباه إلى دار البوليس لإجراء عملية التفتيش هناك أو ليكونا على الأقل شاهدين على ضياع محفظته. والذهاب إلى القسم يستدعي طبعاً قيام الفلاح الجالس على المحفظة فيبادر البلدي الأفندي قائلاً: إن كان لا بد من الذهاب إلى القسم فأنا وحدي مستعد للقيام معك. أما هذا الرجل فغريب لا يعرف القاهرة ولا فائدة من شهادته. فيرضى الأفندي بهذا الحل، ثم يتركان الفلاح وحده، فإن كان خرب الذمة هرب بالمحفظة على إثر ابتعادهما، وإن كان وفياً شريف النفس جلس في انتظار زميله عشر ساعات على الأقل.

جريدة (الزمان) 21 فيفري 1933

الهروين والتكروري

صديقي،

هذه كلمة مفتوحة أوجهها إليك على صفحات الجرائد، لأن المسألة تجاوزت حد الخصوصيات، وأصبح من الواجب عرضها على الرأي العام. كنا نشتري علبة «التكروري» ونفنيها أنا وأنت «بالسبسي»، مرة عندي ومرة عندك إلى أن نقضي لنا سهرة جميلة، نسبح فيها تارةً مع الملائكة، وتارة مع الشياطين.

و «التكروري» كما تعرف مؤنس مريح للأعصاب، يخلع على مدخنه ألواناً من الأنس والابتهاج، فينسيني أنني مفلس، مريض عليل متعب، وينسيك أنك صعلوك مغفل لا قيمة لك، بل هو يفتح لنا أحياناً أبواباً من التفكير المفيد، فنعقد العزم على أن نقوم من غدنا ونشرع في تأسيس شركات تجارية عقارية، ومشروعات فنية وعلمية إن لم تكن حقيقة فيكفي لذة التفكير فيها.

ولكنك نصحت إلـيَّ بتذوق «الهروين» فعملت بنصيحتك خيَّبني الله وإياك.. وذهبت إلى فلان بائع «الهروين» الذي قلت إنه يوجد في الساعة الخامسة كل يوم، عند فلان الحلاق في شارع كذا وزنقة كذا، فلم أجده إلا بعد ذهاب وإياب، ومكث وانتظار. ولاحت طلعته كالبدر المكسوف، يخفي في نفسه نصف نفسه، ويلتفت خوف البوليس السري. دس في يدي ورقة كشروي نقير، وأنت تعرف أن شروي النقير هو الغشاء الشفاف الرقيق الذي يكسو نواة الثمرة. وقال إنها «ثمن» 12 سنتجراماً من اكسير الحياة والسحر والشعر، قيمتها ستة فرنكات يعني أن الكليو بحساب الصيدليات يباع بخمسين ألف فرنك.

تناولت الجرعة الأولى من الأنف كما قلت لي، فأحسست بقشعريرة تدب

في بدني، وعلاّ جبهتي عرق بارد كالمحموم الذي يتناول المسهّل، وثقل لساني عن الكلام، واعترتني لكنة محزنة، وكأن شيطاناً كان بقربـي يقول لي: إن هذه ليست لكنة وإنما هو السكوت والوقار الذي يتحلى به العظماء والمفكرون، ويكتفون بالسماع والتفكير دون مشاركة العامة والغوغاء في هذرهم، فأقول حسناً، ولماذا أشعر بحاجة شديدة إلى القيء، فيقول: هذه نوبة عارضة سببها الجهل بوقت تناول هذا الأكسير، ولكل شيء وقت إن كنت من العارفين. خذ جرعة أخرى ودواء الداء بالداء، فتناولتها خيبك الله ـ أنت وشيطانك، فوالله لكأني خرقة «شوليقة» في يد طباخ مسح بها الموائد والحلل، ورماها في الزبالة تقززاً من استعمالها والعودة إليها. وعجبت لنفسي كيف أستطيع القيام من مكاني إلى بيتي. وخيل إلي أن الجالسين والعابرين يرون مني هذا الارتخاء ويتغامزون، ويسألون لي اللطف والسلامة، أو يتآمرون على الوشاية بـي للبوليس.

ما أحسب أنني دفعت الستة فرنكات لأصل إلى هذه الحال، وقد اعتدت أن أسهر بها في سينما، أو ملهى، أو أرْأَسُ بها جمعاً في إحدى القهوات أظهر فيها علمي وفضلي، وحسبـي ونسبـي وأدفع ثمن القهوة. إنني الآن بهذه الستة فرنكات في أشد حالات الكرب، ولم أر لي فرجاً إلا في الذهاب إلى المنزل، فمشيت أتجنب الناس وألتصق بهذا الجدار، وأستند إلى هذه الشجرة وكأن هذا المشي حرك روحي وردّ إلي بعض النشاط، حتى إذا كنت على مقربة من المنزل لمحت في آخر الشارع سيدة مسلمة منفوشة في سفساري أبيض، على وجهها البرقع الأسود تتبختر الهوينا وتسعى كما قال الشاعر:

يـقـلعـن أرجـلهـن مـن أوحـال

وقد ملأ نفسي قالبها الضخم، وصدرها المرتفع، وناهيك بامرأة وطنية تظهر في الشارع في نحو الساعة الأولى بعد منتصف الليل لمزطول، فهذه تثير في النفس ما كمن من الفضول، وتفتح ما أغلق من الشوق والحاجة إلى الدفء، والالتصاق بالأجسام الطرية. فلما تقاربنا وجدت الذي أمامي «حاجاً» غربيّاً[٦]

(٦) تطلق هذه التسمية على صنف من المغاربة أصيلي المغرب الأقصى الذين يتولون حراسة المتاجر والأحياء.

من «الشلوح»، أسمر الوجه، ذا لحية كثة تحيط بوجهه، فانخلع قلبي لا خوفاً منه، ولكن لما أصابني من العمش وسوء التقدير. ولكن شيطان هيروينك قال: انظر إلى هذه الفتاة الأوروبية التي خرجت الآن تملأ الإبريق من السبالة، انظر إلى ساقيها المكشوفتين وثوبها القصير، ورأسها المكبر بالشعر، فلست تصادف في كل مرة «غريباً» هذه مالطية أو إيطالية من جيرانك الذين يساكنونكم، في حيكم، ويأنسون بالعرب ولا ينفرون منهم، اقترب منها لعلك تظفر بابتسامة أو نظرة حلوة تدخرها منها ليوم قريب.

واقتربت، إذا الفتاة «خماس»[1] تلبس «كذْروناً»[2] من الوبر الأحمر إلى ركبتيها وعلى رأسها منديل أحمر، تتدلى أطرافه كما يتفق، فعاودني القييء والدوار والقشعريرة ووصلت إلى المنزل بسلام.

أصدقتك أيها الخبيث أنني خلعت ملابسي في ساعة كاملة، ولم أعرف إن كنت أخلعها لأنام أو ألبسها لأخرج، وظننت أن ملابسي وكل شيء حولي مردة تريد التطويح بـي بين السماء والأرض، وكنت أشم صناناً لا وجود له، وأسمع أصـواتـاً لا وجود لها، ذلك الصنان الحاد يلازم أنوف المدمنين، كما يقول لنا أطباء الأمراض العصبية، وتلك الأصوات صدى الضعف الذي يستولي على الأعصاب.

فإذا كان في إحدى الديار المجاورة لك سبالة خربة، يسقط منها الماء مضطرباً في حوض أو سطل خيل إليك ـ أيها المزطول ـ وسوسة المصاغ في يد جارتك الحسناء، أو قبلات يطبعها عاشق على وجنة معشوقته، فتموت كمداً وتفغر فاك وربما تسلقت السطوح لتقترب من الصوت.

بستة فرنكات استلقيت على فراشي كأنني ريشـة تكاد تـطير، وبستة فرنكات هاجمني الكابوس أو «الكوشمار» إن كنت لا تفهم العربية، ومعناه يعني الكابوس فيلق من لصوص الليل متمنطقين بالجلود، وفي أيديهم الشـواقير

---

(1) فلاح.

(2) لباس من ألبسة الفلاحين في الجهات الساحلية بتونس.

والفؤوس والخناجر وكنت والله أسمع صليل السلاح في أيديهم، وهم يحاولون فتح الباب ويصيحون بأصوات معدنية مرعبة.

ولحسن الحظ كان عندي بقية من العقل، وكنت أعرف أن الطريقة للخلاص من الكابوس هي أن يحاول المكبوس تحريك أصابع يديه ورجليه باستمرار، فتذهب الشياطين بإذن الله، وقد ذهبت في الآمال بعد إلحاح طويل وقراءة ما تيسر من القرآن الكريم.

ولما أشرقت الشمس بنورها، ودخل شعاعها من النافذة شعرت بشيء من الراحة وميل إلى النوم فلم أستيقظ إلا عند غروبها، ونظرت في المرآة عيني تسيلان بالرمص والدموع، وأبصرت تحتهما الغضون والتجاعيد من هول معركة الأمس، ولكن ترى وقد مضى النهار إلى أين أذهب، ومن أين أحصل رزق يومي، أظن أن خير عمل أقوم به هو إرشاد البوليس إلى صاحبك فلان القاطن عند الحلاق فلان، والسلام عليكم.

جريدة (الزمان) 25 فيفري 1936

الاتجــار بالنســاء

يقال إن هذه التجارة لا تبور مهما وقف دولاب الأعمال، وفقد الناس القوت. والمتاجرون بالنساء هم في الحقيقة فلاسفة قبل أن يكونوا تجاراً، فلاسفة لأنهم يعلمون أن المرأة غاية الغايات فكل إنسان يكد ويكدح ليصل إليها ويضع ما يربحه من عملة بين يديها فاختصروا الطريق إلى الربح وقبضوا على المفتاح.

هؤلاء التجار أحسنوا الظن بالشرق لأنه بلد الغرام والهيام، فإذا كسدت تجارتهم في أوروبا أقبلوا حيث تحجب المرأة ويشتاق الناس إلى اللحوم البيضاء الناضرة.

والآن قد خلت ميادين «الشانزليزيه» من المتبخترات في الفراء الثمين، وطالبات الأجور العالية، واللائي ينتظرن الوافدين من المشرقين والمغـربين، والظاهر أنهن عزمن على السعي إلى الذين كانوا يزورونهن والـذهاب إلى بلادهم.

وقد ترى في تونس في هذه الأثناء وجوهاً غريبة من الجمال المنكر. مع كل امرأة مروض فيه كل ما في المروضين من طول وعرض وشراسة محيًّا. جاء الاثنان ليغترفا الأموال ويعيشا في بلاد السلام والزيتون، ولكن بعض الشر أفدح من بعض لا أهون كما يقول الشاعر. وهذا البلد مملوء بقدماء التجار. ولا مكان فيه للقادمين، فعندنا تجار من الذين يقدمون بضائعهم من فئة خمسة فرنكات إلى الخمسين. والمعروض أكثر من الطلب ألف مرة ومرة. . وربما تيسر لك أنت إذا كنت من السياح أن تشاهد في أحد مدائن أوروبا شخصاً بعينه تعرفه بوجهه من زعماء هذه التجارة. يقوم من نومه في الحادية عشر صباحاً يتناول فطوره من

أفخر المآكل ويدخن السيجار الأمريكاني بين أصابعه المحلاة بخواتم الماس. وكأنما اجتمع كل ما في العالم من خياطين ليفصلوا بذلته الأنيقة. هذا والحسان مرميات حوله تقبلن أطرافه ويتلقين أوامره، يرسل هذه إلى «البرازيل» والأخرى إلى «طهران» ويبيع هذه ويشتري تلك وهن معجبات بسحنته المنقبضة وشفتيه الغليظتين، وتطرب أسماعهن لصوته الأجش، وقد يكون يوم السعادة عند إحداهن يوم أن يلكمها بقبضة يده القوية على عينيها، فترقد لها في المستشفى أسبوعين. ولهذا التاجر الشريف فوق ذلك مقام كريم في كل مرقص وماخور. ومنزلة رفيعة عند موظفي القنصليات وفي الدوائر البوليسية. وهو إن شاء بطش، وإن شاء عفا، وإن شاء سرق، وإن شاء قتل. وقد دالت الدول وسبحان من له الدوام، فضرب هذا النوع من التجار في أرض الله يبتغي الرزق، ويصحب من بقيت له من جواريه على عهد الوفاء والإخلاص يستأجر لها حانوتاً في (س. ع. ق) أو يودعها أحد مواخير نهج «المقطر»، ولا تكاد تحصل من الربح إلا على القوت الضروري. وقد ترى هذا الشخص الذي كدت تعرفه في سياحتك وهو في عز جبروته، قد اقتنع اليوم بأخذ مناضد القهوات المتروبة في شارع «جوليفري» هو وحبيبته يقضمان الصاندويش ويقولان:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسرْ

إلا أن تونس غاصة من قبل بقدماء التجار المجاهدين في سبيل الشيطان، وجاء هؤلاء فحلوا عليها ضيوفاً ثقلاءهم وصاحباتهم، وقد بدأت بشائر التنافس والمزاحمة فسمعنا الرصاص يلعلع في إحدى المقاهي الكبرى، وبدأنا نشاهد في الشوارع الضيقة حلقات المتجمهرين والمتآمرين وكلهم من الطراز البغلي[1] الذي يختاره المومسات.

وعلى هذا يجب على البوليس التونسي أن لا يبقى كما هو في اعتكافه وحياده فالأمر أعظم من أن يتغاضى عنه. وقد ازداد عدد هذه الطائفة أي طائفة «المعرصين» على عدد من المومسات. وأصبح كل بغل يريد الحصول على أكثرهن

(1) الشبيه بالبغل.

ربحاً، وأقدرهن على سلب الأموال في الفنادق الضخمة، ويضع قدمه على الأخرى في وجوه الناس.

نريد من البوليس أن يرفع يده عن أقفية الباعة الجياع. ويهبط بها على هذه الأصداغ الجديدة الممتلئة دماً وصفاقة. نريد أن يتعلم الرفس في ظهورهم، ويعيدهم من حيث جاؤوا لأنهم على ما يظهر غير مقتنعين بسوء الحالة الاقتصادية. وإن كان لبعضهم من الجواري من تحصد له جيوب «الانديجين» مائة فرنك في اليوم. فالبقية لا يجدون ثمن القهوة، والرحيل خير لهم.

جريدة (الزمان) 24 جويلية 1934

الدعـــارة السريـــة

إن كان لا بد من الشر فمن الخير حصره في مكان واحد لكي لا يتسرب هنا وهناك.

الدعارة شر لا بد منه في هذا الزمن، وقد رأت الحكومة أنه لا بد من تنظيمها كسائر الحرف ففرضت على الشقية التي تحترفها رخصة رسمية لتبقى تحت المراقبة الدائمة.

إلا أن «التهريب» يدخل في كل شيء. فكما تجد البضائع المهربة تجد المومس الخارجة على النظام والتي تباشر مهنتها في السر والخفاء.

والمومس المختفية قد لا تفضل المسكينة السافرة في جمال أو حسب ونسب، بل قد تكون أسوأ منها خلقة وأحط أخلاقاً وإنما تختفي لأن الخفاء مرغوب فيه من الناس.

والذي يبحث عن الحقيقة يجد أن معظم المومسات السريات من قديمات (سباط عجم) و(سيدي بيان)[1] هربن من البوليس أوذهب جمالهن فلا يستطعن عرض أجسامهن علناً لمن سينتخب ويختار.

يقول سمسار البيت السري للزبون الغرير أو القادم من الآفاق:

ـ عندي بنت فلان الموظف في العدلية أو أخت فلان العامل المقيم في مدينة كذا، أو زوجة فلان التاجر المشهور.

---

(1) بعض شوارع العاصمة التي كانت معدة لهذا الغرض خلال الفترة الاستعمارية.

ثم يضيف إلى ذلك:

ـ لقد فسد الزمن. وضاقت الخدور بمن فيها، فلا العانسات يتزوجن، ولا المتزوجات يتمتعن بأزواجهن المنطلقين في ميادين الفساد، هذه بنات العائلات في العاصمة يتلهفن على أي رجل، ويترامين حتى على الرجال غير المسلمين. ووالله لولا أنك رجل مجهول وعابر سبيل لا يخشى منك إذاعة السر ما كنت لتظفر بها ولو بذلت كل ما تملك.

ويتعين موعد اللقاء في المنزل العامر. وقد يسبقه موعد آخر في الطريق، فيرى الزبون بعينيه تلك الدرة التي سيحظى بها وهي خارجة من أحد المحلات التجارية وخلفها زنجي أو زنجية تحمل لفافات مختلفة الأشكال كأنها بضائع مشتراة من ذلك المحل. فتجري المناورات ويتم التعارف والموعد الأخير للالتقاء في ذلك المنزل الواقع خارج أسوار المدينة، والذي يقول السمسار إنه الوكر الذي تهرب فيه السيدة لتباشر لذاتها خفية عن أهلها.

فإذا دخلنا بالفريسة وجدنا منزلاً لا يختلف عن المنازل العمومية في شيء. فراش حقير، وبضعة كراسي حقيرة والخدم من الأعراب الذين يلبسون البنطلونات والشاشية القصيرة يجولون في حوش الدار. ونرى (البطرونة) العجوز مستلقية على فراشها من التعب وقد زخرفت وجهها المجعد بالأبيض والأحمر والكحل والدبغة. ومن هي زوجة الموظف في العدلية أو القائد المتغيب؟ هي فتاة من أولئك اللاتي حطمت الأمراض أبدانهن فطولت كمها وربطت رقبتها وعصبت رأسها. ولا تكاد تسلم وتجلس حتى يدخل أحد الخدم بليترة «البوخة»[1] ويقف الآخر ينتظر ما يؤمر به من شراء المفتحات والمفكهات. ولا نكاد نتناول الكأس الأول حتى يدق باب الشارع بعنف. من هذا؟.

ـ البوليس جاء ليكبس المنزل ومن فيه. فيا لها من كارثة ستفتضح فيها العقيلة المخدرة وتمتهن كرامة الزبون المحتشم. فيقول أحد الخدم، لا عليكم فالرجل صديقنا وطالما جاملنا ودارانا. اعطوني خمسين فرنكاً وأنا أضمن لكم

(1) نوع من الكحول التونسية.

ذهابه، ثم مسراتكم إلى الصباح. وتخرج الخمسين فرنكاً من جيب الزبون. ثم تأتي بعده عجوز من أهل الدار تنذر بالويل والثبور... لقد عاد زوج الفتاة إلى الدار فلم يجدها فإن لم تذهب الساعة انتهى أمرها بالطلاق العاجل.

وتقوم الفتاة ذاهلة مضطربة على أن تعود بعد ساعة، وهي ذاهبة في الحقيقة إلى الحجرة المجاورة التي تنتظر فيها زبوناً آخر سيمثلون معه نفس الرواية. أما زبوننا الجالس فيجب أن يقطع ساعة الانتظار بليترة ثانية من البوخة، فإذا طال انتظاره ولبعبت البوخة برأسه انتظرنا أحد أمرين:

فإما أن يكتفي بموعد آخر في الليلة القادمة ويخرج مقتنعاً بالمحادثة والمجالسة وإما أن يكون من الغاضبين المعربدين فيلح في استقضاء وإنجاز الوعد فتأخذه اللكمات والرفسات ثم يلقى به في الشارع وقد فقد ما معه من نقود ومصاغ.

هذه المنازل السرية الموجودة تقريباً في كل حي من أحياء العاصمة. ويكاد يعرفها كل إنسان ما عدا موظفي البوليس وموظفي مشيخة المدينة.

ونحن إذ نشير إليها بهذه العجالة فليس لأنها مغاور لصوص وبيئات أمراض فقط، ولكن لأن أصحابها يتاجرون بأسماء العائلات الشريفة حتى لقد أصبحت الأسماء الضخمة في العاصمة مصنفة من أفواه الصعاليك وصار الرجل الكريم يمر في الطرقات فتأخذه الغمزات من كل جانب، وتروى المفتريات عن نساء بيته وهن في غفلة عما يقال.

هذه الديار معروفة بأرقامها. وهؤلاء القواد معروفون بوجوههم وأسمائهم فليس على السلطات المسؤولة إلا أن تعمل على إزالة هذا العار الذي يلحقها قبل أن يلحق الناس.

جريدة (الشباب) 12 مارس 1937

الشـرق السـاحـر

ساحر والله تبدو مدائنه للقادمين من البحار والقفار بيضاء كثيرة القباب، كرغوة ارتشقت فيها المآذن كأنها في النهار شموع، وفي الليل جوارٍ ترقص في أعطافها القناديل.

ويتساءل القوم عما تحت هذه القباب بين هذه الجدران من المخبآت المجهولة تحتها إما عباد يرابطون على طاعة الله أو سهارى متربصون لالتهام اللذات في السكون والخفاء وغفلة الرقباء، وفي الشوارع توجد جميع المسليات التي اختصت بها المدينة الشرقية: القاهرة كانت، أو بغداد أو الدار البيضاء. فيها الخياط الذي ينهال بعصاه على غلامه الصغير في ركن الحانوت، والغلام يبكي ويقسم بأنه تاب وأناب وأحَدٌ من أهل السوق يلتفت إليه، وفيها الحَبْر الصالح الذي يتبختر الهوينَا وبصره في الأرض كي لا يقتل نملة أو يؤذي عقرباً، وخلفه حشد من تلاميذه والناس هنا وهناك يتهامسون هذا صاحب الفضيلة... وفيها راكب البغلة الشهباء المزدانة بالمخمل وحلقات الفضة، وحولها العبيد من آخذ بزمامها، ومن عالق بركاب سيدها. وهذا يرسل من عليائه النظرات (الذواتية) يجيب بها التحيات المنهالة عليه من أهل الشارع.

وترى الترجمان يقول للسائح هذا فلان باشا الذي يملك كثيراً من البساتين والأنعام، وهو لغناه وشرف أرومته لا يرسل أولاده للمدارس كما يفعل الفقراء وأصحاب الوظائف.

والحمام الذي طار عنه في الآفاق مضغ وروايات.

ها هو الحمام الجميل وقد خصص الليلة لسيدات المدينة وعقيلاتها

المرهفات في الخدور، وقف على بابه عدد كبير من الخدم والعبيد السود، وفي هؤلاء السود عملاق له رقبة كمدخنة القاطرة البخارية يفوح من أردانه النظيفة صنان حاد فإذا خرجت السيدات تقدم من سيدته فأراها لامعاً كالجواد الأدهم، وسار بجانبها وبريق في عينيه مختلف يرسله للمتطلعين والفضوليين. وهنا يتحقق الإنسان أن عبد ألف ليلة وليلة الذي أخذته شهرزاد كان حقيقة لا خرافة نسجها الخيال.

وأكثر ما يظهر جمال المدينة الشرقية عندما تكون شوارعها ملتوية مسدودة النهاية، أو حلزونية ملتفة جميلة كالشعر المجعد والمشوش معاً. وكم يلذ للمرء أن يضيع في هذه الشوارع على غير هدى. إذ يطلع عليه من هذا الباب وجه جميل مستتر خلف المصراع ينادي بائع الخضر أو الولد العاق الهارب من الدار. وأن تسقط إلى سمعة رنة الحلي من يد تفتح النافذة فتمسيه اليد التي رآها إسحاق الموصلي ولم يهنأ له عيش حتى فاز بصاحبتها. ولعل من هذا القصر الواقف أمامه كانت تتدلى منه الزنابيل التي ترفع العشاق إلى ربات الخدور المتعطشات للهوى والغرام، كذلك يوجد في المدينة الشرقية الولد الذي يلخبط الجدران والأبواب بالفحم والطباشير والذي يعرفه إخوانه بأنه ابن الشرطي أو القاضي.

ومن المحتم وجود الحوذي الذي يضرب حماره حتى يدمي جوارحه في الميدان الكبير، وعلى مقربة منه البائع الذي لا يقسم بالله إلا كاذباً.

ثم ماذا؟

ثم العرج والمجاذيب والطالبون من الله. فإذا جن الليل لا تعدم داراً يرن فيها النشيد الخالد:

املأ لي الأقداح صرفاً   واسقيها للصَّباح

هذا الجمال الساحر يريد رجل مثل مصطفى أتاتورك أن يمحوه بجرة قلم.

جريدة (الزمان) 19 نوفمبر 1935

المـــرأة المصريـــة

في الأوروبيين كتاب ثقلاء أو قل جهلاء، ولكن المشهور عنهم أنهم مختصون بالكتابة عن الحياة الشرقية وتنشر مقالاتهم في كبريات الصحف يطالعها القراء بإعجاب... والحق أن ليس لهؤلاء الكتاب أقل معرفة بالحياة الشرقية، وحسب أمرهم الإقامة بضعة أيام في أحد فنادق القاهرة، أو تونس، أو مراكش ليقول إنه عرف الشرق، أو المرأة الشرقية، يستوحي خياله الفارغ، ويكتب عن قصور دخلها ونساء تصيدنه ليتمتعن بطلعته الجميلة، ويصف سراديب سرية تحت الأرض، وآباراً أعدت لدفن المعاشيق، ومؤامرات شيطانية ترتعد لها الفرائص. وكيف نجا هو منها وراح يكتب قصته إلى جريدة «الجرنال» أو «جرانجوار» وهكذا لا يوجد في مخيلة الكتاب أو القراء الأوروبيين إلا كل صورة سمجة كريهة عن الشرق.

من مدة غير بعيدة نشرت «جرانجوار» فصولاً لأحد الكتاب عن حياة المرأة المصرية كلها كذب وافتراء. وقد ثارت لها الصحف المصرية، وطالبت الحكومة بمنع دخول تلك الجريدة إلى مصر. ولا نعيد هنا شيئاً مما نشرته «جرانجوار» فقد تكفل المصريون والمصريات بالرد عليه. إلا أننا نرى القراء في تونس، وهم المتصلون بالصحف الفرنسية أكثر من غيرهم من الشرقيين نراهم في حاجة إلى الوقوف على حالة شقيقتهم المرأة المصرية، وأين درجتها من سلم الرقي.

المرأة المصرية رشيقة بطبعها، نزاعة إلى الحركة والحرية، تنشر في بيتها سحابة من الأنس والسعادة لم يطمس الحجاب اشراقها، ولم تحجب الأمية

والجهل ما في طبيعتها من الانطلاق والمرح، لا فرق في ذلك بين ساكنة المدينة والريفية السافرة حتى أن أحد الفقهاء المشهورين يقول: «من لم يتزوج بمصرية فليس بمحصن».

وبهذه المزايا الطبيعية كانت مستعدة دائمًا للتفوق في كل مضمار إذا أتيحت لها الفرصة. كان الأدب أليق الفنون بامرأة محجبة فرأينا عائشة التيمورية وملك ناصف «باحثة البادية» تكاتفان فحول الشعراء والكتاب بسهولة مدهشة. وكانت من خير الأمثلة للمرأة الراقية العفة والزوج الصالحة. ومثل هاتين السيدتين تشجعان أشد الناس غلواً في الرجعية على الزج بابنته إلى ميادين العلم فكرت بعدهما زرافات من الجنس اللطيف كل منهن نجم يتألق وحده في سماء مصر. ونعرف أن رجلاً كالمرحوم المنفلوطي كان يعد أكبر كاتب في مصر لحلاوة أسلوبه وتنسيق أفكاره. هذا الأسلوب الحلو، والأفكار المنسقة تجدهما اليوم في خطاب أي فتاة عادية، بل خرجت الفتاة عن المستوى العادي إلى النبوغ الشخصي، كما ترى في شعر الآنسة سهير القلماوي وغيرها.

على أن مجرد الإلمام بالقراءة والكتابة يدفع الأذكياء إلى ميدان آخر غير الشعر والأدب، اليوم نرى النسوة يزاولن كل عمل، والكثيرات اليوم يتقدمن إلى الوظائف حتى أن الشبان يخشون أن يغمرهم ذلك السيل الجارف من النساء. وهناك مسألة المنافسة التي ستكون السبب الأكبر في اندفاع المرأة المصرية إلى النضال في الحياة، ويكفي لإثارة هذه المنافسة أن تظهر فتاة مثل نعيمة الأيوبي في عالم المحاماة، وفتاة مثل لطيفة النادي تمتطي متن الطيارة وتسجل اسمها مع رجال الجو. هذا عدا من احترفن الصحافة، عربية وفرنسية، ومن حملن ديبلومات الطب والتعليم، وسوف لا نلبث كثيراً حتى نرى المئات من هذه الأنواع.

ولا يقال أن المرأة المصرية وصلت لهذه المنزلة بعد أن قاومت الرجل وانتزعت حقوقها من يده، ولكن الرجل أفسح لها الطريق من تلقاء نفسه، ومدها بالمساعدة الكافية بعد أن اقتنع بوجوب تعليمها في عصر كهذا العصر.

وقد نعلم أن المرأة المصرية اليوم أقوى دعامة يرتكز عليهـا الصرح الاقتصادي والسياسي، فكيان الوفد المصري نفسه قائم بشخصية السيدة صفية زغلول أكثر مما هو قائم بشخصية مصطفى النحاس، وما من دعوة إلى مشروع عمراني أوخيري إلا وتكون المرأة بوقها الصارخ، وكانت دائمًا مباركة ميمونة على كل حركة شاركت فيها.

كل هذا يتعامى عنه اخواننا المتحذلقون، ويمسكـون أقلامهم كـأنهم الملائكة التي تسجل على الناس السعادة والشقاء، وتقدر قيمهم وأعمارهـم وأوزارهم فيصورون مصر بلدة السحر، وبغداد بلد المغاور والمواخير. . . وتونس هذه معروفة لكثيرات من القارئات الباريسيات أنها بلد يحتجب رجالها في البيوت وتخرج نساؤها لكسب العيش، والله أعلم.

جريدة (الزمان) 23 جانفي 1934

الــزار في مصــر

طب روحاني يشفي أمراض الجنون والعشق والآلام العصبية. أُحدثك عن سر دفين في الديار المصرية ولا يقف عليه غير النساء والأطفال.

الزار طريقة كبرى يندمج فيها عدد عظيم من الجنس اللطيف، فيهن الكثيرات من نساء الوزراء والأعيان، ومن المتعلمات اللاتي يستبد بهن الإيمان بالخرافات ولكن هذا هو الواقع.

للزار شيخة تقوم مقام شيخ الطريقة العيساوية، أو الرفاعية، وتسمى الكودية. وهي امرأة مسترجلة ترتدي ملابس الرجال ذات صوت غليظ، وملامح خشنة. ولها على الآنسات والشابات سلطان عظيم لا يتمتع به رجل، وهي تخصص في دارها الواسعة يوماً في الأسبوع لإقامة حفلة زار عمومية يحضرها الخاص والعام من النساء وأما سائر الأيام فهي للاستشارات الطبية، وتشخيص أحوال المريضات، وصاحبات الأوجاع والأوصاب. وأمراض النساء لا تحصى فمنهن من يضيق صدرها بعشرة زوجها وأخرى لا تبلغ مشتهاها في الحياة فتتوتر أعصابها وتسوء حالتها البدنية، وهؤلاء يتبعهن غيرهن من المصابات بأمراض عضوية لا يشفيها إلا الطب، ولكنهم يفضلن «الكودية» على الطبيب ويعملن بإشارتها. وطريقة الاستشارة هي أن تحمل المريضة للكودية شيئاً من ملابسها التي تباشر جسمها، وهذه تبيتها تحت رأسها طول الليل لتخبر المريضة في الصباح عما ظهر لها في الرؤيا من العلاج وليس العلاج عقاقير أو حشايش وإنما هو دجاج، وأرانب، وإوز، وبط، وخراف، وبقر.

ويعتقد نساء مصر أن معظم الأمراض تحدث بفعل الجن، ويسمينهم أدبا واحتراماً (الأسياد)، ثم يعتقدن أن (الكودية) تملك رقاب هؤلاء الجن، وتتصرف فيهم كيف شاءت. ولهؤلاء الأسياد أسماء معدودة منها المذكر والمؤنث، ولكل منهم نشيد يعزف له لترقص عليه المريضة أو (تمدح) كما يقولون. كما أن له ملابس خاصة وأدوات لا غنى عنها. فإذا ولية الله الكودية وضعت تحت رأسها كمية من المناديل والجوارب، والسراويل، والفانلات أفاقت الصباح، وأخبرت صاحبة كل قطعة بالدواء الذي يتناسب مع مقدرتها (المالية)، فتقول المريضة أن الأسياد يطلبون إليك أن تذبحي دجاجة سوداء، أو أربعة أرانب بيضاء، أو خروفاً أحمر اللون، وربما طلب أحد الأسياد كل أنواع الطيور واللحوم تذبح قرباناً له في محفل عظيم يقوم له خاصة.

وأعظم أنواع الحفلات ويسمونها حفلة سلطانية تبدأ بعد العشاء هادئة، ويكتفون فيها بنصب هيكل من قضبان الحديد على شكل القبة المستطيلة تغطى بغطاء من حرير أحمر مزركش بالقصب، وتوضع في قمته باقة كبيرة من الأزهار تغرس فيها الشموع الموقدة، وتحت هذا الهيكل توجد صينية موقرة بالحلويات اللطيفة واللبان والعطور، ويوضع هذا الهيكل في وسط حوش البيت الذي يسمى ميدان الزار، وتمضي المريضة ليلتها بجانبه هي وقريبتها وصاحباتها، وفي تلك الليلة تذهب إلى دار الكودية كل الحيوانات، وربما أمرت الكودية بذبح شيء منها إذا لم يكن عندها عشاء مناسب، والمفهوم أن هذه الحيوانات تذبح وتلقى في البحر، ولا يجوز أكلها، ولكن الواقع أن الكودية تتمتع بها أو تبيعها، ومعظم الكوديات ضخمات الجسم لا يستطعن النهوض من الأرض، وكذلك أقارب الكودية ومن يعيش معها في الدار، وربما المريضة على الأرض بلا عشاء، وقدور الكودية تفور بالدجاج ولحم الخراف، والصحون توزع على الجيران والمعارف، وفي مقدمتهم عسكري النقطة والخفير، وشيخ الحارة، وفي الغالب يكون هذا الأخير متزوجاً بالكودية ليكون واسطة خير بينها وبين البوليس، إذ أن الزار معدود من الأصوات المقلقة للراحة وتمنع بتاتاً. فإذا أصبح الصباح تواردت المركبات الضخمة، ونزلت السيّدات زرافات ووحداناً، وجلست الكودية

بملابسها الرسمية في كل إصبع من يديها عدة خواتم، وعلى رأسها عصابة كالعمامة الصغيرة، وفي الغالب تكون برنزية الوجه، أوزنجية سوداء فتدخل عليها السيدة النبيلة المنعمة جاثية على ركبتيها، وتقبل يديها ثم فخذيها، وهذه تضمها بين ذراعيها ضمة امرأة فاجرة مغتلمة كأنها فتى في شرخ شبابه يرى النساء لأول مرة. وهكذا تفعل مع كل زائرة وقد اصطفت الضاربات على الطبول وهن خمس من الزنجيات في حجر كل منهم دربوكة ضخمة قطرها خمسون سنتيمتراً تدوي كالرعد، وبجانبهن أخرى بيدها بندير، أما الكودية فتحمل الرق ولا يوجد آلات موسيقية غير ذلك، ويطلق البخور، وتوقد الشموع وعلى رائحة الجاوي والعود والصندل تبدأ الضاربات. وهنا ترى العجب حيث تتشنج أعصاب الزائرات ويرتمين مغشياً عليهن، ثم ينهضن وهن يرقصن على دق الطبول رغم إرادتهن وإن كانت فيهن من يتكلفن الإغماء والهذيان رغبة في الرقص واللعب.

قلنا إن للعفاريت أو (الأسياد) أسماءً وأناشيد خاصة بكل منهم، فالعفريت الذي يلبس السيدات الجميلات والشابات الأنيقات يسمونه «يوسف»، وله من الملابس عباءة من القطيفة الخضراء، وطربوش منقوش بالذهب والفضة، وعصا محجلة بجلبات وجلاجل فضية، وهذه الملابس تحضرها المريضة بناء على إشارة الكودية. وهذا هو نشيد يوسف:

يوسف يا بابا ـ يا باباية
تدلع يا يوسف ـ بالعباية

أما الكهلات والمحتشمات فيركبهن عفاريت تليق بهن، وأحدهم اسمه «همشري» ونشيده:

«همشري سلطان اليمن
همشري جاي من عدن»

والآخر سوداني اسمه «ساريدية» ونشيده:

«ســاريــديــة ويــا ويــا
ســاريــديــة سمكــة حيــة»

ومن الأسياد الإناث «سفينة» وهي تصحب دائمًا اللاتي أنهكهن المرض وأقعدهن عن الرقص والاهتزاز، وصاحبة هذه العفريتة ترقص وهي نائمة على الأرض تتقلب يميناً وشمالاً تحت ملاءة فرش كبيرة، ممسوكة بين أيدي أربعة من النساء، وتحت هذه الملاءة من الماء تقلب فيه المريضة وجهها إذا شاءت وأما نشيدها فهذا مطلعه:

«سفينــة في البحــر عــوامــة
يا بطلة يا خفة يا غرقانة...»

وغير سفينة توجد أسماء أخرى منهن السيدة المنوبية المعروفة في تونس فإنها تحتل هناك المقام الأسمى في قلوب غاويات الزار، ولا تجرؤ على الانتساب إليها امرأة خليعة أو مداعبة لعلمهن ان هذه السيدة «مغربية» والمغاربة أصحاب مزاج حاد لا يقبلون المزح ولا المداعبة.

جريدة (الزمان) 13 فيفري 1933

الـــوجـــوه

وجه أعزك الله أراه فأتهلل وأود أن أقبله، وآسف إذا مضى وأشاح عني ولم يلتفت إلي. . .

ووجه استرذل صاحبه لأنه وجه متكبر، أناني، متغافل، مصعر الخد، وهو مع ذلك وجه حمار لا يستحق النظر إليه.

ووجه أسأل الله له العافية لأنه مضحك وقبيح في آن واحد، ولكن صاحبه يريد أن يكون امبراطوراً.

ووجه استحسنه ولكن لأصفعه فقط.

ووجه لو علمت أنه سيلقاني في كل يوم لحبست نفسي في السجن عامين كاملين، والسجن أخف وأحب إلي من النظر إليه.

ووجه أدفع كل ما أملك من طريف وتالد لأبصق عليه في جميع المحافل.

ووجه أهاب إدامة النظر إليه من الجلال والعظمة.

ووجه أقتحمه بنظراتي ولا أبالي.

ووجه أجد لذة في فحص ملامحه كوجه المسمى (كان) ولك أن تفهم أنه الكلب. . .

وهنـاك وجه آخـر يستولي عـلى مشاعـري ولا أستطيـع وصفـه جملة ولا تفصيلاً: هو وجه المرأة التي أحبها.

والوجه الأخير،

هو وجه لا تعرفه إن كان ذكياً أو غبياً، أو مخلصاً، أو وفياً، أو جميلاً، أو قبيحاً، هو وجهي أنا.

جريدة (الزمان) 13 أفريل 1933

كيفية السلام عند الشعوب

في البرازيل يحيون بواسطة إلصاق البطن بالبطن، والانجليزي يحيي برشاقة يهز اليد مرة واحدة، ويزيد عليه الشرقي بوضع اليد على الرأس لمبدأ السلام، أوعلى الصدر وهي إشارة تركية. وكانت بعض الأمم في القرون الوسطى تحيي بالعناق. فإذا حيا أحد صاحبه وكان من علية القوم عانقه، ثم نظر إليه لحظة ثم يضع يده على كتفه ويحك بالأخرى جبهته. ويقرب من هذا طريقة التحية في تونس. ولا تزال عادة تقبيل اليد شائعة في السويد، وألمانيا، والنمسا، وبولونيا، وروسيا، والمجر، ولكنها تكون في الصالونات وهي اليوم في الشرق قاصرة على شيوخ المساجد والآباء، وقلما توجد في الشوارع كما كان الحال من أمد بعيد.

وإذا حيا الصيني أو الياباني انطرح على وجهه في الأرض ليظهر احترامه، وإذا حيا أحدهم عظيمًا ركع تسع ركعات. ومن أغرب عادات التحية عند سود أستراليا أنهم يتأخرون للوراء ويتمرغون في التراب إذا أقبل عليهم مولاهم.

وفي اسكاندينافيا ينحني الرجل ويخلع قبعته مهما كان البرد شديداً، أو يتنحى على الطريق حتى يمر الذي يحييه، وأما التحية المضحكة فهي في الهند الهولندية حيث توجد قبيلة تدعى توداس ينطرح أحدهم أمام زائره ويتركه يلمس جبهته بإبهام رجله.

ومن هذا القبيل تحية أهل التيبت حيث يخرج أحدهم لسانه إلى أقصى ما يمكنه، ويعرك بيده أذنه اليسرى ولا يفعل ذلك إلا مع الأكابر. والتحية

بالتقبيل شائعة جداً في هذا العصر، وفي فرنسا يكثر رؤية التقبيل في الشوارع بين الرجل والمرأة والطريف في الأمر أن التقبيل مستقبح بين الرجل والرجل، إلا بين الأقارب ساعة السفر أو نحوه.

جريدة (الزمان) 12 فيفري 1933

واخـــجـــلاه

يوم الجمعة الماضي مر فوق رؤوسنا سرب من الطيارات مؤلف من 28 طيارة كانت تحلق فوق مجاهل الصحراء، وعادت بعد أن أنجزت مهمتها، وهي في طريقها إلى فرنسا.

وقد زينت المدينة كلها بالأعلام الفرنسية واحتفل بالطيارين أيما احتفال.

وهذا السرب في السماء وكل واقف على وجه الأرض يتطلع إليه ويرفع رأسه، ولكنني أطرقت منكساً رأسي إلى الأرض خجلاً وصَغاراً. لا حسداً للراكبين على متن الريح، فهم إخواننا الذين قد يجودون بأرواحهم الغالية للدفاع عنا في يوم قريب أو بعيد. ولكن نكست رأسي لأني من أمة لا نصيب لها في شيء من المجد في هذا الزمن. ولا يفيدنا أن نتذكر أننا عـابرو مضيق طارق، وبناة قصر الحمراء، فليس ماضينا مما نفخر به على غيرنا، وإنما نحن في حاضر ليس لنا فيه شيء غير أننا عالة على البشرية.

وهذا الطيران حفظك الله ــ الذي يقضي على أرواح المئات والألوف من الشبان الطيارين في سبيل تحسينه ورقيه، وفي سبيل زيادة السرعة عشرة أمتار عن سرعة الأمس قد وقفنا أمامه متفرجين وفي أبداننا أيدٍ مرهفة وذقون مزخرفة. يقول عالمنا الأجل ــ لا رضي الله عنه ــ إن سرعة المشي في الطريق مسقطة للكرامة الشخصية. وما دام عالمنا لا أكثر الله مثله يعلمنا طرق الاستنجاء وغسل الأستاه بالماء الطهور فقد ارتفعنا إلى عليين، ولا حاجة لنا بحركة لا تنفعنا.

قالوا اتركوا التفكير في الطيران والبخار، ولا تعرضوا لأخطار الماكينات، ولا تجهدوا رؤوسكم إلا بسماع وترٍ حنون من يد جارية كعوب. بل قال عالمنا

قولاً يحفظه الناس عنه هو أنه يريد أن يرى ولده، وفلذة كبده يعتقد أن القمر الذي في السماء كان زنجية غضب عليها سيدها، فشنقها وأرسلها تسبح في السماء إلى يوم يبعثون، وكانت طبقة الأعيان والكبراء من عهد قريب يضربون أولادهم إذا رأوا في أيديهم غير دلائل الخيرات. وقد حبسوا حرية الطفولة كما حبس آباؤهم حريتهم، ومشوا مكتوفي الأيدي مطبقي الأفواه، ينظرون إلى كل شيء في حياء وتراخ كنظرة المرأة الخجولة. يخشون النسيم إذا هب، والفأر إذا دب. وهكذا سيكون أطفالهم وأحفادهم إلى ما شاءوا في استبداد قاتل، وانكماش يزري بالحيوان قبل الإنسان.

أقسم لك أن هذه الطيارات وتلك المخترعات التي سخرت الطبيعة لسكان الأرض لم تكن إلا نتيجة الحرية الشخصية والفكرية، وانطلاق أعضاء الجسم حيث تتفتح البصيرة من الصغر على كل شيء، ولا تجد أمامها مارداً من الجن يطمسها ويزأر في وجهها.

وكم اكتشف الطفل وهو يلعب بالأوراق والأخشاب عجائب من الفنون والصناعات التفت إليها، ووفر عقله على الاستفادة منها، ووجد أمامه من يصفق له ويحني الرأس إجلالاً وإعجاباً فخرج من اللعب إلى الجد، وتحول عن العبث بالأوراق والخيوط إلى العبث بالحديد يطير فوق السحاب.

ومع هذا فقومي أبرع خلق الله في تصعير الخد وثقل الخطوة، يأكل بعضهم بعضاً لكلمة تقال أو إشارة تبدو. ووالله إني ليخجلني النظر إلى الأبرة كيف صنعت وإلى المصباح «السبريتو»[1] كيف طرق، ولِلِحِمَ، فما بالك يا هذا بالطائرات فوق رأسي.

ما يسليني؟ أمامي طريقان: أحدهما أن أقيم في المسجد أذاكر أهله في مناقب الأولياء، والتعزي بما كتب لنا في جنات عدن، وأنام قرير العين أحلم بالحور والولدان، وكثبان اللؤلؤ والمرجان، والثاني أن أشارك المحتفلين في موائد الشراب، أكرع من نبيذهم ومدامتهم إلى أن أحمل إلى بيتي فاقد الرشد، لا أهتمُّ بمن في الأرض ولا من في السماء. جريدة (الزمان) 19 ديسمبر 1933

(1) المصباح الذي يوقد بالكحول.

الأمـــم الصغـــيرة

كلما سألت هنا أحد المفكرين عن أسباب الانحطاط الغارقة فيه هذه الأمة أجابك: إن عددنا لا يتجاوز المليونين والنصف مليون، فلا وسيلة لنا في التقدم والسير بجانب الأمم الكبيرة.

ويضيف آخرون إلى هذه القلة سبباً آخر وهو فقر البلاد الطبيعي، لأنها تعيش على المطر، ولا تنتج إلا أصنافاً معدودة من المواد الغذائية، فقلة العدد والفقر هما السبب في تأخر الأمة التونسية كما يقول. أما وأن قلة العدد أو كثرته سبب للرقي والتقدم لكانتْ الصين أو الهند سيدة العالم، لأن عدد كل واحدة منها يتجاوز الثلاثمائة مليون نسمة. أما الثروة فتوجد تحت أقدام الزنوج أكثر مما توجد في الشعوب المتحضرة. وقل لي أين توجد مناجم الذهب، والغابات الواسعة لزراعة الكاوتش والنباتات الصالحة للصناعة؟. كل هذا مكانه في البلاد التي لم تعرف معنى الرقي ولا المدنية. وهناك شعوب عددها مئات الملايين، وترابها التبر وحصباؤها اللؤلؤ ولم تفدها كثرتها، ولا ثروتها، ولم تحمها هذه القوة من أن تكون مدداً لغيرها وغذاءً لمن يغشاها، وانظر الآن في خريطة العالم تر أقاليم صغيرة لا تبلغ تونس في المساحة ولا عدد السكان ولا الثروة الطبيعية، وهي تُحسب في عداد البلدان المتقدمة، وشعوبها أرقى شعوب العالم. فهذه إيرلندا مثلاً لا ينكر أحد أنها أمة صغيرة الرقعة، وقليلة العدد وهي فوق ذلك تتّقى وتحترم، والذي يتقيها ويحترمها انجلترا بجلالة قدرها وضخامة عدتها وعددها.

وكثير من مثل إيرلندا كألبانيا والدول الصغيرة التي انسلخت عن

الروسيا، قد تجد فيها نوابغ وعلماء يستفيد العالم أجمع من معارفهم، ويقومون إعلاناً عن أمتهم لا ينساه الناس مدى الدهر.

القلة والكثرة والغنى والفقر، لا دخل لكل ذلك في تقدم الأمة وتأخرها إنما العماد كله على الأخلاق، ولا تحسبني أيها القارىء أعِظك الوعظ الثقيل على النفس، أو أسطر هذه الأسطر لأثبت لك تقواي وورعي، ولكني أقول «الأخلاق» وهي كلمة لا تفِي بالتعبير عن مدلولها، ولا تفسرها إلا المجلدات الضخمة. الأخلاق هي العالم كله يكمن في هذا الإنسان الصغير الذي يشغل حيزاً صغيراً من الفراغ وهي العظمة، والقوة، والنظام، وهي الجنة والنار، وهي الحرب والسلم، وهي الحياة والموت، هي كل شيء، فمن تجرد منها فما هُو إلّا جماد من النوع الذي لا يصلح حتى لردم البرك والمستنقعات. ماذا أختار لك أيها التونسي من قاموس الأخلاق الضخم؟ أنبهك إلى ما فيك من الأنانية الفردية التي تلحظها في نفسك وفي سائر إخوانك التونسيين، فأنت وهم منصرفون إلى منافعكم الخاصة لا يفكر أحدكم إلا في نفسه، ولا يفتأ يحتال على الرزق والسعة لشخصه وهو يتخطى أو يطأ رقاب إخوانه وكل من حوله.

الفردية ظاهرة في كل شخص هنا، تلمحها في معيشته وسلوكه وكل حركاته، حتى وهو يمشي في الطريق يهرول في ملابسه الواسعة، ولا يبالي كيف يطوح بأطراف ملابسه بما في الحوانيت من السلع المعروضة، أو كيفَ يصيب عين آخر وهو يلوح بثوبه في الهواء. وربما صادفك في الشارع الواسع في سكون الليل فوطأك بقدمه وهو لا يراك لأنه لا يريد أن يرى شيئاً غير نفسه.

يقول «أنا» والسلام.

أما عمّي عمر بن فلان وبو فلان فكلهم دخلاء أراذل يجب محوهم بيده أو بيد غيره ليبقى وحده في البلاد. هذه أخلاق الُهمج والبدو، ورثناها علم الله من قوم لا يشرفنا الانتساب إليهم. من العجب أن ترى اليوم دولاً تتألف من أكثر من عشرة عناصر مختلفة تعيش كلها تحت اسم واحد وعلم واحد. وأمة يجمعها دين واحد ولغة واحدة، وكأنها متألفة من مائة ألف جنس متعادين متباينة

أخلاقهم وطباعهم. ذلك لأن كل فرد منا يريد أن يكون وحده في كل أحواله، وخليق بمثل هذه الأمة أن تداس بالأقدام لأنه لا يوجد فيها غير «فرد» اسمه فلان. واغْمض الآن عينيك وخذ أي مخلوق في هذه البلاد، وسلْه عن بقية الأمة التونسية، يقل لك لعنة الله عليه من أمة حقيرة فليس فيها رجل واحد يقام له وزن واعتبار.

وليس هنا في تونس شخص إلاَّ ويعتقد أنه مظلوم بالإقامة في أمة حقيرة. إذن من هو العظيم؟ من هو المخلص؟ من هو الكامل؟. كلهم لا شك حقير بشهادة الآخرين من بني جلدته. وعلىَ هذا تستوي الكثرة والقلة، والفقر والغنى، فلو كانت الأمة التونسية ألف مليون نسمة تمشي على مناجم الذهب وهي على هذه الأخلاق لما كانت أسعد حالاً مما هي عليه.

جريدة (الزمان) 16 أكتوبر 1934

في (الجلاز)[1]

رؤيا رأيتها متضاعفة في العمق عمق الحلم وعمق القبر. رأيتني ميتاً أسكن قبراً في هذه المقبرة القديمة الواسعة، وإذا بها حفل من مجتمعات الدنيا تضم كل معلوم ومجهول من سكان تونس، وكلهم قد ظهر على حقيقته وعري من الثوب الذي كان يعيش به مستتراً في الدنيا. ومن العجب أن ساكن كل قبر يستطيع الاتصال بالآخرين ومحادثتهم ورؤيتهم كأنهم في ناد واحد حول مائدة، والأعجب من ذلك أنني رأيت بعض الأحياء الذين يعيشون اليوم بين ظهرانينا، ولكل منهم قبره المعد له من هذه الأرض وكأن الموت تعجّلهم، أو أرسل أشخاصاً أخرى من أشخاصهم تحل محلهم إلى أن تحضر النسخ الأصيلة.

قال الرئيس وهو سيدي أبو الحسن[2]:

ـ أيها الناس لم أدفن معكم في الحقيقة، ولكن ضريحي هذا الضخم بني لي لأزوركم من آونة لأخرى، وأذاكركم فيما أنتم فيه.

لقد تبين لكم أننا لا نموت موتاً كلياً، ولا زالت رفاتنا تشعر بما يحيط بها من عوالم شعوراً أدق من شعور الأحياء ذوي الحواس السليمة.

ماذا تقولون الآن؟

أتستغفرون الله؟ أم تأسفون وتندمون؟. لا هذا ولا ذاك ينفع. لقد أصبح عمل كل منكم مكشوفاً أمامه معلقاً في عنقه يفقهه بعينيه، فلا كلام لكم غير

(1) المقبرة الكبرى لعاصمة تونس.

(2) أبو الحسن الشاذلي الولي المعروف، ويوجد مقامه بهذه المقبرة.

الحق، ولا سبيل لأحدكم غير الاعتراف بجرمه، وما كان يكنه في دخيلة نفسه في عالم الأحياء، وبينكم الآن وبين يوم القيامة ألوف من السنين أو القرون لا يعلمها غير الله فتكلموا لعلكم تقطعون بعض هذه المدة الطويلة كما يقطع الراكب السفر بالحديث.

فنهض رجل حسن الهيئة وقال للرئيس لقد كنت أعيش في تونس قاطعاً للطريق إبان كانت الفوضى ضاربة أطنابها، وكنت أباشر عملي في وضح النهار فأسلب من الخادم ما يحمله للسادة من اللحم والخضر. وأسطو على المار فأنزع عمامته أو برنسه حتى أصبح طريقي كمغارة الأسود يتحاشاه الناس، واشتهر اسمي عند الخاص والعام وعرفني الناس من وجهي. ومع هذا كله فقد غفر الله لي لحسناتٍ خفيفة أسلفتها في آخر أيامي وذلك لصراحتي في لصوصيتي. كنت لصاً ولم أقل للناس أني فقيه أو حكيم أو رسول رحمة أرسل لهم. وأبغض الذنوب إلى الله الرياء والنفاق. وها أنا أرأس طائفة كبيرة من مجرمين كانوا يجرمون علناً ولا يختفون، وقد غفر الله لهم جميعاً.

وفي هذه اللحظة انبعث شهيق مخيف وزفرات مقلقة من جانب المقبرة فسأل الرئيس عن مصدر هذه الأصوات ونادى أصحابها فأقبل الأول يقول:

ـ لقد صدمتني الآن الحقيقة المرة ولا أعرف لي مخلَصاً. أنا، . أنا المجرم المستتر، أنا الذي عصفت بما في أيدي الفقراء من قليل الرزق، فربما كان أمام البائع الفقير بضعة سمكات لو باعها كلها لخرج بقوت عياله بعد جهد جهيد فأنزع أنا من هذه السمكات أكبرها وأغلاها ثمناً، وأنا أعلم أن ذلك يسر الرجل لأنني أفهمته من قبل بأني وكيله المُدافع عنه، والذابّ عن كيانه.

وكنت أهم يا سيدي أبو الحسن بدفع ثمن هذه السمكة. وعلم الله أنني كنت كاذباً عندما أهم بوضع يدي في جيبي، ولم يكن قصدي أن أخجل الرجل فأجده قد خجل فعلاً وأجده أكثر حياء مني فيقسم بكل يمين أن لا يأخذ ثمنها.

ثم أتركه وأمر على بائع الخضر فأفعل به ما فعلت ببائع السمك، واستمر في زيارة كل بائع في السوق حتى تمتلىء «القفة» وأعجز عن حملها، وعلم الله أن

ضميري كان يوبخني وأنا أحمل هذا الوقر الذي اغتصبته باسم الوطن والشرف والجهاد، مظاهر الدنيا كلها خلاية، والذي خلبني في تونس أن أهلها كانوا أميين لا يعرفون السياسة من التجارة، ولا يفرقون بين الزعيم الكبير واللص الحقير. وهذا يغري أغبى الناس على الصولات والجولات. وبلد هـذا حال أهله لا يكون إلا كالخزينة المملوءة بالأموال، ولكنها مفتوحة الأبواب ولا حـارس عليها، وما زال الشيطان يفتح أمام اللصوص كل كنز خاف عن أعين الآخرين.

أبو الحسن:

ــ ولماذا لم تعلن صراحة في الدنيا أنك لص لتنجو كما نجا هذا الرجل الذي تقدمك في الكلام؟.

ــ الذنب راجع للقلم فقد كنت أحسن الكتابة باللغة العربية. وأكثر من قول «كلنا للوطن» و«كلنا للتضحية» و«تونس فوق الجميع» ووجدت من هذا القلم عباءة تسترني فتلفَّعت بها وليتني كنت أمياً يقبض عليَّ البوليس كما يقبض على باقي المجرمين فأنال عقابـي في الدنيا وأستريح في القبر، ولكن البوليس كان صديقي، وهذا ما لم أصرح به إلا في هذه الساعة.

ولم يكد هذا الرجل يفرغ من اعترافه حتى تقدم بعده آخر يقول:

ــ لعن الله الأقلام وحاملها فقد تبين لي الآن أنها التي أغرتنا على الظهور بمظهر الأشراف، أنا أيضاً من حملة الأقلام. ولم أكن أحمل القلم بإرادتي ولكنها إرادة الله وإرادة الله لا تقاوم، وكأن حمل القلم كان قضاء كتب على جبيني، ولولاه لظهرت على حقيقتي ونجا الناس من شرِّي، وأصبحت مسؤولاً عن جرمي أمام الله وحده أنا يا سيدي أبا الحسن لص كنت أشد خطراً من صاحبـي هذا الذي تقدمني للكلام. إنه ينتزع أرزاق الباعة علناً، وكان لهم الخيار في أن يعطوه أو يحرموه. أما أنا فقد كنت أسرق خفية ولا يعلم صاحب السرقة إلى هذه الساعة من هو الذي سرقه. وأقص عليك الآن إحدى حوادثي.

في سنة ماضية سافرت إلى (باريس) مدينة النور فالتقيت بشاب تونسي أوفدته إحدى الهيئات التونسية ليطبع نشرة صغيرة يظنون أنها تنفعهم في شؤونهم

الدنيوية، وقد جمعوا لهم من المال مبلغ 800 فرنكاً انتزعوها من أقواتهم، ومثل هذا الرقم يفتت الأكباد إذا علمت أنه كل ما في جهد أمة ترسل رسولاً إلى أوروبا ليدافع عن قضيتها بهذه الدريهمات فتغفلت الفتى وهو نائم، واختلست من جيبه المحفظة التي كانت تحوي هذه النقود، وتركته يتخبط في التفتيش عن السارق إلى هذه الساعة، والذي آسف له أننا عقدت في الليلة التالية لسرقة المحفظة في حفلة غناء وسكر وعربدة أنا وإخواني إلى الصباح. نعم آسف لهذا لأن الشاب وقع في حيص بيص واتهم باختلاس المبلغ لنفسه، هذا فضلاً عما قاساه من ألم الجوع والتشرد في (باريس) لأنني لم أترك في جيبه صنتيًا واحداً، هذه إرادة الله وإرادة الله لا تقاوم.

فانتفض أبو الحسن غاضباً وقال:

ــ بل هي إرادتك أيها المنحوس أنا لا أزال أرى على صدغيك آثار الضرب واللطم من إرادة الله.

ــ لست أنا المضروب وإنما هو رجل آخر من غير طبقة اللصوص ولكنه عمي بإرادة الله واندس مع أصحاب الأقلام.

ــ وإذن لماذا تكون السرقة إرادة الله، والعدل والقصاص ليسا من إرادته.

فظهر الخزي على وجه المجرم وذهب إلى قبره وتقدم آخر سحنته طويلة كسحنة التمساح يقول:

أنـا ابن التي مـاتت وكنت لقبـــرها

وفياً . . . .

فقاطعه أبو الحسن وقال لا تنظم الشعر يا هذا فهنا دار حقائق لا دار موسيقى وأوزان، ونظم، وألحان. ما خطيئتك؟

فتنهد وقال:

ــ لقد كنت أشد الجماعة خطراً فهم كانوا يتملقون الناس بأقلامهم،

ويسمعونهم عبارات الوطنية والغيرة بألفاظ عفة وعبارات محتشمة، أما أنا فكنت أواجههم بالبذاءة وأرميهم بالمروق من الوطنية وبيع العباد والبلاد لا غيرة على الحق، ولكن طمعاً في مقاسمتهم أموالهم وما كانت الجرائد في ذلك الزمن تعيش من غير هذا الطريق ولاحت لي فرصة أردت فيها التكفير على كل هذه الذنوب وهي فرصة موت والدتي التي منعتني يا أبا الحسن عن نظم الشعر فيها. لقد أردت تكريمها والتنويه بقبرها. .

فقاطعه أبو الحسن أيضاً وقال:

ــ دعها تحضر الآن إن كنت صادقاً فجعل طويل الوجه ينادي يا أماه، فلم يجبه مجيب.

فقال أبو الحسن:

ــ هل علمت خطأك؟ لقد بكيت على قبر غير قبرها، واتخذت من موتها مهرجاناً تعلن به عن نفسك، وإنك يا هذا لأعجب من رأيت من الدجالين، فكلهم يعترف بجرمه في هذا العالم الآخر، أما أنت فلا تزال مصراً على البهتان حيث لا ينفع الكذب والبهتان.

وعلت من كل مكان في المقبرة أصوات مخيفة مزعجة كأنها صلصلة السيوف وقعقعة الأسلحة، فانتبهت من نومي إذا بهذه الضجة صادرة من (برويطة) المجلس البلدي التي تمر أمام نافذتي فأحدثت لي هذه الرؤيا وحمدت الله على النجاة من سكنى القبور ولو إلى حين.

جريدة (الزمان) 6 فيفري 1934

12 فيفري 1934



مقـــالاتـــه الأدبـــيـــة



كيف ننظر إلى الأدب

أرسل إلي صحفي ـ لا يشتغل الآن بالصحافة ـ رسالة شفوية مع صديق يقول لي: إذا كتبتَ فابتعد عن السفاسف. قلت: وماذا يعني بالسفاسف؟ فقال كتاباتك مرة عن الحمالين ومرة عن الحجامين. فما لهذا يحمل الكتاب أقلامهم. وما لهذا خلق الأدب.

هذا الناصح على ما هو عليه من جهل وبلاهة يعد مثلاً للكثيرين الذين تسجلت أسماؤهم في قائمة الكتّاب والأدباء، لما يعرفونه من تراكيب مزخرفة بالألفاظ الفصيحة، ولما ينظمونه من أشعار تفيض بالمعاني الجميلة. وهم ببضاعتهم هذه في عزلة عن الحياة والعالم كله لأنهم يعتقدون أن الأدب فرع بعيد عن فروع الحياة، وليس للكاتب أن يتصل بالتاجر ولا الشاعر أن يندمج مع العامل، حتى أصبح الكتاب والشعراء والعلماء أجهل من الحمال والحجام. وأقسم أن في الحمالين من يستطيع أن يقص عليك شؤون هذه الحياة، بعبارات فصيحة، وأسلوب أدبي لا ينقصه إلا ألفاظ القاموس ويؤدي أغراضه الكلامية أداء يعجز عنه صاحب العمامة المكورة والنظارة المنحدرة على أنفه، والذي يرسل يده الناعمة لكل إنسان ليضع عليها قبلة.

أرجّح أن السبب في خلق هذه الطائفة المتعاقلة راجع إلى لغتنا العربية المحصورة في القواميس. فالذي يلم ببعض ألفاظها أو قوانينها، يحسب أنه قبض على كل شيء، ويمشي بجميع إرادته كيلا يسمعها العامة من حمالين ونجارين وتجار... ولو كانت العربية الفصحى عامة كما كانت في عصرها الجاهلي، لما وجد الأدعياء مجالاً لدعوى العلم والرئاسة أو لعرف العامة اليوم مقدار جهل

السادة الأدباء المستترين خلف محفوظاتهم من اللغة، وأشعارها ولما قرؤا لهم رقعة مكتوبة أو جريدة مطبوعة.

وبعد فما هو الإسفاف الذي ينصح إلينا الشيخ الكبير بالابتعاد عنه؟ هل هو حقاً الكتابة عن الطبقات الصغرى وأحوالها؟ وهل السمو لا يكون إلا في الكتابة عن(المجلس الكبير)، ومشروعات الأقراض وأخبار الحكام؟

قد يخفى في منظر ماسح الأحذية شتى المعاني والأوصاف إن شئت فانظم منها قصائد تبكي فيها أمة بأكملها يمثلها هذا الحقير، وإن شئت فاكتب عنها الروايات الراقية التي تخلد ذكرها على وجه الدهر. وقد تكون الكتابة في كبريات الأمور هي نفس الإسفاف والسقوط إذا كان الغرض منها حذلقة يستر بها الكاتب عيبه، أو مصلحة تنفع جيبه وكرشه. والفرق ظاهر بين الأدب الذي يزج بنفسه في أقذار المجتمع، ويدل على مصادرها ويتعرف مصائرها. وبين ذلك المروقي الذي لا يظهر إلا في حفلات الفرح والحزن ليقول كلمة منبرية حفظها من كتاب.

ليتصور شيخنا الناصح الذي يترفع عن الكتابة في موضوع الحجامين هذه الرواية الصغيرة:

الفصل الأول ــ خطب الشيخ عقيلة من أشرف البيوت ومن أجمل الفتيات وحان موعد الدخلة.

الفصل الثاني ــ ذهب الشيخ إلى الحجام فانهال على سحنته بالكشط والنتف والحك والحرث، وأدخل في مسام وجهه ملايين من مكروبات تعيش منذ شهور في إناء الصابون.

الفصل الثالث ــ بات الشيخ يعانق العروس، ثم أصبح وقد أطلت الدمامل برؤوسها الحمراء من كل ناحية في وجهه وعنقه. ثم ازدهرت، ثم انتفشت وغطتها قشور مختلفة الألوان، بعضها يسيل وبعضها خشن جاف.

الفصل الرابع ــ كرهت المرأة هذا الوجه بفطرتها، والمرأة إذا كرهت

مخلوقاً لن تعود إلى حبه، فعشقت وهي تحت حماية الشيخ شاباً من الذين قيل فيهم:

أحلَى الرجال من النساء مواقعاً   في اللثْم أشبههم بهن خدودا

الفصل الخامس ــ عاش الشيخ بقية حياته يربـي أولاداً ليسوا من صلبه، أولهم عاق شرس ينتظر موته، وثانيهم لص يسرق جبته وعمامته ليحتسي بثمنها كأساً من الخمر. والثالث مدلل خنث، يرتكب كل موبقة تنجس اسم الشيخ واسم عائلته كلها.

هذا وموسى الحلاق ماضية في خلق روايات أخرى، ولا يشعر بها أحد لأن الاشتغال بأمرها إسفاف. وعظماء الرجال يبتعدون عن الإسفاف وينصحون بالابتعاد عنه.

ليضحكن الشيخ ــ خلع الله شدقه. ليضحك إلى الأبد ــ فما قصدت إضحاكه.

جريدة (الزمان) 5 ديسمبر 1933

الـفـن القصـصـي

كيف تكتب القصة؟

كثير من القراء يطالعون القصة لا سيما المعربة، ويظنون أن الغاية منها التسلية وتضييع الوقت. وقد ينكب القارىء على القصة الشهية فيلتهمها في بضع ساعات وهي تبلغ الأربعمائة صفحة. ولكنه يخرج من القصة كما دخل، ولا يعنيه إلى أي غرض تشير ولا إلى أي غاية تقصد. ولما كان الشرق بدأ عنايته بهذا النوع من الأدب الحديث وظهر فيه كتاب ما زالوا بين القصور والتوفيق فمن المناسب أن يعرف جمهور القراء هنا ما هي القصة.

تبنىَ القصة من مواد ثلاثة إذا فهمت هذه التسمية، وهي:

الغاية التي يقصدها الكاتب من قصته. والعاطفة التي تحفزه للكتابه وتظهر حادة أو هادئة أو عادلة أو جائرة، ثم الأسلوب الذي يقدم به قصته للقراء وللمسرح. فالغاية هي أن يعرض عليك المؤلف، إما صفحة من التاريخ كنت تتلهف حسرة على أنك لم تر عصرها ولم تعاشر أهلها. كما تسمع مثلاً عن عصر المأمون أو قصور جعفر البرمكي أو يذهب بك المؤلف في الرواية إلى بلد ناءٍ تشعر بالشوق إلى زيارته ورؤية ملوكه وشعوبه، أو يكون غرضه من قصته أن يقدم أشخاصاً إما يلبسهم أبهى حلل الإنسانية، ويزفهم إليك مقربين يجعلهم أمثلة للإنسان الكامل الذي يجب أن يكون، وإما أن يمسخهم أبالسة مجرمين يعرضهم عليك بسوآتهم لتتقيهم أو لتحذر أن تكون على شاكلتهم، وفي النهاية يتوصل بهذا كله إلى معالجة مشكل اجتماعي.

والمؤلف القصصي يختار أشخاصه من الوجودين على ظهر هذه الأرض وأحياناً يخرجهم من بطنها. فإن أعوزه هذا أو ذاك اخترع من عنده ليكمل النقص الموجود في الحياة، وكلمة التكميل هنا هي الغاية التي يقصدها المؤلف في كل عمله. وللمؤلف أيضاً أن يخترع الحوادث إذا كانت حوادث الحياة لا تسايقه.

والعاطفة هي التي تحرك أشخاص القصة وتخلع عليهم الألوان البهيجة أو البغيضة، وتخلق الحوادث في القصة خيراً أكانت أو شراً. ورب مكان أو شخص يبغضه الناس بالإجماع، ولكن الكاتب يرى فيه ما لا يرى الناس فيعطف عليه ويظهر ما فيه من محاسن ضافية أو بعكس ذلك.

بقي الأسلوب الذي يعرض به الكاتب قصته وفيه تتجلى قدرته وموهبته أو قل إن القصة كلها هي الأسلوب. فأنت تعرف حوادث الحياة معرفة تامة ولا حاجة بك إلى رؤيتها مرة أخرى في كتاب أو على المسرح، ولكن الكاتب بأسلوبه يحببها إليك ويعرضها عليك عرضاً جديداً. والأسلوب وحده هو الذي يميز الكاتب عن الآخر ويصرفك عن القصة إلى الأخرى وهما من مادة واحدة.

ويتناول الأسلوب أولاً التصميم الهندسي للقصة ورسم مدخلها وعقدتها ونهايتها ثم لغتها والعبارة التي تؤدي بها. والكاتب الذي يوفق في كل ما يقدم هو الذي يبلغ قمة المجد في فن القصة. والقصة أوسع ميدان تظهر فيه الكفاءات المختلفة فبعد أن كان الأدب قاصراً على من يعرف علوم النحو البلاغة أو شيئاً من التاريخ، أصبح الأديب يخرج من المصنع والمزرعة وإصطبل الخيل، ومن عصابات اللصوص أحياناً، وكم ترى في العامة الأميين من يقص علينا حادثة رآها ولكنه لظرف حديثه ودقة ملاحظته يلعب بعقولنا ويضطرنا للإصغاء إليه وإذا به قصاص من أحسن القصاصين ولا يشعر. وبين القصاصين والقراء تزاحم خفي يشتد ويلين، فبعض الكتاب لا يثق كثيراً في ذكاء القارىء ويشفق على قصته أن تذهب عبثاً، ويخرج القارىء منها من غير أن يشعر بفكرتها فيعمد إلى التفصيل والإسهاب كإسكندر ديماس. والآخر يكتب ويترك القارىء

يفهم بنفسه ويستنتج بنفسه وهذه طريقة الكتاب الانجليز. والآن وقد أخذ كتاب الشرق يعالجون هذا الفن كما قدمنا، فمن الواجب على قراء الشرق أن يكونوا لهم يقظين منتبهين لكل جملة وحرف لا أن يضطجعوا على الزرابي ويقرأوا بنفوس فاترة وأشداق مرخاة كأنهم يستمعون لقصة فتح اليمن، والزير سالم، ورأس الغول.

جريدة (الزمان) 20 جوان 1933

الشعـــر المسرحـــي

ظهرت الروايات على مسارح مصر في الوقت الذي اختفى فيه مثل هذه الروايات في بعض المجلات المصرية، ثم تتبعت أخبارها وما كتبه النقاد عنها فإذا هي تسقط جميعاً ولا يبقى منها غير (مجنون ليلى) التي وقاها من السقوط «بلاغة» المرحوم شوقي بك، ومثلها «اندروماك» التي عاشت إلى اليوم ببلاغة راسين وحدها.

للشعر جهامة تصد عنه النفوس أحياناً. ونحن نستشعر مثل هذه الجهامة عندما نضع بين أيدينا ديواناً ضخماً كديوان البحتري، قل من يستطيع قراءته من أوله إلى آخره بالنشاط الذي يقرأ به قصة منثورة، أوكتاباً آخر. هذه الجهامة وأرجو المعذرة عن هذا التعبير يجب التخلص منها.

ويلح أن الشاعر المسرحي يجب أن يضع حداً بين الشعر الذي يفاجىء الاسماع ويختطف انتباهها، وبين الشعر الذي يتلوه القارىء من الديوان ويتأمله على مهل.

وأرى أن شعراءنا الذين قدموا الروايات للمسرح قد أولعوا «بالإجادة» والصعود بشعرهم إلى مستوى فحول الشعر العربـي، بل والتفوق عليهم. وأي إجادة؟ إجادة اللفظ والمعنى كأنما الأمر لا يتعدى نظم قصيدة تشغل القارىء أو السامع لحظة ثم تطوى. وتصبح الرواية مجموعة من الشعر «المتين» تحتاج إلى سامع مهذب، واسع الصدر يجلس أمامها ثلاث أو أربع ساعات لسماعها واستيعاب معانيها وتفهم بلاغتها. ولا يتفق لكل شاعر أن يكون له لسان شوقي أو راسين، كما لا يتفق لهذين أن تكون كل رواياتهم طلية الأسلوب، فصيحة

العبارة، وإذن تكون «الإجادة» وحدها نكبة على الرواية غير ما تنكب به من الأغلاط الأخرى التي سبق إليها مؤلفو التراجيدي، ولم يتفطنوا إليها إلا بعد أن قضت على مجهوداتهم وقد تبعهم مؤلفونا في تلك الأغلاط واحتذوا خطاهم بأمانة.

فمن ذلك توزيع الحوار على أشخاص الرواية بنسبة يأباها الذوق و«العدل» أيضاً. فالشخص الواحد يستبد بإلقاء منولوج طويل قد يزيد عن العشرين بيتاً، بينما الآخرون واقفون سكوتاً حتى يفرغ ليرد عليه أحدهم بمونولوج مثله، أو أطول منه. وفي مثل هذا الموقف يتصاعد «البواخ» في جو الرواية ويستولي الملل على السامعين، ولن ينقذ الرواية من السقوط براعة الممثلين مهما كانت فائقة.

ثم عيب آخر لعله قاصر على رواياتنا وحدها هو الفوضى في اختيار الأوزان والقوافي اللائقة بكل شخص وموقفه، وما يخوض فيه من الحديث. لأن للشعر العربي موسيقى ظاهرة تتنوع أنغامها بتنوع الأوزان. فإن لم نستطع الانتفاع بها فقدت الرواية رونقها وأجمل عنصر في زخرفها، ثم فوضى الانتقال من وزن إلى آخر عندما يشعر واضع الرواية أن شعره ثقل على السمع فينتقل إلى وزن آخر ليس بينه وين الأول صلة قرابة ولا مجاورة ويقرع الأسماع بأثقل مما كان منه.

وبعض الشعراء يقطع البيت الواحد، أو الشطرة الواحدة ويوزعها بين الأشخاص لا أقساماً مقطوعة من مفاصلها بل أشلاء مزقها كما يتفق. وهذا إهمال لا يؤبه له في ظاهر الأمر، ولكنه شناعة تظهر إذا فرضنا أن المؤلف خياط يحمل المقص بدلاً من القلم.

إنه لا مناص عن وضع أسلوب خاص للشعر المسرحي، يستقل بصياغته وتركيبه عما في شعر الدواوين. أسلوب يحتوي إشباع السمع وحده، وقد يبدو تافهاً أو سخيفاً إذا سمع ممن يجهل فن الإلقاء كما تبدو سخيفة القطعة الغنائية يلقيها شخص فج الصوت يجهل فن الغناء. هذا الأسلوب متروك لذوق الشاعر

ولا أستطيع وصفه أو تحديده لأن كل شيء مستمد من الذوق يفسده الوصف والتحديد، ويبعدانه عن الأفهام.

وننظر مرة أخرى للرواية المصرية، وفي أي ناحية وقف مؤلفها فنجده قد حشر نفسه في كل مواقفها، وكتب لأشخاصها شعره لا شعرهم، وأفكاره لا أفكارهم، وفصل لهم من عنده ما لا يتفق مع حياتهم ومواقفهم. في حين أن واجبه نسيان شخصيته والتجرد منها تماماً، والوقوف من روايته موقف الخادم المطيع الذي يؤدي ما يطلب منه. لا موقف المسيطر المستبد. وإن كانت له موهبة من فصاحة وبلاغة وقوة ممتازة فليقدم كل ذلك قرباناً لأشخاص روايته ويقف هو بعيداً ينظر مع الناظرين، ولا خوف بعد ذلك على شخصيته من الضياع، لأن العمل برمته منسوب إليه في النهاية.

وأعود فأخص واجبات الشاعر المسرحي فيما أرى. من هم أشخاصه؟ ما مواقفهم؟ بأي الكلِم يجب أن ينطقوا؟ ما وقع كل ذلك عند جمهور المستمعين؟ هل تسرب شيء من شخصيته إلى أشخاص الرواية وهو لا يشعر؟

فهذه بعض الملاحظات التي رأيت وجوب الانتباه إليها عندما سلكت هذا الطريق أعرضها ولا أفرض اتباعها على حضرات المؤلفين الذين تنفذ نظراتهم إلى أعمق مما نظرت، ويجب عليهم الذهاب في البحث إلى أبعد مما ذهبت لينتفع بآرائهم هذا الضرب الحديث في أدبنا.

جريدة (الزمان) 27 مارس 1934

كتاب «عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب» (1)

أهدي إلى (الزمان)[1] نسخة الجزءالأول من هذا الكتاب لمؤلفه المرحوم الأستاذ محمد النيفر، وهو يشتمل على تراجم مختصرة لمائة وثلاثين شاعراً نشأوا في تونس، أو أقاموا بها، وكانت تراجمهم مشتتة في مختلف المعاجم فحصرها المؤلف في هذا السفر فسهل على الباحث في تاريخ الأدب العربـي في تونس مهمة المراجعة، والتنقيب، وهذا عمل مشكور يستحق صاحبه أحسن الجزاء والشكران.

ألقينا نظرة عجلى على هذا الكتاب، حاولنا فيها الإلمام بطريقة المدونين لتأريخ الأدب العربـي، وننتهز فرصة اجتماع المائة والثلاثين شاعراً في هذا السفر فنتعرف بقدر الإمكان مبلغ اتجاه الشعر وتطوره في تونس: لا يختلف هذا الكتاب عن غيره من الكتب التي حوت تراجم الشعراء والأدباء كيتيمة الدهر وغيرها، فكل ما يقال عن الشاعر أنه أبو فلان، فلان بن فلان بن أبـي فلان كان عالماً فقيهاً وشاعراً بليغاً درس النحو على فلان، وقرأ كتاب كذا على الشيخ فلان، وهي كما ترى إشارات مبهمة لا تنتفع من يريد دراسة الشعر والشعراء دراسة وافية أو يلجأ إلى مراجع مطولة لا يظفر منها بفائدة كبرى. وبهذه الطريقة أضاع مؤرخو الآداب كثيراً من الشعراء الذين كان يجب عن الواحد منهم أن يكتب مؤلفاً مستقلاً يحصي حركاته وسكناته، ويصف عصره وبيئته من مولده إلى وفاته، فمثال من أضاعوا وضاعت أشعارهم علي بن عبدالغني الفهري الحصري، فقد ترجم له المؤلف هو وغيره من المتقدمين بأنه «كان عالماً أديباً،

(1) يعني الكاتب جريدة (الزمان) التي كان يرأس تحريرها خلال هذه الفترة.

وشاعراً مفلقاً، ولد بالقيروان ونشأ بها فطلب العلوم، وكان بحراً في البلاغة ورأساً في الصناعة». ومن قصائده السائرة القصيدة التي أوّلها:

يا ليل الصبُّ متى غده　　أقيام الساعة موعده
رقدَ السمار وأرّقه　　أسفٌ للبيْن يردّدُه

ثم يقولون بعد ذلك، إن القصيدة مشهورة، ولا داعي لإثباتها، واتفقوا كلهم على عدم إثباتها لشهرتها حتى ضاعت تماماً، ولا يعرف منها في أطول التواريخ وأدقها أكثر من عشرة أبيات، بينما القصيدة تحتوي على نيف ومائة بيت من الشعر الموسيقي الذي يحلق يسامعه إلى سماء الفرح والأريحية، وقد أتيح للكاتب أن يعثر عليها بمكتبة الإسكندرية في مجموعة خطية تغط نوماً من القرن التاسع إلى عهدنا هذا. وبرزت القصيدة إلى عالم الطباعة بعد أن طال تحرق الأدباء إليها وأسفهم على نقدها وتباريهم في تقليدها وتعويض ما غاب من محياها بأمثلة أخرى تشبهها، كما تقام التماثيل والصور للحبيب الغائب، والعظيم المنتقل إلى عالم الآخرة. فمن الذين قلدوها، ولم يستنكفوا من الجري وراءها شوقي بك، وخليل مطران، وولي الدين يكن وغيرهم من شعراء مصر وسوريا، بل نذكر أننا قرأنا شعراء في عصر الرجل نفسه يقلدون قصيدته.

أما وأننا في صدد عبدالغني فلنبسط بين يدي القراء ما ظهر لنا من قصيدته هذه لنعرف نموذجاً للشاعر السليم المزاج، الخفيف الروح، الذي استقل وحده بصفات لا توجد في غيره. فالرجل يسمعك نحو عشرين بيتاً كلها من الغزل الحار مسبوكاً في موازين موسيقية، مائلاً في ألفاظ فصيحة يكاد يلتهمها سمع الأعجمي قبل العربي مثل قوله:

هاروتُ يعنعن فنَّ السحر　　إلى عينيكَ ويسنده
وإذا أغمدتَ اللحظ قتلتَ　　فكيفَ وأنت تجرّده
بالبيْن والهجران فيا　　لفؤادي كيف تجدده

ويتخلص بعد ذلك إلى ممدوحه فيمدحه في غير سرف ولا إغراق وتهويل، فيأتي بمثل هذه الأبيات:

الحب أعفُّ ذويه أنَا غيري بالباطل يفسده
كالدهر أجل بنيه أبو عبدالرحمن محمَّده
العفّ الطاهر مئزره والحرّ الطيب مولده

ومحمد عبدالرحمن هذا سلطان (مرسية)، وقد وشي إليه بالشاعر كعادةِ أهل هذا العصر في البطش بكل نابغة متفوق. وفي ذلك يقول:

أتراك غضبت لمَا زعموا وطغَى من بحْرك مزبده
إن كنتُ سببتك فُضَّ فمي ولعنتُ برب أعبُده
حاشا أدبي وسنا حسَبي من ذم كريمٍ أحمده

ولم يكن عبدالغني من أولئك المادحين المرغين وجوههم على أعتاب الرؤساء وحجّاب الرؤساء، يلتمسون خطة أو وظيفة، ولكنه شاعر قبل كل شيء، فلم ينظم هذه القصيدة لينهب من مال الدولة ما يغنيه، بل كان يطلب بها حصيراً يفرش به بيته إذ يقول:

فابعث بمصلًّى أبسطه للضيف ليحسُن مقعده

ويكاد القلب يبكي رقة لهذا الشاعر الحلو القنوع، الذي أضاعه المؤرخون من كتاب التراجم. وكما أضاعوا مثل هذا الشاعر فقد أثبتوا في دواوينهم وكتبهم من لا يجب تخليد اسمه، ولا حسبانه في جملة الشعراء مهما أفنى حياته في النظم، ونحسب أن كتاب (عنوان الأريب) طافح بهذا النوع من الشعراء كغيره من الكتب العربية حتى الأغاني نفسه، ونحسب أن مجرد الاحتكاك بعلوم النحو والبلاغة والعروض وحفظ أشعار العرب، ثم سهولة نظم الشعر العربي كل هذا كافٍ لدفع الكثيرين إلى مزدحم الشعراء، يضاف إلى حرص المحدثين على الإكثار من الرواية وتحبير الكتب الضخمة لتقديمها للخلفاء والملوك، فكلما كثرت البضاعة كثرت المعرفة بل يضاف إلى هذا الميدان أن النقاد وعلماء الأدب ينظرون إلى الشعر نظرة خاطئة تبتدي من عصر الأصمعي وأبي عبيدة، وعمرو بن العلاء

إلى عصرنا هذا، وقد تحكموا في الشعر إلى حد ما لما لهم من سلطان على الرأي العام. وانظر إلى رأي الأصمعي في بيت المعلقة المشهور:

نظرتْ إليك لحاجة لم تقضِها   نظر المريض إلى وجوه العوَّد

قال إن البيت حسن لولا أن الشاعر هجنه بذكر العلة، ولا نظن أن الرجل مخلص في حكمه فما في البيت من حسن غير هذه العلة، حيث يصور الشاعر نظرة المرأة العاشقة تصويراً فتوغرافياً في ألفاظ مختزلة محتشمة وعبارة موجزة. ولكن مركز الأصمعي الذي كان (يدخل قصور الخلفاء ويعلم أولادهم) يقضي عليه بهذا القول، وترى عمرو ابن العلاء يقول: خُتم الشعراء با «بن هرمة»، وليس ابن هرمة في الحقيقة إلا أحد أولئك الناظمين، على أن الشعراء المطبوعين لم يأبهوا لكلام النقاد. وهذا البحتري عندما قيل له إن أبا عبيدة ينتقد شعرك قال ما لأبي عبيدة والشعر إنما يفهَم الشعر من سلك فجاجة وخاض لجاجة... بل لا نذهب بعيداً ففي كتابنا هذا رأي الفاضل ابن بسام صاحب الذخيرة في بيتين لابن وهبون الـمُرسيِ:

ما النفس إلا شعلةٌ سقطت إلى   حيثُ استقل بها الثرى والماء

حتى إذا خلصت تعود كما بدتْ   ومن الخلاص مشقةٌ وعناء

قال ابن بسام، وذهب هنا من صفة النفس إلى مذهب كلامي، يعني أن الشاعر الذي بلغ أرفع مراتب السمو كما تراه، لا يعتبره ابن بسام شعراً لا هو ولا الأبيات الآتية التي قالها ابن نوار لتكتب على قبره:

يا لَقومي دفنُوني ومضوْا   وبنوا بالطين فوقِي ما بنَوا

ليت شعري إذْ رأوني ميّتاً   وبَكوني أي جزئيَّ بكوا

أنَعوْا جسمي وقد صار إلى   مركز العفن أم النفس نعوا

ما أراهم ندبُوا فيَّ سوى   فرقة التأليفِ إن كانوا دَرَوْا

ويقول ابن بسام بعد ذكره لهذه الأبيات: «قال (بعض أهل النقد) إنه عيب في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر... أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء،

أو بألفاظ الفلاسفة القدماء، وإني لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه وذكاء قلبه فإنه أطال قرع هذا الباب، والتمرس بهذه الأسباب، وكذلك المعري كثر انتزاعه وطال إليه إيضاعه».

ونرى أن الشعر الذي عابه ابن بسام هو الشعر الإنساني الخالد الذي لا يضيره ولا يغيره أن ينقل من لغة إلى لغة، ويصبح قائله شاعراً عالمياً عربياً فقط ولم يفت الأستاذ النيفر أن يتدارك عى هذا الرجل كلامه فقال: «يظهر أن الذي ارتكبه ابن وهبون، وابن نوار، والمتنبي، والمعري وغيرهم ممن لا يحصون كثرة إلى تلك المناحي هو من سَعة العطن لا من ضيقه إلى آخر ما قال».

نعود فنقول إن سهولة النظم سوَّأ فهم الشعر، وحاجة الرواة إلى البضاعة، والملوك إلى المدح كل هذا ضاعف عدد الشعراء وضخم رقمهم زوراً وبهتاناً، ثم أسقط ما يجب إثباته وأثبت ما يجب محوه. فهذا الكتاب يذكر عائلة التجاني وكلهم شعراء ينظمون القصائد المطولة في مدح السلطان الحفصي أبو يحيى زكرياء بن اللحياني بكلام مردد لا يزيد في الشعر العربي شيئاً ولا يطلعنا على ناحية جديدة من نواحي الشاعرية، ورأس عائلة التجاني هو أبو عبدالله بن محمد بن إبراهيم يقول لذلك السلطان:

على ذلك المجد الصميم سلام ... كما فض عن أزكى المسُوك خِتام

ومنها:

يـذكِّرنيكُم كـل شيء رأيتـه ... جميـلٌ به يعنى وفيـه يُهام

وكل القصيدة على هذا النحو، وهي وإن كانت رصينة التراكيب، قريبة من الأسلوب العربي الجزل إلا أنها قصيدة مصلحة شخصية ليس فيها مكان لعاطفة إنسانية تتحرك لها النفس.

وله قصيدة أخرى ذيَّلها من رسالة النشر وأرسلها لنفس السلطان، أما القصيدة فمنها:

يا نسمةَ الفجر والأزهار قد رويت ... ممـا أدار عليهـا الـوابِـل السَّـاقي

والروض قد أمسَك الإمساك منه ندَى نمت عليــه بـه أنفــاسُ أحبــاق
ولا قــرارة إلا قــررت خــبــراً بــأن داريـن منّـا رأي أحـداق

فبعد مسك الإمساك، وتقرير القرارات ترى في الرسالة كلاماً آخر هذا بعضه: لما وصلت للعبد أخرى مولاه، وأولى ولده من لا ولد له من التشريف بذكرهما في أولاه لم يجد لها كيفياً ولا عملاً مرضياً إلخ.

ولهذا الشاعر ابن لا تختلف طريقته عن طريقة أبيه، وهي في الحقيقة طريقة العصر نفسه إلا أنه كان أبلغ عبارة، وأسلم ذوقاً وأقل تورطاً في البديع الحقير ومن قصائده قوله:

سقى ربـوعكِ يـا مغنَى طـرابلس حَيـاً يحييـك منـه كـل منبجس
فكم بَـدا لك في تـأنيس مغترب شطتْ به الدار عنْ أنس وعن أنس
لو لم يكن لك عندي في الزمانِ يد أُثني عليك بها ما امتدَّ في نفسي
إلا مـلاقاة من حـزت الفخار بـه عبـدالعزيـز الإمام العـالم الندس

وتجاني آخر هو شقيق الأول، له قصيدة كتبها إلى أخيه الذي في صحبة السلطان، ولم يكن نصيبه من الوراثة الشاعرية كثيراً كبقية أعضاء العائلة، فمطلع قصيدته:

لأهْل الحمى أصبُوا وإن جدَّ لائم وإني على ورد بـه الدهـر حـائِم
وما القلب خالٍ من هوى ساكن اللوى وإن أقفـرت منهم وأقـوتْ معـالِم

ويستمر بعد ذلك في ثلاثين بيتاً يذكر فيها الحمى، والعقيق، والمنحني، والظعن على النياق وغير النياق مما تكرر وأعيد منذ سبعة قرون، وينتهي إلى مدح السلطان في أربعين أو خمسين بيتاً أخرى.

وتجاني آخر خلد الكتاب اسمه لقوله:

لأهــلِ طــرابــلس عــادة من البرّ تنسي الغـريب الحميمَـا
حـللت بـهـا مكـرهـاً ثـم إذا أقمت بهـا أبدلُـوا الهـاء ميمـا

وليس في هذه العجالة مكان لبقية أعضاء العائلة التي يجب الاعتراف لها بالفضل في العلوم والمعارف اللازمة لأهل الكمال في ذلك العصر، أما الاعتراف لها بالشعر فليس بالسهل.

ننظر الآن في الشعر التونسي نفسه ولعلك تدهش من كلمة «شعر تونسي» إذ نعلم أن الشعر كله عربي لا فرق فيه بين تونس والعراق، فالواقع أن الإقليم نفسه بمناخه وسمائه وأرضه يخلق ابناً باراً يولد مشيداً بذكر هذا الإقليم مطبوعاً بسماته وملامحه، فشاعر جلّق غير شاعر القاهرة، وطرابلس، ولا بد لأن يكون لتونس أبناء علينا أن نفحص عنهم بين الدهماء الذين يزخر بهم هذا الكتاب. وها نحن نعثر على من يستحق أن يسمى الشاعر التونسي وننقل ترجمته:

أبو محفوظ محرز بن خلف الصديقي:

نشأ بتونس وعن علمائها أخذ العلم والأدب، كان عالماً فقيهاً غلب عليه الزهد والعبادة، واشتهرت فضائله، وكان ملجأ لأهل تونس وغيرهم في قضاء حوائجهم، معظمًا عند السلطان يرجون بركته ويخشون دعوته، ألف له ابن أبي زيد الرسالة التي ببركة إشارته نفعت شرقاً وغرباً، أفردت ترجمته وكراماته بالتأليف وكان مربياً انتفع الناس بوعظه وتعاليمه، يكثر التردد على الأماكن الخربة للإتعاظ بها وبأهلها الذين انقرضوا أو تركوها، وكان شاعراً مفلقاً، توفي سنة 413، ومن شعره وقد مر على قرطاجنة فرأى من خرابها وخلوها من أهلها، فقال واعظاً نفسه بمخمس مطلعه ــ فتأمل:

مررت بربْع بالسراب تلفعَا وطود جلال بالخطوبِ تصدَّعا
فقلت وقد أجرتْ جفوني أدمعا خليليَّ مرا بالمدينة واسمعَا
مدينةَ قرطاج ثم ودَّعا

رمْتها صروف الحادثات بنبلها ورامت يدُ الأقدار تشتيت شملها
قفَا وانظرا إن جزتما بين سُبْلها طلولاً بها تبكي لفقدان أهلها
كما ندَبَ الأطلال كسْرى وتبعا

فإن لم تصيبَا في الرسوم مؤانساً   ولم تَجِدَا بين القباب مجالسا
ولم تريَا منها مجيباً ممارساً   فقولاً لها ما بال رسمك دارسا
وما بالُ وفد قد بناك وودَّعا

تُرى قبضته الموت بعد بعلة   وحطتْه من بعدِ ارتفاع وحطة
وقولاً فما أخلاك من بعدِ غبطة   وخلاَّك من بعد اجتماعٍ وخلطة
ومنْ بعدِ تشييد خلاءً وبلقعا

ألاَ هل على ما قلتِهِ من مجاوب   وهل منك يا مغني لنا من مخاطب
أمنْ بعد تلحين وصوت رواهب   تصفّق فيك الريح من كل جانب
وفرق منك الدهر ما قد تجمَّعا

هذا الرجل المثقف العميق الشعور ينظر إلى بلده من أعماق التاريخ إلى أن وجد نفسه، ويسترعي نظره تلك الآثار التي يحج إليها الناس اليوم من جميع الآفاق، هو الجدير بأن يسمى شاعر تونس، ولمن تتجلى تونس إذن في حليها القديم والحديث إن لم يكن هناك عين تراها، وتستجلي محاسنها، وتبكي على ما درس منها، وتفرح بما بقي فيها؟

هذا الرجل الذي ينزله العامة اليوم في تونس مسلمين ويهود منزلة محلها سويداء القلوب ينظرون إليه كوليٍّ يأتي بالخوارق والمعجزات ولا يوجد فيهم من يعرف مقدار ثقافته وتربيته، فينظر إليه بالنظرة الصحيحة التي تنبغي له. وترى أن غلطة المدونين تتكرر أيضاً مرة بعد مائة ألف مرة حيث قطعوا القصيدة التي سمعت وقالوا: «وهي طويلة»... وفي الاستطاعة أن نجعل شعر هذا الرجل نموذجاً للشعر التونسي الصريح، ونختاره دون غيره لخلوه من الرقاعة البديعية، والخيال الكاذب المتكلف، وتقليد شعراء المشرق أو الأندلس، لأن تونس بأرضها التي تخصب مرة وتقحل أخرى، وبتعرضها للرزايا في مختلف أدوار تاريخها لا تخلق ذلك الشاعر المرح البطر كبهاء زهير لمصر أو «أولاد دمشق»، ولكن شعراءها الصادقين كلهم يبدو عن شعرهم الوقار والشحوب ويتمثل فيه

صدق الحاسة، ودقة التصوير في أوجز عبارة وأخصرها، كما ترى في قول الأمير الأغلب بن سالم التميمي يتشوق لزوجه التي خلفها بمصر:

ما سرتْ ميلاً ولا جاوزتُ رحلة   إلا وذكرك يثْني دائماً عنقي
ولا ذكرتك إلا بتّ مرتقباً   أرعَى النجوم كأنَّ الموت معتنقي

وقول ابن رشيق الذي لم أسمع أعجب منه:

أحبّ أخي وإن أعرضت عنْه   وقلَّ على مسامعه كلامِي
ولي في وجهه تقطيبُ راض   كما قطَّبت في وجه المدام
ورب تقطُّب من غير بغض   وبغض ٍ كان من تحت ابتسام

وأحسب أن التقطب سمة لا تفارق الحياة التونسية حتى للخمر وللروض وللصديق... وانظر إلى قول علي بن الإيادي:

استغفر اللّه كلَّ حين   قد ذهبَ العيش والهناء
يا راصد الكنَّس الجواري   ما فعلتْ هذه السماء
مطلتمونَا وقد زعمتهم   أنكم اليوم أولياء
اللَّهُ ربِّي ولست أدري   ما الجوهرُ الفرد والخلاء
ضلت عقولٌ ترى قديماً   ما شأنُه الجرم والفضاء

ولا يتيسر لنا في هذه الكلمة استيعاب جميع الأمثلة والشواهد للتدليل على أن لتونس شعراء مميزين بسماتهم وملامحهم الموروثة، كعبدالعزيز ابن أبي الصلت والتراب السوسي وغيرهما.

وكم من شاعر آخر يولد بالبلد وينشأ فيه، ويموت ولا يعيش فيه إلا بجسمه، أما عقله وأما روحه فبعيدان عنه كل البعد أو مشغولان بسقط اللوى والدَّخول وحومل، ولا أحجم هنا عن الاستشهاد بقصيدة لأبي الفتح بن عبدالسلام التونسي التي تعد عند أهل الصناعة من أبرع الشعر وأرفعه قالها في نكبة تونس حين أباد منها الإسبان 120 ألف نسمة وهي تزيد على خمسين بيتاً كل عشرة منها متشابهة في معان متقاربة، فمن قسمها الأول:

سلُوا البارق النجديَّ عن سحب أجفاني وعمَّا بقلبي من لواعج نيراني
ولا تسألوا غيرَ الصبا عن صبابتي وشدة أشواقي إليكم وأشجاني

ومن قسمها الثاني:

هي الحضرة العليا مدينة تونس أنينة إنسانٍ رآها بإنسان
لهَا الفخر والفضل المبينُ بما حوت من الأنْس والحسْنِ المنوط بإحسان

ومن قسمها الثالث:

فلا تحسَبوا أنّي تسليت بعدكم بشيءٍ من الدنيا وزخرفها الفاني

وكان على الرجل أن يصرف براءته هذه إلى تصوير فظائع الإسبان، ويصفها بدقة تغنينا عن دموعه الغزيرة كما فعل ابن الرومي في قصيدته حينما اقتحم الزنوج مدينة البصرة، فإنك تكاد تسمع من قوافيها صراخ النساء والأطفال، وننتهي الآن إلى وصف الانحطاط والضعف والرخاوة البادية في الشعر التونسي في هذا العصر، فقد لمحنا بوادرها تبدأ من زمن بعيد. فهذا أبو زكريا يحيى بن علي الشقراطسي القرشي التنوخي في القرن الخامس يرثي أستاذه:

خطْب ألمَّ فعم السهل والجبلا وحادث جلَّ ينسي الحادثَ الجللا
ناعٍ نعى بن أبي زيد فقلت له أشمسنا كسفت أمْ بدرنا أَفَلَا
أم مادت الأرض، أم رجَّت بساكِنِها أم الحِمام بعبداللّهِ قد نَزَلا

ثم يأتي إليك ابنه عبدالله قائلاً:

ظبيَ البيد ترنو أم ظبا البيض توصف أم السحر من أطراف طرْف يطرف
وأطرف نبل قد تطرفْن من دمي تراءَتْ لطرفي أم بنان مطرَّف

وهذا الشاعر الذي يطرف أو يتطرف فيقع في الفهاهة والتنافر له في قصيدته هذه بيت لو نسج على منواله لكان وحيد عصره وهو قوله:

بلى في محل النجم أذيال همتي لها بين أثناء الخطوب تعجرف

ولكن البديع الحقير بتشبيهاته السخيفة وجناساته الرذل، غلب على القوم واستقلوا بها عن الشعر إلى هذا الوقت، وسوف نرى في الجزء الثاني من كتاب عنوان الأريب ما يغني الباحث في انحطاط الشعر التونسي. وفي الكتاب غلطات هينة ليست بمطبعية ولكنها حدثت من عدم التمييز بين الضاد والظاء حيث ينطق بها الناس هنا متقاربة المخارج كقولهم (الضبا) للظبي و(هظيم) لـ (هضيم) ونعتقد أنها عدوى من اللغة التركية إذ أن الضاد في العربية لها مخرج معروف في القراءات.

وبعد نثني أعظم الثناء على مؤلف الكتاب وناشريه، ونؤمل أن ينشطوا إلى طبع باقي مؤلفات جدهم الفاضل لتنتفع بها تونس والبلاد العربية.

جريدة (الزمان) 9 مارس 1933

في عالم النقد: (عنوان الأريب عمن نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب) (2)

ظهر في هذا الأسبوع الجزء الثاني من هذا الكتاب، وبه يتمثل أمامنا المجهود الكبير الذي بذله الأستاذ محمد النيفر، وكل تونسي في حاجة إلى اقتناء هذا الكتاب الذي يحوي الكثير من أدب اللغة العربية في تونس، ويطلعنا على شيء غير قليل من حياة الآباء والأجداد. قلنا في كلمتنا السابقة أن الجزء الثاني سيكون مليئاً بالشعراء التونسيين العريقين في التونسية، وقد ألفيناه يضم تراجم مختصرة لنحو ستين شاعراً، معظمهم عاش في القرن الحادي عشر، والثاني عشر الهجري، وبيوتهم لا تزال قائمة معروفة إلى هذا اليوم.

والمطالع لهذا الجزء الأخير يرى نفسه في تونس حقاً يلمس بيديه تحف أجداده المعروفين، والذين يتحدث بآثارهم أبناؤهم القريبون، وأحفادهم الناشئون. والآن، فلندخل إلى هذا الكتاب، ولنمد أيدينا برفق ولين إلى هذا التراث الغالي لنشتم منه روائح هؤلاء الأجداد، ولنصل حاضرنا بماضيهم.

تشاء الصدف الحسنة أن يكون أمير تونس في القرن الثاني عشر شاعراً من أبرع الشعراء، وهو الأمير محمد الرشيد ابن مؤسس العائلة المالكة، فكان منه قوة تدفع بالشعراء إلى الأمام، وتحفزهم على الإجادة، إذ يشعرون أنهم تحت مراقبة عتيدة لا تسامح المقصر ولا تعترف بالمزيف. وتشاء الأقدار أن يكون الشعر العربي في كل أدوار عمره متأثراً بالقوة والسلطان ولم يعش متماسكاً قوياً منذ بزوغ فجره إلى أوساط الدولة العباسية إلا لما عليه من قوة المراقبة من الملوك أنفسهم، بله النقاد والعلماء، وهذا سيف الدولة الذي كان يعد من الشعراء،

وأعلم الناس بالشعر تزاحم على بَابِه مئات من الشعراء، لعل فيهم كثيرين كانوا يطمعون منه برضاه عن شعرهم قبل أن يطمعوا في جائزته.

ومع مراعاة النسبة تقوم هذه الظاهرة في تونس على عهد أميرها الشاعر فتخلق عدداً لا بأس به من شعراء لا بأس بهم. هؤلاء الشعراء نشأوا كلهم فقهاء قبل كل شيء، قرضوا الشعر ووجدوا أنفسهم في حيز محاصر بالآداب الشرعية والتقاليد المرعية، فلم يولد لتونس أبو نواسها ولا ابن ربيعتها، وعباسها في الغزل. والغزل الذي يحيا به جميع الشعراء ماذا أصابه؟ هاك بعض ما يقول محمد بن عمر بن سعادة:

تخجل بدر التمّ في طلعته ... وتسلب الناسك في بردتِه

نتائج أنتَج عشقِي ... بها للّهو ميلاً وإلى صبوته

ورد مني عنفوان الصبا ... بعد تناسِيهِ إلى جدَّته

طربتُ من حسن حديث لها ... ما طربَ القانون في رنته

أو بلبل يهتزّ عطفاه من ... زهْوٍ فيتلوه على دوحته

وملتُ للتشبيب في حسنِها ... ميل جميل لحلي بثَنته

وقلت يا منيةَ قلبي صلي ... صبّاً يرى التسويف في توبتِه

قالت وقد سدَّد لي لحظُهَا ... سهماً يحط النسْر من قمته

لولا جنونٌ وهوى غالب ... فيك فمَا تنفك عن هفوته

رماك مزبور لأقلامي اللدن ... بمَا كالرمح في طعنته

فأنت تحب هذه الإجادة الفائقة في هذا الغزل المخلع كانت في امرأة أحبها الشاعر وأودع في هذا الشعر الجميل، صورتها المحبوبة، ولكنها يا سيدي القارىء مقدمة يتخلص منها إلى تقريظ كتاب شرح التسهيل الذي ألفه الأمير محمد الرشيد، وكل ما يقال في هذه القصيدة أنها تحفة والسلام. ولنقدم إليك تحفة أخرى قال الشيخ محمد زيتونة في صحيح البخاري:

هذا الكتاب بشرع أحمدَ ينطق ... ولشمْل أرباب الضَّلال يمزق

ولقـدِّه بين الغـصـون تمـايـلٌ ... ولـبـدْره بيـنَ الـنجـوم تـألّق
ولثغـره البسام نـظمُ لآليء الآثـار ... يـهـديـهـا لـمـنْ يـتـشـوق
وبخـده وردُ الصـحـاح ونحـرِه ... الفتـان أزهـارُ الحسـان تـنمـق
وبلحـظِه شهبُ الشـريعـة أرسلت ... لـلواهيـات بـجنـح دجـن تفـلق
ولسـاعديْـه على الأعـادي سـطوة ... فصلوْا بهَـا نار السعيـر فأحـرقـوا

فكتاب البخاري له قَدّ ميَّاس، وخدودٌ وردية، ولحظ فتان، فلنقل هذا كما هو لأننا كما قلنا نستعرض تحفاً قديمة. وفي شعر هذه الطائفة التي يحويها هذا الجزء الثاني يتجلى الوقار والاحتشام والشحوب وسائر الأوصاف التي لمحناها في الجزء الأول، والنغمة الغزلية التي يغرد بها الشعراء استعملت في المقاصد الجدية الجافة، وبقية القوى الشعرية استعملت في مراسلة الإخوان والتهاني بالعرس والختان. وفي الشاعر التونسي عاطفة كاملة تعد من أظهر عواطفه وهي التحرق إلى الانتصار، والرغبة في الانتصاف، وهذه العاطفة تظهر من مكمنها إذا وجدت الجو الطليق، انظر إلى نفث علي الغراب الصفاقسي وما قاله في الأسطول التونسي:

سـوابـح فلْك للمغـانـم أنشـأتْ ... يسابق أفلاك السَّما جريهـا وخزَا
يفـوز بـأجـر مَن عـلاهـا ومغنم ... إذا ضربُوا في البحر أو ركبوا غزًّا
عليهَـا لـواء العـز والنصرُ خـافق ... ولكن جموعُ الكافرين بها تخزى
إذا سمـع المستـأمِنـون بغـزوهـا ... نَعَى بعضهم بعضاً لَهُ ولـه عزًّى

ومن اطلاعك على بقية الشعراء التونسيين يتحصل لك عنهم رأي، و «ينتقش في ذهنك صورة منهم تنبيك على أن لتونس أبناء» بررة يحملون ملامحها وأوصافها.

نعود إلى الأمير وقد مات إلى رحمة الله، ونبحث عن غيره يقعد في مجلسه وينفع نفعه فلا نجد وإذن نجد شعلة قد خبت رويداً إلى أن خمدت تماماً.

وأصبح الشعر لحناً بلا سامع وبضاعة بلا مشتري، وعبثاً تجتنب مزاولته، وهذا الشيخ بيرم الثالث يقول لابنه بيرم الرابع:

إذَا الزمان الذي تفنيه في الأدب   يراهُ أهل النهَى من جملة اللَّعب
فاصرفه في شرفٍ ترجو عواقبه   تأتيكَ آثاره تنهلّ كالسحب
وذَا مقالي عن نصح أفوهُ به   وليس يرجَى لنصح المرءِ غير أب

والعلماء الآخرون بلا شك لم يضنوا على أولادهم بمثل نصيحة الشيخ بيرم لابنه، وأصبح لا يعني بالشعر إلا ذلك الذي يبزغ كالكوكب الغريب، ويختفي عن العيان كالشيخ قابادوا الذي يعد بحق شاعراً قبل أن يكون عالماً وقل أن سمع من غيره مثل قوله:

نسيمُ تونس حيَّاني ويحييني   والطيبُ منه إذا ما تهت يهديني
لا غروَ أن تاه قلبي في محبَّتها   فإن نشأتَه من ذلك الطين

وأخيراً ننصح لقراء الكتاب أن يضعوا يدهم قبل قراءته على مفتاحه الذي يرشدهم إلى تفهم ما فيه من الشعر، والمفتاح هو قصيدة الأمير محمد الرشيد التي يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم:

هل زورةٌ تشفي فؤاد متيَّم   يا أهلَ مكة والحطيم وزمزم
أو حظوة بالجزْع وأخيف الذي   ما خلته حيناً تجافاه فمي
يا بارقاً قد لاح لي من بارق   باللَّهِ صافِحْني بكفِّ مسلِّم

ومن حق هذا الكتاب علينا وقد ظهر بجزئيه أن نعتبره كنزاً نفيساً حفظه لنا النيفر الكبير، وأنْ نسدي جميل الشكر لناشريه الأفاضل.

جريدة (الزمان) 16 مارس 1933

حـــريـــة النقـــد

يكاد الرجال هنا يحسبون في عداد الجنس اللطيف الذي قيل فيه:

خـــطراتُ النسيم تجـرح خـــدَّيـه ولمسُ الحـــريـر يُـــدمي بنـــانَـــه

رخاوة عجيبة ورقة نادرة مع الرغبة في بلوغ الكمال، والجلوس في مستوى أعاظم الرجال، وتلك غايات لا تنال، إلا بالكفاح والجلاد، والتعرض للكر والفر والنزال والطراد.

نحن عرب وشاعرنا الجاهلي الأول، يقول:

ألا أيهـــا البـاغِي القتّـــال تقـرَّبنْ أساقيكَ بالموت الزعاف المـرجّبا

فما في تساقِي الموت في الحرب سبّة على شاربيه فـاسقِني منه واشـرَبا

ورجالنا هنا لا يبغون القتال ونحن مثلهم إنما نريد الجدل والمناقشة التي تطيّر أصواتاً في الفضاء أو تسيل حبراً عى ورق.

غير أن الجدل والمناقشة لا يلقيان راغباً، ولا يصادفان إلا كارهاً متذمراً، والقوم عافاهم الله يحسبون أن أشخاصهم لأكرم علينا من أن نمسها بمكروه، فما نحن على جهل بحقوق الأفراد والجماعات، ورب كائن يرتكب كل موبقة في شخصه وليس من حق أي مخلوق التعرض له بخير أو شر. إنما يقصد عمل الشخص الذي يتعلق بغيره ويتصل بجميع الناس.

كتبنا كلمة في «الحجامين»، فغضبت دهماؤهم غضبة مضرية لاعتقادهم أن النقد ينصب على أشخاصهم الموقرة، وإنما كنا نريد صناعتهم التي تتصل بالناس

أجمعين، وجاء عقلاؤهم وذوي الفطنة منهم فأيدونا فيما نقول، ولعلهم انتفعوا بنقدنا أكثر من انتفاعهم بمدحهم، أو السكوت عنهم.

وظهر في عالم التأليف كتاب فنشرنا كلمة عن الكتاب لا عن مؤلفه وعن طريقة التأليف لا عن المؤلفين، فغضب أصحاب الكتاب وهم عائلة مباركة كثيرة العدد لا يخلو شارع من مرور أحد أفرادها، وكلّما صادفنا واحداً منهم في الطريق أشاح بوجهه، وازورَّ كبرياء وصلفاً، ونبدؤه بالسلام فيتمتم منافقاً ويصافح مستنكفاً.

وكتبنا عن المسرح ـ وهو في نظرنا أولى الفنون والصنائع بالنقد والفحص فضاقت صدور أصحاب المسارح وأعلنوا امتعاضهم، والمفروض فيهم أنهم خيرة المثقفين ونخبة الأدباء والعارفين، والذين يقدرون مزايا النقد وفائدته التي تعود عليهم أكثر من غيرهم، ولكنهم أيضاً يأبون إلا أن نحمل لهم «دربوكة» وندق عليها مادحين كل عمل يصدر عنهم، ونحن نأبى عليهم وعلى أنفسنا ما يريدون، وسنستمر في نقدنا، وسنستمر في صداقتنا لهم ومصافحتهم غضبوا أو رضوا، ونقول في صراحة أننا حين ننتقد غيرنا لا يضيق صدرنا بسماع انتقاد الغير لنا، وهذه جريدتنا ترحب بكل ما يرد عليها من نقد وردٍّ، وحق وباطل.

* * *

صحف مصر مقروءة في تونس وكثيرون يعرفون من هو عباس العقاد المحرر الأول بجرائد الوفْد الواحدة بعد الأخرى. وكثيرون يعرفون من هو إبراهيم المازني المحرر الأول للجرائد المعارضة للوفد الواحدة بعد الأخرى، وبين الطائفتين من الجرائد حرب شعواء لا رحمة فيها ولا شفقة، هذه الحرب يزجيها هذان الكاتبان يتناول كل منهما حزب الآخر ويهدمه هدماً، بل ويتناول كلاهما شخص الآخر ويرضّه رضا. فإذا دخلت أحد الأندية في الليل وجدت رجلين أحدهما طويل القامة أسمر اللون على وجهه ملامح الجبروت والرزانة. والثاني قصير القامة شاحب اللون عليه سمة من الدهاء وخفة الروح معاً، وقد

غاب الإثنان في سمر لذيذ وأظلتهما مودة وارفة وكأنهما وليس في العالم غيرهما صديقين، وكأن العالم كله مخلوق ليلهيا به ويسخّرا منه. فالأول هو عباس العقاد والثاني إبراهيم المازني، شأنهما في كفاح النهار غير شأنهما في صداقة الليل.

وتلك الأمثال نضربها للناس...

جريدة (الزمان) 25 أفريل 1933

أطياف الربيع للدكتور زكي أبي شادي

إن الشاعر الذي لا ينتظر موت الأموات ليرثيهم، ولا يترقب حركات الملوك لينعق بالمديح بجانب مواكبهم، ويحصر شعره في الميادين (السبعة) التي حددوها للشعر، هو شاعر حر طليق يرجى منه كل خير لأنه سيركب متن نفسه. والنفس صورة كبيرة أو صغيرة من هذا الكون العظيم، فخليق بالنفس إذا انطلقت أن تحل في آفاق يجهلها الذين يعيشون في القيود والحدود. ونفس الشاعر أخف النفوس وأقدرها على التحليق إلى الطبقات المجهولة والأجواء الخافتة عن الإحساس العادي، وكم من شعراء سجنوا هذه النفس، وأبوا عليها إلا أن تكون نائحة، أو مادحة، فعاشوا كاذبين واشتهروا مزيفين وبقي الحكم عليهم موكولاً للتاريخ.

أبو شادي شاعر لا يعبأ بزخرفة المتفاصحين، ولا يسف إلى تنميق البديعيين ورجال «الصناعة». ولعل هذا هو أول الأسباب التي جعلته شاعراً مكثاراً غزير المادة، يطبع في العام الواحد عدة دواوين حافلة بما لم يطرقه الشعراء قبله. وفي دواوينه هذه تجد الشعر الفياض الذي لا يعيقه سد، ولا يقف عند حد لأنه مستمد من النفس التي تباهي أقطارها، ولا تتقيد بقوانين الألفاظ والعلوم المتعلقة بالألفاظ، وديوانه الأخير (أطياف الربيع) الذي أهداه إلينا بالأمس يعد من خير دواوينه التي تبشر للشعر العربي ببلوغ قمة الكمال في هذا العصر. وقد اختلف أدباؤنا المعاصرون في شعر أبي شادي، ونزع كل منهم إلى ناحية من القول شأن الناس في كل جديد يطلع عليهم. ولكن أبا شادي ربح أنصاراً لا يستهان بهم، عرفوا قيمته، وقدروا نزعته الجديدة حق قدرها، فديوانه اليوم مصدر بمقدمة لخليل مطران بك يقول فيها:

«قرأ أبو شادي الشعر عربياً فأشجاه، وطالع التواريخ ومنها بخاصة أصول الأدب الأفريقي، وقارن بين متباين المذهب في البيان: سواء أكانت تلك المذاهب خيالية وجدانية لا تعدو حكايات حال عن النفس كما هي في لسان الضاد، أوخيالية وجدانية موضوعية أساس الجمال فيها بناؤها على الحق، أو الواقع، أو ما يتشبه بهما، كما هي في اللغات الإفرنجية. وعلى أثر هذه المطالعات وجد أبو شادي في نفسه باعثاً شديداً على وجهة فنية جديدة يوليها نظره فأحدث في العربية شعراً سلِساً بألفاظه. قريب المأخذ بسهولته، سليماً بلغته جهد ما تسعه المعاني العصرية، متقيداً بأوزانه، ولكن تقيد الموشك أن يعمد إلى الافتكاك من كل ثقيل الطلعة. وعمر أبيات منظوماته بمعان تاريخية متشعبة المصادر وصور جديدة من كل لون وضرب، وأفكار في الجمال آخذة من كل مأخذ شرقي أو غربي . . .».

والمتأمل في (أطياف الربيع) يمتع بصره من زهرة إلى زهرة، ومن روض إلى آخر مما لم تقع عليه عين من قبل. وأسمع له قطعة عنوانها (السجين):

سألتك صفحاً عن همومي فإنني	أعيشُ بسجن لا نوافذَ فيه
لئن مرحت نفسي قليلاً فإنها	تحس بليْل للمراح كريه
وما الليل إلا محبَسي وتطلعي	إلى عالمٍ نائي الحدود نزيه
إلى عالم لا تشعر الروحُ عنده	بحرب خصيم أو بحربِ سفيه
وما أفسح الدنيا لمن لم يضق بهَا	سلوكاً، ومن يلقى الرجاء كتيه
ولكنني في عالمي كمقيَّد	وإن جلت فيه مطلقاً كنبيه
وما خلقتْ روحي لدنيا كهذه	وإن عابَ هذا الكون لؤم ذويه
ول اطلعت منها لما شارفت سوى	فناء فهل كان الرجاء يليه

أبو شادي حزين مكبوت كغيره من صادقي الشعراء، يضيق بهم الكون على سعته. . . وقد ينكر بعض المحافظين على أبي شادي تجديده للشعر، ولا يرضون بعباراته وأساليبه إلا أن هؤلاء لم يتريثوا حتى ينظروا إلى هذا الشاعر

في تمام نضوجه. وها نحن نثبت هنا من ديوانه قصيدته التي أسماها «ساعة التوديع» ليعلم المحافظون وغيرهم أن الرجل شهير غير دعي في التجديد الحقيقي. يقول أبو شادي:

وإلى الوداع فمَا بخلت بمدمعي ... لكن بخلت بأنْ يراق شعوري
فحبست كلَّ عواطفي إلا التي ... هربتْ هروب العاشق المقهور
وأخذت أنظر ثم أنظر واعياً ... ما أفتر عنك منَ المنى والنور
روحٌ كروحك أشبعت روحَ العلى ... والبعث للمحروم والمقبور
كم فيك من سرٍّ عصيّ ثائر ... يخفَى ويبدو من خلال سطور
ألقاه بالإمعان وهو يجود لي ... بالفنّ ثم يجود في تعبيري
ألقاه لقيَا طالباً إحسانه ... فأنَا إلى الإحسان جدُّ فقير
وأطل من عينيك في حقبٍ بلا ... عدّ، وقد فلتت من التصوير
ما هذهِ الأحلام؟ ما هذي المنَى؟ ... ما ذلك الإلهامُ للمسحور
هذا جمالُ النفس في استعلائها ... متملكاً لبّي ووحي ضميري
فأظل أرنُو ثم أرنو حائراً ... من بين آلام وبينَ سرور
وكأنني ألقى الألوهة سمحةً ... فتنير نهجاً كان غير منير
وكأنني وأنا أطيل تأملي ... أتناول الإبداعَ من تفكيري
وأصون كنزاً من حنانك نادراً ... ليرد فقرَ البائس المهْجُور
وكأن مدَّخر العواطف تروني ... للشعر لا أنهاي بل لعصور
وكأنما القمر المطل مسجّل ... غنْمي وخسري في رضى وفتور
فالتاع من قلقي الدفين وحسرتي ... وأفتر عن نور لبعض حبوري
فبدا مزيجاً من ضياء محزن ... كفؤادي المتوثب المخمور
ما ساعةُ التوديع إلا ساعة ... للموتِ منها أعقبت بنشور

جريدة (الزمان) 26 سبتمبر 1933

شعر المصريين . . وإلى أين وصل

أنت هنا لا تذكر عبدالله النديم الإدريسي العبقري الإسكندري الذي أشعل نار الثورة العرابية، وضرب في كل نواحي الأدب العربي والقومي بسهام صائبة. وقد تجد الكبريت الأحمر ولا تجد مجلته «الأستاذ» التي أودعها كل أفكاره ومبتكراته ــ لا تذكر هذا الرجل ولا الشيخ الليثي والقوصي، والأدباء الذين أحاطوا بعرش إسماعيل خديوي مصر الفرح المسرف المبذر، ولكنك تعرف جيداً المويلحي . . والمنفلوطي، وشوقي، وحافظ هؤلاء الذين قدمتهم إليك المطبعة والدعاية الواسعة، حتى غطت شهرتهم على الكثير ممن يستحقون الالتفات والدرس.

إخواننا في وادي النيل سبقونا بمراحل لا تدرك، فقد أصبح عندهم ألف منفلوطي، وحافظ، وقوصي، وما إليهم من الشعراء والكتاب الذين لم يخرجوا عن حدود «العربية»، وعندهم مئات من كتاب وشعراء آخرين لم تسعد بهم اللغة العربية في عصر من عصورها كالعقاد، وطه حسين، وأحمد أمين، والمازني، ومن لف لفهم.

وبينما نرى شوقي يرفرف بجناحيه على العالم العربي نرى من تحت هذين الجناحين شعراء جبابرة استنكفوا عن مجاراة شوقي، وأرادوا أن يكون لهم عالم مستقل عن عالمه. وأوائل هؤلاء الشعراء هم العقاد، والمازني، وعبدالرحمن شكري إذ طلعوا على مصر بشعر جديد أنكرته في بدايته وأقرته في نهايته. والأنظار الآن متجهة إلى درس أشعارهم وفحص أفكارهم.

ودونك ديوان عباس العقاد أو دواوينه لتقف على نوع من الشعر لا عهد لك به في العربية كلها. وقد تستنكر هذا الشعر ولا يلج أذنك لأول مرة ولكنك لو أشركت عقلك مع عاطفتك ترى فيه العجب العجاب.

أخذنا في هذا الأسبوع نسخة من «الشعلة» وهو الديوان الذي يضم شعر الدكتور زكي أبو شادي، وإليه المجهود الذي بدا به رجال الشعر الحديث في مصر فأنت تسمع منه نغماً لا عهد لك في كل الشعر العربي، وهو على ما به من صلابة وامتناع يمثل شخصية صاحبه ومقدار عنفه واستماتته في خلق الجديد. وماذا نرى في هذه الأبيات التي يسميها (النجوم):

بعثرت في السماء حتّى تراءى	خالق الكون مسرفاً في نظامه
حاكتِ الضائعات من مهج الخلق	فكلٌّ بشعلة منْ غرامه
وتراءت حيناً لنا قبلات	من فمِ الدهر في عصور ابتسامِه
ثم حيناً تلوح مثلَ ثقوب	خلفها الغيبُ رابضٌ في غمامه
بنفذ الشاعر العظيمُ إليها	حين يخشى القضاء بأس اقتحامه
فإذا عاد بعد إسرائه الكا	شِف أعيا الافهام مغزى كلامه

ترى شاباً تثقف بالأدب الافرنجي وهضمه، ثم التفت إلى قومه يخاطبهم بلسانه العربي، وذوقه الشرقي فيطلع عليهم بتأليف تلتهمه الأسماع والافهام ولا تستنكره النفوس والطباع.

نحن الآن في تونس لا نزال نتعثر في آثار المجهولين من القدماء ولم ينبغ في تونس بعد من يجوز عدّه في صفوف المجيدين، ونضحك حينما نسمع الدعوة إلى وجوب انتخاب (أمير شعراء) كأنَّ الشعراء لا بد لهم من أمير وهم لم يبلغوا مستوى العادين، والله أعلم.

جريدة (الزمان) 16 ماي 1933

في حفلة أبي القاسم الشابي

كلما تغلغلت ذكرى أبي القاسم في القدم استيقظت ضمائر الناس وازدادوا به تعلقاً، وعاد منهم من كان يجحده إلى النظر في شعره وتذوق معانيه، بل عاد منهم من كان يكفره إلى الاقرار له بالإيمان.

كانت حفلة هذا العام تفوق سابقتها في النجاح، وكثر عدد المحاضرين والخطباء والشعراء إلى حد اضطرت معه اللجنة إلى تأخير سبعة منهم.

والذي افتتح الحفلة هو الأستاذ مصطفى صفر شيخ المدينة. افتتحها بخطبة عن الشابي من تلك الخطب النفيسة التي تستحق الاصغاء والاهتمام.

ثم تلا الشيخ عمر الفلسطيني آيات من الكتاب الكريم جزاه الله أحسن الجزاء.

وكان في نظام البرنامج أن تلقى بعد ذلك قصيدة أمير الشعراء الأستاذ الشاذلي خزندار، ولما كان متخلفاً عن الحضور لعذر شرعي فقد وقع الاختيار على الشيخ جلال الدين النقاش الذي يعد من أرشق وأحلى شعراء ايالتنا ليلقي القصيدة في الحفلة بالنيابة عن أمير الشعراء.

ويجب أن نسجل هنا أن قصيدة أمير الشعراء هي القديمة التي نظمها في العام الماضي، بل يقال فوق ذلك أنه نظمها لمدفون آخر غير أبي القاسم ثم لم يلقها في الحفلة بتاتاً.

وهذا التراجع وقع من أمير الشعراء بإيعاز من بعض السياسيين الذين كان يتصل بهم وقتئذ، لأن الحفلة كانت تحت رئاسة السيد محمد بدره سكرتير

الحجرة التجارية ورئيس جمعية الكتاب والمؤلفين الذي لا يرضى أولائك السياسيون أن يقف شاعرهم في حفلة يرأسها ولو كانت لأكبر شاعر عرفته تونس.

وجيء بالقصيدة الغراء استعداداً إلى لقائها، ولكن الأستاذ جلال الدين النقاش ذاب في تلك اللحظة ولم تفلح الانس ولا الجان في العثور عليه.

وبذلك يكون قد تضافر مع أمير الشعراء على نجاح حفلة المرحوم!.

أعجبتني قصيدة الشيخ مصطفى المؤدب.. وأبين لك كيف أعجبتني.

الشيخ مصطفى المؤدب لم يجتمع مرة واحدة بأبي القاسم الشابي، ولم ير وجهه لا في شارع ولا قهوة.

فلما وقف لانشاد قصيدته رفع ذراعيه في الهواء كأنه يريد معانقة أبي القاسم وهو في عالم الأرواح، ثم قال بصوت تخنقه العبرة وتشدخه الحسرة:

«يا صديقي وأنت خير صديق» واستمر يبكي الصديق على روي القاف حتى بكينا مثله جميعاً.

والذي زان هذه الحفلة وجعلها تفوق سابقتها هو حضور الأستاذ الكبير الشيخ المختار بن محمود أحد كبار هيأة العلماء بالجامع الأعظم الذي عندما اعتلى المنصة أقسم للجمهور أن المرحوم أبا القاسم مات مؤمناً بالله مصدقاً لكتبه ورسله.

ولكن ضيق المقام لم يسمح للأستاذ بسرد الأدلة التي تثبت إيمان أبي القاسم، وليس في ذلك من مضرة فالمحتفلون وأنا أولهم يعتقدون أن الشعراء أقرب الناس إلى الله.

لقد غادرت الحفلة وكدت أنسى كل ما فيها من خطب ومحاضرات ودراسات وقصائد لأن فكري كان شارداً في بيت أبي القاسم صاحب الذكرى:

«يا قلبُ كم فيك من دنيا محجَّبة
كأنها حينَ يبدو فجرها إرمُ»

جريدة (الشباب) 26 نوفمبر 1936

هل توجد موسيقى تونسية؟

سمعنا ما يقال في هذه الأيام عن تدعيم الموسيقى التونسية على قواعد صحيحة ونشرها في الشرق والغرب. ويظهر أن العناية متجهة لما بين أيدينا من الألحان الأندلسية وغيرها من الأناشيد المحلية ليتكون من كل ذلك هيكل الموسيقى التونسية المطلوب.

وعندنا أنه لا يوجد شيء اسمه موسيقى تونسية، أو مصرية، أو عراقية. بل كلها تسمى موسيقى شرقية، طريقتها واحدة واسمها ثابت لا تتخالف. ونحن إذا جعلنا الموشحات الأندلسية نواة للفن المرغوب في تأسيسه وجدنا تونس تعانق القاهرة، وبغداد وقرطبة وغرناطة وتلتقي معهن في عصر واحد. لأن هذه الموشحات كانت تنشد في تلك البلاد جميعاً. والاختلاف الذي يظهر الآن بين موشحات المالوف والموشحات الباقية في الشرق لم ينشأ إلا لأن الأول وصل إلينا محطماً على أيدي الجهلة المحترفين والأميين، الذين كانوا يحتكرون صناعة العزف في هذه البلاد فتتأمل فترى هذه الموشحات قد تناولها المسخ، من ألفاظها وأوزانها وموسيقاها ولكن الآذان ألفتها حتى بأغلاطها، وعيوبها. فهل وهي بهذه الحال نسميها فناً تونسياً لمجرد أنها دوّن في عمالة تونس. ونحاول مع ذلك أن نجعلها الأساس الذي نبني عله الفن التونسي؟ لا. يجب ردها إلى أصلها، وإعادة ما سقط منها من الفصوص والزخرف الدقيق. وذلك بمقارنتها بنظيرها من الموشحات التي تعيش منذ قرون في القاهرة ولم يصبها التلف والتشويه وحسبها أن تقوم من جانبها بهذه العملية، عملية الترميم والإصلاح. وفي استطاعتها بعد ذلك أن تتقدم للابتكار والزيادة بحسب ذوقها الخاص كما ابتكر المصريون «القفلة» في موسيقاهم.

أما الأغاني الشعبية الأخرى فمن الخير أن لا يجري ذكرها على لسان، لأنها خيالات يلتقطها فقراء الفن من البادية أو من طرابلس، أو من الاسطوانات الافرنجية، ويقدموها بضاعة مبهرجة مستوردة تحت صخب العود والكمان، وتوقيع الدف ليسعفوا بها الأسواق التجارية قبل غيرهم، والفكرة التجارية التي حملت هؤلاء في تونس على العبث بالفن حملت أيضاً إخوانهم في مصر على ما هو أشنع، فطيروا من حنجرة أم كلثوم وغيرها أناشيد أثقل من الغاز الخانق سموها الفن الجديد. ولعل هذا الفن الجديد هو الذي حمل إخواننا هنا على الدعاية لمقاومة الفن المصري بجملته، ومصر في الحقيقة تبرأ منه وتظهر سخطها عليه قبل غيرها.

نريد أن نقول إن البقايا الممسوخة، والفضول الزائدة، والصراخ المفلت، كل هذا يجب إزالته من الطريق، هو وأهله. ثم إفساح المكان للعارفين المنصفين ليصلوا إلى الغاية المرجوة بثبات واطمئنان. فيصبح الفن صافياً تفهمه كل اذن ويطير في كل أفق، وليس من المستحيل أن تكون لتونس السيادة الفنية في الشرق لأن لها اليوم جمعية فخمة ذات ميزانية لا بأس بها، تستطيع أن تهدم بلا مجاملة وتبني بلا انتظار. وفي اليوم الذي تصدَّر فيه الأغاني التونسية إلى العالم فكل إنسان يقول إن هذا هو الفن التونسي.

جريدة (الزمان) 12 نوفمبر 1935

التخت المصري

بعد زمن طويل، ومحصول فني اجتمع من الفرس، واليونان، والترك، وتجارب العرب أسس المصريون التخت الذي نعرفه اليوم وننصبه في تونس ولا ندري إن كان ممسوخاً أو كما وضعه أصحابه.

نفهم هنا أن التخت منصة تعلوها المطربة أو المطرب ثم القانونجي، والعواد والطّراز والجرانْيني[1] والله يحب المحسنين.

فإذا حان موعد الغناء ابتدأوا بطقطوقة أو قصيدة أو ما يحضر المطربة أو المطرب أو ما يقترحه أحد المستمعين ثم استمروا في عزف ما يتفق من الأناشيد إلى أن تنتهي السهرة.

فمن الواجب إذن أن نبين الغاية من وضع التخت المصري ونشرح الترتيب الذي نجهله عنه.

لنفرض أننا في السهرة أمام مائدة بدلاً من التخت سنأكل منها لوناً بعد آخر.

يفتتحون السهرة بالبشرف وهو الذي يهيء المسامع ويوقظ المشاعر لما بعده كالمفتحات التي يبدأ بها الآكلون من فجل وزيتون وموالح.

ثم يأتي التوشيح وهو أجزل وأدسم قطعة في الموسيقى الشرقية تعمر القلب والذهن بخلاصة ما طبخته غرناطة ودمشق والآستانة إبان العز والرفاهية. وتستطيع أن تسميه طاجين السمك أو «شربة» الكوارع.

---

(1) العازف على الكامنجة.

بعد هذا تفتتح اللهات لالتهام الأكلة الكبرى وهي الخروف أو الديك العظيم أو اللحوم المقلية والتي تسمى فوق التخت «الدور».

وهذا الدور يتقدمه المغني بشذرات من التقسيم يلقيها الواحدة بعد الأخرى، ليكشف لك عن الطريق الذي سيسلكه أو ليحضر نفسه لاقتحامه والسير فيه بقدم ثابتة وما قوله يا ليل ويا عين إلا دقات مختلفة الإيقاع يستفتح بها الباب أو خطوات مختلفة المساحات كخطوات الذي يتهيأ للنزول في الميدان، وفي تلك الليالي والآهات يدس المغني ذلك الموال الذي يتنافس في اتقانه جميع المغنين لأنه المجال الوحيد لاظهار براعته وعرض ما عنده من بضاعته الخاصة بخلاف الألحان الأخرى التي يلحنها له غيره وليس له إلا فضل تأديتها بأمانة. وفجأة ينتقل بك إلى الدور الموعود ذي المذاهب والخانات والقفلات الذهبية التي لا تصاغ في غير مصر والتي لأجلها يضرب الكرام رؤوسهم في الحيطان، وفي هذا الدور يباح لك شق ثيابك أو السقوط على الأرض مغشياً عليك، ولك أن تستزيد وتستعيد وتحلف بالطلاق وبالعتاق والآن وقد انكسرت حدة الشهـوة لذلك الطعام الروحي، ورضيت النفوس عما أصابت منه فلم يبق إلا الحلويات والمرطبات والنقل والفاكهة، وهي الطقاطيق الراقصة والضاحكـة، والأغاني الخفيفة الحلوة الفكهة التي تتسع للضحك والمزح والتنكيت.

فإذا طالت السهرة واحتاجت النفوس إلى تجديد الغذاء فهناك قصائد مذخرة لم يتسع المقام لتقديمها مع التوشيح يقدمونها لك بطرق شتى من الالقاء المسجل والمرتجل، فتحس أنك أمام تحف يغطي جمال بعضها على جمال الآجر. وأمام برنامج منظم موضوع بذوق وحكمة وتخرج موقناً بانك غنمت ان كانت السهرة في مسرح بالتذاكر أو أنك أكرمت إن كانت في عرس دعيت إليه.

نرى مع الأسف هذا التخت قد أصابه المسخ في مصر نفسها، واعتلاه جماعة المنولوجيست والراقصات وكل من عبث بإحدى الآلات الموسيقية فلم يكد الجيل الجديد يميز بينه وبين مسرح الموزيكهول أو خيال الظل. ولكن لحسن الحظ أن بعض الغيورين على هذا الميراث الشرقي الفخم قاموا لتدعيم أساسه

من جديد. وسجلوا بشتى وسائل التسجيل أدوار عبده الحمولي ومحمد عثمان، والقباني وسيد درويش قبل أن تغطيها الحماقات الجديدة.

ويجب بهذه المناسبة أن نقوم بنصيبنا في تنظيم التخت المصري كما وصفنا، وسنجد فيه متعة خالدة تتجدد طرافتها على تعاقب الأيام والليالي.

جريدة (الشباب) 12 فيفري 1937

المسرح المزيف

إذا أردنا الكشف عن حقيقة المسرح الحالي في تونس فلنترك جانباً المجاملات والصداقة التي تربطنا بمن يشتغلون بهذا الفن، وليس من حقهم علينا أن نكيل الثناء لكل رواية ندعى لمشاهدتها، فما هذا في صالح الفن والفنانين.

يقوم المسرح في تونس على دعائم ثلاث:

- الإعلان عن الرواية بأبسط وسائل الإعلان.
- طبع التذاكر وتوزيعها بالرجاء أو الإلحاح.
- أشخاص يعتلون خشبة المسرح.

وبهذا يحق لنا أن نسمي المسرح التونسي مسرحاً مزيفاً، ولا حياة فيه، ولا فن لأن أكثر الفرق تقوم على مجهود شخصي إذا ألمت بكثير أو قليل من هذا العلم، فما في استطاعتها تطبيقه كما ينبغي. والمسرح يلزم له كفاءات متعددة لم تنضج بعد واحدة منها في تونس. فالأولى كفاءة التأليف ولا نجرأ على نسبتها إلى أنفسنا.

والمحاولات التي ظهرت للآن لا تزال بدائية ويمكننا القول بأن الروايات التي شاهدناها مؤلفة لاتتفق بحال مع ما يتطلبه المسرح، إنما هي تتفق مع ما يتطلبه المنبر هي محشوة بديالوجات من النصائح والعبر، والحض على حسن السلوك والاستقامة. وكل هذا بأسلوب خطابي لا مسرحي، وقد كفانا التعريب مؤنة

التأليف إلا أننا لا نحسن الانتفاع به لانعدام الكفاءات الأخرى التي تساعده. فالإخراج لا نعرف منه ألفاً أو ياء، ويكفي خجلاً أننا نستعير المناظر المخزونة في المسرح البلدي لنطبقها على أي رواية. كذلك فن الإضاءة والهندسة المسرحية وخلق الأجواء على المسرح، لا نعنَى بها أقل عناية، بل لا نعرفها، والكفاءة الثالثة هي التمثيل نفسه ونقول في صراحة أننا حين نخاطب الممثل كصديق في قهوة، أو في الشارع نراه أفصح وألبق مما هو على المسرح أثناء التمثيل، وعناية الممثل متجهة لحفظ الدور وأما الإلقاء وإخراج الصوت فلا أحسب ممثلاً يسمع بهما أو يبصر. فهما والماكياج أمور متروكة لمن يتصرف بها كما يشاء وحسب هواه. وكم سمعنا صوت الممثلة فلن نحسبها مخلوقة من لحم ودم، بل آلة مركبة من معادن تنطق على وتيرة واحدة من أول الدور إلى آخره. وتعليم الممثلة موكول إلى أي شخص «يحفظها» الدور على طريقة «المؤدبين الفقهاء». فإذا كانت في الممثلة مرونة أو روح تتحرك يقتلها المؤدب بعصاه، ويكفيه فخراً له عصم الممثلة أو الممثل من الأغلاط النحوية فلا غرو أن يساق الجمهور سوقاً إلى مشاهدة التمثيل، يشاهده وهو متثائب، ويفضل الذهاب إلى نوع آخر من أنواع التسلية لأنه لم ير بعد الممثل الذي يملك فنه ويجذب القلوب إليه.

شاهدنا رواية (شبان العصر) التي لعبتها فرقة السعادة على المسرح البلدي، فلفت أنظارنا ممثلة حديثة تظهر على المسرح للمرة الأولى. وقد خلناها تمثل من خمسة أعوام على الأقل، وبالرغم من أنها حفظت دورها على طريقة المؤدبين، فقد كانت تفيض حياة ونشاطاً. وكانت مسيطرة على صوتها إلى حد بعيد، مسيطرة على حركاتها إلى درجة مرضية وهذه الممثلة هي الفتاة «رتيبة» المعروفة في عالم الغناء، وعندنا أنها لو تفرغت للتمثيل، وتلقت هذا الفن من مصادره لطلعت في سماء المسرح نجمة تتألق. وقد كتب أحد النقاد كلمة عنها في صحيفة فرنسية ينتقصها وينعي عليها خروجها على المسرح، وما كانت الفتاة إلا جديرة بالثناء والتشجيع. ولا نعد الكاتب إلا رصيفاً أنس بجمود المسرح التونسي، ورأى عنصراً غريباً ظهر فيه فحسبه شراً يجب إزالته، وهو الخير كل الخير. فالمسرح التونسي محتاج إلى ممثلات وممثلين من نوع هذه الفتاة، ولو عني

السيد محمد الحبيب بهذه الممثلة العناية اللازمة لرأى منها في المستقبل الممثلة التونسية التي لا تباري ولا تقارن بغيرها.

وإذا كنا نستبعد مثل هذه الممثلة فيظل المسرح كما هو مظلماً لا يفيده أن نعرب له روايات «موليير» و «راسين»...

جريدة (الزمان) 18 أفريل 1933

الموسم التمثيلي . . أو موسم الندب

قبل أن يحل موسم التمثيل المشؤوم في تونس بشهرين رأينا غبار الزوبعة التي أحدثها قائد المعركة الفنية في عام 1935 ـ 1936 . هذا القائد قيرواني يخالف كل قيرواني في الظرف والرقة، وينفرد بنوع من الغلظة والفظاظة وليته بهما متطوعاً في جيش موسولوني أو النجاشي فكان ينفع أو يضر.

إنه يقود المسرحية الفنية في هذا العام الأسود لا لأن الرجل من رجال الفن وإنما وفقه الشيطان لأن يترجم بعض الروايات الفرنسوية ترجمة تحيل بها الفضة رصاصاً والذهب نحاساً. هذا السيد النطع يشن الغارة باللسانين الفرنسي في (تونس سوار) والعربي في (الزهرة) أو غير الزهرة يقول: فماذا يقول؟ إن المسرح يجب أن لا يمتزج بأي عنصر أجنبي.

وإذا أدار بوجهه يميناً وشمالاً فلا يرى من الأجانب الذين يجب مقاطعتهم وتطهير الفن التونسي منهم غير المصريين، فقد كتب عشر مقالات في تونس المسائية يقول في جملتها إن المصريين غزوا تونس. وإن الفائدة المخصصة هنا من الحكومة التونسية راجعة إليهم في شخص الشيخ سيد شطا.

قبل هذه المقالات كتب هذا القيرواني عدة مقالات في الصحف العربية، يحمل فيها على مصر وكتاب مصر، وشعرائها وكل فنان فيها، وهو يعجز عن تقديم أي دليل على أن تونس فاقت مصر بممثل واحد أو مغنية واحدة. ولكنه يكتفي بالنعرة الكاذبة والتعصب الذميم في غير موجب التعصب.

سئل عن هذا التنطع في مقاومة المصريين فقال: إن المسألة اقتصادية

بحتة، فكما أن مصر تبيع لنا بكذا من الفرنكات أسطوانات غنائية، فقد وجب أن نبيع لها بالمثل. وإنها ترسل لنا بين العام والآخر أجواقاً تأخذ أموالنا، وتذهب بسلام، فقد وجب أن تذهب إليها أجواق تونسية لتسترجع تلك الأموال من هناك، هكذا تقضي النظم الاقتصادية الحديثة في التبادل.

والحق أن كل شيء في نظر هذا القيرواني النطع لا يخرج عن الاقتصاد، وحسبان العالم بالصوردي والصانتيم، فهو يذرع شوارع تونس طيلة نهاره ويتفقد مقاهيها ليرى الإنسان الوديع الظريف الذي يمكن الحصول منه على أكبر كمية ممكنة من السجائر وفناجين القهوة، حتى لو كان مصرياً غريب الوجه واليد واللسان.

فإذا عمي هذا القيرواني عن الحق لما في طبيعته من شره وفرح لأكل لحوم الأغراب مجاناً، فيجب أن يعمي عن الفرق بين الاقتصاد والفنون فهذه يمكن حصرها بالأرقام والحواجز الجمركية.

جريدة (الزمان) 8 أكتوبر 1935

يا للنساء من الرجال . . .

سبعون رجلاً من الكماة الشجعان يحتشدون لتوقيع عريضة، لا تحسبها أيها القارىء عريضة لعصبة الأمم، أو لأمر جلل تتحرك له الشعوب، وإنما هي ضد راقصة، ومغنية، وعواد، وقانونجي، ورقاق، وهؤلاء الذين يتضافر البعض ممن يسمون أنفسهم الشعب التونسي على مقاومتهم قد اقترفوا إثماً كبيراً وجرماً لا يغتفر. ذلك أنهم قدموا إلى هذه البلاد مرة قبل هذه المرة وأكلوا خبزها، ومن أكل خبزنا مرة فهو رهين بالإهانة والاستخفاف، قمين بأن يفهم أننا أسدينا له معروفاً يغل عنقه إلى الأبد، وعليه قبل أن يغادر بلادنا أن يقيء ما أكله ويرده لجمعياتنا الخيرية، وثم عليه بعد ذلك أن ينعتنا بالكرام، وأن يشيد في أنحاء الدنيا بالكرم التونسي واللطف التونسي، ثم عليه أن يكون قنوعاً فلا تحدثه نفسه بالعودة مرة أخرى فليست تونس تكية مفتوحة لمن يريد الأكل.

منذ أيام نشرت إحدى الصحف اليومية نداء «للشعب» أو «الأمة» تحثه فيه على الاحتفاظ «بحقوقه» ومقاومة الغزاة الفاتحين الذين تقودهم فرقة السيدة بديعة مصابني، فقلنا إن الجريدة التي نشرت هذا النداء تدين السيدة بأجرة إعلانات في المرة السابقة فانضمت الآن إلى فريق البؤساء المنكوبين الذين اشتروا التذاكر منذ ثلاثة أعوام بسبعة فرنكات وعشرة فرنكات ووقفوا اليوم بأنوفهم الشماء يدفعون عن أنفسهم الضيم والعدوان.

ولكن صحيفة يومية أخرى قبلت أن تنشر العريضة الموقعة بإمضاء سبعين شجاعاً استهلوها بقولهم: «وبعد فإن الواضعين أسماءهم أسفل المقال يرجون من همتكم نشره بين أعمدة صحيفتكم الفيحاء خدمة للبلاد ومشاريعها. . .

ولكم الشكر والتمجيد». والعريضة الفيحاء تقول: «إن السيدة بديعة مصابني لكي تضمن إقبال الشعب التونسي عل فرقتها، وعدم مصادرته لها قد وعدته بجزء في المائة من الدخل للجمعيات الخيرية ثم نكثت بوعدها. . ».

والحق أنه لا السيدة بديعة ولا السيدة خديجة ولا أي ممثلة أو مغنية تضع الشعب التونسي في هذه المنزلة الحقيرة، وتحسب أنه لا يدفع ثمن الكرسي إلا بشرط ورهن، أو أنه لا يعطي إلا ليسترد ولا يتكرم إلا ليستعيض. وإنما الناس هنا يريدون أن يعرضوا أنفسهم بهذه الصورة القبيحة، وأن يفهموا الرائح والغادي وعابر السبيل، والغريب والظريف أن جمعياتنا لا دخل لها ولا إيراد إلا من الدريهمات التي يجود بها الراقصات والممثلون. وتقول العريضة الفيحاء: «وها هي السيدة بديعة تعيد الكرة من جديد، وتغزو جيوب التونسيين اعتماداً على لطفهم وإكرامهم «لضيوفهم»، ولكن التونسي اليوم لا ينخدع بالوعود الخلابة، ولا يأنس إلى من يظهر ما لا يخفيه صدره وتنطوي عليه سريرته، لا سيما وأنه لا زال على ذكر من الحفلة التي امتنع كل ممثلي فرقتها من المشاركة فيها بإيعاز منها على ما ذكره بعضهم. . » فيجيب أن نذكر الحقيقة.

عندما جاءت السيدة بديعة إلى هذه البلاد، وثقت ببعض أبنائها وناطت بهم إدارة الشباك، وقبض الإيراد. فاستولوا بكل شمم وطني وإباء قومي على جزء كبير من الإيراد ووضعوه في جيوبهم، واستعملوا في ذلك المهارة والحيلة التي لا يتنزل إليها غيرهم، فملأوا خريطة المسرح بالقلم الأزرق علامة على امتلاء المحلات، ووضعوا التذاكر في أيدي أعوان لهم أوقفوهم بجانب الشباك، فكان الجالس في الشباك يخبر الداخلين بأن المسرح امتلأ. وأعوانه من ناحية أخرى يعرضون ما معهم من التذاكر بأضعاف ثمنها. وها هو اللص السارق يعيش بيننا بلحيته اللطيفة المستديرة، وبنظارته الموقرة وطربوشه الأسود الظريف. وإذن عجزت الفرقة حتى عن لم شعثها وترحيل أفرادها الذين تقول فيهم العريضة إنهم امتنعوا عن التبرع بإيعاز منها، كما يقول بعضهم: «فأما السارق فيجب إخفاؤه تحت جناحنا، وأما فرقة بديعة الغازية يجب محاسبتها وضم الصفوف لمحاربتها».

إن جريدتين يوميتين تنشران مثل هذه الدعوة الدنيئة تجعلانا نفهم أن الكبار والصغار والعلماء والجهلاء يستوون جميعاً في عدم التفرقة بين العظيم والحقير من الأمور، وبين القومية والنذالة، فيكفي أن يتهور الصبيان والمخنثون فيتبعهم أهل العلم والوقار لأنها كارثة قومية كبرى تستلزم تضافر الشعب بأكمله على أن هذه الصحف لا تجرأ على إظهار شجاعتها أمام المسارح والملاهي التي تغترف أموال التونسيين حقاً.

ومن الذي يقوم بهذه الفضيحة باسم الشعب؟ إنها إحدى الجمعيات التمثيلية والتي جعلت صناعة التمثيل وسيلة للاستيلاء سنوياً على مبلغ عظيم من الحكومة. ولم تفلح إلى الآن في تمثيل رواية واحدة، ولا خلق ممثل واحد. هذه الجمعية هي التي تقوم بالدعوة المستهجنة، وترسل الغلمان لتمزيق إعلانات نادرة وبديعة، وتضع في مكانها منشورات تحض فيها الشعب على المقاطعة. والسبعون عظيماً الذين وقعوا عريضتها ليسوا سوى المجموعة التي تحضر روايات هذه الجمعية مجاناً، وسوف لا يمتنع عن سماع نادرة وبديعة غيرهم لأنهم إما مفلسون وإما طامعون في إيراد الشباك كما فعل أسلافهم. وكيف لا تتوقعون أيها السادة أن بديعة عرفت أنها مدينة لهذاالشعب بكرم الوفادة، وحسن اللقاء، وعرفت أنها قصرت عمداً أو كرهاً في خدمة جمعياتها فجاءت لتسديد دينها وإزالة سوء التفاهم؟

قالوا: لا يجب أن يكون عقابنا أشد من عقاب الله الذي يقبل التوبة ألف مرة ويجب أن لا «نلدغ من جُحر مرتين»..

أيها المعتوهون،

إن الشعب التونسي أرفع من أن يحاسب ضعاف الفنانين الذين يجشمون أنفسهم مشقة الرحيل والإقامة في الفنادق بهذه المحاسبة التجارية الدنيئة، وهو أعز من أن ينقاد لصراخ المجانين.

وقد كان المسرح الصفاقسي غاصاً بالجماهير في كل ليلة غنت بها نادرة وبديعة، وكلهم من سراة الناس وأعيانهم، وهذا ما سيقع في مسرح البلدية

وسيعلم دعاة النذالة أنهم بهذه الدعاية قد تركوا للشعب فرصة الاستماع والمشاهدة في هدوء وسكينة، لا يضايقه ثرثرة الفلاسفة الفقراء، ولا سعال الأساتذة المزكومين، ولا رائحة الفطاحل الزخمين، وهم الـذين عزمـوا على المقاطعة. والحمد لله على بعد البلاء والخلاص من الهم والغم.

جريدة (الزمان) 16 مارس 1935

لا رجاء في نهوض المسرح

من فضول القول إذا كررنا هنا أن المسرح أحسن مدرسة لشعب تسعة أعشاره لا يعرفون القراءة والكتابة. وقد كانت هذه الجريدة في مقدمة زميلاتها التي تعنى بالمسرح التونسي، وتدعو القائمين بأمره إلى النهوض به كما لم تقصر في تشجيعهم والإطراء عليهم، وحث الجماهير على تعضيدهم. والغاية من ذلك أن يقف المسرح التونسي على قدميه ويؤدي رسالته للشعب، ويستغني عن الروايات التي كتبت لشعوب أخرى.

ولكننا ومعنا الصحف التونسية كلنا نضرب في حديد بارد، ونشعر بأن دعايتنا للمسارح التونسية قاصرة فقط على شكر مديري الأجواق، والثناءعلى الممثلين والممثلات كل واحد باسمه واسمها، دون أن نلحظ أي تقدم يذكر في أي فرع من فروع فن التمثيل، وبقيت أجواقنا كما كانت عليه عالة على الروايات الأجنبية من شرقية وغربية. وبقي الشعب يذهب إلى المسرح متثاقلاً متثائباً يجذب تارة بقرقعة موسيقية وطوراً بالدخول مجاناً. ومع هذا لم تنقطع مناحة القائلين بوجوب خلق الرواية التونسية البحتة، ولم يفتأ أصحاب الأجواق متلهفين على ظهور المؤلف التونسي الذي يستطيع تموين المسرح بروايات محترمة.

وظهر المؤلف التونسي المنشود والحمد لله. بل ظهر كاملاً ولم يبدأ هلالاً، ورأينا على المسرح البلدي رواية «امرأة» التي استقبلها الجمهور بحماس وإعجاب وشعر لأول مرة على ما نعتقد أنه متصل عقلاً وحساً بممثلين يعرضون عليه الحياة التي يفهمها.

وحسبنا أن أصحاب الأجواق وقد ظفروا بالمثل الأعلى الذين ينشدونه سيكافئون المؤلف ويقدرون عمله من الناحية المادية، بدرجة تتناسب مع تقدير الشعب له من الناحية الأدبية، ولكن علمنا مع الأسف أن مجلس إدارة الفرقة التي مثلت هذه الرواية وتريد تمثيلها أيضاً عشرات المرات في المستقبل، هذه الفرقة نظرت في الشكل الذي تكافيء به المؤلف على عمله فاقترح كبير فيها أن تكون المكافأة خطاب شكر يوجه إلى المؤلف بتوقيعه، واستحى عضو آخر من العارفين بمجهود الكتاب والمؤلفين أن يكون الشكر غير مصحوب ببعض ما تيسر من حطام الدنيا لينتفع به كاتب سهر الليالي الطوال يعصر ذهنه وينهك أعصابه في التحبير والتنقيح والمراجعة والنسخ فقال لا بد من: الفلوس.

لعله من العبث أن نذكر أصحاب الأجواق بما يجب للأديب من التقدير النبيل، وأن المؤلف الناضج يلزمه عدة شهور ليخرج رواية طيبة لا يستغْني أثناء كتابتها عن الأكل والشرب، ولكننا نقول لهم يجب اعتبار الرواية سلعة تجارية ينظر إليها بحسب ما ربحه من الجمهور الذي يقبل عليها وفي يده نقوده، فيكون أجر المؤلف حلالاً وفاقاً من الجمهور، لا عطاء صغيراً من أصحاب الأجواق الذين يضعون المال قبل كل شيء في جيوبهم إلى أن تجود نفوسهم بالخمسين فرنكاً أو المائة لصاحب البضاعة.

ومن الجور الفاضح أن تدفع الفرقة للممثلة التي تقوم ببعض أدوار الرواية ثلاثمائة فرنكاً في الليلة، وللممثل خطاب شكر أو مصروف يوم وليلة.

فإذا كان هذا جزاء وأجر المؤلف المسرحي التي كانت تتلهف عليه الأجواق فالمسرح لا يجب الالتفات إليه فضلاً عن الدعايات والتقاريظ.

جريدة (الزمان) 28 أفريل 1936

اللغة العربية مفتاح الدين الإسلامي

تسعة أعشار الشعوب العربية أميون، لا يعرفون القراءة والكتابة. ومعنى ذلك أنهم يجهلون العربية التي وبدونها لا يستطاع فهم القرآن والحديث، وهما المنبعان اللذان يفيضان بأحكام الإسلام، والعجب أنه كلما اضمحلت هذه اللغة في بلد رأيت فيه الدعوة بالتمسك بالدين تبلغ عنان السماء.

والجاهل يلذ له دائماً التشبث بشيء مجهول يحيطه بقدسية وهمية، ولا يكلف نفسه عناء المعرفة فلا أظن عامياً يستطيع فهم معنى قوله تعالى:

﴿والعاديات ضبحاً، فالموريَات قدْحا، فالمغيراتِ صبحا﴾.. السورة.

أو هو يفهم كما أفهم أنا اللغة الحبشية. والأقلية المتعلمة من الأمم العربية تسعة أعشارها تفخر بجهل العربية، وتزهو بثقافتها السكسونية واللاتينية فيكون مثل المسلمين العرب الذين يجهلون لغتهم مثل من يجهل باب البيت، ولا يملك مفتاحه ويدعي أنه من أهله وسكانه.

إليك أمثلة من المسلمين العرب الجهلاء بالعربية.

وقف رجل على عروضي جلس على حافة نهر، وكان يقطع بيتاً من الشعر هكذا:

أبو فضا. لتلا. ربعنولا. طلل   متلعننا. متلا. طيرنولا. جمل

فقال هذا رجل كافر يقرأ القرآن بالزندقة ثم حمل عليه ودفعه إلى النهر فمات الرجل غريقاً. وعاد المجرم وهو موقن بأنه أرضى الله ورسوله، وذب عن دينه وشريعته بهذه الجريمة.

والنحوي الذي سقط في مرحاض مفتوح في الشارع وظل فيه إلى الصباح يئن وينازع حتى شارف عليه الكناس فرأى أن يصيغ له أبلغ العبارات وأجملها لينقذه مما هو فيه فقال:

اطلب لي حبلًا دقيقاً. واربطني ربطا وثيقاً. وجرني جراً رقيقاً. فحلف الكناس بالطلاق أن لا يخرجه لأنه يقرأ القرآن في الكنيف.

والجمهور الأعظم من المسلمين العرب اليوم، لا يقل جهلاً عن ذلك الكناس، ولا تعرف كيف توفق بين الغلو في الاستمساك بهذا الدين، وبين الجهل به. أنقول أن الغفلة عمت هذه الطوائف منذ أهملت العربية إلى اليوم؟ أم نقول إن هذه الغفلة تعمهم في كل أحوالهم من ثقافية، ومالية، وصناعية، وزفتية؟.

اقرأ كتاب صبح الأعشى، تعثر فيه على مثل هذه الحكاية:

«الكاتب يكتب أمام أميره لأحد العمال فيقول: السيد الماجد أبو فلان محمد فيقاطعه الأمير قائلاً له ولم لا تكتب بالنحوي الفصيح وتقول أبـي فلان فيقول الكاتب: هذا لا يجوز لأنه فاعل والفاعل مر.. فيصرخ الأمير في وجهه قائلاً: لا يكفيك يا وقح أن تخطئني في وجهي، حتى تجعل عاملي فاعل يحمل الطين مثل العامة ومثلك».

جريدة (الزمان) 13 جوان 1933

اللهجة العــربية التونسية

الحمد لله،

هذا مقطع تكتبونه في رؤوس الخطابات، وفي العقود، وفي إيصالات الإيجار، وفي جميع الرسائل وأرى أن ينزه اسم الله من الرسائل التي تلقى في المزابل والمجال واسع لذكر اسم الله مقروناً بالحمد والشكر في أمكنة أعز وأشرف من الخطابات، وعندكم «المطيبع» و«الخماسي» الخطاطان يكتبان هذه الكلمة في ألواح جميلة تعلق وتحفظ في البيوت، ودعونا من النفاق الفارغ.

لقد اطلعت على خطاب أرسله أحدهم إلى عدوٍّ له ينذره فيه بالويل والثبور، فبدأه قائلاً:

الحمد لله...

إلى الكلب السافل الدنيء فلان...

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه، أرى أن تتطور لهجة الكلام ويدخل عليها الكثير من الاصلاح، ولا تبقى راكدة ركود البرنس والجبة والمحكمة الشرعية...

لهجتكم العامية أيها التونسيون فيها من الأخطاء الشنيعة ما لا يقبله ذوق ولا عُرف ولا نحو ولا صرف...

تخاطبون الرجل بصيغة المرأة فتقولون سيادتك وحضرتك وصاحبتك، كل هذا بكسر تاء المخاطب المؤنث، وقد نعاها عليكم الإمام محمد عبده عندما

سمعها من إمامكم أبي حاجب[1]، ولا نسمع الآن حتى بين علماء الزيتونة من يصلح لسانه حينما يخاطب رجلاً.

وتخاطبون المرأة في بيوتكم فتقولون: «يا مرأة اقعد. كُلْ. اهبط. اسمع. يلعن بوك».

كأنكم لا ترون هذه الشعور المسدلَة، والنهود البارزة فتخاطبونها بصفة رجل ذي شارب ولحية.

(وبالله الذي لا إله إلا هو) لم تطرق أذن من سمع جميع اللهجات الشرقية اشنع ولا أسمج من هذه الصيغ الملعونة. فإذا كان النطق بالصواب ثقيلاً على ألسنتكم، ولا تستطيعون التخلص من هذه اللهجة فاستعملوا القاعدة الانجليزية، وخاطبوا كلا الجنسين بصيغة الجمع، وقولوا للمرأة والرجل حضرتكم سيادتكم...

وفي كلامكم أكثر من تسعين في المائة من العربية الفصحى، فلو عملتم على إبادة الألفاظ الدخيلة التي تنطقون بها لكان ذلك أكمل. وهذه الألفاظ ــ أو الحشرات الواجب إبادتها ــ هي: «برشة» و«برك» و«يساق» و«فمه».

وفي لغتكم شيء اسمه العكاز يتوكأ عليه المتكلم العيّي.. ولكل لغة عكاز، ولكن لا يستعمله إلا العامة، وعندكم لكل من العامة والخاصة عكاز فالرجل من الخاصة يقول للآخر:

«ناخْذُو الأُتوموبيل فهِمْتش ولّالّا. ونطْلعُو على «سِيدي بوسْعِيد» فهمتش ولالا. وهْناك فهمْتش ولالا. نتعدُّو على البشير ونتعشُّوا بحْذَاه فهمتش ولالا، وإن كانْ ما نلقَاوِش البشير فهمتش ولّالّا، نتعشوا في «الرَّستوران» عند هاذَاكْ الطلياني اللِّي عنده البنية التَّحفونة فهمتش ولالا. وماضِي واحْدَة ولَّا اثنين نرجع فهمتش ولالا. ونقابل الجماعة هنَا فهمتش ولالا.

(1) المقصود سالم بو حاجب أحد علماء الزيتونة.

وعكاز العامة، قول أحدهم للآخر:

«واشْ من الخدمة ودِين أمّ الخدمة؟ هـذاكْ اليوم هـزّيت لكْ دِين أم «البرويطة» وروحت على نهج القصْبة ونلقى لك دين أم «البرمسيون» طاحْ لي، ولا انسرق لي ما نعرفشي على دين أمه، وأنا واقف يا سيدي نبيع لمَرا ونشوف لك دينْ أم «البرقادي» خالط عليَّة، جبدت دِيْن أم كارطة بخَمْسة فرنك وحطيتْها لُه في يد دِين أمَّه ونهارها دين أمي ما صورتش أربعةَ فرنك. . .

وأنا أعتقد أن الفساد في اللهجة التونسية منذ سيطرة الأتراك، فهم وحدهم، الذين يذكّرون المؤنث ويؤنثون المذكر، إذا تكلموا العربية. وهم وحدهم الذين يخرجون حرفيْ الضاد والظاء من مخرج واحد. والعادة أن الناس تقلد سادتها وحكامها حتى في الأغلاط وقد بقي هذا الفساد إلى اليوم مع الشّواشي والطرابشي. . .

ولكن. . ولكن شيئاً من الذوق، وشيئاً من المعرفة، يكفلان محو هذه العيوب.

جريدة (الزمان) 23 ماي 1933

تونس تندب لغتها العربية

بقي في أفواهنا من اللغة العربية هذه العامية التي نتخاصم بها ونتشاتم، وبقي في أقلامنا هذه الطائفة القليلة من الألفاظ الركيكة التي تكررها الصحف في كل موضوع سياسي، واجتماعي، وأدبـي، واقتصادي.

فالعامية نفسُها انقسمت إلى «طمطمانيات» متعددة، لا سبيل إلى الانتفاع بها. وقد دخل عليها من الأجنبية ما زادها تعقيداً وكراهة. وأنت تسمع العربجي الجلف أحياناً، أو الحمال من أميينا يزين عباراته بكلمات «وِي»[1] و«نُو»[2] و«تريبْيَانْ»[3]، وتسمع كثيراً من العائدين من الخدمة العسكرية لا يتكلمون بغير الألفاظ القليلة التي حفظوها أثناء إقامتهم في المعسكرات، وينطقون بها ممسوخة، ويزيدون في اللغة الفرنسية نفسها «أورْجُو» جديداً يستعمله نفس الكتاب الفرنسيين عندما يتحدثون عن العرب.

والشبيبة المثقفة مثلها الأعلى أن تتكلم الفرنسية الباريسية، وتتبارى في إجادتها حتى في الشجار وحتى في المنزل مع الأمهات والإخوان، ولا يستطيع الشاب الاستمرار في الكلام بالعربية بغير أن يعجز ويلجأ للألفاظ الفرنسية مرغماً أو متحذلقاً.

---

(1) نعم.

(2) لا.

(3) حسناً.

(4) اللهجة الفرنسية العامية.

وبقي الأمل الضعيف قاصراً على العدد القليل الذي تخرجه الجامعة الزيتونية. وهذا العدد لا يفيد اللغة العربية إفادةً تُذكر، لأن غاية كل طالب هي أن يكون قاضياً أو عدلاً. ولعل برنامج العربية في الزيتونة أضعف من أي برنامج للمواد الأخرى، وكان الأجدر بهذا المعهد أن يخرج للأمة الكتّاب، والمتكلمين، والمصلحين، الذين يخاطبون الشعب بلغة القرآن والدين.

كذلك نصيب العربية في المدارس القليلة التي تديرها الحكومة لا أهمية له، وقلما يستطيع خريج هذه المدارس كتابة جملة عربية صحيحة إلا إذا كان له مجهود خاص بذله خارج المدرسة بنفسه.

والذين يجيدون العربية هنا معظمهم استقى مادته من كتب الشرق، وصحف الشرق، وهم وإن أحسنوا القراءة والفهم قلما يوجد فيهم من يُحسن الكتابة.

وتقارن بين حالة اللغة العربية اليوم وحالتها منذ عشرين أو ثلاثين عاماً، فنجدها تنهزم شرّ انهزام لاَ أمام اللغة الفرنسوية وحدها ولكن أمام الأمية والجهل أيضاً.

والعربية ليست كـرطانـة البربـر وقبائـل «المارتينيـك» يمكن إبادتهـا، والاستعاضة عنها بلغة أخرى ولكنها عند العرب المسلمـين كل شيء فـإذا أضاعوها أضاعوا دينهم، وجهلوا قُرآنهم وتجردوا من ثقافتهم الموروثة، وتونس سائرة في هذا الطريق بخطوات جبّارة دون أن تستعيض عن العربية بشيء آخر، العلم في تونس لا يزال تجارياً لا يحصل إلا بدفع المال الكثير، وليست له في ميزانية الدولة إلا الأرقام وهي أشبه بالصدقات التي تعطى للجمعيات الخيرية.

تقوم في رؤوس المفكرين فكرة إنشاء المدارس القرآنية التي تعنى بالعربية، وينفق عليها من جيوب الأهالي، ولكن هذه الفكرة لم تجد أي تشجيع من الحكومة مع أنها لا تخصص لها شيئاً من المال.

ولو تبصرت الحكومة في أمر هذه المدارس لكانت أول من يعمل على

إنشائها، وعلى إحياء اللغة العربية الجميلة لأنها بذلك تمهد للنشء التونسي تلقي الفرنسوية نفسها من أقرب طريق، والإنسان إذا تعلم قبل كل شيء بلغته الأصلية سهل عليه الاتصال بالثقافات الأخرى، وقفز إليها من تلقاء نفسه.

وها نحن نرى في الزيتونيين من ارتمى بين أحضان الفرنسية بعد أن شبع من لبان أمه الأولى، وأصبح بعد ذلك شخصاً يستطيع أن يؤالف بين اللغتين ويؤاخي بين الشعبين.

والعربية مرنة رحبة الصدر لجميع اللغات وقد رأينا المصريين والسوريين ينقلون إليها كل ما أحدثته الثقافات الأوروبية بسهولة. وأصبح قراء العربية هنالك على اتصال بالثقافة الفرنسية مثلاً أكثر من التونسي الأمي المحروم من هذا وذاك فلا يتوهمن أحد أن تقرير درس العربية هنا أمر يجب مقاومته، ومن المستحيل قتل لغة يتكلمها أهلها منذ عشرات القرون، فهي ستبقى ولكنها تبقى ممسوخة لا تستعمل إلا في الصخب والشتم والثرثرة كما هي الآن.

جريدة (الزمان) 17 أكتوبر 1933

الفنون الجميلة في تونس

إن كان هنا فن جميل تزدهي به تونس، وتمتاز على سواها فهو الرقص لا غيره، ولا تذكر لي الشعر، أو التصوير، أو الموسيقى، فما هي ببالغة أمثالها في البلاد الأخرى، وقد يخيل إليك أننا حين نتكلم عن الرقص نخوض في دعارة، ونخرج عن الوقار، بل نتكلم عن الرفص كفنّ رياضي أو وطني إذا شئت، ونتنازل عن ذلك الوقار الجامد وقار الدواب والبُهم.

العالم كله يرقص، والظاهر أنه يرقص للرقص كما يتكلم مدفوعاً للكلام، وما حركة الرقص إلا قسم من أقسام المنطق عجز عن تأديته اللسان والعقل، وأنت تستطيع تحويله إلى لغة فصيحة تفهم بغير قصور ولا التباس، وتستطيع مقارنة كل حركة بما يماثلها من مفردات اللغة ونحوها وسائر فنونها.

وليست الراقصة في المنزلة التي ينزلها فيها الناس من الحقارة والضعة، كما أنه ليس من شروط فن الرقص وتمام إجادته أن تنغمس الراقصة قبل كل شيء في حمأة الرذيلة حتى تصبح راقصة، بل تعرف بعكس ذلك مشاهير الراقصات في العالم يسرن في حياتهن الخاصة على أقوم الخطط، بل الكثيرات منهن يشبهن النساك في حياتهنَّ، يصمن طويلاً، ويتريضن باستمرار شأن الصائمين المصلين، ويضعن لفنهن قواعد تدرس بعناية كبرى، وفي أزمنة طويلة، وليست مهمة الرقص كلها التعبير عن الشهوة والخلاعة، بل فيه الكثير مما يعبر عن فضائل لا تحصى، كالنشاط، والحركة، والثورة، والحب، والبغض، ولا ينقصك لإدراك هذه الفضائل إلا النظر الصحيح المجرد من أنانية الشهوة العمياء، وسائر النزعات الشيطانية.

نعود فنقول إن الرقص التونسي يسترعي نظر كل شرقي. ولعلك تعلم أن راقصة مصرية كانت هنا بالأمس، وشاهدت هذا الرقص فانطلقت إلى القاهرة تعلن أنها ستقوم بهذا الرقص التونسي، ولكن هيهات: فهنا رشاقة خاصة ببنات قرطاج لم ترزق مثلها السوريات ولا المصريات، والتونسية التي لم تمنحها الطبيعة حسن الصوت، ورخامته عوضت هذا النقص بما ضمن لها الكمال والنهاية في مدرج الفنون الجميلة، ولا شك أن الراقصات هنا يختلفن في الرقص كاختلاف الشعراء في النظم، وهن في الجملة يمثلن الروح التونسية خير تمثيل، إلا أن واحدة منهن هي التي تصلح لأن يدرس هذا الفن بمشاهدتها، ونعني بها الفتاة الإسرائيلية «فليفلة». وقبل أن نتكلم على فنها نشير إلى العاهة المستديمة التي تشوه جمال الرقص الشرقي عامة وهي حركة البطن التي تواضع على استهجانها كل أصحاب الأذواق السليمة، وهذه الحركة تحرمها الحكومة المصرية وتكاد تكون معدومة في تركيا... وهي كأنها شر لا بد منه ولا تظهر شناعتها إلا عند المبالغة فيها. وقد رأينا (فليفلة) تسيطر على فنها سيطرة المالك القادر المتصرف، لا تتقيد بتقليد ولا تخضع لقاعدة فكل حركاتها غير منتظرة ولا معروفة، وتمتاز على سواها بإرسال نفسها على السجية والطبيعة، فإذا جاء وقت تلك الحركة البطنية الممقوتة اختصرتها باختصار، وغالطت بعدها الأبصار بالتثني والتأود. وتريك هذه الفنانة وهي ترقص مجموعة من جوارح جسمها تتكلم كلها في وقت واحد بتناسب بديع تشخص له الأبصار، ويأبى ذوقها وخبرتها بآداب هذا الفن أن تتساحف كبعض الراقصات فتلهو بشعرها أو تعبث بعقدها، وإنما كانت كل حركاتها في سبيل هذا «الفن» الذي خلقت له بجسمها واستعدادها.

وفن الرقص في تونس على ما هو عليه من جمال وإبداع لا يزال على الفطرة، فإذا أتيح له التهذيب والتنسيق لكان مصدر سرور للعالم كله.

جريدة (الزمان) 21 مارس 1933

الخط العربـي في تونس

إلى الآن لا يعرف في المدارس العربية التونسية رجلاً اسمه «معلم الخط» والخط متروك للقواعد الأولية ـ وليتها قاعدة ابن مقلة، بل القواعد المصطلح عليها في رسم صور الحروف، وللكاتب أن يكتب كما يريد حسبما يوجه إليه ذوقه. وقد يبدو أن الخط التونسي له شخصية تعرف بمجرد النظر إليه، ولكنها شخصية ممسوخة، إذا شبهناها جاز لنا أن نقول تشبه «نبش» الدَّجاج، أو سطوراً من مختلف أنواع الحشرات، والمفهوم أن لكل إنسان صفات خاصة به تظهر في خطه ـ هذا إن كان للخط قاعدة ثابتة يرجع إليها الجميع ـ فالصفات الخاصة بكل إنسان مع عدم وجود هذه القاعدة تزيد الخط غرابة وتنافراً.

فبعضهم يكتب خطه حروفاً مفككة متسعة كأن كل حرف منها أحد الميكروبات المجهولة. فإذا أراد مثلاً كتابة كلمة «البريد»، رسم ألفا مائلة رقيقة تحسبها الراء الشرقية وبعدها لاماً تشبهها تماماً، ثم باء مقوسة لا فرق بينها وبين اللام إلّا النقطة، وأخيراً الدال وهي التي تساعد القارىء على فهم الكلمة.

وآخر يكتب وكأنه ينسج درعاً من الزرد المحكم الحلقات يحشد حروف الكلمة في أضيق مساحة ممكنة حتى تختلط ببعضها، وتزيدها رداءةُ الحبرِ والورق انطماساً. وفي نهاية الكلمة يرسل الحرف الأخير سبهللاً كذنْب الحيوان، فإذا كتب كلمة «مصطبر» حشد الحروف الأربعة الأولى معاً كالخيط المعقد وأرسل الراء الأخير كمنجل الحاصد.

ولا نستطيع إحصاء أشكال الحروف التي تحتاج إلى مجلد مضحك، أو عجيب في بابه.

وقد نجد من يكتب الخط الحسن في تونس، وهذا الحسن لا يوصف بأكثر من أنه واضح يمكن قراءته بسهولة.

وقد كان الخط في الشرق منذ قرن تقريباً على هذا النحو التونسي، حين كان منهاج التعليم العربي هناك كما هو في تونس اليوم، ويسمونه الخط «الكتاتبي» فلما عني الأتراك بالخط وجعلوه فنّاً يدرس على حدة، وأخذت به المدارس في الشرق وصار «معلم الخط» معدوداً مع بقية المعلمين، أصبح هذا الخط الكتاتبي معرّة يخفيها صاحبها وأصبح الناس كلهم يكتبون على نمط واحد، ولا يغيره اختلاف أيديهم وأذواقهم.

وتحسين الخط له دلالة كبرى على ذوق الشعب ومدنيته، وقد رأينا ذلك في الخط الأندلسي إذ كان هؤلاء الأجداد الغارقون في المدنية والنعيم يأبون أن تصدر من أناملهم صوراً قبيحة فابتدعوا خطهم الهندسي البديع إلا أن خطهم هذا يصلح للزخرفة والنقش أكثر مما يصلح لكتابة الرسائل، وخطوطهم التي كتبوا بها مؤلفاتهم يمكن حسبانها في عِداد «الانتيكات».

فلا مناص إذن لتونس عن اقتباس الخط الشرقي الذي ابتكره الأتراك كما هو، وفي ذلك فائدة كبرى للتفاهم، ولعلك تعلم أن الخطاب الذي يرسل اليوم من تونس أو الجزائر إلى القاهرة يحمله المرسل إليه إلى سوق المغاربة هناك ليحلوا له رموزه وطلاسمه، كذلك حالنا في المراسلات الشرقية التي ترد إلينا.

جريدة (الزمان) 23 ماي 1933

اقــتــلــوا الأمــيــة

يقول الطبيب إن علة انحطاط المسلمين ترجع إلى جهلهم بقواعد الصحة، حتى البسيط منها، ولوكانوا يعنون بأجسادهم لكانوا خلقاً غير هذا المشوه المريض.

ويقول التاجر: لا، إنما انحط المسلمون لأنهم لا يشترون من بعض، فلو اشترى المسلم من المسلم لبقيت أموال المسلمين بينهم، وعاشوا أغنياء ومسألة اليوم هي الاقتصاد لا غيره.

ويقول المحامي: بل تقدم المسلمين يتوقف على أن يتولى أمورهم الأكفاء المتعلمون، دعونا من التجارة والطب.

وهناك آخر يصيح من منبر المسجد بأن تقهقركم أيها المسلمون هو من ترك الدين... حتى حفار القبور يريد أن يقول كلمته في الموضوع.

ولكن الصحفي يقول في النهاية وقوله الحق، إنها الأمية التي أهلكت المسلمين وبعدت بهم عن معرفة كل شيء حتى أنفسهم، ولا تعرف نكبة يصاب بها الناس في زمن، أوبل من هذه النكبة الملعونة. فهي صَمَمٌ وعمى وخرس وزمانات مجتمعة، والشعب الذي تتفشى فيه هذه العاهة الخبيثة يضيع فيه كل مجهود، لأن خطوط المواصلات مقطوعة بينه وبين النور. وهذه الخطوط هي الـ 29 حرفاً اليسيرة الحفظ والعجيبة الفعل، والتي لا تختلف عن جهاز الـ (T.S.F.) الذي يستطيع كل من يقتنيه سماع كل ما يدور في العالم. وها أنذا أشعر وأنا أكتب أن التسعين في المائة من قومي لا يقتنون جهاز «أسبسن» فتتبين

مقدار حلكة الظلام، وخيبة الرجاء، فلأضرب أنا وكل متفلسف رؤوسنا في الحائط ولننهق كالحمير على حمير لا يسمعون أصواتنا.

الأمية اليوم أشنع منها بالأمس ولو تعلموا القراءة والكتابة فهموا القرآن، وفقهوا ما يقول الخطيب فوق المنبر، وما يقول العالم في حلقة الدرس، ولحفظوا الأشعار من التاجر إلى الدلال والفاعل الأجير، ولم تمنعهم أميتهم عن فهم ما يقال فيهم ومنهم بلغتهم العادية. وأميّ اليوم لا يملك وسيلة للفهم إلا إذا تعلم القراءة والكتابة أولاً، ثم قوانين اللغة ثانياً فجزارنا الآن ليس كجزار قرطبة الذي وقف عليه المشتري يقول:

«لحم نعاج الكباش مهزول».

فيبتدره على البديهة:

«يقولون للمفلسين مَهْ زولوا».

بل كثير من أعياننا وسادتنا الرافلين في الحرير الفضفاض، والمالكين للضياع والرقاب لا يحسنون إلا قراءة وصل إيجار، أو دعوة إلى عقد قِران، هذا إذا كانوا ممن يقرأ ويكتب، وجزار قرطبة أمامهم يعد أحد علماء الأزهر أو الزيتونة. والعامة بالأولى حالها أشنع وأبشع فلن يعرف إذن عقبة وقفت في طريق المسلمين، أو غيرهم أهول من الأمية الجامدة الخرساء التي تعمي الإنسان عما حوله. فهذه فرق وفيالق من أطفال الطليان أو اليهود أو غيرهم تشق الشوارع «بمريولاتها»[1] الزرقاء رائحة غادية إلى معاقلها لتتعلم استعمال السلاح الأول للحياة، يحسبها العميان زفة مطاهر، أو إحدى المساخر فيبصقون عليها وينفرون منها، ونعمة الجهل ألذ نعمة يذوقها الإنسان، ويحتفظ بها وهي عنده كنز قارون الذي يغني عن كل شيء.

سمعت أن بعض العقلاء في هذه البلاد يرومون تأسيس مشروع غايته تعليم الأميين القراءة والكتابة في مدارس ليلية، وفي المساجد أيضاً، وهي إشاعة

---

(1) الصدار.

لم تتجاوز أسماع بعض الأفراد، ولم تنتشر في البلاد كلها في ساعات قليلة كما تنتشر الإشاعات السخيفة ومن المؤكد أنها فقاع من الرغوة سينطفىء ولا يخلف غيره.

الأمية أيها السادة عدو لا يبالي بالأسلحة المثلولة، ولا يبالي بجملة كاتب أو خطبة فقيه، وإنما تقتله تلك الحرية المذببة الرخيصة الثمن الخفيفة الحمل على كل إنسان هو القلم...

جريدة (الزمان) 18 جويلية 1933

سيـــد درويـــش

طفت في هذا الأسبوع على تجار «الفونوغرافات» أسألهم عن رقاع الشيخ سيد درويش فلم أجد لها أثراً، وقد سألت التاجر الأول عن السبب في عدم وجودها فقال: لأنها (ما تتعدّاش)[1]. وقال الثاني في تراخ: (سوفَ تحضر قريباً)، وبهذا أفهم أن الشيخ الدرويش عند الجماهير مغن كبقية المغنين، وأدواره كسائر الأدوار يلتهي بها الناس برهة من الزمن ثم ينسوها، إذا ظهر غيرها من الأغاني والألحان.

كانت تربطني بالشيخ سيد درويش علاقة عمل وصداقة، ومن حقه أن أقدمه للجمهور في تونس من جديد.

ولدت أنا وهو في عام واحد وهو عام 1893، وفي مدينة واحدة هي الاسكندرية، وفي حي واحد من هذه المدينة هو حي «المزار»، ولم يعرف كلانا الآخر إلا في سنة 1921 في مدينة القاهرة، إذ كان الشيخ سيد منهمكاً في تأسيس جوقته الخاصة بعد أن نفض يديه من التلحين للأجواق الأخرى، وهو في حاجة شديدة إلى «زجال» يقدم له أزجال رواية الافتتاح. في تلك الأيام كانت جوقة الريحاني «كشكش بك» في عنفوان شبابها، وكانت تستمد قوتها من ألحان الشيخ سيد إلا أن نوع التمثيل الذي كانت تقوم به هذه الفرقة كان وبالاً على الأخلاق، بما يحويه من دعارة وفجور، وكانت عشرات الألوف من الجنيهات تتدفق إلى جيب الريحاني، نظير عمل بهرج لا يكلفه مجهوداً يذكر فضلاً عما يبثه في الشبيبة من روح النزق والتهتك.

---

(1) لا تروج.

وكنت إذ ذاك أحرر جريدة «الشباب» الأسبوعية، وجعلت نصب عيني محاربة هذا الجوق وأمثاله بالحق والباطل. وكان الشيخ سيد يقرأ تلك الصحيفة فيرى أن الحملة موجهة إليه قبل غيره، ويقرأ أنه متهم بسرقة الألحان التي يقدمها لجوق الريحاني، وكيف سرقها، وكانت الحملة مستمرة عليه شهوراً طويلة.

ولكن تأبى الظروف إلا أن تجمعني معه في ليلة جلس كلانا بجانب الآخر وهو لا يعرفه، ولاحظ أحد الجالسين وجودنا فقام ووضع يديه على كتفينا وبحسن نية قدم كلينا للآخر، وما كنت أنتظر بعد هذا الشر العظيم والعواصف التي أثرتها عليه في الجريدة أن يقوم لي مبتسماً فرحاً كأنما انفتح أمامه كنز. ولم يكن فرحه متكلفاً، ولا بشاشته جبناً، فقد كان يتمتع بكل ضروب القوى: قوة بدنية هائلة، وقوة فنية لم يرزق غيره مثلها، وقوة «مالية» قلما تتفق لموسيقي في الشرق، وقوة عصبية يستمدها من مئات الألوف من الأنصار المعجبين، والأحباب المخلصين. ولكن الناظر للسيد درويش يدرك على الفور أن هذه القوى لا تساوي عنده جناح بعوضة، فقد كان يترك بدنه لجميع أنواع المهلكات، أو ينفق ما في جيبه عن آخر درهم، ولا يهتم بمعرفة غني أو وجيه.

في تلك الليلة لم أفارقه إلا في ظهر اليوم الثاني، لنتقابل بعد ساعتين من هذا الفراق، ولله طبائع الاسكندريين وشمائلهم وأخلاقهم، فيهم الشراسة مع الاعتراف بالحق، وفيهم القوة والبطش مع التواضع والإغضاء، لقد كان معظم حديث السيد عما لاقاه من المحن والبؤس، قال لي من أول الحديث ولم يمض على تعارفنا ساعات:

ــ هل مكثت في حياتك ثلاثة أيام على الأرض بلا طعام ولا شراب؟ (وضحك ضحكة رزينة وقال): قد والله فعلتها. وهل تعلم أنني كنت أغني في قهوة حقيرة على شاطىء «ترعة المحمدية»، حيث يستمع لي بحارة المراكب القادمة من الصعيد، ورشيد، ودمياط، السهرة والقهوة والسماع كل هذا بعشرين فضة (خمسة وعشرين سنتيماً)... وجاء حديث السرقة التي كنت أتهمه بها، فقال إليك البيان:

ـ هذا جوق الريحاني ولا أخالك تجهل أنه عبارة عن عصابة شوام، تجمع عشرات الألوف من الجنيهات من جيوب المصريين بأبسط الوسائل. ولا أخالك تجهل أن في مدينتنا الاسكندرية طائفة من الأناشيد هي في ذاتها ثروة فنية لو وضعت في محلها، تسمع الفقهاء الذين يشيعون الجنازة ينشدون البردة أمام الميت من لحن «السيكة» أو «الصبا»، بنغمة مفرحة لا تتفق مع هيبة الجنازة، وتعرف أن العوالم (وهن المنشدات في حفلات الزفاف) يشيعن العروسين إلى حجرتهما بلحن يشم منه التهكم والتمسخر، أكثر من أن يسمع منه الفرح والابتهاج.

وذكر لي السيد أمثلة أخرى من هذه الأناشيد ثم قال:

ـ وهذه الذخيرة الطيبة التي علقت بالذاكرة ظلت محفوظة إلى أن جاء وقتها... طلب الريحاني لحناً لزفاف (كشكش بك) وهو عائد من سفر أو غيبة، فلم أر أنسب من بردتنا التي ننشدها أمام الموتى وطبقناها على قولهم:

«ألفين حمد الله على سلامتك يا سي كشكش هيص أدي وقتك»

وعلى هذا المثال كانت معظم البضاعة التي نقدمها للريحاني، وهو عمل يتفق مع عمله مع المصريين، على أن هذه الألحان حلت في المحل اللائق بها وانتفع بها العباد...

وأتيحت لي الفرصة لدراسة هذا العبقري الكبير، فقد كان الكون كله عند السيد لحناً يؤلفه بما فيه من ضجة، وهدير، وتغريد، وبكاء، وضحك، ووعد، وكانت أذنه دليلة الخريت الذي يدله على حقائق الأمور وبواطنها، يستمع لكل صوت ويفسره أصدق تفسير، ويصغي لحديث محدثه ومن نبرات صوته يفهم مقصده وحالته، وما يخفيه، وما يعلنه، يسمع وسوسة الأساور في معصم الحسناء، ويترجمها إلى لغة اللسان، ويسمع قطرة الماء في الحوض فيبين عما فيها من بيان، وكان فؤاد الشيخ سيد مرتعاً خصباً للحب، بل أتونا حارًّا للحب المخلوق لأجله كل فنان، ويروي حادثة الحب الأول فيقول:

دعيت للغناء في عرس وأنا بالملابس العربية، واعتليت التخت فإذا بي قريب من (بلكون) يجلس فيه بعض السيدات والأولاد، فخرق أذني صوت

امرأة يقول «دول يا خْتي جايِنْ لنافِقِي الليلة ولا الداهية ايه؟». فما أتممت الدور الأول وكان: «يا اللِّي قوامكْ يعجبْني» حتى جاءني طلب صريح بالمقابلة داخل الحريم، وكانت الداعية غانية أهلكت الكثيرين من العمد والتجار والموسرين في مصر، بما لها من جمال، ودهاء، وقوة جاذبة، وحادثة هذا الحب مشهورة».

وقد تزوج السيد خمس مرات، الواحدة بعد الأخرى. ومن فكاهاته التي تذكر أنه استلم إنذارَ حضور أمام المحكمة الشرعية من إحدى مطلقاته، والإنذار عادة يكتب على الصيغة الآتية:

«نكلف المدعو سيد الدرويش الساكن بحي السيدة زينب بالحضور في يوم ـ التاريخ ـ أمام المحكمة الشرعية الكائنة ـ المكان ـ . . . إلخ».

وكان في جماعة من أصحابه عند استلام هذا الإنذار، فكان أن قرأه لحناً مرتجلاً يحفظه معظم أصدقائه إلى اليوم.

فهذه بعض أوصاف هذا الفنان العظيم، صاحب النفس المرحة اللاعبة والذوق الرفيع. أما فنه وموسيقاه فلا نعرف أحداً تقدمه فيما ابتكر، ولم يظهر تدريجياً كغيره من أصحاب المواهب، وإنما سطع على الناس بدراً كاملاً يبهر الأنظار، وكان أول إنتاجه الأدوار والتواشيح والطقاطيق كغيره من الملحنين. فلما احتاجت المسارح للموسيقى وجدت في السيد منبعاً فياضاً أمدها بكل حاجتها، ولم تسجل له الأسطوانات من ألحانه المسرحية إلا القليل، كافتتاح رواية «العشرة الطيبة» المعروف بمطلعه:

«علـى قــد الـليـل مـا يـطول   مـسـتـرضـي بسـهـري ونـوحي»

والشيخ سيد كملحن امتاز على المتقدمين بإرسال الكلام المنسجم، كما لا يردده ولا يقطعه بالآهات السخيفة، والحشو المرذول، وهو الملحن الشرقي الوحيد الذي يفرغ على الكلام ما يناسبه من التلحين. فإذا سمعت ألحانه موسيقى، مجردة من الكلام، أدركت ما فيها من طرب، وحزن، وثورة، وذل، وضحك، وتهكم، ويودع اللحن روح الشخص الذي يعبر اللحن عنه، كما

يسمع من لحن «الحشاشين» و«السقالين» و«المراكبة» وسائر ألحانه التي غناها الكبير والصغير في الشرق العربي.

وقد أصبحت الفئة القليلة التي يخصها الشيخ سيد بصداقته ويختار لمجلسه، أصبحت وكل واحد منها ملحن يشار إليه بالبنان اليوم، كالأساتذة زكريا أحمد والقصبجي، وإبراهيم فوزي وغيرهم، وعبدالوهاب يفتخر بأنه يقتفي أثر أستاذه الشيخ ويتتبع خطواته، ويعترف هو وأقرانه من الملحنين أنهم لا يزالون في ساحل هذا المحيط العظيم. وقلت إنني كنت أمام رجل اتهمه بالسرقة وهو يقيم أدلته التي بررت عمله في بساطة، ولكنه وقد انصرف عن الريحاني وغيره وبدأ يلحن لنفسه، قد رأى نفسه في ميدانه الذي يحلو له الركوض فيه، والذي يسمح له بإظهار قوته الجبارة. كانت الرواية التي افتتح بها فرقته «شهر زاد» وكان علي أن أنظم له خمسة عشر لحناً في مواقفها المختلفة، ولا يتصور غيري وغيره أننا اسكندريان لكل منا من المشاكسة والعناد ما يخيف الآخر، ويجعله يحسب حساب صاحبه، وأشعر أن السيد قد رد علي أبلغ رد في ألحانه التي وضعها لهذه الرواية، بل أشعر أنه انتقم لنفسه أبلغ انتقام وأدَّب من اتهمه أحسن تأديب بدون أن يحتاج إلى جريدة وقلم. ويعلم الله أن الوقت الذي قضيته في العمل معه كان عبارة عن جِلاد ونزال، فلم أقدم له من الأوزان إلا كل غريب مستعصي لم يركب عليه لحن من قبل، وكنت أنظم اللحن الواحد في عدة أيام، بينما الزجل العادي لا يكلفني إلا ساعات قليلة وكان هو من جهته يقابلني بالمثل، فلا يرضى من اللحن إلا بعد أن يستعد له في أسعد ساعات صفائه، ويعود عليه بالتنقيح والتغيير، ثم يعلنه ويسجله بالنوطة، وقد كانت روايته (شهرزاد) مثلاً بديعاً للموسيقى الكلاسيكية التي لم تطرق الأذن الشرقية. ولذلك لم تلتقطها أسماع العامة في الشوارع وتغنيها كغيرها من الألحان الخفيفة الشائعة إلا أنها تغنى في الحفلات الراقية بواسطة الهواة الذين يجيدونها. فمنها اللحن الوطني الذي ينشده جندي مصري أمام الملكة حين سألته من أي بلاد هو؟:

«أنـا مصريّ كـريم العنصرين   بنيتُ المجـد بنيت الأهـرامين

جـدودي أنشـأوا العلم العجيب ومجرَى النيل في الوادي الخصيب
لهم في الـدنيـا آلاف السنين ويفنَى الكـون وهم مـوجـودين
وأقـول لـك عـللي خـلانـي أفـوت أهـلي وأوطـانـي
حـبيـب أوهبْـت لـه روحي لـغـيـره لا أمـيـل تَـانـي

وفي هذه الرواية لحن وقف يعالجه مدة طويلة حتى سلس له، واستطاع نقله إلى عالم النغمات، وهو زفاف هذا الجندي إلى حبيبته في حفلة كبرى وقد ضاق المرحوم به ذرعاً، وثبت لديه أنني أتعمد معاكسته، ولكنه كان أشد مراساً وأقوى شكيمة، وكنت أعتقد أنني قدمت له من هذا اللحن قطعة من الفولاذ المسبوك ولكنه نفخ عليها فإذا بها قد طارت شعاعاً إلى علّيّين وهي:

المجمـوعـة:

زفُّوا العروسـة للعـريس الجميـل زيـنـة الـعـرسـان
البـدر يتمختـر وجنبـه تميـل وردة الـبـسـتـان

إحدى الجواري:

يـا رب تجعل في ليـالي السعود طـالـع الـنـجـمـيـن
واجعل سهامك في عيون الحسود واحـرسْ الاثـنـيـن

العريس للعروسة:

الليلة اتهنى وأشـوف في المنام صـدرك الـهـزاز
وافـرح واسقيني كاسـات المـدام خـدٌك الـغـمـاز

العـروسـة:

أنـت ظـهـر نـجـم سـعـودك ونـا الزمـان عوض صبـري
الـلـيـلة حـلوة بـوجـودك مـا تنتكبشي مـن عمـري

هذه الألحان ومثلها لم تسجل الآن في الفونوغرافات، وإن كانت مسجلة بالنوتة وتسمع من وقت لآخر أن جماعة من أنصار الفقيد عازمون على إبرازها ولعل ذلك يتحقق.

وأراني أطلت ولم أوف الرجل بعض ما يجب له، ولم أقدم للقراء إلا القليل من مخائل نجابته ومظاهر عبقريته، وأريد أن يجل باعة الفونوغرافات السيد الدرويش عن قولهم «ما يتْعَدَّاش». ففي تونس طائفة عظيمة من العازفين المثقفين لا يبدلون بالشيخ سيد درويش مغنياً آخر ولو وجدوا أسطواناته كلها لاستغنوا بها عن غيرها.

جريدة (الزمان) 2 ماي 1933

أم كــلــثــوم

كتبنا في العدد الماضي نبذة عن الشيخ سيد درويش، وعن طريقته التي ابتكرها في الموسيقى الشرقية، وقلنا أنه أسس مدرسة للفن الحديث تخرَّج منها الكثير من الملحنين والمغنين.

ونقول الآن إن الملحنين الذين اقتفوا أثره بعده لم يجرأ أحدهم على النطق بحرف من حروف الموسيقى في حياته، وإنما انطلقوا كلهم بعد مماته، كل يلحن بحسب قدرته. فمنهم من أجاد، ومنهم من تلعثم وتعثر، كذلك المغنين الذين أخذوا عليه الغناء، وتلقوا ألحانه منه مباشرة، سطع منهم في عالم الغناء نجوماً نيرة كنعيمة المصرية، وحياة صبري وغيرهما.

ولا تخوننا الذاكرة إذا قلنا إن الآنسة أم كلثوم ظهرت بعد وفاة السيد درويش وكان ظهورها على تخوت «المشائخ» الذين يرتلون تواشيح وقصائد المولد النبوي بغير الآلات الموسيقية، وكانت تنشد مع والدها الشيخ إبراهيم، وانتبه العارفون من أهل الفن إلى صوتها السليم الكامل وما زالوا بها وأبيها حتى أجلسوها على تخت الطرب، بين العود والقانون، ونحن إلى الآن لم يتح لنا سماع أم كلثوم إلا في الأسطوانات من بدء ظهورها إلى اليوم، وهذه الأسطوانات تكفي للحكم على هذه الفنانة الفريدة، فمنذ عشر سنوات كنا نسمع لأم كلثوم أسطوانات ليست لها أي قيمة فنية والناقد عندما يستمع للغناء يصوب ذهنه إلى:

ـ مؤلف القطعة وناظمها وعليه مدار كبير في نجاحها.

ـ الملحن وهو الكل في الكل.

ـ المغني وهو أقلهم مسؤولية.

فالكلام الذي كنا نسمعه في أسطوانات أم كلثوم، من حيث هو منظومات شعرية كان سخيفاً، وما لم يكن بالسخيف كان يوضع في غير موضعه. ومثل السخيف:

ـ أنا على كيفك. أنا على كيفك.

ـ شفت بعيني محدش قال لي.

وما أشبه ذلك.

وأما الأغاني التي كانت في غير ملحها هي تلك التي ينظمها رجال يتغزلون في نسائهم، يكلفون النساء بغنائها، مثل:

خايفْ يكون حبك ليَّه   شفقة عليه

ومتَى اللي في الدنيا ليه   يا منية عنيه

ومثل:

غاير من اللي هواكي

قبلي ولو كنت جاهلة

والذي يسمع هذا الكلام تغنيه أم كلثوم نفسها يحس بقشعريرة برد وغيظٍ ويأسف أن هذه الفتاة يدفعها إلى عالم الفن من لا يعرف كيف يفصل لها الحلى التي تتبختر فيها.

ولم يكن تقصير الملحنين أقل من تقصير الناظمين، فكان تلحينهم إما قديم معاد وليس فيه روعة القديم، وإما جديد تبرأ منه الموسيقى كلها، وجديدهم هذا كان صياحاً وصراخاً تنكره كل أذن.

ومع هذا فاسطوانات أم كلثوم كانت أروج الاسطوانات، والفضل في ذلك لصوتها وحده وهو الذي كان يواري سخف الناظمين والملحنين، هذا مع ما قيل في هذا الصوت من النقد، فقد أشار أحد أقطاب الفن في مصر إلى أن

صوت أم كلثوم فيـه حدة أوجفـاف، يذهب بجمـال المقامـات الموسيقيـة أو هو يخلطها ببعض وهذه الإشارة جديرة بالتصديق.

وأكثر أغاني أم كلثوم رواجاً هي القصائد العربية المعروفة، والتي تلقتها على طريقة كبار الملحنين كأبـي العلاء وغيره. ومنها قصيدة الأستاذ رامي من تلحين المرحوم الشيخ أبـي العلاء، فالأسطوانات التي تحمل هذه القصائد كانت موفقة في عناصرها الثلاثة (النظم والتلحين والغناء)، وهذا التوفيق جاء اعتباطاً وصدفة. لأن صناعة الأسطوانات في أيدي الأوروبيين، أووكلاء الأوروبيين وهم لا يعنون إلا بالمغنية التي تشتهر عند الجمهور، وهي وحدها التي تعنيهم ليبعوا أغانيها للجمهور، ثم هم لا يتصلون بالبيئات الأدبية العربية ليختاروا الزجال، أو الشاعر القوي، بل الزجل أو الشعر الذي يغنيه المغني يكون في الغالب من نظم أحد تلامذة المدارس، أو أحد الهواة العاجزين يقدمه هدية للمغني ويضمنه التغزل فيه، أو الثناء عليه، وهذا الأخير يغنيه... يغنيـه باطمئنان، كذلك أمر الملحنين عند هذه الشركات بالرغم عما يقال من أن لها إدارات فنية ولعل هذه الإدارة الفنية قاصرة على المهندس الصناعي ولا شيء آخر.

فأم كلثوم اجتمعت حولها هذه الضلالات، وهي في أول بزوغها، وبدء نبوغها ولو جمعت الأقدار بينها وبين سيد درويش لما تأخر نبوغها هذه المدة الطويلة، ولنقل الآن ما هي أم كلثوم.

بضعة عشر عاماً كفيلة بأن تعرفها الحياة ونواحيها المختلفة، وأن تسير بها إلى الكمال، وتعرفها بالخطأ من الصواب. فهي قبل كل شيء قد ملكت زمام صوتها الملائكي ونفخت عليه من نار قلبها النسوي حتى رق، ولاَنَ، ودخل الأسماع إلى قلوب السامعين ثم اتفق لها حسن اختيار الزجالين والملحنين، ومن عهد قريب طبعت إحدى الشركات أسطوانة هذه الفنانة هي أعجب ما يسمع في الموسيقى العربية فناظمها وإن لم يذكر اسمه على الأسطوانة يدل نظمه على قوة وبراعة فائقة وذوق جميل إذ يستهل كلامه قائلاً:

ليه عزيز دمْعي تذلّه — كلّ ساعة بين يديك

بعد صبر العمر كلّه — وانشغال قلبي عليكْ

مش حرام واللّه حرام

وهذا الكلام يلحنه الأستاذ القصبجي، فيتجاوز حد الإبداع والتفنن في تلحين كل غصن على حدة، تلحيناً يلعب بالألباب، وتؤدي أم كلثوم هذا كله حسن أداء وتلهب اللحن بروح موسيقية لم تسمعها لمغنية قبلها. ومثل هذه الأغنية خليق بأن تكون مثالاً للأوج الفني في مصر، وتكون أم كلثوم قد تبوأت العرش الموسيقي في هذا العصر بلا منازع.

جريدة (الزمان) 9 ماي 1933

سامي الشوا

لم تعرف الكمنجة في مصر إلا من عهد قريب حين غنى الحَمُولي ومحمد عثمان، ومصر تعرف الكمنجة عن طريق الأتراك الذين جعلوها عنصراً في موسيقاهم. ومن أوائل المصريين الذين أجادوا العزف على الكمنجة «سهلون» العازف الإسرائيلي الشهير، الذي أرهفت له الأسماع، وتصدَّر في الحفلات الكبرى مع مشاهير المغنين، وقد وجدت الكمنجة في الموسيقى المصرية صدراً رحباً وولجت أسماع المصريين. لأنها تمصَّرت وهضمت الغذاء المسمَّى بالفُول والعدس، بخلاف الطنبور، والقيثارة، والفيولات. وظل «سهلون» هذا حاكماً مسيطراً على هذه الآلة ذات الخصر النحيل، والعنق الرشيق مدة طويلة إلى أن ظهر سامي الشَّوا السُّوري الأصل، والمصري المولد والنشأة، فأخذ مكانه بجانب سالفه وأستاذه سهلون: نقول بجانبه لا خلفه إذ ظهر وله طريقة معجبة تلقتها كلُّ الأذان بالقبول والاستحسان.

ومات سهلون فانفرد سامي بعرض الكمنجة ولقب بأميرها إلى هذا اليوم، رغم ما ظهر من المجيدين الذين عرفوا أو لم يُعرفوا.

والفضل في ظهور سامي وشهرته يرجع إلى أمانته في أداء ما يسمع ويردده على أوتار كمنجته حرفياً، حتى أن الحذَّاق من المغنين كانُوا يفضلونه على غيره لتضامنه معهم أثناء الغناء واتّباعه لـمَا يقولون.

وتعرف من هذا أن سامي نال شهرته حين ظهر فناناً من نوع «الأرتيزان» أي لا يتجاوز الخطة التي ترسم له، وحسبك منه أنه يؤديها بأمانة.

وتعرف أن سامي قد اجتمعت فيه هذه الأمانة مع صدق الحاسة، ولما كانت نشأته مصرية محضة فقد استطاع أنْ يسمعك مصر بنيلها، وهرمها، وشفقها، ونسيمها على كمنجة. وما كان عليه إلا أن يصغي تمام الإصغاء ثم يردد أحسن الترديد. والترديد وحده هو أظهر مزايا سامي الشوا، وقد شعر في نفسه بهذه القدرة فكان وهو في الحفلات يقبض على كمنجته بيدٍ، وقوسِها باليد الأخرى كالـمُحارب الذي يحمل السيف والترس حتى إذا سمع ضحكة غريبة أو صوتاً شاذّاً قلّده في الحال، أو رد عليه رداً مضحكاً، ويكون عمله هذا موضع الضحك والمفاكهة أثناء استراحة المغني حتى أنه كان يعزف في هذا التقليد وهذه المداعبة لاعتقاده أن قدرته تتجلى فيهما، وتظهر أكثر من ظهورها في اتباع المغنين والاندماج مع رجال التخت.

وليس لسامي الشوا من الثقافة ما يعصمه من الوقوع في الزلل، فهو يعرف القليل من الكتابة والقراءة العربية، ويتحلى بالقليل الذي يلتقطه من مجالس الأنس والطرب التي يحضرها، لا سيما مجالس الأروستقراطيين عدا ما يتحلى به من الشهرة الذائعة والصيت الذي طرق الأسماع في جميع البلاد العربية. فلما انفتح للموسيقيين باب الاجتهاد والتجديد، ودخلت منه رياح الفوضى والاضطراب وجعل كل من يحمل عوداً أو كمنجة أو دربوكة يهذي بما يعرف وبما لا يعرف، دخل معهم سامي «ليجدد» و«يخترع» فأسمعنا «العاصفة» و«الصاعقة» و«حنين الأم» و«الفجر»، فانزلق وهو لا يشعر إلى أحد دركات السخافة والعبث الفارغ، وظن أنه حين يقلد العصافير وصوتَ المؤذنين وصريرَ العاصفة، أنه «يتفنن» ويقرع الأسماع بالطريف المعجب. وكم من حفلة أحياها سامي، فكان يستنزل دموع العرب والإفرنج وهو يعزف «على ضفاف النيل» والتقاسيم المصرية التي يؤدي فيها الفن المصري كما خلق. ولكنه يأبى إلا أنْ يجعل ختامه «زفت»، ويرعد الأجسام بعواصفه وصواعقه التي عنَّ له اختراعها.

وأتيح لسامي أن يعزف بين مختلف الأمم في سفراته التي قطعها، واستمعوا إليه كعازف شرقي كبير، وكان حريصاً على أن يسمعهم هذه

«المخترعات» فأسمعوه من قوارص النقد ما يردعه ويعيده إلى الصواب ولكنه لا يريد الإقلاع.

وقد يتسامح الإنسان في هذا الشذوذ مع فنان ناشيء مغرور يحلو له التقلب بين الخطأ والصواب إلى أن يهتدي بنفسه، ويستقر على طبيعته في آخر أمره.

ولكن من الصعب التسامح مع رجل كسامي فيه هذا الاعوجاج بعد طول خبرته وتمام نضوجه.

جريدة (الزمان) 16 ماي 1933

كتاب الفكاهة في اللغة العربية

هذا النوع من الكتاب عزيزُ الوجود في كل أمة، وقد يمر زمن طويل ولا يظهر واحد منهم، وأكثر ظهورهم يكون في الأزمان الخانقة لينفسوا الكرب عن أنفسهم، وعن الناس. وواضح جداً أن الكاتب الفكاهي لم يسمح لنفسه بالظهور إلا في عهد قريب لتواضع الناس في الماضي على التمسك بالوقار، والتحلي بالمجد، لا سيما في أوساط العلماء والأدباء. ولكن لا بد للضاحك من أن يضحك، وللساخر أن يسخر مهما كانت الموانع، فإن لم نجد في اللغة العربية كاتباً فكاهياً من ذلك النوع الذي تزخر به اللغات الأوروبية، فذلك لأن الكتابة كانت أداة لنيل المناصب الوزارية، وما أبعد الوزراء عن الضحك والإضحاك، ولكننا رأينا في لغتنا شعراء عوضوا النقص في هذا الإنتاج الفني الذي لا تستغني عنه الحياة. ولما كان الساخر الضاحك معرَّضاً لغضب الناس، ورهينا بانتقامهم، فقد لجأ إلى الشعر لينتفع بحصانته، والمعروف أن للشعراء أن يكذبوا ويقولوا ما لا يفعلون.

ويبدأ هؤلاء الشعراء بأبي دلامة، أحد شعراء المنصور، وصاحب الحظوة في كل أجنحته، ويكر بعده جيش جرار فيه ابن حجاج الذي كان يباع ديوانه في حياته بخمسين ديناراً، ومثله ابن سكرة، وأبو الرقعمق، وابن عنين، ثم ابن الرومي، وهو صاحب مدرسة مستقلة في هذا الفن.

وعندنا من الكتَّاب كاتب وحيد يجدر بأن يسمى الكاتب الفكاهي العربي وهو أبو عمرو بن عثمان الجاحظ، وكتبه زاخرة بالسخر من الملوك، والتهكم على علماء زمانه، والتشفِّي من كل ذي منصب رفيع. وفي كتابه

(الحيوان) لا يترك صفحة إلا ويدس فيها نكتة لاذعة عن حياة الرشيد، وما فيها من جوار عانسات يعملن في الغرام كل حيلة خفية، أوعن المأمون ومن حوله من العظماء المتقلّبين في نعيمه، كل ذلك بأسلوب دفين لا يدركه من يقرأ كتاب (الحيوان) للحيوان.

وكتابه (البخلاء) هو الكتاب الصريح في هذا الفن، ومن اسم الكتاب يتبين لك ما يضمره الرجل لهؤلاء البخلاء من تشنيع ونبذ، وما يخفيه لهم من حفيظة وغيظ فقد نقب عن مثالبهم ومخازيهم، وجلس على موائدهم يحصي حركاتهم وسكناتهم وما يقولونه لضيوفهم ومؤاكليهم.

والأشخاص الذين كانوا هدفاً للجاحظ ومحل سخره ونكاته، جلهم من رؤساء الدولة وعظماء العصر، وقد يكتب عن البلد بجملته ويصف بخل من فيه من الآدميين والحيوانات لأن أحد أبطال كتابه ولد في هذا البلد ونشأ فيه.

ولو كان الجاحظ في زمن غير زمنه، وكان الأمر متروكاً له لما رأينا له كتاباً واحداً يوصف بأنه من كتب العلم، أو الشعر، أو اللغة، فهذه الكتب كانت أثقل شيء على نفسه. وكتابه (البيان والتبيين) الموصوف بأنه من أمهات الأدب العربي يكاد لا يطاق لزهومته واضطرابه. والظاهر أنه كان يكتبه مسخراً ليقال إن له شيئاً في الجدِّ الذي يزدان به العلماء، وقد كتبه بلا مراجعة ولا تنقيح وحشد فيه كل ما يعجب به أهل الوقار والورع، وما يفخر به الرواة والعلماء.

وماذا تريد من رجل يصاب في خلقه بالدمامة والجحوظ وضعف البنية، ويعيش طيلة حياته معدَماً يثري يوماً ليفتقر أعواماً، على ما يشعر به في نفسه من التبريز على أقرانه في كل علوم عصره من عربية وفارسية ويونانية، وهندية، وعلى ما رزق من ذهن جبار، وإحساس دقيق، وإحاطة ببواطن الأمور. ومثل هذا لا يعيش إلا ليسخر من أهل الأرض ويهزأ بظواهرهم قبل بواطنهم، حتى العلم والعلماء فما كان كل ذلك إلا مادة يتفكه بها فهو لا يقعد في حلقة الدرس ليفهم أو ليتفاهم، وإنما ليلاحظ حركات المدرسين والمعلمين ويروح فيؤلف لها كتاباً يضحك الثكلى.

وفكاهة الجاحظ ليست من النوع المكشوف الذي يسهل فهمه على القارىء البسيط، وقارىء كتاب (الحيوان) لا يدرك ما فيه من النكات إلا إذا كان مطلعاً على هذا العصر إطلاعاً واسعاً، وإلا إذا كان أديباً دقيق الحس لا يفوته شيء من الغمز والهمز، وكثير ممن يحملون الشيء المسمى بشهادة «العالمية». يقرأون الحيوان فيعقد النعاس أجفانهم، بينما رجل كشوقي يتحدث عنه أحد أصدقائه قائلاً:

«سافرت أنا وشوقي إلى الأستانة، ونزلنا فندقاً في حجرتين بينهما باب مغلق، فكنت أسمعه وهو في فراشه يضحك ضحكاً متواصلاً، فسألته من خلف الباب: من عندك؟

فقال: «عندي الجاحظ». ولو كان كل قارىء يفهم الجاحظ كما يفهمه شوقي وأضرابه، لكانت كتبه في كل بيت.

ومعظم كتب الأدب العربي على اختلافها عنى أصحابها بقسم من الفكاهة، لا فضل لهم فيه غير الرواية والجمع، وأكثر ما جمعوه يسندونه إلى الجاحظ هذا.

وكان في الأندلسيين كتاب ألفوا لبعض الملوك رسائل يقصدون بها إضحاكهم ولم يقف أحد على شيء منها.

ومع أن الضحك عاطفة أصلية في نفس كل إنسان، فكان جديراً بها أن تظهر كتاباً لأحد الأدباء في كل زمان ومكان، كظهورها في حركات المهرجين الذين يتماجنون ويمخرقون، ولكن وقار الكتابة كتمها وأسكتها، وانفسح لها صدر الشعر.

وممن ضحكوا وسجلوا ضحكهم شاب من أمراء المماليك السلجوقيين على ما نذكر يدعى «اليشبغاوي» له كتيب صغير يوجد في دار الكتب بالقاهرة، وهو غريب في بابه سجل فيه كلاماً يشبه هذيان الحشاشين، ولكنه ظريف

---

(1) أعلى الشهادات التي كانت تمنح بجامع الزيتونة وبالأزهر.

خفيف. والظاهر أنه ضمن هذا الكتاب مذكراته منذ وعى، ويذكر أنه وهو في الرابعة من عمره خلت به إحدى الخادمات في مقصورة ونزعت سرواله وسروالها وقالت هِيتَ لك، ثم يذكر كل ما قالته له من العبارات لتحريضه، وأخيراً ما قالته له عندما خاب ظنها فيه. وفي هذا الكتاب فصول ومراسلات بينه وبين إخوانه، والكثير منها غير مفهوم، وله قصيدة يعرفها كثيرون على جهلهم بالكتاب وصاحبه وهي التي يبدؤها بقوله:

عجب عجْب عجب عجبُ قطط سود ولها ذنبُ

ومنها:

الناقة لا منقارَ لها والوزة ليس لها قتبُ
لا تغضب يوماً إن شُتمت والناس إذا شتموا غضبوا

وفي القرن الماضي ظهر في مصر عدة كتاب فكهون أضحكوا الناس زمناً طويلاً، وإمامهم عبدالله النديم الأدريسي صاحب مجلة «الأستاذ»، واقتفى أثره محمد توفيق صاحب مجلة «الحمارة» ثم إمام العبد، وكانت مادة فكاهتهم من اللغة العامية والأزجال، وهم الذين فتحوا هذا الباب المسمى «الإعراب» وبالغوا في المَخْرقة والتحامق، واللعب بالألفاظ إلى درجة أعجزت غيرهم. وسلك كتاب آخرون طريقتهم من بعدهم، فأخفق معظمهم، وبقي منهم الأستاذ حسين شفيق المصري، وقد انتقل أخيراً من التنكيت اللفظي إلى التنكيت الذهني حسب تطور عقول القراء وقد يرجحه الآن الأستاذ فكري أباظة المحامي بطريقته التي ابتكرها، أو التي لم تكن معروفة في الصحف العربية من قبل.

وإذا ارتفع حجاب الخجل وزالت الموانع العرفية فسيظهر في اللغة العربية كتاب فكاهيون لا يقارنون بغيرهم.

جريدة (الزمان) 6 جوان 1933

إمـام الـعـبْـد

كل كاتب وقارىء في مصر يردد اسم هذا الأديب، وفي كل مجلس تذكر فكاهاته الظريفة ونوادره المستملحة. وكانت بشرته السوداء تضاعف فكاهته وملاحته، أو هي كانت له وسيلة كبرى للإعلان إذ لم يعرف كثير من ذوي البشرة السوداء ضربوا بسهم في كل فنون الأدب كما فعل إمام العبد.

ولد هذا الأديب في منزل رياض باشا الوزير المصري الكبير، وكان والداه زنجيين من خدم الوزير. ولكن نبوغه في الأدب والفكاهة خرج به من بين الخدم إلى مجالس الأدباء والشعراء، وكانت له بديهة قوية في النكتة يرسلها قوية خالدة تتناقلها جميع الطبقات، وقد اشترك في تحرير بعض الصحف الهزلية فكان من أقطاب الكتاب الفكاهيين ينظم الشعر والزجل، ويرتجل التواريخ المنظومة ويخترع كل مضحكة من القول والفعل. ومن شعره وقد اقترح عليه الأستاذ خليل مطران بك أن يتزوج:

يا خليل فداكَ كلُّ خليل ....

أنا ليل وكل حسناء شمس ومحالٌ اجتماع شمسٍ بليل

وأزجاله لا يحضرنا منها شيء.

وكان إمام يائساً في حياته ونكاته كلها تدور حول بؤسه. كان يسير في الطريق ليلاً إلى بيته وهو بعيد فرأى حوذياً يسير بمركبته الفارغة على مهل وهو يغني بصوت حسن.

فسأله:

ـ يا أسطى ما تحبش «سميعه»؟

فضحك الحوذي وأركبه معه وذهب به إلى بيته.

ودخل مرة إلى دار الوزير رياض باشا وجلس أمامه فتشاغل عنه زمناً طويلاً وأخيراً سأله:

ـ عاوز إيه يا إمَام.

ـ جئت يا مولاي أزورك لأنـك سيدي وولي نعمتي، ولا غنى لي عنك...

ـ لكن أنا عتقتك.

فقال امام:

ـ لكن أنا ما اعتقتكش..

وبمثل هذه النكتة يملأ جيبه ويخرج، وكان كثير التشنيع بحافظ بك إبراهيم، ويذكر عنه أيام بؤسه نكاتاً يؤلفها من عنده منها أنه قال:

«دعينا إلى حفلة غذاء في «المرج» عند فلان وركبنا القطار جماعة كثيرة العدد دفع كل منا تذكرته من جيبه. وبينما القطار يسير بنا بين الرمال والحفائر أبصرنا حافظاً يمشي إلى الدعوة على قدميه بجانب القضيب. ولما كان متأكداً أن القطار القادم يقلنا جميعاً فقد مشى يتبختر بجانب القضيب ذهاباً وإياباً وإحدى يديه خلف ظهره وفي الأخرى عصاً وضعها بين أصابعه من وسطها، وجعل يوازنها يمنة ويسرة ويصفر كأنه يتنزه في هذا المكان أو ينتظر غادة حسناء بين الجبال والرمال.

ومثل هذه النكتة يجب سماعها من إمام نفسه وهو يمثلها بحركاتها.

ويذكر بعض أصدقائه أنه كان جالساً معهم إذ أقبل أحد الصحفيين وقد

أصدر جريدة جديدة سماها «المعرض» وحمل نسخة من عددها الأول ليريها لاخوانه فتناولتها أيديهم حتى وصلت إلى يد إمام العبد فقطع من طرف الجريدة طرفاً صغيراً ثم نشرها في الهواء أمام الأعين وهو يقول: اقرؤوا الاسم الذي اختاره صاحب الجريدة. فقرؤوه جميعاً «المعرّص».

والفترة التي كان يعيش فيها إمام كانت فترة سرور ومرح، غفل عنها الزمن فظهر فيها الكثير من الأدباء والشعراء الضاحكون والمجان العابثون، وكانت مجالس الأنس في القاهرة لا تخلو من واحد من طراز إمام العبد.

ومن فكاهته التي تصعب كتابتها ولا تغني عن سماعها بالأذن ورؤيتها بالعين أن محفلاً عقد لسماع محاضرة من أحد الفقهاء المشهورين بإجادتهم في الوعظ. ولكن الشيخ لم تكن له عند العارفين قيمة علمية أو أدبية وهو مع ذلك يتمتع بين الجماهير بشهرة فائقة.

وبينما الجموع محتشدة في انتظار الشيخ واستماع وعظه ومحاضراته إذ أقبل إمام وهو سكران في جماعة من أصحابه، وعلى إثره جاء الشيخ الواعظ فوقف له الحاضرون وفي هذه اللحظة صعد إمام على منصة الخطابة فأنصت الناس. وجلس الشيخ الواعظ ممتعضاً وانتظر الناس ماذا يقول إمام العبد فقال:

ــ قال الشيخ:

وسكت ثوان وقال:

ــ الشيخ قال.

ورفع رأسه إلى فوق وأعاد:

ــ ألم أقل لكم قال الشيخ؟

وأحنى رأسه واستمر:

ـ الشيخ قال يا سادتي.

ولكن إماماً كان يلقي هذه الجملة الوحيدة في كل مرة بنبرات مضحكة فتعلو القهقهة من كل سامع، وظل ساعة كاملة يترنح ويميل ويكرر «قال الشيخ» لا ينقصهـا ولا يزيدها حتى نسي الحاضرون الواعظ المحاضر وخرج غاضباً وبقيت الليلة لإمام العبد.

جريدة «الزمان» 27 جوان 1933

مصر تبحث عن قبر ابن خلدون

من واجب العالم كله البحث عن قبر هذا الرجل الذي يعد المثل الأعلى لكمال العقلية العربية ونضوجها، والذي نبه الفكر الإنساني من غفلته وفصل بقوة ذهنه بين حقائق التاريخ وأباطيله.

وقد يكون أول كاتب عربي لا يمسك القلم إلا بعد أن يفحص ويدقق، ثم يرتب ويبوب ليخرج بذلك إلى نتيجة صحيحة يرضي بها العالم.

لقد كانت لمعة خلابة تلك التي برقت في تونس في حفلة ذكراه المشرقة، فنبهت أذهان إخواننا إلى القيام بواجب ضيفهم الراقد في ترابهم. ونعلم أن البحث جارٍ في القاهرة عن قبر ابن خلدوننا العظيم بدقة وهمة.

في سنة 1232 ميلادية، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يترنح للسقوط، أي في الوقت الذي بدأت تخبو فيه أجمل جوهرة صاغتها المدنية. في ذلك الوقت ولد بتونس عبدالرحمان بن خلدون سليل العائلة التي تقلبت باشبيلية في أرفع المناصب، وقد انتقلت عند الملوك الحفصيين حيث صادفت عندهم المقام السامي، والمنزل الرحب وقلدوها مناصبهم المهمة.

ولما اعتزل والد مؤرخنا الحياة السياسية، وانقطع للوظائف الدينية، تفرغ لتربية ولده، والعناية به حتى بلغ السادسة عشر من عمره فحفظ القرآن وتفهم العلوم الشرعية بنشاط ودقة.

وفي سنة 1352 وقعت حادثة عظمى في حياة والده، إذ احتل أبو الحسن سلطان فاس تونس التي كان يحلم بها، والسلطان أبو الحسن هذا من عائلة

عرفت بحبها للعلماء والفنانين، وفي عصرها ازدهرت المعارف أيما ازدهار، وكان لديهم نخبة من خيرة هؤلاء العلماء وهؤلاء الفنانين الذين كان همهم نشر ثقافتهم في البلاد التي يدخلها سلطانهم أبو الحسن. ولما كان صغيرنا ابن خلدون مفطوراً بطبعه على البحث والدرس فقد اتصل بهم وانتفع بعلومهم الفائقة، ولكن دولة أبـي الحسن لم يطل أجلها في تونس حيث انهزم في القيروان شر هزيمة. وخرج عليه ابنه في فاس يريد الاستئثار بالملك، وقد انفض هؤلاء العلماء والفنانون من حول أبـي الحسن وصبر ابن خلدون بعد ذلك أربع سنوات ثم التحق بهم.

وفي سنة 1347 فارق ابن خلدون وطنه وعائلته ومكث قليلاً ببسكرة، ثم واصل سيره إلى المغرب وبعد إقامته بفاس مدة قليلة كان قائماً بإحدى الوظائف المخزنية وعمره عشرون عاماً، ومن حوله المعجبون به والمقدرون لذكائه. ولكن ثورة الشاب وسعَة الآمال وبعد الهمة، كل هذا جعله يغادر دائرة هذا الملك إلى دائرة ملك آخر هو السلطان أبو عنان بن الحسن واشترك معه إلى جنب في حملته على بجاية، ولكن لما رجع إلى فاس تلقى أول عقوبة من العقوبات الواجبة للشبان، إذ انتقد سلوك هذا السلطان في حملته وعاب عليه تَصرّفه.

وفي سنة 1362 كان ابن خلدون في اسبانيا حيث جعلته غرناطة سفيراً لدى «بير لوكورويل» ملك قسطيليا، فأبصر الملك أمامه شخصاً ممتازاً تتوفر فيه كل شروط «الديبلوماسية» فأراد الاحتفاظ به. ولكن ابن خلدون غادر اسبانيا كلها ليحقق أحلامه في الأسفار والاطلاع على الممالك والأمصار ليكتب عنها أصدق تاريخ يكتبه مؤرخ بعد اختياراته الشخصية. وبالرغم عن إلحاح ملوك الأندلس عليه في البقاء قصد بجاية حيث أصبح فيها الوزير الأعظم، ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً إذ قتل سلطان بجاية في إحدى المعارك، وبعد عدة مساع ومحاولات انتقل ابن خلدون إلى الملك «بو حمو» ملك تلمسان.

وفي عام 1374 كان قد تجرع الغصص من مرارة المناصب العليا. وشبع من أخطارها فانزوى في إحدى ضياعه بقرب «تيهارت»، وفي هذه الوحدة دوَّن قسماً من تاريخه العالمي، وهو التاريخ الذي يميّزه على كل مؤرخي عصره. وقد

رأى أنه ينقصه الكثير من المعلومات، وظن أنه يستطيع الحصول عليها من تونس فعاد إليها ثانية، وأتم فيها تاريخه. ولما فرغ من هذه الخدمة العظمي التي أداها للمكتبة العربية أراد السفر إلى الحجاز، ومكث بالقاهرة عامين كان فيها قاضي القضاة، هذا المنصب الذي عزل عنه وأعيد إليه ثلاث مرات.

وترى ابن خلدون أضيق الناس ذرعاً بقبول الوظائف فما لهذا خلق الرجل. وإنما غايته أن يعيش مستقلاً، ويجلس على عرش العلم والمعرفة ضارباً صفحاً عما عدا ذلك. وقد كانت المدة التي قضاها في القاهرة حرباً بينه وبين الكثير من علماء مصر الذين لم ينظروا إلى هذا النابغة التونسي بعين الارتياح، وما كان تخليه ثلاث مرات عن منصب القضاء إلا بسبب التدابير والسعايات التي يحيكونها حوله. وناهيك بالقال والقيل في حق رجل يدخل بلداً فيعتزل أهله وينفرد وحده ويفر منهم بحكم تربيته وعوائده، إلا أخصاء قلائل امتزجوا به وصافوه أحسن المصافاة. ومما كرَّه إليه الاشتراك في غمرة الحياة المصيبة التي حلت به إذ غرقت السفينة التي تحمل أهله وأمواله إلى مصر.

في ذلك الوقت كان «تيمورلنك» الجبار التّتري يغزو سوريا، وقد سحق جيش حلب وسار في طريقه زاحفاً على دمشق، وكان الملك الناصر ملك القاهرة أرسل قوة لنجدة السوريين فرأى ابن خلدون الفرصة سانحة لاتمام تاريخه الذي لا يشغله شيء سواه، فسافر مع الملك الناصر ووقع معه أسيراً في قبضة تيمورلنك. وقد جعل تيمورلنك حرية ابن خلدون رهينة بمأمورية سرية، وهي كتابة خطاب إلى الدوائر العليا في القاهرة يخدعهم به في بعض المسائل، فقال ابن خلدون لو كتبت هذا الخطاب وأنا أسير في قبضة يدك لعلموا أنه حيلة أريد بها الافتكاك من الأسر، ولكنك لو أطلقت سراحي ورضيت عني لكان الأمر أوقع وأحسن، واقتنع تيمور بذلك في النهاية فأطلق سبيله لما سبق إلى سمعه من وفرة علمه وفضله، وما شاهده بنفسه من ذكائه وحصافته.

وفي سنة 1406 غادر ابن خلدون هذا العالم بعد أن أناره بمصباحه الكبير وهو في الرابعة والسبعين من عمره.

وكان ابن خلدون أنيقاً في ملابسه وحركاته، فصيح اللسان خطيباً مفلقاً، يتمتع بعقل نادر مستقل. وهذا الاستقلال العقلي هو الذي جعله يفحص ويدقق في كل علومه التي تلقاها وينظر إلى التاريخ نظرة جديدة.

وأحسن ما كتب ابن خلدون هو مدونته التي شرح فيها فلسفة التاريخ، وأحاط بنفسيات الأفراد والشعوب، وأجاد فيها الكتابة عن العرب والبربر. كما اختص هذين العنصرين بأكبر قسم من تاريخه الذي حققه بنفسه ونقده بعين بصيرته، ومقدمته التاريخية هذه تمتاز بأن وضع فيها للتاريخ القاعدة الثابتة، وهي أن التاريخ يعيد نفسه. ويعتقد بذكائه الفطري أن الأمم لكي تسير إلى الأمام يجب أن تستضيء بما كان في ماضيها فعرض على الأمم هذا الماضي ناصعاً نقياً بعد أن نفى عنه الزغل والخرافات والقصص الخيالية.

وبذلك كان ابن خلدون أستاذاً «لكوميم» المؤرخ الملوكي. وفولتير وفوستيل دوكوليتش لأنه أحيا نظرية «ناسيت» و«توسيديد» المؤرخين الرومانيين.

فالشرقيون حين يحتفلون بابن خلدون، أو يبحثون عن قبره فهم يرفعون في العالم تذكاراً لأشمخ منار عرفته المدنية.

جريدة (الزمان) 27 جوان 1933

المتنبي

يحتفل العالم العربي من شرقه إلى غربه في هذا العام بذكرى أبي الطيب المتنبي لمرور ألف سنة على وفاته، وقد تحتفل تونس بذكراه قريباً في جامعتنا الخلدونية. ولا ضير إذا سبقنا حفلة الخلدونية بكلمة عابرة نكتبها عن الشاعر العظيم تاركين الدراسات المطولة للأدباء الذين سيوفونه حقه يوم مهرجانه. وكلمتنا التي نقولها في المتنبي مؤلمة، ولو كان حياً يسمعها ما استطاع أن يضعها تحت قدميه كما كان يقول.

جعل الرجل مثله الأعلى الذي يسعى إليه وظيفة كبرى، يتربع في دستها والياً أو عاملاً، ويضرب أعناق الرجال، ويروي رمحه من دمائهم غير راحِمَ وهذا هو المجد كما وصفه في قصائده.

والمتنبي ولا ريب أجل شعراء العربية، وهو يشعر بجلالته ولكنه يتجاهلها ويطلب الكمال في الثراء والقوة والركوب على ظهور الناس كلهم. لأن صورة أبيه السقاء ماثلة أمام عينيه، ولا يعجبه أن يكون ابن سقاء فقير وهو يعيش في جيل لا يسود فيه إلا صاحب المائة ألف دينار الذي حمل إليه بائع البطيخ عشر بطيخات بدرهمين، ورفض أن يبيعها لأبي الطيب الفقير بخمسة دنانير.

هنا ظهر المتنبي بكبريائه التي لا تطاق، وتجاوزها إلى النطاعة والسخف. يدخل عليه أحد العلماء المعروفين فيتركه جالساً ويتشاغل بأوراق أمامه ينظر فيها ساعة، ثم يرفع رأسه إليه ويقول: ماذا تريد؟

ويدخل عليه آخر فيقوم ويدخل مخدعه ويعود للزائر لابساً عشر شملات ملونة لينزعها في مجلس الزائر واحدة بعد أخرى. ويهدي إليه سيف الدولة سيفاً فيهزه في يده معجباً به، وينظر إلى أحد الجالسين معه في المجلس ويسأل الأمير:

أتـأذن لي ولك المكـرمات   أجـربهُ لـك في ذا الفتى؟

رجل هذه غطرسته ونطاعته، يبغضه الناس ولا يحجمون عن تأديبه بالحق والباطل متناسين فضله وأدبه، ونرى الشعراء الذين هجوه لم يتعرضوا لفنه ومقدرته وإنما أتوه من قبح وجهه ودمامته.

«ولو كنت أنت نبياً فالقِرد لا شك ربـي»، بل إن سيف الدولة الذي دلله ونزل عند شروطه ولم يتركه يتمادى في قوله:

سيعلم الجمـع ممن ضمَّ مجلسنا   بـأنني خيـر من تـسعـى قـدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلمـاتي مَن بـه صمم

الخيـل والليـل والبيـداء تعـرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فضربه بدواة أمامه شجّت رأسه، وتطاولت حاشية سيف الدولة على الشاعر، فمنهم من يصفعه بتهكم مقذع، ومنهم من يضربه بما يحضره من عصا أو مفتاح، والأمير يرى ولا يتحرك له ولا ينصره.

ونحسب أن تهمة النبوة أكبر عقاب نزل به، فلا نصدق أن صاحب هذا العقل الكبير تحدثه نفسه بتقليد (مسيْلَمة) وأجلاف الأعراب، فيدعي النبوة وإنما ألصقها به الناس لصلفه وعجرفته، وقد كان جديراً بهم أن يسموه المتأله لا المتنبـي.

قصائد المتنبـي وحدها كانت كفيلة برفعه إلى ذروة المجد، بل كفلت له المجد رغم أنفه إلى آخر الدهر، ولكن المال عنده قبل كل شيء. ويؤلمه أن يأخذه في شكل جوائز وصلات ممنوحة، بينما هو يطلبه في شكل ضرائب مقررة يدفعها له الناس وهم صاغرون.

أهذه طباع شاعر؟

يوجد كثير من الناس لا يرون بأساً في هذه الكبرياء المصطنعة، وهم الذين يلوحون بما في أيديهم من خواتم الماس، ويتعمدون فتح صدورهم ليظهر ما علق عليها من سلاسل الذهب، ولا يعجبهم أقل من أن يبدأهم الناس بالسلام، ويستقبلوهم قائمين. ويقولون هكذا الحياة، لا بد فيها من التعالي على الناس بمال أومنصب لتحصل على الكمال؟ وهي والله سخافات تورط فيها الناس قبل المتنبي وبعده تستضحك الآن.

تشاء المقادير أن ترمي بهذا الشاعر المتكبر إلى أعتاب كافور الزنجي الجالس على عرش مصر، ويعلم شاعرنا الهمام أنه سوف لا يأخذ درهماً أو دانقاً أو ولاية قبل أن يقف بين يديه، ويقول له يا أسد الأرض، ويا بدر السماء، ويا رزاق العباد بجودك وفضلك. موقف مسرحي بديع يستحق أن يشاهده أعداء المتنبي وأحبابه. فارس الخيل، والليل، والقرطاس، والقلم سيلقي قصائد المدح أمام خصي كان سادته يربطونه من رقبته بحبل ليف، وأهل الأسواق يصفعونه متفكهين وهو يضحك ويهش بيده، كما يهش على الذباب. ضع أمامك ديوان المتنبي واحص القصائد التي قالها (ولم ينشده إياها)، والقصائد التي ألقاها بين يديه، وافحص هذه الأخيرة ولا تحسبها لحلاوة ألفاظها وجودة معانيها من روائع المديح، كما فهمها العلماء والنقاد المحتشدون في مجلس كافور، أو الذين جاؤوا بعدهم وقرؤوها إلى اليوم ولا يزالون على هذا الفهم.

قارن بين مشفر كافور وبين هذا المطلع البديع «أغالب فيك الشوق والشوق أغلب» تجد أن المتنبي يرسل على الزنجي لفحات من السخر المسموم، ظاهرها الاجلال والاعظام، وباطنها يعلمه المتنبي وابن جني العبقري المشهور الذي كان يدون شعره. تأمل مدائحه في كافور تجدها ــ عدا التي تضمنت الهجو الصريح واللمز الظاهر ــ لا يجد فيها النقاد مغمزاً يأخذونه به. وكم من أمير تمنى لو قيل فيه ما في كافور، ولكنك بحاسة خفية تدرك ما يختفي تحت هذه القصائد البارعة من عقارب وأفاعي تحس فحيحها وضربها، ولكنك تحاول القبض عليها فتعجز، هذه مقدرة لم يؤتها أحد من شعراء الدنيا إن لم نبالغ.

فما حاجة من يتمتع بهذه العظمة، وينتصر هذا الانتصار إلى عبيد وشملات ملونة وولاية يذل بها الناس؟.

جريدة (الزمان) 24 مارس 1936

هـذا عهـد الله

سواء كان هذا القلم يقطر حبراً أو دماً صبياً، فقطراته ضائعة كتلك التي يسقطها السحاب في الصحراء، تتبخر ولا يراها غير الله. ما أضيع الحبر على الورق، وما أبشع هذه الجرائد التي تظهر مخططة إلى أعمدة كريهة كأنها قضبان نافذة السجن، أو الأرض التي خططها المحراث وانبسطت تنتظر كرم السماء، وكذلك تنتظر الصحيفة صنتيمات القارىء الكريم وعليها تموت وتحي.

أيها القارىء الكريم:

لعنة الله على من لا يصدقك أنَّ أثقل شيء على النفس هي الصحف بجميع أنواعها، وأنا مثلك لا أستعملها إلا لجلب النوم، أو لف الحذاء القديم، ولو كنت غير مسلم لاستعملتها للمرحاض فقط، وأنت لو حدثوك عن المحررين فابصق، أو عن المؤلفين فتثاءب، وعن الشعراء فلا تسأل، وردة في اليد خير من القلم، ومنديل تزين به خارج صدرك أبقى من عِلم تحشو به داخله، وربَّ ساعة ترقص فيها مع حسناء متأودة خير من حياة كاملة لذلك الرجل المسمَّى بالكاتب والذي يمكنك قراءة هذيانه وأنت خير منه.

أيها القارىء الكريم:

أطلب عفوك عن أربعة أعداد أصدرتها من هذه الجريدة على مثال الصحافة المعروفة، فيها أخبار صفاقس، والجريد، ورسالة بنزرت، والقيروان، وأعاهدك بعهد الله ألا أذكر لك شيئاً عن الأزمة فأنت أعلم بها مني، ولا أخبرك عن دار تهدم أو تاجر يفلس، أو بنك يغلق، أو توظيف يوقف، ولا بأخبار هتلر، ولا ببرلمان انجلترا أو بولونيا، وهذا ما لك عندي. ولي عندك أن

لا تعتبرني من اليوم صحفياً، أو تعتبر وريقتنا هذه جريدة فترسل لنا بأخبار أمك إذا ماتت، وبنتك إذا تأهلت، ووالدك إذا شفي من مرضه. فها أنا أقول لك مقدماً عظّم الله أجرك وأكثر نسل ابنتك ومدَّ في عمر أبيك. وأما هذه الوريقة التي أقدمها إليك بحروفها المطبوعة فلا تسميها أكثر من وسيلة تربطني بك. واعتبرها خطاباً وصل إليك من صديق أو قريب، ينوب عن رؤيته وجهاً لوجه وإن كان في هذه الوريقة من يسمي نفسه الكاتب الأكبر والمحرر الجهبذ والعالم العلامة فهو السيد محمد بنيس[1] وهو رجل لا يلتفت إليه ويجب تركه يتخبط في الضلال كيف شاء.

جريدة (الزمان) 13 فيفري 1933

---

(1) مدير جريدة (الزمان) وصاحب امتيازها، وقد كان محمود بيرم رئيس تحرير الجريدة كما هو معلوم.

كيف تكون صحفياً في تونس

إذا أردت أن تكون رئيس تحرير، أو مراسلاً أو كاتباً اجتماعياً، أو مؤلفاً فعليك أن تحفظ الكليشيهات الآتية:

لرئاسة التحرير:

ـ «الأمة متمسكة بمبادئها الحقة، محافظة على حقوقها المقدسة».

ـ «طالما بحت أصواتنا وجفت أقلامنا، ولا من يجيب».

ـ «البلاد من أقصاها إلى أقصاها تستنكر هذا الأمر وتحتج عليه بكل قوتها».

ـ «لا يخفى على من له ذوق سليم، وعقل مستقيم أن المسألة التي نحن بصددها اليوم . . .».

بعد حفظ هذه الكليشيهات تستطيع أن تكون رئيس تحرير (النهضة)[1] أو (الصواب)[2] عندما تصبح يومية.

مراسلـين:

احفظ هذا المثال واملأ المكان المنقوط بكلام من عندك، وبعد اعرض نفسك على الصحف الشرقية لتعيّنك مراسلاً لها:

«أقامت جمعية جماعة الـ. . . ليلة حافلة بمسرح. . . وقامت بتمثيل رواية. . . وما وافت الساعة. . . حتى اكتظ المسرح بأعيان وتجار يتقدمهم

(1) صحيفة تونسية أسبوعية.

(2) صحيفة تونسية أسبوعية.

حضرة الماجد... وقد أجاد الممثل البارع... في القيام بدور... كما أجادت مطربة العواطف وبلبلة الشمال الافريقي السيدة... في دور... الأمر الذي دعا الجمهور لاستعادته مراراً. وألقى الشاعر الشاب... قصيدة عامرة منها قوله:

....

وخرج المتفرجون وهم يلهجون على رجال هذه الفرقة وسنوافيكم بالتفصيل».

فإذا لم تقبلك إحدى الصحف البعيدة فإن جريدة (الوزير)[1] تحتاج إليك لتحرير قسم «صدى المسرح».

الكتاب الاجتماعيون:

عم الحاج عثمان صاحب جريدة (الزهو)[2] على تمام الاستعداد أن يقبل في بقعة بن شعبان[2] أي محرر آخر يستطيع أن يقول:

«إن السبب الذي هو من عدم الوعظ والإرشاد والقيام بالفرائض حق قيامها، وطالما أهملنا من أمر ديننا الحنيف، ومسائل شرعنا الشريف، فلذلك نحن على غاية التقهقر والتأخير، وقد وضح زميلنا ورصيفنا الكاتب الأكتب الأمير شكيب أرسلان هذه الحقائق مراراً وتكراراً. والناس عن كلامنا وكلامه في غفلة وتصامم، ولو سألتهم عن سبب ذلك لوجدت حجتهم أضيق من سم الخياط وأوهى من بيت العنكبوت...».

الكتابة الفكاهية:

ويستلزم التنكيت وخفة الروح وقد انفرد بها (النديم)[4] و(الزهو)، غير أن المثابرة والتمرين يوصلان إلى الغرض المقصود.

(1) صحيفة تونسية أسبوعية.
(2) صحيفة أسبوعية فكاهية.
(3) هو الكاتب التونسي مصطفى بن شعبان.
(4) صحيفة فكاهية تونسية

فإذا سقطت على تونس صاعقة أحرقتها من العاصمة إلى الكاف، ومن بنزرت إلى القيروان فاكتب هذا.

«يقال إن صاعقة وقعت على البلاد في هذه الأيام، وبالرغم عما يقال من أن هذه الصاعقة أهلكت كثيراً من العباد فإننا لا نزال نرى بعض الناس أحياء...».

بهذا ترتفع إلى الطبقة التي يكتب بها (النديم)، أما (الزهو) فطريقته أبسط وأقل مؤنة، وما عليك إلا أن تكتب هكذا.

«الصاعقة هبطت يا بليد فلا تقطع الذكر والتوحيد»

وفي باب أخبار متفرقة تدس سطرين كهذين:

«علمنا وأنه صاعقة دمرت قسماً عظيماً من البلاد التونسية، ومن الغرائب أن الصواعق صارت في الشرق بعد أن كانت في الغرب».

إلا أن هذه الأمثلة يمكن الاستغناء عنها والاستمرار في صناعة الصحافة بدونها، وعندك وسيلة أخرى أسهل، وهي أن تكتب اسمك في جمعية الكتاب والمؤلفين «بدار الجلد»[1].

جريدة (الزمان) 13 جوان 1933

(1) نهج دار الجلد حيث كان مقر جمعية الكتاب والمؤلفين التونسيين.

صاحبة الجلالة

نادت الصحافة بنفسها صاحبة جلالة وبايعتها الجماهير على الطاعة والاحترام وتقديس ما تقول، فاحتجبت الخبيثة تحت جلالتها وأخذت تفتك فتك الشطار، وتؤجر نفسها لأصحاب المطالب الحقيرة والمجرم الذي يحترف صناعة القتل مقابل دراهم معدودة.

فإذا سالت الدماء في بلد ما، وقامت الفوضى على قدم وساق ولم تشر الصحافة إلى ما يجري بكلمة أو سطر فليس هناك دماء تجري ولا فوضى حاصلة...

وما دامت الصحافة تقول إن الشعب الفلاني ثائر، أو الحكومة الفلانية على وشك السقوط فإن القول ما قالت حَذامِ.

وليس هذا الغش من المصائب الطارئة مع القرن العشرين فقد كان كل جليل القدر يستغل قدره ويتسفل إلى الفتك والإجرام.

والصحافة بعد كاللِّسان الذي يقال فيه إنه مخلوق للإنسان ليخفي به الحق.

لكن هذا الغش قد فشا واشتهر وعرف حتى عند العامة الذين يصدقون كل ما يكتب في الصحف، أصبح العقلاء من الناس إذا احتاجوا لمعرفة الحقائق التمسوا لها طريقاً غير الصحف فلا يكفي أن تقول «الانترانسيجان» أو تتكلم «الدبيش» ليصدقوا. فقد عرفوا أن الصحف أصبحت خاضعة للمال، وأنها جمعت من الطماعين المرتزقين من محررين ومراسلين من ليسوا أقل من الدلالين

والأوصياء على الأيتام. وفي مقدور أحدهم ــ في نظير رشوة ــ أن يصور تونس ثائرة، والجزائر تريد الانفصال، ومراكش تتأهب لمجزرة.

بقي علينا أن نقابل ما تكتبه صاحبة الجلالة بالإعـراض التام، وأن لا نحسب أي حساب لما تسميه الرأي العام الذي تزعم أنها تسيطر عليه وتسيره كما تشاء فليس الرأي العام في أوروبا أو أميركا بمنقاد لما تقول.

وقد لا يقرأ أخبارنا هناك إلا أفراد من القراء ثم ينسونها في الحين كما نقرأ نحن خبراً عن تعيين عضو جديد في الوزراة الرومانية.

وبهذا يضيع المجهود الأليم الذي تبذله صاحبة الجلالة وتضيع الأجور التي تدفع لها في سبيل الشيطان.

جريدة (الشباب) 5 مارس 1937

(الزمان) في السنة الخامسة (1928 ـ 1933)

كيف هي حالة المجرم التعيس إذا سمع كلمة القضاء بالحكم عليه خمسة أعوام بالأشغال الشاقة المؤقتة، تراه لو أتيح له أن ينفذ من أقطار الأرض والسماء لفعل. والصحفي هنا يؤسس جريدته وهو يرى بعينيه الهول الذي سيلاقيه طول حياته، ويقتحمه راضياً مختاراً وليس أمامه إلا ضياع عمره وصحته، وماله، ونهايته هي السجن الذي يستخدم في تكسير الصخور وحملها على ظهره.

ليست إلا نفحة من الله تلك التي تدفع بالإنسان إلى هذا المهمه القفر، مع وجود المغانم والراحة والعز في الأعمال الأخرى التي يزاولها سائر الناس، وما له من أجر إلا ما وعد الله عباده الشهداء والصديقين مُنىً في الدار الآخرة.

أما الأمة التي يشقى ليسعدها، ويحترق لينير لها الطريق، فيكفيه منها ابتسامة رضى أو إشارة قبول وامتنان.

كاد الصحفي أن يكون نبياً. . .

إن جريدة كهذه تسير على قدميها مدى خمسة أعوام، بين العواصف الهوجاء متخطية الأوحال والأشواك، لهي جديرة بالعطف إن لم تكن بالإعجاب والإكبار، ولها والحمد لله من ماضيها ما يرفع رأسها، ويشرف قدرها فلم تجعل بياضها بؤرة للإيجار، ولم تبع أقلامها بالدرهم والدينار، وكانت في جدها وهزلها وشدتها ولينها خاضعة لوحي ضميرها، لا منقادة، ولا مسخرة، ولئن صاحت يوماً في وجه من يتاجرون بالوطنية ويرفعون أعلامها رياء ونفاقاً فقد عرف الناس

من بعد أنها تقدمت بصيحة الحق وكشفت القناع عن الغش والتدليس، وسوف تبقى ماضية في منهجها مثابرة على خطتها لا تهتز فرقاً من الأشباح، ولا تنكص منهزمة من النباح. فالحق يسطع كالشمس مهما حجبتها السحب، وتلبدت فوقها الغيوم، فنورها يغشي الأبصار ويسير فيه الجاهلون والمتجاهلون.

جريدة (الزمان) 28 فيفري 1933

حـــريـــة الصحـــافـــة

كان سوء التفاهم أمر لا بد منه بين الحكومات والشعوب، الشعب يريد معرفة ما تنويه الحكومة وهذه تستطلع دائماً ما يضمره لها الشعب، والحكومات التي تأتي البيوت من أبوابها قد علت بينها وبين الشعب وسيلة لا سبيل معها إلى سوء التفاهم وهي الصحافة الحرة ليقول الناس ما يريدون ويسطروا بأيديهم ما تكنه صدورهم من خير وشر، وتصبح الحكومة عالمة بكل صغيرة وكبيرة دون أن تتكلف عناء البحث.

أما الحكومة التي تعتمد على قوتها وحدها وتضن على الصحافة بالحرية أو تمنعها من القول فهي تضيق على نفسها طرق المعرفة الصحيحة، وتضع بيدها على عينيها قناعاً كثيفاً لا ترى منه شيئاً ولا يبقي لها من وسيلة للوقوف على رغبات الشعب غير وسائلها الخاصة وهي تضلها أكثر مما تهديها.

مثَلها في ذلك مثل من يرى الطريق مفتوحاً أمامه ونقطة الوصول واضحة قريبة فيترك كل هذا ويدور في منعرجات ومنعطفات ليصل في النهاية إلى النقطة التي كانت أمام عينيه.

الواقع أن خنق الصحافة يضايق الحكومة أكثر مما يضايق الشعب.

لاحظنا في خطاب جناب المقيم في لجنة البحوث والاصلاحات وهو يتكلم عن حرية الصحافة في تونس بعد التردد والاحتراس، وكأنه يسره أن يطلق للصحافة حريتها ولكن. . .

فنقول أن حرية الصحافة لا خوف منها ما دام القانون العام يشرف على

رؤوس الناس كافة. والصحفيون التونسيون اليوم لا يفهمون من الحرية أنها الفوضى والثلب ونشر الأخبار الكاذبة إنما هم يدركون حدود هذه الحرية، ويعرفون ما لأنفسهم وما لغيرهم من الحق، ومن الممكن إذا أطلقت حرية الصحافة أن تظهر فيها الصحف الحمقاء والساخرة والشديدة اللهجة، لكن مع ذلك يجب قبولها بصدر رحب لأن بجانب ذلك فائدة أخرى للحكومة وهي الوقوف على الحقيقة.

ونعتقد أن صحيفة واحدة مهما كان أمرها توضع بين يدي المقيم هي خير من مئات التقارير التي ترسلها إليه الإدارات الرسمية وغير الرسمية، وتونس بلد تعددت فيه العناصر المتنافرة المتباغضة وكل منها يريد الفوز على الآخر والقذف به في الجحيم ولا يستثنى من ذلك أهلها أنفسهم.

والحقيقة أن تفويض الأمر لكتاب التقارير والجواسيس يفضي إلى نفعهم وحدهم واستخدام هذه السلطة لصالحهم قبل صالح الحكومة، والمعروف أن الجاسوس حتى في غير تونس يلوح سلطته للناس ويهددهم بقدرته على إلحاق الأذى بهم ليتقاضى منهم جعلا فوق ما يتقاضاه من الحكومة، ومثل هذ الجاسوس يستخدمه الناس في الانتقام من أعدائهم، وسريعاً ما يلبي الطلب ويحرر الوقائع المختلفة ليثبت لرؤسائه أنه يقوم بعمله ـ هذا إن كان الجاسوس ذكياً ـ أما الأغبياء من الجواسيس فخطبهم أعظم وضررهم أبلغ.

ونستطيع أن نذكر هنا واقعة معينة تدل على ألمعية بعض هؤلاء الجواسيس.

كان حضرته في قهوة على مقربة من جماعة يخوضون في الأدب العربي ويتطارحون أبيات الشعراء فذكر أحدهم هذه الأبيات:

عقَدوا الشعورَ معاقد التيجان	وتقلّدوا بصوارمِ الأجفَان
ومشوْا وقد هزوا رماحَ قدودهم	هزَّ الكماة عوالي المران
وتقلدوا زرداً فخلت أراقما	خلعتْ ملابسها على الغزلان

وأخذ الراوي يفسر أبياته ويشير إلى ما فيها من نكات البلاغة والاستفادة،

وكيف أن الشعور إذا عقدت على رؤوس الحسان زانتهن بأبهى مما تزين التيجان رؤوس الملوك، وكيف شبه هذا الشاعر لحاظهن بالسيوف القاطعة وقدودهن بالرماح التي تهتز في أيدي الفرسان ساعة النزال.

هذا وجاسوسنا الذكي الذي لم يكن يفهم من العربية إلا «قداشْ وعلاش ولواشْ» قد أخذ يقيد في مذكرته ما سمع من أسماء الأسلحة، والتاج، والملك، والحرب وفهم أنه أمام استعداد حربي كامل المعدات، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ألقي القبض على الراوي المسكين.

بعرض هذا ـ لا كله ـ كاف لأن يجبل الناس على الكذب وكتمان الحق برمته، وتتسع بذلك الفجوة بين الشعب والحكومة.

ليس لتونس في كل وقت مقيم مثل مسيو «بيروتون»[1] يفحص بنفسه عن الحق، ويستخلصه بمقدرته الخاصة من بين ثواب الزور والبهتان، فقد يأتينا من بعده من ليس له كفاءته وصبره وسعة صدره، وإذن من حقنا أن ننتهز فرصة إقامته ونطالبه بوضع نظام ثابت للصحافة يكفل حريتها في حدود القانون.

جريدة (الزمان) 29 ماية 1934

---

(1) المقيم العام على تونس خلال هذه الفترة.

المؤتمر الصحافي الدولي

المؤتمرات الدولية بجميع أصنافها وأنواعها تنتقل من مدينة إلى أخرى كالسائح الغني الذي يقضي صيفه في«الريفيرا»أو سواحل الأندلس، ثم يخطر بفكره فجأة أن يقضي الشتاء في دلهي أو القاهرة. وليس للمدن ترتيب عند أصحاب المؤتمرات، وكان اسم المدينة التي يقع عليها الاختيار يخرج بالقرعة العمياء. فمرة في «مونت كارلو»، ومرة في «يوكو هاما»، وأخرى في القدس الشريف. وظاهر أن الغرض من ذلك تطبيق الاسم على المسمى وجعل المؤتمر «دولياً» لا تختص به لندن أو باريس.

والعادة أن ينزل المؤتمرون ضيوفاً كراماً على البلد الذي يختارونه ومن حق البلدان ترأس المؤتمر ومشاركته في أعماله التي اجتمع لها.

أما واجب الضيافة فتقوم به تونس وهي راضية وهنيئاً لضيوفنا الكرام النوم في فنادق الدرجة الأولى وهنيئاً لهم أصناف العشاء وكؤوس الشمبانيا والنزهة من أقصى البلاد إلى أقصاها.

أما الصحافة فقد اكتفوا منها باشتراك الصحف اليومية الموقرة، وسيجلس مندوب (الإرادة) و(الزهرة) و(النهضة) مع ممثل (التيمس) و(الطان) و(النيويورك) و(هرالد) ولن نطمح في شرف أكبر من هذا، وحسب المؤتمرين أن يجلس معهم مندوبو الصحافة التونسية دون أن ينتظروا منهم خطبة ترحيب أو تقرير عن حياة الصحافة في تونس فحالتها أحقر من أن تذكر.

كل من أعضاء المؤتمر الكرام يعرف أن الصحافة عنوان الأمة، وهم

عاجزون عن قراءة صحفنا فما عليهم إلا أن ينظروا للأمة نظرة إجمالية تدلهم على الصحافة.

انظروا أيها الأعضاء الكرام لألوف من الناس تسير أو تجتمع وليس على واحد منهم غير ثوب خلِقٍ أو «جبة» مقطعة تعرفوا أن الصحف التونسية لن تكون إلا كذلك، منها ما يصدر على ورقة ومنها ما يصدر على ربع ورقة.

وشاهدوا الأسواق النائمة والدكاكين المظلمة واجعلوها دليلكم على ما تكتبه الصحف لهؤلاء النيام..

زوروا القهوات الوطنية والمجتمعات الوطنية التي يرن فيها صوت الفونوغراف من الساعة السابعة صباحاً، ويبدأ اللاعبون بالورق والخشب أعمالهم من الساعة نفسها، وقدروا بأنفسكم مقدار ما توزعه الصحف على هؤلاء القراء الكرام المثقفين!.

القوا نظرة على كل شيء أمامكم من مخلوقات متنافرة وأشكال متناقضة فيها الأزرق والأسود والأخضر والأغبر ــ حتى العيساوية التي ستشاهدونها يجب حسبانها ــ واحكموا بعد ذلك على أن الصحافة التونسية فيها الشاحب الحزين، والمترنح الضعيف، والأخرق المجنون، والمتعاقل الممسوخ، أي والله ومن يرفع ويخفض حتى في ملوك العالم.

ستعقد لكم حفلة العيسوية وتأخذكم أصوات البنادير وترعبكم رؤية مبتلعي العقارب فلا تحسبوا أن للصحافة مثل هذه الروعة إنها بلا صوت.

فيها الهاذي الذي لا يفهم كلامه، كذلك الذي يهذي أمامكم في ميدان الحضرة العيساوية بكلام لا يفهم، وفيها من يكتب بلغة العيسوية وأنغامها الحماسية، وهكذا كل صحيفة تونسية تعد في ذوي العاهات: لأنها صورة من الأمة.

ولكن ليس هذا ذنبنا أيها السادة، الذنب راجع إلى أشياء أخرى نسميها نحن الأقدار وتسمونها أنتم البلادة أو الضعف أو ما شئتم.

لنا لديكم أيها السادة رجاء واحد أن لا تكتبوا عنا بجرائدكم خيراً أو شراً، وحسبكم أنكم اجتمعتم في تونس لا بأهلها.

لا يقولن أحدكم انه اجتمع بماضغي الأفاعي وجارشي الزجاج.

لا يضعن أحدكم رواية عن القصور السحرية وساكنتها «فاطمة» التي تقتل الألوف من الرجال بعد قضاء شهوتها منهم.

لا يذهبن الخيال بأحدكم فيظن أن في التونسيين ذلك الذي يملك الملايين، وتحف بموكبه العبيد في الخارج والجواري في الداخل يمسدون قدميه وهو غارق في الأرائك الحريرية.

وإذا لم تروا بداً من الكتابة فقولوا الصدق، قولوا رأينا أم الزيارتين وريثة قرطاجنة وعروس البحر الأبيض ولكنها مسكونة بقوم نصفهم جائع شريد، ونصفهم يحتضر.

جريدة (الزمان) 5 جوان 1934

الأمة التونسية تحتفل بعيد 14 جويلية

منذ أكثر من نصف قرن كان البطل التونسي المرحوم علي باش حامبه يعتبر في نظر غلاة المستعمرين النهميين عدواً لفرنسا. ويكفي أن يقال علي باش حامبة ليكون هذا الاسم مرادفاً للعدو، لأن المرحوم كانت له جريدة اسمها (التونسي) كان ديدنها المطالبة بمساواة التونسي بالفرنسي في الحقوق والحريات، وكانت هذه النغمة تزعج أسماع المستعمرين، ويعتبرونها إهانة لهم ولفرنسا.

على أن طلب المرحوم للمساواة لم يكن معناه غير مساواة العناصر المتباينة تحت علم واحد وأحكام واحدة في ظل فرنسا، ولكنه وصحبه ذاقوا الخسف من السفراء الرجعيين الذين ترسلهم أحزاب الرأسمالية مزودين بالسلطة الغاشمة لتأديب من يقول إن التونسي جدير «بمساواة الفرنسي» وانكتم بعد ذلك صوت التونسي.

وحِسب العتاة أن تونس وقد خفتت أصوات أبنائها ستتقدم إلى الأمام بخطوات سريعة، ولكن الواقع أنها رجعت إلى الوراء بأسرع مما يقدر أولئك الأذكياء، وكلما أوغل التونسي في دركات الانحطاط قالوا هذه إرادته ووجهته وهذا أصله وطبيعته. وزادوه جفاء وكراهة كالوالد العاق الذي يريد التخلص من أولاده فيهمل تربيتهم حتى إذا ساء أدبهم وجد السبب لتركهم وإعلان براءته منهم.

واليوم نقول إن وجه فرنسا السمح منذ تاريخ اتصالها بتونس يطل على التونسيين سافراً غير مبرقع.

وليتها رفعت هذا البرقع منذ ثلاثين عاماً، ولم ترسل إلينا جبابرة الاستعمار ليحكموا باسمهم، وبقوانينهم التي تنكرها فرنسا وتبرأ منها، وهي التي علمت العالم معنى الحرية، وشاركت بدمائها في سبيل حرية غيرها من الشعوب، ليتها أسفرت وأطلعت علينا وجهها الجميل الباسم ولم تترك الفرصة لأولئك الذين ملأوا القلوب بالضغائن والأحقاد في الثلاثين عاماً الأخيرة.

اليوم يسجل التاريخ عيد 14 جويلية لا عيداً لفرنسا وحدها، ولكن لجميع الحكومات الجمهورية والأمم التي يظلها علم الديمقراطية الحقة، وما طفت سحب المصائب وغطت وجه فرنسا الجميل إلا وأزاحتها وعادت لمحياها المشرق لتصبح بالكلمات التي لا تنسى إلى الأبد: الحرية ـ الآخاء ـ المساواة.

في هذا اليوم نرى فرنسا على حقيقتها لأول مرة لأنها أبلغتنا بلسان ابنها البار (أرمان قيون) بالنبأ العظيم نبأ إطلاق حرية الصحافة التونسية التي أصبحت منذ اليوم لا تخضع إلا للقانون الذي تخضع له الصحافة في فرنسا. وحرية الصحافة في نظرنا هي المفتاح الوحيد لكنز الحريات، والعربون الصادق على الإخلاص ونية الخير.

ولا نستطيع أن نصور هنا للقارىء نوبة الفرح التي استولت على الصحفيين عندما دعاهم (أرمان قيون) ووقف فيهم قائلاً: «إنني باتفاق مع حكومة الجمهورية يسرني أن أبلغكم بأن الصحافة التونسية مطلقة الحرية كالصحافة الفرنسية تماماً، ولا يوجد بين التونسي والفرنسي أي فرق في حق القول والاجتماع والحريات العامة».

وليت علي باش حامبه يشاهد بعينه أمنيته التي تحققت ويسمع بأذنيه صدى الصوت الذي يردده يعود بالإجابة والقبول. فالتهنأ عظامه في رمسها الطاهر، ولتسعد روحه بانتصارها بعد طول الزمن، ونستطيع أن نقول اليوم أنه إذا ذكرت فرنسا ذكر العدل، واليوم يحتفل التونسيون بعيد 14 جويلية كعيد لهم كما هو للفرنسيين.

جريدة (الزمان) 14 جويلية 1936

المـــــوت

البشر متفقون على أن الموت أعظم كارثة تنزل بالإنسان، كارثة دونها النار والسيل والزلازل، وكم خرج الرجل من كل ماله وثروته ليفتدي نفسه من الموت أو ليؤخره بضعة أيام.

والحقيقة أننا نحن الذين نصور الموت كما نشاء، فإذا اعتبرناه حادثة تافهة كسقوط ورقة من شجرة، أو انتقال حصاة من مكان إلى مكان لرأيناه كذلك فعلاً. وكثيرون يعرفون هذه الحقيقة فالجندي الذي واجه المدافع وعاش في الخنادق مستعداً لملاقاة عزرائيل قابض الأرواح لم ينس نصيبه من الضحك والمزاح مع إخوته، وقد تطير رأسه بشظية من قنبلة، ولو عاد إلى الحياة لأقسم لك أنه لم يشعر كيف أصيب وكيف فاضت روحه وكيف دفن.

ويرى المقيمون في المستشفيات الواحد منهم وهو يحتضر ويحشرج إلى أن يفيض آخر رمق من جسده ويحمل على محفّة المستشفى إلى حجرة الجثث المعدة للتشريح والدفن فينسونه بعد لحظة، ويعودون إلى الحديث والمسامرة كأنما لم يقع بينهم خطب مروع، وكأنهم ليسوا على مقربة من الساعة التي يحملون فيها إلى حجرة الأموات.

هذه براهين محسوسة على تفاهة الموت. ونحن فوق ذلك نشعر في بعض الأحيان أن في الموت فرجاً دونه الفرج الذي يأتي مع الخمسة ملايين التي يربحها الناس في سهم من أسهم اليناصيب.

وبعكس ذلك ترى بعض الحوادث التافهة تدخل علينا من الحزن واللوعة

أضعاف ما يأتي به الموت، وكم من بخيل سقط منه فرنك ولم يجده، أو عاق مُدَّله رأي الحبيب يزور عنه وطلب طيفه فأغلقت أمامه الأبواب. هؤلاء يبيتون منكفئين على وجوههم غارقين في أحزان الثكالى واليتامى ويرون الموت عياناً قبل أن يقف القراء ويوضع النعش أمام ديارهم.

قيل إن فوضوياً بائساً تربص لأحد السلاطين الأتراك وهو خارج في موكبه من صلاة الجمعة وانقض عليه بخنجر يريد إغماده في صدره فأدركه الحراس وانتزعوا منه الخنجر وكتبت السلامة للسلطان فلما عاد إلى قصره أمر بالرجل وأحضروه فسأله:

ـ ما حملك على قتلي؟

فأجاب:

ـ هو الفقر يا مولاي فبينما أنت السلطان المكلف بالرعية تتمتع في قصور باذخة بين جوار كواعب، أمامك ما لذ وطاب من المأكل والمشرب أجدني وأنا أحد رعاياك لا أملك كسرة من الخبز أتبلغ بها، وهذه قسمة ليس فيها شيء من العدل وللموت أحب إلي من معيشتي هذه، ولكني أردت أن أسوي بيني وبينك فيه لنموت جميعاً ما دمنا لا نستطيع أن نحيا جميعاً.

فقال السلطان التركي:

ـ هذا كلام وجيه لا غبار عليه... ثم أمر للرجل بقصر من قصوره الجميلة، ورصعه بعشرين من نجوم ذلك العصر من تركيات، وأرمينيات، وفارسيات، وعربيات وأجرى له من الأموال ما يكفي لفاخر الطعام وعالي المركبات البرية والبحرية حتى رضيت نفسه، وأقام في هذا النعيم عامين كاملين يدعو لأمير المؤمنين بطول العمر والنصر والتأييد.

ولكن السلطان دعا الرجل وسأله:

ـ ما حالك الآن؟

فقال:

ـ بحبوحة من العيش بما أغدقه علي أمير المؤمنين من خير ونعمة. فقال السلطان:

ـ الآن علقوا الرجل في المشنقة.

ثم التفت إلى الفوضوي فقال:

ـ لو علقتك في المشنقة يوم هاجمتني لما شعرت بالموت لأنك كنت تتمناه، أما الآن فإنك تحب الحياة، وتجد الموت صعباً كريهاً مؤلماً يناسب جريمتك.

وأنت بعد هذا حر في فهم الموت وغيره من الكوارث كما ترى.

جريدة (الزمان) 14 أفريل 1936

الأبطـــال بالريشة والقـــلم



الأستاذ الصادق التلاتلي

أبو الطيب المتنبي يقول في رجل كسائر الرجال ومخلوق كسائر المخالق:

وكان صادف رأس آزر سيفه   في يوم معركة لأعي عيسى
وكأن لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى
وكأن للنيران ضوء جبينه   عبدت فصارَ العالمون مجوسًا

فماذا يقول لو كان يعيش بيننا، ورأى أستاذنا الشيخ الصادق التلاتلي متفقد إدارة المعارف العضو في البرلمان التونسي والمالي الكبير؟ إذن لجاوز في الكفر ابن هاني الأندلسي الذي يقول لممدوحه:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنتَ الواحدُ القهّار

صادقنا التلاتلي زان تونس ونوَّرها وشرفها بشخصه وعلمه وعمله.

شخصه يشبه شخص الماريشال «جوفر» في الملامح والمشية والنشاط. وهو يشعر بهذه المزايا ولا يسمح لأحد بتجاهلها، كان إذا دخل المدرسة ليفتشها نادى المعلم أمام التلامذة وأمره أن يخلع له معطفه ثم يعلقه في الرشّاقة[1]. ولم يمتنع عن خلع معطف أستاذنا إلا معلم واحد ادعى أنَّ هذا العلم مسقِط لكرامة المعلمين فرماه الأستاذ بتقرير رسمي كاد يقطع عيشه لولا أن المعلم عاد فقدم الخضوع وتعهد بأخذ معطف الرئيس وتعليقه على «الرشاقة».

ولو كنتُ أنا في مكان هذا المعلم لنزعت لرئيسي معطفه وحذاءه ووضعتها على رأسي لا على الرشّاقة.

---

(1) المشجب.

إذا كنت قادماً في (ترام) حلق الوادي ترى الشيخ الصادق التلاتلي واقفاً في محطة (تونس مارين)[1]. فيصعد ويعود معك إلى محطة الكازينو، وغرضه من ذلك أن يجد لنفسه محلاً مريحاً قبل أن تصعد إلى العربة الجماهير التي تنتظرها ويزاحمهم ويزاحمونه، فهذا التدبير يدخل في باب الرشاقة التي نحن بصددها ويعد من الخطط الحربية المعروضة على الماريشالات.

إقتصادي دقيق يعرف مقدار (الصولدي)[2]. في هذا الزمن الأسود، ويكيده أن أموال الأهالي تذهب كلّها إلى جيوب المرابين الذين يأخذون على المائة عشرة أمثالها. فأخذته الغيرة على مواطنيه وفتح خزينته، وقدم القروض للمعسرين والمضطرين في جميع أنحاء الإيالة بفائدة قدرها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وقد بلغ من كثرة حرفائه أنه يحمل «كمبيالاتهم» في قفة كبيرة، كلّما عزم على التجول في المملكة لجمع الأموال المستحقة. بجانب هذا السخاء الذي هو في محلِّه لا يتسامح في التبذير ولو في قَرن فُلفل.

ذهب مرة في شهر رمضان إلى نابل مسقط رأسه وحيث يقيم والده، كان معه ضيف عزيز عليه، وكان من عادة الوالد أن يطبخ صنفاً واحداً للفطور، فلما رأى الضيف طبخ صنفين. وقبل أن ينطلق مدفع الإفطار دخل المتفقد ليتفقد المائدة فرأى الصحن الزائد فانتفخت أوداجه من الغيظ، وأرسل على الوالد عاصفة رمضانية نترك تصورها للقارىء. ثم أقسم بالأيمان المغلظة أن لا يذوق من الطعام قليلاً ولا كثيراً.

ورأى الضيف أن يتضامن مع مضيفه في الإضراب على تناول الفطور عملاً بقواعد اللياقة والمجاملة.

أتأمل في مناقب الأستاذ فأعجز عن حصرها وتتشعب أمامي طرق التعبير فألجأ إلى البيت المشهور:

وليس على الله بمستنكـر ... أنْ يجمعَ العالم في واحـدِ

---

(1) تونس البحرية.

(2) العملة التي كانت متداولة آنذاك.

وألجأ أخيراً إلى منشوره الانتخابي الذي وزعه على الشعب عندما رشح نفسه للنيابة عنه في المجلس الكبير، إذ قال في مطلع هذا المنشور «من يؤمن بالله واليوم الآخر فلينتخبني».

ويلي ذلك مختارات شعرية اقتطفها من قصائد مدحه بها الشيخ القطار[1] والشيخ معاوية التميمي[2] وغيرهما من فحول الشعراء، وبما أن المنشور الانتخابي محدود المساحة فقد ختمه أستاذنا المرشح (بفتح الشين) بقوله:

«ولولا ضيق المقام أيها الناخبون الأعزاء لذكرت لكم هنا كل ما قاله الشعراء في عبدكم».

وقد نجح الأستاذ في الانتخابات كغيره بهذا المنشور الحماسي والمجلس الكبير يزدان الآن بطلعته في كل جلسة.

وواحدة أخرى لا تنساها للشيخ الصادق التلاتلي، هي شاعريته، التي لا يفطن إليها هو نفسه.

ففي اليوم الذي سافر فيه المسيو (بيروتون) كان المطر يصب على رؤوس المودعين وكان هو في جملتهم بصفته قطباً من أقطاب الشعب فتقدم إليه وقال:

«أيها الراحل الكريم من علامة الحزن الذي شمل البلاد لفراقكم أن سماءها تبكي بهذا الدمع المنهمر».

جريدة (الشباب) 29 اكتوبر 1936

---

(1) يقصد الشيخ الطاهر القصار أحد الشعراء المعروفين.

(2) علم من أعلام جامع الزيتونة.

«الميـــتر» نعمـــان

قولوا كان اشتراكياً وانقلب ملكياً. أو كان رأسمالياً ثم تبلشَف. أو كان عربياً وتفرنس. قولوا فيه ما شئتم فأنا أحب هذا الرجل، وأستخف ظله وآنس بطلعته، ويكفيني منه أنه محام بارع أمين في صناعته، مخلص لحرفائه لا يقبض العربون ويمارغ، ولا يمالىء خصم حريفه ويتعمد إفساد القضية.

لنتفاهم يا قوم في معنى «التقلب» الذي نتهم به أعداءنا وأحبابنا جزافاً لنعرف هل هو طبيعة في البشر والكون عامة، أم هو شذوذ وخروج عن نواميس الحياة.

الشمس كل يوم تسير في فلك جديد، والرياح تهب في غير ما كانت عليه في أمسها مختلفة في الحرارة والبرودة. ولم نر قط لوناً من ألوان الطبيعة كالسحب والظلال والأنوار يشبه ما كان في غيره من الأيام هذا التغير المستمر يعمل في أمزجتنا وعقولنا فنحب اليوم التفاح والانجاص، وغداً تعافها نفوسنا ونميل إلى القرع والسفنارية واللفت، وننصرف عنها غداً. وتبعاً لهذا التغيير نسير في مبادئنا وسياستنا ولا يسمَّى ذلك ذبذبة أو خيانة للشيوعية التي خرجنا عنها، أو غدراً بالتفاح والانجاص اللذين كرهناهما. بل إن هذا التقلب من مبدإ إلى مبدإ ومن رأيٍ إلى رأي سيصل بنا في النهاية إلى الاستقرار على رأي ومذهب واحد نعتنقه على بصيرة بعد أن نكون قد خبرنا الآراء والمذاهب الأخرى.

قال الإمام الغزالي «نظرت في الجميع نظر المجرد عن الهوى، الباحث عن الحقيقة فلم أر أقوم من هدى القرآن الكريم».

فمن الحماقة أن نقول لحجة الإسلام أنك كنتَ إسرائيلياً ثم انقلبت مانوياً، ثم مسيحياً ثم مسلماً.

ولماذا لا نحاسب أنفسنا على الانقلاب ونحاسب عليه الآخرين.

كذا الأديان والمذاهب وأقوال الفلاسفة والحكماء.

الميتر نعمان رجل محام إذا دخل حزباً أو هيأة فلأجل أن يكون اللسان المدافع، والداعية الذي يقيم البراهين على صواب رأي من ينتسب إليهم وفساد رأي أعدائهم. فهل بعد أن يسجل على نفسه حبنا والاعتراف بصوابنا نصفعه ونجازيه شر الجزاء؟ هذا منتهى اللؤم والخسة.

وإذا جاز لأي فرد ممن يدخلون الهيئات السياسية ليكملوا العدد أن يقبلوا هذا الغبن فالمحامي له كرامته وله حقوقه. ومن طبيعة صناعته التي تجبره أحياناً على الدفاع عن القاتل ثم عن المقتول أن يولي وجهه إلى الجهة التي يرى فيها مصلحته.

«الميتر» نعمان اليوم دستوري صميم. . . بعقيدته وشاشيته، وأنا الكفيل بأنه سيظل على دستوريته بعد عمر طويل ــ إلى الأجل المحتوم ــ لأنه اختبر جميع المذاهب السياسية في تونس وعرف ما فيها من الحقيقة والبهرج، ثم اختار لنفسه ما اختارتْه الأمة كلها.

جريدة (الشباب) 29 اكتوبر 1936

الأستاذ زين العابدين السنوسي

من عائلة فرعها في السماء يعرفها العالم العربي بأفرادها المتكاثرين كالنجوم في مصر، والآستانة، وطرابلس، ومراكش.

وهو يعد في تونس الأروستقراطي الوحيد الذي يشتغل بالصحافة العربية، ويدير مطبعة تطبع المجلات والكتب والفواتير. الخ.

مثل هذا الرجل الذي يطرح حياة الذوات، حياة البذخ والراحة والتألق ويقتحم العمل جدير بأن تتأمله.

وسينتهي تأملك للأستاذ زين العابدين بتقديم كل ما تملك من الاحترام والإجلال بين يديه وتحت قدميه.

كان في استطاعته أن يكون قائداً من أكبر القياد، أو موظفاً من أعظم موظفي الإدارات بل كان في استطاعته إذا أراد العمل الحر أن يكون من أعظم تجار الواردات والمنسوجات الوطنية لما يملك من ثروة ضخمة.

ولكن نفسه الكبيرة أبت عليه التماس الرزق من تلك الأبواب المبتذلة المفتوحة لكل طامع في جمع المال، فاختار الصحافة وهي تجارة خاسرة وسلعة بائرة. وأسس مجلته (العالم الأدبي) وصاحبها من 13 عاماً إلى اليوم، وهو يصارعها وتصارعه وكلاهما قد فعل بصاحبه الأفاعيل ولا يريد تركه. أما أفاعيله بها فقد عرض صفحاتها لنشر كل ما يعثر عليه أو يعطى له من مقالات منشأة ومترجمة، وفصول منقولة من كتب وفهارس ومقدمات بلا مواضيع،

ومواضيع بلا أول ولا آخر ينشر كل ذلك في صفحات المجلة 16 ويكتب عليها 36 ولا يهتم بها إذا بيعت أو تكدست.

ذلك لأن الرجل كما قلت لك لا يريد الربح من العمل، وبالتالي لا يهتم بإتقانه.

أما أفاعيلها هي:

فقد ابتلعت أملاكه القطعة بعد الأخرى، وزخرفت وجهه ويديه وملابسه بالحبر وصدإ الرصاص، وخلقت منه شخصاً حاقداً على البشر أجمع، يستر حقده بابتسامة خضراء جامدة كالمرسومة على وجوه الموتى، فهو إذا صافحك شعرت بشعور خفي أن يده تريد إخراج مصارنك من بطنك. وإذا قال «توحشناك» فهمت من عينيه أنه يقول «ما أرذلك».

وأكثر ما تعتريه نوبة الغيظ وهو جالس على مكتبه يطالع المقالات المعطاة له، ويفض الرسائل الواردة عليه فتراه يحمل بين أصابعه القلم الأزرق، ويشطب به من المقالة عنوانها أو أحد سطورها ولا يدري لماذا يفعل ذلك، كالنمر الذي يمزق الكلب ولا ينوي أكله.

ويسأله كاتب المقالة عن هذا الحذف فلا يظفر منه بجواب. واعتقادي أن الأستاذ لا يستطيع الإجابة إذا سئل عن أي شيء آخر مما يعمل.

بماذا يجيب الأستاذ عن جريدته تونس «اليومية» التي أخرج منها العدد الأول ليقول للناس إنها ستوالي الظهور بعد 15 يوماً، ثم يظهر منها عددان ثم تحتجب ثم تظهر نصف أسبوعية فنصف شهرية؟

وبماذا يجيب عن هذا الانحدار الذي سيصل به إلى هوة سحيقة بلا فائدة أدبية أو مادية.

اللهم إلا جواب واحد وهو كراهته للبطالة، وحبه للصحافة صاحبة الجلالة التي تدخل صاحبها بين حملة الأقلام وتسمه بميْسم قادة الفكر وما ذلك بالقليل.

وقد أصبح فعلاً من ذوي الأقلام فأنت تقرأ له من وقت لآخر مقالاً يقطر منه السمّ الزعاف، وتهب منه لفحات السخر القاتل يكتبه بلباقة قلما يقدر عليها غيره. ولو كانت جرائده منتظمة تقرأها جميع الطبقات لعرف الناس فضله ومقدرته في النوع الذي اختص به من الكتابة. على أن كثيرين من الأدباء والمهتمين بالآداب يعرفون فضله ويملأون فراغ جرائده، ويلازمونه في المطبعة والشارع والقهوة، ولا تعدم أحداً منهم تراه في الشارع يقول: كنت عند الزين. أنا ذاهب إلى الزين. خاصمت الزين صالحت الزين. . .

ولكن العبد لله لا يطلب من الله إلا الابتعاد عن الزين.

جريدة (الشباب) 6 نوفمبر 1936

«الميتر» الطـــاهر الصـــافي

قدم نفسه من جديد للشعب التونسي بعد غياب عشرين عاماً فقال في جريدتيه العربية والفرنسية: «إن الفرنسيين يعتبرونه أكبر أديب مسلم يكتب بالفرنسية، وأن أسلوبه يرتفع في الوقة والمتانة إلى أساليب أعضاء الأكاديميات».

ثم ماذا؟

لم يفطن أحد إلى أن الأستاذ الصافي دخلها (الضمير يعود على الخضراء المسكينة) غازياً فاتحاً يفتش عن مركز يليق بمقامه لأنه شاع ـ ولا أعرف بأية وسيلة ـ أنه يحمل معه عدة ملايين من الفرنكات جاء بها إلينا ليخدمنا بصفتنا أبناء جلدته الأقدمين، ومن كان يحمل الملايين ابتعد عن كل شبهة.

وبرزت جرائده يومية وأسبوعية، فرنسية وعربية تشن على الحكومة غارة شعواء لأنها انحرفت عن أصول عهد الحماية، وألغت الشخصية التونسية وحجبتها عن الأبصار.

فقال الناس مرحى أيها «الميتر».
زدنا زادك الله قوة.

ولكن العارفين وهم بحمد الله كثيرون عندنا تحققوا أن هذا الميتر المتحمس سوف لا يستمر في الإنفاق على صفحة العربية والفرنسية، وعرفوا بألمعيتهم أن الله لا يرسل في هذا القرن رسولاً يهبط على أمة مسكينة لينقذها بملايينه ومقدرته وذكائه.

وسريعاً ما اتضحت الحقيقة واضطربت جرائد الميتر، وترك الحكومة وتوبيخها والتفت إلى الهدف الأصلي، وهو الشعب وما عند الشعب.

عند الشعب ديوان أوقاف غني يحتاج إلى منظم قدير.

وبنك تعاضد وطني يلزمه مدير كفء، ومرافق أخرى متفرقة هنا وهناك يلزمها مدير حازم يجمعها في يده ويسيطر بها على الشعب والحكومة معاً.

أما الأوقاف فقد امتنعت عليه ولم تقدر أنيابه وأظفاره على النيل منها.

بقي بنك التعاضد الذي هو في حاجة حقاً إلى مصلح كبير ومدير حازم، ولأجله وحده يصدر الأستاذ جرائده إلى اليوم.

واسألني عن المرافق الأخرى المتفرقة؟

ـ هي أن يؤلف الأستاذ شركة خفية الاسم لها جرائد يومية وأسبوعية من الطراز الراقي. وبهذه الجرائد، أي بقوة الصحافة.. تهيمن هذه الشركة الخفية الاسم على ما في البلاد من موارد فلا تخرج منها بتيَّة[1] زيت أو صندوق دقلة أو شكارة فوسفات، كما لا تدخل إليها سيارة أو «تراكتور» أو (قصرية)[2] إلا بإرادة الشركة الخفية ورضاها.

وقد حسب الأستاذ ربح هذه الشركة على وجه التقريب فوجده يقرب من مليوني فرنك في العام.

وعرض الأستاذ مشروعه على بعض الإخوان المشتغلين بالسياسات والاقتصاديات، أخبرهم أنه متنازل لهم في الوقت والساعة عن المليوني فرنك إذا دفعوا له فوراً مبلغ مائتي ألف فرنك فقط وهي مرتبه الذي سيتناوله كل عام إن شاء الله بصفته المدير لتلك الشركة.

وهرش الإخوان المستمعون لما يقال وفتشوا في جيوبهم على مبلغ المائتي ألف فرنك فلم يجدوها.

---

(1) دن.

(2) الوعاء الذي يستعمل لسلح الصبيان.

فوعدوه خيراً وانصرف الجميع.

ثم استمرت المقابلات والمفاوضات في جلسات متعددة. وفي كل جلسة ينقص مبلغ المائتي ألف فرنك نقصاً مريعاً إلى أن وصل إلى خمسة آلاف فرنك فقط.

فقال الإخوان وهذا أيضاً كثير.

بجانب هذا الإخفاق لا يزال الأستاذ يصدر جرائده، ويتكلف لها في كل أسبوع خسارة لا تقل عن ألف فرنك ولا يتنازل قط ويعتذر عن احتجابها ولو بسبب عطل مطبعي.

يقول المتصلون به إنه في هذه الأيام يغلق على نفسه باب مكتبه بالمفتاح، ويستسلم للعبرات والبكاء حتى يرتفع شهيقه ويصل إلى أسماع الجالسين في الحجرات الأخرى. ويقولون إن نظرته للشعب التونسي تبدلت وأصبح لا يرى فيه غير النقائض والعيوب التي يسطرها الآن في جريدته باللغة بالفرنسية، وللفرنسيين.

والرجل يُعذر إذا سخط على الشعب الذي لم يقدر مواهبه وينتفع بها.

ولكن سألت نفسي: هل هذا الرجل ذكي نابه، وأديب مثقف، وسياسي خطير كما قال وقيل عنه.

فأجابتني بالعكس، إنه غبـي أحمق. وبليد متشطر. فهو عندما هاجم الأوقاف ولم يظفر بطائل التفت إلى الشعب وطلب منه أن يجمع له مليوناً من الفرنكات، والذي يطلب من شعب كالشعب التونسي أن يجمع له مليون فرنك ليكبر بها جريدته لرجل مخبول حقيقة لا مجازاً.

وإذا جمعنا المبالغ التي اكتتب بها الشعب منذ الحرب الطرابلسية إلى الحرب الفلسطينية نجد بيننا وبين المليون بعداً شاسعاً.

والصافي يريد المليون في أسبوعين.

والرجل الذي يرى أحد المتصلين بشنيق يجلس في مقهى بغداد مع أفراد

فرقة «ببّا»[1] فيسارع ويكتب في جريدته أن شنيق استحضر فرقة ببّا ليجمع بها نقود الشعب، ويضعها في جيبه لهو رجل مغفل ـ وصلت إليه الغفلة من طريق العدوى إذا التصق جسماً وروحاً وورقاً بالسيد عبدالرحمان الباجي الذي قال مرة عن شنيق أنه استحضر واستورد بصلا وثوماً من مصر ليضرب المحصولات التونسية فبين هذه الغباوة وذلك الذكاء تجد للصافي مسخة تستحق الفرجة.

وقد تمتع الكثيرون بالفرجة عليه في مكتبه وعرفوا ما عنده من المواهب والمميزات.

وتظهر مميزاته وفضائله عندما يقابل كل من يزوره بالشكل الذي يناسبه:

زائر يستقبله وهو جالس على مكتبه في كامل عظمته، ويسرد على مسمعه الوقائع التي جرت له في عالم السياسة والاقتصاد، ويطلعه على ما عنده من المستندات التي تؤيد اتصاله بوزراء فرنسا وكبار الرجال إذا كان الزائر من الشخصيات الكبرى.

وزائر يطلعه على ما عنده من الكتب القيمة واللوحات الزيتية الثمينة، ويريه مقدار قيمتها الفنية والمدرسية التي تنسب إليها إذا كان الزائر من المثقفين والأدباء.

وزائر يرفع معه الكلفة والاحتشام ويقابله فقط بالبنطلون والسورية[2] القصيرة المفتوحة الأكمال والصدر، ويطوف به في حجرات المكتب كلها ويطلعه على المناضد والرفوف والخزائن، ويريه آلة الكتابة والأقلام والمحابر والزرابي التي في الأرض إذا كان الزائر من فندق الغلة.

فإذا كنت أيها القارىء لم تسعد بزيارته، والتمتع برؤيته فانتظره في شارع (جول فيري) بعد منتصف الليل كل مساء.

---

(1) الفنانة المصرية الشهيرة ببّا عزالدين.

(2) القميص.

وإذا أتيح لك الحظ بزيارته لسبب ما فننصحك أن تأخذ معك «قوانتي»[1] من الكاوتشو الغليظ، لأن الأستاذ سيطلب منك أن تضع يدك على رأسه لتشعر بما فيها من الحرارة المرتفعة التي تشوي الحوت وتغلّي العظم[2].

هكذا والله يفعل، ويفخر بهذه الحرارة ويقول.

كان يلوح لي أن هذا الرجل سيكون خطراً على تونس. ولكن سخافاته هذه كفيلة بإحباط مساعيه ورد مكائده. كل ما في الأمر أننا سنشاهد معركة دامية تقوم بينه وبين خصمه الوحيد السيد محمد شنيق الذي سبقت المقادير والظروف فوضعته في المركز الذي كان يتمناه لنفسه.

جريدة (الشباب) 12 نوفمبر 1936

---

(1) قفاز.

(2) البيض.

السيــد محمــد الرصــاع

ليس كل من نعرضه في هذا الباب نقصد بعرضه الزراية أو إضحاك الناس عليه، كلا فهذا الباب مثل كاميرة المصور يجلس أمامها الجميل والقبيح، والطويل والقصير، فتلتقطه كما هو بلا زيادة ولا نقصان.

القرعة في هذا الأسبوع وقعت على السيد محمد الرصاع الخياط الافرنجي الشهير ومقرر (المجلس الكبير).

أنا أحبّ الرصاع وأنت أيضاً أيها القارىء لأن الرجل جذاب موفق في عمله، نتمنى جميعاً أن نرى بين أرباب الصناعات التونسية 559944 رجلاً مثله.

وأحبه لأنه من أحسن قراء الصحف العربية، ومن خير المقدرين لمجهودنا إذ كان زيتونياً يلبس الكشطة، فهو إذا قرأنا يفهم فاعلنا من مفعولنا ومبتدأنا من خبرنا. ولا تغيب عنه الجملة البارعة والنكتة الرائعة، ويعرف الشعر البليغ من الشعر السخيف، وما أقل من يعرف كل هذا بين أصحاب الأشغال والمتاجر.

غير أننا ــ أو ــ بيد أننا إذا وضعناه على المشرحة كبقية عباد الله النواب وجب أن نأخذ منه حقنا ونعطيه حقه.

ولنعطيه حقه أولاً.

الأستاذ الرصاع أحسن وأعظم، وأقدر وأغنى خياط افرنجي مسلم في الأيالة التونسية.

وهو الذي يكسو عظماء الأمة ويتحفهم ويهندمهم كما يريدون.

وهو الذي ترسو عليه المناقصات الحكومية الكبرى وغيرها من كساوي شواش الإدارات والصبائحية والبوابين والفرق الموسيقية والكشافة وغير ذلك.

وتشهد له فوق ذلك أقمشته أمتن الأقمشة، وفصالته أجمل الفصالات وخيوطه أمتن الخيوط. لا تنقطع فلساته[1] ولا تنصل بطانه وأنه إذا وعد صدق، وإذا صدق نفذ وحقق، ومن يشرفه يرى ما يسره.

ولنأخذ حقنا ونقول:

لا نعرف مصيبة نزلت بتونس أعظم وأفدح من (المجلس الكبير).

ولا نعتبر كل من اشترك في عضويته إلا أحد رجلين:

إما أبله يتكالب على ضخامة اللقب، ولا يدري ماذا يراد من وجوده في المجلس.

وإما خبيث يعرف المقصود ويتغافل في سبيل منفعته.

والرصاع ليس واحداً من ذينك الرجلين.

ولكنك مع هذا تراه يترك مصنعه وحانوته ليضيع وقته في أشغال ذلك المجلس.

وهو ليس عضواً عادياً، بل «مقرر» أعاذنا الله من هذه الكلمة الضخمة، ولا قدر علينا بحملها لأن صاحبها يلزمه قبل كل شيء أن يكون من حملة الليسانس أو ديبلوم الاقتصاد السياسي على الأقل.

ثم عليه بعد ذلك أن يكون خبيراً بما في دوائر الإدارات عالماً بمحتويات الأرشيفات، واقفاً على صادرات الخزينة العامة ووارداتها بالتفصيل الدقيق.

وما أعظم ورطة مقررنا، وهو يحضر تقريره، ويذرع لأجله المدينة سعياً

---

(1) أزراره.

بين الإدارات الحكومية والغير حكومية للتفتيش عن الفقرات التي يتركب منها التقرير الذي سيتلوه في الجلسة رسمياً بالملابس الرسمية.

وفوق هذا فهو يتحمل مصائب الناخبين الذين يعتقد كل واحد منهم أنه صاحب الفضل في رفع النائب إلى كرسي (المجلس الكبير) وأن النائب مطالب برد الجميل في وقته.

فاليوم يأتي ناخب لتوسيطه في الإفراج عن أخيه القاتل.

وغداً يأتي ناخب يريد توسيطه في إعادة زوجته الهاربة إلى عصمته.

وناخب يأتي لأن خمسين فرنكاً سقطت منه، وقد أرسله بها عرفَه إلى عميل له فهو يخشى الطرد ويريدها من نائبه.

وهكذا من المصائب التي لا تحصى.

كل هذا يتحمله السيد محمد الرصاع بصدر رحب وفي سبيله يترك مخزنه وحانوته للوكلاء.

سنقول إن هناك مصلحة خفية لا يعرفها أحد، ولأجلها يلتزم المجلس الكبير ومتاعبه. وأقول: لالا، إن الرصاع أنيق فقط، ولا حاجة له في الدنيا بغير الأناقة، وخير مكان تظهر فيه الأناقة مكان مثل المجلس الكبير، فهو إذا دخل أزرت قيافته بقيافة الفندري، والمنصف العقبي، وعلي بلحاج وغيرهم، وإذا وقف يتلو التقرير بالبدلة السوداء، قلت:

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيماني
أأفريدون في التاج أم الاسكندر الثاني

وأنت تراه في أي لحظة، وفي أي بدلة يرتديها فتسائل نفسك أي أمير يكون ذلك السائر؟ لأنه يحمل «القوانتي» والعصا كما يحملها الأمراء تماماً.

وربما سقطت محفظة نقوده من جيبه فلا يشعر بها، ولكنه لا يسمح لأصبع من أصابع «القوانتي» أن تلتوي مع أختها أو تنثني تحتها، بل يحافظ عليه في

كفه، ويترك أطرافه ممتدة بانسجام كرجل الأوزة، كما يترك منديل الجيب الحريري (بوشيت) خارجة أطرافه المثلّثة من فوق صدره ويصلحها كلما شوّشها النسيم.

لهذه الأناقة وحدها يشترك الرصاع في (المجلس الكبير) الذي لا يدخله صاحب ضمير، والله يعلم أنه حسن النية.

على أن أناقة الرصاع على أية حلا لم تذهب سدًى فبعض الخياطين في (باريس) يكتري أجمل الشبان وأعدلهم قواماً، ويكسوه بأبدع ما يخرجه مقصه ليكون «منكان» متحركاً يراه الناس ويقبلون على المحل.

ولم نبلغ نحن بعد هذه الدرجة في تونس، وليس من العيب أن يقوم الخياط بمثل هذه «المنكان» في شخصه، كما أحرر أنا جريدتي وأطبقها وأغلفها بيدي.

جريدة (الشباب) 19 نوفمبر 1936

حمــودة بــوســن

فلاح.
عضو في جمعية سباق الخيل.
عضو جمعية التمثيل.
مشترك في (الدبيش تونيزيان).
مشترك في (الطان).
حائز لنيشان الافتخار.
حائز لنيشان العلوم والمعارف.
حائز لنيشان الزراعة.
عضو في جمعية الموسيقى.
عضو في جمعية الألعاب «الجيمناستيكية».
عضو البعثة التي تزور فرنسا كل عام.
مشترك في «قومبانية»[1] القاز.

* * *

هذه ترجمة الصفحة الأولى من «كارت فيزيت» سيدي وسيدكم حـمُّودة بوسن.

وفي آخر هذه الصفحة يجد القارىء هذا الكارت فيزيت كلمة «البقية على الصفحة الثانية» كما تفعل الجرائد والمجلات، وفي الصفحة الثانية توجد ألقاب ومناصب لا تقل عما تقدم.

---

(1) شركة.

أما بعد، فليس في تونس علم (بفتح العين واللام) يميزها كأهْرام مصر، و«تور إيفل» باريس، وكوليزي رومة، فالرجل الرقيق الشعور يحس بالحسرة والذل لهذا النقص، ويعمل على تكملته بما في مقدوره. أما الأجلاف والأنطاع فيأكلون ويشربون ولا يعنيهم أن يكون لبلادهم مكرَمة تفخر بها أو شيء يجمّل شخصيتها.

وسيدي حموده قد شعر بهذا النقص وأقسم أن يسد الثغرة بنفسه وشخصه، فوضع على رأسه أثقل وأضخم شاشية عربية لها أطول وأغلظ «كوبيتَة»[1] في أفريقيا الشمالية كلِّها، والتزم لبس «السموكنج» ليل نهار لا يخلعه إلا إذا نام. واشترك في كل تلك الجمعيات وتلك الجرائد، وتلك«القومبانيات». وسعى في حمل تلك النياشين، وتكلَّف في كل عام مشقة السفر إلى فرنسا بشكله الذي تعرفه، وبطاقته التي وصفتها لك. كل هذا في سبيل تونس، وقد أفلح في أن يكون فيها علماً ممتازاً تراه العين عن بعْد خمسين كيلومتراً. يقف في باب بحر لانتظار «الترام» فتحيط به أنظار جميع الفتيات والآنسات ليمتعن أنفسهن بمشاهدة الرجولة الكاملة، ويمشي في شوارع فرنسا فتتبعه الناس زرافاتٍ ولا يرجعون إلا بعد أن يعرفوا أنه «سيدي» حمودة بوسن العين التونسي المشهور.

وكل حفلة تقام في تونس، رسمية، أوغير رسمية ولا يحضرها سيدي حمودة تظهر كأنها كسكسي بلا لحمٍ و«كانون» بلا فحم.

آخر حفلة كبرى حضرها كانت حفلة انتخاب ملكات الجمال، رأيناه مقبلاً والبوليس يزيح الناس من طريقه حتى استقلَّ به «البالماريوم» فارتاح قلبي لأن الذاتية التونسية أخذت حقَّها في هذا الاحتفال أضعافاً.

إلى الآن نتكلم فقط عن شكل سيدي حمودة وصورته، ولم أتكلم على عقليته أو أخلاقه أو ثروته أو معارفه.

لأنني لم أجالسه، وأقول بصراحة أخشى الاقتراب منه، إلا أن بطاقته تكفي لمعرفة الشيء الكثير مما نريد.

---

(1) ظفائر رفيعة من الحرير الأسود تزين أعلى الشاشية وتنحدر على الكتف.

فالذي يشترك في جمعيات التمثيل والموسيقى، ويجالس السيد محمد الورتتاني جنباً لجنب، وبطناً لبطن، هو رجل طروبٌ مطرب، مطراب، منطرب، طِراب، يطرب طرباً.

والذي يشترك في جمعية سباق الخيل (يعني يحضر السباق)، ويشترك في «قومبانية» الغاز (يعنى يركب الـجُعَب في داره)، فهو رجل مثري ثراءً، وإثراءً

سترك في «الدبيش تونزيان» و«الطان» هو رجل مثقّف، وثقافة، وثقوفاً، وثقْفاً.

يحمل النياشين هو رجل وجيه وجاهة، ووجهة، وجهجهة،

القابه في البطاقة تدل على باقي فضائله، فلا حاجة للمؤرخين ، لمقابلته والجلوس معه وإجراء الأحاديث والأسئلة الفارغة.

سيدي حمودة) يسألنا ما هي المناسبة في نشر صورتي وترجمتي

ــ إننا نشرناها لأننا علمنا باقترابِ نيشان «اللجيون دونور» من صدركم وانضمامه إلى إخوانه في بطاقتكم.

ونهنئكم سلفاً بالنيابة عن أنفسنا وعن الأمة كلها.

جريدة (الشباب) 26 نوفمبر 1936

شيخ الحصافة الأستاذ محمد الجعايبي

كنا في فرنسا نختطف الصحف العربية التي تجيء للطلبة من القاهرة ودمشق وتونس والمغرب. . .

وكانت صحف أفريقيا الشمالية تسترعي أنظارنا أكثر من غيرها.

تسترعي أنظارنا لا بورقها اللماع، أو مادتها الغزيرة، أو شكلها الجميل، بل بضعفها الذي يعبر أصدق تعبير عن بؤس العربية وذلها في تلك الأصقاع.

ولكن جريدة (الصواب) كانت رغماً عن شكلها الذي لا يزيد كثيراً عن أخواتها، تظهر لنا كالفرقد اللامع لما فيها من تحرير بليغ، ومنطق سديد، وحياة فياضة، ومقالات كلها متساوية في القوة والفائدة. وكنا نقول إذا كان في مصر علي يوسف، وفي سوريا اليازجي، فالجعايبي في تونس.

ولو اطلع الأستاذ الجعايبي على أشخاص الذين أعجبوا به لوجدهم جميعاً ـ ما عدَا العبد الفقير ـ من أبناء البيوت الكريمة، وحملة الشهادات العليا، وأصحاب العقول الراجحة. كلهم يشهد له بالفضل والمقدرة والإخلاص، ولم يكن يهم من رآه من قبل وخالطه فتأثّر بمعرفته وصداقته.

هذا هو الجعايبي الصحفي، أما الجعايبي الرجل فإنه وأيم الحق رجل ملء ثوبه، يعلوه وقار طبيعي مبرأً من التكلف، كلماتُه قليلة مركزة تخرج منه عى البداهة، شجاع يخاطب أعظم العظماء بنفس الاطمئنان الذي يخاطب به الشخص العادي، وإلى هذه المزايا الشخصية الباهرة يرجع الفضل في بقاء (الصواب) وصدوره بانتظام منذ نيف وعشرين سنة. ومعنى ذلك أن هذه

الشخصية المهيبة تجتاح كل ما في نفوس المشتركين من مراوغة، ومماطلة وترغمهم على تأدية حق صاحب الجلالة، كما يرغم (اللوسي)[1] المدين المماطل على دفع ديونه. فالقائد والخليفة، والكاهية، والشيخ، والعين كلهم والقطاطس سواء في نظر الشيخ الجعايبي حتى يدفَعُوا وهم صاغرون ولا نزيدك علماً بالمشتركين، فهم:

رجل يستلم الجريدة مدّى ثلاثة أعوام، يقرؤها هو وجلساؤه وأهل بلدته، فإذا جاءه رسولها أو صاحبها أقسم بكل يمين أنها لم تصله، أو وصله عدد واحد لا يبرر دفع الاشتراك كله.

ورجل يستحي من إنكار الجريدة ولكنه لا يستحي من مجابهة صاحبها بكل برود بأنه ليس في حاجة إليها. وما دام صاحبها هو الذي أرسلها من تلقاء نفسه فليتحمل مسؤولية عمله.

وقس على ذلك.

فما هو إلا أن يدخل الأستاذ عليهم حتى تنخلع قلوبهم، ويفقدوا توازنهم، وينسوا كل اعتذار وحجة.

والجعايبي سهل الخلق إلى حد بعيد لا يتعنت في مسألة بعينها فإذا لم يكن مع المشترك نقوداً أخذ منه عظماً أو زيتاً أو قمحاً أو كشطة[2] أو طنجرة.

ذهب في إحدى المرات لجمع الاشتراكات السنوية، فنزل على كاهية أو خليفة لا أدري تماماً، فقدم له طعام العشاء والمكان اللازم للمبيت لأنه لم يكن ثمة قطار في تلك الساعة، وإلى أن أصبح الصباح بقي هذا الخليفة أو الكاهية متجاهلاً للغرض الذي جاء من أجله الجعايبي، ولعله يظن أو يريد أن يظن أنه جاء ليستنشق النسيم القروي، أو جاء كما قال الشاعر:

أزوركم لا أكافيكم بجفوتكم إن المحب إذا ما لم يزَرْ زارَا

(1) العدل المنفذ.

(2) العمة التي يضعها المشائخ على رؤوسهم.

وكان الأستاذ قد استبطأ الرحيل والآخر وقف لا يهرش ولا يتحرك فحدجه بإحدى نظراته الجارفة، وقال:

ــ هيا ادفع الاشتراك يا سي محمد (بالفتح).

فأجاب سي محمد بأن النقود لا وجود لها، ولكن إذا أراد صاحب (الصواب) أو أي جريدة أخرى أن يقتصر على الأكل والمبيت، فالمنزل مفتوح والخير موجود وليمكث كما يشاء.

فنظر الأستاذ يميناً وشمالاً فلم يجد أمامه أحسن ولا أنفع من «الجرَّاية»[1] التي كان يرقد عليها، فهي تحتوي على نحو ثلاثين كيلو من الصوف فانحنى عليها ولفها وربطها ربطاً جيداً وخرج بها بعد أن قال للرجل:

ــ العاقبة عندكم، عندنا عرس في هذه الأيام يحتاج إلى كمية من الصوف.

وهكذا يعيش (الصواب) ويصدر، وكل سطر منه ينطق ببطولة صاحبه وجهاده العظيم.

جريدة (الشباب) 3 ديسمبر 1936

---

(1) الحشية.

الأستـــاذ محمـــد الورتتاني

سمعت الأستاذ أمير الأمراء مصطفى صفر شيخ المدينة، وهو يلقي خطبة في مأدبة تكريم أقيمت لخمسة من رجال الأدب، والشعر، والتمثيل، كان الأستاذ محمد الورتتاني واحداً منهم فقال عنه ما معناه:

«إن المشروعات الفنية، والجمعيات الرياضية لا تحتاج فقط للإدارة الفنية، بل تحتاج حتماً إلى الكفاءات الإدارية، ولا غنى لها عن مدير حازم حسن التصرف ولو كان يجهل الفن تمام الجهل، فالإدارة شيء والفن شيء».

وبهذه الشهادة نستعين على كتابة هذه الصحيفة التي خصصناها للأستاذ الورتتاني في هذا العدد لمناسبة ما يقال عن عزمه على تقديم استقالته من الجمعية التي يديرها.

الأستاذ الورتتاني يدير عدة جمعيات لا يقل عددها عن عدد الجمعيات التي يديرها السيد حمودة بوسن، لا تجد جمعية يرأسها الورتتاني ولا يكون سيدي حمودة أميناً لصندوقها.

وأهم الجمعيات التي يديرها الأستاذ الورتتاني هي جمعية التمثيل العربي التي تدعى ا لآن (الاتحاد التمثيلي).

ويديرها كما قال جناب شيخ المدينة بعزم وحزم إدارة بيوقراطية محضة لا تتدخل في الروايات إن كانت كوميدية أو تراجيديـة أو مؤلفة أو مسـروقة ولا يعنيها أن تأخذ فضيلة خيتمي دور القبطان تيك، أو يقوم أحمد بوليمان بدور كليوباطرة.

ومن نظام هذه الإدارة، أن الممثلين والممثلات يحرّم عليهم جميعاً الاقتراب من حجرة المدير ودخولها بأي سبب، وكلهم يعرف أنّ من يخالف هذا النظام يطرد بجرة قلم.

كانت الحجرة في إحدى الليالي مغلقة، وفيها الرئيس وأمين المال يفكران تفكيراً عميقاً في الأشغال المعروضة أمامهما، والمسؤوليات الملقاة على عاتقهما وكلاهما ينظر للآخر ولا يكلمه، فجاء ممثل التحق حديثاً بالجمعية ولم يعرف بعد تقاليدها، واقتحم الباب ودخل، فتناول طربوشه الذي كان قد وضعه من قبل على مكتب الرئيس الورتتاني نفسه وخرج لا سلام ولا كلام.

أما الرئيس الورتتاني فقد تجاهل الأمر ولم يبد أية ملاحظة. ولكن سيدي حمودة تململ وتحرك وخاطب الرئيس بما يأتي:

ـ حسناً والله، لم يبق إلا هذا أيضاً، غلام يدخل حجرة الإدارة ونحن فيها جلوس، هذا لا يطاق ولا يحتمل إذا كانت أقدارنا ستسقط في الجمعية التي ترأسونها يا جناب الرئيس فإني أفضّل الانفصال عنها في هذه الساعة.

فهدأ الرئيس ثورة أمين المال، وأفهمه أن الغلام الممثل حديث عهد بالجمعية ولا يعرف نظامها، وبينما هما يتناقشان في الأمر بحدة دخل أحد قدماء الممثلين بعد أن طلب الإذن ودنا من الرئيس وقال بلهجة مسرحية:

ـ جئت يا مولاي لألفت أنظاركم إلى ذلك الجريء المجرم المتطفل على التمثيل، والذي لم يكد يضع قدمه في دار الجمعية حتى وضع طربوشه على مكتبكم. . . .

فضرب سيدي حمودة الأرض بعصاه وقال للأستاذ الورتتاني:

ـ ألم أقل لكم أن الغلام لا يقصد غير الاستخفاف بنا؟.

فلم يسع الرئيس أمام هذه الشهادة إلا استدعاء الغلام والتنبيه عليه بالتزام الأدب ومراعاة النظام كبقية إخوانه.

ورغماً عن ابتعاد الإدارة عن شؤون الممثلين فهم لا ينفكون عن عرض خلافاتهم عليها في كل وقت.

وقعت بينهم في إحدى الليالي ضجة هائلة بسبب اختلافهم على اقتسام الأدوار في رواية قدمها أحد «المؤلفون» للجمعية.

وكانت الرواية تتألف من أربعة فصول فيها فصل واحد يستغرق معظم صفحاتها، أعني أنها إذا كانت صفحات الرواية 150، فصفحات الفصل المذكور تبلغ وحدها التسعين. ويحتوي هذا الفصل على دور واحد تقوم به امرأة، فلما جاء وقت التقسيم أعطى الدور للآنسة وسيلة صبري لتكون البطلة الأولى في الرواية، ولكنها استثقلته وعجزت عن حفظه فطلبت من جناب الرئيس أن يأمر باختصار الدور وحذف ثلاثة أرباعه على الأقل، وفي الحال لبى الرئيس رغبتها وأمر بتقصير الدور إلى القياس المطلوب. ورأت ممثلة أخرى في الجمعية أن الدور أصبح سهلاً خفيفاً حلواً فأرادت انتزاعه من وسيلة بأي طريقة، ووصل الخلاف إلى التشاتم والصياح فخرج عليهم الرئيس من حجرته فبهتَ القوم، ووقفوا جامدين من الخوف.

وفي الحال تقدم أحد الممثلين العقلاء وأطلع الرئيس على تفاصيل الخلاف ثم قدم اقتراحاً يحسِم به الخلاف، وهو أن يأمر الرئيس بإعطاء دور البطلة للأستاذ الحبيب المانع الممثل الأول والمخرج الفني للجمعية، ووقف الجميع صامتين ينتظرون نتيجة الاقتراح.

فجعل الأستاذ الرئيس يوجه إلى المانع نظرات الاستفهام فلمح عليه علامات التردد وعدم الميل إلى تمثيل الدور.

فسأله بصوت جهوري:

ـ لماذا لا تأخذ الدور؟

* * *

هذه أكبر الجمعيات التي يديرها الأستاذ الورتتاني، وتأتي بعدها في الأهمية

(جمعية الناصرية الموسيقية) التي يديرها بكفاءة إدارية وكفاءة فنية أيضاً بعكس ما يقوله شيخ المدينة.

فكيف لا يكون فنياً ذلك الرجل الذي ينشيء فرقة موسيقية كاملة ذات لباس رسمي مزودة بأرقَى الآلات، ثم يجلب لها أساتذة الموسيقى وكتاب النوتة ويلقنها كل الأدوار الموسيقية القديمة والحديثة.

والحق أن كفاءة الأستاذ تجلت في تكوين هذه الفرقة القوية التي اعتبرها أبلغ في الدعاية القومية من جميع أنواع المظاهرات حيث تخترق الأحياء الأوروبية بطبولها وأبواقها يخرج منها هزيم كهزيم الرعد.

الجماهير تتراكض خلفها، والجالسون على المقاهي يقومون عن مقاعدهم مشرئبة أعناقهم نحوها، فوالله لكأنّ بارجة حربية رست بالميناء وأنزلت جنودها لتحيّـي المدينة بموسيقاها.

وإذا كان الناس يعتبرون الورتتاني مديراً حازماً فقط، فهو عندي مدير حازم، ومدير فني.. ورجل رحب الصدر، طيب النفس رقيق الإحساس، رحيم القلب، تنهال على فرقته طلبات الاشتراك في مختلف الحفلات فيتركها جميعها، ويختار من بينها حفلة «المطهر» التيم، ويقود إليها الفرقة في موكب منظم مرتب الخطوات يتقدمه بنفسه إلى باب الدار، ويشرف على ترتيب موكب المظهر لليتيم ولا ينسحب إلا عندما يبدؤون بقولهم:

«صلوا عليه وسلموا تسليماً».

فترى أن فرقة الموسيقى الناصرية قد نجحت لأمرين: أولهما أخلاق الرجل وحسن سيرته، والثاني انفراده بإدارتها خلافاً لجمعية (الاتحاد التمثيلي) التي توجد فيها عدة رؤوس في كل منها رأي يخالف الآخر.

وهو أيضاً (أي الورتتاني) يدير ويرأس عدة جمعيات أخرى منها جمعية مقاومة الخمر.

يقولون أنه سيستقيل من هذه الجمعيات كلها لأنها أنهكت قواه وهو رجل

أحالته الحكومة عى التقاعد ليستريح لا ليتعب، ومن المتاعب التي لا تطاق أن يدير الرجل مشروعاً ما لوجه الله وفي سبيل الأمة، ثم يتكلف له من جيبه الخاص مصاريف الانتقال والقهوة و «التنابر»[1] وما أشبه ذلك من المصاريف النثرية. ولقد أراد أن يأخذ لنفسه في جمعية الاتحاد التمثيلي مبلغ 1800 فرنكاً في العام واقع 150 فرنكاً في الشهر لتلك المصاريف النثرية، فأبوها عليه. وقالوا هذا لا يليق بالرؤساء. وإن من يريد التطوع لإدارةالمشروعات الوطنية والخيرية لا يجوز له أن يسحب شيئاً من ميزانيتها مهما كان اسمه مرتباً أو منحة أو غرامة.

ثم قالوا للرئيس:

ـ فإذا أنفقتم شيئاً من جيبكم الخاص في سبيل الجمعية مثل أجرة «كروسة»[2] أو ثمن قهوة أو «تنبر بوستة» فقدموا به فاتورة... فيدفع لكم.

جريدة (الشباب) 3 ديسمبر 1936

---

(1) الطوابع البريدية.

(2) عربة مجرورة.

الشــاذلي السنــوســي

يطلع عليك أحياناً من تحت أشجار شارع (جول فيري) في نصف الليل شخص بملابس افرنجية، حليق الذقن، لامع الشعر والعينين فيصافحك مفاجئاً ويحادثك إلى أن تعرفه...

ومرة تجد آخر بملابس «الشوفيرات»[1] يبهتك بمنظره، ويسألك ضاحكاً ألا تعرفني.

ثم تجد في النهار شيخاً يتأبط جِملاً من الأسفار والجرائد يحييك بتحية الإسلام، ويخوض معك في الفقه، والتاريخ، والفن، والأدب.

هذه الشخصيات المتعددة كلها، هي الشيخ محمد الشاذلي السنوسي الذي يلقي بعض الدروس لصغار التلامذة في الجامع الأعظم، ويعده مدرسو هذا الجامع من مخلّفات النظام القديم التي يحسن غض النظر عنها على سبيل الرحمة.

الشيخ يعشق الآداب والفنون، أو هو يحب أن يعرف الناس عنه أنه يعشق الأدب والفنون، وأنه يغار بصفة خاصة على الشرع الشريف بصفته أحد أساطينه.

أما الأدب فقد ألف فيه عدة كتب هي:

- تاريخ حياة والدي.
- أدب الحياة وحياة الأدب.

(1) السواق.

والفنون ألّف فيها كتاب المسرح منذ عهد اليونان إلى آخر ما يمثّل اليوم في مسرح (الأديون) بالعناصر اللازمة لتأليف الكتاب.

فهذه مثلاً باية الصغيرة التي سيضع ترجمتها في أول كتاب المسرح لا يستطيع زيارتها إلا في أول الشهر، حيث يقبض مرتبه من الجامع الأعظم، ويخرج على الأثر إلى (باب بحر) وينادي أول تاكسي ويأمره بالذهاب إلى أول «باتيسري»[1] ثم إلى أول بائع زهور، حتى إذا امتلأ فراغ التاكسي بكل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب ذهب ينهب الأرض إلى منزل الفنانة، فيجد هناك أحد رجال المجزر يملأ المكان هيبة ورعباً، ويرى الشيخ ثيابه المنزوعة، ورأسه العاري فيفهم أنه لا ينوي الخروج فينسحب. أو يجد السيدة الفنانة غارقة في النوم، وقد أوصت خادمها بأن لا ينبهها أحد مهما كان عظيماً، أو يجدها قد سافرت إلى سوسة أو بنزرت ولا يعلم أحد متى تعود.

فالشيخ في كل هذه الأحوال يترك الهدايا مع البطاقة، ويعد مَن في المنزل من الخدَم بالحضور في يوم قريب بهدايا أخرى.

وقد ينقضي مرتب الشهر بأكمله قبل أن يظفر بلقاء فنانة أو فنان.

وللشيخ متاعب أكثر من هذه.

متاعبه التي يلاقيها في خدمة الشرق عامة والإسلام خاصة.

هذا البحر الزاخر، والحبر الفاخر رأى الصحافة التونسية بأجمعها أضيق من أن تتسع لعلمه المتدفق فالتجأ إلى صحف الشرق في مصر، وسوريا وفلسطين ليصب فيها ما زاد عن حاجة تونس.

ويقسم الشيخ ـ وهو صادق ـ أن الاتصال بتلك الصحف يكلفه مائتي فرنك في كل شهر، يدفعها ثمناً لطوابع البريد والورق والظروف و «الاسباولو»[2] هذا خلاف ما يتحمله من الاصطدام مع المراسلين الآخرين الذين يراسلون تلك الصحف قبله.

---

(1) بائع مرطبات.

(2) الخيوط التي تربط بها الطرود البريدية.

أما الدين فناهيك بكتابه الشهير الذي سماه كتاب الرد على كتاب (الحداد)[1] وهو أقوى كتبه وأوسعها انتشاراً.

لم يظهر من هذه الكتب غير الصفحة الأولى من كل كتاب. وهذه الصفحة عبارة عن مقتطع هذه صورته:

تسلمت من الحازم الماجد.... مبلغ 15 فرنكاً قيمة اشتراك جنابه في الجزء الأول من....

وكتب في....
الإمضاء
محمد الشاذلي السنوسي
عفى عنه

ولا تزال بقية الصفحات والأجزاء والمجلدات تحت الطبع منذ عام 1930 إلى يومكم هذا، وهي ستظهر بلا جدال في القريب العاجل لأن الشيخ أرفع من أن يخدع الناس، ويجمع النقود باسم الأدب والفن، كما يجمع بعضهم النقود باسم الجهاد في سبيل الخضراء.

لا تحسدوا الشيخ على هذا النعيم الذي يتقلب فيه، فهو يلاقي في سبيله الأمرّين الخوف والوجل، والأسودين الذل والخجل، والأحمرين الفقر وخيبة الأمل.

يكفيه أنه يلمح وهو في طريقه أحد الذين اشتركوا في كتبه كالأستاذ عبدالخالق البشروش الغليظ قبضة اليد، مقبلاً عليه فلا يجد ملجأً غير البرنوس فيغطي به رأسه في خفة افعوانية، ويسير منكمشاً إلى أن يمر الخطر بسلام.

يكفيه أنه في سبيل كتابه «المسرح» يقابل الأرذلين الأقذرين من الممثلين، والارذلات الأقذرات من الممثلات، وينفق عليهم جميعاً من جيبه الشيء الكثير ليمدوه.

---

(1) يعني به بيرم كتاب (امرأ تنافى الشريعة والمجتمع) الذي نشره الطاهر الحداد سنة 1929 وأثار طائفة من رجال الدين.

ولا بأس من إيراد إحدى الحوادث التي جرت للشيخ من هذا القبيل.

في تونس شخص احتكر المراسلة للصباح، والبلاغ، وكوكب الشرق، والأهرام، ولكنه رغم معرفته بما يجب أن يقوله المراسل يعجز عن كتابة رسائله بعبارة صحيحة تقبلها الصحف، فكان يبحث في كل مقهى عن أولئك النحويين الذين يعرفون الجمع من المفرد والاسم من الخبر ليكتبوا له رسائله بأسلوبهم «الفقهي»، واستخدم لذلك عدة نحويين ثم فارقهم على خصام، ولكن خصامه مع السنوسي صاحب الترجمة عم وطم، فما كاد الأستاذ يكتب للمراسل عدة رسائل ويعرف عنوان الصحف التي يراسلها، والأخبار التي ترغب فيها حتى خان الزمالة وعرض عليها أن يراسلها بنفسه.

فلما علم المراسل بهذه الخيانة أقلق مصلحة البريد والتلغرافات في تونس بالرسائل المحررة المؤمنة، والبرقيات المستعجلة، وكلها تبين ماهية المزاحم الجديد وتشرح أوصافه الخلقية والأخلاقية، وماذا يفعل في تـونس، وكيف يعيش، وما هي قيمته عند التونسيين، ولو نشرت إحدى هذه الرسائل لحق للشيخ السنوسي أن يطالب خصمه بمليون فرنك تعويضاً لشرفه، ولم يقصر الشيخ في الكيل للمراسل بنفس المكيال وينقصني وينقصكم أيها القراء أن تطلع تلك الصحف على تلك الشتائم اللذيذة التي أرسلها كل من هذه الأديبين عن الآخر.

قد يسألنا سائل: ما هو شاذليكم سنوسيكم هذا الـذي يقيم الدنيـا ويقعدها، وإلى أي مدرسة في الأدب والكتابة ينتسب فنقول وعلى الله التكلان.

«الشيخ الشاذلي السنـوسي رجل يستـطيع مـلء عشرين صفحـة من صفحات الجرائد الكبرى، كالزهرة مثلاً دون أن يعتريه الملل، أو يظهر عليه الفتور. ويستطيع الكتابة في كل موضوع سياسي علمي فلكي كيمائي صناعي، مطرزاً كل سطر من سطوره ببيتين أو ثلاثة من الشعر العربـي الأصلي الجاهلي تناسب المعنى وتطابقه».

فـإذا طلبت منه الكتابة عن نسبية انشتاين قبض على القلم وشرع يقول:

«لا يخفى أن انشتاين رجل ذاع ذكره في الخافقين، وظهر فضله لكل ذي عينين لأنه تربى في مهد العلم، ولم يخالط السفهاء وآكلي لحوم الناس، ولم يعاشر المتطفلين على الأدب. بل هو بن العلم ووليد الثقافة:

العلم يرفع بيتاً لا عماد لـه والجهل يهدِم بيتَ المجد والشرف

ونزيد هذا السائل معرفة بشيخنا فنقول إنه على كثرة ما يؤلف من مجلدات وكثرة ما يشتري من فاتورة وأشربة وزهور وسباولو وتنابر، لا يعرفه أحد، ولا يريد أحد أن يعرفه.

جريدة (الشباب) 10 ديسمبر 1936

الشيخ التبريزي بن عزوز

يعتقد الدكتور الفيلسوف مدير مستشفى منوبة المخصص للمجانين أن الإسلام دين يـؤدِّي بمَن يعتنقه إلى الخبل والصرع وفقدان الشعور.

وعقيدة الدكتور الفيلسوف كانت بلا شك نتيجة بحث طويل واستقراء مستفيض لأحوال المسلمين الذين أبصر قسماً كبيراً منهم في هذه الافـريقيا الشمالية.

رأى الدكتور بنادير تدوي دويَّ الرعد حول نيران مشتعلة يتصاعد منها البخور، وأبصر رجالاً يهتزون ويترنحون على هذا الطبل وفي يد هذا ثعبان يقضمه قضم الخيار. ومع الآخر قطعة زجاج يجرشها بأسنانه كما يجرش الطفل قطعة الحلوى، عدَا الذين يبتلعـون المسامـير ويخرزون جلودهم بـالمسلات والحراب.

وأبصر الدكتور الفيلسوف معظم الطوائف الإسلامية وكل منها ينسب إلى صاحب قبر يرجوه في الخير والشر.

فالبائع إذا حمل سلعته قال يا سيدي عبدالقادر. والحدَّاد إذا هوت المطرقة على يده قال هذا سخط سيدي بن عروس، أوسيدي بن عيسى، فاعذروا مدير «منوبة» إذا طلب إدخال الأربعمائة مليون مسلم إلى مستشفاه لأنه يرى أقواماً تركوا العقل وهو نور الله، وانكمشوا في ظلمات مجهولة المسالك.

نشرح للدكتور حقيقة هذه المظاهر التي يراها ولا نطمع منه في الدخول إلى الإسلام.

بل نشرح حقيقة هذه المظاهر للمسلمين الذين هم أحوج إلى معرفتها من مدير مستشفى منوبة.

الإسلام يعتبر (التقوى) جماع كل قضية، ورأس كل ثقافة ومعرفة، والمصباح الوحيد الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

وفحواها أن يعرف الرجل بأن فوقه قوة تحاسبه على كل ذرة من الخير والشر، وهي نظرية بسيطة تقبلها عقول العلماء والصعاليك.

وإذا خلا صدر إنسان من التقوى فهو عند الإسلام شخص ساقط، وصعلوك منبوذ مهما حمل من شهادات وابتكر من مشاريع.

وها هم مسلمو الصدر الأول عند ما جعلوا تقوى الله نصب أعينهم أنشأوا شعباً سيبقى بإذن الله إلى نهاية العالم.

غير أن المسلم كسائر الآدميين يمرض قلبه وتنطمس بصيرته، وما من مرض إلا ويسلط الله عليه طبيباً يقاومه ويمحوه، وقد ظهر في مختلف عصور الإسلام هـؤلاء الأطباء المختصون بمداواة القلوب وتطهيرها من الأدران. ظهر أبو الحسن الشاذلي، وعبدالقادر الجيلاني، وبن عروس، وأحمد الرفاعي، وأبو العباس المرسي وغيرهم في عصور كانت فيها الحكومات عاجزة عن تأسيس المدارس، وتشريع النظم، وحفظ الأمن العام فجمعُوا الدهماء حولهم ليبينوا لهم الفلاح من أقرب الطرق وهي «التقوى»، واستعملوا لذلك كل الوسائل اللازمة للإعلان عن طريقتهم وجلب الجماهير إليها، فكتب أبو الحسن أدعيته وصلواته بأرقى لغة فتبعته الخاصة والسراة، ودق بن عيسى على بنديره ونفخَ في مزماره فاجتمع عليه العمال والفلاحون وأهل البادية، فوجدوه يشترط على الداخل إلى حضرته قائلاً:

«يا داخل الحضرة تهذَّب وكنْ أديب   واتـرك الادنـاس والـفـضـولْ»

فإذا تطهر المريد من الإدناس والفضول، واستعدت نفسه للصعود إلى الملكوت الأعلى أراه الشيخ رأي العيان كيف يلين الحديد، ويقاوم سموم

الأفاعي والعقارب وكيف يقتحم كل المخاوف والأهوال محفوظاً برعاية الله الذي لا إله سواه ولا معبود غيره.

فإذا واظب المريد على الدخول في هذه الحال السامية وانكشفت له المرئيات التي لا يراها أصحاب القلوب المظلمة، كان رجلاً يفوق أعظم «جنتلمان» في بريطانيا العظمى.

إلا أن المسخ الذي يصيب كل شيء، أصاب هذه الطرق ومات الأطباء النطاسيون، وخلفهم صعاليك جهلاء، ودجاجلة مشعوذون، وأصبحت هذه الطرق لا تعنى إلا بخدمة ركاب المشائخ، والإكثار من الأعلام الملونة، والطبول المتنوعة حتى فاقت الأعياد الكرنفالية التي يقيمها الافرنج للضحك والتسلية. ومنذ انحرفت هذه الطرق عن جادة الصواب لم تعدم حكاماً يـؤيدونها ويحافظون عليها لتكون شاغلة للجماهير عن سياستهم.

أو لتكون حجة ظاهرة لمن يريد التشنيع بالإسلام مثل هانوتو، ومثل مدير مستشفى المنوبة...

مشيخة مدينتنا أيها القوم تحافظ على هذه الطرق، وتعمل على ازدهارها ونموها لتكون مظهراً متمماً لما في تونس من المناظر الشرقية، كالعمائم الخضر في صفاقس، والأسوار التي حول المدن وملابسنا الفضفاضة ومنازلنا القديمة.

وفي كل احتفال رسمي ينعقد لحضور رئيس الجمهورية أو لمقيم جديد، تحشد مشيخة المدينة هذه الطوائف بأعلامها وطبولها وزخرفها لتمثيل العنصر الإسلامي مع العناصر الأخرى التي تمثلها فرق الكشافة وتلامذة المدارس...

عند مجيء مسيو (أرمان قيون) دعت المشيخة رؤساء الطرق ليجمعوا المريدين لعرضهم في موكب أمام: العميد الجديد.

وكان بينهم رئيس زاوية أولاد سيدي بوعلي، وقد قال للمشيخة بلسان إخوانه:

ـ «لقد زالت دولة الطرق، وانصرف عنها المريدون إما للسعي على

الرزق، وإما ضجراً من التقوى والإصلاح فاعفونا ـ عفاكم الله ـ من هذه المهمة».

ورفعت مشيخة المدينة أنفَ التعجب والاستغراب وقالت:

ـ هذه خسارة عظمى، ومصيبة جلّى، كيف تتركون هذا التراث القومي يضيع من أيديكم هذا والله تقصير معيب. إن الواجب يقضي عليكم أيها الرؤساء بالمحافظة على هذه الطرق والعمل على ازدهارها... والآن فقوموا وأجمعوا العدد الكافي من المريدين والأتباع والمشيخة مستعدة لدفع المصاريف».

نروي هذا عن مشيخة مدينة تونس ونقسم بالله على صحته.

* * *

الأستاذ التبريزي بن عزوز يرأس في تونس الطريقة (الخوتية) وهي فرع من الشاذلية، ولها رؤساء كلهم من أكابر الصوفية والعلماء المثقفين كالدردير، والصاوي، والحفني، والبكري. لا تسمع منهم زمراً ولا طبلاً، ولا تشم بخوراً ولا عطراً، يعبدون الله بكلام هو من أبلغ ما نثر الكاتبون ونظم الشعراء.

فالإمام أبو الحسن الشاذلي يقول في دعائه المسمى بحزب البر:

«يا الله يا ملك يا وهاب هبْ لنا من نعماك ما علمت لنا فيه رضاك، واكسنا كسوة تقنا بها من الفتن في جميع عطاياك، وقدمنا بها عن كل وصف يوجب نقصاً مما استأثرت في علمك عمن سواك».

ومن صيغهم البليغة التي يصلون بها على النبي صلى الله عليه وسلم صيغة البكري:

«اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق والناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم».

وللشيخ الدردير قصيدة نظم فيها أسماء الله الحسنى بأسلوب يشربه الرجل

العامي ويشرب معه الفلسفة الإلهية ويفهم كل اسم من أسماء الله كما ينبغي، وهاكم شيئاً منها:

ويا رب «يا رحمن» هبْنا معارفا ولطفًا وإحسانا ونورًا يعمنا
ومر يا «رحيم» العالمين بجمْعنا إلى حضرةِ القرب المقدس واهدنا
ويا «ملك» ملك جميع عوالمِي لروحي وخلّص من سواك عقولَنا

وتجد معظم أتباع الطريقة الشاذلية وفروعها من كرام الناس وأسمحهم وجوهاً ـ كصاحب الترجمة ـ يجتمعون حلقات موقرة ويرتلون أورادهم بأصوات خاشعة فلا حاجة إلى طبل وزمر.

ولكن هل كل خلوتي في تونس أو غيرها يفهم هذه الطريقة على حقيقتها؟ أو ينظر إلى مثل التبريزي بن عزوز كما ينظر إلى البكري والدردير؟

الواقع أن معظم الخوتية هنا لا يختلفون عن العيساوية، والعروسية، والتيجانية في تقديس أشخاص المشايخ والتبرك بعرقهم وتراب بهائمهم. فلا يكاد السيد التبريزي يزور بلدة فيها أتباعه حتى يحيطوا ببغلته ويمسحوا بأيديهم على كفلها ثم على وجوههم. والسعيد من يحظى بشعرة من ذنبها أو قبلة من جحفلتها، وهذا والشيخ من فوقها يبتسم بفمه الجميل وعينيه الوديعتين، وكان لسان حاله يقول:

ـ مش على نحن،

والسيد التبريزي معدود من الذوات المقيدة أسماؤهم في الدفاتر النظيفة وأرى أن ذلك لا يرجع إلى أنه شيخ طريقة، بل لأنه قبل كل شيء رجل مثقف مستنير، ورجل فلاح.

وإذا رأيتم التبريزي يصادق كبار الجالية الفرنسية من رجال العسكرية والإدارات فلا تقولوا إنه كغيره، بل قولوا إنه رجل متصوف يعمل بقول محي الدين بن العربي.

والصوفية كما لا يخفى تأمر جميع بني الإنسان بتبادل الحب بدلاً من الخصام والتناحر.

وهي تشرب هذا الحب من الكأس الكبرى التي وصفها الإمام ابن الفارض:

شربنا على ذكـر الحبيب مدامـة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس يُديرها هلال، وكم يبدو إذا مزّجتْ نجم

ونحن نرفع هذا الكأس مع التبريزي ونقول: «أَلَافوتْر»[1]: وفي صحة المسلمين المحبّين، وغيظاً في مدير مستشفى المنوبة.

جريدة (الشباب) 19 ديسمبر 1936

(1) يعني في صحتك.

الشيــخ سليمــان الجــادوي

جزيرة «جربة» التي تبعد عن أرض تونس ثلاثة كيلو مترات تكاد تساوي عندي جزر بريطانيا العظمى التي يتخطى أهلها (المانش) إلى الأوروبيين، ويخالطونهم في كل شيء ولكنهم يمتازون بمواهبهم الخاصة التي لا يبدلها الاختلاط ولا الزمن.

ولعل جربة تفوق بريطانيا إذا قسنا ثروة أهلها وألمعيتهم إلى مساحتها وموقعها وتاريخها.

لا يوجد «جربي» خائب وليس معنى الخائب الكافر بالله والتعيس في الحياة، بل معنى الخيبة هنا العجز عن كسب الأموال. فقد قبض القوم على زمان التجارة التي هي أربح الأعمال، واختاروا منها تجارة المواد الضرورية للبشر كالأغذية، والأكسية والأغطية، وكأنهم مستعدون بفطرتهم للتجارة وجوب الممالك لتعاطيها. فترى أحدهم وقد لا يحسن القراءة والكتابة عالماً بكل ما يلزم التاجر من صدق الوعد، والمحافظة على الكلمة متمشياً على الطريقة الحديثة من تنسيق محله بصورة لا تقل عن محلات (فيليكس بوتان) فيبدع مثله في تنسيق علب (الكونسيرف)[1] وصناديق البسكويت، ويجلب مثله الآلة التي تقطع شرائح «الجمبون»[2] حتى لقد حسده كل تاجر. وقصر دونه كل طلاب الربح والثروة، ولو كان لجميع الطوائف في تونس ما للجرابة من النظر النافذ والعزيمة الماضية لما دخل إليها أي مستعمر.

---

(1) المعلبات.

(2) لحم الخنزير.

ليس من السهل أن نحصي في هذه السطور القليلة مزايا طائفة غلبت جميع أقليات الدنيا في الاحتفاظ بكيانها، والسبق إلى اقتناء مادة الحياة ـ يعني الفلوس.

هل يكفي القول بأن الجربي ينظر إلى جواهر الأشياء، ويحيط بأقطارها المتناهية فلا يسرح مع خيال، ولا ينخدع بوهم وهو بطبعه هذا عدو للشعر، والتصوير، والموسيقى وسائر الفنون التي هي في الواقع فضول زائد، ولغو لا فائدة فيه إذ ليس من الواجب على الرجل الذكي الموفق أن يكون عالماً بقول المتنبي مثلاً:

هذه رزت لنا فهجت رسيا ثم انثنيت وما شفيت نسيا

هذه الأنغام التي تخرج من الأوتار والأبواق تجلب النوم والوخم إذا أردنا الصدق.

وصورة (الجيوكونده) المعلقة في (اللوفر) لا يشتريها عاقل بفرنكين، إذا جئنا للحق.

لا تحسبنا ننقص من قدر القوم، فهذه هي عقلية الأجيال القادمة في القرن الثلاثين أو الخمسين حيث يضيق وقت الناس عن قرض البيت من الشعر أو مداعبة الوتر أو التخطيط للألوان.

فأي رجل هذا الذي يكون من صميم الجرابة ويحمل دمهم المركب من مزيج فنيقي، بربري، عربي، تركي ثم ينحرف عن جادّتهم ويحترف صناعة الصحافة والأدب في مثل هذا الزمن وفي مثل بلادنا؟.

إنه الشيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة (مرشد الأمة).

وجريدته من النوع (الزين العابدوني)[1] الذي يأخذ ولا يعطي كبالوعات الشوارع ولكنه يحبها حباً خالصاً، ولا يبخل عليها بالنفقة، بل قد جمع منها مختارات وأعاد طبعها في مجلدات كمجلدات (الهلال) و (المقتطف).

(١) نسبة إلى زين العابدين السنوسي أحد الصحفيين التونسيين المعروفين.

يقول المثل العربي «تحسبها خرقا ء وهي صناع» أي أنك تحسبها تعبث وتفسد وهي تصنع وتتمق. . .

الشيخ الجادوي في أشد الحاجة إلى صحيفة، وهي إن لم «ترشد» الأمة فحسبه أن ترشده وحده وإن لم تنفعها فيكفيه أن ينتفع بها وحده لأنه رجل طموح النفس، عاشق المعالي يريد لشخصه المحترم ما ينبغي له من كرسي بلدي، وكرسي جهة، و«ليجون دونور»، و«أوتوموبيل» وقصر في المدينة، وفيلا في الشواطىء، بل جريدته تلزمه لما هو أهم من هذه السفاسف والصغائر، إذ هو مع اشتغاله بالصحافة يشتغل بالتجارة. وعلى الأخص في التاي، والسكر، والمنسوجات الثمينة الخفيفة، التي تأتي من الشرق، وله عملاء في الجزائر، ومراكش، وكل ناحية في أفريقيا الشمالية، يسلمهم بضائعه بطريقة تتعب في فهمها دواوين الجمارك، وإدارة «الباتيندة»[1]، وبنفس الطريقة يستلم بضائعه. إذن فالجريدة تصلح في هذا الموقف فتدافع عن الاقتصاديات التونسية وتخيف الموظفين والمزاحمين، وعلى كل حال فالتاجر الذي يملك جريدة خير من التاجر الأعزل.

قل معي مرة أخرى: تحسبها خرقاء وهي صناع. .

اطلعت على مجلدات من مجموعة مرشد الأمة، وهي مجلدات يغنيك الاطلاع على واحد منها عن بقيتها.

فانتبهت إلى مقالات متينة الأسلوب جليلة الفائدة. ولكن الذي أطلعني على تلك المجموعة أخبرني أن معظم مقالاتها مكتوبة بقلم المرحوم الشيخ مناشو، وقد علمت صدق ذلك عندما أطلعت على (مرشد الأمة) في هذه الأيام، واهتديت فيها إلى مقالات صاحبها الجاودي التي يتولى كتابتها بنفسه، وهي بلا ريب المقالات التي تهاجم شنيق وبنك التعاضد. فلا والله ما رأيت متعة تسلي النفس، وتنسيها الكرب أحسن من هذه المقالات.

---

(1) الرخص التجارية.

يقول الشيخ تحت عنوان:

«لقد عجزت صيغ الجموع، ومخترعو الأسماء الخمسة عن الوثوق والظفر بتعبير تقبله الفهوم عن ما يجري بين ظهرانينا في عالم الخفاء. ولا نقول أن ابن خلدون في مقدمته، والطبري في تاريخه، ولا صاحب الطول والعرض، والجوهر والعرض ببالغي درجة الفهم والإفهام عن الطغمة التي أعجـزت التفتزاني صاحب السعد، وصنوه الجرجاني صاحب الدلائل والأسرار... الخ».

فترى الشيخ قرأ جميع الكتب الزيتونية أو الأزهرية، وهي كتب وأيم الحق تحتاج إلى جزء كبير من عمر الإنسان. وقد أمضى الشيخ ذلك الجزء من عمره ويرى من الخسارة المادية أن يضيعه هباء منثوراً. فإذا هب للحرب والدفاع عن الاقتصاديات رجم خصومه بأحجار الأسماء الخمسة، والمقولات العشر، وقذفهم بمجلدات الطبري، وابن خلدون، وبهذا تنتظم ميزانيته المالية ولا يخسر سنتيماً واحداً من ماضيه ولا حاضره.

وبعد فقد كتبت هذه الكلمة على أثر قبلات لطعتها على وجنتي الشيخ في عيد الفطر.

وسألطع عليها قبلات أخرى كلما قابلته، وسأرقب مرشد الأمة لأسبق كل إنسان إلى قراءته، وسأهتف كلما قرأت مرشد الأمة قائلاً:

ليحيـي أديب جربة!.

جريدة (الشباب) 25 ديسمبر 1936

الأستــاذ عثمــان الكعــاك

الأستـاذ ــ والأستاذ مـرة أخرى ــ عثمـان الكعـاك المـدرس الـوقتي «بالخدونية» و«العطارين» لا يعجبه أستاذ على وجه البسيطة. ولكي يبرهن على ذلك ينفخ نفسه بقدر ما تتحمل رئتاه من الهواء. وعنده أن الإنسان إذا وصل إلى هذه الدرجة من الانتفاخ استحق لقب أستاذ بجدارة، يتكلم من أنفه كزميله الوجيه الاستقراطي صاحب (تونس) و(العالم الأدبي)[1]، أو كسائر العظماء المختارين، ويزيد عليه بنظرته التي يرسلها إلى من حوله، وكلها استخفاف وازدراء، وهو من أولئك الأشخاص الذين يبلغ ثقل دمائهم وزن الزئبق، يردون السلام بيدٍ ثقيلة يلوحون بها في الهواء أو بإماءة بجانب الصدغ تكفي عندهم لرد التحية. نوع من الآدميين موجود في كل البلاد، ويكثر وجوده بين الذين يمارسون مهنة تعليم الصبيان، فقد تعاشر أحدهم عشرة أيام بلياليها تقضونها في الأكل والشرب والسمر والمرح، فإذا قابلك في اليوم الحادي عشر تجاهلك، أو تبدأه أنت بالسلام ليرد عليك بطريقته التي اعتادها، وبقدر ما يشعر الناس بثقل هذه الطوائف يشعرون هم بلذة وارتياح كالطفل المتمرد السيء التربية عندما يركب على «العلوش»[2] الصغير.

صحيح أن صناعة التعليم تضيق أخلاق صاحبها، وتشعره بحاجته إلى العظمة أو التعاظم ليهابه الصبيان وليوقره الآباء، وقد يصبح تعاظمه طبيعياً بطول الزمن، ولكن الصناعات كلها تخلق لأهلها عادات مختلفة، فالجزار قد

---

(1) يعني زين العابدين السنوسي.

(2) الخروف.

يكون ميالاً للعراك، والحائك لا بد له من الرقاعة، والحمامي تلازمه الصفاقة، ولكنك لا تجد كل جزار يعارك الناس، ولا كل حائك يتساخف، ولا كل حمامي صفيقاً. وهناك قانون أدبي عام يحدد العادات ويكظم الطبائع تعرفه من قول الشاعر العربي:

لولا علاجُ الناس أخلاقهم إذن لفاح الحمأُ اللازب

أستاذي وأستاذك عثمان يدخل مطبخ الزين، فيرى على المكتب إعلانات متخلفة من الإعلانات التي تطبعها الأجواق الغنائية ومطلعه:

ليلة طرب وسرور.

فيتساءل بعجرفة واشتمئزاز.

ـ كيف يسمونها ليلة طرب وسرور، مع أن كؤوس الخمر ستدور فيها؟ إنه من الواجب أن يسموها ليلة سكر وعربدة، ثم ينتقل إلى السطر الثاني ويقرأ:

على تخت الأستاذ...

فيسارع إلى قلم الرصاص، ويقول بصوت عال ويكتب ما يقوله بالقلم كلمة بعد أخرى:

ـ أستاذ؟ أي أستاذ؟ في أي مدرسة يقرىء؟ وأي دبلوم يحمل؟ أستاذ هكذا والسلام، شيء عجيب والله.

ولا نعرف كيف يكون موقف أستاذ مثل الأستاذ بدره الطرار إذا كان حاضراً يسمع عثمان ويراه بالعين.

ويسمع أحدكم يذكر «دانتي» في مجلسه، فيقلص شفتيه، ويزم أنفسه كمن يشم رائحة «الشياط»[1] ويسأل:

ـ وما الذي حشر دانتي هنا؟

---

(1) الحريق.

فيخجل السامع أكرمكم الله، ويكف عن ذكر (دانتي) وعن ذكر الأدب والأدباء مرة واحدة.

أبصرت الأستاذ واقفاً أمام إعلان علقته إدارة الأوقاف أو البلدية ــ لا أتذكر ــ ومعه قلم يصلح به غلطات نحوية ولغوية جاءت في ذلك الإعلان فأعجبتني منه هذه الغيرة، وآليت على نفسي أن أتبع كل ما يكتب إذ أن وقتي لا يسمح لي بحضور دروسه، والانتفاع بعقله وعلمه، قرأت له مقالاً في النهضة عنوانه:

بن خاتمة

فانحنيت على المقال ومعي سبعة من القراء وقرأنا المقال عدة مرات فلم نخرج منه بطائل، ولم نفهم إن كان فذلكة تاريخية كالتي يلخصها محمد عبدالله عنان في المجلات المصرية، أم هو ترجمة لشخص مجهول كشف عنه لأهل الجيل الحاضر، أم هو نقد، أم عرض، أو مدح، أم قدح. ومقالة ابن خاتمة هذه نسخة طبق الأصل مما يكتبه من المقالات الأخرى، كمقالة شعراء أفريقيا في القرن العشرين، والأبحاث التي ينشرها حول الأميرة عطف زوجة المستنصر بالله الحفصي.

يبدأ الأستاذ كل مقال يكتبه بفقرة من كلام أحد المستشرقين.

قال الأستاذ ديبوى، أو مرجليوت في المجلد السابع ص 125 أن ابن خاتمة ولد في بلنسية، وقرأ على أبـي جعفر عبدالله [أ]بن أبـي عبيدالله.

والرقم الذي يضعه لك الأستاذ آنفاً يطالبك بالنزول إلى أسفل المقال لتقرأ الحاشية أو الشرح الذي يضعه كبار الباحثين عادة في مقالاتهم، فإذا نزلت وجدت حاشية قد تكون أطول من المقالة نفسها وبها يقول:

ذكر الفتح في قلائده أنه قرأ على عبيدالله بن عبدالله لا عبدالله ورحل إلى المشرق وقرأ الحديث على فلان...

وهكـذا يمتلىء المقـال وحواشيـه بعبدالله ابن عبيـدالله، وعبيـدالله بن

أبـي عبدالله كلها منقولة بالحرف والسطر من كتاب ذلك المستشرق المسكين والكتب الأخرى، فإذا قاربت المقالة من الانتهاء طرزها الأستاذ بتلك الجمل المبتذلة التي تقرأها بكثرة في أبحاث المؤرخين التي تنشرها المجلات المصرية والسورية مثل:

وإذا نظرنا إلى الوسط الذي كان يعيش فيه الشاعر فلان علمنا أن...

ومثل:

ولا يخفى أنه قد قرأ على أبـي الطيب وتأثر به وسلك طريقه...

ومثل:

على أن وفاة والدته وهو في الخامسة عشر كان حافزاً لعزيمته ومثيراً لهمته...

ولكن هؤلاء الباحثين يصلون بك في النهاية إلى فائدة، وعثماننا يحشد لك خليطاً مشوشاً لا تفهم منه إلا أن الرجل يريد أن يشعرك بسعة اطلاعه على كتب المستشرقين العربية والفرنسية. ويشتط في هذه الناحية فينبه قارئه إلى أن مقاله مترجم عن الايطالية أو الألمانية أو اليابانية.

هذا الاطلاع الواسع على كتب المستشرقين جاءه من مكتبتي العطارين والخلدونية فهو يستعير منها ما يشاء. وما من كتاب نفيس تطلبه من إحدى تينك المكتبتين إلا وتجد أن الأستاذ عثمان قد سبقك إلى استعارته كله أو جزء منه وعليك أن تنتظره حتى يفرغ من أبحاثه القيمة التي سننشرها للشعب.

ولكن الذي يستحق الاهتمام ومن أجله ننشر هذا المقال هو خوفنا من أن تكون الدروس التي يقدمها الأستاذ للطلبة من قبيل مقالات بن خاتمة وعطف ونحوهما. فتكون تلك «الرزانة» المعروفة وقعة على الشعب بأكمله بدون مقابل ولا فائدة.

لا ننس بعد هذا أن للأستاذ عثمان فضائل قد لا توجد مجتمعة في خمسين شخصاً في تونس كلها. وهي:

ـ لا يدخن سواقر.

ـ ولا سيقار.

ـ ولا يشرب خمراً.

ـ ولا يجلس في المقاهي.

ـ ولا يحضر حفلات الأعراس.

وليته كان يفعل كل ذلك، لأن الوقار في هذا الزمن ثقيل على النفس، مانع من التعرف.

أبصر الأستاذ عثمان أحد الشياطين الذين يقدمون للشباب صور الأبطال جالساً أمامه في صالة مدرسة «العطارين» بين التلاميذ، ولم يكن رآه من قبل فأوجس خيفة وتقدم منه ينظر إلى الورقة التي يخفيها بين يديه فقام المصور وغادر الصالة فتبعه الأستاذ فركض المصور كما يركض والآخر خلفه إلى أن خرجا إلى الشارع.

ولكن مصورنا كان أسرع عدواً من الأستاذ عثمان الكعاك الذي يعتقد أن نشر صورته الكاريكاتورية في الصحف تخرجه على ما يحرص عليه من الوقار والحشمة والأستاذية.

جريدة (الشباب) 1 جانفي 1937

الأستـــاذ الشاذلي خيرالله

قد بلغ الرجل العقد الخامس من عمره ولا يزال بعيداً عن الرجولة الناضجة، ويرجع ذلك لعدة عوامل أهمها الجسم الذي قد يزيد أو ينقص عن حد الاعتدال فيقف صاحبه منحرفاً في ناحية واحدة.

والأستاذ الشاذلي خيرالله من أولئك الرجال الـذين تحتفظ أجسامهم بالحيوية الآدمية مدة طويلة من أعمارهم، ويحتفظون معَها بأخـلاق الصبا والشباب كالاختيال بالفتوة، والزهو بالمقدرة، والمسارعة إلى تبديد ما يملكون من ثروة موروثة أو مكسوبة.

وهو يتمتع فوق قوته البدنية بقوة نبوغه في تحرير الصحف الفرنسية. فإذا أضفت إلى ذلك راحةَ باله وفراغ ذهنه من أمور المعاش وجدت أمامك أعجوبة.

تولى الأستاذ تحرير عدة صحف دستورية وغير دستورية، وتناول مختلف المسائل التونسية ببراعة أعجب بها التونسيون والفرنسيون معاً. ثم انتهى على غير ما يحمده الناس.

يقولون إنه أخطأ، ويقولون إنه سقط، ويقولون إنه خان، وكلها أقوال لا تنطبق عليه.

قولوا إنه «فتًى» معجب بثقافته الفرنسية، معجَب بمقدرته وهو عازم على الارتفاع إلى أسلوب جوستاف لوبون، أو بلزاك، يحمله إعجابه بمقدرته على الكتابة في أي صحيفة ومع أي حزب، وسواء كانت الكتابة في مناصرة دستور،

أو مهاجمة مقيم عام، أو انتقاد إدارة من الإدارات، فالغرض الأول هو إظهار البراعة وسيان أن تكون النتيجة ربحاً أم خسارة.

وقولوا إننا نعيش في تونس التي يتضاءل فيها العنصر الوطني، ويحاول كل متحذلق من أبناء العائلات أن يظهر أمام العناصر الأجنبية كتونسي ممتاز لا يشبه «لاندجين» في الجهل ولا في الفقر ولا في السفالة. فترى هذا يختال بأنه «قائد»، وذلك يفخر بأنه «وزير» والآخر من حملة «اللجيون دونور» من درجة «أوفيسييه»[1]. وصاحبنا هذا الذي لا يملك شيئاً مما تقدم لِمَ لا يكون في نظر الأجانب والمسودين أحسن تونسي يكتب بالفرنسية تهَابه الإدارات، وترفع ترجمة مقالاته إلى دوائر باريس العليا؟.

لقد ظفر الشاذلي بمن يدرك قيمته من عظماء الفرنسيين: ظفر بالمسيو بيروتون المقيم السابق الذي اشتغل بالتحرير والتأليف ويعرف قيمة الأدباء. وكانت له معه مقابلات خرج منها الشاذلي مرفوع الأنف، يروي كيف كانت المقابلة، وكيف قام العميد لاستقباله عن كرسيه، وماذا قال له، وكيف عرض عليه جميع الوظائف في الإدارة التونسية. ثم يروي كيف جلس هو أمام بيروتون، وبماذا ساجله وكيف رفض تلك الوظائف بإباء وشمم...

ومثل هذه المقابلة، ومثل هذا التقدير عند أمثال الأستاذ الشاذلي غاية الغايات، والغايات نهاية النهايات ثم العفاء على الوظائف والفوائد الأخرى التي يلتمسها النفعيون.

والواقع أن جميع النوابغ لا تعنيهم الماديات أكثر مما يعنيهم أن يشار إليهم «بالبنان».

غير أن الشاذلي عندما يجمع في طريق تفوقه أشياء جزئية كثيرة لا تقل في الأهمية عن الغاية التي يقصدها.

فإذا كلّف بعمل اندفع فيه، ولا يهتم كان مسخراً لغيره أو منطلقاً بإرادته كا «الشمندفير»[2] الذي لا فضيلة فيه إلا أن قوته كذا من الخيل.

---

(1) ضابط.

(2) القاطرة.

وهو إذا كتب المقالة النارية اضطجع في مقهى الكازينو، وعلى وجهه علامة الارتياح التي تظهر على كل من يؤدي الواجب المفروض عليه، ثم هو لا يريد أجراً ولا شكوراً على الواجب. وإنما يريد من «الشوفير» الـذي يستخدم حماسه، وينتفع بمقدرته أن يعرف حقه من الكرامة. وكرامة الشاذلي متعبة والحق يقال. فهو إذا ضرب موعداً لصـاحب الجريـدة التي يحررهـا، أو للشخص الذي يهمه المقال جعل الموعد في الساعة الحادية عشر مساءً وبمقهى الكازينو، وعلى المنتظر أن يضع نصب عينيه آخر قطار من (ترام) المـرسى الذي سيحمل الأستاذ. . . ويلاحظ الكثيرون أن (ترام) المرسى هذا الذي يعود خالياً من الركاب في تلك الساعة لا يزينه ويعمره إلاَّ شخص كاتبنـا العظيم، فيتساءلون: وفي أي قطار يرجع؟

وقد تستغرق المقابلة كل الوقت الباقي على آخر قطار يرجع إلى المرسى. ويقوم هذا القطار ويتمنى الجالسون مع الشاذلي أن يتفضل بالقيام، ولكنه يترك القطار يمر أمام عينيه لأنه يرى أمامه رتلاً من التاكسيات يكفي واحداً منها لإيصاله إلى داره في المرسى قبل أن يصل إليها القطار. . .

ولك أن تفهم بعد ذلك كيف تنهار المشاريع السياسية وتفسد الخطط الوطنية. . .

أعجب ما يسجل على سيدي الشاذلي خيرالله هو نفيه إلى إيطاليا في الوقت الذي نفي فيه زعماء الحزب الدستوري وأنصارهم إلى جحيم «البرج دي بوف».

استلم إدارة الحزب الدستوري بعْد نفي الزعماء إلى البـرج المذكـور مباشرة. وكان على الحزب أن يقوم بمظاهرة احتجاج على اختطاف زعمائه من ديارهم ومن الشوارع، ولم يكن في وسع خيرالله منع هذه المظاهرة بصفته زعيماً دستورياً، كما لم يكن في وسعه إغضاب المقيم المسيو بيروتون الذي أحسن مقابلته، وأبدى له إعجابه بقلمه الفرنسي، فوجد أنه لو نفي كبقية الزعماء حمل مثلهم تاج التضحية. ولكن الرجل لا يحب الآلام الجسمانية، ولا يرغب في معاشرة العقارب والأفاعي الساكنة في البرج، ولا يستغني عن (القرسون) الذي

يتقدم إليه بصينية القهوة والتاي فطلب أن يكون النفي إلى مدينة روما عاصمة الشعر، والموسيقى، والجمال، والفن. على أن تكون الاقامة في أحسن فنادقها الكبرى على نفقة حكومتنا. وأعجبت السفارة بهذا الحل لاعتقادها أن الشاذلي آخر دستوري سيغادر تونس ومن بعده تعود البلاد هادئة كجنة الفردوس لا تسمع فيها لغواً ولا كِذاباً.

وفي الليلة التي سيسافر في صباحها زعيمنا المنفي كان جالساً في أحسن مقاهي تونس مع بعض موظفي السفارة، وأصدقاء للسفارة يتفاوضون بلطف وهدوء في كيفية سفره... وهل يحسن أن يلقى عليه القبض؟ أم يكفي إرسال ضابط وعسكري ليبلغاه أمر الحكومة بمغادرة البلاد؟ أم يسافر من تلقاء نفسه بدون ضجة ولا مظاهرة، أم يلقي قبل سفره خطبة في إدارة الحزب أو كلمة وداع في السفارة...

كل هذه المضحكات والشاذلي لا يشك لحظة في أنه ضرب ألف عصفور بحجر واحد، وتوفق إلى فعلة لم يسبقه إليها الزعماء والفاتحون من عهد طارق بن زياد إلى يومنا هذا.

فأنت ترى أن الرجل يلعب في مقام الجد، ويجازف في اللعب مجازفة المقامر الغني الذي لا يبالي الفقر. وإني أعيذه أن تكون غايته الحصول على مال أو وظيفة، فليس له في ذلك مأرب وإنما هو مدفوع بمزاجه الحيوي الميال للإسراف والتبديد سواء في العقل أو المبادىء.

وأصحاب هذا المزاج قد يرجى فلاحهم إذا اكتهلوا، وكهولتهم لا تكون قبل الستين كما شوهد في كثير منهم.

والأستاذ اليوم على وشك إصدار صحيفة (لافْوَا تونيزيان) وقد يأتي في هذه المرة بما ينفع تونس ويكون حقًّا شخصية يشار إليها بالبنان.

جريدة (الشباب) 8 جانفي 1937

الأستـــاذ المنصف العقـــبـي

الأمة الإسلامية أصبحت عبارة عن عجينة كبرى مؤلفة من كل شعوب العالم، حيث انمحت الجنسية أمام التوحيد، وتزوج المسلم العربي أو الفارسي بالمسلمة التونسية أو الزنجية. فإذا تأملت في سكان أي عاصمة إسلامية كالقاهرة، أو دمشق وتونس وجدت فيها الأبيض، والأسمر، والأحمر، وعجزت عن معرفة ملامح الشعب الواحد من شعوب الإسلام بالسهولة التي تعرف بها الانقليزي، والطلياني، والياباني.

وتفهم من هنا كيف تلتبس ماهية الرجل الشرقي على الأوروبيين، ويسمونه الرجل «الغامض».

ورغم ذلك فلا تزال كل رقعة من الأقطار الإسلامية محتفظة بملامح خاصة تظهر لمن يطيل التأمل ويستقرىء جميع الوجوه والأشكال.

فإن عجز الأوروبي عن تمييز البغدادي من اللاتيني، والقاهري من المراكشي، فإن الرجل الشرقي يستطيع وضع اصبعيه على واحدٍ في وسط مليون ويرده إلى أصله وبلده.

هؤلاء أبناء تونس ولهم آباء من العرب، والترك، والبربر، وأمهات من الشركسيات والايطاليات أو الفرنسيات أو العربيات ولكنهم جميعاً يحملون ملامح الاقليم التي لا يمحوها الامتزاج ولا الزمن.

والأستاذ المنصف العقبي من خيرة الأشخاص الذين تتجلى فيهم الملامح التونسية بوضوح.

والشخص التونسي بالإجمال رخص البدن، مدور الوجه في عينيه سِنة كأنه ينظر إلى شيء لذيذ.

وفي استطاعتي أن أصرح بالنيابة عن المرأة التونسية أنها تتمنى أن يكون ولدها من طراز المنصف وقالبه.

ولا يحسبني القارىء عاتباً أو هازئاً فيما أقول فإن في كل أمة سرًّا تحتفظ به نساؤها، وهذا السر هو الذي ينتخب الأشكال ويقربها من بعض ليخلق منها نوعاً جديداً متجانساً غير متنافر ولا متدابر.

وقد تسألني: لم ألصقت بالمنصف موضوع المرأة، ولم تجعله موضوعاً تتكلم فيه عن المحاماة التي يشغلها، أو (المجلس الكبير) الذي يجلس على أحد كراسيه.

ولكنك ستجيب نفسك قبل أن أجيبك وتقتنع وحدك بأن رجلاً له مثل هذا الجمال الخلقي وهذه الرشاقة وهذه الأناقة لا ينتزعه من أحضان المرأة مجلس كبير، ولا قاعة محكمة، وستستقل به وحدها ولو حال بينه وبينها سد ذي القرنين.

واعلم أنه ليس في استطاعة أي رجل يسافر بالطيارة في بعض أشغاله، وفي إحدى محطات الطريق يبصر غادة حسناء زفت حديثاً إلى بعلها فينشلها منه كما ينشل الصقر الفروج وهو طائر ثم تستلم هي إليه رغم جهلها بالمصير.

وليس في استطاعة أي رجل أن يحضر حفلة كبرى تقام لإحدى ملكات الجمال فيتسلط دون جميع الرجال على تلك المِلكة ويصعد بها إلى أحد الفنادق.

وليس في استطاعة أي رجل أن يرغم أجمل النساء على الارتماء تحت قدميه، وانتظاره في الحر والبرد إلى أن يعطف عليها بنظرة أو كلمة إذا ظفرت بها هان عليها الموت.

كثيرون يحسدون المنصف ولكني أقسم أنني أعجب به وأغبطه، وأكثر ما يعجبني منه لباقته، هذه اللباقة التي لا يستغني عنها فتيان القرن العشرين.

أروي عنه حادثة وقعت له في باريس:

كان المنصف في سيارة مع بعض اخوانه وحدث أن تشابكت سيارتان في الطريق ووقف سائق كل منهما يسبّ الآخر، وقد تعطلت حركة المرور تماماً، ولم يكن ثَمّ بوليس يتولى فضّ المشكل، وسمِع المنصف أحد السائقين المتخاصمين ينادي: أين هو قوميسار البوليس؟ فوضع يده في جيبه ومشَى بقامته المعتدلة، وصدره المرتفع وأجاب باللهجة الباريسية:

ـ أنا قوميسار البوليس، فما عليك إلا أن تستمر في طريقك أنت وزميلك. ودخلت «البلفّة»[1] على السائقين وساق كل منهما سيارتَه وهو صاغر.

وشاهدنا المنصف وهو محمول على الأكتاف في انتخابات المجلس الكبير. وقد كان شكله لا ينسجم مع أصوات الهاتفين الذين كانُوا يصِيحون بالنشيد الجنائزي المعروف:

رْحمان يا رحمانْ هذا عبدِك

واليوم يا رحمان قاصِدْ فضلك

وبالفعل لم يكن الأستاذ المنصف مباركاً على الفريق الذي رشحه للنيابة، وإن كان مباركاً على نفسه كجيمع النواب الذين يشتركون في جناية المجلس الكبير.

ليت فتيان العصر الذين يحملون الشهادات العليا ويحسنون قيادة السيارات والرقص ولعب «الكارطة»، يضيفون إلى ذلك كله الوطنية الصادقة والإخلاص لأمتهم والعمل على رفاهيتها...

جريدة الشباب) 16 جانفي 1937

(1) الكذبة.

الأستـــاذ محمـــود بورقيبـــة

كان لكاتب هذه السطور جريدة في مصر اسمها (الشباب) أيضاً. وفي عهدها ظهر أحمد رامي وخلع على نفسه لقب شاعر الشباب، وهو يعني الصغر لا الجريدة، ولكن قلبي كان يوجعني عندما أرى ذلك الشاعر بدا خطواته بقصائد مسروقة من دواوين شعر مجهولة، فينتزع من القصيدة التي تتركب من إثني عشر بيتاً سبعةَ أبيات على الأقل ثم يضيف إليها بعض أبيات قليلة من عنده ثم يشرّفها بتوقيعه. وكما نظم الشعر نظم الزجل الملحون، فسطا على كل معنى معروف في الشعر العربي، ونقله إلى العامية كَما هو بلا زيادة ولا نقصان. ولم يكن في جمهور القراء كثيرون يفطنون إلى سرقات رامي في شعريْه الفصيح والملحون، إذْ كان الجمهور لا يعرف من الشعر العربي غير ما تحويه كتب المختارات المدرسية عن قدماء الشعراء، وغير ما تنشره الصحف لشوقي، وحافظ إبراهيم وغيرهما. فكانت قصائد شاعر الشباب وأزجاله تظهر كأنها جديدة مبتكرة، وانتشرت وساعدها على الانتشار نشاط أحمد رامي وقلة الصحف التي تشتغل بالأدب أو النقد في ذلك العهد. ولكن لم يمض عام واحد على رامي وهو يضع اسمه في كل جريدة، ومجلة مشفوعاً بالتقاريط والدعاية اللازمة حتى قام في وجهه جماعة من الأدباء، وحاسبوه حساباً عسيراً على كل بيت من منظوماته. ولكن رامي في النهاية قد أحكم الدعاية لنفسه، واستطاع أن يحصل من المرحوم شوقي على أبيات يصدر بها ديوانه أذكر منها قوله:

كـل بيتٍ يُـطل منـه على أفـ ـهام أهلِ النهي محيًّا جميـل

واستطاع أن ينتهز فرصة ظهور أم كلثوم في عالم الطرب فيقدم لها أزجاله

لكي تلحن وتغني، وهو على ما أذكر أول زجّال يسجل اسمه على رقاع الفنوغراف بجانب المطربة والملحن، غير أنه مع ذلك نظم عدة قصائد سجلت في الكتب وصحون الفنوغراف ونالت إعجاب الناس ومحت ما كان له من سيئات يرتكبها كثيرون من أمثاله الشبان.

والقارىء يشعر هنا أن شاعر الشباب التونسي يشبه شاعر الشباب المصري من جميع الوجوه حتى في اقتران اسمه بوجود جريدة اسمها (الشباب) ولا يخالفه في شيء سوى أنه لا يسرق الشعر مثله لحسن الحظ.

وانظروا إلى وجوه الشبه:

رامي من شعراء الغرام وبورقيبة مثله، ورامي من عشاق «الأرتيستات» وبورقيبة شرحه.

ورامي من الماهرين في تنظيم الدعاية لأنفسهم، وبورقيبة كذلك، يلقي قصائده في كل حفلة وفي كل مناسبة.

وكلها مشابهات مضحكة وأبْعثها على الضحك هي المشابهة الغرامية فكلا الشاعرين دميمُ الخلقة، ضئيل، شخت، وكلاهما محكوم عليه بنظم الشعر وشكوى آلام الحب مع الحرمان والوقوف على الباب. بينما يحظى بالوصال (الشوفير) الطويل القامة أو العسكري الورد الخدين.

إن أكبر مصيبة تنزل بالرجل العادي هي أن يعشق من لا يحبه ولا يريده، فكيف بمصيبة الشاعر الذي يدمر أعصابه في نظم القصيدة البليغة ثم يضعها تحت قدمي امرأة أمية لا تفهم منها شيئاً، وإذا فهمت شمخت بأنفها وردّته صدًّا وهجراناً.

المشهور أن شاعر الشباب التونسي قد طاح في هوى إحدى المطربات الزرق، وإياها يعني بقصائده التي ينشرها في حديقة الشعر بجريدة (الوزير). والواقع أن شاعرنا يطيح في هوى كل امرأة تعلو خشبة المسرح، سواء كانت مطربة زرقاء، أو ممثلة عرجاء، أم راقصة عجفاء. ولا نبالغ إذا قلنا إن بورقيبة

يعشق أم كلثوم ويحلم بأنه ذهب إلى دارها في مصر، واستقبلته ورحبت به وأثنت على قصائده. بل يعتقد أن هدى شعراوي وسيزا نبراوي، وسهير القلماوي يعرفن أن في الخضراء، شاعراً للشباب صغير السن له قلب خافق كجناح الطائر، وأعصاب مشدودة كأوتار الفيتارة... ولو لم تكن هذه الأحلام في أدمغة الشعراء لما عاشوا سعداء.

وما دام العشق يكون من جانب واحد أعني من جانب العاشق، فللمرء أن يهب قلبه لكل امرأة في العالم.

وما هو التقدير أو الاكرام الذي يلقاه الشاعر التونسي عند الأرتيستات التونسيات.

إنه يتجشم الذهاب إلى دارها التي تكون في الغالب خارج باب (سيدي عبدالسلام) و(باب سعدون) و(باب الخضراء) ومعه كمية وافرة من بضائع الفن كالطقاطيق، والملزومات ونسخة من القصيدة التي ألقاها من أجلها في إحدى الحفلات الهامة فيجد الباب موصداً أو يجد قهرمانة الدار فتخبره عن المطربة الغارقة في النوم أنها ذهبت إلى صفاقس في القطار الذي قام منذ ربع ساعة. وإذا دخل حبسوه في إحدى الحجرات لكي لا يرى المائدة وعليها بقايا المآكل والخمور التي يحملها زوار الفنانات ويقضون عندهن الليل، أو لكي لا يرى وجه ذلك الذي بات يدب «دبيب القرندا بات يعلو نقاً سهلاً» ولا يزال محبوساً إلى أن ينتصف النهار، أو تصفر الشمس ثم لا يحظى بالمقابلة السعيدة.

بل قد بلغ هوانُ الشعراء على بعض الفنانات أنها رأت أحدهم داخلاً عليها وحجرات المنزل عامرة بالزوار، فقادته إلى «الكنيف» وهي تمازحه وتعاتبه على الغياب، وأدخلته فيه وأمرته بإخراج الورق والقلم، وأقسمت أن لا تفتح عليه الباب إلا بعد أن ينظم قصيدة غزلية غنائية عقاباً له على غيابه.

ومحمود يعرف هذه الحادثة ولا يعتبر أو يتوب عن حبهن.

أما شعر بورقيبة وإن كنت أجد فيه أحياناً من القطع الصغيرة ما يشبه

باقات الزهر فإن معظمه لا يعجبني،' ولم أهتز قط لبيت واحد من تلك القصائد التي يلقيها كلما جاء شخص أو ذهب آخر، أو أقيمت حفلة تكريم لزيد أو جاء مولود لعمرو. ذلك لأن هذه المواقف تذهب بجلال الشاعر والشعر، ولأن الشاعر ينظم قصيدته مستعجلاً متكلفاً، ومحمود يعجبه أن يكون شاعر كل حفلة وحادثة. ويحرص على أن يسجل في قصيدته اسم الحفلة والجمعية التي تقيمها والمحتفل به على أن يكون ذلك في القافية إذا أمكن فإذا كانت الحفلة لجمعية الاتحاد المسرحي مثلاً.

كانت القصيدة هكذا:

أسستِ يا خضراء سرحاً فافْرحي   جمعيــةً لــلاتحــاد المســرحي

وقد لا يسمح له وزن القصيدة بإدخال الأسماء كاملة فيقحمها مقطعة أو مبعوجة، فتصل إلى الأذن وهو يلقيها كالرصاصة المنطلقة.

وكثيراً ما تحضر الحفلات التي يلقي فيها بورقيبة شعره، وفي حصة الاستراحة تراه خارجاً على الجماهير يتصفح الوجوه ويتعرف ما أحدثه فيها شعره من الأثر ويسأل هنا وهناك: هل أعجبتكم القصيدة أصْدقوني بربكم هل رضيتم عنها؟ قولوا بصراحة هل فيها ما يُعاب أو ينتقد، فكنا نتراهن على أن محمود إذا مر بنا سيلقي علينا تلك الأسئلة فنكسب الرهان. وحب الشهرة والصيت هو الذي يوقع الشاعر في مثل هذا السخف، ولكنه قد يضمن: الحصول على هذه الشهرة إذا اقتصر على إذاعة الشعر القليل الجيد. فشاعر الشباب لو طبع ديوانه لبلغ حجمه عشرة مرات أكثر من ديوان الشابي، ولكن قل لي أيهما الذي ذاع صيته في العالم العربي كلّه وأيهما الذي يتهافت الشعب على قصائده ويحفظها عن ظهر قلب؟

ينبغي أن نقول في هذا المقام: الشعر العربي يسهل نظمه على كل لسان، وكثيرون من الذين يجيدون النظم يعتقدون أنهم شعراء لأن شعرهم في ديباجته ومعانيه لا يقل عن شعر البحتري والبهاء زهير، ولأن قصائدهم لا تقل في الطول عن قصائد ابن الرومي ومهيار الديلمي، وهذا الأستاذ عبدالله عفيفي

المحرر العربي بالديوان الملكي بمصر له في كل عام أثر من خمسين قصيدة حسنة السبك طلية العبارة، ولكن لا يحسبه أحد في عداد الشعراء لأنه شاعر تهاني ومناسبات.

والشاعر أو الذي يريد أن يكون شاعراً إذا صبر حتى ينصهر ويتحول إلى معدن جديد ثم يطلع بعد ذلك على الناس من وقت لآخر بالفقرة بعد الفقرة فقد يبلغ الغاية من الشهرة والمجد، دون أن يرخص قدره ويعرض صفحته للنقد والملام.

جريدة (الشباب) 22 جانفي 1937

السيـــد محمــود العيــوني

تقرأ ترجمة بطلنا في هذا الأسبوع فتحسبه من جماع «الشيكورات»[1] الذين يتسلطون بقوتهم البدنية على النساء ويعيشون من كسبهن.

عرفت محمود العيوني منذ عشرة أعوام في مقهى بمدينة مرسيليا، وفي كل مرة أرى معه فتاة من اللاتي يتضارب من أجلهن فتيان مرسيليا بالرصاص، وهي تصاحبه إلى ذلك المقهى الذي يؤمّه المطربش والمعمم، والعامل الرث الملبس ويلوي عنه المارة وجوههم تأففاً واشمئزازاً. ولا تبالي مع هذا بفتيان المدينة الذين يجوسون حولها، ويحصون حركاتها لأنها في حمى محمود العيوني.

بطلنا له قوام معتدل ممشوق، ووجه عربي جميل مستقيم الأنف، تحت حاجبيه المقوسين عينان سوداوان تشبهان عيني الأسد في ثبات النظرة وقوتها، ومثل هذا لا تقع عليه كثيراً أنظار الفتيات في فرنسا.

يتصيد محمود الفتيات اللاتي يأتزرن على البطون بالفوطة السوداء، ويمشين حاسرات الرؤوس وفيهن بائعة الحوت، والخضارة، والجزارة، وهذه الطبقات في مرسيليا مشهورة بجمال بارع، ومن بينهن خرجت ملكات جمال فرنسا في الجمال في سنين متعاقبة.

وليس محمود من الذين يتصيدون فتيات الطريق الضائعات، بل هو يفتك المرأة من قبضة رجل تخشاه الرجال ويداريه البوليس كزعماء «الشيكورات»

(1) العُتاة.

والمتاجرين في النساء، ورؤساء عصابات التهريب ونحوهم من الأشقياء.

يختطف المرأة ثم يعود بها أمام صاحبها متأبطاً ذراعها، ولك أن تحصي المشاجرات والمعارك التي تجري بين أولئك القوم في مثل ذلك المجال. والذي يعجبك فيه أنه يعيش ليغتصب الغاصبين، ويؤذي المؤذين، ويتطاول على المتعاظمين فهو كما ينتزع الغادة من صاحبها يسقط كالقضاء المبرم على الذين يحتكرون المنافع و«الأفاريات» ويخرج من بينهم بغنيمة الأسد.

نشأ محمود في إحدى ضواحي تونس حيث بدأ العمران يقوم فيها ويقطنها الأوروبيون فكان وهو غلام يجلب لهم ما يحتاجونه من البيض، والخضر، والوقود، ويخرج بقوت يومه. بينما الذين في سنه يقضون حياتهم العاطلة متسكعين زرافات ووحداناً في الشوارع، مترامين على من في المقاهي من المعارف والأصدقاء. ولكن بيع الخضر والبيض لم يعجب محموداً فالتحق بالعسكرية. وحسب أن فيها مجالاً لما تشتهيه نفسه من العظمة فخاب ظنه إذ رأى قيوداً قاسية ونظماً صارمة، فهرب وانطلق حرًّا يشاكس الأراذل ويشاكسونه ثم يلقى عليه القبض ويعاد إلى السجن كما يعاد العسكري الهارب مرة أخرى، وقد تكرر هروبه من المعتقل أكثر من عشرين مرة، وفي كل مرة يلقى عليه القبض يقول للقوميسار:

– إني عسكري شريف، فإن لم تتركني حراً فسأهرب الليلة من سجنك، وفعلاً...

رأيته في معركة كالتي تروى عن عنترة حيث يدخل في الجموع ويشتتها شذر مذر.

كان في قهوة (الكوبول) في باريس مع بعض إخوانه الشرقيين، ومر من القهوة جماعة من العمال العاطلين الذين يقبضون إعانة العطلة ويذرعون في الليل شوارع باريس للتهكم على الخارجين من المراقص والجالسين حول الموائد العامرة بالمآكل، تقدم من هؤلاء العمال شخص ضخم منتفخ كالبالون وطلب من أحد الجالسين بجانب محمود علبة الوقيد ليشعل سيجارته فقدمها له. فلما أشعلها رمى بها في وجه الذي قدمها له كما لو كان يرميها في قصديرية

الزبلة، وعندئذ سمع كل من في القهوة كفًّا يرن على صدع هذا المتعجرف، ولم ينتظر المضروب ولا أحد معه أن يكون صاحب الكف هو ذلك العربي محمود العيوني.

صاحبنا نصر زبائنه الجالسين على الدخلاء العاطلين، فخرجوا مع البوليس وعاد السكون إلى القهوة. وبعد نصف ساعة عاد المضروب ومعه نحو خمسة عشر شخصاً من شكله وحجمه، ومعظمهم متجرد من ثيابه استعداداً لخوض معركة فلم يتركهم محمود يدخلون القهوة، وقام فوقف على أحد أبوابها ولم يفكر في تلك الساعة إلا في إنقاذ إخوانه الذين معه. ففتح باب أحد التاكسيات الواقفة وأدخلهم فيه الواحد بعد الآخر، وكان المهاجمون قد أحاطوا به وبإخوانه فكان يتلقى الضربات من كل ناحية ويجيب عليها بيديه ورجليه إلى أن دخل كل من معه في المركبة وهو خلفهم، فلما سارت المركبة أبصروا الدماء تغطي فراشها وهي دماء محمود الذي كان يضحك ولا يشعر بجراحه.

هذه حياة ظاهرها ولا شك حياة شيكور، أما باطنها وحقيقتها فحياة رجل شجاع مقدام يعتز بنفسه، ولا يطلب حقه في الدنيا من طريق الالتماس والسؤال.

لمثل هذا الرجل الشجاع القلب والجسم يحتاج أهل هذا الجيل الذي كثر فيه الخبث والطمع، وتآمر فيه الجماعات على اقتسام المنافع. والأميركان قد عرفوا هذه الحقيقة وعملوا على خلق الرجل الشجاع الذي يعتمد على قوة قلبه وهيبته الشخصية فهو نفسه القاضي الذي يصدر الحكم، وهو «اللوسي» الذي ينفذه بقبضة اليد ولهذا يقوون أبدانهم وعضلاتهم وليس في هذا شيء من الهمجية أو الرجوع لحياة الغاب كما يظهر، بل هي مرحلة كبرى يقطعها الإنسان في سبيل معرفة نفسه وإثبات وجوده فالرجل في الحقيقة «غاية» ليس بعدها شيء.

ومع الأسف لا يوجد في الشرق كثيرون من هذا الطراز، وعلى الأخص

الذين يجمعون إلى الشجاعة وحب السيطرة، فضيلة العدل، وشرف النفس، ومعرفة حقوق الآخرين.

تجاوز محمود اليوم سن الرعونة والطيش، وهو يعيش في هدوء وقد تزوج بسيدة كاملة من عقيلات مرسيليا هي بلا شك الأخيرة، ويتاجر كما بدأ في الدجاج والبيض ولكن ليصدرها إلى فرنسا بالجملة.

هذه ترجمة بطل هذا الأسبوع ونحن إذ نقدمها للقراء نشعر بأنهم ضجروا من تلك التراجم السابقة التي نشرناها عن الأساتذة والفقهاء والثقلاء، وإذن يجب التغيير.

جريدة (الشباب) 29 جانفي 1937

الأستاذ حسين الجزيري، صاحب (النديم)

عشرة أعوام يقضيها الإنسان في مهنة الصحافة، وفي أفريقيا، تساوي عشرة أعوام في السجن مع الأشغال الشاقة.

كان القارىء العربي منذ عشرة وعشرين عاماً في بلد مثل تونس، أو هو اليوم في مراكش أو اليمن، ينفر من الصحيفة، ويحسبها فضولاً زائداً لا يستحق الالتفات لأنه قضى عمره وهو لا يشتري غير ما يؤكل ويشرب فما الذي يضره لو امتنع عن شراء الصحيفة التي ليست بقطعة لحم أو خبز؟ وماذا عسى أن يجد فيها من متعة يجدها في قصص رأس الغول، وعنترة، وسيف بن ذي يزن.

وليس كل قارىء يدخل في عداد المثقفين أو المتنورين الذين يهتمون بالإطلاع على ما تنشره الصحف من سياسة وأدب وعلم، فلم يبق للصحيفة إلا بضعة أشخاص في المدينة التي يسكنها مائة ألف شخص.

والواحد من هؤلاء القراء يعتقد أنه صاحب الفضل على الجريدة إذا استعارها من عند «الدخاخني»[1] وألقى عليها نظرة عطف.

والآخر يمعن في الدلال ويتصيد لها ولصاحبها أتفه الأسباب ليحلف بالمحرجات المغلظة أن لا يقرأها ولا يمسها بيده.

وآخر يوليها عظيم احتقاره ويحرض الناس على مقاطعتها لأنها نشرت

---

(1) بائع التبغ والسجائر.

ما يتعارض مع الدين أو الأدب، وهو لم يطلع عليها بالمرة سواء اشتراها أو استعارها.

هذا وجمهرة الملتحين ذوي الملابس الفضفاضة، وقراء الأوراد، ودلائل الخيرات في بلد مثل مراكش مثلاً يسمون الصحف «كوارط تضلل الناس عن عبادة الله».

وهذا التجني الذي ينتحله القراء ترجع أسبابه إلى كراهتهم للقراءة ولا سيما قراءة صحف يجب شراؤها كل أسبوع أو كل يوم، وليس من وراء قراءتها فائدة عاجلة أو آجلة وقد ترى في مثل أولئك القراء من يواظب على قراءة دلائل الخيرات لأنه يعرف أن وراء كل سطر منها كذا من القصور والحور، والأشجار في جنة عدن. وما هي الفائدة من قراءة الصحيفة؟

فالصحفي الذي يصدر صحيفته في مثل هذا الزمان والمكان يجب أن يستعد لشر عظيم وصراع أليم.

إنه يرى نفسه صاحب رسالة يجب عليه إبلاغها لأمته مهما كلفه الأمر.
وأمته تراه وصحيفته حملاً زائداً لا ينفعها وجوده ولا يضرها فقده.

هنا يترك الصحفي «رسالته» ويلتفت إلى المشركين المماطلين والقراء المتغافلين. ويضطر لاتخاذ المقص أو المطرقة أو المشنقة وما إلى ذلك من أدوات العقاب والتهديد ليحمل الناس الواحد بعد الآخر على الاعتراف بوجود الجريدة.

وبهذا اشتد الجفاء بين الصحف والقراء، فكلما أمعنت في تأديبهم أمعنوا في كراهتها واحتقارها.

و (النديم) واحدة من الصحف التي كانت في طليعة الصحافة في أفريقيا الشمالية، وتحملت المشاق العظيمة لتصدر بانتظام، ولعلها نسخة طبق الأصل من نظائر لها كانت تصدر في مصر كجريدة (المسامير) و (السيف) و (الناس) و (البغبغان) وفي كل منها يوجد باب خاص لتأديب خلق الله. غير أن هذه

الصحف قد انمحت الآن وجاء بدلها صحف أدركت أن الداء ليس محصوراً في القراء وحدهم، بل الصحفي يحمل شطر المسؤولية في كساد صحيفته فصدرت في ثوب جديد يغري القارىء على اقتنائها، وانتظار موعد صدورها كما ينتظر المدمن كأس الخمر.

وقد رأينا الكثير من تلك الصحف المصرية الجديدة تأتي إلى تونس فتنال من الرواج ما تحسدها عليه صحف البلاد.

والصحافي التونسي لا يلوم نفسه إذا وقف أمام هذا البرهان جامداً على طريقة واحدة وأسس جريدة يغار على المحافظة عليها كما تغار إدارة الأنتيكات على الخرائب المتهدمة والأبواب المحطمة.

وليس من غرضنا أن نتدخل في شؤون أحد الزملاء أو نلقي عليه درساً في الصناعة.

وإنما انتهزنا فرصة تصوير الأستاذ حسن الجزيري في هذا الباب لنقول إن الصحافة التونسية كلها يجب أن تتنافس في التقدم، وتتوثب للرقي ولو حطم بعضها الآخر.

وفي مقدور زميلك الأعز وهو صاحب القلم السيال، والعبارة الطلية، والفقرات المنسجمة أن يزيد صحافتنا قوة بتجديد (النديم) الذي أنس به القراء مدة طويلة.

وما هو هذا الإعراب[1]؟

هو باب فتحه كاتب فكاهي مصري هو المرحوم محمد توفيق صاحب جريدة (الحمارة) كان يحشوه بالنكات التي تجعل القارىء يغرق في الضحك ويملؤه بأساليب من الهزل يتناول بها سياسة البلد الداخلية والخارجية. وبعد موت هذا الكاتب حاول عشرات من كتاب الفكاهة في مصر تقليده فخابوا على طول الخط.

---

(1) باب من أبواب الجريدة المتحدث عن صاحبها.

وهذه النكات التي نسميها كلمات شائكة أو أخبار هامة بدأت بها الصحف المصرية، ولم يكن البدء من عندها ولكن لأنها النكات التي يستعملها أهل مصر على اختلاف طبقاتهم، ويتندرون بها فكان من الطريف أن ينشرها الصحافيون في جرائدهم، ويتهكمون بها على ما يستوجب التهكم والسخر. ونكات المصريين خاصة بهم قارة في سجيتهم فلم نر جريدة هزلية في سوريا والعراق اجترأت على تقليدها واحتذاء أمثلتها.

أمامنا ميادين فسيحة تتسع للتجديد وخلق النكتة المحلية المأخوذة من طبيعة الاقليم ونفسية سكانه.

وأمامنا الوسائل الحديثة لترقية الصحافة من مطابع ومصورين.

إنه ليعز على الصحافة التونسية أن تتعثر واحدة منها في طريق التقدم زيادة على الحوائج التي تصيبها من التعطيل والمحاكمة.

جريدة (الشباب) 5 فيفري 1937

الأستـــاذ الصـــادق الزمـــرلي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبسم الله الرحمن الرحيم، الحافظ المانع الذي لا إله إلا هو ولا حكم غيره.

هذه صورة السيد الأستاذ الصادق الزمرلي دفعها الي مصور الشباب وهو يقول لم أجد غيرها في هذا الأسبوع...

أعني أنه إذا عجز المصور عن اقتناص البطل اللازم لهذا الباب من كل أسبوع أتانا بصورة من يصادفه في الطريق.

يقول المصور الملعون أن شكل الأستاذ الصادق يغري جميع المصورين على تسجيله بالريشة لاعتبارات «فنية» يرونها ولا يراها الكتاب وأصحاب الجرائد.

ولكن ما الذي يدفعنا نحن لنكتب عن رجل موظف في إدارة العدلية، وليس هو بشيخ مدينة يمكن انتقاده لارتباط وظيفته بمصالح الجمهور ارتباطاً مباشراً، ولا هو بقائد يضرب ظهور الناس بالسياط وينتزع سراويلهم فيبيعها ليكثر مبلغ الأربعة في المائة التي يتناولها على الدخل. ولا هو بموظف في البوليس يتغافل على تجار الهيروين ويتفرغ لحوك التهم السياسية والقبض على الأبرياء. ولا هو بعضو في (المجلس الكبير) يساق كالنعجة ويزين صدره بشريط النيشان، أو يكيف مخه بالسواقر والقهوة. ولا هو برجل سياسي يحترف صناعة البرلمانات والانتخابات ويصدر البلاغات ليملأ بطنه ويوقف الناس على بابه سائلين متوسلين مع عزمه على حرمانهم أو الهروب منهم فنجد مبرراً للهجوم عليه.

وفوق هذا فالصادق الزمرلي رجل عاقل رزين كأنه تمثال من البرونز،

تستطيع أن ترتشف الماء الزلال من الصخر الأصم، ولا تستطيع أن تظفر منه بكلمة تحسبها عليه أو تعرف منها غايته.

والموظف ـ فوق هذا الفهم ـ يكون في الأكثر جهم الوجه مدلاً بعزته ومركزه، ولا يقبل مداعبة ولا ممازحة أو فهو قادر على إيذاء من يداعبه ويمازحه إيذاء لا يراعي فيه جانب الحق أو الباطل. فما لك والصادق الأزميرلي أيها المصور اللعين؟

لسان عفّ لا ينطلق بالعيب في أحد، وقامة مستقيمة موقرة يحترمها الكبير والصغير.

ومعرفة باللغة العربية لا توجد في كثير من أمثاله الموظفين الذين يفخرون بجعل لغة القرآن.

لا يحب الجلوس في المقاهي العامة إلا إذا دعاه أحد أصدقائه فيجيب الدعوة مكرهاً.

ارتقى كثير من إخوانه الموظفين إلى درجة الوزارة ورئاسة الأقسام في الإدارات وهو قابع في وظيفة سكرتير وزير العدلية من زمن طويل، ولم يتزحزح عنها إلى ما هو خير منها.

هذه النعوت الشريفة أسجلها له والدموع تنهمر من عيني أسفاً على ما يصيب الأكفاء من الغبن والإجحاف وقلة الإنصاف.

لقد حاول مرة أن يكون «قائداً» من القواد. أعني مثل أبـي دوبس، والأبريقي، والصنادلي وأولئك الذين «يصور»[1] أحدهم ثلاثمائة ألف فرنك في العام والذين لا يفضلونه في ثقة عربية أو غربية. ولا يفوقونه في الكفاءة والدراية فأخفقت محاولته وتجوهل مطلبه، وأصبح كأنه المعني بقول الشاعر:

طـار قـوم بخفـة الـوزن حتى	لحِقُـوا خفـة بقـابِ العقـاب
ورسـا الـراسخـون من جلة النـا	سِ رسـوَّ الجبال ذاتِ الهضـاب
وكذا الصخر راجح الوزن راسٍ	وكـذا الذر شـائـل الـوزن هـابِ

(1) يكسب.

سيدي الصادق،

الزمان لا يستقر على حال، ولا بد له من دورة تغير وضعه، وتجعل سافله عاليه وكأني بك قد أطلعت على حياة الأدباء وأهل الفضل وكيف بدأت في البؤس والفاقة وانتهت في العز والرفاهة.

هذا عمر بن الخيام ــ ولا أزيدك به علماً ــ كان يفتقد كسرة الخبز وهو ينظم رباعياته انظر كيف سخر الله له صديقه نظام الملك الذي أصبح وزيراً فأشركه في نعمته وأجلسه على أريكته.

وهذا الوزير المهلبي الذي بلغ من بؤسه أنه رأى جماعة في السفر يطبخون لحماً في قدر ولم يكن معه ما يشتري به لحماً ولا خبزاً فارتجل:

ألاَ موت يباع فأشتَريه ... فهذا العيشُ ما لا خير فيه
إذا أبصرت قبراً من بعيد ... وددتُ بأنني فيمَا يليه
ألا رحمَ اللَّه المهيمن نفس حر ... تصدق بالوفاةِ على أخيه

انظر كيف أصبح في بغداد الوزير الأكبر يتصرف في ملك عرضه السموات والأرض.

ونحن معشر الأدباء البؤساء سوف لا تخطئنا رحمة الله، ولا بد لنا ــ قبل الموت من يوم نأخذ فيه حظنا كاملاً غير منقوص، فتعال نتعاهد من الآن أمام الله والناس على ضمان للمستقبل.

أعاهدك إذا جاءتني الوزارة فإني أخلعها عليك وأضعها بين يديك وأنا أقول: «لا يفتى ومالك بالمدينة».

وتعاهدني إذا جاءتك الوزارة أن تخصص لي حجرة في دريبتك تفرشها بجراية وبطانية من الصوف، وتأمر لي بصحن من الطعام في النهار والليل لأعيش في أمان من الفقر والفاقة وعلينا الآن بالصبر.

وعلى الله تحقيق الأمل أو كما قال الشاعر.

جريدة (الشباب) 12 فيفري 1937

الأستــاذ عبدالعزيز العــروي

يقول العارفون باللغة الفرنسية إن الأستاذ عبدالعزيز العروي من خير كتابها، وهو لهذه المزية يحتل ركناً في بياض «البتي ماتان» يملؤه بما يعن له من الشؤون المحلية التونسية وعلى الأخص ما يتعلق بالمسارح والصالات.

و (البتي ماتان) تعد الثانية في الصحف اليومية الفرنسية التي تصدر بالإيالة، ومعنى هذا أن السانحة التي يكتبها فيها عبدالعزيز يقرؤها عشرات الألوف من المسلمين واليهود والأوروبيين.

فهو بمقدرته، وبالجريدة الكبرى التي يكتب فيها، وقوة مركزه يستطيع أن يقدم، ويؤخر، ويرفع، ويخفض.

ولكن هل هو سعيد بمنزلته، أو هل يؤدي بتلك القوى واجبه المفروض عليه لوطنه؟

الواقع أن كل نابغة مصاب بآفة تهد كيانه وتفسد عليه نبوغه.

ومن أهم آفات الفنانين الكسل الجسماني الذي يصاب به الشاعر، والمصور، والموسيقار، وسائر أفراد هذه العائلة فليس أشق على أحدهم من أن يقوم لشراء حاجته أو تحضير طعامه أو البحث عن عمل كما يفعل سائر الناس.

ويقول بعض الباحثين إن الكسل هو الينبوع الأول للفن، كأنما يرون أن الفنان الذي لا يتحرك كما يتحرك العامل والتاجر مضطر لتعويض النقص بقصيدة ينظمها أو لوحة ينمقها، أو هم يرون أن القوى إذا خمدت في ناحية

اشتعلت في نواح أخرى لأن الآدمي لا يفقد قواه حتى اللحظة الأخيرة في حياته . . .

ولكن الأصل في المسألة هو أن الفن يسبق الكسل، وليس هذا الأخير نتيجة له، فما كل من نام إلى الضحى وتراخى عن العمل اليدوي أو غيره بقادر على نظم القصيدة أو تأليف اللحن. . . وإنما الفنان الأصيل المنتج يصرف ثروته الفنية، الجوهرة التي دستها إليه الطبيعة خفية عن جميع الناس فيشعر أنه قارون زمانه، ويستنكف عن أخذ الفأس أو المنشار. بل يرى من حقه على الناس أن يأتوا إلى أعتابه طائعين ومعهم الأموال والهدايا.

يقولون إن الشاعر ابن الرومي كان مخبولاً يتشاءم من كل شيء. فإذا خرج من بيته ورأى شخصاً أعور أو أحدب أو أحول، أو رأى شيئاً غير مستقيم الوضع استخرج الشؤم من ذلك الشخص أو ذلك الشيء، وعاد إلى بيته ثانية لا يغادره أو يهلك أهله من الجوع والعطش، والواقع أنه الكسل لا التشاؤم ولا الخبل.

لأنك تقرأ القصيدة الواحدة لابن الرومي فتحس أن ناظمها له عقل يفضل عشرات العقول وليس فيها أي أثر من التفكك المعروف في كلام المخبولين. وإني لأتصور ذلك الشاعر العظيم يخرج من بيته لدعوة رجل من آل وهب وآل نوبخت وهو يجر رجليه جرّاً ويشعر بكابوس المهانة يجثم على صدره فلا يلبث أن يتصيد أتفه الأسباب ليهرب من تلك الدعوة وما أعد له فيها من جزاء وإكرام لأنه يرى من واجب الملوك والأسياد أن يسعوا إليه لا أن يكلفوه المجيء إليهم.

عبدالعزيز يجلس على كرسي المقهى على هيئةٍ واحدة لا يتحرك، فإن كان عهدك به في أول جلسته مضطجعاً إلى الحائط ورجله اليمنى على اليسرى فإنك تعود إليه بعد ست ساعات فتجده كما هو، وكما يكره الحركة يكره الكلام والثرثرة. والكلام في الحقيقة حركة تستلزم تحريك اللسان والشفتين وأنت إذا سمعت هذا الوصف ولم تعرف صاحبه حسبته عُتلاً ثقيلاً لا يطاق، ولكن

عبدالعزيز ظريف الشمائل وإنما يشاركك الحديث والفهم بإحدى عينيه بينما الأخرى تستريح مع بقية جسمه. إذا قلت له إن الطقس بارد حرك تلك العين بإشارة نعم أوْ لا أو بأي حركة تدل على مقصوده ثم يلوي وجهه لكي لا تكلمه عن شيء آخر غير الطقس ومع هذا فأصدقاؤه الذين يحبونه كثيرون، وصديقاته أكثر، وكلهم أوكلهن من الفنانين والفنانات، وحظ الذكور منهم هو التبرم والإعراض كما وصفت. أما الأناث فلهن قلمه وحديثه وحركته ونشاطه ولو كان من الأغنياء لقلت أيضاً ونقوده.

يوجد كثيرون من النقاد المسرحيين الذين يكتبون بالعربية يطوفون حول المطربات والراقصات ويجدون عندهن بعض الحظوة والعطف والصدقة أحياناً. ولكن لا أفضل عندهن من ناقد (البتي ماتان) ذات الصوت العالي والانتشار الواسع، فكم من سيارة تختطف عبدالعزيز من الشارع ضامنة له كل ما يطلب، وكم غادة تصادفه في المقهى فترتمي بجانبه تاركة خلفها من كانوا يصحبونها من رجال الفن والأدب حتى لترتعد منه فرائص محمود بورقيبة والعبيدي والتريكي.

وقل لي كم تدفع الجريدة اليومية لمن يكتب فيها من وقت لآخر سانحة عن جمعية الاتحاد التمثيلي أو عن شافية رشدي أو رتيبة أو غيرهن؟

المعروف أن معظم النقاد يتطوعون لتحرير هذا الباب مجاناً، ولا تعنى الصحف بمكافأتهم لأنها تعلم أنهم يكتبون لإرضاء أمزجتهم وأمزجة صديقاتهم.

قل إن مرتب الناقد الفني مائة فرنك أو نحوها في الشهر، وهذا ليس بالقليل إذا علمت أن مرتب بعضهم صحن كسكسي أو كأس بوزة.

وهناك كوارث تحل بالنقاد الفنيين يتحملونها صاغرين، فقد تطمع في أحدهم امرأة بعيدة عن الفن والجمال والشباب، وكل خطبها أنها أم راقصة أو خالة مغنية أو قريبة ممثلة. فترى ذلك الشاب الميال للراحة المحتاج للملبس الأنيق والسواقر والقهوة ثم ترى الأرتيستات من حوله إذا رضيت عنه واحدة قاطعته العشرات فتتحرك في صدرها عاطفة الشفقة والمروءة:

ـ هاك يا ولدي فراشك الذي تنام فيه، وهنا تجد عشاءك حاضراً كل ليلة، وثيابك ما عليك إلا أن تنزعها لتجدها مغسولة مكوية. . .

وإن لم يكن غير الأسنة مركباً   فلا يسعُ المضطر إلا ركُوبها

ينقص عبدالعزيز أشياء:

ينقصه الاهتمام بالمسائل التونسية الجدية لينفع أمته بقلمه البليغ.

وينقصه المشي عشرة كيلوميترات في اليوم قبل النوم فإن هذه العملية تصده عن السهر إلى الصباح.

وينقصه حضور جلسات المحاكم ليقتبس أساليب الكلام من المحامين ورجال النيابة.

وكأنّي به وقد أصبح رجلاً كاملاً له زوجة وأولاد.

جريدة (الشباب) 19 فيفري 1937

السيد محمد الأمين الكتبي

مررت بكتّاب بقرية فسمعت المعلم ينشد والأولاد يرددون نشيده جميعاً بصوت عال:

«اللهم ألطف بنا يا لطيف»

ووقفت أكثر من عشرة دقائق والرجل يكرر تلك الجملة بدون انقطاع إلى أن ضجرت وتركت المكان ولا يزال الدعاء أو الدرس مستمراً.

وسواء كان المعلم يقصد تمرين الأولاد على النطق باللغة الفصحى أو كان قصده طلب اللطف من الله في كارثة نزلت به من إدارة المعارف أو غيرها... سواء كان هذا أو ذاك فإن نشيداً مثل نشيد المعلم لا يصلح لأن يكون مادة دراسية يشتغل بها التلامذة ساعات كاملة في كل يوم.

قدمت هذا الكتّاب في هذه الكلمة لأنه نموذج من المدارس التي كانت منتشرة في كل أنحاء الإيالة، وفي العاصمة نفسها قبل خمسين عاماً، فهي تدرس القرآن على الطريقة الآنفة الذكر، والكتابة في ألواح الخشب التي تغسل بالماء وتجفف في الشمس.

إذن لا بد من الكتب الدراسية، وقد جاءت هذه الكتب، فانتفع بها المعلمون قبل التلامذة، بل انتفع بها طلاب الربح والتجارة فمسخوها وقلدوها ووضعوا عليها أسماءهم، ثم أصبحت حقيبة التلميذ فخمة المنظر تحتوي على كتب عربية في الجغرافيا والنحو والأدب والأخلاق.

هذه الكتب لم تجلبها ولله الحمد إدارة المعارف أو الأوقاف ولا أيّ إدارة

تونسية أخرى، وإنما جلبها الأمين صاحب ذلك الحانوت الضيق الواقع في سوق (الكُتْبية)، وهو الذي وصل بين افريقيا الشمالية والشرق العربـي برباط متين، وأدَّى للجميع خدمة تعجز عنها الحكومات إذا قصدت إليها. فكما انتفع الصغار بالكتب الراقية المنظمة انتفع الكبار بالكتب العربية النفيسة. فعرفوا عباس العقاد، وأحمد أمين، وطه حسين، والمازني وغيرهم. وتناولوا بنظام مختلف المجلات والصحف المصرية، والسورية، والعراقية. بل عرفوا ما لم يعرفوه عن الكتاب الأوروبيين المترجمين إلى العربية رغماً عن أن معظمهم فرنسيو الثقافة.

وكان الأمين هو الذي رفع دعائم اللغة العربية في تونس، وأوجد هؤلاء الكتاب الذين يشاركون في مختلف الشؤون ويؤسسون الصحف والمجلات.

نعم هو دكان الأمين لا مدرسة الصادقية ولا معهد الخلدونية.

وهو بعد هذا رجل تاجر لا أكثر ولا أقل.

يبيع لك النسخة من كتاب (ضحى الإسلام) أو (مراجعات العقاد) أو (تاريخ العرب في إسبانيا) وهو لم يفتحها، وعذره في ذلك أنه لا يجد الوقت، ولكنه لا تخفى عليه قيمة الكتاب ولا تفوته محتوياته، ويعتمد في هذه المعرفة على وجه الزبون الذي يشتري الكتاب.

والذين يطلبون منه كتاب (الأيام) أو مجلة (المقتطف) لهم وجوه وأشكال تخالف الذين يطلبون قصة ذي يزن، ومجموع الأوراد. حتى ليستطيع الأمين أن يعرف حاجة المشتري الواقف أمامه قبل أن ينطق بها، وحتى يستطيع الحكم على قيمة الكتاب من عدد من قرائه ودرجاتهم في الثقافة بصرف النظر عن وفرة الربح أو قلته من بيع الكتاب.

سل الأمين: هل تعرف أمين الريحاني؟

فيجيبك:

ـ هذا رجل عظيم وأديب كبير من أدباء العرب الأميركيين. يعجبني كتابه (ملوك العرب) ويعجبني أيضاً كتابه في كذا وكذا. . .

وتمتد شهرة الأمين إلى جبال الأطلس والريف الإسباني، وفيافي السنغال، يعرفه جنودها السود. فإذا حل أحدهم بالعاصمة قصد إليه ليبتاع منه نسخة من المصحف الشريف لا ليقرؤوها، ولكن ليحملها هو أيضاً تحت إبطه، ثم لا يثق الجندي المذكور بأنها نسخة القرآن حقيقة ما لم يتسلمها من يد الأمين نفسه، فإذا وجد أحد أخويه في الحانوت فربما انصرف ولم يشتر شيئاً.

وترى العديد من أولئك الزنوج يأتي إلى حانوت الأمين مصحوباً بخمسة أو ستة من بني جلدته اشتروا المصحف من قبله ليدلوه على الأمين شخصياً ويشهدوا بأنه هو نفسه الواقف أمامهم...

وحانوت الأمين «مصدر» من أحسن المصادر للوقوف على سير الثقافة في تونس، ومعرفة طبقات القراء، وأنصاف القراء فاسأله كم يبيع في العام من كتاب أسماء أهل بدر، وحرز الجوشن. وكم عدد قراء كتب رأس الغول والهضام وفتوح مكة، ومن هم الذين يشترون مجلة (الرسالة) أو مجلة (الصباح).

هذه الحسنات التي أسطرها للامين لا فضل له فيها لأنه لم يقصدها وغايته الأولى هي التجارة قبل كل شيء، ولكن في هذه التجارة تجده فاضلاً أيضاً، فكم هم عدد التجار الذين يستقدمون السلع ويصدرونها بأمانة ويستمرون على ذلك طيلة حياتهم.

إنه في استطاعة أي كتبي أن يتسلم الصندوق المقفل من الكتب الثمينة ويجد محتوياته سليمة من العطب، ثم يسرع ليرسل تلغرافاً إلى عميله الذي أصدر إليه الكتب يقول فيه إنها وصلت ممزقة تالفه، أو وصل نصفها وسرق النصف الآخر وهكذا يخترع لكل عميل كذبة في كل رسالة يوافيه بها ليخرج بأكبر مقدار ممكن من الربح.

ولكنك تنظر في دكان الأمين أو مخازنه فتجد عمليات الحل والحزم قائمة على قدم وساق، هذا وارد وهذا صادر، وتجد الدفاتر مفتوحة يقيد فيها كل شيء بنظام. وتجد حركة البنكنوت دائرة في النشاط قبضاً ودفعا بهذه الاستقامة

وبهذا التوفيق يعيش الأمين أحسن مما يعيش قائد أورئيس في القسم الأول، فهويسكن في الشتاء في القسم الأوروبـي من مدينتنا وفي الصيف ينتقل إلى ضاحية قرطاج.

وفوق هذا فهومتزوج بسيدة أوروبية فنانة مثقفة تكتب المقالات وتنظم الشعر، ولكن كل منهما لا يعرف بضاعة الآخر ولا كتبه ولا جرائده. . .

جريدة (الشباب) 26 فيفري 1937

البطل المجهول

ترى هذا الشخص الذي يختار لنفسه الطربوش الطويل الغامق، و«يتكتَّف» في برنس نظيف يخرج يده من أعلاه ليسلم بها أو يتناول شيئاً فلا تعرف إن كان صانعاً من الصناع، أو تاجراً من التجار، أو هو من طبقة الجهلاء، أم من حملة الشهادات.

الواقع أنك تراه نموذجاً لجماعة من الناس تكونوا من جميع الطبقات والعائلات، فقد يكون أحدهم من عائلة علماء، كما يكون من عائلة طبالين ولكن الخصلة الوحيدة التي تجعلهم فصيلة واحدة هو الكسل وكراهة العمل. فلا ابن العالم منهم خرج عالماً ولا ابن الطبال اقتدى بأبيه.

وترى هذا الشخص يزين كرسي المقهى بوجوده في كل وقت، وكما تلتقي به في القائلة تعثر عليه في السحر.

وهو إذ لا يعمل أي شيء يظن نفسه يعمل كل شيء، ويعرف كل شيء.

وعنده أن مجرد جلوسه في المقهى شغل لا يقدر عليه غيره. ومشغلته أنه يحصي حركات الجالسين، ويعرف كم من السواقر دخن كل منهم، وكم فنجاناً من القهوة شربوه، ومن الذي دفع الثمن؟ ولأي سبب دفع؟. ويعرف لأي سبب جلس فلان صامتاً ولم يتكلم، ولأي غاية قام فلان قبل أن ينتهي المجلس. فإذا أغلق المقهى قام وهو يعتقد أنه أمسى دائرة معارف تمشي على الأرض. إذا ابتلاك الله بمعرفته وجدته يطرق عليك باب دارك ويقتحم عليك محل عملك، ويفاجئك في كل طريق تمشي فيه. فإما أن تقبل هذه الصداقة

القهرية أو المنادمة المرذولة التي يحادثك فيها عن مساوىء الناس وأسرارهم، وإما أن تتركه يذيع مساوئك وأسرارك.

وحذار أن تظهر له شيئاً من الكراهة أو التأفف وإلا حاربك بأسلحته العديدة، لا تجهل أنه صحافي قدير يستطيع الخوض في مختلف الشؤون بطول مخالطته «للأوساط»، ولا تجهل أنه يشرف على جمعيات التمثيل التي هي أحد أركان «الثقافة»، ولا تنسى أنه ـ عند اللزوم ـ جاسوس يستطيع إرسالك إلى جهنم الـحمراء. فاجتهد أن تكون معه فطناً ألمعياً فإذا عزمت على دخول السينما فاقطع تذكرتين. وإذا تزوجت فاخطب له أخت العروس أو بنت عمها. وإذا اكتريت داراً فخصص له طابقاً منها ولا تتمسك عليه الإباء والامتناع. فإنه إذا قال بلسانه «لا» فإن عينه تقول «نعم».

مثل هذا النوع يكثر في الأمة عندما يعتورها المسخ، فلا تعرف إن كانت أمة زراعية يكثر فيها أصحاب الإيراد والأملاك، أو صناعية فتقول إن الرجل صاحب مسبك حديد أو معمل ورق.

إنه نوع يندس بين الأغنياء والفقراء، ويتذبذب بين العاملين والعاطلين، يعتمد في سكناه على دار من وقْف قديم يملك أبوه حصة فيها. ويعتمد في سواقره على والدة عجوز محطمة يقش لحمها كل يوم بالعصا لتخرج له الكنز الذي يتوهم أنها تخبئه من تراث الجدود. أما كسوته فهي مضمونة كل عام عندما يأتي إلى العاصمة فلان خليفة بلدة كذا والذي يكون زوجاً لابنة خال صهر أخيه.

تبحث في أوروبا كلها عن شخص هذه أوصافه فلا تجده، لأن البوليس لا يترك هذا النوع من المخلوقات.

جريدة (الشباب) 5 مارس 1937

الحبيب المانع

لولا خشبة المسرح، ولولا التمثيل لما عنيت الصحافة بذكر كثيرين من الأشخاص لا يزيدون ولا ينقصون على أي إنسان.

الأستاذ الحبيب المانع علم من أعلام الممثلين في تونس، يكاد يعرفه كل سكان العاصمة فمن حقه أن يذكر في الصحف، ومن حق الصحافة عليه أن نفحصه كممثل، أو كنموذج من الممثلين الآخرين.

الخصلة الأولى التي يحتاج إليها الممثل ـ أيها القارىء ـ هي الصفاقة وطلاقة الوجه وقوة الصدغ.

وهي الخصلة التي تحمله على الثبات، وتحفظ عليه صوته جهورياً رناناً، وتساعده على تأدية الحركات والإشارات. فإذا خلال الممثل من الصفاقة سقط ولم تنفعه ثقافة ولا درس.

وكما تكون الصفاقة حاصلة من قوة الأعصاب تحصل أيضاً من الجهل بالأمور.

فلو أتينا بأعرابي من البادية وأدخلناه للمحكمة وهو لا يعرفها، وأمرناه أن يختار مكاناً يجلس فيه فربما صعد وجلس بجانب القاضي على منصته، فيصيح الناس: يا لها من صفاقة ورقعة متينة.

ولو جئنا بطفل في الثالثة أو الرابعة من عمره وأدخلناه على حضيرة الأسود المنطلقة لجال بينها كما يجول في حديقة بين الأزهار، فيأخذنا العجب من شجاعة الطفل، أو من صفاقته كما هو الأصح.

وسواء كان هذا أو ذاك فالنتيجة هي اقتحام المواضع بلا حساب للناقدين واللائمين.

والحبيب المنع ولله الحمد رجلٌ متين البنية قبل كل شيء، متين الوجه آخر كل شيء.

يمتاز عن كل ممثلي العالم بالغنى، فهو يملك عدة مقاهي في البقاع العامرة من مدينتنا. ويملك تبعاً لذلك عدة أعتاب[1]، وله بالبداهة نقود في البنك، ونقود في داره ولم يحصل على هذه الثروة من طريق التمثيل والحق يقال. بل هو ثري لأنه جربي الأصل ولم ولن يوجد على وجه الأرض جربي معدم فقير، حتى ولو كان فناناً محتوماً عليه أن يعيش في الفقر والعدم.

فاحسب معي الصفاقة التي تتأتى من القوة البدنية ومن قوة الغنى لنفهم الحبيب المانع الذي يعد دعامة من دعامات جمعية التمثيل العربي سابقاً والاتحاد التمثيلي اليوم.

مثّل الحبيب في جميع الروايات من كوميدي، وتراجيدي، وفودفيل، وأوبيرا، وأوبيريت، وأخذ جميع الأدوار فمثل الملوك، والوزراء، والفرسان، والقضاة، والقسس، والمشائخ، والخدم، وكل رجال التاريخ، ورجال العصر. وهو في كل هذه الأدوار «حبيب مانع» بلا زيادة ولا نقصان. فليس من اللازم أن يفهم هو أو غيره من الممثلين روح الشخصية التي يمثلها. سواء كانت حركات الحجام وإشاراته تختلف عن مثلها في القاضي أو الأمير. ولا فرق بين مواقف الحزن والغضب أو نغمة الفرح أو الابتهال. فالدور من أوله لآخره كلام يسمعه الممثل من الملقن ويقوله ممدوداً أو ممطوطاً أو مفخماً. فتسمع قول الملك «اضربوا أعناق الخونة» بنفس النغمة التي تسمعها من الجلاد، وهو يقول «سمعاً وطاعة»، وما دام «حبيبنا» هو الذي يتكلم ويمثل فقد حصل المراد وتم المقصود.

وقد وهب الله الحبيب حنجرة صارخة نحاسية تصلح أن تكون لرئيس عمال يعملون في حقل أو جبل. ومن هذه الحنجرة يخرج الصياح على درجة

(1) يعني محلات سكنى.

واحدة من القوة لا تخفضه مواقف الاسترحام ولا تلينه ظروف الاستعطاف، ثم هو يكتفي من فن الإلقاء بالنطق بالعربية الفصحى وإعراب أواخر الكلمات بحركات ممدودة، فما دام يحسن أن يقول «يا خديجتو اعطني الابريقا» و «يا غلامو سر معي في الطريقي» فقد بلغ الذروة . . .

وتجد الممثلين في الجملة يتورطون أحياناً في أغلاطٍ توقعهم في مركز حرج أمام الجمهور كأن تفوتهم جملة من الملقن ولم يتسع الوقت لإعادتها أو ينسى المكلف بترتيب المنظر بعض الأدوات اللازمة للدور وترى كل ممثل يتصرف في إصلاح الخطأ في مثل تلك الورطة بحسب ذكائه ومقدرته.

حدث أن أحد الممثلين الأوروبيين ولا نذكر اسمه قام بدور عطيل البطل الأسود، وعندما ظهر على المسرح لاحظ النظارة أن الممثل صبغ وجهه بالسواد ونسي يديه بلونهما الأبيض فأخذه الصفير من كل جانب، فلم يضطرب أو يتزلزل، واستمر في دوره إلى أن نزل الستار. ثم عاد في المنظر الثاني ويداه كما هما بيضاوان من غير سواد فاشتد سخط الجمهور وعجبوا من غفلة الممثل وإهماله. ولكن عندما انتهى الدور خلع الممثل ذلك اللون الأبيض الذي يكسو يديه فإذا هو قفاز (اقوانتي) من القماش وقد ظهرت بعده يده مصبوغتين بالسواد فدوت الصالة بالتصفيق لحسن تصرف الممثل وقدرته على مداواة العلة أو مغالطة الجمهور.

ومثل هذا التصرف نشاهده أحياناً في الممثلين المصريين الذين لم يبلغوا هم أيضاً درجة الأوروبيين، فقد كان علي الكسَّار يمثل دور رجل مغشى عليه. وكان على الذي يمثل معه أن يرش وجهه بفنجان من الماء ليفيق من غشيته. ولكن عمال المسرح نسوا الفنجان فلم ير الممثل حلاً للمشكلة أفضل من أن يبصق في وجه الكسار بصفة غزيرة ليوقظه من غشيته، وكان الممثل موفّقاً في هذا الحل لأن الرواية كلها من النوع المضحك.

ومعروف عن يوسف وهبي أنه لا يحسن الإصغاء للملقن، لا سيما إذا كان بعيداً عن الكوة. فإذا التبست عليه جملة عوضها بألفاظ من عنده يخرجها مقطعة

غير مفهومة كان يقول: «فيالك من رجل... مالك عنه من نصير. بل.. نعم.. وأنا كذلك متألم...».

أما حبيبنا فإذا تورط تخلص من الورطة أمام الجمهور بلا تصنع ولا تكلف.

حدث أنه مثل دور فارس يقتل عدوه بالسيف. فظل يتكلم إلى أن حانت ساعة الضرب فلم يجد السيف في يده فعاد إلى الكواليس وقال للواقفين «اعطوني السيف يا خـ...» ثم عاد لخصمه وعلاه بذلك السيف فخر مضرجاً بدمه وتم له النصر.

ووقف مرة يقول في أحد الأدوار «إن الرجالا. جديرونا. بالزولي. في حومتي الوغى. كما أن النيساء جديرونا.

فاستدرك الملقن وقال «جديرات»، فقال الحبيب أي نعم جديرات...

يعني أن ممثلنا إذا أخطأ أصلح الخطأ وأبدى معه صيغة الاعتذار المناسبة كالمنصفين الذين يعترفون بالحق ويخضعون له.

وهذا كما قلنا يأتي من الصفاقة التي يحتاج إليها الممثل والخطيب وكل من يقف أمام الجماهير.

وقد ينطبق معظم ما نكتبه عن الحبيب عن كثيرين من الممثلين في تونس. فأحدهم يرى شخصه الكريم يصلح لكل دور. أما شخصية الدور فإنها تتبّع له خاضعة لطبيعته وصوته وحركاته.

وبعد هذا فالمانع قوة لا يستهان بها في إدارة جمعياتنا التمثيلية نظراً لغناه وقدمه في المهنة، ولصفاقته أيضاً. فهو صاحب الكلمة الأخيرة في اختيار الروايات، وتوزيع الأدوار وطبع الإعلانات وكلها مزايا توجب تقديره والمحافظة عليه.

جريدة (الشباب) 12 مارس 1937

البطــل المجهــول

بطلنا هذا نظيف البرنس والجبة، صغير الزيتة، عظيم العجيزة والحقيبة، أنيق الجورب والبلغة، خداه منتوفان يلمعان كالتفاح الأحمر، وعيناه واسعتان كأنهما عيني أسد غضنفر.

لا تسأله من أنت، ولكن اعتقد من تلقاء نفسك أنه عالم مجهول، وكاتب من الفحول، ثم احذر بعد ذلك أن تتقدم إليه مستفتياً في دينك، فليس الرجل من المصلين أو العابدين، أو مستفسراً في لغتك فإنك قد تكون خيراً منه في معرفة اللغة، أو مسترشداً في أدبك فليس أثقل على قلبه من ذكر الأدب والأدباء، ثم لا تقاطعه إذا علمت أنه ليس على شيء، بل استمر على تقبيل يده وإحناء الرأس لقدمه، وقل له بملء فيك: «يا مصباح الدجى ويا كعبة العلم، ويا فحل النظم والنثر، لأن الشيخ يريد أن يكون كالصنم، تُقدم إليه القربان . . والمرتّب، وتخر له ساجداً ولا تسأل الصنم إن كان منحوتاً من الحجر أو منجوراً من الخشب، أو مسبوكاً من البرنز.

انظر إليه وهو يلعب «الشكبة»[1] وكيف يحمل بين أنامله أوراق اللعب بأرشق مما يحمل كتاب الأشموني أو ديوان ابن الفارض.

وتأمله كيف يقارع خصمه في اللعب، ويصيح، ويغضب، ويغمغم، ويبصق «كالتكارلي»[2] الذي لا يجد الكِيْف.

(1) نوع من ألعاب الورق المعروفة في تونس.

(2) مدخن الحشيش.

ثم انظر إليه وهو يحمل المجلة العلمية كيف يلقيها من مكان إلى مكان، ويحولها من يد إلى يد، وهو يتثاءب ويلتفت حتى إذا يئس من وجود سمير ينادمه، أو عابر يمازحه فتح تلك المجلة كما يتفق، وأخذ يتلو سطورها محركاً شفتيه كما يفعل الأغبياء كلهم، حتى إذا بدت له أي حركة عن يمينه أو شماله أغلق المجلة وجلس ينظر. . .

رأيته مع جماعة من إخوانه يتناقشون في مشكلة أدبية لغوية دينية طرح أحدهم هذا السؤال.

ــ ما معنى قول شوقي الشاعر «يا شراعاً وراء دجلة يجري» ثم ما هي المناسبة التي تجعله بعد ذلك يقول «سِرْ على الماء كالمسيحِ رُويدا».

فقال آخر: وأنا كذلك في حيرة من الجمع بين الشراع والمسيح فاستدرك ثالث وقال:

ــ إن المسيح اسم طائر أبيض يعوم في ماء النيل، وهذا معنى قوله سر على الماء وإلا فإنه لا يسير على الماء غير الطائر.

فاعترض الرابع وقال:

ــ على فرض أنه يريد المسيح عليه السلام أليس الشراع هو الشرع؟ فكيف يجوز الجمع بين الشرع الشريف والمسيح؟

فقال بطلنا وهو مضطجع على وسادة مادًّا إحدى رجليه في المجلس:

ــ يلزمكم أيها الأغبياء أن تقرؤوا القصيدة كلها لتفهموا المراد. . .

فبهتوا وهرش كل واحد قفاه ليتذكر من القصيدة شيئاً غير ذينك المصراعين فلم يوفق، وقد أيقنوا أن شيخهم ورئيسهم أوْقفهم في معضلة. فسأله أحدهم وهو يتلعثم من الحياء:

ــ اشرح لنا مراد الشاعر.

فقال:

ــ إذا كان الشرع الشريف هو المراد جاز الجمع بينه وبين المسيح، لأن وجود الأنبياء بجانب الشرع مستحب، وقد قال الإمام البصيري في البردة «وكلهم من رسول الله ملتمس».

ثم أضاف إلى ذلك:

ــ لا تخوضوا في مثل هذه الأمور قبل أن تفهموها جيداً. . .

وبعد فإنك أيها القارىء مسلم تصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتخرج زكاة مالك، وتحج البيت ولا تبغي من إسلامك إلا مرضاة ربك. أما هو فمسلم لا يصلي بإجماع كل من يعرفونه ولم ولن يحج. ولا ترى اسمه قط في قوائم المتبرعين للفقراء والمساكين، وإذا شاء صام رمضان وإذا شاء أفطر، ولا يكون إسلامه هذا إلا بالأجر المعلوم والمبلغ المرقوم.

جريدة (السردوك) 7 افريل 1937

البطـــل المجهـــول

بنيت حياته على خمس:
كسوة جميلة.
ابيريتيف.
قمار.
سينما.
عشيقة إذا استطاع إليها سبيلا.

لا أعرف اسمه إلا أنه ابن عائلة «ماجدة» ومن هذا المجد تجد على بطلنا مسحة رهبة من الكبرياء الزائف.

أنف في السماء وأصابع نظيفة لم تتسخ بشحم ماكينة، أوحبر مطبعة أو لون مصبغة. ومناديل تقول أمه العجوز إنها من الحرير المحض «المحدد»[1] بمكوات الحديد هي «وكلاسطه»[2] وقمصانه، وسراويله.

أما صناعته فهو موعود بوظيفة «خليفة» منذ أخذ شهادته المدرسية وعده بها فلان العظيم الموظف في القسم الفلاني، والذي هو زوج خالته شقيقة والدته من أمها وأبيها. وأتذكر أن نساء عائلته عندما علمن بذلك الوعد أقاموا الغناء والطبل عدة أيام متوالية ولا يزال الفتى إلى اليوم مرشحاً لتلك الخلافة التي لا تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها. وفي أثناء هذه الفترة ترى الأم تتسابق لخطبة

(1) المكوي.
(2) جواربه.

بنات العائلات تختار هذه وترفض تلك، وخليفتنا المفدّى الذي يشعر بقرب حلوله في الوظيفة منطلق في اللهو والعبث، كمن يودع الحرية قبل الدخول في عالم القبور والسدود.

يحدثك وهو يتمطى ويتثاءب فيقول:

ـ خسرت بالأمس خمسمائة فرنكاً في القمار، وكانت الساعة السابعة مساء، وكدت أقوم من القهوة فدخل فلان فاستأنفت اللعب فربحت مائة وخمسين ودار اللعب سجالاً إلى التاسعة فخسرت خمسين أخرى، ثم شعرت بالصداع فقمت إلى السينما. ولكن الفيلم لم يعجبني فخرجت قبل العاشرة فالتقيت بالكلب بن الكلب، والخنزير بن الخنزير فلان وقد عاد من الجنوب عامِر الجيب، وأنت تعرف كم لنا عليه من الجمائل والإحسان فذهبنا إلى المرقص وهاتِ شمبانيا، ثم هات وسكي إلى أن بلغت مصاريفه ثمانمائة فرنك وقد سكر وفقد شعوره.

ثم يقول: انظر إلى هذا الخاتم لقد انتزعته من أصبعه ولم يشعر، سوف لا أردُّه إليه جزاء ثقله وركاكته.

ثم يتنحنج ويقول:
ـ اعطني سيقارو.

وقد تشك عائلته في وجود الشمس ولا يشكون في أن ابنهم المفدى سيرتفع فوق أريكة الخلافة عاجلاً أو آجلاً، فلا يبخلون عليه بما يطلب، ولأجله يبيعون المصاغ ويرهنون العقار عند المرابـي ليتمكّن خليفتهم من المحافظة على كرامته وكرامته تكون في الذهاب إلى كازينو (قربص) وهو يزعم أنه يذهب هناك ليكيد لأمثاله الوجهاء، ويحفظ قدر العائلة في المجتمعات العامة، أو تكون كرامته في دعوة امرأة أوروبية ويزعم أنه يدعو عضواً من البرلمان الفرنسي ينفعه بوساطته أو بطاقته.

وهكذا إلى أن يسعفه الله بموت والدته أو قريب له يورثه ويعين فيما بعد

على الأوصياء فيؤخر السعي إلى وظيفة الخليفة إلى أجل غير مسمًّى. فإذا بدد الثروة وأفقر العائلة تذكر زوج خالته الذي وعده بالوظيف.

وقد يعيش فتَانا عالة على المتزوجين، فهو لا يقصر في الترْويج عن شخصه عند ربات الخدور بأنه الجميل الصورة الممتشق القامة. الكفء اللوذعي، اللبق، القوي، الملاكم، الشجاع، الذي تتهافت عليه الثيبات والأبكار. يصاحب بنت فلان ويأخذها في سيارة إلى أوتيلات (حمام الأنف) أو (قرطاج)، أو يقتحم دار فلان في غيبته ويدخل فيحتضن زوجته في حراسة الخادم العجوز. وفعلاً تنتهي الدعاية بوقائع حقيقية، وينتقل جناب الخليفة من دار إلى أخرى ومن امرأة هذه إلى أخت ذاك.

فهل نسمي هذا الشخص واحداً من الأمة التونسية؟

كلا. فهو مرشح بهذه الأخلاق المنحلة والمعيشة المضطربة لأن يكون جلّاداً للتونسيين وغير التونسيين.

وقد يفخر بأنه من أصل أجنبي وليس فيه قطرة واحدة من الدم التونسي.

وكما تصاب تونس من هذا الفتى برزية فادحة، تخسر منه عضواً عاملاً كان من واجبه سد ما فيها من النقص لو التفت إلى الأعمال الحرة التي لا تحصى كثرة. ولكنه إذا فكر في الأعمال الحرة اختار ما يليق بقامته وهندامه فتراه مهتماً مقطَّب الجبين.

ــ ماذا؟

فيقول: عزمت على تأسيس شركة تتاجر في السيارات والكميونات.

أو شركة تنشيء الأفلام الشرقية والغربية وتشيد الصالات والمسارح.

أو شركة لتصدير الروائح والعطورات.

وأين المال؟

فيقول محتداً كأنه يخاطب غبيًّا جاهلاً:

ـ ستكون الشركة مساهمة، وستجعل قيمة كل سهم خمسمائة فرنكاً يا أخي سبحان الله العظيم.

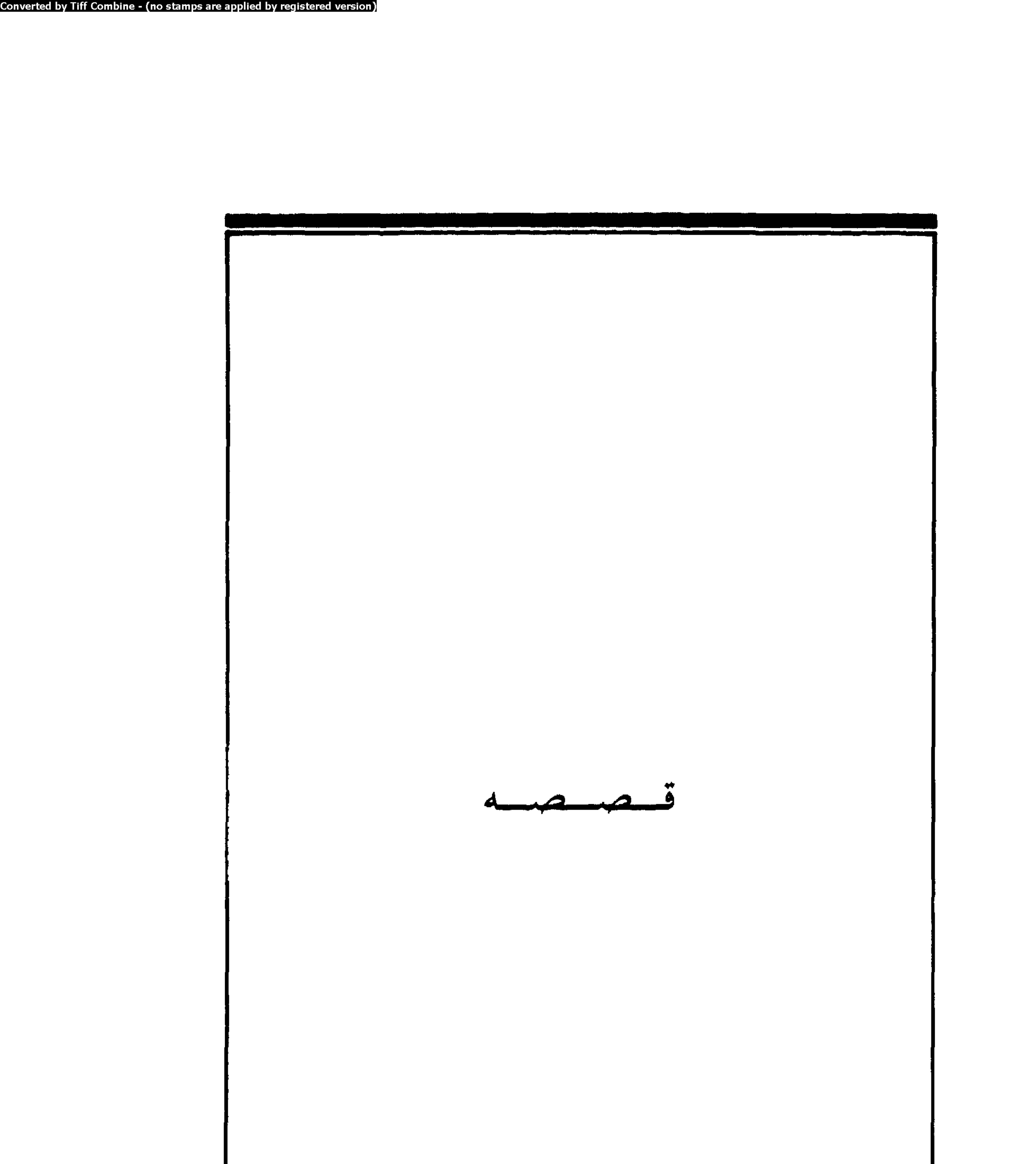
وتنهار هذه المشاريع كلها إذا لاحت له بارقة تبشره بقرب الوظيفة.

وتمر الأيام والسنون إلى أن يكتهل ويعلو مفرقه الشيب.

عندئذ ينقلب إلى فيلسوف اجتماعي، يؤسس جمعيات خيرية، وجمعيات ثقافية، وجمعيات سياسية أو وطنية.

وكل واحدة من هذه الجمعيات لا بد أن تسمى جمعية المستقبل الفلاني، أو جمعية قدماء كذا...

جريدة (السردوك) 14 افريل 1937



قـــصـــه



رسـالـة الغفـران

من عشرة قرون كتب أبو العلاء المعري رسالة بهذا الاسم انتقل فيها إلى عالمي الجنان والجحيم وطاف بمخيلته على سكانهما وشرح أسباب دخول هؤلاء للجنة وخلود أولئك في الجحيم، وقد تبين في هذه الرسالة ما يكنه أبو العلاء من ألم ومضاضة في الحياة، وما يضمره من سخر بتقاليد البشر ومصطلحاتهم، والعلماء من الفرنجة يضعون هذه الرسالة في قمطر الأدب العالمي، ولا يعفون «دانتي» شاعر الطليان من الإلمام بها والاطلاع عليها حتى وضع على نسقها رسالته «الجحيم».

ويطالع القارىء، هنا «رسالة غفران» مصغرة بقلم محمود بيرم، نظر فيها إلى أبي العلاء ورسالته بمنظاره الفكاهي كما يفعل بعض الكتاب الأوروبيين الحديثيين بالروايات الكبرى، مثل هملت أو روميو وجوليت حيث يعيدونها في ملابس مضحكة، ونحن نحلي بها هذا العدد الممتاز من (الزمان).

«اللهم عفوك وغفرانك!».

سيدتي،

إن بيني وبينك سراً يعمر خراب قلبي ويضيء لي في ظلام حياتي، وهو سر لا يعرفه إنسان، ولا أقرب الجيران، أما أنا فلا أفشيه، ولا يشاركني أحد فيه، وأما أنت فاحفظيه من «الهق والمق» والهق بكسر الهاء حرف يخرج من المرأة يعرف به سرها وما تكتمه في صدرها، والمق حركة تحصل بها النتيجة نفسها، والسر إذا حفظ فهو للجسم مادة حيوية، بارد في الصيف، منعش، سخن في الشتاء، مدهش، من حافظ عليه سعد ونجح وهاظ، والهيظان ينسب للفحول من ذكران الناس والحيوان وقال الهازج:

غـداً الـنـوار مـنـشـورا وهـاظ الفحـل من شبـع

والناس هنا يخلطون بين الضاء والضاد، فبعض الكتاب يكتب بقلمه: عظني الفقر، بدلاً من عضني وعلى هذا يقرؤون الحديث الشريف هكذا «أنا أفصح من نطق بالظاد».

وحفظة الأسرار هم الفائزون المقربون في الآخرة، وسيدتي حفظها الله من خيار الصابرات لأنها بعيدة عن الثرثرة، والقرقرة، والعرعرة، والأولى كثرة الكلام، والثانية كثرة الضحك، والثالثة البكاء الكاذب، وبهذا يمتعها الله في الدنيا بحياة طيبة وفي الآخرة تحشر مع نبيلات الحشر، ويؤتى لكن بطائرات من نور على مثال طائرات أهل الدنيا الفانية، وقد خصصت أنت منها بطائرة خضراء اللون يراها أهل المحشر فيقولون هذه طائرة تونسية.

وتبلغ سرعة الطيارة التي تركبها المرأة الصالحة سبعين مليون ميل في الثانية الواحدة والطيارة التي تسير بهذه السرعة عشرة ملايين من السنين، كل هذا يعادل عند الله المسافة التي تقطعها السلحفاة في ثانيـة واحدة أي بضعـة سنتيمترات وهذا بحساب «أنشتاين» العالم الذي يعاصرنا اليوم ويعتبر في القمة العليا من مدرج الأذهان البشرية ويستقبله ملك الانجليز قائماً.

ولو فطن المسلمون لاستطاعوا أن يكونوا كلهم «أنشتاين» لأن قرآنهم يقول (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون)، ثم يستقبلكن بين السماء والأرض (لا الأرظ) سرب من الملائكة يرشدنكن إلى مكان النزول المعد لكنّ وهو ساحة نصب فيها مدرج أعد لراحتكن معشر الصالحات الكاتمات إلى أن يسمع حكم العزيز الجبار في هذه الخليقة، وأمام هذا المدرج ساحة يمر منها كل من في المحشر وقد أقيم فيها تمثال ليس كمثله شيء في حسن الصنعة والفن، وهو شاهق في سماء المحشر يراه كل من هناك وقد ارتكز على قاعدة مربعة كتب على أحد جوانبها العبارة:

«صدرت إرادة الحق جل شأنه بإقامة هذا التمثال رمزاً وفخراً لحفظة الأسرار في الدنيا».

وفي الجانب الآخر أبيات يصف بها «السر» نفسه:

أنا الذي عمرت بي كل شاغرة ... وانهار بي من صروح المجْد ما انهارًا
أصون من صانني حتى أبلغه ... من السعادة أوطاراً وأوطارا
قد سرت بالناس في زيغٍ وفي رشَدٍ ... فأدخلوا جنةً أو ادخلوا نارا
في الغرب كفّي على (الجازبند) ضاربةً ... وفي المشارق أخرى تنصب الزارًا
وكنت حيناً بكفّ الشيخ مسبحة ... وفوقَ خاصرة القِسّيس زنّارا
أعيش بين غصون الورد آونة ... وأسكن الركن، والدهليز، والغارا
وسرت في جيش نابليون تحملني ... (جوزفين) ساحبة الأذيال أمتارا
حتى استقر عليها تاجها وغدا ... فتى الفرنسيس فوق الأرض جبارا
وصانني الكلب (راسبوتين) آونة ... فعاث في القصر مرضياً ومختارا
حتى أتاه أمير في مسدسه ... سر إذا ذاع طاف الأرض سيارا
طوبى لمن جعلوني في ضمائرهم ... والويل مخترم من كان ثرثارًا

أبناء الإنسانية:

وتلتفتُ السيدة فترى موكباً تحفه الملائكة بالأعلام، وترفرف عليه الولدان ذوي الأجنحة البيضاء، يحملون أكاليل الأزهار. فتشتاق سيدتي إلى معرفة أصحاب هذا الموكب فيهبط أحد الولدان الطائرين ويقترب من أذنها ويقول لقد كلفت بالإجابة عما يدور بخاطر السيدة: هؤلاء الذين ترينهم وفيهم الأحمر، والأبيض، والأسود، والأصفر، هم نخبة من كل شعب وأمة مختارون من كل ملة ونحلة، لم يتعصبوا لجنس ولم يحقدوا على آخر قد نفع الله بهم عباده أجمعين وبر بأعمالهم الإنسانية. ثم يأخذ في سرد أسمائهم فيقول:

باستير، غاندي، سيد درويش، رابعة العدوية، عباس محمود العقاد، الحاج سيد قشطة، روتشيلد، السيد الرفاعي، شارل شابلن، سلامة حجازي، عثمان دجنة، عائشة التيمورية.

ويستمر الملاك في سرد الأسماء خمسين ألف سنة فتكتفي السيدة بهذا المقدار لأنها ستجتمع بهم في الجنة.

الموازين وتعريفها:

وتنصب الموازين لوزن أعمال الناس، وتقف سيدتي حرسها الله لوزن أعمالها وإنها جميعاً لصالحة، ولكن تقاليد القيامة تقتضي المساواة بين الناس. وعندما ترجح كفة حسناتك يطلب إليك الملاك «القباني» الانصراف فتشتاقين للفرجة على عمليات الوزن، ويؤتى لك بكرسي من النوار المنجمد فتجلسين، وهناك تعريفة للوزن تقدر بموجبها الحسنات والسيئات.

السيئات:	الوزن:
السكر	وزن الريشة
الزنا	وزن الذبابة
السرقة	وزن الحمار
الغيبة	وزن البقرة
الخيانة	وزن الفيل

الحسنات:	الوزن:
الصدقة	وزن الحمامة
المجاملة	وزن الديك
الابتسام للفقير	وزن الرصاص

وهي ذات صفحات منوعة يمكنك الاطلاع عليها، وسترين في هذا اليوم القيمة الحقيقية لكل شيء، وأخف أنواع البر والصدقات هي الأوقاف التي يوقفها أصحابها على قبور الأولياء، كذلك الشموع والزيوت التي يهدونها للأضرحة توضع كلها في كفة الحسنات، فلا تحركها إلا بمقدار ما يحركها النسيم وتذهب الآمال التي كان يعلقها أصحاب الأوقاف والحبوس على دخول الجنة.

ويتقدم للميزان «كروب» المجرم الألماني صاحب معامل الأسلحة، ويضعون كل ما سبكته معامله من مدافع ضخمة (لا ظخمة) وقنابل ودبابات وآلات مدمرة في كفة السيئات فيعارض ويطلب وضعها في كفة الحسنات لأنها أعدت للدفاع وضمان السلام، فلا يلتفت إلى قوله، ويطالبه الملاك بملء كفة

الحسنات فيجمع كل ما تبرع به للمستشفيات والملاجىء فلا يقدمه ولا يؤخره فيبكي، ويستشعر الخيبة ثم يقول للملاك: قد بقيت لي حسنة واحدة، وهي أنني كنت أملك عصفوراً جميل الشكل والصوت، وقد أشفقت يوماً على محبسه فأطلقته من القفص ليعيش حراً. فهل هذه حسنة؟ فيقول الملاك: بلى وإنها لكبيرة، فتجسم الحسنة وتوضع في كفتها وإذا بكفة المدافع تطير وترتفع وتمحي سيئات الرجل ولا يبقى عليه إلا عقبة المرور على الصراط كغيره.

دليل جهنم:

ويسمع النداء أن استعدوا للعبور على الصراط وهو الطريق العادي إلى جهنم أو الجنة، والأولى دخولها محتم على الصالحين والطالحين إلا أنه يكون للأولين على سبيل الزيارة، غير أن الخاصة من أهل المحشر يذهبون إليها عن طريق الجو بالطائرات السالفة الذكر، وتبدو جهنم للمسافرين كما تبدو شمس الدنيا ودرجة حرارتها وهي في هذه الحال تبلغ 999,000,000,000,000,000 وكلما اقترب منها المسافرون ازدادت درجة الحرارة على النسبة الهندسية، والسفر إليها يستغرق سبعين مليون سنة ضوئية، وإذن تكون درجة حرارتها عند دخولها على درجة من الأصفار لا تماثلها إلا الأصفار التي يضعها فكري أباظة المحامي في كتابته، ويعطي لكن وللصالحين ملابس من لبسها لا تحرقه النار ولا يشعر بها. ولجهنم دليل يوضح قاراتها ومدنها وأقيانوساتها وهو يطلب من «مالك مدير عموم الجحيم».

وعندما تتشرف جهنم بزيارة سيدتي الفاضلة فلن يفوتها زيارة كبار المحكوم عليهم بالنار وإليك أسماء بعضهم:

مدير البنك العقاري المصري وعنوانه: شارع ميدان أبي لهب بالسعير الأقصى.

دزرائيلي داهية الانجليز واليهود وعنوانه: مكرر نهج نيرون بالهاوية العليا.

راسبوتين وعنوانه: شارع الفحامين بالحطمة العليا.

أبو الهدى الصيادي وعنوانه: شارع يزيد بالسعير الأدنى.

والصراط منصوب في جهنم يمر عليه العامة وهم في الآخرة غير عامة الدنيا، لأن معظمهم من حملة الألقاب والوجهاء، فمنهم من يستمر في طريقه إلى الجنة بعد كذا من السنين أو القرون، ومنهم من يهوي إلى القسم الخاص به في النار. وأول ما يرى من النار سلسلة جبال من الجمر الملتهب تحتها كهوف ينبعث منها لهيب أزرق، وتسكن هذه الجبال زبانية سود الأجسام لهم أعناق طويلة عليها رؤوس صغيرة بشعة، وبعضهم تخرج قرونه من أذنيه أفقيتين، والبعض تقوم في رأسه وهم يقفزون على قمم هذه الجبال ويتراكضون مرحين فرحين كأنهم في غابة خضلة الأشجار جارية الأنهار. وأمام هذه الجبال أقيانوس من الصلب المذاب يسبحون فيه ضاحكين وتسمع ضحكاتهم كأنها هـزيم الرعد، وهذا المكان خاص بجماعة الشعراء والكتاب والمؤلفين، ولبعضهم على شاطىء الأقيانوس «فيلات» وقصور من المعادن الملتهبة، ويلفت نظرك قصر كتب عليه:

دانتي بن بيانكا

وتحتها:

«اترك كل رجاء».

وهي العبارة اللاتينية التي كتبها على جهنمه، فتدخل السيدة لزيارته وإذا به يكتب على ألواح من الرصاص، وعندما يلمح في وجهها الدم العربـي يجثو على ركبتيه ويضرع إليها أن توصل رسالتها إلى ساكن الجنان أبـي العلاء المعري وهذا نص رسالته:

«المجرم الحقير فلان بن فلانة يتقدم بطلب المغفرة من الشيخ لأنه أحقر من أن يتقدم بطلبها من الله...

سرقت رسالتك في الدنيا وشدت بها مجدي العظيم ولكني أعترف لك أنني لم أكن سعيداً بهذا المجد المسروق لأن ضمائر اللصوص لا تتركهم في راحة. ومالي وللأدب؟ أنا من أمة أسكنها الله جبال النار في الدنيا ولم تفلح إلا في الغناء والأكل، وقد تبينت لي سخافتي الفنية في عملي الدنوي عندما شاهدت عيانا ما هي جهنم الآخرة، وعرفت الأشخاص الذين يجب وضعهم فيها.

وهذا موقفي اليوم لا يغني فيه الكذب والخداع، أعترف لك صراحة أن رجال الفن الحقيقيين أقل من أن يعدوا على الأصابع، ويجتمع حولهم الدهماء والغوغاء الذين يقلدونهم ويغمسون الأقلام في المحابر مثلهم وهم أقدر على الوصول إلى المادة والربح من الفنان الأصيل، فيحلون محله ويفوزون بالشهرة. وكم من رجل اشتهر بين الناس أنه موسيقار وحقه أن يكون بواب منزل أو حجام فقط، وآخر عرف أنه شاعر يجب أن يكون سائق (تراموای) وهذا أيها الشيخ الجليل راجع إلى جهل الجماهير وعدم تمييزها الطيب من الخبيث.

وهذه رسالتك لم يعرفها أبناء جلدتك إلا بعد أن استوليت أنا على عرش الشهرة وأخيراً طبعوها وما كادوا يفعلون.

إنك عربي كريم تقبل العذر وتسامح المعترف بالجرم فافعل ما أنت موفق إليه ناشدتك الله...».

ويهم أن يسلم الرسالة للسيدة ولكن الزبانية تركله بحوافرها فيخرس مقدار سبعين قرناً من قرون الدنيا، وتمر السيدة على بقية لصوص الآداب والفنون فإذا بها تعرفهم بالوجه لأن معظمهم عاش في زمانها، ومنهم الأستاذ إبراهيم المازني يسير حاملاً على ظهره صندوقه وفي يده بوق ينفخ فيه وعلى الصندوق مكتوب «صندوق الدنيا» ولكن ليس في جهنم أطفال يهمهم الاطلاع على صندوق دنياه وترى السيدة أدباء آخرين يحلو لها البصق في وجوههم ولكنها تتعفف.

ويسكن بعد هؤلاء لصوص المال وقطاع الطرق والمهربون ويرأسهم «الكبوني» ثم وكيله «تأبط شرا» وقد جعلوا «نافعاً» المهرب المصري سكرتيراً لهم فتقف السيدة في موقف لا يرونها فيه فإذا بهم مجتمعون يتفاوضون في الجرائم وتدبيرها كما كانوا في دنياهم السعيدة.

يقول «تأبط شرا»:

ــ أرى وجه الفائدة وهو قطع الطريق على هؤلاء الزوار وسلبهم ثيابهم التي لا تحترق وبعد ذلك نرى ما يجب عمله.

الكبوتي:

ـ هذه فكرة سابقة لأوانها، وإنما يجب قبل كل شيء أن نعقد صلة الصداقة مع الزبانية والحراس ثم نشرع في الهروب بمساعدتهم.

نافع لالكبوني:

ـ وأنا معك في هذه الفكرة.

تأبط شرا:

ـ أظنكم لا تحصلون على صداقة الزبانية قبل خمسة آلاف سنة.

نافع:

ـ وهذه مدة ليست بالطويلة بالنسبة للخلد والأبد.

تأبط شرا:

ـ إذن تكون أبواب جهنم قد أغلقت وانقطع الزوار وعلم كل أناس مشربهم ألا تعلمون ذلك.

الكبوني:

ـ ولكننا لا نوافقك على فكرة السلب ولا بد من استعمال العقل والحيلة.

تأبط شرا:

ـ إن العقل والحيلة من طرق اللصوص والجبناء الذين جاؤوا في آخر الزمان، أما أنا فكانت طريقتي مستمدة من الشجاعة والإقدام وانتهاز الفرص: انصب على غريمي فأخلع قلبه وأتركه هلعاً لا يستطيع الحركة.

نافع:

ـ أتجرأ يا «تأبط شراً» أن تقول الجبناء.

تأبط شراً:

ـ بلى والله إنك لجبان أنت وصاحبك هذا، ولو علمت أن اللصوص سيكون فيهم أمثالكما لأقلعت عن السرقة، وتبت عن السلب والنهب حتى لا يجمعني الله بكما في مثل هذا المكان.

الكبوني:

ـ تأدب أيها الأعرابي واعلم أنك لا تساوي أتباعي في الدنيا.

تأبط شراً:

ـ لو جمعني الله بك في زمن واحد في دار الدنيا لجعلتك أضحوكة اللصوص أيها الأمريكاني الأبله، ولسلبتك حذاءك وقبعتك قبل نقودك ومصوغاتك.

ثم يلتفت إلى نافع ويقول:

ـ وأنت وقد لذت بهذا الحقير الأميركي واتبعت مذهبه وطريقته فستمكث معه هنا أبد الآبدين، وسترى كيف أهرب من هذه النار وأدخل الجنة...

فتضحك سيدتي لهذا الحوار وتتعجب من اللصوص الذين لا يزالون يباشرون صناعتهم حتى في الجحيم.

وتلتفت فترى خلقاً من الناس يقف أحدهم خلف الآخر وفي يد كل منهم حربة يطعن بها الذي أمامه، وهؤلاء هم جبابرة الدنيا أمثال: نيرون، ميكافيلي، تيمورلك، جنكيزخان، باربووس ومن لا تحضرنا أسماؤهم.

وترين بعدهم قبر المجرم المجهول حوله رهط من الزبانية يصبون عليه الحميم المذاب بلا انقطاع ولا تعب، وهذا القبر يحوي أرواح المجرمين الذين يعاب ذكر أسمائهم وجرائمهم وعددهم في كل أمة يزيد على 70 في المائة.

قصيدة إبليس:

ويسمع في كافة أنحاء جهنم دوي مرعب فيسكن كل كائن من الرعب لأن إبليس اللعين سيلقي قصيدته المخيفة التي يترنح لها كل من في الجحيم، والتي يظهر فيها شماتته بأهل النار وفرحه بنجاحه في إفساد بني الإنسان، يقول اللعين:

يا ابنة النار قلّبي ... طابق الجمر واحطبي

واذكري الهالكين من ... نسل حواء واندبي

كنت في الأرض فتنة   أوصلتني لمطلبي
قد عصى الناس ربهم   واستقادوا لمذهبي
لم أجد ناصراً سوا   ك على العفّ والأبي
بعدما كان صامداً   في الفريق المقرب
يبتغي عند ربه   خير سؤل ومأرب
فانثنى من إشارة   بالبنان المخضب
وسعى يطلب الجميل   ....
سالكاً كل غمرة   كاسباً شر مكسب
أنت لولاك ما استعا   ذ ولاذ العباد بي

* * *

بنيت لي مراقص   طبْلها بات داويا
تركت كل مسجد   عابس الوجه خاويا
والأناجيل والمصا   حف باتت كما هيا

* * *

يا ابنة النار كم فتن   ت شيوخاً بطارقا
كل حبر بخلوة   بات للّهِ صادقا
عبدالحسن ناسيا   أن للحسن خالقا

* * *

يا بني النار كلكم   من ذكي ومن غبي
جاءت الرسل كي   أصول عليكم بمخلبي
ليته جل شأنه   قد هداكم بلا نبي

وترغب سيدتي غفر الله لها أن ترى ذلك المخلوق اللعين، فيؤتى به إليها مكبلاً بالأغلال وعندما يبصرها يقع صارخاً، ويقول:

«أبعدوني عن عدوتي في الدنيا».

هذه الحصان الرزان التي احتقرتني وشاحت عني بوجهها ولم تسمح لي بكلمة.

هذه من حفظة الأسرار، وعامرات الديار، عشقت بعلها واحتضنت شبلها.

هذه ريحانة الله التي لا يمسها إلا المطهرون، يخنقني شذاها ويحرقني مرآها ها، ها.

ويصيح اللعين بالحروف الأخيرة مقدار خمسين ألف سنة.

الحور الذكور:

والسفر من جهنم إلى الجنة يكون أيضاً بطريق الجو، وكلما بعدتم عن الأولى تضاءلت حتى تخفى عن الأبصار، وظهرت الثانية كوكباً منيراً ليس كمثله شيء في حسن النقش والبهجة. ويزداد جماله وتتجلى زينته كلما اقتربتم منه، وتصل إلى أسماعكم موسيقى عدن والفردوس فتنسون كل شقاء وحزن.

وتهبطين إلى قصرك مباشرة وهو أيضاً ليس كمثله شيء في الهندسة، سقفه قبة واحدة مخروطة من زمردة خضراء، تحتها حزام من الياقوت الأحمر، تحمل القبة أعمدة من الكهربان الشفاف، وللقصر باب من الذهب المدخر يستقبلك عليه ما ملكت يمينك من الخدم، ولك سبعون ألف «حور» من الذكور الفحول قد نزههم الله عن اللكلكة، والرطرطة، والخرقنة، والرهرظة، والجبن والغباوة وسائر الأوصاف القبيحة التي اشتهر بها رجال الدنيا.

عامود الصواري:

وأول عملية يقوم بها أهل الجنة هي الاستحمام في نهر الكوثر، فتبصرين فرعاً منه قد امتد إلى حديقة في قصرك بين جبلين أحدهما من المرجان والثاني من اللازورد. وعندما تخلعين ملابسك للاستحمام تشتهين أن يكون من في خدمتك من الإناث فيصبحن كذلك في طرفة عين بقدرة الله الكبير.

وبينما أنت تسبحين إذ تعثر قدمك بشيء صلب فتأخذينه وإذا هو عامود

الصواري الذي كان يعده أهل الدنيا مفخرة النحت والبناء ورمز القوة والخلود. وقد ألقي في الكوثر ليعرف من يعثر عليه مقدار جسمه في الجنة، وتقبضين على العامود بكلتي يديك فتختفي أسطوانته الهائلة في قبضتيك، وتبقى قاعدته وتاجه ظاهرين بشكل مضحك، وتختطفه منك رفيقاتك ليتفرجن عليه وتتعجبن جميعاً من حقارة الدنيا وعظمتها الزائفة، وكيف أن أطول وأضخم شيء فيها لا يعادل عضواً من أعضاء أهل الجنة.

مرآة الحسن:

وبجانب النهر جناح مشيد من درة بيضاء، والبياض هو دائماً لون حجرة «التواليت» فيها مرآة إذا نظرت فيها رأيت صورتك على ما تشتهين، وهنا يحلو لك أن ترى أنفك رومانياً، وعينيك حوراوين ناعستين، وفمك كالوردة المضمومة، تتدلى من شعرك أربعة جدائل مجعدة حول عنقك الشاهق الأبيض، وتختارين من الملابس ثوباً من السندس البنفسجي، مفتوحاً من الجانب الأيمن من فوق الفخذ تسحبين ذيله على حصباء من الماس والياقوت وتشبكينه من فوق المنكبين بسلسلة رقيقة من بلاتين الجنة الذي يخطف الأبصار، ولا يحجب هذا الثوب شيئاً من الصدر والظهر، يبدأ من أعلى السرة ويلتصق بأعكان الخصر، ولا يحجب شيئاً من حركاته واختلاجاته، وتتبخترين هكذا إلى حجرة النوم، والنوم لا يعرف في الجنة، وإنما هو اضطجاع واستلقاء. وحجرة النوم في القصر تقوم فيها غابة من السندس الأخضر تختبىء فيها طيور خلقت من الجواهر الكريمة، تخرج من أفواهها أنغام بعضها يخدر الجسم بلذة، والبعض ينعش الروح ويقومها. ويخطر لك عندئذٍ خاطر تصرفين لأجله كل من بحضرتك من الوصيفات وهو أنك تشتهين رؤية فارس بهي الطلعة يختطفك على جواده ويطوف بك في الغابة. ثم يذهب بك إلى سريرك، ولا تلبثين أن تسمعي وقع حوافر الفرس فيخفق قلبك ويظهر الفرس والفارس فوقه لم تر العين أجمل ولا أهيب منه، ويحملك بين ذراعيه بحركة رشيقة ترتاحين إليها وتأخذك سنة خفيفة تشبه سنة النوم، وترتاحين إلى محادثة الفارس وممازحته وتخبرينه بقصة العامود.

مولا عبود:

بعد عشرة ملايين من سني الدنيا تسمعين دقاً على الباب فيختفي الفارس وتعلن الوصيفات قدوم زجال بغداد وشاعرها في القرن الرابع عشر الهجري مولا عبود تبصرينه رجلاً ضخم الخلقة لا يزال بعباءته وعقاله كما كان في بغداد. ولم يعط في الجنة قصراً ولا كوخاً إنما يعيش فيها متشرداً يستضيفه أهلها الواحد بعد الآخر. وقد كان في دنياه فاسقاً يشبه سابقه بشار بن برد، وتغزل مثله في النساء وانهمك في الملذات وهجا وزراء بغداد وأعيانها كان يقول شعره بلغته العامية فيحفظه كل أهل بغداد، يدخل على السيدة مهرولاً وفي يده عكاز ويقول بلغته:

ـ يا خاله، ما تضيفين الفجير؟

فتأذن له السيدة بالإقامة على شرط أن يسمعها أشعاره ويقص عليها أخباره فيقول:

ـ أشهد بالله مـا يجي في راسي خبر ولا شعـر ولا زجل، ولا حـول ولا حديث، من اللي ريته في هاذاك اليوم الأسود الي يجولون عليه يوم المعشر.

فتسأله السيدة:

ـ هل عبرت الصراط؟

ـ الصراط سمعنا بيه في بغداد يجولون أرج من الشعرة وأحدّ من السيف ولما وجفوني جدامه وجالوا لي اعبره جلت يا باه، والله ما أجدر أعبر ولو كان لي نعل من حديد، جالوا لي اعبر من السرداب جلت أي والله السرداب خير لكن يا خاله طويل طويل، وظلام ظلام،،، وهلا اسمعي أزجالي.

الله عاجبني في النار لأني جلت:

«جمت أسجر التنور والوردة طاحت   عجل وجوم ف ساع حس أمك صاحت»

وغيره:

ادعـي بـرب الـبـشـر
أن يـنـبـت بـخـدك شـعـر
ويـزيـل عـني هـالـقـهـر

ومن بعد رضي عني لما قلت:

أرد أعبدك وأتخاك ـ يا سايج الغيم   حسباني لعب ولا دـتاري العشج ضنيم»

* * *

فتقول السيدة دعني من الأشعار التي جلبت لك الثواب والعقاب، أسمعني غزلك، فيقول:

أحسب نجوم الليل نجمة على نجمة   جلب السفيه ينام جلبي ويش ينيمه

* * *

كل البلام تفوت عيني على بلمك   ومن الهوى والموج ربك يسلمك

* * *

شين هو الذنب والصوج شايل يا جاري   أبكي على فركاك ليلي نهاري

* * *

يا ما جعدنا وإياك يا ما حكينا   تسمح حكي النمام وتفوت حكينا

* * *

محبس شذر يا شوج حطني بصبعك   لو جطعوني بسيف للموت لاتبعك

فتعجب السيدة بلهجته وتحمد الله على أنها سمعتها في الآخرة بعد أن حرمتها في الدنيا لقلة التعارف بين أمم ذاك العهد، وتتذكر أن البلاد الشرقية كان لها شعراء من هذا النوع فيحشرهم الله أمامها وينشدها كل بلهجته:

يقول شاعر الجزائر:

يـا قلب نكـويـك بـالنـار إذا بـريت نـزيـدك
يـا قلب خلفت لي العـار تبعت من لا يـريـدك

ويقول الشاعر التونسي:

«راجـل بـلا مـال محقـور بين الـرجـال مـا يسـواشي
يهبط كيف الـدلو المقعـور يـهـبط ويـرجـع بـلاشي

* * *

وشاعر طرابلس البدوي يقول من غزله:

«عـنيـه دمـعـتـم تـنـهـل سبب داهن بـدور شعـل»

ومن حكمه:

عـالشيـاب شيـاب دروز شهـادتهم ما عـاد تجـوز
الـشيـاب شيـاب مهـارة متـبـعـين تـجـول بـرارة
هم بـارة والكـاتب بـارة كـل ريـال يـجهـلوا منـه

* * *

وشاعر البادية من اليمن يقول:

أَبْدَعْ بِرَحْمَنْ ذِيْ بَرْجِه اللِّي مَا يِدْغَفْ
يِجَنِّبْ أَشْتَـاتَهـا لِلْجُـومْ زَحَّـافَـةْ
حِيْثَ الْمَـدافِـعْ تِجَـازَعْ والعَسـاكِـرْ صَفْ
مِن رَّاسْ شَمْسُـونْ حَيْث الْجُـومْ مُخْتَـافَـةْ

وترين أنك تفهمين جميع هذه اللهجات بلا صعوبة كما لو كنت من أهلها، ويخطر لك أن تسمعي شعراء مصر العاميين فلا تجدينهم في الجنة ولا في جهنم وقد خسف بهم في المحشر لتفاهة كلامهم وسخف مقاصدهم.

الرقص:

ويسمع من ميكروفون الجنة الإعلان عن الحفلة الراقصة التي يحضرها من لم يرقص في الدار الفانية، وهي التي تعرف المجتمعين ببعض، وستكونين أنت النجمة الساطعة في هذه الحفلة ويطلبك للرقص أولياء الله الصالحين كالإمام الغزالي والجنيد وبن جنبل، وتجري في هذه الحفلة مسابقة عامة لانتخاب أجمل فتاة وأجمل فتى فتفوزين أنت في النساء ويفوز في الرجال «بهلول» الذي كان معروفاً عند أهل الدنيا بقراعه ومخاطه ودمامته، ويسمع النداء من قبل المولى عزوجل: «ياأخلاء الرحمن وأصفياء الواحد الديان ليس في الجنة من عيب يخجل ولا من عار يحرج، أبيح لكم كل ما تشتهون فكلوا واشربوا وانبسطوا واضطجعوا إلى آخره» وأستغفر الله.

جريدة (الزمان) 2 جانفي 1933

العقاقير

في حي الجمرك بالإسكندرية قهوة يجتمع فيها صغار العمال من صيادي الأسماك البحارة والبحرية الأشراس، وكان القهوجي في كل ليلة يحمل الشيشة «الدويبو» ويخترق بها صفوف الجالسين حتى يضعها أمام رجل بدين يجلس وحده بعيداً أمام باب مقفل، والشيشة الدويبو أي الشيشة الضخمة هي الوحيدة التي توجد عند القهوجي يقدمها للزبائن الممتازين.

وهذا الرجل البدين يجلس في القهوة منذ شهرين يدخن الشيشة وهو مطرق لا يحول عنها وجهه، وكأنه يريد أن يعرف الناس وأن لا يعرفوه وفي الساعة العاشرة ينصرف إلى بيته، ولكن الرجل الذي يجتنب رعاع الإسكندرية بهذه الطريقة يفتح على نفسه باب القال والقيل، فكانوا كلما حمل القهوجي الشيشة إليه تهامسوا قائلين: «لم لا يجلس هذا الرجل أمام باب القهوة كبقية عبدالله؟ وإذا كان لا يعجبه الجلوس مع أمثالنا فلم لا يجلس في قهوة تليق بمقامه العالي؟ الأفضل أن نقاطع هذه القهوة تأديباً لصاحبها الذي يجعل الناس درجات، ويفضل بعضهم على بعض.

أما الرجل فهو شاب في الثلاثين من أصل تركي، وقد نشأ نشأة أولاد البلد، ويعرف القليل من القراءة والكتابة، ويرتدي الملابس العربية فوقها الطربوش، وله حظيرة خشب على ساحل البحر يبيع فيها الأخشاب الواردة من الأناضول يرسلها له أقاربه هناك، ويعرفه زبائنه القليلون رجلاً مستقيماً على أحسن ما ينبغي للتاجر الفاضل وهو يتمتع بقوة بدنية هائلة، وقد يحمل وحده الجذع الذي ينوء به أربعة من الفعلة. ومع هذه القوة وهذا اليسر لم ينجح قط

في معصية تغضب الله ورسوله، وقد أدى فريضة الحج وهو في الثانية والعشرين من عمره، ويرى غالباً وهو يصلي بين أكداس الحطب، وقد تزوج من قريبة له لا يظفر بمثلها خيال الكتاب والشعراء في هذا العصر. ولعل هذا الرجل الذي نصفه للقراء (واسمه الحاج إسماعيل) لا يسمح لنا بأن نصف للقراء ما في زوجته من جمال وأنوثة، وأدب ورقة وجاذبية، وقد كان وهو في محل عمله يترقب غروب الشمس بلهفة ليذهب إلى زوجه. ولا يغفل وهو في طريقه إلى البيت عن شراء كل ما يصادفه من فاكهة وحلوى ليدخل السرور على قلبها.

جاء يوم أحد سماسرة الأوراق المالية يخبره بأن أحد الأقساط التي يملكها ربح عشرين ألفاً من الجنيهات، وهذا خبر يهتز له أربط الناس جأشاً، وأقواهم أعصاباً، فبعضهم يجن وبعضهم يترنح بهزة تستمر معه طول حياته.

أما الحاج إسماعيل فقد قابل الخبر بابتسامة بأناقة خفيفة، وأغلق مكتبه الذي يضع فيه دفاتره، وذهب مع الرجل إلى البنك فتحقق من صحة الخبر، فنفح السمسار بمكافأة البشرى ودخل بيته في النهار على غير العادة، وأطلع السيدة على ما كتب لها من حياة سعيدة ومجد شامخ، وقد استولت عليهما نوبة فرح فجعلا يتواثبان، ويتدافعان واستمرا في هذيان لذيذ إلى وقت العشاء. الحاج إسماعيل لم يجد شهية للأكل واكتفى بجوزة واحدة، أما السيدة فكان أمرها بالعكس وجاءتها الفرحة بشراهة غير عادية. ودخل الرجل فراشه في ميعاد نومه وظن أنه سينام نوماً عميقاً، ولكن النوم قاطعه وعاداه، وكانت بجانبه زوجته التي أسرفت في الطلاء والتعطر ولبست أفخر قمصان النوم وقد شاركته في نصيبه من الأرق، ولعل القارىء يظن أن ساعات هذا الأرق مضت في التسلية الزوجية البريئة. فالواقع مع الأسف أن الرجل شعر بحالة غريبة لم يأنسها منذ تزوج: شعر بأنه أصبح أحد الملائكة الأطهار المخلوقين من غير عالم الدم واللحم والأعصاب، وحسب أن ليلته هذه إحدى الليالي التي كان يقضيها في أحضان المرحومة أمه، فوجم وداخله وسواس مقلق ودقت الساعة الثانية صباحاً وأغلقت السيدة النور وأغمضا العيون وبعد ساعة سألته:

ـ نمـت؟

ـ لا.

ومرت ساعة أخرى سألها:

ـ نمـتِ؟

ـ لا.

وطلع الفجر فقام الرجل وصلى إذ لا يزال بوضوء العشاء... وكان قد ترك العشرين ألف جنيه في البنك، فقال في نفسه لعل هذه الحال ناشئة عن اشتغال الفكر بنقودي التي تبيت خارج داري فذهب إلى البنك وعاد إلى المنزل يحمل رزماً من أوراق بنكنوت. وهنا كادت الزوجة تجن إلا أن جنونها يقوي فيها مشتهيات الحياء على زوجها. وها هو حصل على المبلغ ووضعه تحت بصره وأنفه. ولكن الحال كما هو. فعلم الرجل أنه قد دفع فدية لهذه النعمة من أعصابه، وقضي الأمر وتبدلت معالم وجهه من التهلل والانبساط إلى القطوب والانزواء، وكان أصدقاؤه ومعارفه يفسرون حالته الجديدة الطارئة بالكبرياء والغطرسة لأنه أصبح من الموسرين. بل كان في معظم الأوقات يترك تجارته ويقضي وقتاً طويلاً عند مختلف الأطباء والدجالين وكتّاب التعاويذ، فيقول الزبون الذي يأتي لشراء الخشب ولا يجده، إن الرجل استغنى عن البيع والشراء والأمر لله. ويفتح الحاج إسماعيل خزانته وينظر إلى تلك الثروة الملعونة التي جلبت له البأساء، ويود إعادتها للبنك لو ضمن له البنك رجوعه إلى حالته الأولى، بل لو قيل له إن عقدتك لا تحل إلا إذا عصيت الله، وكفرت به واعتنقت الوثنية لسارع إلى كل هذا. وكانت زوجته تهون عليه الخطب وتسليه، ولكنه لا يرى هذه التسلية تنفع شخصاً فقد ملذاته وهو في شرخ شبابه. وساءت ظنونه وأخذ سوء التفاهم ينمو ويتفرع في أرجاء هذا المنزل السعيد وفضل قضاء سهرته على القهوة، وعلم الله أنه لم يدخن الشيشة في حياته ولكن القهوجي اقترحها عليه صدفة فقبلها لعلها...

وهو الآن موضوع حديث السفهاء والفضوليين يجتمعون حلقات ويلوكون

سيرته حتى يقوم أو يقوموا، وفي كل ليلة يأتي أحدهم بخبر جديد يضيفونه إلى معلوماتهم التي وصلتهم عنه. وفي إحدى الليالي جاء أحدهم يقول:

ـ قد عرفت الرجل حق المعرفة، فهو يدعى الحاج عبدالباسط وأصله من العراق، وقد فر هارباً منها بسرقة كبرى، وصادفه الحظ فربح نصف مليون جنيه منذ ستة أشهر، وتزوج بواحدة من بنات السلطان محمد رشـاد الخامس، وهو الرجل الذي دفع للجمعية الخيرية الإسلامية خمسة قروش لما زاره مندوبها، وأزيدكم أن الله ابتلاه بداء عضال أعجز الأطباء هو داء العقم فهو الآن يفتش عن النسل ويدفع كل ما يملك. . .

فانفتح للجماعة باب يدخلون منه على الرجل ويـؤدبونه على كبريائه فدبروا مـؤامرة شنيعة تحت رئاسة رجل سمَّاك يدعى الرئيس عامر، يمثل شكل الفتوة «الزوافري» الإسكندري خير تمثيل، بسرواله الجوخ، وصدريته الحريرية وعينيه الوقحتين، وفمه الفاغر المستعد لكل شر، وفي ليلة تنفيذ المـؤامرة جلسوا في أقرب مكان إلى الرجل الذي لم يعرهم أقل التفات.

قال أحد المتآمرين واسمه سلامة:

ـ أريد منك يا ريّس عامر أن تصف لي العقاقير التي يستعملونها لـ . . .

فقال عامر:

ـ وهل المحترم زوج أمك أصابته العنَّة؟ فانفجر البقية بالضحك وهم خمسة أشخاص واخترقت النكتة سمع الحاج إسماعيل، فتأزمت أعصابه وغلى مخه في جمجمته.

وبادر أحد المتآمرين فعلق على كلام سلامة بقوله:

ـ أظنك تريد هذا الدواء لمعلمك. ليتني أعرف أنه يفتش على هذا الدواء الذي. . .

قال:

ـ نعم.

فقال الرئيس عامر:

ـ إن كان الدواء لمعلمك حقاً فالرجل صديقي ولا أبخل عليه بشيء، قل له اشتري الأصناف الآتية: درهم زيت قرنفل، ودرهمين زيت هيل. وعشرة دراهم كبابة صيني، ونصف أوقية فلفل أسود، ثم يطحن الحبوب وينقعها في الكحول ويصفيها ثم يذيبها بالزيت المذكور. وبعد ذلك ـ لا حياء في الدين ـ يجب عليه وعلى زوجه أن يقوما بعملية حلاقة في المكان المعروف. وبين صلاة المغرب والعشاء يدلك كل منهما نفسه تدليكاً جيداً مدة عشرة دقائق. وسيرى معلمك فائدة هذا الدواء المجرب الأكيد النفع. وقل له بعد ذلك أن يرسل لي هديتي...

فتظاهر سلامة بنسيان أسماء العقاقير، وجعل يستعيدها مراراً، وقصد من ذلك أن يحفظها الحاج إسماعيل، وفعلاً كان الرجل مرهفاً سمعاً لكل كلمة حتى حفظ هذه الروشيتة الخبيثة عن ظهر قلب وقام في نيته تنفيذ العملية.

وفي الليلة التالية جاء المتآمرون مبكرين ومضى ميعاد حضور الرجل ولكنه لم يحضر، وكلما مضى الوقت ازداد ضحكهم وطربهم لأن الرجل وزوجه في هذه الساعة جالسين بين الكاويات الشاويات، وجعلوا يتخيلون ما يحل بهما بعد الدهان ويغرقون في ضحك يمزق الأحشاء.

وبعد برهة طويلة أبصروا الرجل قادماً في ملابس النوم يمشي منفرج الرجلين يتوكأ على عصا غليظة فتفرقوا هنا وهناك وجلس الرئيس عامر وحده، واقترب الحاج إسماعيل من القهوة منتفخ الأوداج تملأ وجهه حمرة الغيظ والحنق فسأل القهوجي قائلاً:

ـ أين الجماعة الذين كانوا يجلسون هنا بالأمس؟

فلم يستطع القهوجي أن يتذكر وأجاب إنه يجهلهم فعض الرجل على نواجذه وعاد من حيث أتى. فقال الرئيس عامر للقهوجي بصوت عال يسمع الحاج إسماعيل.

ـ هات لي الليلة الشيشة الدويبو...

جريدة (الزمان)، فيفري 1933

القــاضي الصغــير

يعد ميدان الأوبرا أفخم ميادين القاهرة، وأجمل ما يكون من الساعة السادسة ساعة اصفرار الشمس ولمعان أوراق الأشجار بسائلها الذهبي إذ يخرج كل كائن وكائنة من قيلولة النهار إلى النزهة وقضاء الأغراض.

كان شاب بين الشباب والكهولة تدل ملابسه على امتلاء جيبه ووجهه الضخم البرنزي المنقط بالجدري على البطر والاستهتار باللذات. وكان ينظر بنظرات زائغة وربما صعد فجأة إلى مركبة (الأومنوبيس) أو (الترام) ثم نزل منها ليركب غيرها. وأخيراً صعد إلى (الترام) الذاهب إلى ضاحية الجيزة وجلس في الدرجة الأولى أمام سيدة تقطر جمالاً ووقاراً وحدق فيها بعينين جهنميتين فأخرجت من حقيبتها جريدة وتلهت بالنظر فيها، وقد تركت بجانبها فِراءَ عنقها على المقعد، وكان (الترام) يرتج من سرعة سيره، وهذا الفراء ينزلق رويداً، وصاحبنا ينظر إليه حتى سقط تماماً فالتقطه وقدمه لها بلباقة قائلاً:

ــ هذا جزاء المطالعة في الترام.

فغلبتها ابتسامة أنثوية وتناولت الفراء شاكرة، وعادت ثانية للرواية. فقال:

ــ لا بأس اقرئي وسأكون خفيراً أحفظ لك كل شيء يسقط، وسيدات القاهرة يعجبن بالنكتة البارعة. والبعض يسميهن باريسيات الشرق، فطوت الجريدة متحيرة فقال:

ــ هل أكون سعيداً بتشييعك حيث تذهبين.

ــ لا تتعب نفسك إلى هذا الحد، فأنا أسكن قريباً من الهرم. . .

ـ أنا ذاهب حتى إلى طرة (وهو المحجر الذي يكسر فيه المساجين الأحجار).

بعد ستة شهور كان هذا الرجل مع السيدة في غرفة بمنزلها، وقد وقفت أمامه كاللبؤة الثائرة وهي تزمجر وتقول:

ـ عباس، أتسمعني أيها النذل؟ أقسم بالله أن بينك وبين السجن المؤبد قيد شعرة، بل بينك وبين تمزيقك إشارة واحدة من يدي.

قد أسلمت لك نفسي وهذا لا أنكره فأنا أرملة بلا زوج يناله العار، وبلا أقارب يتدنس شرفهم بدخول مثلك عندي. وتركتك تدخل بيتي آمراً ناهياً، وتقيم فيه مطمئناً لا يروعك مروع، وقد احتملت فيك من الجيران والرقباء ما يكره سماعه، لأني حسبتك رجلاً أشتمّ منه أنفاس الرجولة.

لوحت لي بالزواج ثم راوغتني فرضيت بمراوغتك، ووطدت نفسي على الرضى بخداعك. ولم يكفك كل هذا يا أنذل المخلوقات حتى تعبث بابنتي ووحيدتي التي لم تبلغ الخامسة عشر أيها الوحش، ابنتي التي أسهر على تربيتها وتعليمها، تلك الزهرة اليانعة تصهرها بتيار شهوتك الدنيئة في بضعة دقائق؟ أتذهب ابنتي إلى مدرستها وهي حامل في الشهر الرابع؟ قل لي؟ هل تفهم ما أقوله لك؟ قد عرفت أنك ذئب كاسر، ولكن للمرأة مخالب خفية تخرق بها كل شيء متى أرادت. لا ينجيك مني إلا شيء واحد، ولا أرى مع الأسف علاجاً غيره أريد خطيباً لهذه الفتاة التي بترت عمرها، وطمست كوكب سعدها. فأتني به وأنت في حلٍّ من أمرك. . .

كان انفجاراً عظيماً ذلك الذي حدث بعد أن اكتشفت المرأة عبث عشيقها بابنتها، وخرج عباس لا متحيراً ولا نادماً بل جلس بعد في محل يبيع الأشربة المثلجة، وجعل يتناول القدح بعد الآخر، ويتجشأ مرات متواليات، ويشيع الرائحات والغاديات بنظراته الغزلة. ثم قام يتسكع حتى دخل إحدى المقاهي الفخمة حيث يجتمع فيه القوم، وأجال نظره في الحاضرين ثم قصد إلى شاب نبيل الهيئة ومد إليه يده مصافحاً:

ــ هل يذكر أدهم بك صديقاً قديماً.

ــ وكيف لا (وقام أدهم بك فرحاً باستقباله).

ــ وهل أنسى عباساً صديقي في الدراسة وقريني في الطفولة. أرجوك الجلوس لأسعد بتلك الذكريات البهيجة.

ــ بلغني أنك وليت القضاء فأهنئك.

ــ الظاهر أن القاضي يستحق الإشفاق لا التهنئة.

ــ أهنئك على الأقل لنيلك هذا المنصب، وأنت لم تتجاوز الخامسة والعشرين وهو ما يندر في شبابنا.

ــ إذن أقبل تهنئتك بكل سرور.

أدهم بك كان طفلاً يتيماً تربّيه إحدى المدارس الخيرية، وقد ظهر منه نبوغ خارق للعادة فالتفتت إليه وزارة المعارف وأحاطته بعنايتها، إلى أن درس العلوم القضائية بتفوق باهر، وأسندت إليه إحدى الوظائف في النيابة العمومية ولم يلبث حتى نقلوه قاضياً في إحدى محاكم القاهرة.

قال عباس بعد حديث طويل: والآن لا يتم كمالك إلا بالزواج أيها الصديق.

ــ أحاول تناسي هذه المشكلة التي تطمئنني وتفزعني في وقت واحد. فأنا كما تعلم وحيد في حاجة إلى من يؤنسني، وبالرغم عن جهلي التام بالنساء فأنا أعلم أنه لا يسعد بمعاشرتهن إلا الرجل المغفل.

ــ لئن فاتني القيام بواجب صداقتك في ماضيك فلن تفوتني خدمتك في مستقبلك الكفيل بإسعادك والزعيم بهنائك.

* * *

جمع البقال كشف الحساب وقدمه لزبونه الواقف أمامه فدفعه إذ كان اليوم أول يوم في الشهر وأراد الانصراف، فقال البقال بنغمة غريبة:

ــ اسمح لي أيها البك أسألك عن شيء.

ــ وما هو؟

ـ جيرتنا تسمح لي بهذا السـؤال فإذا أفادك فذاك. وإذا كان فضولاً فاعذرني.

ـ قـل.

ـ بعد خروجك في الصباح بنصف ساعة يدخل رجل يمكث حتى الساعة العاشرة في المنزل.

ـ ما صفة هذا الرجل.

ـ أسمر يا سيدي مجدور الوجه.

فكاد صدر القاضي ينفجر ولكنه قال له بهدوء:

ـ هذا صهري وأخو زوجي، نعم يأتي بعد خروجي هذا الخبيث لأنه في خصام عائلي ويخشى إن قابلني ضغطت عليه ورددته إلى صوابه. وأنا أشكرك إذ أعلمتني بقدومه. ولكن عند مجيئه غداً أرجوك أن تخاطبني تلفونياً وهاك النمرة.

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كان أدهم بك القاضي في الجلسة إذ اقترب منه أحد الحجاب وأسر إليه أن التليفون يطلبه، فرفع الجلسة وطلب من رئيس المحكمة انتداب قـاض آخر لأنه يشعر بمرض فجائي. وبعد ربع ساعة كان يفتح باب المنزل بخفة. فرأى الخادم واقفة في البهو فارتعدت لرؤيته فأشار إليها باتباعه وصعد إلى الدور الأعلى وجلس على المائدة الوسطى، وقال للخادم اذهبـي إلى غرفة النوم واخبري من فيها يأتي هنا، وبعد ذلك اذهبـي إلى البقال ودعيه يصعد عندي.

وخرج عباس على القاضي ولم يبق فيه قطرة دم واحدة فوجده يكتب ورقة صغيرة، فأشار إليه بالجلوس حتى يفرغ من الكتابة ثم وضع الورقة أمام عينيه وقال:

ـ هذا سند بمبلغ ألف ومائتين جنيه وهو المهر والمصاريف التي تكبدتها في هذه الزواجة المزيفة. وبما أنك أخذتها في الظاهر لي وفي الحقيقة لنفسك، فمن العدل أن تدفع. لا تنسى أن بجانبـي مسدساً يفصل في المسألة ولكن دمك النجس لا يغسل هذا العار فعليك أن تضع توقيعك.

فأخذ عباس القلم وهو مفقود الإرادة ووقع السند وإذا بالبقال مقبل فقال أدهم بك:

ــ ها هو يا سيدي صهري الذي أخبرتك عنه قد فصلنا في مسألته وانتهت بأن أقرضته هذا المبلغ وقد أحضرناك لتكون شاهداً فهل تقبل؟

ــ بكل سرور (أجاب البقال وهو يتناول القلم ويوقع على السند).

ــ قال أدهم بك:

ــ ونحتاج إلى شاهد آخر.

قال البقال:

ــ هو هو أخي في الحانوت.

جريدة (الزمان) 20 ماي 1933

بعـــد الميعـــاد

في إحدى دور السينما بالقاهرة كان يحتل أحد الألواج شاب سوي، ممتلىء الجسم، مشرق الوجه، ساحر العينين، أنيق الشارب، تلمح في وجهه النعيم، وتبدو على ملابسه آثار البذخ والعز، وقد أخذ الركن من هذا اللوج وأسند ظهره إلى الحاجز القائم بينه وبين اللوج الآخر حيث توجد عائلة مصرية مؤلفة من سيدة وزوجها وطفلة في السابعة من عمرها ومعهم خادم تحمل على ذراعيها طفلاً آخر. وقد اعتمد السوري (أي الشامي) بيده على حافة اللوج مستعداً لمشاهدة ما سيظهر على الشاشة البيضاء. وانطفأت الأنوار وبدأ عرض الجريدة الأسبوعية، وكانت ذات حوادث مسلية تلهي المتفرج عن كل ما حوله، ومنهامنظر بنات إنجليزيات يتسابقن عائمات في نهر (التيمس)، أثناء هذا المنظر أحس الشامي يداً ركبت فوق يده البيضاء المصقولة وكهربتها بتيار أجنبـي، فالتفت برزانة فوجدها يد السيدة، وتشابكت الأصابع بحرارة وتلاعبت بحرية، وتغامزت بسؤال وجواب إلى أن انتهت الجريدة وعادت الأنوار. والتفت الشامي يتأمل السيدة فرآها من ذلك النوع الجذاب الخمري اللون ويلوح من بدنها الطري أن سنَّها يقارب الثلاثين وهو نفسه في هذا السن تقريباً. ولم يكن سرورهما ببعض أثناء النور بأقل من سرورهما في الظلام.

قام الشامي إلى (بوفيه) السينما، وكتب على ورقة صغيرة هذه الجملة: «منتظرك غداً الساعة العاشرة صباحاً أمام (الكوزموغراف)».

وعاد إلى مكانه، وأعاد يده إلى مكانها وبدأت الرواية وعاد الاشتباك فدس لها الورقة، فسربتها إلى حقيبتها ببساطة، وكان الشامي يشعر بانتصار الظافرين،

وأخذته العزة بالإثم فجعل يرشق زوجها الأسمر الضعيف المتهدم بنظرات الاستخفاف أو قد كان يستخف بكل من في الصالة.

ولم تطق السيدة صبراً عن معرفة ما في الورقة فاستصحبت خادمتها فقامت إلى دورة المياه وقرأتها وأضافت تحت جملته: «الأحسن في الساعة الثانية بعد الظهر في نفس المكان».

وعاد الظلام ودستها في يده، ويعلم الله وحده أن هذه أول حادثة غرامية تقع لهذه المرأة. ولكنه الشيطان جمع بين هذا الشامي الجميل وبين زوجها المار ذكره في ساعة منحوسة، والظلام لا بارك الله فيه يغري النفس على ما لا تأتيه في النور، بل لو سألتها عن سبب وضع يدها على يد الرجل لاجابتك أنها وضعتها عفواً ولكنها لم تستطع ردها.

وانتهت حفلة السينما وركبت السيدة مع زوجها وأتباعها عربة، والشامي واقف على الرصيف يشيعها بنظرة تلهف وشوق.

وباتت طيلة ليلها تحلم بغدها، وشعرت بأن قلبها يخفق خفقاناً موسيقياً لذيذاً لا عهد لها به من قبل. ولم يزر الكرى أجفانها حتى الصباح وكانت رغم ذلك تشعر بنشاط يخالف المألوف، فانهمكت في شؤون بيتها تعمل فيها بلذة غريبة، وهذا النشاط وهذه اللذة في العمل تلازمان جميع المحبين إذا كان حبهم سعيداً محققاً والحب أحسن أمل يدفع الإنسان إلى العمل.

أعدت لزوجها طعام الغداء وكان من عادته النوم بعد الظهر كما كان من عادته إطلاق الحرية لها تخرج متى شاءت.

وأمام (الكوزموجراف) أبصرت الشامي واقفاً في انتظارها. فأوقفت المركبة التي تقلها أمامه وأشارت إليه فصعد وهو ساكت وجلس بجانبها وهو ساكت. فسألها الحوذي إلى أين؟

فلم يتكلم. فقالت السيدة:

— إلى الجزيرة.

أما الشامي فقد ارتخى على مقعد المركبة، ووضع قدميه في ظهر الحوذي وأخرج عجيزته الضخمة في الهواء ومد ذراعه خلف ظهر السيدة وجعل يعبث في جسمها في بلاهة وبرودة يتحدث عن نفسه قائلاً:

«كفاك الله أيتها السيدة هيجت إحساسي وشعوري ليلة أمس. وكنت على وشك أن أقبلك.. أمام هذا المغفل الذي كان معك وأظنه زوجك. ما أثقله. وما أقبح شكله. الحق أنه يستحق أن تتوجيه بقرنين. وهذه البنت إن كانت ابنتك؟ لكنها لا تشبهه بالمرة. فإن كانت من رجل غيره فحسناً فعلت. ولو كنت أنا امرأة ما ضاجعته ساعة واحدة أعوذ بالله من هذه الخلقة. وأنتم أيضاً تستحقن الملام معشر المصريات إذ لا فرق عندكن بين الرجل الوسيم والرجل الذميم».

ثم تثاءب واستمر قائلاً وهو ينظر إلى الشارع يميناً وشمالاً:

«اليوم عندي ميعاد مع امرأة أخرى قابلتها في الصباح ووعدتني بالمجيء في نفس هذه الساعة، وإذن كنت متحيراً بينكما، أيكما أنتظر، وبعد أن ضربت أخماسي في أسداسي فضلت المجيء معك لأنك أضمن، أما الأخرى فكان ميعادها بين الشك واليقين، ولم تكن نظرتها صريحة وأنا أحتقر المرأة إذا كانت بهذا الشكل. وليس من عادتي انتظار المرأة دقيقة واحدة أكثر من الموعد المقرر. وأحياناً أنا الذي أخلف الميعاد وأدعها تنتظر ساعات أو تذهب إلى الجحيم. النساء كثيرات بل وأكثر من الهم على القلب.

اسمعي.. ضعي ذراعك على كتفي واقتربي مني، وقبليني من هذا الخد؟ نعم ومن هذا أيضاً... هكذا».

وكانت المركبة تسير مترنحة فترج جسمه الضخم فيزداد بنفسه فرحاً، ويستسلم للنسيم ويغمض عينيه بدلال برهة ثم يفتحها متثاقلاً ليقول كلمة مما فهم القارىء. وأخيراً سألها: إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

فقالت: سأخبرك حالاً.

وأشارت للحوذي بالرجوع، ولما قاربت المركبة مخزناً كبيراً قالت للشامي :
ـ أرجوك أن تسمح لي بالنزول لشراء بعض أدوات التواليت.

ودخلت المخزن، وبعد ربع ساعة كانت في بيتها أمام سرير زوجها النائم، فلم يشعر هذا الزوج إلا وامرأته تطوق عنقه وتنهال عليه بالقبلات تارة، وعلى أولادها تارة أخرى، ولا يدرون سبب ذلك.

جريدة (الزمان) 6 جوان 1933

دعــوة القبــطي

غاب شفيق أفندي القبطي عن مجلسه واخوانه الذين اعتاد الجلوس معهم في قهوة بجانب حديقة الأزبكية بمدينة القاهرة، واعتبر اخوانه غيابه حادثاً خارقاً للعادة، وجعلوا يسألون عنه هنا وهناك بدون فائدة.

وبعد عشرة أيام أقبل عليهم ببذلة جديدة ومشية جديدة وكل شيء جديد، وبعد أن كان يسلم متواضعاً منحنياً أخذ يصافحهم مصافحة الند للند، وجلس معتمداً بذراعه على عصاه.

ــ أين كنت يا شفيق؟! (سأله أحدهم).

ــ في المنصورة حيث توفيت خالتي وفرغنا من مأتمها وتصفية تركتها.

فقدم الجماعة إليه تعازيهم على موت الخالة وتهانيهم على نصيبه من التركة.

والحق أنها ثروة أصابته وقتَ الحاجة، فهو موظف في السكة الحديدية بمرتب بسيط، وكانت البدلة التي يرتديها شفيق رمادية اللون، فيها مربعات سوداء كبيرة بحيث يصلح قماشها أن يكون ستائر للنوافذ أو كساوي للمفروشات فسأله أحدهم:

ــ كيف حصلت على هذه البذلة الجميلة؟

فقال:

ــ أراهنكم أنه لا يوجد شخص آخر في مصر كلها عليه مثل هذه البدلة. اشتريت قماشها من شخص جاء ليكون ممثلاً في مصر «لفابريقة» أقمشة

في انجلترا، وعمل منه هذا النموذج، وما اشتريتها منه إلا بجهد جهيد لأنها مقطوعة من ملف قطع منه البرنس ويلز، وليقم من شاء منكم معي لنطوف على كل خياط ومخزن قماش فإني مستعد لدفع الرهان، ودعكم من القماش ولونه ونوعه، وانظروا إلى التفصيل تفصيلها جاء أعجوبة في الاتقان وسلامة الذوق، أتدرون من فصلها؟ مستحيل. فهو شاب درس فن الخياطة في نيويورك، وحمل دبلوماً عالياً في التفصيل وعاد إلى القاهرة ليفتح له محلاً خاصاً به، وقد أقسم أن لا يشتغل أبداً عند زيد وعمرو. ولهذا لا يفصل إلا لأخوانه إلى أن تتم له المعدات ويظهر إلى عالم الوجود.

وقام شفيق على قدميه، وقال وهو يريهم كل أجزاء جسمه:

ـ انظروا إلى الكتفين والصدر والكمين وإلى لون الأزرار وتناسبها مع لون القماش، وأعجب ما فيها البنطلون الذي لو كان أوسع وأضيق مما هو عليه صنتيمتراً واحداً لما كان له هذا الرونق العجيب.

والصدرية؟ هل ترون مثلها على أحد في القطر كله؟ إنها وحيدة في تفصيلها هي والبدلة بالجملة. ولا تنسوا من جهة أخرى أن جسمي من الأجسام المرنة التي تليق لها كل الثياب، طولي متناسب مع عرضي، وذراعاي كذلك... يوجد أشخاص لهم ذراعان طويلان أكثر من قامتهم وهذا مرض والعياذ بالله. أما أنا فبالعكس، كل أعضائي طبيعية، والذي له جسم مثل جسمي لو يلبس شكارة من الخيش لبهر الأعين. والحاصل أنني راض عن هذه البذلة.. كل الرضى.

اسمعوا، غذاؤكم عندي في بيتي ـ ستتغذون على المائدة الجديدة والكراسي الجدد، وتطلعون على ذوقي في شراء الموبيليات، والآن أقسم باسم الله أن لا يدفع ثم القهوة أحد غيري.

* * *

وفعلاً قام الجماعة مع شفيق وعددهم أربعة أشخاص، ودخلوا منزله وهو يتقدمهم حتى أجلسهم على المائدة الجديدة، وأخذ في وصفها حتى جف

ريقه من الكلام. وأخيراً قال: والآن ما هو نوع الغذاء الذي تقترحونه لأشتريه لكم؟ هل نرسل إلى بائع الكوارع ليثرد لنا أربعة أرغفة ويضع فوقها الكوارع مطشوة بالخل والثوم؟ أنا أحب هذه الأكلة لا سيما إذا اشترينا معها قطعة كبيرة من الثلج. أو الأحسن أن أشتري لكم علبتين كبيرتين من السردين وجانباً من الزيت والليمون والفلفل الأخضر.

قالوا كما تريد وتشتهي. فقال:

ـ وما قولكم في رطلين من الفسيخ؟ ثمن الرطلين خمسة عشر قرشاً. هاكم منها عشرة قروش أضعها على هذه المائدة أمامكم. وليقم أحدكم ليشتري الخبز على شرط أن يشتري عشرة أرغفة لأن الفسيخ يا أعزائي فاتح للشهية. ويقوم واحد آخر فيشتري لنا أقة عنب أو شمامتين، وإن أردتم شراء شيء آخر فلا مانع عندي.

فسكت الجميع فقال:

ـ عندي اقتراح هو الأخير، وذلك أنني أذهب الآن إلى سوق السمك وأشتري لكم أقّة ونصف من «البلطي اللذيذ» (والبلطي سمك يعيش في المستنقعات يساوي الكيلو منه نصف فرنك) ثم نشويها هنا على وابور القاز؟ هذا اقتراح طيب وسوق السمك ليس ببعيد: نصف ساعة في الترام وساعة على الأقدام. أذهب أنا وأعود فأجدكم قد أحضرتم باقي اللوازم والفاكهة في مقدمتها.

فنهض أحد الضيوف واسمه (ويصَا) وقال:

ـ الحق يا شفيق أنني جئت قبل كل شيء لأتفرج على المائدة والكراسي وهي حقاً جميلة وسأشتري مثلها، أما الغداء فإن زوجتي في انتظاري وقد غبت عن الموعد أكثر من اللازم وإلى الملتقى.

فتركه شفيق حتى وصل إلى الباب، وقال:

ـ لا يليق بك أن تخرج وتتركنا وحدنا فلنخرج إذن جميعاً، لنتغذ حيث يتفق.

وقام الآخرون يتبعونه حتى خرجوا إلى الشارع وذهب (ويصا) إلى شأنه، ومشى شفيق والثلاثة يتبعونه والجوع يلوي أمعاءهم فتغامز إثنان منهم واتفقا على الاستغناء عن هذه الدعوة. وقررا ترك شفيق مع هذا الثالث وكان هذا الأخير فتى فقيراً بائساً لا عمل له.

وتذرعا لشفيق بحجة واهية فقبلها بسهولة وتركهما يذهبان وبقي هو وصاحبه المسكين.

ومشى شفيق مطرقاً مدة طويلة وأخيراً سأل صاحبه:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ أظنها الثالثة بعد الظهر، وأحسب سوق السمك قد شطب في هذه الساعة ولا يوجد فيه سمكة واحدة، كذلك بائع الكوارع. ليتنا اشترينا علبتين من السردين كما قلت. فقال شفيق بحدَّة:

ـ وهل هذا ذنبي يا أخي، قد عرضت عليهم كل ذلك فأبوا وراوغوا، وما هذا إلا كبرياء منهم وتعجرفاً عن قبول دعوتي. أنا الذي أستحق اللوم والتقريع، والآدمي مهما طال عمره وتقاذفته التجارب لا يزال على جهل ببواطن الناس وأصدقائه على الأخص، قد كنت والله شديد الجوع فملئوا قلبي همًّا وكربا، وسوف لا أذوق الطعام طول يومي. ولعلني أقابلك ليلاً في القهوة، بل من المؤكد أنك تراني في القهوة حوالي الساعة العاشرة.

جريدة (الزمان) 13 جوان 1933

بَركــة اليــوم

الناس كلها مجمعة على أن البومة طائر مشئوم يرمز إلى الخراب وفرقة الأصحاب، ولكن عثمان أفندي أحد أبناء الأغنياء في القاهرة يتيمن برؤيتها ويطرب لسماع صوتها. والسر في ذلك أنه لا يحصل على القرش من والده إلا بعد أن يهدد بالانتحار، وكان هذا الوالد جلدة لا تمضغ أوحجراً لا يرشح، وعثمان معدود في وسط إخوانه من أبناء الأغنياء، ولكنه يسير معهم سيرة الفقراء المعدمين، لا يشرف نفسه مرة بوضع يده في جيبه وهو الذي يعد الثواني انتظاراً لموت أبيه، ويقول لاخوانه عندما يسمع البوم في إحدى الخرابات المهجورة:

ـ اسمعوا الصوت الجميل، الصوت الحنون الساحر تعلنه بشيرة الخير ورسولة الرحمة... هذه البومة إذا دخلت داراً كان الموت وراءها، وما أحوجني إلى دخول الموت لمنزلنا العامر، ولا شك أنه سيختار الوالد المحترم من بين أهل المنزل ويميناً لأصيدن بومة بأي ثمن وأحبسها في قفص جميل وأتركها تغرد في محلنا.

وفعلاً نفذ رغبته واصطاد له الأولاد بومة فاشترى لها القفص ودخل إلى المنزل ولم تكن أمه أحسن معاملة له من أبيه، ولا تقل بخلاً عن زوجها الحازم فأمرته بإخراج البومة في الحال، وبعد أن احتدم الجدل بينهما أفهمها بأنه سيبيعها بخمسين قرشاً لرجل أوصاه عليها فبلعت ريقها وسكتت. فطلب من أمه أن تقرضه خمسين قرشاً مؤقتاً إلى أن يقبض ثمن البومة فلم يحصل على بغيته. وكان أحوج إلى النقود من العطشان إلى الماء لأن أصدقاءه سيعقدون حفلة أنس فوق

العادة يشترك فيها الجنس اللطيف، وهو لا يريد أن يبقى بينهم ويده على خده. والحفلة في مساء هذا اليوم، وقد مالت الشمس للغروب.

عثمان إذا تعقدت أمامه المشاكل بادرها بحل عبقري لم يسبقه إليه أحد، وقد تحركت قريحته في هذه الساعة فنزل ووقف على باب البيت ودق دقات متوالية فأطلت ساكنات البيت من النوافذ؛ ورأين المالك يدق الباب فأخبرن أمه فخرجت هي أيضاً فوقف صاحبنا في أسفل السلم يقول بصوت عال والجيران يسمعون.

«احدفوا خمسين قرشاً في الحال. لأنني في حاجة إلى النساء. نعم وفي شوق شديد، ولا سبيل إلى النساء إلا بالنقود أريد خمسين قرشاً أذهب بها إلى أحد المواخير لأطفيء نار الشهوة التي تأكل جسدي. يا سبحان الله، ألا يقنعكم هذا الكلام. ألستُ رجلاً كغيري؟

فلم تقو أمه على سماع هذه الفضيحة أمام الجيران ورمت إليه بالمبلغ فأخذه والتحق بإخوانه، وظهر في الحفلة بمظهر مشرف، وهو يقول في نفسه هذه أول بركات البومة. وانقضت السهرة وكانت في منزل يبعد عن منزله بعشرة كيلومترات وخرج متعباً لا يجد الترام ولا غيره، ولم يبق في جيبه غير دريهمات قليلة لا تنفع للمركبة. وهنا خطر له الحل:

نظر فرأى عسكري البوليس يتبختر ذهاباً وإياباً على رصيف بعيد، فنام على الأرض لا يتحرك حتى اقترب منه العسكري، فما كان من هذا بعد أن وجده جثة بلا حراك إلا أن ذهب إلى أحد الصيدليات المفتوحة وخاطب مكتب الاسعاف بالتليفون.

وبعد دقيقتين جاءت المركبة المستطيلة المريحة وحمل السائقان عثمان برقة، وانطلقا يقرعان الجرس إلى مستشفى القصر العيني، وعثمان يسكن بقرب هذا المستشفى. ولكن قبل أن تقترب المركبة من باب المستشفى صاح بلهجة الآمر: قف، كفى، فوقف السائقان دهشين ونزل عثمان فصافحهما شاكراً وانصرف.

ودخل إلى غرفة نومه في سكون فوجد أمه وأباه يتلاعنان بسببه، ولم يرقدا حتى الساعة، وصمم أبوه على طرده من البيت هو وبومته فأخذهـا وخرج ولم تمض ساعات قليلة حتى أجّر غرفة أرضية في إحدى البيوت، واستعار حصيراً من أحد أصحابه ونام نومة هنيئة، وفي ظرف ثلاثة أيام كانت الغرفة كاملة المعدات، وهو أثناء ذلك يتفقد البومة ويتصيد لها الحشرات، ويقدم لها الماء وما يلزم لمزاجها الشريف.

وفي اليوم الرابع اكتشف أن مالكة الدار التي يسكنها «شيخة ستامبالي» تدق الطبول طول النهار، والنهار هو ليله الذي ينام فيه فأخبرها بأنه سيغادر هذه الغرفة، وكانت الشيخة متفقهة في القوانين فألزمته بدفع ستة شهور على سبيل العطل والأضرار، ووضعت أمامه العراقيل كلها وإلا فالمقاضاة. فقال في نفسه. وهذا سهل. . .

الحجرة التي يسكنها واقعة في مدخل البيت. فجاء في يوم عقدت فيه المرأة حفلة كبرى حضرتها عقيلات القاهرة وأحضر صديقاً له أصفق منه، ووضع أمام باب الحجرة طاولة وكرسيين وجلس الإثنان متجردين من ملابسهما، ومع كل منهما ثوب يتظاهر بتنقية القمل منه وقتله على الطاولة. هذا والسيارات والمركبات الفخمة تقف على الباب، وينزل منها الفوج بعد الفوج من العقيلات والهوانم اللاتي ينظرن إلى هذين الجلفين. فخرجت إليهما الشيخة ونهرتهما بخشونة فقال عثمان يا سبحان الله، سكتنا على الطبل فهل نسكت على القمل. نحن هنا ننظف ثيابنا من قمل بيتك. قالت الشيخة، لا أقبل هذا، وعليك أن تخرج اليوم فأجابها وهو مستمر في تفلية ثوبه:

ـ حتى تدفعي ستة شهور والعطل والأضرار وأجرة المركبة التي تنقل أثاثي.

فلم يسع الشيخة إلا أن تنفحه بمبلغ غير قليل فجاء ببرويطة حملت فراشه وسار خلفها يحمل قفص حبيبته البومة إلى بيت آخر.

ويشاء الله أن يبارك مقدم البومة ويتوفى الوالد إلى رحمة الله، ولم يمض على

حوزته لها شهر واحد، واستلم أملاك أبيه الواسعة ووضع إيرادها في جيبه وجلس بين إخوانه شامخ الأنف.

ولم تنقطع حوادثه المضحكة بعد غناه، فحياته كلها سلسلة من تلك الأضاحيك التي لا يأتي بها مخلوق غيره، لقد كان في الأملاك التي ورثها منزل ضخم مؤلف من سبع طبقات وأربعة عشر مسكناً كبيراً تشغلها عائلات أوروبية مختلفة الأجناس، فيها عائلتان لا تدفعان أجرة السكنى من عدة شهور، وقد عجز والده عن إخراجها ولا تزال قضيتها منظورة أمام المحاكم المختلطة التي لا تفصل في القضية إلا بعد شهور وأعوام، ويكون الساكن المماطل قد قضى مدة طويلة يتمتع بالسكن المجاني، وفي النهاية تحكم عليه المحكمة بالخروج فقط بدون أن يدفع ما عليه من الأجرة، وكثير من الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية في مصر يسكنون طول حياتهم في أملاك الناس على هذه الوتيرة. ولكن صاحبنا هذا الذي يحل أعظم مشكلة لا ينتظر المحكمة المختلطة لتفصل له في قضيته.

أخذ لنفسه مسكناً من هذا البيت، ثم استدعى نجاراً وجاء به إلى مسكن العائلة الأولى وكانت إيطالية، وتظاهر برغبته في إصلاح باب المسكن وأمر النجار بخلع المصراعين وأخذهما إلى مسكنه ومضى، وجاء رب العائلة فوجد بيته بالعراء وكأنه يسكن في شارع. وذهب يفتش عن صاحب الملك فلم يجده إلا بعد ثلاثة أيام لم يذق فيها طعم النوم هو وعائلته، ولما التقى به سأله بحدة ووقاحة:

ـ أين باب الشقة؟

ـ وهل تجرأ على هذا السؤال؟ هل هو باب أمك؟ أو باب أبيك؟ وهل أجرت منا منزلاً أم باباً؟ دع الأبواب لأصحاب الأبواب وعليك بمسكنك. وإن كان الباب مذكوراً في العقد الذي بيننا وبينك فعليك أن تطالب به أمام محكمتك المختلطة. والآن أرحني من وقاحتك واغرب عن وجهي.

فلم يجد المستأجر حيلة غير الخروج قبل أن يصدر عليه الحكم،

أما العائلة الثانية فكانت يونانية من الطبقة المنحطة، وقد لا يخلع الباب ولا النوافذ فكلف الذين تصيدوا له البومة أن يتصيدوا له كذلك عدداً وفيراً من صغار الثعابين، وأطلقها لهم ليلاً من تحت الباب، وفي الصباح وجدوها تتنزه بين الحجرات وتتسلق المفروشات واليوناني معروف بخوفه من الثعبان أكثر من أي إنسان آخر.

في الظهر عاد صاحب المنزل فوجد اليونانيين ينقلون أثاثهم على كواهلهم، ويضعونه في الشارع أمام العربة التي ستحمله إلى حيث أتت.

يقول صاحبنا إن سعادته كلها جاءته ببركة البوم والثعابين أيضاً.

جريدة (الزمان) 18 جويليه 1933

حدائق شـارع باريس

الحي اللاتيني في باريس يزخر بعدد عظيم من الأجانب، ويسمع السائر في بولفار سان ميشال جميع لغات العالم عدا اللغة الفرنسية التي يسمعها من باعة الصحف. والحق أن الفرنسي تتأزم أعصابه عندما يرى مختلفي الوجوه والألوان الذين جاءوا لطلب العلم، يسيرون متأبطين معاصم الغادات البـاريسيات ويقضون الليل ساهرين معهن في المراقص وأمكنة اللهو وهو يذهب مدفوعاً إلى النوم ليقوم إلى عمله في الساعة الخامسة.

في إحدى الليالي الجميلة كانت الحركة المستمرة في هذا البولوفار إلى الساعة الثانية صباحاً، وكان فتى فرنسي من الجنوب طويل القامة يميل لونه إلى السمرة واقفاً على زاوية بين بولفار سان ميشال، وشارع المدارس يستعرض الرائجين والغادين. فاقترب (ستورم) بخطوة واسعة وأدنى منه وجهه قائلاً بحنق وغيظ:

ـ هل تريد فتوغرافيتي أيها السيد؟ أجب هل تحتاج إلى فتوغرافيتي؟

ـ ولم تسأل هذا السؤال؟

ـ لأني أراك تحملق في كالحيوان، كأنك لم تر إنساناً في حياتك...

ـ يا هؤلاء المتشردين قبل أن تبارحوا بلادكم تعلموا الآداب فتعلموها هنا إن كنتم خالين منها، لقد كثرتم كالطاعون والوباء، ودنستم هذه البلاد بأقذاركم وأرماسكم.

فانخلع قلب صاحب المعطف لهذا الهجوم، والتفت إلى صديقه كأنه يستنجده، فما كان من الصديق إلا أن أطرق ونظر إلى الأرض، والتهى بقشرة

موز أخذ يدعكها بقدمه. وهنا تقدمت فتاة إلى (ستورم) قالت بلهجة غاية في الرقة والحنان مشيرة بيدها الصغيرة إليه وإلى صدرها البديع:

ــ لم ألاحظ أيها السيد أن الفتى يقصد إساءتك حتى تغضب إلى هذا الحد.

فقال ستورم:

ــ اسمحي لي يا مادموازيل أن أقول لك انك مصحوبة باثنين من أقذر الخلق، وأسفه الناس، وما كان لمثلك مع ما يلوح عليك من شرف ونبالة أن تبقي إلى هذه الساعة مع هؤلاء الأشرار، ولا أدري متى تتحرر الفرنسيات في مصاحبة كل من هب ودب.

فقالت الفتاة واضعة يدها على كتف ستورم:

ــ أؤكد لك أنهما ليسا كما ظننت فهما طالبان، أعرفهما من مدرسة الصحافة، وأقابلهما صدفة، من وقت لآخر، وأنا آسفة إذا كنت أسأت الفهم وظننتني على غير حقيقتي. لقد كنا مدعوين إلى حفلة رقص أقامتها جماعة من الطلبة، والآن سيذهب كل منا إلى بيته.

ونظرت في ساعة يدها وأتمت:

ــ هيا الآن فهي الساعة الثالثة والنصف، ثم اتجهت إلى شارع المدارس والشابان يتبعانها. وقال ستورم وهو يسير معهم:

ــ الواقع أنني لا أريد مضايقة الناس، ولا يهمني الدخول في شؤون الطلبة لا سيما وأني عامل أحمل رزقي بيدي غير أن...

فقاطعه صاحب المعطف:

ــ إذن أنا أشكر هذه الفرصة السعيدة التي سمحت لنا بمعرفتك فأنا أدرس أحوال العمال ومشاكلهم، وأكرر لك الاعتذار الذي أبدته لك مدموازيل اندريه، واسمح الآن أن أقدم لك سيقاراً.

فقال ستورم وهو يجذب السيجارة من العلبة:

ــ هل هي تسمى اندريه؟
ــ فأجابته الفتاة:
ــ اندريه نعم اندريه.

ورأى ستورم أن هجومه قد أتاه بالفائدة المطلوبة، وهي صداقة هؤلاء والمطامع الغرامية تتحقق عادة من طريق الصداقة والمصافاة أكثر مما تتحقق بواسطة العداوة والتباغض، فانبسطت أساريره وتهللت نفسه وقال مخاطباً الطالبين:

ــ استيقظت من نومي في الساعة الرابعة بعد الظهر.
فقال الطالب الفضولي:
ــ وأنا استيقظت في الظهر تماماً.
ستورم:
ــ وأول حادثة صادفتني اليوم هي أنني وقفت على كونتوار إحدى القهوات وشربت قهوتي، ثم أعطيت الجرسون عشرة فرنكات، وانتظرت بقيتها ربع ساعة وإذا به ينكر أنه أخذها، وبدأ يطالبني ثانية بثمن القهوة. والحادثة الثانية خطاب جاءني من أختي المقيمة في «الآرل» تخبرني بوفاة زوجها ولها منه أربعة أطفال. والحادثة الثالثة كادت تذهب بحياتي حيث انقفلت أبواب مركبة المترو على طرف جاكتتي فما خلصتها منها إلا ممزقة واضطررت للرجوع إلى المنزل لتبديلها.

فقالت الفتاة:
ــ وأين تسكن.
ــ أسكن في حي إيطالي.
ــ إذن طريقك هو نفس طريقي.
ــ حسناً ها نحن سائرون... أما الذي طم وعم وختم الشر، فهو أني انزلقت على ظهري حيث عثرت في بصقة إفريقية كانت على الأرض كالفخ المنصوب للعباد، وذلك قبل أن أراكم بلحظة قصيرة.

وكانت الفتاة تضحك لكل هذه الأحاديث ضحكات موسيقية يتطاير منها الفرح، ويتضاحك الطالبان بتكلف. وفي قلبيهما الشيء الكثير من الضجر والحقد.

ولم تكن أحاديث ستورم إلا اختراعات يتوسل بها للاتصال بالجماعة، وكانت الفتاة تفهم ما يرمي إليه.

وفي هذه اللحظة وقف الطالب الفضولي واستأذن في الانصراف، فصافحوه ومضى لشأنه ولم يبق إلا الآخر وأمره ليس بالعسير. فقال له ستورم:

ــ وأنت أين تسكن؟

ــ فأجابت الفتاة عنه:

ــ ها هو اقترب من مسكنه في هذا الشارع الذي سيقابلنا على اليمين.

ــ وكان الجماعة قد اقتربوا من (الجردان دي بلانت) وحولها الفجوات الواسعة والسكون المطلق الذي ينشده العشاق وتخفق فيه قلوبهم.

فقالت الفتاة:

ــ إني خائفة . . .

ورأى الطالب نفسه غريباً بين وطنيين، وانه إذا ألح في صحبتهما فقد يكون نصيبه ضربة تلقيه صريعاً إلى الصباح.

فقال بلطف للفتاة:

ــ لا خوف عليك، فها هو صاحبنا يشيعك حتى منزلك، فأجابه ماداً يده لتوديعه أو لطرده.

ــ لا تشغل بالك واطمئن عليها . . . أورفوار.

وذهب الطالب يتعثر، والنار تشتعل في فؤاده، وقد اختفى في الظلام، ووقف خلف شجرة فرأى ستورم يطوق خصر البنت بذراعه وقد ألقت جسدها عليه واتجها إلى أسوار الحديقة.

جريدة (الزمان) 7 مارس 1933

زنـــوج بـــاريس

اليوم يوم الأحد الرابع من زواج المسيو سيجالا الأستاذ بإحدى الجامعات الشهيرة، وقد اضطجع على مقعد ضخم يطالع جريدة، بينما زوجه الشقراء الطويلة القامة تصلح هندامها على المرآة استعداداً إلى نزهة نهارية. وكان الرجل وهو يطالع الجريدة يختلس النظر لزوجه وهي منكبة في إصلاح هنـدامها، ويعجب بنحرها المشرق الشاهق المتصل بصدر مرمري ينسدل عليه ثوب من الحرير الأزرق، تلمس أطرافه الأرض، وكانت تتأود وتتثنى أمام المرآة لترى شكل ردفها، وحركة خصرها، وإشارة يديها، وعلى شفتيها علامة الرضى التام. نظرت آخر نظرة في المرآة لتعرف مدى سحر عينيها الخضراوين الناعستين، ثم قالت لزوجها:

ـ إلى أين تذهب اليوم يا عزيزي؟

فأجاب:

ـ كما تريدين.

نعم كما تريد فالرجل في الأربعين من عمره والسيدة في الخامسة والعشرين ولا يزالان في بدء العشرة الزوجية، واليوم تقريباً آخر أيام شهرالعسل إلا أن المجال لا يزال يسمح بالنزهة واللعب والسهر الطويـل في مختلف الحفلات والمجتمعات، هذا بالرغم عن أن الرجل يشتغل في الفصل الأخير من كتاب يضعه عن الاشتراكية، يرمي فيه إلى وجوب المساواة ين الشعوب ونشر السلام.

فقالت لوسيان بدلال:

ـ أريد أن أرى هنا الذي يسمونه مرقص الزنوج، يقال إني باريسية

والحال أنني لم أزل بعد بنت الجنوب، بل أكاد أكون من حريم الشرق، يقال إن مرقص الزنوج مضحك سارّ هيّا بنا الليلة.

فأجاب:

ــ إن لدينا الوقت الكافي لنطوف بسيارتنا في غابة (فانسين) ثم نعود لتناول العشاء هنا.

فقالت:

ــ يمكننا تناول العشاء هناك في حي مونبارناس.

ونادت خادمتها:

ــ جرمين، لا داعي لتحضير العشاء الليلة، واقفلي النوافذ وجميع الأبواب فربما حضرنا متأخرين.

ــ سمعاً وطاعة.

والمعروف في الأوساط العالية أن الكلمة الأولى داخل المنزل للمرأة وحدها، وكان الموسيو سيجالا يمثل الرجل الفرنسي الوديع الطيب القلب والذي لا يستكثر عليه لقب ولي الله.

ابتسم بفلسفة، وقال لزوجته وهو يقلب أوراقاً أمامه:

ــ من غرائب اتفاقنا في الأفكار أنك تفكرين في الذهاب إلى مرقص الزنوج، بينما أنا أكتب فصلاً طويلاً عن المعاملة التي يعامل بها هؤلاء التعساء في أمريكا، وما كانت الإنسانية لتصاب بالمحن والبلايا بمجرد اختلاف الألوان.

قالت السيدة:

ــ نحن الآن في فرنسا. دع الأمريكان يفعلون ما يريدون والآن قم....

بعد دقائق كانا في سيارتها الخاصة، والسيدة تسوقها واضعة على عجلتها ساعديها اللذين يسكوهما قفاز أبيض، وهي تنساب ين أقسام الأشجار دون أن تفوه بكلمة، ولا يدري أحد لأي شيء كان قلبها يخفق، كمن ينتظر قدوم حبيب أو البشارة بعرش من العروش.

ولما وافت الساعة الثامنة اختارت أشهر مراقص الزنوج في (مونبارناس)، وقد امتلأ برهط من سود الألوان بملابس الفراك و(السمو ـ كنج) وجلس منهم جماعة على منصة العزف، وكانت الموائد على وشك الامتلاء بمختلف الغانيات والراقصات ومعظمهن من النرويجيات والسويديات وباقي الأمم الشمالية التي سئمت الثلوج، ولجأت إلى حيث توجد الحرارة الأفريقية، فاختارت لوسيان إحدى الموائد وتبعها زوجها في طاعة وتواضع.

وأخذت وفود الزنوج ترد فرادى ومثنى على المرقص. منهم من جعل الرقص حرفة يعيش منها، ومنهم طلبة تومباكتو، ومدغشكر لدرس الطب والحقوق، وكلهم غير مقصر في لبس أحدث «الـمُودَات»، وأضخم الملابس، قد كادوا يحتكرون غرام الغانيات في هذه المراقص، وقلما ترى زنجياً في باريس يماشي رجلاً أوروبياً، ولكنه يتأبط ذراع فتاة تتلهف عليها الأنظار، وتشتهيها القلوب.

صفت كؤوس الكوكتيل وشربت مدام سيجالا في (صحة زوجها) ثلاثة أقداح، وكانت أدوار «البيقين» تعزف تلو بعضها والزنوج آخذين بخصور الفتيات والأجسام تتحرك بعنف وحرارة. ومدام سيجالا لا تزال في دور الفرحة، ولم تخاطب زوجها أثناء هذه المدة بأي كلمة، بل كانت تنظر إلى الشماليات وهن مرتخيات الأعضاء بين أذرع الزنوج، وكانت تطيل النظر إلى شاب كأنّه مخروط من الصوان الأسود اللامع، منتصب القامة، يبدو رسغ يده كرسغ الثور الضخم تتعلق به شقراء بولونية كانت ترقص معه في كل دور، وهو لا يهتم ذلك الاهتمام الحماسي الذي يتجلى في قاعات الرقص، ولم يغفل بدوره عن تحديق عينيه الملتهبتين إلى سيدتنا مدام سيجالا. ولما عادت الموسيقى قام كل منهما متجهاً إلى الآخر، فما قبض الزنجي على خصرها والتصق جسمه الساخن بيديها حتى شعرت بغشية من اللذة لم تعرفها في حياتها. وكان الزنجي راقصاً بارعاً فوقع في قلبها موقع الفنان الماهر قبل الرجل المشتهي. ولم يمض دور الرقص عبثاً بل وقع التعارف في همسات خفيفة وتصريحات ظريفة فلما سكتت الموسيقى صحبته إلى المائدة التي يجلس عليها سيدنا سيجالا وقدمته إليه:

ـ عزيزي، أقدم لك الموسيو سامبودا الدكتور في الحقوق. . .

فلم يسع الرجل غير مقابلته بالتحية والإعظام، كما تقتضي الديمقراطية التي يدين بها، وكان الزنجي رغماً عن اشتغاله برسالة الدكتوراه سطحي الفهم كجميع الزنوج، أو هو بعبارة أوضح فردي الذكاء، يبني معاملته بين الناس على ما يأخذه منهم وما يعطيهم إياه.

ودار الحديث هنيهة في المسائل العامة حتى انتهى إلى موضوع كتاب الموسيو سيجالا، فقالت لوسيان للزنجي:

ـ لنا الشرف أن تزورنا في بيتنا لتطـلع على كتابنا، وهناك نمرة البيت ونمرة التليفون. . .

وعاد دور الرقص ولكن الزنجي ظل جالساً ورقصت البولونية مع زنجي آخر، وتعمدت المرور أمام صاحبها، وحدجت لوسيان بنظرة كريهة. . . وكانت الساعة الحادية عشر والنصف حيث دخل جماعة من رعاع البولونيين، ومختلف أنواع العاطلين ممن يقضون حياتهم متسكعين في المراقص، فأشار موسيو سيجالا على زوجته بالانصراف بعد أن ألحّ هو بدوره على سامبودا في زيارتهم ليطلعه على الكتاب.

كان من عادة الموسيو سيجالا الدخول إلى بيته في الساعة الواحدةوالنصف بعد الظهر حيث يتناول غذاءه ويستريح قليلاً ثم يعود إلى عمله، ولكنه دخل يوماً على غير عادته في الظهر تماماً فإذا به يرى المسيو سامبودا جالساً في قاعة الاستقبال بجانب البيانو والسيدة لوسيان تشنف سمعه الشريف بالمقطوعات الكلاسيكية.

فلم يسع الرجل إلا أن يدعوه لتناول الغذاء، وبعد شـرب القهوة والمؤانسة، قام بحسن نية وأحضر مسودات الكتاب ليقرأ على سامبودا بعض فصول منه، فقالت الزوجة:

ـ إن الموسيو اليوم في ضيافتنا ولا أرى من اللائق إزعاجه بالمطالعة

والبحث. أجّل هذا إلى فرصة أخرى دعني أسمعه الموسيقى، فهو خبير بها حسبما أرى.

فرضخ الرجل وكان عليه أن يجلس في مكتبه ليتم عملاً هو الذي أنني به مبكراً في هذا اليوم، وكان بين مكتبه وقاعة الانتظار باب مفتوح فاستأذن وذهب إلى مكتبه، وبقي الزنجي في الصالون يسمع الأنغام مرة ويطالع على المجموعات المصورة مرة أخرى. وظهر للسيدة أن تغلق الباب الذي بين الصالون والمكتب وبالمفتاح أيضاً، وظل الموسيو سيجالا يراجع أوراقه ولا يزعجه غير صوت البيانو. وكلما سكت هذا البيانو وجد راحة تمكنه من التفرغ لعمله، والحق كانت للجميع، وحانت الساعة الخامسة فقام ودق على الباب بأدب وظرف ففتحت لوسيان الباب، وقالت بنغمة عذبة:

ـ انتهيت يا عزيزي؟

فقال:

ـ وأنت؟

جريدة (الزمان) 21 فيفري 1933

«أوتيل»[1] أبـي القـاسم

يقع «أوتيل» أبي القاسم ي شارع (سان ميدار) المشهور في باريس بأنه الشارع الوحيد الذي تحتاج مبانيه القديمة المشوهة إلى الهدم وإزالتها من الوجود.

هذا الشارع قصير لا يزيد طوله عن مائة متر يعج في عصر كل يوم بخليط من الأجانب معظمهم من العرب يجتمعون حلقات على سلع معروضة على الأرض للبيع مثل «القلاسط»[2] القديمة، والسراويل القذرة، وأحذية للنساء والرجال كلها مخرقة أو مرقعة...

أما «الأوتيل» فهو يتألف من ثلاث طبقات يعلو بعضها بعضاً، وقد اشتراه قبل أبـي القاسم كثيرون من اليونان، والروس، والأرمن، ولم يسعد بشرائه أحد منهم إلا أنه وهو في قبضة أبـي القاسم الذي جمع الثروة من كد يمينه أصبح «أوتيلاً» له بعض القيمة، إذ يسكنه عدد كبير من العمال العرب ويحتلون مقهاه ليل نهاراً، وإن التفتتْ إليه أعين البوليس أكثر من ذي قبل، إلا أن منظره ازداد كآبة، فأغطية «الدانتيلا» التي كانت على مصراعي الباب سقطت واحدة منها وبقيت الأخرى قذرة مائلة، و«الكونتوار»[3] الزنك علاه الوسخ وفوقه الأكواب والكؤوس القذرة لا تتغير، والمصابيح كساها الغبار ونقشها الذبان

(1) نزل أبو القاسم (Hotel).

(2) الجوارب.

(3) المقصف.

كما يريد، والموائد قد جلس على الواحدة منها سبعة أو ثمانية أشخاص فيهما اثنان يلعبان الكارطة[1] مدى عشر ساعات على ثمن القهوة التي شرباها والباقي متفرجون، وعلى الأخرى جماعة من العاطلين عن العمل بعضهم أخذه النعاس، والبعض اعتمد برأسه على راحته غارقاً في التفكير.

هذا وأبو القاسم يجلس أو يقف خلف «الكونتوار» وبين عينيه عبسة يتعمدها حتى في ساعة المسرَّة، لأنه رأى البشاشة لنزلائه تكلفه أجور السكنى وثمن الطعام الذي يقدمه لهم.

جاءت الفتاة (تريز) من مقاطعة (الوزالي) باريس تشتغل في أحد المصانع، ومنذ غادرت المحطة وهي تطوف في شوارع باريس بحقيبتها الصغيرة باحثة عن «أوتيل» يقبلها بأجرة أسبوعية زهيدة إلى أن تجد العمل، ولم يكن معها من النقود أكثر من خمسين فرنكاً لا تشجع على الأوتيلات النظيفة.

وليس غير الحظ السيىء الذي يقود مثل تلك الفتاة إلى شارع «سان ميدار»، وترى أوتيل أبي القاسم فتؤمل فيه الخير.

أبصرت (تيريز) من خلف (الدانتيلا)[2] تلك اللوحة التي يعلق فيها أصحاب الأوتيلات مفاتيح الغرف ففتحت الباب ودخلت تقول، وهي لا تعرف صاحب القهوة من غيره:

ـ هل يمكن استئجار حجرة صغيرة بالأسبوع؟

فأجابها معظم الجالسين:

ـ موجود.

وتناول أبو القاسم عدة مفاتيح من اللوحة وصعد إلى أعلى الأوتيل من بابه الداخلي الكائن في القهوة والفتاة تتبعه.

كان أبو القاسم هو الذي يتولى بنفسه كنس الحجرات وترتيب فراشها،

---

(1) الورق.

(2) الستائر.

ويرى هذا العمل ثقيلاً على نفسه، وكان في معظم الأحيان يتركه للسكان لا سيما الذين لا يدفعون الكراء بسهولة. وهو في هذه اللحظة يشعر بالخجل والحيرة أمام هذه الزبونة الفرنسية الأولى من بنات جنسها التي تشرف الأوتيل، فهداه التفكير إلى حجرة في الدور الثاني، فدنا منها ليفتحها وكانت لحسن الحظ مفتوحة لأن مفتاحا ضائع وأكرتها مكسورة، ولم يكن على سريرها الحديدي المبعوج إلا «جراية»[1] من الخيش الكثيف لا يسترها ملاءة ولا مفرش.

قال أبو القاسم لتيريز التي كانت عيناها تجولان في أنحاء الغرفة كأنها تتفقد اللوازم الضرورية مثل الإبريق والسطل والبشاكير:

ــ الغرفة ليست معدة بعد... وسنحضرها لكم هذا المساء إذا أردتم. أما أجرتها فهي عشرون فرنكاً في الأسبوع لا غير.

فدفعت تيريز الأجرة وهي تبتسم من الفرح، وخرجت لتقابل زميلة تعرفها لتتوسط لها في العمل بمعمل الشيكولاتة الذي تشتغل فيه منذ مدة طويلة.

في هذا المساء ساد القهوة شيء من النظام والهدوء، وبدلاً من أن يطلب الزبائن أدوات اللعب ليصخبوا ويصيحوا أكثروا من طلب القهوة وكؤوس الشراب. شعر أبو القاسم بشيء من الهناء والارتياح وكان في العادة يؤخر عشاءه إلى الساعة التاسعة مساء ليتعشى مع صديقه عبدالرحمان، وهو عامل نشيط يربح من أحد مسابك الحديد ثمانين فرنكاً في اليوم، ويسكن أحسن غرف الأوتيل، يتناولان العشاء وحدهما على مائدة فوقها من المآكل والأشربة غير ما يباع للزبائن.

وفي نحو الساعة العاشرة دخلت (تيريز) وحيت الجالسين وتناولت المفتاح من اللوحة، وقبل أن تصعد طلبت كأساً من البيرة ووقفت على الكونتوار تشربه جرعة بعد أخرى، وتتصفح وجوه الجالسين وكان عبدالرحمان في تلك اللحظة يعزف على ماندولين:

---

(1) حشية.

عندِي عليك شهود حقّي بايِنْ   بعد المحبة خفْتني يا خاين

وقال أبو القاسم لتيريز عندما همت بالصعود:

ـ أرجوك إطفاء مصباح السلم بعد الصعود.

عاد أبو القاسم إلى المائدة ليتم العشاء، وفتح في عشائه هذا ثلاث ليترات من الشراب، وأجاد عبدالرحمان في اللعب على الماندولين كأنه يحاول أن تصل نغمات أوتارها إلى غرفة (تيريز).

ولكن الجالسين كانوا يتسللون الواحد بعد الآخر إلى غرفهم وكل منهم يحاول كتمان ما يدور بخاطره.

وقام أبو القاسم وعلق المصابيح الخشبية على باب البار الخارجي، وفتح باب الأوتيل وهي العملية التي يقوم بها كل مساء وقد عجل بها هذه الليلة لكي لا يخالفه البوليس على الموسيقى التي تسمع من عنده بعد الميعاد القانوني.

وفي نحو منتصف الليل كان أبو القاسم وعبدالرحمان وحدهما في «البار» تحت مصباح واحد مشعلاً قريباً منهما.

قال أبو القاسم لزميله بدون ولا تمهيد:

ـ تشعل.

وهي كلمة رشيقة يعود الضمير فيها إلى تلك الفتاة الريفية الموردة الوجه الممتلئة الجسم، والتي تشتعل كقطعة الماس أو قطعة الذهب أو الشمس أو القمر.

فأجابه عبدالرحمان الذي لم يكن ينوي المبيت في حجرته في تلك الليلة لارتباطه بموعد في الخارج. :

ـ صحة ليك يا بالقاسم.

قالها ثم تثاءب وغادر القهوة من باب الأوتيل.

لما صعدت (تيريز) إلى غرفتها وجدت الباب مفتوحاً كما تقدم، ووجدت

الفراش في حالة مقبولة، وبجانبه كرسي فوقه بشكير نظيفة فاكتفت بذلك. وأغلقت بابها وأسندته من الخلف بالكرسي ثم اندست في الفراش وهي تشعر بتعب شديد من السير على قدميها في شوارع باريس التي تزورها لأول مرة في العمر.

إلا أنه لم تسر حرارة جسمها في الفراش حتى اجتمعت عليها جيوش من البق والقمل تلدغها لدغاً مؤلماً، وتردد هي الألم بآهاتها النسائية فسمع من خارج الحجرة كأنها آهات غرام ووجد وهيام.

ووقف أبو القاسم وحده في «البار» ينظر إلى الأرض المغطاة بالأقذار ويسائل نفسه هل يكنسها قبل النوم كالعادة، أو يرجيء الكنس إلى الصباح؟

وصعد على السلم ليراقب الطريق فقابل شخصاً من سكان الطابق الأولي نازلاً من الطابق الثاني، ولما صعد إلى الثاني أبصر اثنين آخرين تظاهر أحدهما بالصعود إلى الدور الثالث، وتظاهر الآخر بالذهاب إلى المرحاض، فنزل ثانية إلى «البار» وشرب كأسين متواليين من «الروم»[1] الذي يفضله دائماً على غيره من المشروبات الحارة ثم أشعل سيقارة ووقف بجانب السلم يصغي لما عسى أن يكون من الحركة، فإذا بها تزداد من خشف النعال والسعال، وصوت فتح الأبواب وإغلاقها فرأى أن يغلق الأنوار جميعاً من الزر العمومي المثبت بجانب لوحة المفاتيح فأغلقه بعد أن تمتم بكلمات السخط والتأفف بصوت عال اعتاده منه سكان الأوتيل عندما يغضب وفعلاً هدأت الحركة تماماً، فرفع الفوطة[2] ثم أطفأ شمعته ونام.

وخرج أبو القاسم إلى غرفة تيريز فسمعها تغط في النوم فصعد إلى غرفة عبدالرحمان التي تفقدها منذ لحظة وعرف أنها خالية فسمع شخيره عالياً وقد دخل ولم يشعر به.

---

(1) نوع من الكحول المدفئة.
(2) قطعة من القماش تستعمل لستر الجزء الأسفل من الجسم وأحياناً كغطاء للنوم.

وكان هو أيضاً قد غلبه الشراب و«الروم» والتعب فأغلق حجرته ونام.

في صباح اليوم الثاني لم يذهب عبدالرحمان إلى المسبك، ونزل إلى «البار» في نحو الساعة الحادية عشر وهو يشعر بالجوع فقال لصديقه الحميم:

ــ أيش عندك ماكله.

فأجابه بجفاء:

ــ ما زالت الماكلة.

فطلب فنجاناً من القهوة فقدمه له دون أن يكلمه.

فدهش عبدالرحمان مما يرى وسأله:

ــ إيش بيك اليوم يا سي...؟

فنظر أبو القاسم إليه شزراً ثم تناول زجاجة فارغة وقال وهو يهوي بها على جبهته:

ــ ما تعرفش إيش بيه اليوم؟

جريدة (الشباب) 29 جانفي 1937

الجـــارة المجهولـــة

كنا في مجلس يجمع عدداً من الأغنياء والسّراة الممتازين نخوض في أحاديث تجلب النوم فانقض علينا فتى ظريف الحديث معروف بخفة روحه وقال: إني سأذهب عنكم النوم بقصة الجارة المجهولة ولكل منكم جارة مجهولة بلا شك.

«في يوم من أيام رمضان قعدت إحدى الشابات في مسكنها الحقير، وفي حجرها طفل ينهش ثديها الضعيف بقوة وعنف وهو يبكي. وليس في ثدي المسكينة ما يبل جفاف حلقه وقد أطرقت غارقة برأسها في محيط من الهم والغم. وكانت بين الآونة والأخرى ترهف أذنها نحو الشباك العالي الضيق لتسمع حركة ابنتها وولدها الآخر وهما يلعبان أمام باب الدار. وعندما يهجع الرضيع تطل من النافذة فلا ترى أمامها غير جدار دار فخمة شامخة البناء تظهر في أعلاها شرفة جميلة الصنعة، وقد مالت الشمس للغروب والناس يهرولون إلى بيوتهم قبل انطلاق المدفع فيزداد كربها لاقتراب الليل، إذ يدخل الطفلان عليها يطلبان الطعام الذي لم يذوقاه طول النهار، ويعـللان النفس بأنهما صائمين كالكبار. والمرأة في هذه الساعة تعلق أملاً كبيراً على صديقة لها ترسل إليها من يوم إلى آخر صحناً من الطعام، وتتمنى أن يلهمها الله بإرساله في هذه اللحظة، فليس عندها سوى كسيرات من الخبز اليابس عرضتها في النهار على الطفلين فعافاها، ولكن المدفع انطلق ولم يدخل عليها غير ابنها وابنتها، والواقع أن الجوع كان قد برح بهما فرضيا بجرش ذلك الخبز اليابس، وكانت الطفلة تمضغ لقمتها تقف عن المضغ وتسأل أمها:

ــ لماذا لم ترسل السيدة فلانة صحن كسكسي كالأمس؟ بينما الولد يلفت أنف أمه إلى الروائح الشهية التي تفوح من عند الجيران.

وليس هو اليوم النحس الوحيد الذي مر على هذه الشابة في رمضان، فقد كان الشهر غير مبارك عليها حيث سكنت في اليوم الأول منه ذلكم المسكن الحقير، بعد أن طلقها زوجها وفي يدها خمسة عشر فرنكاً، وقد جادت عليها بعض ديار الصدقة الأجنبية بشيء من الملابس لأولادها وببعض الحسنات الأخرى، ولكن هذه الديار لا تتصدق كل يوم، واسمحوا لي أن أحدثكم عن زوج هذه المسكينة إنه رجل «حرايري» لا بأس بمكسبه، وكان معروفاً بين زملائه بالذكاء والفطنة وهو الوحيد بينهم الذي يعرف القراءة والكتابة، إلا أن الذكاء إذا لم تصحبه الثقافة أضر بصاحبه أكثر من الجهل، فقد رأى نفسه أرفع من أن يكون من طبقة العمال فهام على وجهه يفتش عن الوسط الذي يليق بالأذكياء وحملة الأقلام، فهو مرة رئيس منتدى أدبي، وطوراً سكرتير عام جمعية كذا، وأحياناً ممثل أو مراسل جريدة عربية في بيت المقدس أو بومباي، وكانت السيدة تشعر أن سلوكه هذا سيقرب العائلة من الشر، وكثيراً ما نصحته عندما يدخل عند الفجر مثقل الجسم من تدخين (التكروري)، فيكيل لها السب حتى تشرق الشمس وينام إلى أن يوقظه أحد الرصفاء الأفاضل؛ الحقيقيين أو الممثلين وسالت الدريهمات التي كان يدخرها، وازداد صخب المرأة وإلحاح الأولاد في المطالب، فرأى أن يتخلص منهم جميعاً ويتفرغ للاشتغال بالمسائل الاجتماعية... وقد اختبلت أعصابه من إدمان (التكروري)، ورضي من معيشته بين إخوانه بلقب أستاذ وفطيرة زلابية يدعوه إليها أحد المعجبين به.

أظلم الليل وخرج الناس للسهر ويعلم الله أن الجوع والطفل يعذبانها منذ ثمانية وأربعين ساعة حتى بلغت دور الذهول الذي ينتهي إليه الجوعان، وتواردت على مخيلتها خواطر يتلو بعضها بعضاً...

قد خرج الجيران كلهم أو بعضهم ومسكني قريب من الباب فلن يراني أحد إذا خرجت...

خروج المرأة في الليل أمر عادي في رمضان.. نعم أخرج.

أخرج وأطلب الصدقة من الناس ومن الذي يعرفني في حجابي؟ ولكن الأولاد يعرفهم الناس ويستدلون بهم على حقيقتي.

وأفاقت المرأة أيها السادة من ذهولها (وهنا كان أحد السادة يميل برأسه النعاس، والآخر يطلع جريدة واثنان يتكلمان ولم يبق منهم غير واحد يستمع القصة ويتثاءب) فرأت الطفلين منطرحين على الحصيرة وقد استولى عليهما النوم والتوى أحدهما على الآخر. فنشطت أعصابها وهمت بتنفيذ فكرتها، فالتفت بمئزرها وتقنعت وحملت الصغير على ذراعها، وخرجت متلصصة حتى بعدت عن الحي. ولكن العزيمة القوية التي أوحت إليها بفكرة التسول قد خانتها في هذه اللحظة. وشعرت بالخذلان والحيرة ولم تعرف أي الطرق تسلك ولا أي الناس تسأل، كانت تجتنب الطرق الكثيرة المصابيح والحوانيت وتختار الطريق المظلم، وربما رأته ضيقاً طويلاً فتعود منه خائفة وترى الرجال يسيرون جماعات فتتحاشاهم حياءً وخجلاً، وتتوسم الخير في شخص يمشي وحده فتهم بسؤاله ولكن لسانها ينعقد، وتشعر بقوة تبعدها عنه.

ولفت نظرها شيخ جليل الطلعة وقف أمام داره محاطاً بثلة من الشباب يصافحونه وينصرفون وكأنهم يشيعونه إلى بيته، فلما صار وحده اقتربت منه السيدة وطلبت إحسانه بصوت متهدج فأدخل الشيخ الوقور الحسن الهندام يده في جيبه، وأطال البحث والفحص وقبض على قطعة من النقود ووضعها في يدها بستر واحتشام.

فلما اقتربت من النور رأت في يدها (صولدي) وقد مضى عليها أكثر من ساعتين وهي تطوف تحت الرذاذ والصقيع، وهمت بالرجوع إلى بيتها مقتنعة بالرزق الذي حصلته في أول يوم من صناعة التسول. وإذا بالمطر ينهمر والرياح تصفر كأنها أصوات الجان، فلم تجد مكاناً يقيها المطر حتى غرق مئزرها الأبيض الرقيق وأرعدها البرد فلم تعبأ به، وإنما كان كل همها في تدفئة الطفل وأخذ الناس يمرون مسرعين كأنهم هاربون منها لا من المطر.

ومر رجل من المعروفين في المدينة بوجاهة شكله، ونبل بيته، وعظم مركزه فسمع هذه تتمتم بكلمات متقطعة، وتتلفت بذل وضعف فاقترب منها وقد راعه أن يرى هذا الشيخ الجديد بين جماعة المتسولين، ورأت هي بريق الشهامة يسطع في عينيه فانطلق لسانها يشرح حالتها، فبادر الرجل إلى ورقة ذات خمسين فرنكاً ووضعها في يدها. فكادت تجن فرحاً وانطلقت في سبيلها قبل أن تشكره.

وسار الرجل بعدها وهي تسير أمامه تسلك نفس الطريق الذي يسلكه إلى بيته وقد وقفت على بعض الحوانيت، واشترت مقداراً من الخبر وغيره، واستمرت حتى دخلت باب دارها وأغلقته فوقف هذا يتأمل فأبصر النور يلعب من النافذة الصغيرة، وسمع الأطفال يتصايحون مرحبين بالخبز والمأكولات فابتسم ابتسامة مطمئنة وهز رأسه هزة من ينوي عمل شيء ودخل داره الفخمة ذات الشرفة الخضراء...».

فقال الذي يسمع وهو يتثاءب الآن طمنت قلبي لأن المرأة تعشت هي وأولادها...

جريدة (الزمان) 23 جانفي 1933

الســـكـــران

السيد عبدالسلام رجل أربى على السبعين من السنين، ولا يزال منتصب القامة، تحيط بوجهه المورد لحية ناصعة البياض، وعلى رأسه عمامة منسجمة اللف، تدل على ذوق سليم يغطيها برنس أبيض نظيف، غير أن جبته التي يبالغ في سترها تدل على رقة حال، وفاقة ظاهرة لما فيها من خروق وأوساخ، ويطلع على من لا يعرفه فيحسبه أحد الأعيان الذين أخنى عليهم الدهر، وإن وجدت في طريقك من يجيبك بأدب أروستقراطي ويستمر سائراً في وقار واحتشام فتأكد أنه السيد عبدالسلام.

مشى يتبختر في شوارع المدينة فأبصر داراً مفتوحة، وفي دهليزها بعض سكانها يتهيأون للخروج، وكان مظهر الدار وهيأة الواقفين تنبيء عن اليسر والخير فاقترب ووقف بالباب حتى سده، فتقدم له صاحب الدار مستفهمًا عن حاجته فقال ما معناه:

ــ يا ولدي حفظ الله عليكم مجدكم، وأدام عزكم وأعاذك من موقفي الذي تراني فيه شيخاً قعد به الدهر، وأفنى مالّه وقوته، وذهب بطريفِه وتالده. أنا يا ولدي في حاجة إلى ثوْب يستر العورة، ويحفظ الكرامة، وإلى كسيْرة تسدّ الرمق، وتطرد المسبغة، وشرّ المصائب التي تنزل بالمرء هي العوز والشيخوخة يا ولدي العزيز...

فكادت الدموع تنهمر من مآقي صاحب الدار وأطرق لحظة ثم قال:

ــ لا بأس عليك سيكون لك في هذه الليلة كل ما يرضيك، ارجع إلينا بعد صلاة المغرب.

فانصرف السيد عبدالسلام وهو واثق موقن من نجاح مطلبه بعد أن نفحه الرجل بخمس فرنكات وصعد صاحب الدار إلى الحرم، وأخذ يفحص عما في تركات الأجداد من برنس مناسب وجبة تصلح للبس، وحذاء لا يزال سليمًا، وجمع كل هذا في سرة نظيفة ثم مضى مع إخوانه إلى حيث كانوا يقصدون.

وفي الساعة السادسة أي قبل المغرب بمدة طويلة عاد صاحب المنزل لانتظار الرجل المسكين، وأعاد فتح السرة ليزيد فيها ما يمكن زيادته ويبعد عنها ما لا يناسب مقام هذا الشيخ، وأخذ يعد ما تيسر من الأوراق المالية الصغيرة ليدسها في يده برفق ولطف.

وكانت أمام المنزل حومة صغيرة اجتمع فيها عدة من الرعاع والأوباش تختلف أعمارهم بين العشرين والخمسين، يلعبون القمار بورق يلقونه على الأرض مقلوباً، ويتصيدون المارة لسلب نقودهم، وجعلوا يصخبون ويتشاتمون بأصوات منكرة مزعجة، وظهر فيهم صوت فاقَ أصواتهَم في الارتفاع والصخب حتى لم تعد الأذن تسمع سواه، وقد كان الصوت قوياً كأن صاحبه يتكلم من بوق فونوغراف، أما عبارته فهذه ترجمتها.

«ألا تعلمون من أنا؟ لا بأس فها أنا أعرّفكم بنفسي.

أنا الرجل الذي يعرفه الكبير والصغير في تونس عامة، وفي هذا الحي خاصة.

أنا الذي تقلب في العز، وتسنّم ذرى المجد وورث الشرف عن الآباء الذاهبين والأجداد الغابرين ولا زلت بحمد الله تعالى.

نعم أيها الأشباح المتحركة والنكرات المجهولة، لقد صادفتكم الآن وأنتم ترتكبون أسوأ المنكرات وتلعبون الميسر أمام بيوت الأشراف، وفي ممر كرام الناس ولا تستحقون من نظرة ناقد أو كلمة عاتب.

ها أنا جئتكم لأطردكم عن مكان الطهر وحمى الفضيلة يا عميان،

ألا ترون هذه البيوت؟ ألا تأخذكم هيبة أهلها وحرمة سكانها حتى تجتمعوا أمامها كالكلاب على المزابل.

مِنْ منذ كم أنتم هنا؟

ثكلتكم أمهاتكم وفقدكم أولادكم، إنه لمن حسن حظكم أن أغيب عنكم في هذا اليوم، ولو رأيتكم قبل الساعة لحطمت رؤوسكم بعصاي فأنا في هذا الحي الرجل الوحيد المسلط على الأشقياء والموكل بطرد الأرذال والسفهاء.

وإن كان لسكان هذا الحي رجلٌ يخصونه باحترامهم ويقدمونه على ذويهم وأنفسهم ويكِلون إليه مهمات أمورهم فهو أنا ذلك الرجل.

أنا أيها الرعاع.

ما لكم تقفون جامدين وتنظرون ذاهلين كأنكم خشبٌ مسندة أو أصنام أخرى لقطعت أرجلكم قبل أيديكم، ونكلت بكم أشد النكال.

هذه حومتي، وسكانها أصدقائي وأعز من أصدقائي هم منيّ وأنا منهم إذا ناديت لبّوا وأجابوا، وإن فعلت وافقوا وأطاعوا وفي هذا كفاية...

كان الرجل يكرر كل جملة مما يقرأ القارىء عدة مرات، وقد بدأ الظلام يكحل الأبصار، وضجر صاحب المنزل من الانتظار، فنزل يفتش عن ذلك المسكين الذي لجأ إليه وفتح الباب فرأى السيد عبدالسلام يغادر الجمع التي كان يخطب فيه، ويقترب من الباب ثم عاد مرة أخرى إلى جماعة اللاعبين، وكال لهم السب الذي سمعه القارىء بحمية أكثر وحماس أشد. وأخيراً اقترب نهائياً من باب المُحسن وقال ورائحة النبيذ تفوح من فمه كريهة لا تطاق:

ـ ها أنا جئتُ يا ولدي.

جريدة (الزمان) 28 فيفري 1933

الانــتــقــام

امرأة السيد بكار تعلم أنه من المحرم عليها إيقاظه من النوم مهما طالت نومته، وهو لا يستفيق إلا على صوت صديقه الجيلاني الذي يناديه من الشارع فيدعوه للدخول، وبعد أن يتثاءب ويتمطى ويفرك عينيه يخرجان جميعاً، وقد كان حبل صداقتهما متيناً إلى حدّ أن زوجة بكار تقدم لهما القهوة وعلى رأسها شال بسيط، وتجلس معهما تستمع لحديثهما. والجيلاني صديق عظيم النفع لا يدخل المنزل إلا ومعه شيء من الهدايا وطالما أقرض قروضاً إلى أجل غير مسمّى ولا يزال يقرضه.

ويعلم الجيران في المنزل بالعلاقة التي بين الصديقين فلم يهتموا بمعرفة الأوقات التي يدخل فيها الجيلاني ويخرج، ولا بالمدة التي يمكثها عند صديقه.

وتقدمت العلاقة بين الصديقين إلى حد أن الجيلاني لم يعد ينادي صديقه من الشارع بل كان يدخل ويوقظه من فراشه.

وبكار هذا غليظ البدن، مخيف الشكل، مشهور عند عارفيه بالشراسة وإن لم يشتبك في معركة واحدة طول حياته، وكان الجيلاني لا يستطيع إيقاظه من نومه إلا بعد الضرب والتجاذب ورش الماء على وجهه، والمعروف عنه أنه لا ينتبه من نومه إلا في الساعة الثانية بعد الظهر، ولكن الجيلاني كان يدخل المنزل حوالي الساعة العاشرة، ويقضي مدة طويلة في المنزل قبل أن يستيقظ بكار واستمر على ذلك مدة ليست بالقليلة. . .

وفي أحد الأيام سمع بكار وهو مكوم في الفراش كالخنزير النائم ضحكاً

خفيفاً من الحجرة الثانية المقابلة لحجرة نومه، فرفع رأسه في كسل وبطء ثم استلقى ثانية مستسلمًا للنوم إلى أن سمع الضحك مرات متوالية، فقام على أطراف أصابعه إلى أن دخل الغرفة فوجد الجيلاني مع زوجته وأمامهما أطباق فيها أصناف لذيذة من الحلوى وفناجين قهوة فارغة، فقال وهو يهرش في كفه أنت هنا وأدار وجهه لزوجته قائلاً:

ــ ولماذا لم تخبريني؟

فأجابه الجيلاني وهو يعطيه قطعة الحلوى:

ــ اجلس أيها البهيم فقد أحضرت لك المائتي فرنك التي طلبتها بالأمس.

فتناول قطعة الحلوى وأخذ يحشوها في فمه ويحول عينيه في أرض الحجرة، فرأى الوسادة في غير مكانها وحذاء الجيلاني فردة في الشرق وأخرى في الغرب فاستدرك الجيلاني الموقف وقال:

ــ اليوم استيقظت لأجلك يا كلب الكلاب لأسعفك بالنقود، وبالله الذي لا إله إلا هو ما ذقت طعام الافطار إلا هنا، وقد اشتريت هذه الحلوى في طريقي إليك.

واستعملت الزوجة براعتها النسائية في مثل هذه الظروف فقالت:

ــ وهل تريدون أن تشربوا القهوة؟

قالت هذا ليفهم بكار أن صديقه دخل لساعته فوافق على الاقتراح، ولكن فئران الشك تلعب في جسمه وقد شربوا القهوة جميعاً، وخرج الصديقان ليشربا القهوة مرة ثانية. أطرق بكار هنيهة ثم قال لصديقه:

ــ إني مقدر جميلك حق قدره وأنت تعلم أني اقترضت منك هذا المبلغ لأجعله رأسمالي في بيع السمك، وسأبدأ من الغد وعليه سوف لا تجدني في المنزل نهاراً ومن الممكن أن نجعل مقابلتنا في الليل، سأودعك وأقوم إلى (فندق الغلة)[1] لأتفاهم مع الرجل الذي سيبيعني محله.

(1) هو سوق الخضار بتونس العاصمة.

فوافق الجيلاني على هذه الرغبة التي تعتبر في الحقيقة إنذاراً له بعدم المجيء في النهار ما دام النهار هو موعد نوم عمار.

ومرت أسابيع ولم يتاجر بكار في السمك كما يزعم، بل أنفق النقود فرنكاً بعد آخر تحت عين صديقه الذي كان يزوره كل ليلة بعد العشاء ليخرجا جميعاً لقضاء السهرة وتدخين (السبسي)[1]، وقد كان بكار يعد امبراطور القهوة التي يجلسون فيها فإذا أتى حضر حوله جمع عظيم يوقرونه ويحيونه، وهو يرد تحياتهم متثاقلاً ومتأففاً فإذا دخنوا بضعة علب من (التكروري)[2] قام أحدهم فعزف على المندولين عزفاً مخدراً يجعل كل من في المجلس يدق برجله أو بيده، وبكار في هذا الحال متكيء بجسمه الضخم على المائدة، وتظهر منه على حركة الموسيقى رعشة متزنة كرعشة المذبوحة، وهذا منتهى سروره وجذله أن يخنع لصوت هذه الموسيقى خنوعاً يسلذه ويرتاح إليه وينسى العالم كله.

والجيلاني الذي درس أطوار صديقه وعرف ساعات غيبوبته لم يغفل عن الانسلال من المجلس كل ليلة والغياب لحظة طيبة حيث يعلم الله وحده أين يغيب. واستمر على هذه الحال زمناً طويلاً حتى أصبح غيابه منظماً في أوقات معلومة، وأخيراً استفاق بكار من ذهوله الطويل وعزم على الشك في صديقه مرة ثانية.

وفي إحدى الليالي استأذن الجيلاني وقام من المجلس قائلاً إنه سيعود بعد نصف ساعة، وأبى بكار الذي تخدر جسمه الثقيل إلا أن ينتظر نصف ساعة بالضبط ولما لم يعد صديقه قام وأخذ طريقه إلى المنزل، ولشؤم الطالع أبصر الجيلاني خارجاً من المنزل على رأسه برنس يغطي وجهه فناداه مراراً فاستمر هذا في طريقه ولم يلتفت إلى ندائه، كأنه يدرك أن الفيل أثقل من أن يتبعه أو يركض خلفه.

ودخل بكار منزله فرأس السيدة متبرجة تخطر في قميص نوم جميل وقد طلت وجهها، وزججت حاجبيها ورائحة العطر تفوح في بدنها.

---

(1) قطعة من القصب تستعمل لتدخين الحشيش

(2) الحشيش.

وبعد أخذ ورد فهم أن شرفه ممتهن وأقسم ألّا يعيش إلّا لينتقم لشرفه بالسلاح ويغسل عاده بالدم.

فانطلق في الصباح إلى حانوت تاجر يبيع الخردوات القديمة ومنها المسدسات: «وما قيمتي أنا إذا عشت ولم أقتله؟ إنها قيمة حيوان، نعم أقتله أقتل الخائنة وسواء عندي برأتني المحكمة أم قطعت رقبتي، إنه ليس بشرف أحد أيها الناس ذلك الذي ديس وأهين وإنما هو شرف بكار. بكار فخر الرجال. ومخيف الأبطال، لو كان غير بكار لهانت المصيبة. أما أنا الذي رهبني الفتيان ووصلت شهرتي إلى أسماع الصبيان والنسوان فلا لا. لا بد من القتل، واليوم لا غداً...

وعرف التاجر رغبة زبونه ووثق منه فأدخله إلى حانوته المظلم، وجعل يرفع أكداساً من قطع الحديد، ويخرج من تحتها أنواعاً من المسدسات يعرضها عليه الواحد بعد الآخر، ويصف مزايا كل مسدس على حدة. والذي يذكر في هذه اللحظة أن بكاراً يرى المسدسات لأول مرة في حياته فكان يتناول المسدس بخوف ويقلّبه بحذر وانقلبت خواطره الحماسية إلى ضدها وتغلب العقل على العاطفة، فكان يقول في نفسه: «يقال إن المسدسات في بعض الأحيان تصيب الضارب قبل المضروب، وقد حصل هذا مراراً، ومن المستحيل أن أصاب أنا بالرصاصة، ويبقى هذا الكلب مع زوجتي الخائنة صديقين إلى الأبد ويبولان على قبري.

وهب أني قتلته فذلك سيكون سبباً في ذيوع الفضيحة، وأظن أن دمها القذر لا يعادل فضيحتي أمام الناس حيث يقال أن بكار الذي طالما أرهب الآدميين خانته امرأة ضعيفة، لا والله لن أقتله ولن أقتلها بل أطلقها خيراً على الأقل».

وكانت ثرثرة الخرداجي تزداد في وصف المسدسات وكيفية حصوله عليها وبيعها خفية عن أعين الحكومة، وبكار يتظاهر بأن البضاعة لا تعجبه فيتمتم التاجر قائلاً:

ـ ومع ذلك سأرسل ابني إلى المنزل ليأتيني بآخر طراز من المسدسات الحديثة التي لا أستطيع وضعها في الدكان، وأظن أنها ستوافق حاجتك.

ونادى ابنه وكلفه بالذهاب إلى المنزل وقدم كرسياً لبكار فجلس خجلاً مضطراً وقد ترجحت عنده فكرة المسألة والإقلاع عن استعمال السلاح، ولكن الخرداجي قد أجهد نفسه زمناً طويلاً في البحث عن المسدسات المطلوبة، ومن المخجل أن يتركه بدل أن يعوض عليه تعبه فأخذ يجول بنظره في مختلف الأشياء المعلقة في الحانوت فرأى آلة غريبة الشكل فسأل الخردجي:

ـ ايش نية الوحدة هاذي؟

ـ مصيدة فيران.

ـ قداش حقها؟

ـ زوز فرنك.

فأعطاه الفرنكين وحمل المصيدة وذهب بها إلى المنزل. . .

جريدة (الزمان) 28 مارس 1933

الأحــبــاب

هم خمسة أو ستة من الرجال والشبان مختلفي الأعمار، يجتمعون كل ليلة في مقهى يملكه رجل مالطي وحديثهم في مجلسهم كل ليلة على وتيرة واحدة لا تتغير، وإلى القارىء إحدى لياليهم:

خاضوا في شؤون عامة عن السياسة والتجارة والغرام. . . وأخيراً استأذن المدعو صالح وقام وتبعه آخر وصافحهما الجماعة، وذهبا لشأنهما فقال أحد الباقين:

ــ ماذا يفعل الآن صالحكم هذا؟.

فأجابه السيد عبدالرحمن:

ــ قد خسف الله به الأرض وباع أرضه، وداره اليوم مرهونة.

فقال الثاني واسمه الحاج علي:

ــ ومع ذلك فالسيد صالح لا ينفك عن الأبهة والظهور بمظهر العظماء، ها هو في الأسبوع الماضي عقد في بيته حفلة طرب وأنس، وفتح فيها عشر زجاجات كونياك، وأكبر ظني أنه رهن قطعة مصاغ زوجته ليشتري الخمر ولوازمها. ليقول الناس أنه لا يزال يمرح في بحبوحة من العيش. لعن الله هذه المخلوقات. . هل تظنوا أن مجيئه عندكم هذه الليلة كان بدافع الشوق إليكم. والوفاء لصداقتكم؟ كلا وهل تظنوا أنه استصحب هذا النذل الذي يلازمه كظله ليظهر بمظهر المتبوعين المرجوين.

قال المدعو سليمان:

- استصحبه ليسأله أمامكم وأمام غيركم عمداً، ثم في مسألة «الجاراج» والأتوموبيل وعن مؤجري الأملاك ومن منهم دفع ومتى يدفع.

فقال عبدالرحمن الأول:

- لعلني أصدق باجتماع الماء والنار ولا أصدق كلمة مما يقول، أنا لا يسرني شيء أكثر من سماع حديثه والاستهزاء به.. دعونا من سيرته لعنة الله عليه.

قال عبدالرحمن هذا، ونظر في ساعته فإذا هي العاشرة فقام وودع الجميع وانصرف معتذراً.

فقال سليمان:

- أرى عبدالرحمن قد ذهب الليلة قبل ميعاده المعتاد.

فأجابه السيد حسن الذي لم يتكلم من أول المجلس:

- إن عبدالرحمن لا يقوم من مجلسه إلا لشر عظيم، ولو أني أعرف هذا الشر.

قال سليمان:

- أليس هذا الشر هو غرامه الجديد؟

قال سليمان:

- تعني الممثلة التي عرفها من شهرين.

فصافحه حسن وقال:

- هي بعينها ولكن أخطئك في وصفك علاقتها بالغرام.. وأنا لا أراها إلا علاقة سرقة، فالمرأة ترقد على خمسة وعشرين ألف فرنك، وهذا يحوم حول المبلغ وكأني به قد استولى على النصف على الأقل... وإلا فمتى رأيتم عبدالرحمن يضع يده في جيبه ويدفع ثمن مشروبه إلا في هذه الأيام؟.

فقال الحاج:

- قد أبديت لكم رأيي في هذا الرجل منذ شهور، وكان رأيي كما

تعلمون أسود، فمنكم من كذب ومنكم من شك في صدق نظري وستبدي لكم الأيام فـوق ما تعلمون والآن قم يا حسن لندرك الترام الأخير.

وقام الحاج علي، ولم يبق إلا سليمان وحسن.

سليمان: يقال إن الحاج علي سيحج بيت الله مرة أخرى في العام القادم.

حسن: هداك الله وعافاك هل يكون الأوجه عند الله أولاده المفسدون، هذا عند الله أحسن ثواباً وخير عقاباً، أتجهل أن الرجل قرض الناس بالربا.

سليمان: أقسم لك بالله على ما أقول.. لقد وقف المحضر (اللوسي) ببابي وأنذرني بتوقيع الحجز على منقولاتي، فذهبت لهذا الحاج علي، أرجوه في ألف فرنك يقرضنيها قرضاً حسناً فأبى إلا أن يحسبها بألف وخمسمائة، ولعنة الله علي إن كنت من الكاذبين.

سليمان: وما رأيك في صالح؟

حسن: أنا أسميه طالحاً، ولكنه عندي خير من ذلك، المدعو الحاج علي لعنة الله على الجميع كم الساعة الآن؟

سليمان: هي الحادية عشر.

حسن: أراني سهرت أكثر من اللازم.

وقام واقفاً وقال سليمان:

ــ بالله لا تحرمني من رؤياك، أنا هنا كل ليلة ولا تبطىء عني كهذه المرة، فلولاك ما كنت أضع قدمي في هذه القهوة، سل صاحب القهوة يخبرك بأني في انتظارك كل ليلة وأسأل عنك دون الجميع والآن أظنك تنوي السهر أكثر من ذلك.

سليمان: نعم سأظل هنا حتى منتصف الليل.

وخرج حسن بعد توديع صاحبه، وبقي سليمان في المقهى وحده وقد خرج جميع «الأحباب» فاضطجع على كرسيه ونظر إلى المالطي الذي كان واقفاً أمام «الكونتوار» وقال:

ـ كيف الأحوال يا جورج؟ لعلك تراقب أحوالنا وتتبع حركات هؤلاء الأوباش الذين يجلسون معي كل ليلة، والله لولاك أنا ما وضعت رجلي في هذا المكان، إنني منذ نعومة أظفاري لا أطيق معاشرة العرب ولا أرتاح لحديثهم لا سيما هؤلاء الذين يتظاهرون بصداقتي وأتظاهر أنا أيضاً بصداقتهم وهذا طبعي، من ضحك لي ضحكت له، ولا أخفي عنك أنني أبغضهم وأحتقرهم أجمعين وأسعد الله مساءك.

جريدة (الزمان) 25 أفريل 1933

الصـــديق الـــرذل

عند الظهر تماماً دق خادم الأوتيل على الحجرة رقم 4 الواقعة بجانب المرحاض، والتي ينام فيها الشيخ عثمان بن عبدالله، يعلمه بانتهاء اليوم. . . إذ كان الشيخ عثمان ينوي الرجوع إلى بلده (الكاف) في نفس هذا اليوم.

قام الشيخ عثمان يحزم أمتعته ليدرك القطار القائم بعد ساعة، والرجل حزين القلب، كاسف الخاطر لأن حوائجه التي جاء من أجلها إلى العاصمة التونسية لم تقض منها واحدة، فلا دائنه قبل الاتفاق معه على التأجيل، ولا مدينه الذي كان يرجو منه ما يفرج أزمته دفع له. وابنه الذي يقرأ في جامع الزيتونة هجر الجامع وتشرد مع أخوان الفساد، وكل أموره على غير ما يرام، وجعل يحزم أمتعته متراخياً فاتراً، ويتذكر أن القطار قيامه قريب، فتهيج أعصابه ويشد الحبل على المحزومات بغيظ وحقد وحنق، وبعد أن يحزم الصرة أو يغلق الحقيبة يرى أنه نسي بعض الأشياء خارج هذه الطرود فيعود فيفتحها، والدم يصبغ وجهه، والعرق يتساقط من لحيته التي وخطها الشيب.

وأخيراً انتهى، وخرج يحمل حقيبته تحت أبطه، إذ كانت بلا أذن، تحمل منها، وتحت أبطه الآخر صرة كانت فيها ملابس أحضرها لابنه، ولكنه أقسم إلا أن يعود بها وعلق في يده بابور قاز للطبخ، وفي الأخرى ملفاً فيه بعض الأقمشة الجديدة، ولم يكن معه إلا بضعة فرنكات لا تساعده على اكتراء حمال، ومشى مثقلاً يريد الوصول إلى المحطة على قدميه، وهو يحمد الله الذي يسر له شراء تذكرة السفر في أمسه قبل أن تفرغ نقوده، غير أن الحمل الذي ينوء تحته زاد سخطه على تونس ومن فيها، فقد استقبلته متجهمة، وها هي تودعه أقبح

توديع، يفارقها محروماً مطروداً ومثقلاً بهذا الحمل الذي لم يعتد حمله في حياته، الرجل يلهث ويترنح، ويضرع إلى الله الذي أوقف الشمس «ليوشع» أن يوقف القطار عشر دقائق يستريح فيها، ستين كيلو غراماً يحملها تحت ذراعيه وفي أطراف أصابعه.

ولكن هذا صوت من الرصيف الآخر يناديه.

ـ يا عثمان قف يا شيخ عثمان.

والتفت فرأى مناديه مقبلاً عليه، يهرول في جبة واسعة، ويشق الهواء بعصاه صاعداً نازلاً وهو يبتسم ويتظرف:

ـ حياك الله يا شيخ عثمان وحباك، أوحشني فراقك هذين اليومين، أيها الرجل القاسي. والله وبالله قد سألت عنك أمس وأول أمس في قهوة عمر، وقهوة إبراهيم، وحانوت الصادق. ومررت عليك في الأوتيل، فقيل لي أنك خرجت من لحظة قصيرة، والذي قال ذلك هي المرأة السمينة، هي على ما أعتقد صاحبة الأوتيل، لأنه كان يوجد قبلها امرأة أخرى عجفاء ضعيفة شرسة الأخلاق، وكنت أخشى عليك من النزول عندها، ولكن الظاهر أنها باعت الأوتيل إلى هذه المرأة الطيبة، وذلك لحسن حظك يا شيخ عثمان. . . كيف أنت يا شيخ عثمان. . . وكيف حالك؟ هل أنت بخير؟ هل أنت فرحاً؟ الحمد لله الذي أراني وجهك مرة أخرى. ألم تقابل حمادي ذلك الرجل اللطيف الذي قدمنا إلى بعض؟ لم أره من يوم اجتماعنا الأول، أي منذ ثلاثة أيام، ومع أن القهوة ظريفة وصاحبها أظرف، وهي تعجبني دون القهاوي العربية لخلوها من الفنوغراف لا أعرف السبب في عدم مجيئه، لقد كان ينوي إجراء عملية جراحية في المستشفى، لأنه يشكو أعزك الله من المصرانة الزايدة والرجل كثير الوهم والوساوس، وقد نصحته بعدم إجراء العملية، والاكتفاء بدواء بسيط يداوم عليه، وهذا الدواء هو الكمون المطحون، يتناول منه مغرفة قهوة في كل صباح، ويتخلص من هذا المرض الذي يؤلمه وينغص حياته. ولعلك لاحظت انحراف مزاحه، وانكماشه، وهذه لم تكن عادته، فأنا أعرفه من عشرة أعوام، بل قبل ذلك بكثير. . . أعرفه منذ كنا نقرأ جميعاً في «الليسي»، وكان معنا ابن

(عامل)[1] الكاف في ذلك العهد واسمه. . . لقد نسيت اسمه إلا أنهم استمروا في دروسهم، وخرجت أنا لأساعد المرحوم والدي في حانوته الذي كان في سوق «القرانة»[2] تلك أيام خلت. وأظنك قد أتيت إلى تونس قبل هذه المرة، وسمعت بمحل التيجاني الشهير، أهل (الكاف) كلهم يعرفون محلنا، فقد كان يستورد من عندكم المنسوجات وغيرها، وأذكر من عملائنا عندكم ذلك الرجل الذي يسمى. . . يسمى. . . والله أعلم سالم بن سالم أو ابن سالم، وأظن الأصح سالم بن علي. . . حقاً لقد أنساني طول المدة كل شيء والآن؟ كيف أحوالكم؟ عسى أن تكون بخير. . . يا سبحان الله ما الذي تحمله؟ أظنك مسافراً. . .؟ هكذا بسرعة. . . إذن هذا أمر موجب للأسف، لم أتمتع برؤيتك غير مرة واحدة، ولولا الصدفة ما رأيتك هذه المرة الثانية. اسمح لي أن أعاتبك أشد العتاب، تقول أنك مستعجل؟ هذا والله عذر غير مقبول فلست بتاركك حتى نشرب القهوة جميعاً، وفي قهوة عمر، وإني متأكد أننا سنتلاقى هناك بصديقنا حمادي، وأظنه لا يعلم بسفرك. . . والأحسن أن يعلم، هيا بنا لا والله لن أتركك. . . لحظة قصيرة بالله دعنا من التمحل والاعتذار. . أتقسم أيضاً؟ وحيث أنك أقسمت فعذرك مقبول، ولي لي أن أزيد على ذلك. ولا ألح عليك أكثر من هذا. . . فلتصحبك السلامة ولتحرسك العناية ونسأل الله أن يرينا وجهك قريباً.

ولكن قل لي؟ هل تسافر في هذه اللحظة؟ إذن سأعرض عليك مسألة فيها نفع لنا جميعاً. . . في «ليون»[3] دار صناعة شهيرة اخترعت ماكينات لقص الشعر يمكن أن يقص بها الإنسان شعره بنفسه، وبدون حاجة إلى الحجام. . . أراني أتكلم عن الشعر لا عن اللحية فالتفت لما أقول. . . ماكينة عجيبة الشكل دقيقة الصنع، وها أنا أطلعك عليها. أصبر حتى أخرجها من جيبي. أنا الوكيل الوحيد لهذه الدار في أفريقيا الشمالية كلها، وأنا المكلف بترويج هذه

---

(1) والي الكاف.

(2) أحد أسواق العاصمة المشهورة ببيع القماش والملابس الجاهزة.

(3) مدينة مس مدن فرنسا عاش فيها بيرم أثناء نفيه إلى فرنسا.

الماكينات التي سيعم استعمالها ويحتاج إليها كل إنسان. . هاك هي الماكينة انظر إلى شكلها أولاً. . . صغيرة ظريفة يمكن حملها في الجيب، واستعمالها سهل جداً أولاً أحلها أمامك قطعة قطعة، وأركبها ثانية لتطلع على مدهشات الصناعة، وبدائع العقل الأوروبي. هذا هو المشط الذي يرفع الشعر إلى فوق، وهذا المشط الذي يتداخل فيه، ويضغط عليه فيقصه، وهذه المدرجات التي على اليمين واليسار تضع فوقها الأمشاط فتقص الشعر طويلاً، أو قصيراً بحسب إرادتك، وبحسب الكيفية التي تريد بها، قص شعرك من قدام أو الخلف أو الجانبين، والآن لا أطيل عليك لأنك تحمل كل هذه الأثقال، وفي طريقك إلى السفر اسمع باختصار أريد لي وكيلاً في بلاد (الكاف) يروج هذه السلعة ويشترط في هذا الوكيل أن يتكلم الفرنسية والعربية ليستطيع بيعها إلى جميع الطبقات. ويحسن أن يكون حسن الهندام طلق الوجه فصيح اللسان، وأظن أن مثل هذا الشخص ميسور، وها أنا مكلفك بالبحث عن رجل من هذا النوع في جهاتكم، وسأعتمد في معاملته على تزكيتك له وعلى التعليمات التي ترسلها عنه، وستكون ثقتي به كثقتي بك، أما الربح والعمولة وما أشبه ذلك فسأفصلها لكم في البريد، والآن اعذرني إذا تركتك ولم أقف معك أكثر من ذلك لأن وقتي ضيق، والجماعة هناك على الرصيف الآخر في انتظاري.

جريدة (الزمان) 9 ماي 1933

المـــرأة القبيحة

تغيب السيد التهامي عن تونس خمسة عشر يوماً قضاها في المزرعة الجديدة التي اشتراها في أحواز (سوسة)[1] وكان يصلح من شأنها ويرقب إدارتها، وهي المزرعة الثالثة التي يملكها عدا ما يملك من المباني في مدينة تونس ومليونين من الفرنكات مودعة في عدة بنوك.

عاد إلى تونس فوصلها في الساعة الثانية بعد الظهر في هجير الشمس واشتداد الحر، فترك سيارته في ميدان قريب من المنزل وفتح الباب ودخل في سكون وكان في الدهليز خادمه علي متكئاً على المنصة الخشبية غارقاً في النوم فلم يشعر بدخول سيده، وصعد هذا إلى الطابق الأعلى وهو يتلهف على رؤية زوجه وعلى قبلة من محياها الذي فارقه هذه المدة فلم يجدها في الغرفة التي تجلس فيها عادة في النهار. وفي الوقت نفسه سمع نغمة غناء هادئة صادرة من فونوغراف في غرفة النوم فيممها حتى وقف على باب هذه الغرفة فوجد امرأته مضطجعة على جانبها فوق السرير وفي قميص وردي اللون منحسر عن صدرها وظهرها وكتفها كما انحسرت أطرافه عن ساقين جميلتين، بياضهما مشرب بحمرة جذابة وشعرها المجعد مفرق إلى خصل وعناقيد بعضها على خدها الأسيل وبعضها على معصمها الذي توسدته، وعلى كرسي بجانب السرير أبصر التهامي أخاه الأصغر في بيجامة نوم وأمامه على كرسي آخر الفونوغراف وعلبة من السجائر الأمريكاني. أما المرأة فلم تحرك ساكناً تهاوت وولت وجهها نحو الحائط تتأوه من ألم تشعر به فسألها الزوج:

---

(1) عاصمة الساحل التونسي.

ـ مريضة؟

ـ جداً.

ـ أما الأخ فقد بادر إلى سجارته المشتعلة ودعكها بين أنامله وهو واقف في أدب فسأله التهامي:

ـ ومتى تعلمت التدخين؟

والتهامي ليس من ذلك النوع الذي يثور ويصخب ويحطم فانسحب من الغرفة وتبعه أخوه خجلاً مضطرباً وبقيت المرأة في سريرها.

قال لأخيه:

ـ عليك الآن أن تذهب وتضع السيارة في«القارج»،فذهب الفتى بعد أن نزع بيجامته وارتدى ملابسه ووقف التهامي يدخن سيجارته بغيظ ويفكر طويلاً في الأمر. هل هذه غلطة المرأة التي عاشرها عشرة أعوام وأفنى معها زهرة شبابه؟ أم هي غلطة أخيه الذي بلغ هذا العام الثامنة عشرة من عمره ولم يحترم له عهداً ولا غيبة.

غلطة النظام العائلي الذي يقضي باختلاط الأهل وسكنهم في بيت واحد؟ الأمر وقع والسلام، وتحديد المسؤولية والمسؤول لا يفيد.

وعاد إلى الغرفة فوجد السيدة قد غطت نفسها بملاءة فرش بيضاء وانسدل جفناها على خديها وعلى شفتيها علامة امتعاض مرير فجلس على الكرسي مكان أخيه وقال:

ـ اسمعي يا عزيزتي، لا أريد مناقشتك الحساب فكلانا عارف بالأمر، أريد أن تعلمي أنك من هذه الساعة طالق ثلاثاً لا رجعة فيه في جميع مذاهب المسلمين، إلا أنني لا أريد خروجك اليوم من هذا البيت إبقاء على سمعة عائلتي وعائلتك، وإذا كانوا لا يعرفون سبباً معقولاً أو خصومة سابقة تبرر طلاقك سوف تتشعب ظنونهم وظنون الناس أجمعين، وستبقين هنا في جناح في هذا المنزل وحدك لا أراك ولا ترينني إلى أن أحضر لك سبباً معقولاً وحجة قوية تبرر

انفصالنا، وهو أنني سأتزوج من امرأة غيرك وأضعها معك في بيت واحد عندئذ تطلبين الطلاق رسمياً والحق معك، والآن حاولي أن لا يقع نظري عليك وسوف لا أقترب من المكان الذي تقيمين فيه، وخرج وتركها والبكاء يرعد جسمها.

وفي اليوم التالي أعد سيارته ليزور إحدى مزارعه في (فريانة)[1] وقد شعر براحة لم يشعر بها من قبل. لم يعد ذلك الوسواس يقلق خاطره، ولا ذلك الشوق يحرق قلبه. ودخل هذه المزرعة فالتف حوله العمال من الأعراب رجالاً ونساء. بعد أن استراح وتفقد أحوال المزرعة نادى شيخاً هرماً من الأعراب:

ــ يا عم عثمان

وجاء عم عثمان محملقاً يرتعش، فقال التهامي:

ــ ماذا تقول فيمن يريد الزواج بابنتك سلمى؟

ــ ومن هو الزوج يا سيدي؟

ــ أنا.

ولا يحتاج القارىء أن نشرح له ذهول عم عثمان وتأكيد التهامي له بأنه هو الذي سيتزوج ابنته، وبعد دقائق جاءت سلمى في أسمالها البالية تتعثر قدماها الخشنتان المنقوشتان بالجروح في الحصى وحشائش الأرض وقد غطت معظم وجهها الشخت ولم يظهر منه غير عينين فيهما حول كريه، ولا شك أنها جاءت بعد أن زف لها أبوها هذه البشرى التي لا تصدق، فأجلسها التهامي بجانبه وأرسل إلى عدل في (فريانة) فأتاه بدفتره وعدته، وعقد العقد وشهد الشهود وترك في يد عم عثمان ألفين من الفرنكات هي مهر ابنته وعاد بها كما هي إلى تونس.

هـذه الأعرابية النكراء الشوهاء جديرة بأن يهرب منها جميع من في المنزل وخصوصاً السيدة (عزيزة) وقد أصبح الأخ الصغير لا يطيق الإقامة في المنزل

(1) قرية من قرى الشمال الغربـي.

ساعة واحدة، واطمأن التهامي على عرضه وشرفه وسواء حضر أم غاب وكان يشتاق سنين إلى زيارة أوروبا فوجد نفسه مطمئناً إلى هذا السفر، وفعلاً ارتحل مع سلامة الله عازماً على قضاء ستة شهور على الأقل.

في أواخر فصل الخريف كان النسيم البارد يدوي في الدهليز، والخادم منكمش في الركن وأمامه «السبسي» وعلبة «التكروري» يملأ ويدخنه المرة بعد الأخرى فيسمع صوت صياح داخل الدار وهو يعلم جيداً أن ليس هناك سوى السيدة (سلمى) فاقترب من الباب وسمع الصياح يزداد وسيدته تنادي على علي.

وعلي يعلم أن سيده قد سمح له برؤيتها ومقابلتها إذا اقتضى الأمر فدخل، فوجدها واقفة أمام «السبَّالة»[1] التي انفجرت وتدفقت مياهها بقوة فبللت ثوبها الأنيق وفي يدها الإناء الذي كانت تريد أن تملأه ولم يكن علي هذا أعلم من سيدته سلمى بمعالجة السبالة وإصلاحها، ولكنه مع ذلك اقتحمها وجعل يسد فوهة الرصاص مرة بيده ومرة بأي شيء يجده أمامه حتى انصلحت صدفة ولكن بعد أن غرق بالماء وكانت سلمى تضحك ملء فيها وتترنح من السرور والطرب.

وقد اتفق لعلي الذي لم يلمس امرأة من خمسة أعوام أن لمس قصداً أو عفواً جسم سيدته أثناء تحركاته الهوجاء عندما كان يسد السبالة، وكانت كل لمسة تبعث في جسمه تياراً كهربائياً حاراً ينسيه برودة الماء الذي بلل ثوبه وينعشه من غيبوبة «التكروري» الذي أثقل جسمه، وشعر أنه أمام امرأة من جنسه وفصيلته، يعرف من أين يأكل كتفها وابتدأ بينهما الحديث بالثناء عليه وعلى همته وشجاعته إذ استطاع إصلاح السبالة وأعقب الحديث بسؤال أحدهما للآخر عن بلده وقبيلته و. . و. . و. . .

وشعر كلاهما أنه في حاجة إلى صداقة الآخر. . . والحق أن سلمى كانت

---

(1) حنفية الماء.

في حيرة من زواجها بسيدها الثري، وكانت عندما تخلو بنفسها تقف أمام المرآة وتسأل نفسها عن رغبة زوجها التهامي في هذه الخلقة الشوهاء وعن سر الاستعاضة بها عن تلك الحورية الحسناء، وداخلها وسواس غريب يقول لها إنك جميلة ولكنك لا تشعرين وكأنها كانت في حاجة إلى رجل آخر يفتتن بهذا الجمال لتتأكد أن التهامي مخلص في اختياره وقد وجدت علياً هذا الذي وقف أمامها مدلهاً باهتاً في جمالها منتظراً تنفيذ أي أمر من أوامرها الشريفة وقد دخل قلبها من الغبطة والفرح يوم«السبالة» ما لم يداخلها مثله ليلة زفافها للتهامي، قلب المرأة لا يسره الجواهر واليواقيت والأموال المكدسة مقدار ما يسره لحظة قصيرة يخفق لها بحب حار لذيذ يأتي من أي كان وفي أي ظرف كان.

عاد التهامي من أوروبا وعهده بعلي شاحب اللون مهزول الجسم قذر الثياب فوجده قد تعلم لبس الكرافات وتلميع شعره بالبريانتين، وفتل شاربيه إلى فوق كغليوم الثاني وغيرَّ من حركاته ومن صوته ومن كل شيء.

جريدة (الزمان) 23 ماي 1933

المـــرأة العاشرة

السيد صاحب القصة رجل بلغ الخمسين، لكنه مملوء حيوية ونشاطاً ويأكل خمس مرات في اليوم، ويدير مصبغته من السادسة صباحاً إلى مثلها مساء بيده وذهنه، ولا يعرف ما هو الكلل وهو في هذه المصبغة ثلاثين عاماً، ولا يكاد أحد العمال يلبث معه أسبوعاً واحداً لشراسة أخلاقه وتهوره، ولا يعرف عنه أنه جامل أحدهم مرة بحديث لطيف أو بفعلة خير، ولكنه يفقد إرادته أمام أي امرأة.

وبينما هو يصيح مع عماله في المصبغة، ويقذفهم بما يجده أمامه من الثياب وعلب التبغ، ويهددهم بالطرد إذ تدخل امرأة فيخمد ويهش وينسى كل شيء، وأغلب النساء اللاتي يدخلن المصبغة من الخاطبات الوسيطات يسألهن عما عندهن من أخبار الابكار والثيب فيصفن له من كل شكل ونوع، في حين أن في بيته امرأتين ولكنه دائماً يسأل عن شيء جديد على سبيل الاحتياط وهو إلى الآن قد تزوج تسع مرات والتاسعة كانت منذ شهرين.

كان أحد أصدقائه طلب إليه أن يودع عنده فتى في السابعة عشرة من عمره ليتعلم الصباغة فقبل ذلك. وفي إحدى الأيام جاءه الفتى من عند صديقه فرآه وسيم الطلعة ساحر المنظر فأطرق ملياً وسأله:

ـ هل تعرف الكتابة؟

ـ نعم.

ـ إذن أجعلك كاتبي ولا ضرورة لغمس يديك في الأصباغ.

ولأول مرة يتخذ الرجل كاتباً لمصبغته، ولكنه عندما رأى الفتى يشتري دفترين ويقسم صفحاتها إلى أبواب وخانات ويسأله عن حسابه مع زبائنه ومعامليه أعجبه الأمر، ورأى أن محله سيسير على نظام بديع، ولا نعرف لماذا ذهبت عنه حدته المعروفة، وأصبح يأمر بالحسنى ويجادل بالتي هي أحسن، وفهم من الفتى أنه يتيم وله والدة وأخت في السابعة عشر، فإذا دخل الفتى في الصباح سأله قبل كل شيء عن صفة الأخت وأحوالها، ولم تهدأ له نفس حتى بعث إحدى خطيباته إلى منزل كاتبه لتتعرف له عن جمال الفتاة الصغيرة دون أن تخبرهم باسمه، فعادت الخاطبة مندهشة مما رأت من جمال رائع وأدب عال ولطف نادر.

وفي اليوم الذي أخبرته فيه الخاطبة بجلية الأمر نادى كاتبه وقال:

ــ أنا كنت قد عزمت على أن أجعل لك مائة وخمسين فرنكاً في كل شهر، ولكن هذا لا يكفيكم ما دمتم ثلاثة أشخاص، وعليه فإن مرتبك هو 150 فرنكاً أي بمعدل خمسة عشر فرنكاً في اليوم، وهي مع ذلك لا تذكر وهاك شهراً مقدماً.

وكلما أغلق المصبغة في المساء سار مع كاتبه ليشيعه إلى منزله، ويتحفه من فواكه السوق وأزهاره وهداياه ما يطيق حمله، ثم يدعو له بخير ويحمله السلام للسيدة الكبرى والصغرى وينصرف.

وأصبحت عائلة الكاتب في رغد حقيقي من العيش وعظم الحاج صالح الصباغ عندها كما لو كان زعيم العائلة.

ولم تعد السيدة الكبيرة تستحي أو تتردد في طلب أي شيء يلزم لها ولابنتها، والحاج صالح ينفذ بلا تمهل إذ أنه واثق من أن ثروته التي خبأها ستعمل له كل ما يريد، وفعلاً تزوج الفتاة وأقام لها مراسيم العرس على أكبر طراز، وليلة دُخْلته شعر بأنه فتى في العشرين والزمن يبتسم له من جديد، ومكث بعدها أسبوعين لا يفارق المنزل معتمداً على صهره الذي يدير المصبغة وقد رضي العمال عن هذا المدير الجديد وصاروا مطمئنين على أجورهم واستمرارهم في عملهم.

بعد هذه الزيجة العاشرة بشهرين تقريباً رجع الحاج صالح إلى ما كان عليه من الصياح مع العمال، وأخذ يطرد من شاء ويشتم من يشاء وكان في عمله هذا يعتدي في الحقيقة على كاتبه النشيط لأنه وضع للمحل وللعمال نظاماً حسناً ابتكره من رأسه، مع أن الفتى لم يفه بكلمة تلقاء ثورات هذا الرجل التي لم يكن يعرفها وبدأ الحاج يواري عنه وجهه ولا يسأله عن «الحسابات» وأحوال العملاء، بل كان أحياناً يقبض أو يدفع الفلوس بدون أن يخبره بصفته كاتباً للمحل.

لا تزال الخاطبات يترددن على زبونهن الدائم ويعرضن عليه البضائع الجديدة ودخلت إحداهن فسألها بصوت عال أمام صهره:

– وهل هي جميلة؟

– نعم.

– هل رضوا بالمهر؟

– نعم.

– أخبريهم بأنَّ العقد والدخلة في الأسبوع القادم.

جريدة (الزمان) 17 جوان 1933

«دبوزة فين»[1]

اعتاد سي البشير الخروج مع صاحبته الإسرائيلية الجميلة، وكان يجلس بها في قهوات لا يغشاها غير الأوروبيين تقريباً. وأول شيء يلفت إليها الأنظار أن السيدة فاتنة الطلعة تسير في ثوب أوروبـي، وصاحبها رجل مطربش ولعلهما كانا في كل مجلس حديثاً للمجتمعين فيه.

في إحدى الليالي دخل الصاحبان «باراً»[2] كثير الأركان والحجـرات الخصوصية، وأخذا ركناً في إحدى هذه الحجرات، وكان فيها من قبل رجل آفاقي[3]، شكله يضحك الثكلى، وأمامه باقات من الورد والفلّ والياسمين ونحو عشرة أطباق هي عدد الكـؤوس التي شربها. فلما نظرت إليه أختنا الإسرائيلية انفجـرت بضحكة حلوة وغمـزها البشـير لتسكت فلم تزدد إلا ضحكاً، لا سيما والآفاقي يحملق ويتأمل كل عضو من أعضائها على حدة ويتنفس الصعداء. وكان في نظراته جريئاً لا يحسب حساب البشير الجالس معها حتى رأى هذا الأخير أن يضحك عليه كما تفعل صاحبته فتركها تفعل به ما تشاء فقالت:

ــ هل تطلب لي كأساً صغيراً من «الفين» يا سيد. . .

فدق السيد الآفاقي على المنضدة دقات مزعجة وحضر الجارسون فقال:

ــ هات زجاجة «فين».

---

(1) زجاجة خمر.

(2) حانة.

(3) من سكان خارج العاصمة.

وكان «البار» يملكه رجل يبيع الخمر بالقطرة فجاء صاحب المحل بنفسه لينظر في هذا الطلب الغريب، فوجد الزبون ثملاً لا يعي وهي أسعد الحالات عند أصحاب البارات فقال له في أذنه:

ـ زجاجة «الفين» تحتوي على ستين كأساً وسعر الكأس فرنكان ونصف.

فلم يتركه الآفاقي يتم جملته وأعاد طلب الزجاجة كيفما كان ثمنها.

وشربت السيدة وبشيرها نحو خمسة أو ستة كؤوس ومثلهما الآفاقي الذي انتقل إلى جانبهما وأخذ يعدد لهما أملاكه وتجارته وخدمه ومركباته، ومر في هذه الساعة سائل يعزف على كمنجة فأجلسه وجعل يقترح عليه كل أنشودة عربية وافرنجية، وأخذ حريته في الرقص والمرأة يغلبها الضحك من رأسه المحلوق بالموسى وشاربيه الطويلين وعينيه الزائغتين، بل غلبها السرور وانطلقت تغني بصوت حنون كما تغني أعظم الفنانات فأقسم الآفاقي أن يتمّ السهرة معهما إلى الصباح سواء في بيتها أو في الفندق الذي ينزل فيه أو في جهنم. . .

وانتهت زجاجة «الفين» ودفع الآفاقي الحساب وقام البشير ليحضر المركبة، وبقيت السيدة مع هذا الرجل الكريم الطروب فانتهز الفرصة وقال:

ـ أليس الأحسن أن تهربي معي إلى الأوتيل، وهاك خمسمئة فرنك مقدَّماً.

فقالت وهي تأخذ النقود:

ـ إذن اصبر حتى أجد حيلة وأودع صاحبنا.

فهوى على يدها الملساء وجعل يقبلها ويمتصها بشغف، وهي مستسلمة للضحك الذي يزيد أنوثتها حلاوة وإغراء، ولم يترك يدها حتى شعر برجوع صاحبها ونظر البشير إلى صاحبته ففهم مقصدها فقال للآفاقي:

ـ تفضل،

فقام يترنح وهما يسندانه حتى أجلساه في المركبة وسار السائق وقطع عدة شواريع إلى أن استوقفه البشير على «بار» آخر لا يزال مفتوحاً وقال لصاحبته.

ـ ما قولكما في زجاجة أخرى نأخذها من هذا البَارْ؟

فأجابت بالقبول وأراد البشير النزول فأقسم الآفاقي بالحرام ليشتريها بنفسه، ونزل إلى«البار»فسارت المركبة إلى حال سبيلها وخرج عبدالله بالزجاجة فلم يجد أصحابه فطار السكر من دماغه، وجعل يسأل الحفراء النائمين أمام الدكاكين عن المركبة وأوصافها ومن فيها بدون فائدة. وحمل الزجاجة في يده تحت برنسه ومشى مطرقاً يتمتم بجمل غير مفهومة، فتارة يلعن الخائنين وتارة يلعن نفسه ورأى أن يعود بالزجاجة إلى «البار» فوجده مغلقاً.

وبينما هو يغالب الضغط الآخذ بخناقه إذ سمع صوت كرارسي[1] يناديه من فوق المركبة:

ـ تحب تركب.

الرجل لا يريد الركوب، ولم يركبها إلا في مناسبات قليلة ولكن صوت الكرارسي كان له في نفسه وقع غريب، فاقترب منه فإذا هو الذي حملهما وهرب بهما فقال:

ـ أين ذهب الجماعة؟

ـ لبيتهم.

ـ خذني إلى البيت.

ـ الله يبارك.

وسار به الكرارسي وهو نشوان بنشوة الظفر حتى وصل إلى البلفيدير[2] والتوى في عدة طرق وأوقفه على باب فيلا مـؤلفة من دور واحد فنقده أجره ووقف ينظر في الأمر.

وقف أولاً يتعرف مدخل الفيلا وتفصيلها ويرى النور مشتعلاً في حجرة، ثم يطفأ ويشعل من أخرى. وكانت السيدة تضحك بين الفترة والفترة ضحكات

(1) صاحب مركبة.

(2) كبرى حدائق العاصمة التونسية.

تشق سكون الحي، وصاحبنا يتخيل أنها الآن حاسرة عن صدرها الجميل وعن ساقيها الفخمتين فيتحرق ويقترب من الباب ليدق ثم يبتعد خوفاً من العاقبة، وأخيراً هجم وكانت الساعة الثالثة صباحاً.

صوت البشير:

ـ مـن؟

ـ أنـا.

ففتح البشير النافذة ولما رآه أغلقها دون أن يكلمه.

فأعاد الدق غَشماً في السيدة وغيظاً في البشير وألح في الدق وأخذ ينادي بصوت قبيح. فسمع المرأة من الداخل تقول بصوت عال:

ـ من هذا الوقح الرذْل الذي يأتي بيوت الناس ويدق عليها في مثل هذه الساعة، هل لا يوجد بوليس في هذا الحي ليلقي القبض على هـؤلاء المتشردين، أظن أنه إذا لم ينصرف كالكلب وحاول الدق مرة أخرى فسأضطر لقذفه بأقذر شيء عندي.

فقال الآفاقي وهو يضع الزجاجة على حافة الشباك المغلق:

ـ يـا إخواني أنا جئتكم لأعطيكم هذه الزجاجة التي طلبتموها، وحيث أنكم لا تستحسنون فتْح الباب في هذه الساعة لأخذ الزجاجة. فها هي على الشباك وتصبحون على خير.

جريدة (الزمان) 4 جويلية 1933

الأمـــيرة الـــتركية

الشباب والجمال والفن والثقافة عربية وفرنجية، كل هذا اجتمع في الفتى عبدالقادر بن أحد الأعيان المشهورين في القطر التونسي كلّه. وفي كل مجلس أنس وطرب يتصدر عبدالقادر، وفي كل مهمة ومشكلة يدعى عبدالقادر. ولا يكاد عبدالقادر يظهر في الشارع حتى يستوقفه الرائح والغادي، ولكل منهم مسألة وضعها بين يديه، ولولا أنه يقفز في إحدى السيارات لكان عليه أن يقطع المسافة القصيرة بين بيته وعمله في ساعتين.

ومن أصحاب عبدالقادر رجل عملاق في سن الأربعين، تزيده ملابسه العربية مهابة وحرمة وعظمة، وقد استولى من عهد قريب على تركة ضخمة آلت إليه من أحد أقاربه، وأقسم ليشبعن شهواته من مشتهيات الحياة ويعوض ما قاساه من معيشة الجفاف السابقة.

وكان من التركة منزل ضخم فخم، يعد من منازل تونس البديعة الهندسة والبناء فاتخذه الوارث مسكنه بعد أن أثّثه بسخاء وإسراف. وتشاء الأقدار أو يشاء ماله أن يجتمع بسيدة من شريفات البيوت البائدة، نزلت حديثاً إلى ميدان التهتك والخلاعة، وطار صيتها في أوساط المتهتكين والمستهترين. وقلما يخلو مجلس لهم من الحديث عنها، وعن صاحبها صالح العملاق.

في أحد الأيام كان عبدالقادر يسير أمام إحدى القهوات، فاستوقفه صديقه القديم السيد صالح ودعاه بحرارة للعشاء في منزله، وقضاء السهرة فلم يرد بلا، ولو لعلمه أين ستكون السهرة ومع من. وفي الليل حمل العود وفناناً من

أمهر العوادين، وذهب صحبة صديقه، وتمثلت أمامه السيدة ثريا التي يتحدث فتيان تونس بجمالها.

وافتتح صالح المجلس باليمين الرسمي الذي يقسم به كل تونسي وهو:

ـ بالله الذي لا إله إلا هو لن تكون صديقي، ولا أخي إذا اعتبرت نفسك هنا ضيفاً طارئاً، أو زائراً لا يعود، أو جعلت بيني وبينك مثقال ذرة من الكلفة، هذا البيت بيتك، وهذا الجالس أمامك وأنا أخوك، وهذه التي تراها أختك أو قل خادمتك.

فالتفت عبدالقادر إلى السيدة وأبصر شفتها الياقوتية تتمدد بابتسامة لذيذة، وقد مدت لمصافحته يداً كالعاج الذي تغشى بياضه صفرة رقيقة، وفيها من الليونة واللمعان ما يغري العين بالنظر لباقي الجسم.

وجلس الثلاثة على مائدة اللهو، وليس في الدنيا مقياس أو ميزان يستطيع أن يعرف زيادة سرور كل منهم عن الآخر، وفتحت السيدة بيدها زجاجة الشمبانيا وصالح ينظر إليها، وقد فغر فمه عن أسنان صفراء كبيرة، وانفلتت صمامة الزجاجة من يدها، وأصاب الرذاذ وجهها الجميل، فتراجعت بدلال ترمش بأهدابها الطويلة، وكأنما أعجبها ثدياها القويان، فبقيت في تراجعها حتى هدأت ثورة الشمبانيا.

وتحرك لسان عبدالقادر في حلقه، وانتهت كل جوارحه. وتذكر في هذه الليلة من الألحان والضروبات ما كان غائباً عنه منذ سنين، كأنه كان يدخره لمثل هذا المجلس، وفي الواقع جرى الأمر كما أراد صالح فلم تكن هذه الزيارة الأولى ولا الأخيرة، بل كان عبدالقادر كل ليلة أحد من أهل هذا المجلس لا يطاق غيابه لحظة، واختفى بالمرة عن العشرات من أصدقائه وصديقاته، أولئك الذين يفتشون عنه في الليل في كل مكان بلا جدوى.

في أحد الأيام وقفت على إحدى الإدارات عجوز غارقة في سفساريها ونقابها، تسأل الحاجب عن السيد عبدالقادر، فخرج لها هذا، فقالت:

ـ جاء بـي إليك أمر ذو بال يا ولدي، أرجُو أن تسامحني.

فدنا منها فقالت:

ـ الأميرة التركية فلانة عادت إلى تونس منذ يومين، وقد رأتك قبل سفرها الأخير في قرطاج، ولم تتمكن من مقابلتك. وهي في انتظارك غداً في الساعة الثانية بعد الظهر فعليك بالحضور، ولا تخجلني أمامها، فأنا التي تعهدت لها بإحضـارك، وسأنتـظرك في نهج (الحجامـين)، فأحنى عبـدالقادر رأسـه بالإيجاب.

وبعد ذهاب العجوز جلس يستعيد الذكريات القديمة التي كان يسمعها عن هذه الأميرة الفاتنة. نعم سمع الأعاجيب عن جمـالها وأدبهـا وشغفها بالملذات، وهي وحدها من أميرات آل عثمان التي تزور تونس من حين لآخر بعد أن تقوض عرش العائلة. الأميرة فلانة: إذن سأكون أحد القليلين الذين أسعدهم الحظ بمعرفتها. وما بالك يا عبدالقادر تتكاثر عليك الظباء في هذه المدة ولا تعرف من تصيد.

في اليوم الثاني وصل عبدالقادر إلى نهج (الحجامين)، فما أخـطأ في العجوزة التي كانت في انتظاره، وعند رؤيتها إياه أشارت له بالوقوف، ودخلت منزلاً ضخمًا عليه باب كبير، ومكثت داخله خمس دقائق وخرجت ودنت منه قائلة:

ـ أسفي عظيم لأني أضعت عليك وقتك. الأميرة التي كانت ستجتمع بك اليوم في هذا البيت أرسلت تقول ان لديها مانعاً غير منتظر عاقها عن المجيء في هذه الساعة، وستحدد لك موعد! آخر بإذن الله تعالى.

فاقتنع عبدالقادر، فمالت عليه العجوز قائلة:

ـ الآن أعطني حق «النفة».

فأخرج لها خمسين فرنكاً، ودسّها في يدها، وهويقول في نفسه إن كان هذا شركاً للحصول على حق النفة، فبارك الله لها فيه، وعاد إلى عمله، واستمر في سهراته مع صالح وصديقته والحق أنها كانت صداقة صافية لا تَشوبها غمزة

خائِنة، ولا حاك الإثم في صدره نحو أهل هذا البيت. وهذا النوع من المخالطة يدوم زمنه، وتخلد مسراته فصالح كما قال أخوه، والسيدة أخته وهو أخوهما والله خير الشاهدين.

بعد أربعة أيام عادت العجوز إلى الإدارة التي يعمل فيها عبدالقادر، وقالت لن أبرح هذا المكان حتى آخذك معي، وأسلمك إليها بيدي، وكانت الساعة الثانية قريبة. ونزلت وأحضرت مركبة مغلقة ووقفت بانتظاره. ثم سارت المركبة بهما تلتوي في شوارع وأحياء حتى أوقفتها العجوز، ونـزلت ونزل عبدالقادر فوجد نفسه قريباً من منزل صديقه صالح الذي يقضي فيه سهرته كل ليلة.

وتقدمت العجوز وهو يتبعها فلم يجد لها غـاية سـوى المنزل نفسـه، فاستوقفها قائلاً:

ـ وكيف يكون هذا المنزل منزل الأميرة؟ هذا منزل أعرفه وأعرف سكانه.

قالت العجوز:

ـ نعم نعم فالأميرة حبيبة السيدة التي تقيم في هذا المنزل، ويتزاوران في معظم الأوقات، وقد استوهبتها منزلها لتستقبلك فيه. أما صاحبة المنزل فليست فيه الآن.

ورأى عبدالقادر أن كلامها عليه مسحة من الوجاهة، فدخل وهو لا يكاد يدخل، بل خطر في ذهنه أن صديقه صالحاً يداعبه بهاته الطريقة... أو ماذا يكون الأمر.

جلس في نفس المكان الذي ينعقد فيه المجلس كل ليلة، وغابت العجوز عن الأنظار، وطال جلوسه أكثر من نصف ساعة، عرض فيها من الظنون كل ما يخطر في نفس إنسان، بعدَ هذا دخلت عليه لا الأميرة بل السيدة التي يجالسها كل ليلة، وهي الآن في نوع آخر من الزينة الفاضحة و«التواليت» المسبوك، وقد قطبت جبينها ووقفت على بضعة خطوات منه قائلة بحزم.

ـ ومتى كان هذا؟ نعم متى كانت هذه الوقاحة وهذه الدعارة؟ أهجوماً على منازل الناس؟ أخيانة لعهد الأصدقاء؟ أينتظر منك يا من يقال أنك أديب الأدباء، وظريف الظرفاء وابن السادة والشرفاء أن تجرأ على وضع قدمك في منزل صديقك في غيبته. ألم تراع على الأقل حرمة الصداقة وطول العشرة؟ وهل حسبتني من أولئك الساقطات اللاتي يقبلن منك هذا العمل الشنيع.

هذه الصواعق هدّت كيان عبدالقادر، وانخذلت كل قواه فلم يعرف إلا أن يقص عليها قصة الأميرة بأكملها فقالت:

ـ وهل لم تجد هذه الفاجرة منزلاً غير منزلي، تجعله وكراً لغرامها، وعشاً تحتضن فيه عشاقها. هذا والله عذر أقبح من ذنب، وإهانات فوق إهانات تصبها على رؤوسنا يا هذا.

وهل تجرأ بالله أن تقول لصديقك صالح، أنك دخلت منزله لتقضي فيه حصة من الوقت مع امرأة فاجرة قادتك إلى هذا المنزل، أو قدتها أنت إليه. أتقول له ذلك.

فانفتح باب الفرج لعبدالقادر وقال:

ـ أقسم بالله أنني لن أذكر له القصة من أولها إلى آخرها.

فدنت منه ببطء وقاربت شفتها أن تعود إلى ابتسامتها الحلوة، ووضعت يدها على كتفه قائلة:

ـ تعدني وتقسم لي أنك لا تقول له شيئاً.

ـ بل هذا من صالحي.

فانهالت عليه بالقبلات والعناق، وهو يحاول التخلص منها، ولكنه وقع بين أنياب الأفعى الأميرة...

جريدة (الزمان) 8 أوت 1933

المهدي او الصوت القاتل

جاؤوا به من الآفاق ليسهر على مريض ينام وحده ي دار كبيرة، ومجيئه كان بطلب من أحد أقارب المريض وهو الذي يعتني بأمره، ووقف هذا القريب على محطة السكة الحديدية ينتظر وصول الشحنة الآدمية ونزل الركّاب منِ القطار وهو لا يدري طلبه، ولكن الفراسة أوقفته أمام أعرابي زائغ النظرات فاغر الفم في يده خطاب مقفل فاقترب منه وسأله:

ـ أنت المهدي؟

ـ نعم سيدي وهاك الخطاب الذي أرسلوني به إليك.

ففتحه وأخذ يقرأ وهذا بعض ما في الخطاب:

«وحيث أنكم لا تلتقون بالخدم ولا الخادمات في تونس، وقريبكم هذا عزيز لديكم وليس عندكم من يستطيع القيام بخدمته، فقد أرسلنا لكم حسب طلبكم شخصاً أميناً نشيطاً يقوم بواجبات المريض واسمه المهدي وهو حامل هذا الخطاب وعندما يتم شفاء عزيزكم فالمهدي مخير في البقاء في تونس أو الرجوع إلى. . . الجريد».

وكان المريض مصاباً في أعصابه تنتابه أزمات لا يطيق معها رؤية أحد أو سماع أي صوت حتى أنه يكره زيارات أهله وأقاربه من رجال ونساء، واهتدوا أخيراً إلى فكرة إحضار هذا الأعرابي ليقضي له حوائجه الضرورية ويجلس صامتاً.

ودخل المهدي على المريض وكان في الواقع أبكم لا ينطق بحرف وأطلعه

قريب المريض على خفايا الدار وأرشده إلى الغرفة التي ينام فيها، وأوصاه بكل ما يلزم وانصرف، وأول حاجة ذهب المهدي لقضائها هي بلا شك روشيتة[1] دواء يأتي بها من الصيدلية، وبينما هو عائد إلى الدار التقى بصديق له من الجريد، صديق حميم كان يحلم بمرآه فتبادلا القبلات والعناق والسلام والكلام، وأخبره المهدي بوظيفته الجديدة وبما فيها من مزايا الدار الواسعة والخدمةالحضية والغرفة الخصوصية وودّعه وانصرَفا على أن يتلاقيا في ظرف آخر.

صديق المهدي ينام في إحدى الوكالات بفرنك في الليلة إلا أنه كان مديناً لصاحب الوكالة في عشرة فرنكات وأبى هذا أن يقبله إلا إذا دفع الدين القديم وهو يملك فرنكاً واحداً فتذكر المهدي وقدّر في نفسه أن صديقه يقبله في حجرته الخصوصية ولا حرج عليه في الذهاب إلى الدار لأنها خالية من النساء.

وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل فوقف أمام بابها المغلق المنيع ينظر إلى النوافذ حائراً وأخيراً صاح بصوت صحراوي في الحي كله: يا مهدي.

غرفة المريض مطلة على الشارع، وأما غرفة المهدي المنادَى فهي في آخر الدار خلف عشرة جدران، وكان المهدي غارقاً في نوم عميق وهي عادة سيئة في طبيعته غفل كاتب الخطاب عن ذكرها. ونادى الرجل مرة أخرى بصوت أشد وكاد المريض يصعق من الألم، وإلى الآن لم ينتبه المهدي فأشفع الصيحة بأخرى استيقظ لها كل الحي وأقاموا ينتظرون استيقاظ المهدي لينتهي هذا الصياح ولكن المهدي كما هو.

فصاح الزائر ثلاث مرات معاً ثم سكت دقيقة وأطلق من فمه كلمة مهدي عشر مرات بصوت مشدوخ من الغيظ.. والظاهر أنه وقف يبكي مدة غير قليلة وصاح بصوت قارع حزين ومد في ياء النداء كمن ينادي بن عروس يا... مهدي.

ومضت ساعة استيقظ فيها كل نائم إلا المهدي المطلوب.

---

(1) وصفة دواء.

فعاد المسكين إلى المسجد الذي قربَ موعد افتتاحه، وعاد الناس إلى نومهم أو لم يعودوا ذلك علمه عند الله.

وأصبح الصبح فقام المهدي وذهب إلى مطبخ الدار وطبخ لنفسه فنجاناً كبيراً من القهوة وجلس يتمززه.

وكان من الوصايا التي سمعها من قريب المريض أن لا يدق على الباب ولا يزعجه بأي سؤال إلا إذا طلبه.

وحانت الساعة العاشرة وجاء قريب المريض لزيارته فدخل حجرته ومكث فيها نصف دقيقة ثم عاد إلى المهدي يقول: «الرجل مات. . .».

جريدة (الزمان) 10 أكتوبر 1933

القــواد النزيــه

يقول في كل مجلس وأمام كل إنسان:

أنا رجل أحترف القوادة صراحة، ولعن الله من يخفي عيوبه، صناعتي القوادة، وهي عندي أشرف من كثير من تلك الأشغال التي يحترفها الناس، ويرتكبون خلفها كل ضروب السرقة والغش وأي عار في القوادة؟ إنها صناعة ظريفة نظيفة، يتردد من يزاولها بين عقيلات البيوت وغطارفة العائلات ويشاركهم في أخص أنواع سرورهم، ويجلس بينهم مجلس الخل المدلل، لا يرد له طلب ولا يبخل عليه بنفيس.

إذا جاء استقبلوه بالبشر، وإذا انصرف شيعوه بالاحترام. والقوادة بعد هذا لا يستطيع كل إنسان مزاولتها، فهي تحتاج قبل كل شيء إلى رجل خفيف الروح حسن البزّة لبق الحركات واسع الحيلة لطيف المدخل والمخرج. ويتوفر فيه بالجملة دهاء السياسيين، ومرونة المرابين حتى يستفتح كل مستغلق من الأمور، ويسهل المتعسر منها، ولو أنصف الناس لفضّلوه على أنفسهم، وغبطوه على مكانته. ألا ترى الشاب الذي تعلم في أرقى المدارس، وتدرب بين أقطاب الرجال، وعمرت خزائنه بالمال وهو مع هذا كله إذا علق قلبه بحب فتاة ممنوعة أو امرأة مخدرة عجز عن الظفر منها، بنظرة أو كلمة، وراح يسهر الليل مرسلاً آهاته، وزفراته يفكر في الوصول ويدبّر الحيل.

وتمضي عليه الشهور والأعوام وهو عانِتٌ مكروب حتى يجمعه حظه بقواد، فلا يلبث أن يجمع بينه وبين حبيبته في لمحة عين وفركة كعب، فيصبح هذا القواد أحب الناس إليه وأكرمهم عليه منزلة... فهذه بعض مزايا القواد

عند الرجال، ولو عرفتم ما له من التقدير والمحبة عند النساء لتمنيتم على الله أن تكونوا جميعاً قوادين ولا أعرف عند النساء شخصاً أخف ظلاًّ، وأعز مكانة من القواد، يستقبلنه ضاحكات مستبشرات ويمنحنه من خيرهن كل ممتنع على غيره. ووالله إن المتظاهرين بالشرف والعفة في السلوك ليحسدونه على مكانته عندهن، ويودون لو كان لهم بعض ما له في قلوبهن، ولكن تنقصهم الشجاعة، وتعوزهم الحيلة فيعزون أنفسهم بأنهم أتقياء يجتنبون العار ويتنكبون الأشرار...

ذهب مرة قوادنا هذا إلى إنجاز مهمة كلفه بها أحد العزاب، وأعطاه مقدماً عشرة فرنكات سماها أجرة الترام أو التاكسي، فذهب إلى إحدى عميلاته، واتفق معها على الموعد والمكان والشخص الراغب في الوصال، وتركها ومضى إلى سبيله بعد أن استوثق من إنجازها للوعد، وفي اليوم التالي ذهب الرجل الذي كلفه بالمهمة ليتم له المكافأة وليعرف مقدار سروره الذي أدخله عليه فأخبره الرجل بأن المرأة لم تحضر، وأقام له البراهين المقنعة.

فعاد القواد إلى المرأة ليبطش بها، فأبدت له من الأعذار وضروب التمحل ما فيه الكفاية، وإذن عرف قوادنا أن الوصل لم يقع والصفقة لم تتم وخرج ممتعضاً.

في أحد الأيام كان يمشي في (باب البحر) مشية الفيلسوف المتعمق، ويداه خلف ظهره معقودتان كالمستغني عن العالم ومن فيه، فشعر بيد رقيقة تربّت على كتفه، واستدار فرأى الرجل الذي دفع له العشرة فرنكات فصافحه بدلاً من المعهود ووقف يستفسره عن طلبه.

فقال الرجل:

ـــ ... وماذا قالت لك المرأة.

فقال قوادنا وهو يخرج محفظته:

ـــ قد تحقق عندي أن المرأة منعها شاغل عائلي، حيث جاء أخوها فجأة من السفر، وجلس زوجها طيلة نهاره في البيت لمجاملته، واجتمع في بيتها ذاك اليوم كل قريب وبعيد من أفراد العائلة، وقد حاولت التخلص بكل حيلة

فلم تفلح. أقول هذا وأنا على يقين في صدقها، ووجاهة أعذارها، فلست أنا الذي تخدعه النساء، أو تلعب به، وما كانت تجاريبي في صناعتي لتذهب عبثاً طول هذه المدة. وأقسم لك لو كانت كاذبة، أو كان لها سابقة في الكذب لما اتصلت بها، أو جلبت لها أي منفعة، بل أقسم لك أن هذه الكارثة لم تقع بين أصدقائي وصديقاتي إلا هذه المرة، وسل فلاناً وفلاناً وهم سادة العارفين، وخيرة أبناء البلاد عما إذا كنت عندهم طنيناً أو كذاباً يجيبوك بالعكس ويعترفون لك بصدقي واستقامتي.

والآن يا صاحبي ـ وقد أخرج من المحفظة عشرة فرنكات ووضعها في يد الرجل ـ الآن يا صاحبي وقد اختفى السعي، ولم يتم المأرب فهاك نقودك التي قدمتها ترد إليك مع الشكر والاحترام، فليس من عادتي أكل الحرام.

جريدة (الزمان) 7 نوفمبر 1933

الألمـــاسة المزيفـــة

جلس السيد عبدالـرحمان الإشبيـلي على المـائدة الخضـراء في كازينـو «قربص»[1] وكان من كبار زبائنه المشهورين. وهذه الشهرة كلّفته ثروته كلها، وهو الآن يضم أردانه على مبلغ 950 فرنك هي ما بقي له، وربك لم تمض ساعتان حتى خسرها عن آخرها، ووقف هذا المقامر الكبير يفرك، أصابعه، وكان يحمـل في أحدها خاتماً من الألماس ورثه عن الجد الأكبر لا يستطيع أحد تقدير قيمته.

وكان في الكازينو جماعة المرابين والمقرضين واقفين بجيوبهم العامرة لينقذوا المنكوبين في تلك الساعة، وصفقاتهم في هذا الميدان رابحة، يخرج أحدهم بمائة ألف فرنك ربحاً في مدى نصف ساعة.

تقدم أحدهم للسيد عبدالرحمان يقول:

ــ كيف الأحوال.

ــ والله يا موسيو على أسوأ ما ترى، خسرت كلّ ما معي وليس لدي أجرة الرجوع إلى تونس.

ــ لا تنس أن لك هنا أصدقاء كثيرين «أنا واحد منهم»، كم يلزمك من النقود.

ــ لا أستطيع يا صاحبي اقتراض شيء منك لأنني لم أردَّ لك شيئاً من الدين القديم.

---

(1) منتجع من المنتجعات الشهيرة بحماماتها المعدنية كان بها في عهد الاستعمار كازينو للقمار.

ـ لك أن تطلب ما تشاء، ودع هذا الخاتم رهناً عندي وهاك خمسين ألف فرنك على الحساب.

ـ لا تحسن الظن، هذا الخاتم هو مزيف لا يساوي خمسين فرنكاً.

أخذ اليهودي وجعل يقلبه بخبرة بني إسرائيل وذكائهم فرآى ألماسة حقيقية نادرة الوجود لا تقدر بثمن، فقال:

ـ أنا أقبل رهنَ هذه الماسة عندي، وأزيدك خمسين ألف أخرى، وهاك المائة ألف كلها أدفعها لك الساعة.

ـ لا تتعب نفسك ولا تخسر نقودك.

ـ هذا لا يعنيك، هاك مائة وخمسين ألف واعطني الخاتم مؤقتاً كي أفحصه.

فخلع السيد عبدالرحمان خاتمه، وسلمه للإسرائيلي بعد أن تناول منه المائة والخمسين ألفاً، وذهب الرجل إلى سوق الصاغة يقوّم الخاتم عند بني جلدته، فاتضح لهم أن مليوناً من الفرنكات قليلاً في هذه الماسة.

وعاد السمسار إلى السيد عبدالرحمان وكان قد عاد إلى اللعب على المائدة، وخسر ألفين من الفرنكات فقال الإشبيلي:

ـ إنني أشفق عليك من هذه الصفقة الخاسرة، اعطني خاتمي وخذ نقودك. . سر هذا الخاتم هو في خداعه للأبصار. . وقد خدعك وخدعَ المقوّمين الذين شاركوك في اختباره. ومن جهة أخرى فإني أريد الاحتفاظ به كميراث عن جدي الأعظم، لا يليق التفريط فيه. ردَّ لي خاتمي.

فنظر الإسرائيلي بالزهد في الخاتم، وألقاه بين يدي السيد عبدالرحمان فأخذه وأعاده إلى إصبعه وأخرج ما في جيبه من النقود التي اقترضها منه، وقال:

ـ قد خسرت من النقود ألفين ن الفرنكات، فاصحبني لأقترضها لك من بعض الأصدقاء.

فقال الموسيو ديدو كوهين:

ـ ولِمَ هذا التعب؟ ابقِ معك النقود كلها، وهاك خمسين ألف أخرى. ولعنة الله على من يراجعك أو يماحكك.

فقال الاشبيلي:

ـ أما وأنك وصلت إلى هذه التضحية فلا أبخل عليك بالخاتم.

واستل الخاتم من إصبعه مرة ثانية وسلمه إياه فأخذه الإسرائيلي منبهراً مبهوتاً، وطار إلى أصحابه الذين كانوا ينوون تأليف شركة تبيع الخاتم في باريس أو لندن أولهاي. وبإعادة النظر رأوا أن الخاتم قطعة من الزجاج العادي، لا تختلف في شيء عن التي أبصروها أول مرة.

وهنا يقال ان «ديدو» سقط ميتاً حيث لم يفطن إلى أصابع الإشبيلي وهي تبدل الخاتم الحقيقي بالنسخة المزيفة.

جريدة (الزمان) 14 نوفمبر 1933

حماس ساعة

عرف السيد الشاذلي رائحاً غادياً بين أصحابه ومعارفه، يخرج من حانوت هذا ليزور منزل ذلك، ثم يصحبهما إلى صديق ثالث، وما سبب كل هذا؟

الرجل ثري يأكل من ميراث قديم، وكان الحديث الذي يفضي به إلى هؤلاء الأصدقاء أنه قد مل حياة البطالة، وأصبح يخشى عاقبة الاعتماد على ماله الذي ينفق منه، ولا يستطيع زيادة صنتيم واحد.

يقول:

ــ أليس من واجبي، وأنا في مقتبل العمر أن لا أمضي شبابي في التردد على القهوات والحانات. وقت ضائع، ومال ذاهب بئْس الرجل أنا، وبئس العقل عقلي، هاكم الآن يا أصدقائي كل أموالي تحت تصرفكم، ورهن مشورتكم. أريد تأسيس حانوت تجاري يلم شعثي، ويشغلني عن السفاسف.

عليك يا سيد فلان أن تبحث لي عن حانوت للإيجار. وأنت يا سيد فلان عليك أن تشير بالسلعة التي ينبغي لي أن أتاجر فيها. وأنت يا سيد زيد امددنا برأيك الثاقب، وفكرك الناضج، فهذه ساعتكم أيها الاخوان الذين أدخرهم لشدائدي وأستشيرهم في مشاكلي.

لم يقصر إخوان السيد الشاذلي في تنفيذ ما أراد.

ذهب أحدهم يطوف حتى عثر على حانوت خال في موقع عامر من المدينة، بينما الآخر يعد العدة يكتب لبعض بيوت تجارية لتوافيه بأسعار بضائعها، ونماذج من تلك البضائع.

وذهب السيد الشاذلي فشاهد الحانوت وابتسم لـه ابتسامـة الارتياح والرضى. ونظر فإذا الحانوت يلزمه القليل من الترميم والإصلاح، فألح في دعوة النجار والبناء والدهان، وأقسم أن لا يصبح الصباح حتى يكون الحانوت على أهبة الاستعداد.

وفعلاً جاء الصنّاع بآلاتهم، ووضعوها في الحانوت.

وذهب أصدقاء الشاذلي يذيعون الخبر في كل مكان، ويساعدونه في إنجاز كل مهمة تتعلق بالحانوت وتجارته.

وسهر الجميع في إحدى القهوات يتذاكرون في الأمر ويبدي كل منهم النصيحة الواجبة للتاجر، ويبني بعضهم القصور التي سيحوزها السيد الشاذلي من نشاطه الجديد.

ويظهر بعضهم اغتباطه لتحول الشاذلي عن حياة الهزل إلى حياة الجد.

كل هذا والشاذلي تنتفخ أوداجه، ويتحمس لمشروعه ويتأسف على سنوات مضت في البطالة وذهبت بالكثير من ماله.

وهذا بعض ما قال:

«أما عن نفسي فلا أهتم بها، ولا يهمني أن آكل الطير واللحم، أو الخبز والزيتون، ولا يؤلمني أن قضيت الليل في الفراش الوثير أو على أرصفة الشوارع. ولكن غرضي كله هو أن أكوّن ثروة لأخواتي البنات حتى أجهزهن وأسترهن، وأجعل لكل واحدة منهن ثروة تنفعها طيلة حياتها سواء بقيت مع زوجها أم فارقته. أخواتي هن هّميَ الأعظم في هذه الحياة، ولأجلهن أريد التفرغ للعمل.

قال أحد أصدقائه:

ــ لا تنسى أن صاحب الحانوت، سيحتم كتابة عقد الإيجار غداً الصباح.

قال الشاذلي:

ـ عليك أن تحضر به غداً إلى المنزل قبل أن أخرج وتُجري كل ما يلزم.

في هذه الليلة أقلع الشاذلي عن تناول «الابيريتيف»، وذهب إلى منزله في نحو العاشرة وبات يفكر في هذه الأعمال الصالحة التي سيزاولها في حياته المقبلة.

في الصباح كان الواقفون أمام باب دار الشاذلي هم: الأصدقاء، صاحب الحانوت.. النجار.. البناء.. إثنان من سماسرة البيوت الأوروبية حتى لقد كان أهل الحي يحسبونهم جاءوا لتشييع جنازته.

وطال الانتظار على الباب من التاسعة إلى العاشرة. وأخيراً تقدم أكثر الاخوان دلالاً على الشاذلي، وصاح يناديه فنزل السيد الشاذلي منتفخ الوجه يفرك عينيه من النوم.

قال له الصديق:

ـ ألا تعلم أن الكل في انتظارك؟

ـ لأي شيء؟

ـ للحانوت ومعدات الحانوت.

فقال الشاذلي:

ـ أرجوك أن تصرفهم الآن فقد أقلعت عن الأعمال التجارية.

جريدة (الزمان) 21 نوفمبر 1933

العشاء

الرجل مصاب بمرض أخلاقي يعز شفاؤه، بمرض الكرم ولا كرم، وبالجاه ولا جاه يدعوك إلى الغذاء أو العشاء، ويسألك إذا كنت في ضيقة ليفرجها أو في كرب ليكشفه عنك، وله لباقة في السؤال وحكمة بارعة في اختيار الوقت الذي يسألك فيه، فلا يدعوك لطعامه إلا إذا وثق من أنك قد تغديت أو تعشيت، ولا يسألك إلا في مجلس حافل بالقوم، والرجل كثير الطواف في المدينة ليفتش عن ضيف طارق أو صديق شارد فإذا عثر به وكان وقت الظهر صافحه صائحاً:

ـ أيها الرجل؟ قلبت عليك الأرض فأعياني وجودك، وسألت عنك إخوانك وعارفيك وأهل منزلك فما عرفوا أين مقرك. والله لا أعفيك من العتاب، بل أكاد أنزل بك العقاب لما كلفتني من المشقة في البحث عنك يا أخص الاخوان.

ويلتفت السيد الكريم فيرى صديقاً آخر يمر فيناديه ويقول:

ـ قف معنا قليلاً فحاجتي إليك شديدة ويعود فيستمر في تقريع الرجل على الوتيرة الأولى. ما هكذا يفعل الأصدقاء والأحباب، تهجرني هجراً غير جميل، وتنزلني في هذه المنزلة من الجفاء يا ملعوناً.

وقد يمر قلة من طلبة الجامع[1] أو جماعة العمال فيوقفهم ويصافحهم الواحد بعد الآخر وهو يجذب كلاً منهم من يده لتلتئم من الجميع حلقة تحيطه بالجلال في وسط الشارع.

(1) جامع الزيتونة.

ويعود إلى المسكين الأول ويقول فلنفرغ الآن من العتاب والحساب بعد أن التقينا وعفا الله عما سلف، أما وقد لقيتك الساعة فإني أدعوك في هذا المساء إلى تناول العشاء معي. وليكن ذلك في الساعة السابعة واحذر أن تخلف الميعاد، أو تهرب فوالله لأقاطعنك إلى الأبد، أستودعك الله؟

ولا يكاد المدعو إلى العشاء يذهب حتى يناديه مرة أخرى وهو بعيد عنه:

ـ لا تنسى الساعة السابعة أنا في انتظارك؟

ثم يلتفت إلى الحلقة التي جمعها في الشارع ويترنم قائلاً:

ـ أحب هذا الشخص من صميم قلبي، وأود لو وسعه منزلي أو اتسع له جيبي ما دام حياً. أعرفه حق المعرفة فهو صديق شبابي وانه أعز أحبابي، ويؤلمني والله ما يقاسيه من إفلاس البطالة ومضض الفاقة، ولكن هذا ما يريده والله.

ثم يتخلص منهم كما تخلص من الأول ويذهب في طريقه شامخ الأنف لما أذاعه عن نفسه من الكرم. أما المدعوون فيجهلون مقصده، فالبسيط منهم يأتي في الميعاد والآخر يتحمل جميع الدعوة العلنية ثم يبقى في انتظارها ليلة كاملة أو ينساها وينسى الداعي معاً.

جاء مرة من الجزائر فريق لاعبي كرة القدم، واحتفل بهم هنا احتفالاً شائقاً في نحو الساعة الثامنة مساء. وكان الفريق قد أنجز مهمته الرياضية ونجح فيها فنظم له أنصار الرياضة حفلة تكريمية لأنه سيعود إلى الجزائر في الصباح الباكر وقام الخطباء يرحبون بالمحتفل بهم، ويطنبون في الثناء عليهم، يتمنون لتونس والجزائر الخير والتفوق في الرياضة وغير الرياضة.

ودخل صاحبنا وأبى إلا أن يخطب، ومن ذا الذي يمنع سحبان تونس عن الخطابة فصعد المنبر يقول:

ـ لست أيها السادة من رجال الرياضة لأشعر الشعور الحقيقي بالسرور الذي يغمركم في هذه الساعة بمهارة ضيوفنا في لعبهم، وأترنم بوصف صولاتهم

وجولاتهم في ميدان النزال، ولكن لا يفوتني الافتخار كعربي تربطني بهم صلة الجنس وكمسلم يجمعني وإياهم دين واحد. ولا أطيل الكلام في موقفي هذا فلست من رجاله ولا أشباه رجاله إنما لي على حضرة رئيس الحفلة اقتراح أرجو أن يعرضه على ضيوفنا الأماجد بالنيابة عني لأنني أخجل من عرضه بنفسي، ذلك أنني أدعو الفريق الرياضي الجزائري بأعضائه ورؤسائه وتابعيه إلى تناول الغداء غداً في منزلي الحقير، وأملي عظيم في إجابة مطلبي.

ولكن أصوات المحتفلين ارتفعت من كل ناحية تثني على كرمه وتخبره بسفر الفرقة في الصباح ولا غالب إلا الله، فكاد الرجل يلطم وجهه ويشق ثيابه إلى أن انتهت الحفلة بسلام.

في أحد الأيام قدم إلى تونس عالم جليل من علماء جامع القرويين في فاس للنظر في قضية عائلية تتعلق بزوجته التونسية الأصل، ونزل في أحد الفنادق الكبيرة وقد ذهب لمقابلته بضعة عشرة شخصاً كلهم من أعيان المدينة وعلمائها الأجلاء، ولما كانت حجرة الفندق لا تتسع لهذا العدد فقد دعوه للاجتماع في منزل أحدهم، وناهيك به من منزل رحب الأفنية بديع الهندسة، ولم يكن أصحاب هذا المنزل مستعدين لنصب موائدهم لمثل هذا الضيف أو غيره، وحسبهم أنهم تكرموا بمنزلهم ليجتمع فيه الشيخ بأحبابه، وكان حاتمنا من الحاضرين فاقترب من أذن الشيخ وقال:

ـ هل لك أن تتكرم بإجابة دعوتي إلى تناول الغداء عندي، مثل هذه الدعوة لا يرفضها شيخ وقور لم يعتد الأكل في المطاعم.

قال:

ـ نعم ولكم الشكر.

وتحرك الجالسون لمسامرة الضيف والترحيب به، وكاد أحدهم أن يدعوه لتناول العشاء في بيته، وما نطق بالحرف الأول من دعوته حتى قام صاحبنا واقفاً وألقى عليهم بأن الشيخ فلان ضيفي في هذه الليلة أقسم بالله العظيم لن

يشاركني فيه مشارك أو ينازعني فيه منازع فإن كانت له بكم دعوة فالأيام بينكم طويلة، أما الليلة فهو عندي والسلام.

ولم يسع القوم إلا أن يتقهقروا أمام حماس الشيخ ويتقهقروا في الميدان وانقضت الزيارة وقام كل إلى سبيله، ومعن ابن زائدة متعلق بأردية الرجل كأنه سيهرب منه وسار معه حتى باب الفندق يكلمه في السياسة والاجتماع والأدب إلى أن وقف الإثنان على باب الفندق، فقال صاحبنا:

ــ الآن قد اطمأنت قلوبنا عليك وسألقاك بحول الله عندما أفرغ من أعمالي.

حدثنا الأعرابي المتفرج الذي يخدم في الفندق في جملة ما يتحدث عن المسافرين العرب وحماقاتهم إذا نزلوا الفنادق، إن هذا الشيخ الفاسي دق الجرس في الساعة الثانية صباحاً يطلب فنجاناً من الحليب وشيئاً من الخبز ثم يتعجب ويقول هل هذا وقت عشاء؟.

جريدة (الزمان) 28 نوفمبر 1933

الحب الهمجي

من يوم أنْ عرفها وهو يلقى منها ضروباً من الاحتقار لا يحتملها إنسان له كرامة، ولكن الحبَّ يشترط الخضوع لكل شيء والرضى بما يفرضه أحد المحبين على الآخر. دخل صاحبنا منزل حبيبته في ساعة القائلة فوجد فيه شخصين لا عهد له برؤيتهما قبل هذه الساعة.

والواقع أنهما أيضاً لم يتوقعا مجيئه، ولكن المنزل منزل امرأة تزاول أحد الفنون الجميلة. ومن الأمور العادية أن يلتقي عندها الناس في مختلف الأجناس. ولكن هذا الداخل شعر بكابوس من وجود شخصين لم تقدمهما السيدة الفنانة ولم تقدمه إلى أيّهما، وكان المجلس في غرفة النوم فأراد الفتى أن يأتي بحركة يثبت بها للزائرين المجهولين أنه ذو شأن في البيت، فتخطاهما وذهب إلى أن اقترب من سرير النوم، وجلس فوقه وهو ينفخ متأففاً ثم نزع رباط رقبته واضطجع على الوسادة ينفخ من شدة الغيظ، واستمرت السيدة في حديثها مع الزائرين الاثنين، وكان الحديث يختص بإحياء بعض الحفلات. ثم قام الزائران وخرجا بعد أن رمق أحدهما صاحبنا المضطجع على السرير بنظرة استفهام؟

قالت الفنانة لصاحبها:

ــ ما الذي جاء بك هذه الساعة؟

فأجابها ورأسه يهتز من عنفوان الدلال والاعتداد بالنفس:

ــ هل أقلقتك؟

ــ نعم ولا أريد أن أراك بعد اليوم.

ــ قلبي هو الذي جاء بي.

ــ تكذب، فالذي جاء بك فقرك.

ــ لقد افتقرت في سبيلك.

ــ أنا أعرفك معدماً.

ــ وأنا الذي أقدم لك نقودك التي تملأ جيبك.

ــ تكذبين.

ــ أين الخاتم الماسي؟

ــ لا يزال مرهوناً.

ــ قلت لك من قبل لا تدخل هنا قبل أن يكون الخاتم معك.

ــ لا تضجريني بذكر ذلك الخاتم، انك لست حريصة عليه لأنه ثمين، بل لأنه تذكار لرجل تعشقينه.

ــ نعم ولهذا أريده.

ــ يا لك من مومس؟

ولكن جواب الفنانة كان مصحوباً بصفعة على وجه صاحبنا الخشن، فبادرها هو أيضاً بكلمة ألقتها على الأرض، واشتبك الإثنان في صراع...

ولا تحسب هذا الصراع ينتهي إلى دار البوليس أو الانفصال وإنما ينتهي دائمًا بضحكات تمتزج بالدموع، وبعناق يلطِّف ألم الضرب.

* * *

وعلى هذه الوتيرة يعيش الصاحبان وكأنهما يلتمسان في الشجار لذة يعرفانها جَميعاً، وفي الغالب تقع المشاجرة على أثر وجود الزوار في هذا المنزل. فإذا كان الزائر رجلاً بدأ الرجل العاشق بالمشاجرة، وإذا كانت امرأة بدأت السيدة العاشقة.

على أن كليهما إذا خلا بنفسه وفتش أعماق سريرته لا يجد أثراً لحب الآخر فلطالما شكا العاشق إلى إخوانه شقاءه بهذا الحب الكريه، وكم أسرت هي إلى صاحباتها بأنها تصحب شاباً انتفاعياً لا قلب له ولا غاية إلا الحصول على أموالها.

* * *

وفي أحد الأيام كان عند السيدة زائر عتيد ممتاز على جميع الزوار، زائر يدفع ولا يقبض، وينفع ولا ينتفع، وليس من السهل على صاحبها العاشق أن يقتحم عليه المسكن ويتخطاه ليجلس على السرير ويحل رباط رقبته.

وجاء العاشق في تلك الساعة فوقفت الفنانة على الباب:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أدخل.

ـ لا سبيل إلى ذلك.

ـ هذه إرادتي.

ـ ليس لك أي إرادة من اليوم.

ـ بل كل شيء هنا يسير بإرادتي.

ـ إني أطردك كما أطرد الكلب.

فأخرج العاشق مسدسه وأطلق واحدة على المرأة والثانية على نفسه، وحمل الإثنان إلى مستشفى واحد في حالة خطرة، إلا أن جرح المرأة لم يكن مميتاً ولذلك استطاعت النهوض من الفراش قبله، وطلبت من الممرضين أن يقودوها إلى فراشه،فوصلت إليه وكان صاحبنا الجريح في شبه غيبوبة، وشعر بحركة بجانبه ففتح عينه فرأى الفنانة جاثية بجانب فراشه تبكي:

فسألها:

ـ ما الخبر؟

فأجابت بتضرع:

ـ أحبك . . .؟

جريدة (الزمان) 2 أكتوبر 1934

الكهــربــاجــي

صديقي (واسمه مخمخ) إذا رأى إنساناً يحسن البغبغة باللغة الباريسية كأبناء باريس عظم في عينه، واعتقد أنه من رجال الساعة القادرين على كل شيء فلا يلبث أن يتبادل معه «الكارت فيزت»[1] ويقرع معه كأساً على «الكونتوار»[2] ثم يدعوه في اليوم التالي إلى تناول القهوة والغداء في منزله المعمور.

وسر هذا الاحترام لكل من يحسن البغبغة الباريسية هو أن مخمخ يحاول اتقانها. ويعتقد أن كل من يتقنها يكون وجيهاً في هذه الدنيا موفقاً في كل ما يعمله سواء كان تاجراً أو نجاراً أو موظفاً أو عاطلاً. . .

وسواء كان مسلمًا أو يهودياً، أو نصرانياً أو صابئياً. . . فلا فرق بين عباد الله عند هذا المخمخ.

ويحصي مخمخ الفوائد التي أصابها من صداقة اخوانه المبغبغين فيقول لجليسه:

ــ انظر بالله إلى الكسوة الجميلة التي ألبسها، وقل ما رأيك فيها؟ انها تساوي 400 فرنكاً على الأقل. فصلها لي صديق أقام في باريس سبعة أعوام، ثم جاء إلى تونس واتخذ محل عمله في بيته.

---

(1) بطاقة الزيارة.

(2) المقصف.

هل تعرف بكم اشتريت القماش؟ بتسعين فرنكاً فقط.
وهل تدري كم أخذ صديقي الخياط؟ أجرة تفصيلها؟
ويدني مخمخ فمه من أذن جليسه ويقول بصوت خافت:
ـ لم يأخذ صديقي سنتيمًا واحداً قسمًا بالله العظيم.

يقولها ويضحك ضحكة الانتصار، وهكذا لا ترى مخمخ إلا مذيعاً لجمائل أخوانه متحدثاً بخصائلهم فخوراً بمعرفتهم، فكلما أخاط الموسيو فلان بذلته مجاناً، ركب له الموسيو علان آلة الراديو بالتقسيط. وسهل له الموسيو تبرتان الموظف مهمة الحصول على «أبونيه»[1] في (الترام) أو سعى له في تخفيض اداءات المجلس البلدي.

وكلما تشرف مخمخ بصداقة شخص جديد من أولئك الذين يعجب بهم، أثبت له أنه يفوقه في التمدن في البغبغة ومعرفة «ايتيكيت»[2] العصر الحاضر فيدخله في الحال إلى داره، ويقدم له أخواته وقريباتـه، ومن عندهن من الضيفات والمعارف وهؤلائكن اللاتي لا يرين عيباً في السفور إلا أمام المسلم، هؤلئكن يستقبلن بدورهن جناب الضيف بكل حفاوة، ويطلعنه على ما في الخدور من رشاقة وخفة لا تقلان عن رشاقة وخفة الباريسية. . .

وقد كان جيران مخمخ رجالاً ونساء ينظرون بارتياب إلى المترددين على باب داره، من مقبعين «ومكسكتين»[3] وحاسرين، ويتهامسـون عن معنى دخول الطوائف في دار عربية فيها ثلاث فتيات وامرأة عجوز تمت إليهن بصلة قرابة بعيدة. ثم «وصيف» يبلغ السبعين من عمره لا يتحرك من مكانه في «الدريبة»[4].

ولكنهم ألغوا هذه المناظر المتكررة فلم يبق لهم بها اهتمام، في أحد الأسابيع عرضت دار للسنما فيلمًا من الأفلام التي ذاع صيتها في العالم، وازدحم

---

(1) اشتراك.
(2) أصول.
(3) القبعة العسكرية.
(4) البيت ذو الطراز العربـي

الناس على أبواب السينما وحجزوا محلاتهم مقدماً، فذهب مخمخنا الذي لا يحب أن يفوته هذا الفيلم إلى دار السينما وكانت الليلة الأخيرة من عرض الفيلم.

وقد وقف مخمخ أمام شباك التذاكر يقرأ قائمة أسعار الدخول، فوجد أن ثمن أسفل الدرجات ثمانية فرنكات. وكانت الساعة التاسعة والنصف والسينما مقفولة على المتفرجين الذين يشاهدون المحليات وهي تستغرق الجلسة الأولى قبل الاستراحة.

واجتمعت الشياطين على مخمخ بعضها يحرضه على المجازفة ودفع الفرنكات الثمانية، والبعض ينصحه بالرجوع ولا سيما وقد ذهب نصف الفرجة.

ولكنه أخذ يطوف على صور الإعلانات المعروضة في مدخل السينما، ويتفرج عليها واحدة واحدة لعل مشاهدتها تغنيه عن مشاهدة الفيلم. فلمح على باب السينما فتى حاسر الرأس في العشرين من عمره في يده تذكرة دخول كانت الأخيرة الباقية من عدة تذاكر اشتراها من إدارة السينما ليبيعها لحسابه، فتبادل الاثنان نظرات العرض والطلب والإيجاب والقبول، فقدم الفتى التذكرة إلى مخمخ وسأله باللهجة الباريسية التي يتكلم بها أبناء «الجران بولفار»[1].

ـ هل تأخذ هذه التذكرة الأخيرة؟

فأدنى صاحبنا أنفه من التذكرة كالقط الشبعان الذي يتشمم كسرة الخبز اليابسة، وقال مبغبغاً:

ـ «تغوتاغ» (يعني الوقت فات).

ولم يلح صاحب التذكرة في عرضها على مخمخ لأن خلقته وملابسه لا تشجعان على معاملته.

فسأله مخمخ:

ـ يلوح لي أنك تعرف مدينة باريس معرفة جيدة.

---

(1) الشوارع الكبيرة.

ـ أجل يا مولاي، وأقمت فيها سبعة أعوام أشتغل «كهرباجياً» بثمانين فرنكاً في اليوم، ولكن الوقت المنحوس هو الذي أوقفنا هنا.

قال هذا ثم أخذ يصلح رباط كرافاته الأنيقة وينفض ما علق من الغبار ببدلته الثمينة كأنه يستعد للانصراف.

كبر بياع التذاكر في عين مخمخ، وظهر له أنه من النوع الذي يسمى «دوبرويار» يعني (يدبر رأسه) ويكسب رزقه بمختلف الوسائل، فدعاه بلطف ليتناول معه القهوة في (البار)[1] الملاصق لباب السينما فلبى الدعوة. ووقف الاثنان يتذكران أحوال هذه الدنيا المتعبة، وكيف يتقلب فيها الإنسان من عمل إلى عمل ومن مذهب إلى آخر، وانتهت هذه المعركة بصداقة متينة بين الاثنين ملخصها أن بياع التذاكر قدم التذكرة إلى مخمخ بلا ثمن، وعن طيب خاطر، وقدم معها اسمه وهو «البير» وافترق الاثنان على أن يتلاقيا بعد مشاهدة الفيلم.

شاهد مخمخ ذلك الفيلم وخرج يحفظه عن ظهر قلب ليتحدث عنه في المجالس ومع وجهاء البلد. ولمح صاحبه واقفاً فصافحه شاكراً، ودعاه بدوره إلى شرب قهوة أخرى حيث دفع البير القهوة الأولى. وسبحان مؤلف الأرواح، فقد عشق كلاهما الآخر وحاول كل منهما أن يشيع زميله إلى منزله، ولكن مخمخ هو الذي تغلب على صاحبه وشيعه إلى منزله الواقع في آخر نهج (تيار). وقبل أن يدخل الفتى إلى داره استحلفه مخمخ أن يزوره في داره الواقعة في الأحياء العربية ليشاهد تلك الهندسة الشرقية وتلك المفروشات القديمة وتلك الأقواس والأعمدة فوعده بالمجيء.

وفي تلك الليلة أقبلت امرأة أوروبية في حدود الخامسة والأربعين تجر خلفها كلباً أبيض منتفش الوبر ـ والله أعلم من أين أقبلت ـ ودنت من ألبير وحيته بدون كلفة فقدمها ألبير إلى زميله الجديد قائلاً:

ـ اسمح لي أن أقدم لك زوجتي.

---

(1) المقصف.

وكانت «زوجتي» قد مدت يدها مبسوطة لمخمخ كما تفعل الكويسات فهوى عليها بقبلة يعجز عن مثلها (موريس شيفالييه)[1].

وبعد فراغ الثلاثة من الثرثرة التي تلزم لمثل هذا الموقف طلب مخمخ من السيد البير أن تكون مدام البير معه في الدعوة. وإلا فلا...

جاء البير وزوجته وعقدا أواصر الصداقة مع العائلة بأكملها وكانت الحفلة على النمط العصري البحت...

وتكررت الزيارات فكانت مدام البير تأتي وحدها في أكثر الأحيان، فإذا صادفت مخمخ في الدار خصته وحده بجلسة طويلة في حجرته الخاصة التي لا يقترب منها بنات الدار ما دام السيد مخمخ رب الدار جالساً فيها مع زواره.

وهكذا أصبح مخمخ يعتقد أن صديقه الجديد من أنفع الأصدقاء وأعظمهم فائدة...

ارتفعت شكوى أهل الدار (دار مخمخ) من أخلال الأجهزة الكهربائية، وطلبوا إلى مخمخ أن يأتي بأحد الكهرباجية ليصلح تلك المصابيح التي لا تشعل بسهولة. ويعدل «انتان»[2] الراديو المنصوب على السطح بدون فائدة. وليشرح لهم كيف يستعملون آلة التحديد[3] الكهربائية بدون أن تبتلع التيار كله.

ثم ذكروه بصديقه البير الكهرباجي وأكدوا له أنه ابن بجدتها الذي يرأب صدعها ويصلح فاسدها. وطار مخمخ إلى البير، ورفع إليه الشكوى ورجا منه الحضور بأدواته إلى الدار في أول فرصة تسنح له.

فبينما الآنسات المخمخيات مجتمعات في ردهة الدار في الضحى يتمتعن بحرارة الشمس، دق الباب فأدركت صغراهن أنها دقة ألبير فقفزت إلى الباب في ثلاث خطوات، وفتحته وأبصرت البنات ذلك الألبار داخلا وقد احمر وجهه المستطيل

---

(1) ممثل فرنسي معروف.

(2) الهوائي.

(3) الكي.

الذي يشبه وجه العروس الجميل، وقد دهن شعر رأسه المجعد بالبريانتين ورقد شعر حاجبيه الكثيفين المتصلين بدهان الكوزماتيك، تهتز المحرمة الحريرية على صدره وتفوح من أرادنه روائح الخمسة آلاف زهرة.. فـارتفعت صيحات الترحيب ورنات ضحكات الفرح وامتدت تلك الأيدي ذات المعاصم الجميلة العارية للسيد البير ليصافحها الواحدة بعد الأخرى، فصافح البير كل فتاة بحسب وقع جمالها في نفسه ورأى الأنوثة التي أنضجتها الخدور تفور وتنساح حوله وتحت قدميه، وأحس بأنه السردوك المنطلق وراء دجاجاته وملك يمينه.

ومن هو ألْبير؟

هو من الأشخاص الذين تعجب بهم أقذر النساء ويتخذنهم خلاناً ينفق عليهن. وقد عرفنا صاحبته العجوز التي تشتغل في كل حرفة لتقدم له لوازمه.

ويعلم الله أنه منذ بلغ الحلم لم يحترف غير حرفة الحب التي أكسبته خبرة بالمرأة، وعرفته جانب الضعف منها، حتى أنه ليفوق في ذلك أعظم علماء النفس. وحتى أنه ليبلغ بفجوره ودعارته من أول مقابلة مع المرأة ما لا يبلغه الداهية السياسي الذي ينصب لهن الأحابيل ويحبك المؤامرات.

ما كاد البير يتوسط صحن الدار حتى جذبته إحدى البنات من يده لتريه «البريزة»[1] التي تركب جهاز آلة الحديد، بينما كانت أخـرى تلح أن يصلح قبل كل شيء لمبوبة الكوجينة[2]. وعلا صياح الثالثة التي تريد أن يصعد معها إلى السطح ليصلح «اللانتين».

ولكن العجوز التي كانت جالسة على كنبية في ركن الردهة قالت:

ـ دعوه أولاً يركب لمبوبة في مخزن «العولة»[3] المظلم الذي لا يعرف فيه الإنسان مكان المحمصة من مكان الفحم.

قالت ذلك وهي تشير بيدها إلى ذلك المخزن، فتقدم البير فأبصر حجرة

---

(1) زر الكهرباء.

(2) فانوس المطبخ.

(3) المؤونة.

ضيقة مرتفعة السقف وقد اصطفت في جوانبها وعلى رفوفها صفائح وشكاير وما إلى غير ذلك من الخيرات. فأعجبه أن يبدأ بها وطلب في الحال سلمًا يصعد عليه إلى الخيط الكهربائي المعلق، فجاءت إحداهن بالسلم فصعد برشاقة القط الذي يتسلق الشجرة، وجس، واختبر وفحص، وعرف، ولم يكن مع هذا الكهرباجي أي آلة يستعين بها في عمله. فقال للبنات (وكان الكلام دائمًا باللغة الباريسية) عما إذا كان يوجد عندهن مسمار أو قادوم أو أي قطعة حديد مذببة فسارعت إحداهن وأحضرت صندوقاً صغيراً مملوءاً بكمية عظيمة من الأشياء المطلوبة ودعته للنزول ليختار منها ما يشاء ولكنه قبل النزول اقترح أن تصعد إحداهن على السلم لتحبس بيدها السلكين الإيجابي والسلبي لكي لا ينفلتا مرة أخرى. . .

فصعدت والله أجملهن وأصغرهن، وتناول ذراعها ليساعدها على صعود الدرجات إلى أن وقفت معه على الدرجة الأخيرة وهي أضيق درجات السلم. وكأنما يعرف سيدي البير قول الشاعر العربي: «سم الخياط مع الأحباب ميدان».

أمسكت الطفلة بالخيطين ونزل البير إلى صندوق المسامير والخردة فأخذ منه القطعة اللازمة، وقفز إلى الدرجة التي تقف عليها الفتاة وأخذ يباشر عملية الحل والربط.

هذا والأخرى واقفة في أسفل السلم تنظر إلى جسم ابنة عمها من تحت الثوب وفي يدها عدة مسامير أخرى تحت طلب البير. . .

وكانت الثالثة قد دخلت إلى إحدى الغرف لتبدل ثوبها القذر الذي رآه الضيف في هذه الزيارة المفاجئة بثوب آخر يناسب المقام. . .

وفعلاً أصلح الكهرباجي بيت المؤونة فأشرقت بالأنوار وانشرح صدر العجوز.

ثم انتقل لإصلاح ما بقي بين الأجهزة الخربة بمساعدة البنات وبين عطفهن وكرمهن.

قضى البير ساعتين وهو يصلح ويقد ويستريح في جلسات يتناول فيها القهوة ويدخن ويسامر، وقد انطلق صوت الصفارة آذناً بمجيء مخمخ من محل عمله. فاقترحت إحداهن على البير أن يسرع لإصلاح «الانتين» واستعدت هي لمساعدته بدورها، ولكن البنات الثلاث صعدن معه إلى السطح فعرف كيف يأمر الأولى ثم الثانية بالنزول إلى أسفل الدار لتحمل كل منها آلة أو أي شيء آخر يلزم لتعديل اللانتين.

وفي النزول والصعود على السلالم يوجد الوقت الكافي للسيد البير.

ولكن صوتاً قوياً دوى من فوق السطح هو صوت السيد الجيلاني بن. . . المجاور لمنزل مخمخ.

ـ إيش نية القباحة هاذي يا كلاب يا حلالف يا أوباش.

وكان الرجل في بيته يقرأ كتاب الله وبجانبه زوجته وبناته، إذ دخلت الخادمة التي كانت تنشر الغسيل على السطح فقصت ما رأته من المناظر المنكرة.

واستمر الرجل يصيح ويسب ويعدد مساوىء جيرانه الملاعين منذ حلوا بالحومة.

وقد دخل مخمخ فأبصر ألبير بين البنات خجولاً كالبنت العذراء. وقد بشرته البنات بأن كل الأجهزة الكهربائية صارت على ما يرام.

فضحك مخمخ ضحكة كبيرة ظهرت منها كل أسنانه كما تظهر أسنان الحمار الذي يشم بولة، وأسدى إلى ألبير أعظم آيات الشكر، إلا أنه سمع صياحاً من بالسطح وبالرغم من أن البنات كن يتضاحكن بأصوات عالية ويهرجن بمختلف الأحاديث فقد كان صوت الجيلاني يرن في حوش الدار. وأخيراً قالت كبرى البنات لمخمخ:

ـ الظاهر أن الجيران لم يعجبهم وجود الموسيو البير على السطح وهو يصلح «اللأنتين».

فتعهد مخمخ بإصلاح الأمر، وصعد يعد كل أربع درجات معاً إلى أن وقف أمام الجيلاني وقال:

ـ سامحنا من فضلك هذا صديقي الكهرباجي، أرسلته أنا بنفسي لإصلاح الأسلاك وهو إنسان لطيف ياسر. ياسر. ومؤدب ياسر ياسر. ومخلص ياسر ياسر. وسأقدمه لك الآن لتعرف صدق ما أقول.

جريدة (الشباب) 10 ديسمبر 1936

«الــدرْيـبــة»

دريبتنا هذه تذكرك بمدخل قصر الخليفة الأموي أو العباسي التي كان الشعراء والعلماء يجلسون فيها حتى يأذن لهم أمير المؤمنين بالدخول إلى حضرته ويبلغ طولها عشرة أمتار وعرضها ثمانية، مبلطة بمربعات واسعة من الرخام، وترى في سقفها المرتفع نقوشاً دقيقة تدل على أن الدار بنيت في عز الإسلام، وفي عصر ازدهار الفن المعماري العربـي.

آلت هذه الدار هي ومساحات واسعة من الأراضي، إلى عائلة «بَلْدية» تعيش من ريع هذه الأملاك، ويرأس هذه العائلة كبيرها السيد علالة، وفي كنفه يعيش إخوته وأخواته، وعدد من قريباته العوانس والمطلقات.

يعمر هذه الدريبة رهط من الغلمان تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والعشرين، وتختلف ملابسهم البالية بين «بلوزة»[1] و «جاكيتة»[2] و «جبة»[3] و «مريول»[4] و «بلغة» و «قبقاب»[5].

هذا «الجيش» جمعه «المنـوبـي» خادم خادم العائلة ليسخّر كل واحد منهم فيما يصلح له من الكنس والمسح، وشراء المعدنوس والخضرة. . لأن المنوبـي

(1) سترة ترتدي فوق الملابس.
(2) جمازة.
(3) لباس تونسي معروف.
(4) صدار.
(5) مداس من الخشب

يعتبر نفسه واحداً من العائلة لمرور عشرين عاماً عليه، وهو في خدمتها، وقد أسند إليه السيد علالة وأولاده ما يلزمهم من النقود. وبإذنه تشتري نساء العائلة ما يلزمهم من «كلاسط»[1] و«محارم»[2] وحنة وذهب مكسور. . .

وللمنوبي زوجة في الدار وهي من الخادمات اللاتي ولدن في كنف العائلة. . .

رفع أهل الحومة عدة شكاوى إلى البوليس من الأذى الذي نالهم من أصدقاء المنوبي الذين يقضون النهار في لعب «الفوتبال»[3]، ولا ينتهي لعبهم إلا بعد أن يحطموا زجاج عدة نوافذ، ويصرعوا تحت أقدامهم عدة أطفال من أبناء الجيران فإذا جاء الليل عقدوا في الدريبة أو على بابها سهرة غنائية لا يوجد مثلها في ماخور.

ولكن الشكاوى ذهبت سدى لأن السيد علالة راض عن هؤلاء الضيوف، بل لا يكاد يعيرهم التفاتاً إذا دخل أو خرج.

في أواخر الصيف جاء أحد الفلاحين إلى السيد علالة ليدفع له كراء مائتي هكتار استأجرها منه منذ عشرة أعوام. وقد اعتاد السيد علالة أن ينزله في إحدى حجرات الدار، ولكن الحجرة في هذا العام تسكنها امرأة من قريباته جاءته غضبى من زوجها، فأمر المنوبي بإعداد حجرة واقعة خلف باب الدريبة الداخلي، ولم يكن السيد علالة يعرف أن المنوبي قد أعطى هذه الحجرة إلى أكبر أعوانه المدعو عصمان، فرضخ المنوبي على غير عادته لأمر سيده لعلمه بمقام الضيف وعظم فائدته، ودخل الحجرة ورفس ما فيها من جراية وفراء و«شكاير»[4] وصاح بأعلى صوته:

ــ ايجا يا سي عصمان.

---

(1) جوارب.

(2) مناديل

(3) الكرة.

(4) أكياس.

ودخل عصمان «بسوريته»[1] القذرة المقطوعة الكمين، وسرواله المفتوح من الأمام:

ـ اشنوه يا سي المنوبـي.

ـ هز فراشك من هوني، وبره ارقد في الدريبة، الراجل باش يرقد الليلة هوني.

قال هذا، وأدار ظهره ودخل إلى الحرم، فحدجه عصمان بنظرة حادة ثم سحب الفراش إلى الدريبة لينام بين بقية الإخوان.

تمت هذه العملية وكان نساء الدار في الحمام ولم يرجعن منه، ووقف عصمان في الدريبة تحت نور المصباح الضئيل وقد تصبب عرقاً ولمع لحمه البرنزي كأنه وقاد في باخرة، وجلس الإخوان ينـظرون واجمين إلى شكله المخيف، ويتتبعون بريق عينيه باهتمام فذرع الصالة ذهاباً وإياباً ثم وقف على باب الشارع وقال:

ـ ما تسكْروش الباب أنا راجع فيسَعْ.

وخرج يحك الأرض بقدميه الحافيتين ثم وقف تحت مصباح الشارع وأخرج ما في جيبه من النقود وعدّها فإذا هي فرنكان[2] وبضعة صوارد[3] فاستمر في طريقه.

في الساعة الثانية صباحاً كان الضيف يغط في نومه على كنَبة نظيفة أفاقته على قرقعة خفيفة حدثت من الباب وهو ينفتح ورأى شبحاً يدنو منه فاستوى جالساً وشمَّ في نفس اللحظة رائحة عطرة جاء بها هذا الداخل فاطمأن قلبه.

قال الشبح عندما اقترب من الكنبة بصوت لا يكاد يسمع:

ـ وينك يا حلّوف البارح وأوّلة البارح؟

---

(1) قمصان.

(2) العملة التي كانت متداولة آنذاك.

(3) وحدة العملة.

فسكت ثم شعر الشبح أن أمامه كنبة لا عهد له بها فمد الضيف يديه ليستعين باللمس على معرفة هذه الشخصية. فوقعت يداه على بدن خصب في قميص نوم من الحرير الأملس فقبض على الشخص بلهفة ومد يده الأخرى إلى «بريكية»[1] كانت على كرسي قريب منه، وأشعلها فوجد بين يديه دمية بارعة الجمال، وشهقت الدمية شهقة مخيفة عندما أبصرت الرجل. ولكن «البريكية» قد طفأت وحدها فرمى بها الرجل في الأرض وقبض على المرأة بكلتا يديه وسألها بلطف. ودار الحديث خافتاً:

ـ اشكونك باللّـه.

ـ باللّـه تسيبني نخرج وتسامحني على خاطر ظنيتك أمي منوبية اللي تخدم عندنا في الدار.

ـ ما يسالش ما يسالش. أنا محسوب واحد منكم.

ـ يعيشك تسيْب يدّي خليني نخرج لاسي علالة يقتِلْني.

ـ والله الذي لا إله إلا هو ما تْخرجِي.

ـ تحب نقول لك أنا اشكون؟

ـ هيا قولي فيسَعْ.

ـ أنا بنت أخت سي علالة وقاعدة عنده الأيام هاذي على خاطر متعاركة مع راجلي.

فكتّف الضيف يده واعتدل في مجلسه وقال:

ـ وباش ترجعي لراجلك هاذا؟

فقالت وهي تهم بالخروج:

ـ جامِي دِي لافي[2].

فأعجب الرجل نغمتها الفرنسية، ووقف على قدميه واحتضنها بين ذراعيه وقال بإخلاص:

ـ بالله ما ترجعيلوا بالله الذي لا إله إلا هو ما حد ياخْذِك غيري.

---

(1) «ولّاعة» سجائر.

(2) لا يمكن أبداً.

وكانت تجيبه وهي تتخلص منه برفق:

ـ مليح مليح مليح، سي علالة هو اللي بيده كل شيء أمَّا سيبْني برْك.

ورأى الفلاح أن يخاطبها أيضاً بالفرنسية فقال وهو يهز يدها للوداع في هذه الساعة الحرجة:

ـ داكوردو[1]؟

فأجابته بنفس اللفظ، وقفلت راجعة بعد أن أغلقت عليه الباب بنفسها.

خرج عصمان من حانوت في أحد الشوارع الضيقة كان مقفلاً عليه وعلى عدة من إخوانه. ولم يبق فيهم واحد يستطيع الوقوف على قدميه لإفراطهم في احتساء شراب اللوح مع تدخين التكروري. وما صدق عصمان أنه في الشارع حتى تذكر داره وما وراءه ونعيمه. فغادر إخوانه بعد أن حياهم باختصار، ومشى يترنح ويستند على الجدران والأبواب إلى أن وصل إلى الدار فوجد بابها مغلقاً بدون مزلاج كما أمر قبل خروجه، فدخل وكان الظلام حالكاً فأخذه الدوار وأفرغ ما في جوفه على البلاط فرفع أحد النائمين رأسه وقال:

ـ اش كون هذا؟ عصْمان.

فأجابه عصمان وهو يعالج سكرات القيء:

ـ ارقد يلعن... أمك.

وكانت هذه اللغة كافية لأن يرقد بقية النيام الذين انتبهوا أيضاً على صوت حنجرة عصمان وهي تقذف بالقيء. ومشى متثاقلاً، وغايته الحجرة التي يعلم أنها مقفولة على الضيف. ولكن سكره أوحى إليه أن يتجاهل هذه الحقيقة، أو أوحى إليه أن يتعرف على الأقل أخبار صديقته التي عادت من الحمام، فلعل الشياطين قد حملت الضيف ورمت به في جهنم فيخلو هو بصاحبته، ولكن عندما اقترب من الباب فتح عينيه على الحقيقة المرة فجلس على الأرض ثم انكفأ على وجهه وجعل يضرب البلاط بيديه وقدميه وأنفاسه تخرج من صدره كالبخار المكتوم الذي ينطلق من محبسه.

---

(1) اتفقنا.

ومن المؤكد أن النوم قد فارق عيني الضيف بعد تلك المقابلة، فلما سمع الحركات الصادرة من عصمان في سكون الليل حار في معرفتها وقام على قدميه وألصق أذنه بالباب يتسمع. وكانت أنفاس عصمان تخرج بنغمات مختلفة من سجيج وفجيج وشخير ونحير. فحسبها الرجل صادرة من شخصين على الأقل ولا يكونان إلا رجلاً وامرأة. وهل هي المرأة التي كانت عنده، أم امرأة أخرى من أهل الدار قامت هي أيضاً لتفتش عن حاجة لها في سكون الليل؟ وهل ينفذ عزمه في مصاهرة هذه العائلة أم يكفي بأن يكون مستأجراً لأراضيها.

مضت ساعة كاملة والرجل واقف يتسمع وضربات قلبه تكاد تشق صدره إلى أن خفت الصوت تماماً، وعلا بدله شخير نائم، وكان الفجر قد سطع من نافذة كبيرة ففتح الباب رويداً رويداً فأبصر عصمان نائمًا على البلاط. وشم رائحة الخمر تفوح من أردانه، فأغلق الباب ثانية، وقد تأكد أن الخادم السكران كان وحده أمام الباب.

لم يجد الزوج صعوبة كبرى في الزواج من بنت أخت السيد علالة رغمًا عن ترفع السيد عن مصاهرة أهل الآفـاق. وسافـرت المطلقـة إلى زوجها الجديد، وهي تعتقد أن الصدفة وحدها هي التي ساقتها إليه.. ولكنها رأت هذه الزيجة خيراً على كل حال من العنوسة.

مضى عام على هذا الزواج واشتاقت زوجة الفلاح إلى زيارة العائلة مع زوجها ودخلت الدار وكأنما لم تفارقها فكل شيء على حاله. إلا أن ضيوف الدريبة قد ذهب معظمهم وجاء غيرهم، وافتقدت من بينهم على الأخص عصمان ولكنها لم تجرؤ عن السؤال عن سبب غيابه. ولم تسمع من أهل الدار من يذكره بخير أو شر، وكانت هذه السيدة أجرأ أهل الدار على الوقوف على باب الدريبة الداخلي أمام الجالسين، فوقفت وقفتها المعتادة وقالت لأحدهم:

ـ ايجا يا طفل اشريلي كبَّة خيط اكحل، اشبيكم وليتُو هكة. وينو الطفل اللي اسمَهْ عصمان.

جريدة (الشباب) 1 جانفي 1937

عـمّ عـلي الرايس

يخرج عم علي (الرايس) كل يوم في نحو الساعة العاشرة صباحاً من الحمام الذي يشتغل فيه إلى قهوة قريبة منه فيقدم له القهوجي اللوحة وسيكة[1] التكروري، فيخرج من صدره ورقة فيها كمية من التكروري أكثر من التي تحتوي عليها العلبة الرسمية فيقصها وهو يثني على نوعها، ويذكر للجالسين أنها «سلعة جزائرية» لا يحصل عليها كل إنسان.

أبصرت عم علي عدة مرات في هذه القهوة وحوله جماعة من إخوانه يستخفون ظله ويستعذبون حديثه، وهو يتحفهم بالحكايات المضحكة ويقدم (السبسي)[2] لكل واحد منهم مملوءاً ويشعله بنفسه.

يكرر الحكاية الآتية تارة من تلقاء نفسه، وتارة باقتراح أحد أصحابه:

«سأل الخليفة هارون الرشيد نديمه أبا نواس: هل يوجد شيء ألذ من. . . فقال نعم. ألذ منه القوادة».

فيقف عم علي إلى أن تهدأ القهقهة التي أثارتها النكتة ويتم الحديث:

ولكن رأي أبي نواس لم يعجب الخليفة. فبينما هو ذات ليلة فوق سطح القصر يتفرج على القمر الساطع والنجوم المتلألئة جاء أبو نواس إلى إحدى الجواري وكانت تعشق أحد غلمان القصر، ولا تجد السبيل إليه فأخبرها بأن في استطاعته أن يحضر لها عشيقها في هذه اللحظة، على شرط أن يتجرد الإثنان من

---

(1) قطعة من الخشب تقص عليها حشيشة التكروري.

(2) غليون من القصب يدخن فيه الحشيش.

ملابسهما إذا أغلق عليهما الباب. وجاء العشيق وأغلق الباب، فصعد أبو نواس إلى السطح ووقف من حيث لا يراه الخليفة فوجده يتنقل من ناحية إلى ناحية ويتفرج على حجرات القصر من الكوى المفتوحة في سقوفها إلى أن وقف على كوة الحجرة المقفولة على الجارية والغلام فلم ينتقل إلى غيرها، وطال وقوفه عليها فناداه أبو نواس:

يا أمير المؤمنين، جاءت الأخبار بأن جيوش الأعداء قريبة من مدينتك والأمر محتاج إلى رأيك ومشورتك.

فأجاب الخليفة:

لتذهب ويحك إلى الوزراء واخبرهم بما تقول، فغاب أبو نواس لحظة وعاد يقول:

لقد دخلت الجيوش مدينتك وها هم متفرقون في الشوارع ينهبون ويسلبون ويهتكون الأعراض وقد عجز الوزراء عن مقاومتهم.

فقال الخليفة:

اذهبوا إلى قواد جيوشنا فإنهم لم يخلقوا إلا لمثل هذه الساعة، دعني في شأني ولا تزعجني.

فتظاهر أبو نواس بالانصراف مرة أخرى، ووقف يتفرج على الخليفة وهو ذاهل غائب فيما يجري ويشاهد.

فاقترب منه ضاحكاً، وقال:

ـ ألم أقل لك ان القوادة ألذ؟

قال:

ـ صدقت.

* * *

في مساء أحد الأيام كان عم علي أمام (الفرناق)[1] الملتهب يدس فيه

(1) موقد الحطب الذي يسرج لتسخين الماء في الحمامات التركية.

ما حوله من الجرائد والقش والحطب، لأن الحمام يشتعل للسيدات، فدخل عليه صديقه بكار ومعه شكارة مربوطة على كلب حي، وقال:

ـ هلم يا عم علي هات السكين.

وعم علي يعرف أن صديقه بكار مختص في صيد الكلاب السمينة النظيفة، فعاونه في إخراج الكلب من الشكارة فإذا هو من نوع «البول دوق» ملتف المتن، قصير الرجلين يبلغ لحمه الصافي خمسة كيلوغرامات على الأقل.

فسأل عم علي ذلك الصياد:

ـ أين وجدت هذا؟

فأجابه وهو يضحك:

ـ هذا كلب القبطان الذي جاورنا حديثاً في الحومة. خرج ليتنزه فلقي حتفه . . .

وفي عدة دقائق كانت رأس الكلب مقطوعة بكمامتها، وقد أودعاها في ناحية حتى يأتي صديقهما حمد المختص في سلخ الرؤوس.

وخرج بكار ليشتري مقداراً من البطاطة والتوابل، وليتعجل اثنين من الأصدقاء وعداه بشراء الشراب والخمر.

في تلك اللحظة سمع عم علي أصوات (الطيابين)[1] ومستخدمي الحمام وهم يصفقون ويصيحون بالرجال ليغادروا الحمام قبل مجيء نساء الناس. فارتخت عيناه وخفق قلبه خفقاً لذيذاً لهذه الليلة الحافلة بالمأكل والمشرب والتي لا يسمح الدهر بمثلها إلا في النادر . . .

* * *

ابتدأت وفود السيدات ترد على الحمامات زرافات ووحدانا، وكان الأصدقاء الأربعة قد جلسوا أمام (الفرناق) على أكوام الزبلة وقد أفرغوا لترين من الستة ليترات التي جاؤوا بها. أما الكلب المسكين فقد كان مقطعاً في

---

(1) المدلكين.

«برام»[1] كبيز محكم الإغلاق يغني ويسمع هديره من داخل الفرناق، وهم ينظرون ويسيل لعابهم.

وصاح عم علي:

ــ لقد طاب الأكل فاستعدوا.

المصور وحده هو الذي يستطيع أن يقرب إلى عينيك منظر أربعة من الأوباش جالسين في كهف أسود السقف والجدران، تنعكس عليهم أضواء النار التي يضطرم لهيبها ويعلو وينخفض، وقد تشكل وجه كل منهم وهم ينهشون لحم الكلب إلى مخه. كانوا يأكلون في صمت. وعندما تصل إلى أسماعهم ضحكة عالية مكبرة بصوت الحمام يشرب أحدهم قدحه دفعة واحدة ويعقبه بصوت يخرجه من حلقه كفحيح الثعبان.

قال بكار عندما أشرفوا على الشبع:

ــ هذا القبطان مغرم بالكلاب النفيسة على ما يظهر. رأيت عنده كلباً آخر له شعر أبيض منتفش يغطي جسمه ورأسه ولكنه صغير الحجم.

فأجابه الذي أحضر الشراب:

ــ ما عليك إلا أن تصطاده وأنا أطبخ لك جلده بخمسين فرنكاً على الأقل، هذا النوع الذي تصفه يأتي من بلاد الأتراك.

فقال عم علي:

ــ وأحسن من الكلاب التركية القطاطس[2] التركية تلك البيضاء المنتفشة. فهل ذقتم لحومها؟ إنها من ألذ ما يؤكل، والقطاطس بالجملة لا بأس بطعمها فهي ألذ من القنفوذ ومن فأرة الصوة[3] ومن العلوش[4]. . .

(1) برميل من الحديد.

(2) القطط.

(3) فأرة البراري.

(4) الخروف.

واستمر الجماعة في وصف الأطعمة اللذيذة يتخلل حديثهم النكات والمداعبات حتى ارتفعت أصواتهم لدرجة استدركها عم علي فأمرهم بخفض أصواتهم، وطلب إلى بكار تحضير التاي ريثما يقص حفنة التكروري.

بعد السبسي الخامس أو السادس قام عم علي والتف بفوطة حيث كان عارياً تقريباً وقال للجماعة:

ـ ستصعدون معي على السطح الواحد بعد الآخر، إذ لا يليق أن نصعد جميعاً بدون سبب معقول. قم أنت يا بكار.

وقام بكار يتبع عم علي على السلم المثلم المتهدم إلى أن استلم كل منهما كوة صغيرة ووقفا يتفرجان على العاريات من نائمة ومنبطحة وضاحكة وعابثة وكأنه قد جرى لهما ما جرى للخليفة الرشيد الذي نسي ملكه في مثل تلك الوقفة فلم يشعرا إلا والزميلان مقبلان عليهما على أطراف الأصابع، ولكن عم علي لم يعترض عليهما لأنهما في الحقيقة أغرقاه بالهدايا المأكل والمشرب.

فقال أحدهما بعد أن ألقى نظرة طويلة على صحن الحمام:

ـ يا جماعة رأيت خادم دار الوزير واقفاًعلى باب الحمام، فلا بد أن تكون نسوة دار الوزير هنا. ألا تكون هذه البيضاء الطويلة ذات الكفل العظيم المنحنية على طفلتها تسلك شعرها بالمشط.

فأجابه عم علي الذي يعرف كل نساء المدينة:

ـ أخطأت هذه المرأة الضخمة زوجة رجل شواشي، وإذا كان هنا أحد من دار الوزير فقد تكون تلك الفتاة التي تعصر عينيها من الصابون. . .

إلا أن منظر خمسين امرأة عارية شغل الجماعة عن الالتفات لامرأة بعينها.

وابتدأت النساء تغادر الحمام، وعندما همت المرأة الضخمة بالخروج قال بكار لصاحبيه:

ـ هذا وقتكم. . .

خرج الثلاثة من باب خلف الحمام، واختلطوا بالخدم الواقفين في انتظار

سيداتهم ولم يخطئوا في معرفة المرأة الضخمة التي خرجت ملتفة بمئزر من الحرير الثمين، ولكن وصيفاً كالجاموس مشى بجانبها وقطع أملهم. فلمح بكار امرأتين خرجتا ولم يشيعهما أحد من الخدم فغمز رفيقه وسارا خلفهما، ولحسن الحظ انعقدت الصحبة وسار الجميع إلى حيث يعلم الله.

بعد هذه الليلة عمر الفرناق بالكلاب على اختلاف أنواعها، وأمست أكوام الزبلة وتحتها بطيخة أو إثنتان محشوتان بالسكر لتختمرا أو تؤكلا بعد السهرات السعيدة.

هذه قصة رواها لي رجل منهم ونحن جلوس في إحدى القهوات الصغيرة، رواها لي على أثر دخول شحاذ متهدم يمشي على عكاز. دخل يقول كغيره من الشحاذين:

ــ اعطوني حويجة لله.

ولما خرج من القهوة ابتدأ محدثي بالحكاية من أولها.

وكان الشحاذ عم علي الرايس.

جريدة (الشباب) 16 جانفي 1937

طاحونة الأمس وطاحونة اليوم

المرأة واحدة في كل بلد وكل زمن.

تروي لنا كتب الأدب حكايات عن العاشقين وما يحل بهم من المصائب، ولكونها متشابهة نروي واحدة منها.

قالوا إن أحد فتيان بغداد أحب امرأة ذات حسن وجمال وبهاء واعتدال، وجعل يتبعها ويطاردها كلما مرت في الطريق، فشكت ذلك إلى زوجها فقال عيّني له يوماً يجيء فيه فإذا دخل ودخلت أنا بعده فاربطيه في مكان البهيم الذي يطحن لنا الدقيق.

وأرسلت المرأة خادمتها إلى ذلك العاشق تقول له إن سيدتي لا تصد منك كراهة لك ولا احتقاراً لشأنك فأنت أحد أبناء بغداد وأجمل فتيانها وإنما كان ذلك خشية من زوجها، وها هو سيسافر في الليلة القادمة فاستعد للحضور في ساعة كذا من الليل.

وفي تلك الساعة ذهب العاشق المتيم وما كاد يضع قدمه حتى دخل الزوج. فتظاهرت الزوجة بالخوف، وأخذت العاشق من يده وقادته إلى الطاحونة وقالت ينبغي أن تحل قيود هذا الحمار وتربط نفسك مكانه، وتدور في الطاحونة بلا توان ولا انقطاع فإنك إن نفرت عن الدوران دخل زوجي عليك وافتضحنا.

وجلس الزوج مع زوجته يأكلان ويتنادمان فسأل الرجل زوجته بصوت عال:

ـ ما لحمارنا الليلة لا يطحن كالعادة؟ أعطني السوط لأعلمه كيف يكون النشاط.

فاشتد نشاط الحمار من تلقاء نفسه ودارت الطاحونة بأحسن مما كان يديرها الحمار القديم، واستمر دورانها مدة طويلة، فقالت الزوجة:

ـ بما أن حمارنا قد أظهر الليلة من النشاط ما ليس لنا به عهد فلننتهز الفرصة ونطحن عليه ما بقي عندنا من القمح.

فقام الزوج وأخرج أكياس القمح وجعل يسلمها للخادمة كيساً بعد كيس لتضعها في الطاحونة. وكانت الخادمة في كل مرة تدني فمها من أذن الحمار، وتقول:

ـ إحذر أيها المشؤوم أن تغفل عن الدوران لأن وراء ذلك ذهاب عمرك.

وانطحن القمح مع اقتراب الفجر ففتحت الخادم الباب وأطلقت حرية الحمار.

قالوا وبعد أسابيع من تلك الليلة جاءت الخادم إلى الفتى وقالت:

ـ إن سيدتي تقرئك السلام وتقول لك. . .

فقاطعها قائلاً: هل فرغ دقيقكم؟

تكررت هذه الحكاية في أواخر شهر رمضان الماضي، وكان حمارها أحد إخواننا المتبرجين ذوي الشعور اللامعة والخدود المنتوفة، أما البطلة فكانت سيدة اضطرت إلى الخروج إلى (باب بحر)[1] عدة أيام متوالية لقضاء حاجات العيد.

رآها الفتى فأعجب بالقد والمشية والعينين واليدين المحلاتين بالمصاغ، ولما كان من المفطرين فقد حسب أن كل امرأة تمشي في شارع «جول فيري»[2] مستعدة لتناول الغذاء معه.

---

(1) باب من أبواب العاصمةالتونسية.

(2) شارع الحبيب بورقيبة الآن.

وقفت المرأة في إحدى المحلات التجارية تقلب «كلاسط»[1] الأطفال فوقف بجانبها، وبمهارة عجيبة حشر نفسه بينه وبين البائعة حتى حسبته مستخدماً في المحل وحسبته البائعة مع الزبونة، ولكن صفقة البيع لم تتم فخرجت المرأة إلى محل آخر فوجدت الفتى فوق رأسها يقلب معها ويلاطفها بلهجة من يعرفها منذ خمسة أعوام، والواقع أن المرأة رأت هذا الفتى يحسن الفرنسية ويستطيع التفاهم مع مستخدمي المحلات، فتركته يتبرع بالمساعدة ويتبعها إلى عدة محلات أخرى. فلما قضت لوازمها حيته بابتسامة مغرية بعد أن توسلت إليه أن لا يتبعها. ولكن الفتى لما أبصرها في اليوم الثاني أقسم أن لا يتركها إلا عند دارها.

وما انقضت تلك الأيام القليلة التي أكثرت فيها المرأة من الخروج، حتى وجدت صاحبنا كالدائن الغريم الذي لا يقبل المماطلة والتسويف فرفعت خبره إلى الزوج.

وكان الزوج أحد تجار اللحوم الذين يركبون «الكاليس»[2] ويعلقون المشموم خلف الأذن. فهداه الذي هدى الزوج البغدادي لتمثيل الرواية، وأقبل العاشق ليلة العيد يخترق الأزقة الملتوية من (حي المركاض)[3] ويتغفل الرائحين والغادين حتى دخل من الباب الذي كان أحد مصراعيه مفتوحاً انتظاراً لقدومه، وبدا له شخص (امرأة) من خلف الباب تقول:

ـ زوز في البيت هاذي اللي قدامك فيسَعْ.

ودخل ذلك البيت مضطرباً ينظر إلى نواحيه الأربع ويتخير المكان الذي يجلس فيه، ولكن قلبه سقط بين رجليه إذ رأى عملاقاً منتصب الشاربين خشن اللحية تتقد عيناه كالجمر يسد الباب بقامته ويقول بدون تكليف:

ـ مساء الخير يا خويا.

---

(1) الجوارب.

(2) العربات المجرورة.

(3) حي من أحياء العاصمة.

قالها ودفع الباب من الخلف بعنف فانصفق، فدنا من الضيف وقال:
ـ هكّه تخلينا نلوجوكْ جمعة طويلة ما نلقاكش وكنت يا... الـ...

يقول الفتى وهو يقص الحكاية لأحد أصدقائه أن الرجل اعتدى عليه بالضرب حتى كاد يميته.

ولكن الصديق يروي لي الحكاية بدوره ويؤكد أنها أحد الأصناف العديدة التي ذاقها الشاب المتبرج في تلك الضيافة.

ولكل زمن عقوبة.

جريدة (الشباب) في 22 جانفي 1937

الحـاج الكيلاني الجزار

وقفت المركبة التي ستأخذ العروس إلى دار عريسها قدّام باب الدار، وكان على الباب جماعة واقفين في انتظارها وبجانبهم كرسي عليه عدة ستائر مطبقة، وهي التي سينشرونها بين الباب والمركبة لتمر العروس بزينتها وأبهتها في ستر عن العيون.

وفي لحظة ارتفعت الزغاريد من داخل الدار، واجتمع بعض الأطفال من المارة يتفرجون، وسارت المركبة يحفها اليمن والسعادة.

وكان الحاج الكيلاني الجزار في حانوته يشاهد ما يجري، ويرسل من صدره الأنفاس الحارة كما يفعل الفتى اليافع الذي يشتهي الزواج ولا يجد الوسيلة إليه.

الحاج الكيلاني تزوج بخمسة نساء مات منهن اثنتان، وطلق الباقي وهو يعيش في داره بمفرده، أو على الأصح مع امرأة كل صانع يخدم في حانوته. فهو إذا احتاج إلى صانع يساعده اختاره من المتزوجين، ثم يعرض عليه السكنى في داره مجاناً هو وزوجته، وقلما عثر بصانع يرفض هذه الهدية ولا يكاد يشبع رغبته من امرأة الصانع التي يختلط بها مرة تحت عنوان «والد» أو «عم» ومرة بصفة «معلم» يعولها وزوجها ويمدها بالهدايا الفاخرة.. حتى يطردهما ويعوضهما بصانع آخر متزوج.

بعد شهرين من هذا الزفاف لاحظ الحاج كيلاني أن العريس يتردد على الدار مرتين أو ثلاث في اليوم، وهو يعلم أن العريس يملك حانوت (دخان)[1]

(1) دكان لبيع أنواع السجائر والتبوغ.

يستلزم البقاء فيه طول اليوم، فاهتم بالأمر فعلم أن الرجل باع الحانوت الآخر وساءت أحواله من جميع النواحي، وفي مدة قصيرة كأنما أصابه نحس جاءت مع العروس الجديدة. وفي ضحى أحد الأيام جلس هذا العريس في قهوة قريبة من الحانوت، وطالت جلسته وحده وهو ساهم ويده على خده، فخرج الحاج من حانوته وذهب يجر بلغته ويقول للقهواجي:

ـ اعمل يا حّمادي قْهيوة قَدْ قَدْ.

ثم التفت لعريس الشهرين وقال وهو يصافحه:

ـ لا بأس عليك يا خويا؟ متهنّي، مرتاح؟ اشحالك؟ كِيفنِّك؟ ايشْ تشرب.

والعادة عند الجزارين أو الدخاخنية أو غيرهم أن فنجان القهوة يكون عقدة صداقة لا تنحل إلى الأبد.

أصبح الرجلان صديقين في ربع ساعة، وأفضى الدخاخني إلى الجزار بكل متاعبه التي انصبت على رأسه بعد الزواج...

قال الحاج كيلاني:

ـ يا ولِيدِي أنا وحدي في الحوِيْنتَة هاذِي. ايَجا اقعد بحذايَا، ورد لي بالك من الحانوتْ، وقيِّدْلي حسابْ البيع واللِّي ثمة نقسْمُوه جِميع، أنَا وخيك، واللي في مكتوبي محسوبْ في مكتوبك.

ورأى أن الرجل صادق اللهجة فارتاح لهذا الاقتراح الذي يعصمه من عاطل مفلس، وبعد أيام قليلة كان الرجل بزوجته الصغيرة الجميلة في دار الحاج كيلاني، وفي مسكن منها مستقل كأنما أخذاه بالأجرة. ولم ترتح امرأة الصانع القديم إلى وجود الضيفة الجديدة، وكان الصانع بدوره يتبرم بشخص الدخاخني الذي يجلس دائمًا على كرسي أمام الحانوت وليس لديه ما يعمله حتى الكتابة المكلف بها في الظاهر.

أما الحاج كيلاني الذي كان يقدم يومياً للعروسين جزءاً كبيراً من اللحم وعشرة فرنكات لشراء الخضر والفاكهة، فلم يصل إلى نتيجة يرضاها.

يدخل الدار في النهار فيرى امرأة الصانع القديم بالمرصاد، فإذا جاء الليل دخل الدخاخني واشتغل بزوجته وترك المعلم على نار اللظى.

دخل الدار في أحد الأيام فوجد امرأة الدخاخني في زيارة أهلها، فدخل إلى حجرته الخاصة برهة ثم نادى زوجة الصانع وأعلن لها في ضجة عظيمة أن صندوقه مفتوح، ولم يجد فيه سلسلته الذهبية ولا مبلغ العشرة فرنك الذي أودعها فيه.

فرفعت المرأة يديها إلى السماء متبرئة وفعلاً كانت بريئة، فلم يبق من سارق إلا الدخاخني المفلس.

ورفع الحاج كيلاني قضية على الرجل وفحواها أنه «آواه وأطعمه وحفظه من التشرد فخان الأمانة، وسرق منه كذا وكذا من النقود والمصاغ».

وكل دعوى يتقدم بها الشهود العدول تنظر فيها المحاكم إلى النهاية، وكان شهوده صانعه القديم وامرأته. . .

دخل الدخاخني إلى السجن لثبوت التهمة عليه من جميع الوجوه. أما زوجة الدخاخني فقد عادت إلى دار أهلها كارهة لأنها شعرت بأنهم يكرهون وجودها عندهم شأن كل مطلقة أو مصابة في زوجها.

جاء اليوم الذي تفتح فيه إدارة السجن أبوابها لزوار المساجين، فذهب الحاج كيلاني ليزور قريباً له دخل السجن في مشاجرة وإذا به يرى نفسه أمام ضحيته واقفاً خلف القضبان وأمامه العروس التعيسة. ولأول مرة يتمكن من رؤيتها بجلاء ووضوح فأخرج منديله، ووقف يكفكف الدمع ولما فاق من عبرته قال للدخاخني:

ـ أنا وليدي ربّي هو اللّي يعلم إن كنت أنتَ اللّي خذيتْ لي فلوسي ولا غيرك. أنَا على كلّ حالْ ماشيِ توه «للأفوكاتو»[1] باش نخلّيه يقص النازلة، ونتنازل عن حقي وعوضي على الله.

---

(1) المحامي.

نزلت هذه البشرى برداً وسلاماً على قلب السجين وزوجته ودق ناقوس السجن فهرع الزوار نحو الباب مودعين ذويهم. وخرجت امرأة الدخاخني يتبعها الحاج وهو نادم مبتئس، ولما همت بالصعود إلى الترام استوقفها وقال:

ــ باش نخرج لك راجلك غدوة بقدرة الله. على خاطر أنا صدّقت وآمنْت إن اللي سرقوني هم الناس الآخرين اللِّيّ مقعِّدهم في حانوتي وفي داري. وراني طردتهم اليوم وهزُّوا حوايجهم والدار توَّه خالية ما فيهاش حْد. ماذا بيه نمشي توه نشوف ما تسرقُوليس حوايجي أنا الآخر، ولا سرقوا لكمْ حوايجكم.

ثم سكت لحظة، وأخرج لها مفتاح الدار وقال:

ــ بره امشي للدار وحدك حتى نتعدَّى أنا للأفوكاتو ونقول له لقِينَا الفلوس والحوائج المسروقة الآن.

أمسى الليل. ودخل كيلاني داره وليس فيها غير العروس التي انقادت إلى قوله كالنائم أمام الساحر المغناطيسي فكان أول سؤال ألقته عليه:

ــ مشيتْ للأفوكاتو؟

فقال:

ــ وانفصَلْنَا غدوة راجلك يجي لك.

قال هذا ووضع القفة التي يحملها على الأرض، وكانت «دبوزة»[2] بوخة تطل منها برأسها، وحولها بعض الفاكهة ومأكولات ملفوفة في أوراق.

حاول الحاج كيلاني ساعة العشاء الذي أعدته له المسكينة وهي بين اليأس والأمل أن يحملها على تذوق البوخة التي لم تذقها في حياتها فلم يفلح، فاكتفى هو باحتساء نصف الزجاجة كأساً بعد كأس حتى دقت الساعة الأولى بعد منتصف الليل.

وفي تلك اللحظة دوت أصوات استغاثةٍ ترعب القلب من دار الحاج

(2) زجاجة كحول.

كيلاني فانتبه بعض الجيران، وأطل بعضهم من فوق بعض السطوح فأبصروا المرأة تفر من ركن إلى ركن والرجل يطاردها مرة ويرجوها مرة.

ووصل الخبر إلى عائلة السجين التي كانت تنتظر قدومها ولم تكن تصدق أنها ستعود إلى دار كيلاني.

وبعد ساعتين كان الحاج في السجن، وقد كان صادقاً عندما أخبر المرأة أنه ذهب للأفوكاتو وتنازل عن القضية وأذن بخروج الدخاخني الذي أبى الله أن يجمع عليه الإفلاس والسجن ظلمًا.

جريدة (الشباب) 5 فيفري 1937

تــذكرة الــترام

سمعت السيارة من خلفي تنفخ نفخات متوالية فأعرضت عن اتجاهها لتمر بسلام. ولكن النفخ كان لدعوتي لركوبها، لا للبعد عنها.

السيارة يسوقها صديقي «د» الذي لم أره منذ شهور فلم أحجم عن الصعود إليها والجلوس بجانبه، واستأنف السير وهو يضحك. . .

يضحك لأني أعلم أن مرتبه في وزارة العدلية لا يزيد على خمسة عشر ألف فرنك في العام، فهو يتوقع مني التوبيخ والملام والنهي عن التبذير والإسراف.

ولكنه سبق وقال:

ــ اشتريت هذه السيارة في الشهر الماضي بعد أن اقتنعت أنها تكلفني أرخص مما يكلفني (ترام)[1] (حلق الوادي)[2] وإليك البيان.

ــ هل تعرف فلان؟

قلت:

ــ أكثر من غيره.

فقال:

ــ فلان هذا لم أكلمه قط في حياتي ولم أعزم قط على التعرف به.

قابلته في ذلك الترام وأنا راجع إلى منزلي، ولم أذكر إن كنت صعدت قبله أو صعد هو قبلي.

---

(1) القطار.

(2) ضاحية من ضواحي تونس الشمالية.

حياني فرددت التحية بأحسن منها.

وجاء قاطع التذاكر فأخرجت «الكارنية»[1] لأعطيه تذكرتي فأشار إلى صاحبي وقال:

ــ خالص.

أعني ان صاحبي سبق وقدم لي التذكرة... كم أنا أكره الكرم.

وليست هذه الكراهة لأني لئيم أخاف من رد الجميل بأحسن منه، ولكن لعلمي أن بعض الكرام لئام. يرغمك أحدهم على قبول هديته ليفعل بك ما يشاء. ويستخدمك فيها يشاء. بل وليسترده منك كما يشاء.

جاءني فلان هذا إلى داري في (الكرم)[2] بعد قطع التذكرة بأسبوعين ومعه ملف غليظ يحتوي على ثلاثين أو أربعين حجة شرعية قديمة وجديدة. بعضها مرفق بأحكام عدلية وبعضها مرفق بإنذارات مختلفة الألوان. وكنا في ساعة القيلولة فأدخلته قاعة الاستقبال كما تقتضي الحال.

ومضت نصف ساعة وهو يغمرني بتحياته كأنني الضيف. وقد أقسم بكل يمين أنه لا يحب أحداً غيري. وطلب إلي أن أقوم في الحال أو أستعلم بالتلفون من فلان وفلان وفلان وترتان عما قاله في غيبتي في المجلس الفلاني والمحادثة الفلانية.

وأخيراً فتح الملف وأخذ يقص أن المرحوم جده الثالث خلف كذا من العقار والأملاك، وأن أولاده وأحفاده الذين مات بعضهم وبقي الآخر مختلفون في التقسيم وتحديد حصة كل منهم. فالمدعو الشاذلي يقول أنه أولى من (صبرية) بالدار الكائنة في نهج كذا، والمدعوة (حنيفة) تريد تفويض أمرها لزوجها وهو رجل سفيه سكير مقامر.

وقد رفعت (حنيفة) على (عثمان) قضية في المجلس الشرعي في يوم كذا أو شهر كذا بطلب كذا وكذا، وقضيته بعد في (الدريبة)[3].

---

(1) دفتر الاشتراك.

(2) حي بضاحية تونس الشمالية.

(3) المكان الذي توجد به المحكمة بتونس العاصمة.

وفي الاستئناف دخل في النازلة خصم ثالث هو المسمى (بكار) الابن البكر للمنعم المبرور السيد (عبدالخالق) حفيد الجد الكبير (سليم آغا) المحسن المشهور والمدفون الآن في مقبرة (باب منارة)[1].

وقف صديقي بالسيارة أمام إحدى المقاهي الأوروبية فجلسنا واستأنف الحديث:

ـ كل هذه المشاكل تشابكت وتعقدت ولا يحلها إلا صديق مثلي موظف في إدارة العدلية.

وترك الرجل الملف لأفحصه وأرشده إلى أحسن طرق النجاة والربح في كل هذه المشاكل وخرج.

وبلا منّ ولا فخر أؤكد لكم أني سهرت خمسة عشر ليلة متوالية في فحص هذه الأوراق، فاكتشفت لهذا الرجل جرائم قانونية لم تلتفت إليها المحاكم.

ولكني ساعدته بقدر الإمكان وأنقذته إلى أقرب الشواطىء.

أتدري ماذا كانت النتيجة من فعل الخير مع هذا الصديق؟

اكتشف رؤسائي إهمالاً قبيحاً في عملي الخاص، ومحاباة ظاهرة في أعمالي مع مثل هذا الشخص، فكانت عقوبتي صدى من الدرجة التي كنت أنتظرها في الوزارة منذ عشرة أعوام.

وضحك صديقي صاحب السيارة ضحكة كبيرة وأضاف:

ـ جاءني صديق فرنسوي مصحوباً بزوجته، وكنت في رخصة فلم أر منهما تثريباً مدة إقامتهما بتونس. وفي إحدى الليالي كنا نسير في طريقنا إلى أحد المطاعم فأبصرت صاحب التذكرة يهرول نحونا محيياً مرحبا. فقدمته لأصدقائي كما يقضي الواجب، وإذا به يسير معنا إلى باب المطعم وهو لا يدري غايتنا، وبدعوة خفيفة مني صحبها امتناع خفيف منه أجاب الدعوة.

---

(1) حي من أحياء العاصمة.

ولا أعرف يا صديقي ما الذي أوقفنا مدة طويلة على الرصيف قبل أن ندخل المطعم، فقد كان ذلك أثر تناولنا «الأبيريتيف» فرأيت صاحب التذكرة يلوح بيديه في الهواء وينادي شخصاً يسير على الرصيف المقابل لنا:

ـ يا حمادي، يا حمادي.

وجاء (حمادي). وهو شخص أنيق الملبس يلوح أنه من أبناء الذوات.

فقبلناه أحسن استقبال، ولاحظت أن امرأة صديقي الفرنسية تنظر إليه باستحسان. فقلت لسي حمادي هذا:

ـ تفضل بالعشاء معنا.

فقال بكل سرور، ولكن إخواني ينتظرونني هناك. وها هم الواقفون على الرصيف المقابل.

قال هذا وأشار لثلاثة أشخاص يقلون عنه في حسن المنظر والشكل فأقبلوا...

وإذن ليس من المناسب أن أختار حمادي من بينهم لأدخله معي إلى المطعم.

فقلت للجميع:

ـ شرفونا.

وتنهد صاحب السيارة وقال:

ـ دفعت في هذه الليلة 950 فرنكاً.

قلت:

ـ ولأجل هذا اشتريت السيارة لتتخلص من (الترام) ومن جمائل (الترام)

فقال:

ـ لا، وإنما لأتخلص من خطب أعظم من ذلك.

هذا الرجل الذي ارتبط بصداقتي رغم أنفي وبواسطة تذكرة (ترام) له

صهر جزار وللجزار ابن يبلغ السادسة عشرة من عمره ارتكب جريمة قتل، وحمل القتيل إلى المستشفى الصادقي وفيه فاضت روحه وأودع الجاني غياهب السجن.

وجاءني صاحب التذكرة يقول:

ــ لم أقصدك قط في شغل يزعجك، ولن أكلفك فوق طاقتك لأني أعرف مشاغلك وأعذارك. وكل ما أرجوه أن تبذل لي جاهك وقدرتك لتخرج الولد المسكين من السجن.

كنت أنا أضحك لكل فقرة أسمعها من صديقي صاحب السيارة.

فقال:

ــ اقتربنا من النهاية. بعد رجاء صديقي هذا ركبت (الترام) كالعادة وكنت مستغرقاً في قراءة جريدة. ولما جاء قاطع التذاكر قدمت له الدفتر وأنا لا أنظر إليه فقال:

ــ خالص.

وأشار إلى رجل لا أعرفه ــ فأنكرت هذا الكرم الماسخ وقلت لذلك الشخص:

ــ شرفني بمعرفتك أيها السيد.

فقال:

ــ أنا التهامي الجزار. صهر صديقك فلان بن فلان...

ولم يحتج صديقي لأن أعترف له بأن السيارة أرخص من كل هذه الكلف مهما أكلت من البنزين وأجر (القاراج)[1] والإصلاح، وأقل نفقة من الترام...

جريدة (الشباب) 19 فيفري 1937

---

(1) المرآب.

كبــش العيــد

ليس عندي الوقت الكافي لأنظم هذه القصة في أسماط من الشعر الباكي الحزين. . .

فاسمعوا نثراً. . .

كان الكبش يمرح في مرج أخضر، يرعى ويستريح، ويغتصب النعاج من إخوانه الكباش لا سلطان لأحد عليه حتى ولا الراعي نفسه.

جاؤوا به قبل العيد بعشرة أيام إلى (رحبة الغنم)[1] فمكث فيها سبعين ساعة لم يذق إلا الضرب بالعصي على ظهره إلى أن اشتراه صاحب مقهى عربية وجره إلى داره بالعنف، والكبش يحاول التملص كأنه يشعر بأنه ذاهب إلى مكان هو شر من (رحبة الغنم).

دخل القهوجي إلى داره بالكبش فاستقبله النسوة بالزغاريد، واجتمع عنده من الصبيان والبنات على الضيف وكل منهم يفكر فيما يقدمه من ضروب الإكرام.

نظر القهوجي إلى امرأته نظرة عتاب وقال:

ــ هاك هو الكبش.

ثم خرج مزهواً وغاضباً في وقت واحد لأنه اشترى الكبش بعد عركة عنيفة قامت بينه وبين زوجته وهي عركة سنوية لا مفر منها.

(1) مكان بتونس العاصمة تباع فيه الأغنام.

وقد رهن في هذه المرة خاتمه الذهبي الثقيل بثمانين فرنكاً ليشتري الضحية.

خرج القهوجي ولم يترك لهم ثمن الحشيش الذي يجب أن يأكله الحيوان المسكين، وكذلك نسي أهل الدار أن الحيوان يلزمه القوت ولكنهم لم ينسوا إكرامه بما يقدرون عليه.

جاءت ابنة القهوجي الكبرى «بتقريطة»[1] حمراء خلفتها المرحومة جدتها ولفتها حول قرني الكبش العظيم بشكل فني جميل وتركت أطرافها تتدلى بين عينيه.

وجاءت ابنة أخرى أصغر منها بشريط أصفر فلفته حول عنقه بعد أن علقت فيها مرآة من القصدير.

ولما أخذ الكبش زينته صعد ابن القهوجي الذي يبلغ الثانية عشر من العمر على ظهره وأصدر له أمره بالمسير. فامتنع الكبش عن المسير. فذهب الابن الثاني الذي كان ينتظر دوره في الركوب وأتى «بزلاط»[2] ثقيل وانهال به على كوارع الكبش فتحرك هرباً من الضرب، ولكن الأولاد جميعاً كانوا يضحكون لأن الكبش ابتدأ يتعلم السير وهو مركوب، وابتدأ يفهم إرادة سادته.

وجد الكبش نفسه مشرفاً على الهلاك فارتمى تحت الفارس الراكب، وكلما تزحزح عنه وأقاموه على اربع عاد فسقط. فنزل عنه ذلك الراكب تحت إلحاح أخيه الصغير الذي لا يبلغ الخامسة من عمره المبارك.

وركب هذا الصغير فاحتمله الكبش ولكنه لا يزال متبلداً لا يريد التقدم إلى الأمام.

فأخذ الصبي الكبير ذلك (الزلاط) وضربه على مؤخرته ضربة جعلته

---

(1) قطعة من القماش تعصب بها المرأة رأسها.

(2) عصا غليظة.

يقفز قفزة انطرح بعدها الراكب في وسط الدار واصطدمت جبهته بالبلاط، فعلا صياحه وسال مخاطه ودمه معاً.

فأقبلت سيدة الدار مهرولة فزعة تلعن الكبش ومن اشتراه، وفي الحال جذبته بمساعدة الكبير والصغير وربطته في دعامة خشبية قائمة بجانب المرحاض وهي تقول:

– يبْدى ما حبش يشري الكبش إلا بعركة وبعيطة، وفي الآخر ما لقا يشري إلا كبش كيف هاذايا.

وقف الكبش يلهث في مربطه، وكان يتشمم الأرض فلا يجد ما يشتهيه فرفع رأسه بصعوبة ونظر إلى فضاء الدار وأهلها الذين يتفرجون عليه بخوف وحذر.

تقدم طفل آخر من أبناء القهوجي بقطعة من جريدة وأدناها من فم الحيوان فتناولها بفمه، وأخذ يجذبها شيئاً فشيئاً ويحاول مضغها فلا يستسيغها. فسر الأولاد لذلك المنظر وعلموا أن الكبش يحب الورق. فذهب كل منهم وجاء بما تيسر من الأوراق، وأخذوا يتزاحمون على تقديمها للكبش ليستعطفوا قلبه ويريضوه على الائتناس بهم فلم يفلحوا.

عاد القهوجي إلى قهوته، فأبصر جاره الخضار قد اشترى هو أيضاً كبشاً في نفس اليوم وربطه بجانب حانوته، ووجد أمام هذا الكبش السعيد مقداراً كبيراً من ضشور القنارية والخص، وكل ما كان يلقى في الكناسة.

فسأل القهوجي جاره الخضار:

– تنطح يا دين الـ. . .؟

فأجابه: تناطح يا دين الـ. . .؟

ولم يكن القهوجي مازحاً أو هازئاً وإنما يريد قبل كل شيء أن يعلم جاره بأنه اشترى كبشاً مثل كبشه. ثم يريد في نفس الوقت الاستعلاء عليه بالتغلب على حيوانه بالنطاح ولم تكن رغبة الخضار في مثل هذا الشر أقل من رغبة

القهوجي. فاتفقا على أن يكون النطام يوم الجمعة خارج (باب العلوج)[1] أمام مشهد من الإخوان والمعارف وهواة المصارعة الخرفانية.

لم يزل على النزال 62 ساعة فتذكر القهوجي وجوب إشباع الكبش قبل المعركة فاشترى كمية من الحشيش والشعير وأرسل بها أحد غلمانه إلى الدار.

وقف الكبشان في يوم الجمعة التي جاءت قبل أيام العيد مباشرة وكلاهما مزخرف بالأشرطة والتعاليق يحيط به السادة الأنصار والمتفرجين من أوباش ورعاع.

وكر كلا الفحلين على الآخر ينطحه بما في مقدوره وفي كل ضربة يعلو هتاف المتفرجين وتصفيقهم.

ولا ننسى أن نخبر القارىء بأن القهوجي سمى كبشه مبروكاً والآخر سماه سعدون.

تلقى مبروك المسكين بضعة عشر ضربة من سعدون، ثم انحرف هارباً فتبعه بعدة ضربات في بطنه وضلوعه وقع بعدها صريعاً على الأرض فصاح أنصار القهوجي الذين كانوا أكثر من الفريق الآخر:

ــ هيا يا مبروك، عيب يا مبروك، قوم يا مبروك،

وأقاموا مبروكاً مرة أخرى وأفسحوا المكان أكثر من قبل فوافاه سعدون بضربة أمامية اندق تحت عنقه وخر يلفظ الأنفاس الأخيرة.

وسحب الخضار كبشه ضاحكاً مبتهجاً يتبعه حزبه وعدد لا يستهان به من حزب مبروك، انضموا للغالب الذي انتزع بطولة النطاح في هذا اليوم.

ووقف القهوجي هو واثنان من أقاربه يتلاومون ويتشاتمون ليقرروا ما يجب فعله لإسعاف كبشهم.

---

(1) أحد أحياء العاصمة.

فاقترح أحدهم ذبحه بالسكين في الحال، ورأى الآخر أن الكبش لا يزال بخير وسيفيق عندما يذهبون به إلى الدار ولكن يجب إحضار «برويطة»[1] لحمله فيها.

وبين هذه المناقشة كان الكبش جثة هامدة.

جريدة (الشباب) 26 فيفري 1937

(1) عربة يدوية.

تونـــس تغـــني

أغلق القهوجي محله في الساعة الحادية عشر، ولكن البشير والصادق وعصمان لا يريدون الخروج وهم الذين بقوا من الزبائن.

أخـرج البشير علبـة مقفولـة من (التكروري)[1] وطلب إلى صـديقه القهوجي أن يقصها ثم تناول عدة اسطوانات من صندوق قريب منه لينتخب منها بعض اسطوانات عبدالحي حلمي التي لا يروق له غيرها.

ونفذ القهوجي رغبة صديقه البشير، ولكنه خفض الأنوار كما خفض صوت الفونوغراف إلى أقصى حد خوفاً من المخالفة المحتومة.

وإلى أن فرغت علبة التكروري كان الجماعة قد ملؤوا رؤوسهم من نغمات المغني المصري الراقد تحت الثرى. وكانت الساعة تدق الأولى بعد منتصف الليل فبدت علائم القلق والامتعاض على صاحب المقهى فقال عصمان الذي لا يشبع من السماع:

ـ في (حي المطاحن) عرس فيه «عوادة»[2] فقوموا نتم السهرة هناك.

وانتعش الصادق لهذا الاقتراح وكان على وشك النوم فقال:

ـ عندي نصف ليترة من (البوخة)[3] فانتظروني حتى آتيكم بها من الدار.

---

(1) الحشيش

(2) فرقة موسيقية.

(3) نوع من الكحول التونسية.

فقالوا جميعاً:

ــ هيا. . .

عاد الصادق بزجاجة (البوخة) يخفيها في طربوشه البرنس[1]، فوجد الجماعة في انتظاره على باب المقهى بعد أن أغلقوها. إلا أن القهوجي الذي كان ينوي الذهاب إلى داره، سأل الصادق.

ــ هل زجاجة (البوخة) مفتوحة.

فأجاب:

ــ بل افتح الباب الثاني لنا بالبريمة[2]، واتنا بكأس صغير.

ولما انفتحت الزجاجة تناول كل منهم كأساً تحت مصباح الشارع، وساروا يجرون أقدامهم والبشير ينشد بصوت عال أحد المواويل التي سمعها منذ لحظة في القهوة، والبقية يستعيدونه ويجيبونه بالآهات إلى أن اقتربوا من دار العرس.

وبينما هم يتشاورون في كيفية الدخول خرج من الدار شخص عرفه القهوجي فحياه فأدخله هو وإخوانه على الرحب والسعة.

كان الجماعة يحسبون أنهم سيرون في العرس إحدى المغنيات تنشد على عزف العود والقانون والكمنجة، ولكنهم وجموا عندما وجدوا الحفلة معقودة على سلامية[3] وقصة مولد يقرؤها شخص من أولئك الشرقيين المختصين بقراءتها، وقد أحاط به جماعة من المطوعين[4] يرددون ما يقول بأصوات كريهة متنافرة. ولكن الجماعة اقتنعوا بهذا الطرب الجاف لاعتمادهم على زجاجة البوخة التي ستجعل القبيح حسناً.

وقد أظهر الصادق براعة عجيبة، وهو يملأ الكأس من تحت برنسه ويمده

(1) لباس مغربي.

(2) المفتاح.

(3) فرقة إنشاد ديني نسبة إلى سيدي عبدالسلام.

(4) المتخرجون من جامع الزيتونة.

إلى إخوانه الواحد بعد الآخر، كما أظهر هؤلاء براعتهم أيضاً في التظاهر بأنهم يشربون كؤوس التاي المهداة إليهم من أصحاب الدار.

كان قارىء القصة نشيطاً في الإلقاء. فلا يخرج من أنشودة حتى يدخل في الأخرى، وكانت أناشيده كلها معارضات للطقاطق والأغاني الشائقة، فكان من السهل على المتطوعين الاشتراك معه في الإنشاد. فوجد البشير الفرصة التي يشبع فهيا رغبته من الغناء، فقام عن كرسيه وزحف إلى الحلقة فشعر الحاضرون بتغيير محسوس في الإنشاد وحمى وطيس الحفلة بالتدريج حتى أجابت النساء من الداخل بالزغاريد.

لمح الصادق الذي لا يزال على كرسيه شخصاً يحمل (حلاباً)[1] من الفخار ويضعه برفق أمام القارىء للقصة. فأدرك بألمعية أن الحلاب فيه شيء غير الماء، وصدق ظنه عندما رأى القارىء يحتسي منه جرعة خفيفة ثم يقدمه للجالس على يمينه بلا احتراس فغمز رفيقه ففهموا مراده ونزل الثلاثة إلى الحلقة، وبنزولهم شعر القارىء بتحسين عظيم في بطانته فعزم على إطالة السهرة.

كان الصادق ينظر إلى الحلاب وهو أمام القارىء فرأى الشخص الجالس على يساره يتناوله، ويأخذ منه (جغمة)[2] خفيفة ويضعه ثانية، فحبا الصادق على ركبتيه وتناول الحلاب بلطف وقدمه للبشير، بل رأى فيه موسيقياً بارعاً يعد من أبناء الطائفة. ولا غضاضة إذا عرف ما في الحلاب هو ومن معه.

ونظر أحد أصحاب العرس الذي يعرف أن الحلاب مملوء بالبوخة، فوجد حلابه يدور على سبعة أشخاص بعد أن كان قاصراً على القارىء والجالسين عن يمينه وشماله فأرسل حلاباً آخر لأنه رأى الحفلة انتعشت بمقدم هؤلاء الضيوف.

وأتت الساعة الثالثة ومعظم المدعوين قد غادروا الدار ولم يبق في الحلقة

---

(1) طاس من الخزف.

(2) جرعة.

أو على الكراسي غير الأصفياء والذين لا يضرهم السهر إلى الصباح وكلهم كان يشرب من الحلاب. . .

ولما خرجت (السلامية) وانتهت قصة المولد بحفلة غناء حقيقية ولم ينقصها العود الذي كان موجوداً عند صاحب الدار، خرج الضيوف الأربعة يترنحون ويتسابقون في ترديد ما سمعوه ويفخرون بأنهم انتصروا على قارىء القصة وأحيوا الحفلة واستحقوا شكر أصحاب العرس.

ووقف البشير يترنم ورفاقه مستندين إلى الجدران لسماع صوته فإذا سكت ومشى تبعوه متعثرين فقطع عليهم الغناء صوت المؤذن وهو يدفن الليل من صومعة الجامع الكائن في الحي. فجلس البشير على الأرض وأسند ظهره إلى الحائط الذي ترتكز عليه الصومعة وقال:

ـ هنا بقية السهرة وبقية السماع.

وتلاه الرفقاء فجلسوا بجانبه إلا القهوجي فقد وقف يقول للبشير:

ـ لا يسعني إلا الرجوع للدار حيث أني مضطر للقيام مبكراً.

فقال البشير:

ـ أنا حلفت بالحرام أن لا أنام في هذه الليلة فأجلس معنا لنستمع بنغمات المؤذن المطربة ثم اذهب واعطني مفتاح القهوة فأفتحها قبل شروق الشمس إلى أن تأتي.

كان المؤذن يلقي الجملة وجموع المستمعين يقرظونه ليحيونه من الشارع حتى خجل وقصر تحياته وترحيباته وذهب إلى سبيله.

وانفلت القهوجي بعد أن صبحهم على خير واستوثق من البشير بأنه سيفتح القهوة ويغلي البن كما فعل في مرات قبل هذه.

وعلى أثر القهوجي استأذن عثمان في الذهاب إذ لم يعد له طاقة على السهر.

وبقي البشير والصادق والزميل الثالث حائرين أين يذهبون ولا تزال الساعة الرابعة والنصف.

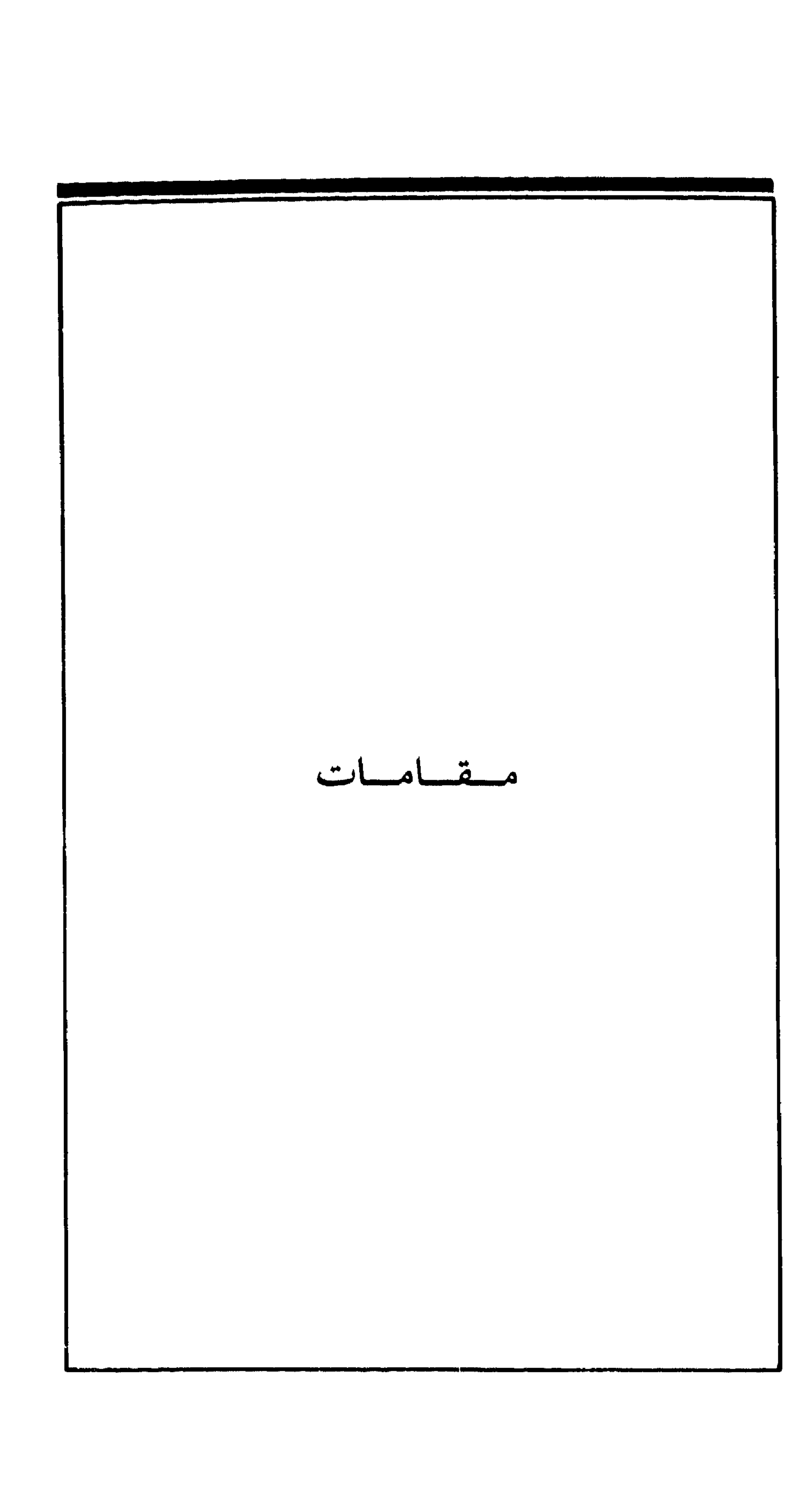
فاقترح البشير العودة إلى المقهى إذ هو يحمل المفتاح. ولما أغلقوا عليهم الباب ارتمى الصادق وزميله على الكراسي المستطيلة الملتصقة بالحائط.

ورأى البشير أن يتلهى بإشعال النار فكان ينظر إلى الفحم وهو يحترق ببطء ويكاد يختنق من الضجر.

فترك النار تشتعل وحدها وعاد فوضع اسطوانة على الفونوغراف وأدارها.

جريدة (السردوك) 7 أفريل 1937





مقامات



المقـــامـــة السودانيـــة

قال زعرب بن لقمان:

نحضر من الآفاق بدافع الاشتياق، إلى جامع الزيتونة، لنتذوق العلم وفنونه، وبعد قراءة المتون والحواشي، في عمر مديد، وإبلاء الجبب والشواشي بلا تحديد، ينتظر أحدنا الأعوام ليحل محل متطوع أو إمام، حتى إذا كتب وخطب، وأصبح صاحب مرتّب، ثم طلب الزواج من إحدى نساء العاصمة طلبوا منه مهوراً للظهر قاسمة، لأنه آفاقي وضيع، وعلمه الشريف يضيع، وربما دفع العشرة آلاف في امرأة من نساء الأجلاف، وعند الدخول بها يجدها بومة، اسمها حلومة. فقلت والله لأتولين بنفسي، اختيار عَرسي، فها هي «مكاتب»[1] البنات، تزخر بالمسلمات، فإذا وقفت على بابها أمكنني الاختيار، وعرفت طريق الدار، وإذا فتح الله علينا بالشهادة، كتبت لي ولها السعادة حيث أخطبها على معرفة، وأزوَّجَها زواجة مشرفة، وتكون هي أصبحت من الآنسات القارئات المتعلمات..

أحـــب الآنـــســـات لانـهـنـه	يقـــال لهن زينة عصـــرنَّـه
يجئن إلى «المكاتب» سافرات	جميعـاً والـدفـاتـر فـوقَهنَّـه
ترى في مشيهن الحلوِ قفزا	وتسمع حين يضاحكن رنـه
بنات تقرأ «الدّيبش»[2] دوماً	ولا أحـــداً يـفـســره لـهـنـه

(1) المدارس.

(2) إحدى الصحف التونسية التي كانت تصدر بالفرنسية.

بنات القطر خلاهن ربّي بقدرته وكبرهنهنه

وقد ذهبت إلى «مكتب» مشهور، تقرأ فيه البدور، تخفيت بقدر المستطاع، وظهرت في شكل بيّاع، أبيع الحلوى وأقول:

يا فرحة القلب الكسير فاقربي أما اشتريت ما اشتهيت فاطلبي
من عمك الشيخ الظريف زغرب

فاجتمعن علي كالعصافير المغرّدة، والغزلان المشردة، يقلبن في الحلوى ويشترين، وأنا أقلب فيهن ولا يدرين، وأبصرت فيهن فتاة، بقامة كالقناة، يتهدل شعرها الأسود البهيم على عنقها المشرق المستقيم، وقد تقدمت في حياء واختارت قطعة من «الشيكولاطاء»، وعندما دفعت لي النقود، ظهرت النهود، ثم أصلحت غطاءها، ونظرت وراءها، وقالت يمسّيك بالخير، وانطلقت كالطير. فقلت والله لا أختار سواك، ولو كنت سبب هلاكي، ورجعت «بالطبلية»[1] إلى الدار، بعد هذا الاختيار، ووقفت اليوم التالي على باب «المكتب» أنتظرها، فخرج البنات ولم أرها. قلت لعلها زاغت وسط البنات، وغداً في القريب الآت، ولكن مضت سبعة أيام، أترقبها بانتظام، فكأنها سكّر ذاب في الماء، أو حمامة غابت في السماء، قلت إنني لِحمار حيث لم أتبعها للدار، ترى ما الذي حجبها، أخطيب خطبها أم مرض قعد بها؟. وكان على باب المدرسة زنجي من السودان، تلتهب في محاجره النيران، وهو بوجه أسود كالزفت، وشفة حمراء كاللفت، فتراءى لي أن أسأله، لعله يعرف العلة، فقلت له:

هل الغزال الذي أرخى غدائرَه وخلّف النار ما بينَ الضلوع هنا

قال:

ـ هنا «مكتب».

فقلت:

---

(١) سترة يرتديها باعة الحلوى

لا تذكر الدار وأذكرْ أينَ ساكنها فقد أتيتُ أريد الظبي لا السكنا

قال: ليست هنا مساكن.

قلت:

لم تزدحم قط الأمهجة وسِعت لواعجَ الشوق والأسقام والحزنا

قال لا أفهم ما تقول فقلت:

لو كنت تفهم ما بالقلبِ من شجن لذقت يا أسود الآلام والشجنا

فلما سمع كلمة أسود دخل المدرسة، وعاد ومعه المكنسة، فبصق أولاً في خلقتي، وضربني حتى نقش جثتي، وأظن أن هذا خير علاج، لمن يفكر في الزواج.

جريدة (الزمان) 21 فيفري 1933

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقامة الفينيكية

قال زبعبع بن حيران:

هاجرت من «قابس»[1] إلى «رادس»[2]، وما ألقيت بها عصا الترحال، حتى حسنت الأحوال، فقد وظفت في مدرسة قرآنية، وتزوجت بسيدة من خيرة البيوت التونسية، وبنيت لي فيلا، في ذلك الخلاء، وعند فراغي من الدرس أركب المترو السريع وأتغدّى أنا وزوجتي (جميع).

فبينما أنا راجع ذات يوم إلى الغذاء، إذ سمعت من أحد القهوات نداء، وإذا به صهري المحبوب أخو الزوجة الخرعوب، يدعوني للجلوس معه، لأنسه وأمتّعه، وكان معه شخصان، يظهر أنهما من العربان. فقال لي أقدّم لك صهري السيد علي حـابس، وأصله من بلدكم «قابس»، فقلت: تشرفنا إذ تعرفنا، وأصدقكم أنني لا أجد الإيناس، في كثرة التعرف بالنـاس، لا سيما صهـر صهري، فما هو إلا حمل على ظهري.

فلما شربنا القهوة، ودار من الحديث ما دار، قمت مسلمًا باختصار، وبعد شهور من هذه المعرفة سمعت على بابـي دقاً في الليل، لا يدل على غير الشر والويل.

فلما فتحت الباب وجدت سبعة من الأعراب، يتقدمهم ذلك الصهر البعيد، كالقائد العتيد، ومع أحدهم كيس فيه ويبة شعير، والآخر فقه مملوءة

---

(1) مدينة في الجنوب الشرقي للجمهورية التونسية.

(2) ضاحية من ضواحي تونس الجنوبية.

بالتمر الحقير، والثالث قفص فيه بعض البرتقال الصغير، وقد حملوا هذه البلايا، وجعلوها هدايا، وقد فهمت انهم جاؤني مستضيفين، بحكم أننا صرنا متصاهرين.

أتوا ليلاً فقلت من أين أنتم   فقالوا الجن، قلت عِموا ظلاما

ودخلوا كما يدخل البقر الحظيرة، في هذه الفيلا الصغيرة، فأحضرت ما تيسر من الطعام، وقمت بواجب الاكرام، وأنزلت من «جرايات»[1] النوم، ما يكفي للقوم. وفي الصباح تبدأ الضيافة الكبرى، والأزمة العسرى، ففي اليوم الأول:

ذبحتُ ما كان من دجاج   يبيض في الصُّبح والمساء

وفي اليوم الثاني:

طبخت قرعاً لهم بلحم   يَنْزل بالسمّ لا الشفاء

وفي اليوم الثالث:

شريت فولاً لهم وزيتا   ولست أقوى على الشراء

ويقول المثل إذا عرف الأعرابي بابك، فما أطول عذابك. وقد مكثوا مكوث الأصنام، وسرحوا يرعون في داري كما ترعى الأغنام، فذهبت إلى صديق كنت أستنجد به وقت الضيق، وسردت عليه قصة هؤلاء الأراذل، فضحك وقال: تالله انك لجاهل، كأنك قد غرقت في المحيط، مع أن الحل بسيط، اطبخ لهم ملوخية شائحة، واجعل أدامها من زيت الخروع الخالي من الرائحة، وبعد العشاء أغلق عليهم الباب المفتاح، ولا تفتحه إلا قرب الصباح، ولا تترك عندهم ماعوناً أو قارورة، لقضاء الضرورة، ولا شك انهم سيقضونها في أحد الأركان، ويدنسون لك المكان، ولكنهم إذا انفتح الباب، فسيخرجون بلا إياب، وعادة العربي أن يضع عنقه تحت المقصلة، ولا تعرف عنه هذه المسألة.

---

(1) الحشايا.

فدبرت المكيدة بنفسي، ولم أكلف بها عَرسي، ولما تعشى الجماعة وأغلقت عليهم باب القاعة، أخذت المفتاح وسلمته لزوجتي قائلاً:

فـريدتي لا تحـزني الآن اسمعي … إنـا سقينـا القــوم زيت الخـروع
وهــا هـو مفتــاحهم بــات معي … فــالبـاب لن يفتــح مـا لم يخلع
نــامـي إلـى لـعـلعــة الـمـلـعـلع … ثُمّت قُــومِي عنــدهـم تسـمعـي
فــإن سمعت شغبــاً لا تفــزعـي … فــالقــوم بين العــار والتــوجــع
محيَّــرون مــا لـهم مـن مفــزع … في سجنهم غيـر الـزوايـا الأربـع
لا بــد من بـطن هنــا مقرقــع … ومــدفــع يـطلق أثــر مــدفــع
وســائــل يســأل عن «زبـعبــع» … فــلا تــرقِّـي لهـمُ أو تـخـنـعـي
حتى إذا السيل طغى في المخدع … تـجـمـعـي بـخـفــة ثــم ضـعـي
مفتــاحهم ثــانيــة في الـمـوضــع … ثــم أديــريــه اثـنــتـيـن وارجـعـي

قال زبعبع: فلما شقشق النور، خرج القوم طابور، وركبوا البابور، فأحضرت قفتين من التراب، وغطيت ذلك القـذر المذاب. ثم أعملت العرجون[1] في هذا المعجون، وفتحت الشبابيك ليدخل الهواء، ويخرج الوباء.

ومضت ثلاثة أيام والرائحة لا تزال تزهق النفوس، وتزعج العروس، فقلت لصاحبي انك صاحب هذا الاقتراح المشؤوم، كأنك حسبتني بلا خيشوم، أرجوك أن تتحرك وتهم، وتدخل البيت وتشم. قال لا بأس عليك، فالدواء بين يديك، اذهب إلى الصيدلية، واطلب نصف ليترة من «الفنيك»، وسترى ما يرضيك، قلت وبكم هذا النصف ليترة. قال: بفرنكين. قلت: قد أوقعني الأعراب في الضنك، ولم يبق لي غير فرنك. قال عندي بقية في زجاجة، ليست لي بها حاجة، فلما رششتها في الدار، انقلبت رائحتها إلى عطر وبهار، قلت والله لأكتبن على الفنيك، فصلاً في كتب الشرع الشريف، وأحرض المسلمين على شرائه في المدن والريف.

جريدة (الزمان) 13 مارس 1933

(1) يقصد كنس الفضلات بالمكنسة التي هي عبارة عن عرجون يابس من التمر، كان يكثر استعماله في البيوت مكان المكنسة الآن.

المقـــامـــة السطوحيـــة

قال حمزة بن عصبان:

أسكن في دار كأنها الغار، في الشتاء زمهرير، وفي الصيف السعير. وقد جاء الصيف وانتشر البق، وخرج كل ثعبان من الشق. وليس عندي غير الفرش والغطاء، كسائر المؤدبين والفقهاء. فقلت والله لأحملن هذه المسوح، وأنام بها على السطوح، وأخذت «الجراية»[1] «والفراشية»[2]، وشرح بن عقيل على الألفية، وجلست أذاكر في ضوء القمر حتى طال السهر. فاضطجعت للرقاد، وتوكلت على رب العباد. فما كدت أغمض عيني حتى سمعت صوت صرير، وحركة سرير. وقائله تقول.. ما يقال للبعول.

بـــالـــزيـــادة بـــالـــزيـــادة	هـل جعلتَ الأمـر عـــادة؟
قلت لا أعــرف في البـدء	فـــمـــا بـــال الإعـــادة
بـــالـــتـــأنـــي بـــالـــتـــأنّـــي	قـــد سلبت الـــروح مـــنـــي
لا تجب ســـاقـــك نحـــوي	وأبـــعـــد الـــلحـــيـــة عـــنـــي

فقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وجنس الحريم. اللهم أبعد عنا الوسواس أو أرزقنا ببنت ناس. ثم قرأت ما تيسر من القرآن، وعزمت على النوم فسمعت صوتاً آخر من قريب، صادر من محب وحبيب، ونغماً بصوت نسائي أو بناتي، ينظم اللحن الآتي:

---

(1) الحشية.

(2) غطاء من الصوف.

سائق الظعن خففِ سق بأقصى التلطف
ثم عرج على الكثيب وان جئته قِفِ
وادخل الرَّوض غانماً والثمِ الورد واقطف
آه من لوعة الغرا م ومن فعله الخفي

فطار المنام، وقعدت والسلام، مرة اقرأ الكتاب، ومرة أصغي إلى القطط والكلاب، وقد انقطع النباح والنهيق، ودخلنا في الليل العميق. فقلت الآن انقطع الإيناس والابساس، وطاب النعاس. فسمعت صوتاً كصوت الهزار يقول من «النواصار»:

من هنا، لا من هنا لا يمينا لا شمالا
لا تعاضل لا تصادم بل ذهاباً واقتبالاً
هكذا لا هكذا بل هكذا وإلا فلالا
لا تهرج، لا تمرج لا تفق لي العيالا

فقلت ما شاء الله العظيم العلي، ما أقبح النوم في العِلي. والله لا أقوى على الصبر. ولا أستطيع الرجوع إلى القبر، فلأحملنهم على السكوت، أو النوم في داخل البيوت. ووقفت على جدار السطوح أقول، وأنا المسؤول:

يا أيها الناس سدّوا في مضاجعكم أفواه نسوتكم بالطوب والطين
مهما يك الصوت فوق السطح مرتفعاً بالليل يسمعُه من في الدكاكين
صوت الحرائر خلفَ الستر منسجماً يذيب قلب قويِّ العقل والدين
جيرانكم ليس كل عنده امرأة تبيت ما بين تحفيف وتزيين
فكم فتى ساقه في بطنه التصقت يزامل السّهْد في ذل وتخمين
يا أيها الناس كونوا في مخادعكم واقضوا حوائجكم بالرفق واللين
ومن تأوه فليجعل تأوهه بحشمة لا بترخيم وتلحين

والآن قد شرحنا وأفدنا، وان عدتم عدنا. قال ابن عصبان: وبعد انتهاء القصيدة سمعت أصواتاً عديدة، وهم جماعة من الحمالين، قامـوا منتبهين ويحسبون الصياح آذان الصباح. فقلت ناموا أيها الأوثان، ليس هذا بأذان، بل هو قصيدة حمزة بن عصبان.

جريدة (الزمان) 18 افريل 1933

المقـــامـــة الفرنكيـــة

حدثنا الأعزب بن وخمان. قال:

دق على بابـي ساعي البريد، وألقى إلـيَّ خطاباً غير حميد، فتحته فإذا به يقول:

مولايَ مدنفة بحسْنِك ما لها ... غير الوصال إلى الشفاءِ سبيلُ

يوم «التظاهر» قد رأيتك واقفاً ... مـا بين أقزام وأنتَ طـويل

والناسُ تهرع كالقطاطس بينما ... لك وقفةٌ كالطود ليسَ يزول

من فوق رأسك عمَّةٌ مدحوة ... كـالبدْر لـولا يعتريـهِ أفـول

وعليك جبَّتك المطرز صدرها ... كالروض لولا يعتريـه ذبول

وبوجهك الوضاء لحيتك التي ... مشـطتها والشـاربُ المفتول

ولقد وقفتُ وكنت أرجو نظرة ... تحيـي بها روحي وأنتَ بخيل

ثم انصرفت حزينـة مقهورة ... والدمع كالنبع الغزير يسيـل

ولقد خبرت الحبَّ أول مرة ... فإذا الحياة إذا عدته فضول

أقضي الليالي في السهاد، ومنيتي ... بيني وبينك أن يكون رسول

رحماك لا تردد علي رسالتي ... وامنن بوعد والـوفاء جميـل

سأمر من «نهج الكنيسة»[1] فأنتظر ... يوم الخميس وفي يدي منديل

فالميعاد إذن يوم الخميس... والخطاب جاء يوم الخميس، فالمدة أسبوع،

---

(1) أحد أنهج العاصمة التونسية ويسمى الآن نهج جامع الزيتونة.

وبعدها الدخول في الموضوع. فلما جاء الموعد المضروب، وقاك الله الخطوب، ركبت «الترام»[1] من «باب سعدون»[2] إلى «باب بحر»[3] الملعون، ووقفت بجانب التمثال تمثال الكردينال[4]، أنظر إلى ذوات الخلاخيل، وإلى كل ذات منديل، فرأيت امرأة كالشكارة، وفي يدها الامارة، أي المنديل. فقلت لها:

أنت التي تشكينَ من ألم الهَوى   فبعثت لي يوم الخميسِ خطابا

فقالت لعنة الله عليك يا قبيح، إني لا أعرفك، فرجعت إلى تمثال «الكردينال» آسفاً على هذا الضلال، فرأيت فتاة كالغصن النحيل، وفي يدها ذلك الشيء المسمى بالمنديل، فقلت لها:

وصَل الكتاب وجئتُ حين قرأته   متوسِلاً أستفتح الأبوابا

فقالت اخسأ لعنة الله عليك، وأعمى عينيك، وقطع يديك ورجليك، إنك تمشي كالحمار، وتداعب الأحرار. فرجعت إلى تمثال «الكردينال»، فرأيت امرأة تتبختر. وفي يدها منديل أخضر. فقلت:

إن كنتِ مرسلة الخطاب فإنني   ذاك الذي أوسعتِه اطنابَا

فقالت اذهب يا مجنون، ودعك من المجون، فرجعت إلى الكردينال، فرأيت امرأة ظريفة، وفي يدها «محرمة لطيفة». فقلت لها:

يا ربَّةَ المنديل ها أنا ماثل   كيلا تقولي قد مضى أو غابا

فانقلبت هاربة، ومضت غاضبة وقد مالت الشمس إلى الغروب، ولم يجتمع الحبيب بالمحبوب، وأنهكني التعب. فدخلت إحدى القهوات فإذا هي «بار» أي أنك تشرب القهوة وتدفع «البوربوار»[5] ففي الترام اثنا عشر

---

(1) القطار.

(2) أحد إحياء العاصمة.

(3) أحد شوارع العاصمة

(4) هو الكاردينال لافيجري أحد أقطاب الاستعمار الفرنسي.

(5) أي البقشيش.

صولدي[1]، وثمانية في القهوة يا ولدي، وقد تغفلت الجرسون، وهو في حجرة التليفون، وخرجت من الباب. أحسب الحساب، فإذا هو فرنك، عفى الله عني وعنك. فعولت على العودة إلى البيت كالعائد من دفن الميت، وعزمت على مقاطعة الترام، والسير على الأقدام.

وبينما أنا في الطريق، قابلني صديق، قال إني أفتش عليك، لأمر أريد أن أبلغه إليك، إن أحد أصحابك اللئام، كتب لك خطاب غرام، وقد أبصرك في المظاهرة، فكلمك بلغة العاهرة، التي تطلب وصالك، وتعطل أشغالك.

قلت وما اسم هذا اللعين؟ قال هو فلان، الذي يجلس مع الشاويش بن شعبان[2] قلت هكذا يفعل الأوغاد، ويتآمر القواد، الآن وقد ضاع مني الفرنك، ولست بصاحب بنك، فلعنة الله على القوادين، وإن كانوا من المصلين.

جريدة (الزمان) 25 أفريل 1933

---

(1) وحدة العملة آنذاك.

(2) يقصد الكاتب التونسي مصطفى بن شعبان الذي اتخذ منه الكاتب شخصيته للتندر لخلاف بينهما.

المقـــامـــة الأورديفريـــة

قال الباقل بن فشخان:

كلنا يعرف مولانا الوزير، صاحب القصر الكبير، ويعرف كرمه الحاتمي، وطعامه الهاشمي، وقد أفرد في منزله جناحاً للضيوف يدخله المجهول والمعروف. في هذا الجناح يتغذى من يشاء، ويتناول العشاء، لا سيما المقربون والعلماء والمؤدبون، وقد دخلت هذا المنزل لأعلم نجل سعادته العربية، وأفقِه بنت سعادته في المسائل الدينية، وقد أخبرني الطفلان بأن الغداء مباح، في ذلك الجناح.

ودخلت لأول مرة، فرأيت على المائدة شيخاً رقبته كرقبة الجرة، وصدغاه ككفلي الحمار، وعيناه لا تقولان إنه من المسلمين، سلمت فلم يرد السلام ليشعرني بأنه من الرجال العظام، فعزمت على مبادلته الاحتقار، وبصقت على اليمين واليسار، و«شمرت» للأكل وكان على المائدة شيء كثير، من سمك صغير وكبير، وفجل وزيتون، ومرقاز وليمون، وتوابل افرنجية وأخرى عربية، وكلما فرغ صنف جاء الخادم بصنف، والشيخ يأكل على مهل كالملوك، أو كالمتعب المنهوك، أما أنا فقد شننت الغارة، وتمنيت أن بطني شكارة، لأودعها كل ما هو أمامي، دون ذلك المتجاهل المتعامي. ولما أكلت واكتفيت، جاء غلام البيت، ووضع على المائدة صحن «عجة»[1] أحدث فيها رجة:

ولم يبق في بطني مكان لذرة فـزاح زميلي نصفـه وتمتعـا

(1) أكلة تونسية خليط من البيض والبهارات.

ثم صحن «كستيليات»:

عـشـرا طـويـلة فـزفـ ـه الأستاذ لي الصحن أربعا[1]؟

ثم صحن بطاطة محشوة باللحم:

أتى الصحن منها عامراً متشامخاً وعاد غلام البيت بالصحن بلقعا

ثم دجاجة:

تبدي لها كالليث وانتاش صدرها وثنى بوركيها وأطـرافها معـا

ثم قطايف:

طواها رقاقاً واستحالت ببطنه جميعاً فما أدهَى البطون وأوسعا

ولكني بعد ذلك اعتراني الكابوس، ولم أقو على الجلوس، فقمت إلى الطشت والأبريق، قبل هذا الزنديق، فقال الغلام وهو يصب الماء، ليتك ما أكلت، لأنك تعجلت، كان الزيتون «والسردين»[2]، والسلطة والفجل والترشي كل ذلك إن هو إلا فاتحة الطعام، كالسلام قبل الكلام، واسمه (الأوديفر)[3] وكأني بالشيخ تركك تأكل ما تريد لينفرد وحده بالصُّنوف، وهذه عادته مع كلّ الضيوف، فقلت للغلام: وماذا يعمل هذا الشيخ عند سيدنا الوزير، قال: يدعي أنه من الصالحين، والأقطاب العارفين، من لمس ثوبه فقد رضي عنه وأرضاه، ومن أطعمه أخذه يوم القيامة في حماه، فلما فرغت من الغسل رجعت إلى الشيخ الثقيل، فوجدته قد زاغ من الباب، خوف التقريع والعتاب، فانطلقت خلفه فأدركته في زقاق، وأخذت منه بالخناق، وقلت:

لو لم تكن شيخاً حقيراً قذراً لقلت خيـراً والتمست عذراً

لكن فقيهـاً مـا تخلي قبـرا ولا مـوائـد الأنـام الكبـرا

تسعى لهـذا ولـذاك دهــرا تـولَد هكـذا وتفني العمـرا

---

(1) تخرم في أصل الجريدة.

(2) نوع من الأسماك الزرقاء الصغيرة الحجم.

(3) المفتحات.

يا كلب يابن الكلب ماذا يجْرى　　لو قلت لي لا تأكل «الأورديفرا»
هل كنت لا أستطيع عليه صبرًا　　أم أنت لا تدري لمثِلي قدرا
بلى ولكنْ قـد ملئت مكراً　　وحـزتَ ضـدين تقى وكبـرا
فـلعنـةُ الله عـليــك تـتــرى

فماذا فعـل قال أنا لا أبالي بأمثالك، فاذهب إلى حالك، ولوح في الهواء بعصاه، أخزاه الله، فرفعت الأمر للوزير، فقال لوكيله لا تدع هذا الرجل يدخل بيتنا، وإذا جاء فاطرده من هنا، فما عندنا تكية فقهاء وأولياء، وإنما منزل وزراء وعلماء وأدباء.

جريدة (الزمان) 2 ماي 1933

المقامة الاسفنجية، أو «النشافية»[1]

قال مرزوق بن خلكان:

لما كنت من هيأة كبار العلماء المشهورين بالعلم والثراء، أخالط أهل كل بيت شريف، وأدخل كل قصر منيف، عرض علي أحد الأصحاب، المرفوع بيني وبينهم الكلفة والحجاب، أن أتزوج من جارية تركية، مهذبة ذكية، مجدها تليد، ومولودة في قصر عبدالحميد، فتزوجتها كما أراد، وأصبحت من أجلها كثير الحساد، كيف لا وهي تتكلم عدة لغات، وتعزف على جميع الآلات. وتحسن التطريز، وتبدع في الرقص «والرهيز»، وقد كانت فيها عادة هي النعمى وزيادة، وذلك أنها بعد قضاء الأمر المعلوم، لا تمسح في البشاكير أو الخروق أو الهدوم، ولكن تأبى لها اللطافة والظرافة، إلا أن تمسح نفسها بنشافة من النشاف البحري، الأبيض الطري، تباع القطعة بخمسة فرنكات، ولا توجد إلا في أفخم المحلات، وقد كان لها في كل خمسة عشر يوماً اسفنجة من هذا النشاف، فإذا قدمت تضعها في قفة من القفاف، حتى ملأت منها قفة عظيمة، لها قدر وقيمة:

قفةٌ لو تباع بيعتْ بتسعين	فرنكاً، وفوقها تسعون
لو درَى قدرها الذي يشتريها	لازدهى قدرُه على العالمينا
كان اسفنجُها الغزير مليّاً	يسكن الحجر والقرارَ المكينا
وغدا بعد أن تظهر طهراً	يمسح الركن والمكانَ الأمينا

(1) الكلمة بالعامية التونسية ومعناها الاسفنجة.

قال مرزوق بن خلكان، وقد احتاجت إلى أحد الغلمان الصغار، ليذهب إلى الجزار مثلاً وإلى العطار، فأخذت من أبناء الجامع طالباً من الآفاق[1]، قد أهلكه الفقر والإملاق، وقالت له يا بني سأغنيك عن التكية، وأسكنك في داري المحمية، لتقضي الحاجات لأهل المنزل، حين تكون عن القراءة بمعزل، وقد أعددت لك في «الدريبة»[2]، غرفة رحيبة، تنام فيها مرتاح، إلى الصباح، لا يزعجك من دق، ولايلسعك البق، وسنعتبرك غلامنا، ونطعمك طعامنا. وما اسمك. قال: زيد، قلت: وبمثلك يصاد الصيد، فلما أسكناه مكانه، وتبينا فيه الأمانة، وسوس له الشيطان، وأغراه على الخيانة فخان، وذلك أنه أبصر قفة الاسفنج، فاستلان ما فيها وسرق منها واحدة ظريفة، جعلها مكان الليفة، يستعملها كلما توضأ واستحم، ويحملها كلما قعد أو هم، فرآها التلامذة معه، وأراد كل منهم أن يقلده ويتبعه، فجعل زيد يسرق ويبيع، حتى اشترى الجميع:

لم يبقَ ممَّن شرى الاسفنجَ من أحد
إلاَّ وراح إلى مستوصف الرمد

زيدٌ يقود زياداً خلفه عمَر … يقود عمرواً وعمرو آخذ بيد
يا زيد مالكَ والاسفنج تجعله … مكانَ ليفتك الحمراء يا ولدي
أعميتَ أعين أهل العلم فوق عمى … أصابهم من قديم العهد والأمدِ
مَنْ للأصول ومن للنحو يقرؤه … وللفرائضِ والآداب في البلدِ

وبعد هذا العمى وهذا الرمد، طردت الولد، وقلت له اذهب يا بن الوليَّة، وعد إلى مكانك في التكية.

جريدة (الزمان) 23 ماي 1933

---

(1) تطلق كلمة (الآفاق) على طلبة الزيتونة الوافدين للدراسة به من أنحاء البلاد.
(2) سقيفة المنزل.

المقـــامــة٠ الليفيـــة

قال الغارم بن خسران: جبلت على مراعاة اخواني، بقدر إمكاني، أقرض معسرهم، وأنصح موسرهم، وأعود مريضهم، وأجير مهيضهم، أبتغي من ذلك رضى الله لا رضى سواه.

جاءني نعي أحد هؤلاء الصحاب، ولكل أجلٍ كتاب، فتوجهت إلى منزله، لأقف على جنازته وغسله، ورأيت ابنه الكبير يجهش بالعبرات، ويصعد الزفرات، يكلمونه وهو فاقد الشعور، ويعزون منه غير متعز ولا صبور، وله أخوان صغيران، لا يعرفان التصرف ساعة الأحزان.

فقلت يجب عليك يا بن خسران الوقوف في هذه الساعة، والحلول محل الجماعة، فشمرت وجئت للحمالين وكانوا على الكراسي جالسين، فقلت لهم:

أيـهـــا الأوبـــاش من غـنـم ... آكـلـوا الأجـســـاد والـــرمـم
أنـــزلـوا عن كـــل عـــاليـــة ... واقعدوا في الأرض كالصرم

وجئت للقراء فقلت لهم:

هـــذا الـفقـيـدُ صـــديقي ... ومـــن كـــبـــار ثِـــقَـــاتـــي
اتـــلوا عـليـــه جـــمـــيـعـــاً ... دلائـــلَ الـــخـــيـــرات
وكـــرروا كـــل حـــيـــن ... أعـــوذُ والـــنـــازعـــات
وبـــعـــد ذلـــك عـــودوا ... لـــلفـجـــر والـــمـــرســـلات
وادعـــوا لـــه بـــمـــقـــامٍ ... فـــي أفـســـحَ الـــجـنَّـــات

وجئت بعد ذلك أتفقد الأكفان، فوجدت الحنة والزعفران، وقطعة من الصابون ظريفة، ولكن لا توجد ليفة، فتوجهت إلى العطار، اشتريت منه بفرنك، أبعد الله الفقر عنك، فالمتوفي أحد المثرين، ومن تاركي الملايين، ودخلت بالليفة أمام الناس منفوشة. لو أحرقوها لأوقدت كوشة[1]، وقد رآها الابن رغم ما هو فيه من حزن يضنيه. سلمتها للغاسل يداً بيد، وأودعنا الرجل في قبره، ومرت أيام العزاء واستولى الورثة على التركة، وزادها الله بركة، وظهرت على ابنه الكبرياء، وخطر في أثواب الخيلاء، وكلما رآني في الطريق، تجاهلني ولوى صدغه الصفيق، كل هذا هروباً من دفع ثمن الليفة.

فكتبت إليه:

لا تكن يا فتًى غداةَ تلاقيني	في حيْرة وفي إربـاك
لست ممن يطالب الناس بالعنف	ولا كنت للمدينِ بشاكي
أنا من ينفِقُ الفلوس وما أد	راك في قهوةٍ وفي «تنباك»
أنا لو كنت أجمع الفلسَ والفلس	لأصبحت من ذوي الأملاك
أي لِيفٍ وأي شيء سوى الليفة	والكون صائرٌ للهلاك
كم من الليف كان عندي ملقًى	ثم ألقيتُه من الشباك
غير أني أوصيكَ بالمال لا تقذفنه	بين الأفخاذ والأوراك
وعلى «الانيزيت» والحوت والبو	خة[2] و«المندران» و«الكونياك»[3]

فكان بعدها يراني ويختفي في الحائط، وعاش وهو في نظري ساقط.

جريدة (الزمان) 6 جوان 1933

---

(1) فرن.

(2) (3) جميعها أنواع من الكحول.

المقــامــة البشكيريــة

حدثنا زنديق قال: عندي صديق، اسمه الأخنع بن مخطان، لم يفلح في صناعة ولم يعمل لمصلحته ساعة، وكان يشتغل في الطباعة. . . وأخيراً توظف سكرتيراً لإحدى الممثلات يدير أمورها، ويعلن غيابها وحضورها، لأنها رأته كما يزعم من حملة الأقلام، والقادرين على الكلام. ومنذ استلم هذا المركز شمخ به واعتز. وصار يتكلم من أنفه، ويتدلل على أشباهه وصنفه. وبدأ يبتسم باستهزاء. ويشير بالإيماء والإيحاء. وهكذا ينفخ الشيطان في كل من يتصل بالنسوان. وأصبحنا إذ سألناه من أين وإلى أين، يقول: من عند السيدة وإلى السيدة، فعملت على زيارته ألف حيلة، حتى وجدت الوسيلة. وذهبت لزيارته في مقر وظيفته، لأرى وجه سيدته وأليفته. فوجدته خلف الباب، كأنه البواب فأحضر لي مقعداً من الخشب الحقير. وأخذ في الهذر والتقعير، فدق الباب ودخل فتى كالجمل «القعود»[1] في يده عود، فلم يقرئنا السلام، فسألته من هذا فقال:

هو الذي لو كنتَ تسمع عودَه ... يوماً سجدت لخالِق الأوتـار
متمكن من فنِّـه ويـزيـده ... فوق التمكن رفعةَ المقـدار
لم يستمع منه سوى أحبابه ... في حفلة من صفوةِ الأخيار
ويـزورنا في كـلِ يوم مـرة ... ليلحِّن المختارَ من أشعاري

يعني أنني أنـظم للسيدة الأشعـار، وهذا يلحنهـا لهـا من «العـراق» و «النواصار».

(1) الجمل الصغير

فقلت في نفسي هذا مليح، أيها الشاعر الفصيح. إنك والله ابن يومك، ونموذج قومك. وبعد أن طال غياب هذا الزائر، سمعنا الأوتار ترن، والأقداح تطن، والضحكات تتعالى، والآهات تتوالى، والأخنع بن مخطان يهز رأسه إعجاباً، ويوسع من في الداخل اطناباً. ويقول ما أحلى الفنون والنغم الملحون. والله إن مركزي هنا رفعني على الأصحاب، والمؤلفين والكتاب. قلت زادك الله رفعة، ولا جعلك كغيرك إمعَّة. ولما أذنت الشمس بالغروب، خرج هذا الزائر القطوب، وسمعت بعدها صوتاً ينادي، كأنه يقول يا هادي، علّي بالبشاكير، والطشت الكبير، فقام بن مخطان وأحضر الأدوات، وعاد في وقار وثبات، ثم نودي عليه مرة أخرى فعاد يحمل الصحون. وفيها بقايا ما كانوا يأكلون من «مقروض»[1] وفطير، ولحم وفاكهة، وقال هلمَّ إلى العشاء فقلت:

لو جعتُ دهراً وغال الجوع ذاكرتي	ما كنتُ ألحس هاتيكَ القواريرا
كل أنت في الدار قواداً ومن وصلت	به القوادة سموه سكرتيرا
صناعة أنت تحدوها وتجهلها	ولو نهضت وقدمت البشاكيرا

جريدة (الزمان) 20 جوان 1933

(1) نوع من الحلويات التونسية.

المقــامــة الصورديــة

حدث الجاهل بن خلكان قال:

كان أهل الدار، يسمونني الحمار، وأهل السوق، يسمونني المفتوق، وأهل الجامع، يسمونني الطامع:

لعـلَّ اللّـه يـخلف ظـنهـم ويبعثُ لي بالفضل والمجدِ في غَدي
ويبعثهم قهراً لتقبيل راحتي ويدعونَني بالعبقري الممجَّد

وقد حقق الله الآمال، وكتب اسمي في ديوان الرجال، وذلك بأتفه الأسباب، وبشيء لا يدخل في حساب.

ذهبت المسجد، أمشي مشية الممجَّد، فاستوقفتني امرأة سائلة، ونادتني باسم العائلة، وأقسمت بالله أنَّ فرشها مباع، وأولادها جياع، فلم يسعني إلا الانصياع وأدخلت يدي في جيبي، وأخرجت ما فيه على يدي، فوجـدت قطعتين، ذاتي فرنكين، وثلاث قطعات، ذوات ثلاث فرنكات، ولم أجد من «الصوارد»[1]. . . غير «صوردي» واحد لكنه عندي عزيز، كالذهب الإبريز، لأنه من النقود القديمة، التي لا تقدر بقيمة، عـلى وجهه منقـوش، صورة «علوش»[2]، وعلى وجهه الآخر مدفعان، من مدافع زمان، وقد عرضته على تجار «الأنتيكة»[3] فقالوا إنه يساوي سبيكة، وقد رآه شيخي الكبير فأعجبه، وأوصاني

(1) عملة من العملات التي كانت متداولة.

(2) خروف.

(3) العاديات.

أن أخفيه وأحجبه، ولكن سؤال المسكينة، دخل في قلبي دخول السكينة، فقلت لها و«الصوردي» في يدي:

هذا الذي تجدينه في راحتي ذخرٌ وحقّ الواجد الديّان
لا تحسبيه كالصَّوارِد كلِّها يشرَى به شيء من الدكان
هـذا يقال لمثله أنتيكَـةٌ من أعصرٍ الأعجام والرُّومان
صرّيه في طرفِ القميص وخلِّه ذخراً ليوم الضرّ والأحزان
وامشي لبابِ «البحر» ساعة قشطه ثم اعْرضيه لأيّة نصراني
خمسون من صنف الفرنك يحطها وبضعفها إن كان أمريكاني
ولسوف تختبرين صدقَ مقالتي وترَيْن كيف طرائق الإحسان

ووضعتُه في يدها ولم أقل وأسفاه، ما دام في سبيل الله، ودعت لي المسكينة بقلبها، أدعية جاء بها:

إذهب جعلك الله زينة الأخوان، وحسرة الخوّان، والمكرم في كل ديوان، والناجح في كل امتحان، والمبجل في كل زمان ومكان.

وفي هذه الليلة رأيت في النوم كأني في «فلوكة»[1] مملوءة بالبط، تسير بي من شط إلى شط، يجذف فيها فلاح، وأنا أضحك والبط في صياح، ثم خرجت منها إلى البر وأعطيت الملاح ما تيسرَّ، ثم ابتعد البط عني، وفتحت عيني، وقصصت هذه الرؤيا على شيخي. فقال: البحر هو العلم. والفلوكة هي الامتحان، والبط أهل البطالة، وبنزولك إلى البر، نجوت من الشر، فقلت إنشاء الله العلي الأعلى، وهذا ما وقع فعلاً، فقد حصلنا الفوز، وفرقنا السكر واللوز، وأصبح أهل الدار، يسمونني عظيم المقدار، ومن في السوق، يسمونني الفاروق، ومن في الجامع يسمونني الإمام السابع، وذلك والله بفضل الصدقة.

جريدة (الزمان) 27 جوان 1933

(1) مركب.

المقـــامـــة الخلنجانيـــة

قال بعجر بن طميطان:

طلقت زوجتي «أم الخير» لوجهها المخربق، وثوبها الأزرق الممزق، وجهلها المطبق... وعمدت إلى عطبول خرعوب من حملة «البكالوريا» الإفرنسية، تفهم مقام رجل مثلي يحمل «العالمية»[1]:

ليبقى العلم والعَلَمُ صفيّين خليلَيْن
ويحظَى شعر «حسّان» بأشعار «لافونْتَين»
وتلقَاني عَلَى الرأس وألقَاها عَلى العين
ولا يظفر بالحبّ سوى كلّ شبيهين

وقد قضينا الأسبوع الأول في التعارف والتقارب، والأسبوع الثاني في تمكين الألفة ورفع الكلفة، والأسبوع الثالث في الملاطفة والهزار، والتقاذف بقشر التفاح والخيار. والأسبوع الرابع في المناقشة الصريحة، والحكايات المضحكة القبيحة. وبعد مضي شهرين بدأ الملل في الاستيلاء على القلبين، فأصبحت لا تجالسني إلا ومعها كتاب تنظر فيه. أو ثياب ترفيه (في الأصل ترفوه). نعم وإذا نظرت لي تثاءبتْ وتمطت، ثم تعرت وتغطت. قلت: هكذا حياة الأزواج بعد طول العهد بالزواج، ولكنني أبصرتها في أحد الأيام، تقرأ كتاباً باهتمام أنساها جميع الأنام.

قلت: ما هذا؟

(1) شهادة من الشهادات العلمية العليا التي كانت تمنح بالزيتونة.

قالت: كتاب في التدبير المنزلي، وقراءته تلذ لي.

قلت: أتسمحين؟

وتصفحت أوراقه، وقرأت بطلاقه: «والأشخاص الذين تجاوزوا الثلاثين من العمر يجب أن لا يفكروا في الزواج أو تأسيس عائلة...».

قلت في نفسي:

«يا بعجر بن طميطان عرضت   بك إذ تجاوز عمرك الخمسينا»

ثم ماذا؟ فتصفحت وقرأت:

«والأشخاص الذين يتجاوزون الأربعين من العمر، إذا كانوا من المرفهين أو المشتغلين بالأعمال العقلية، تصلب شرايينهم، وتتراكم فضلات الدم في عروقهم، وتعجز كلاهم عن القيام بمهمتها فتزيد الأوساخ في الدم، ويعجزون عن القيام بوظائفهم الحيوية، ويعرف هؤلاء المرضى بالغضون الظاهرة تحت أجنابهم وانحناء قامتهم».

فقلت في نفسي:

«ما أنت إلا هكذا محدودب   وسوى غضونك ما رأيت غضونا»

ثم ماذا؟ فتصفحت وقرأت:

«وتضعف أبصارهم، وتتقلص عضلات وجوههم، ويفقدون سيطرتهم الأدبية، ولا يطيقون التحديق في الشمس، أو المرأة الجميلة، أو الرجل القوي الرجولة...».

فقلت ي نفسي:

«أدركت وبك؟ لأي شيء كلما   لامستُ جسمك مشفقاً تبكينا»

ثم ماذا؟ فتصفحت وقرأت:

«وإذا جاء الشتاء تجمد نهر «الفيستولا» وتكونت على سطحه طبقة من الجليد في كثافة المتر، فيأتي بعض العمال في الساعة الخامسة صباحاً، ويفتحون

بالمعاول ثغرة في هذه الطبقة تصل إلى الماء، وتكفي لمرور جسم الإنسان ثم يغطسون فيها، وينعشون أجسامهم بهذا الماء البارد ويذهبون إلى أعمالهم».

فقلت في نفسي:

«واللّـه ما فارقت شالي مرة ألا رجعتُ «مبربراً مسكينا»

ثم ماذا؟ فتصفحت وقرأت:

«وهندام الشخص له دخل كبير في نجاحه في التجارة والوظيفة، بل وعند المرأة والصديق».

فقلت في نفسي:

«مـاذا أقول وعمتي بـطيخة قد أنبتت من زرها يَقطينا»

ثم ماذا؟ فتصفحت وقرأت:

«والحب لا يقوم بين الزوجين على الاعتبارات المالية أو العلمية، أو التكافؤ في الحسب والنسب أكثر مما يقوم على الاعتبارات الفسيولوجية...».

فقلت في نفسي:

«كم قدد لهثت، وكم سعلتُ وأخرجت رئَتَايَ ذاك البلغَمَ المخزونا»

ثم ماذا؟ فتصفحت وقرأت:

«وقد يؤدي التفاوت الكبير بين الزوجين في السن إلى الشذوذ الجنسي أو «النورستانيا» أو الجنون أو الإجرام...».

فقلت في نفسي:

«واللّـه لم تخطئك حتى أرسلت لصميم قلبك خنجراً مسنونا»

وتذكرت أم الخير التي كانت تلتذ لسماع مقالي، ولا تعرف الفرق بين صلعتي وقذالي. وكان يكفيها منّي أني رجل ذكر، يسرها إذا حضر، ويوحشها إذا أدبر، وتطيعه إذا أمر، ولكن ماذا ينفع الندم بعد زلة القدم.

رويت قصتي لأحد أصحابي، وشكوت إليه مصابي... فقال: هذا

الأمر يعرض لكل إنسان، فعليك الإكثار من شرب «الخلنجان». فلو شربته ستة شهور متوالية لانفتحت عيناك، وتـورد خداك، وانفتـل ساعـداك، واشتد ساقاك، فاشتريت قال بعجر أوقية منه، ودخلت بها على قـرينتي وقلت، اسحقيها ثم غربليها، ثم غليها، ثم اسقينيها، فوالله لكأنني ابن عشرين يهتز مثل الغصن الرطب، فعزمتُ إذا رفتتني الإدارة أن احترف الخلنجان لي تجارة.
جريدة (الزمان) 3 مارس 1936

المقـــامـــة الأميلكاريـــة

حدثنا الفاضل بن مخنان قال:

بعد أن فرغت من التعليم والتدريس تفرغت للزهو و «التهليس»[1]. وقلت في نفسي كيف أقضي هذا الصيف على الكيْف. فأجابتني أيها الحمار اكتري «براكة»[2] في «أميل كَارْ»[3] فقلت لها ولماذا لا يكون في «المرسى»[4] حيث الأجور رخيصة، والناس على الآداب حريصة. قالت: إن شاطىء المرسى مملوء بالأحجار ويجري فيه التيار. ولا يصطاف هنالك إلّا أهل البلد، الذين يحجبون البنت والولد، ولا ترى من الناس غير امرأة «كـالبتيّة»[5] تنـزل إلى البحر متغطيّة. كأنها قربة عائمة، أو بغلة في الماء نائمة. لا تعرف وجهها من ظهرها، ولا رأسها من قعرها. يحرسها على الشط خادمان أحدهما «ورقلي»[6] أسود اللون. والآخر «زوافري»[7] يلبس «السورية»[8] و «البنطلون». فإذا اقتربت من البحر أبعدَاك. وقالاَ اذهب واستحمَّ هناك. ولو اطلعت على تلك الـدرة

(1) الفذلكة.

(2) غرفة من الأخشاب.

(3) أحد شواطىء الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية.

(4) ضاحية من الضواحي الشمالية المتاخمة لضاحية إميلكار.

(5) البرميل.

(6) نسبة إلى ورقلة بالجنوب الجزائري، وقد اشتهر أهلها بالإخلاص للعائلات التي توكل إليهم القيام على خدمتها.

(7) صعلوك هو ما يقابل اللهجة المصرية «فتــوة» وفي اللهجة الشامية «قبضـــاي».

(8) القميص.

المحجوبة لرأيت عجوزاً «كركوبة»[1]. أمّا (إميل كار) ففيه من النسوان:

الـتـي امـتـدتْ ونـامـت	فـوق رمـل كـالـبـسـاط
والتي «كلسـونهـا»[2] أضيق	مـن سـمِّ الـخـيـاط
والتي تـكشـف لـلأبصـار	جـسـمـاً كـالـمـطاط
والـتـي تـقـفـز لـلـمـاء	بـزهْـو ونـشـاط
ضـاحـكـات صـائحـات	فـي اشـتـبـاكٍ واخـتـلاط

قلت أيْ والله. ولكن نسوة (إميل كار) إذا أبصرن جِبَّتي، وعمَّتي... عرفن جنسي وديني. وقاطعن «كابِيني»[3]. قالت فالأفضل أن تبيت في الليل في «الكابين»، وتخرج في الصبّاح قدَّام النسوان، وأنت عريان. والعريان لا يعرفه الناس إن كان تونسياً أو صفاقسياً، أو مالكياً، أو مالطياً، أو يشغل وظيفة عدل أو إمام. أو مقدماً على أيْتام. فالكلام بالنظرات، والتواعد بالإشارات. لأن الكل من بني آدم وفي عالم غير هذا العالم.

قال ابن مخنان: وجلست في اليوم الأول أمَام «الكابين». قبل حضور المستحمين فأقبل على «الكابين» الذي بجانبـي امرأة رومية لحمها كالعجين، ونهداها كالطجين ووزنها يبلغ من الأرطال 250، ففتحته وهي تنظر لي خلسة من الرأس إلى القدم، وتتنهد بحسرة وألم. ثم دخلت وأخرجت كرسياً، طويلاً لطوياً، لتقعد عليه، ويسيل جسمها من جانبيه. ورجعت لتقلِّع، وقد سمعتها تغني وتتشخلع. ثم انفتح الباب وظهرت كالبـدر عاريـة الأفخاذ والـظهر والصدر، وجلست مبتسمة وسألتني بالفرنسية مستفهمة: هل نزلت البحر؟ قلت: أجل. قالت: هل الماء بارد؟ قلت: بل هو منعش لطيف. كأنه قبلة المحب العفيف. وانتقل بنا الكلام إلى الفنون والسياسة والاجتماع حتى صرنا صديقين حميمين، فدعوتها إلى الغذاء فقبلت. واستعجلتها على الوفاء فلبَّت.

(1) محدودبة الظهر، قميئة.

(2) التبان الضيق.

(3) الغرفة الخاصة التي يستعملها رواد الشاطىء (Cabine).

فارتديت برنس الحمام وذهبت إلى العطار وبائع الخضار، فاشتريت تنّاً وسرديناً وزيتوناً وجبناً وخبزا، وبطيخاً وشراباً و«سواقر»[1]، ورجعت فوجدت أمام «الكابين» عشرة أشخاص من أصدقائي الخواص. بين محبَّب[2] ومكشَّط[3] أو مطريش ومقمَّط، قرأوني السلام، وأكثروا من الهذر والكلام. قال أحدهم بحثنا عنك حتى وجدناك وقال الثاني، وسنعوم ونفطر بحذَاك[4]. وقال الثالث: وأريد أن تعيرني «كابينَك» غداً ليستحم فيه عيالي وعيال خالي...

أما المرأة فعندما سمعت القافات، والحاءات والعيْنات، ورأت البصاق ممزوجاً بالقهقهة، وسمعت القهقهة ممزوجة بالبصاق انسحبت بشاذولها. وانضمت إلى جيرانها. بل وعرف هؤلاء الجيران أن «كابيني» يسكن فيه «تونيزيان»[5] وانقضى يوم الجماعة كما يشتهون، وتركوني كالمجنون. وكنت بعد ذلك إذا مشيت على الشاطىء تهامس الرجال والنساء والأولاد تهامساً أفهم فيه الجفاء، والرغبة في الانزواء:

كم غرس الزراع من زهرة — فداسها البغل ولم يشعُر
وكم ثمار قد دَنا قطفها — راحت بها عاتية الصرصر
والمرء رهن بدويهية — تأتيه بين الناي والمزهر

قال بن مخنان: فمن أراد أن يسعد وينجح، فليكن في «كابين» من الإسمنت المسلح.

جريدة (السرور) 30 أوت 1936

---

(1) سجائر.
(2) لابس الجبة.
(3) لابس العمة.
(4) حذوك.
(5) تونسيون.

المقـــامـــة العفريتيـــة

قال الأحنف بن فطسان:

سمعت أن السيد فلان الماجد، المحال على التقاعد، عنده أربع بنات أبكار، كأنهن الأقمار: واحدة شقراء.. عيناها خضراء، وشعورها طويلة، والثانية غانية، عيونها ساهية، وأردافها عالية. والثالثة حورية، طرية، كأنها «سويسرية»، والرَّابعة لا تزال في «المكتب»[1].

وكنت تعدَّيت من قدام دارهم، لأني أسكن بجوارهم فأعجبني بابها الكبير. المرصع بالحلقات والمسامير، ووقفت أمامه جامداً كالصنم، لا أتأخر ولا أتقدم. فإذا راقبتني العيون، أو جاء وصيفهم الملعون، تظاهرت بإصلاح البرنوس، أو عدِّ الفلوس، هذا بالنهار، أما في الليل:

أمـرّ عـلى دارهـم أقـبِّـل جـدرانـهـا
وأحـسـبـهـا كـعـبـة فـألـحس أركـانـهـا
وأدعـو لـمـن شـادهـا فـشـمَّـخ بـنـيـانـهـا
ومـن خـارج زانـهـا ومـن داخـل صـانـهـا

وأقول في نفسي آه يا بنَ فطسان. لو تزوجت بواحدة من هؤلائكن الحسان، وسكنت معهن في هذا القصر، الذي لا يوجد مثله في الشام ولا في مصر، ولماذا لا يكون ذلك؟ إذا ساعدنا الله على الحصول على شهادة «التطويع»[2]. واتخاذ الملبس الرفيع. ونحن رجال الدين قدرنا مصون، ورزقنا

(1) المدرسة.

(2) درجة علمية مساوية لدرجة البكالوريا كانت تمنح بجامع الزيتونة.

مضمون، أحدنا يتوظف عدلاً في «قابس» أو إماماً في «رادس». أو قاضياً في «القيروان»، أو معلمًا في «زغوان»[1]، بينما الشبان المتفرنجون الذين خرجوا من «الليسيه»[2] وأخذوا «البريفيه»[3]، يدورون جماعات كـ«الشيكوروات»[4]، يفتش أحدهم في النهار على من يفطِرَه، وفي الليل على من يسكره. هؤلاء لا يجدون وظيفة، ولا تصاهرهم العائلات الشريفة، وعليه فإن نسوان العاصمة كلها لنا وكما قال الشاعر:

فــلا هــي تصــلح إلا لنــا ولا نحن نــصلح إلا لــهــا

وشاء الله أن أنجح في امتحان هذه السنة، ويشيع الخبر في الجرائد وعلى الألسنة. وكان أول من هنّاني، هو فلان الماجد أبو الأربعة الغواني. لأني جاره، وفخاري فخاره، وعاري عاره. ومن هنا صرنا أصدقاء أعزاء، نتزاور في كل وقت، ونتشاور في كل أمر، ونتضامن في كل خطب. بل جعل يستفتيني في مسائله الخاصة كالوضوء والطهر من الجنابة والاستنجاء، والحيض، والميراث فأفتيه، وأبرهن على أني ذكي نَبيه. وقد دعاني في أحد الأيام وقال: سأطلعك على سر عظيم، لا أطلع عليه إلا الصديق الحميم، جاءني من الشيوخ الشباب، عشرة خطاب، يخطبون بناتي وكلهم من الأفاضل المتطوعين، الأماثل المتعلمين، مصابيح الدجى وأعلام الهدى، ولكني وإن عرفت أسماءهم، فإني أجهل أصولهم، وها أنا سائلك عنهم الواحد بعد الآخر فأجبني عنهم بالحق، وصفهم لي بالصدق، ماذا تقول في البشير بن جمعول؟ قلت:

«كلب ابن كلب، لا يستحق غير الشنق أو الصلب، له لحية مسلم، وقلب مظلم»، قال: فما ترى في المدعو الشاذلي العدلناني قلت:

«جهول كالبغلة، ويتكبر لستر جهله». قال صدقت فما تقول فيمن يسمى الطاهر المخملي فقلت:

---

(1) مدن تونسية.

(2) المدارس الفرنسية.

(3) شهادة مساوية للسنة الرابعة من التعليم الثانوي.

(4) العتاة.

«مخنث خشنت لحيته، وضمرت خصيته. وحقه أن يتزوج برجل حمال او كناس، لا بفتاة من بنات الناس».

قال صدقت فما تقول في الصادق البعري فقلت:

«لا خلق ولا أخلاق، ولا عقل ولا أعلاق. يتناول مرتب أستاذ، ويمشي بملابس شحاذ».

قال فما تقول في الطيب الفعموري فقلت: «ثقيل كالجبل، مصنان كالبصل، لا علم ولا عمل».

فتنهد الرجل وسكت، فقلت له: لماذا تترك القريب المعروف، وتذهب إلى البعيد المحذوف؟.

أنا الأخنف بن فطسان، والذي من الأعيان وعمّي من الفرسان، وجدي من وزراء زمان، ونحن وللّه الحمد أصحاب جاهٍ وهمة، وفي يسر ونعمة. فهل تصاهرني؟

فلما قال قبلت، شدهت أنا وهبلت. وقد عقدنا الزواج في سكون، عن غفلة العيون وفي ليلة الدخلة، رأيت العروسة وحلة: زنجية سوداء، فرعاء، خنفاء، عمياء، بظراء. أدخلوها كالعفريت فقلت للسيد ما هذه البلية. قال: هذه زوجتك المخطوبة التي نافست فيها الإخوان. قلت: حسبتك تعطيني إحدى بناتك قال: هذه كبراهن، وهي وإن كانت سوداء إلا أنها شريفة، لأن أمها وصيفة، وبما أنك أصبحت من الأصهار. فستبرى بقية من في الدار، وفعلاً كانت زوجتي أجمل أخواتها، تفوقهن في محاسِنها وصفاتها.

وهكذا من يتزوج على السماع، ويصدق ما يشاع ويذاع. لقد تعبت يا بن فطسان وشفيت، وتزوجت بعفريت.

جريدة (السرور) 6 سبتمبر 1936

المقـامـة السينمائيـة

حدثنا الأخفش بن قرعان قال: قال لي جماعة من السفهاء، قم بنا إلى السينما.

قلت: وما السينما؟ قالوا صور متحركة، وضحك وفدلكة. فقلت يا قوم لقد قضيت حياتي بين المحبرة والدفتر. وسلخت العمر بجانب المحراب والمنبر. فلا تأخذوني إلى مكان يحط من قدر العلماء الأمجاد. ويلحقهم بالسفلة والأوغاد. «كطبرنات»[1] الخمر، التي تشْوي الكبود و«المرقاز»[2] على الجمر. قالوا: بل لا تجد هناك قطرة من المسكرات، ولا بادرة من المنكرات. فقمت ودخلت معهم في هذه السينما أناس كالدود، على الكراسي قعود، لا يتحركون ولا يتكلمون، وليس أمامهم ما يأكلون ولا ما يشربون. فقلت في نفسي لقد خسر والله أهل هذا الجيل، وأصبحوا جميعهم من المهابيل[3].

وما كاد يا قوم يقر بنا القرار، حتى أطفؤوا الأنوار، فوضعت يدي على «مكتوبـي»[4] خوفاً على مالي، وحذراً ممن على يميني وشمالي، ثم ظهرت على الحائط أشباح تتكلم، فخلتني أحلم. فقلت:

أعـوذُ بـالله من الشَّيـطان   هـذا اختراع آخـر الـزمـان

---

(1) الحانات.

(2) هو النقانق ويطلق عليه الشاميون (الباسطرمة).

(3) المجانين.

(4) المكتوب هو الجيب في الاستعمال الدارج بتونس.

إني أرى في هذه الجدران رهطاً من الرجال والنسوان
يرتلون قولاً باللسان ويفعلون كبني الإنسان
والله ما أبصرُ غير الجان أليس لي عقل ولي عينان؟

قال الأخفش: ثم عاد النور، فذهب الشياطين كما ذهب أهل القبور، فقلت لهؤلاء الإخوان: أهكذا يلعب الإفرنج بعقولكم، ويستولون على أموالكم، ويفرجوكم على رهط العفاريت، نستحضرهم بالبخور والكبريت، فقالوا هذه «ماكينات» تدار، فقلت: وأين الفحم والبخار؟ قالوا بل تنار بالكهرباء، وتحرك بالتفريغ والامتلاء، فلم أزل أقرعهم بالدليل، ويجيبون بالكذب والتهويل، حتى يئست من إقناعهم، وعجزت عن إرجاعهم، والله يهدي من يشاء.

جريدة (السردوك) 14 أفريل 1937

المروقي المنشق عن النقابة

قال دوارة بن عصبان:

فتح الله لي الأبواب، لما انشقّيت على المروقية الخياب، أولئك الذين يرتزقون من الجيفة، ويجعجعون في كل «دريبة» وسقيفة، المروقية أصحاب الوجوه المشؤومة، و«الزلالط»[1] المبرومة، والبطون المنهومة، ولقد أفلحت في صناعة التنجيم وصار اسمي يذكر بالإجلال والتعظيم، وصرت أتنقل من حفلة شاي إلى حفلة رقص، ومن حفلة «مقرونة» إلى حفلة «بقلاوة»، وأصبحت وجيهاً عند الإفرنج والعرب يدخلوني على نسائهم وبناتهم لِأرقّي هذه وأعزّم على تلك، وهذه اليد التي كانت إلى الصدقات تمتد، صارت تلمس الخدود وتمر على النهود.

جاءتني «سيسيليانة»[2]، كأنها البقرة الشبعانة، قالت أرى كل ليلة خيالات مخيفة، وأسمع صرخات عنيفة، وقد اعتمدت عليك وسلمت الأمر إليك، قلت لا بد أن بيتك معمور بالشياطين، فأرني موضع منامك، لأخرجهم قدامك، قالت «سي سينيوري»[3]، قم معي «دوغري»[4].

ودخل ابن عصبان إلى الصالون فعزم وبخّر، وذكر وكرر، وتمتم وحرر، فداخت المرأة من البخور، الذي كان يتصاعد كدخان «الوابور»، فارتخت، وارتمت وتمطت وشهقت، وغطت فحملتها إلى الفراش، ورقوتها ليعود إليها الانتعاش:

---

(1) الهراوات.

(2) ونسبة إلى مدينة صقلية بإيطاليا.

(3) نعم سيدي.

(4) الآن.

سهرت في فرشها ليلاً لأسحرها فكنتُ والله طولَ الليل مسحورا
طوراً أكون على الشيطان منتصِراً وتارة أجدُ الشيطان منصورا
صارعت حرشاً، وأمّهما عقروشةً بنت عمران بن يعفورا
وضعتهم في قواريرَ مطلسمةٍ جعلت أختامها زفتاً وقصديرا

قال دوارة:

عندما لاح الصباح، قامت المرأة وهي تحس بالابتهاج والانشراح، وبعد أن قرظتني وشكرتني، قالت أخاف أن تخرج، والعفاريت تحضر وتعرج، فكن في ضيافتي سبعة أيام لتقطع أثر العفاريت الطغام، فقلت: «سي سينورينا»[1] ولكن لا بد لنا من الخروج في النهار، للنزهة وشراء اللحم والخضار.. وأنت «مبرطلة»[2] وأنا «مكشط»[3]، فماذا يقول الناس، قالت لا تلتفت إليهم، وبُلْ عليهم. فخرجنا ونادينا «الكرارسي»[4] وقلت له خذنا نحن الاثنين، إلى بطحاء «الحلفاوين»، وعندما ترى المروقية على القهوة، إمشي خطوة خطوة، ولا تخالف أمري.

فلما وصلت «الكروسة» رأيت أعضاء النقابة المنحوسة، وبينهم عتوقة الرئيس يبصق وينِفّ، ويدعك عينه التي ترف، فقلت وأنا أتفخر، و«الكروسة» تتبختر:

ألا يا شيخ عتُّوقة أبو الجبَّة مخروقة
ويا من يجْعل التّربة بالكشطة مشنُوقة
ويا من يأكل الجثَّة أكلاً غير مسلُوقة
تأمل في التي عِنْدي ومتْ أنت و «دبلوقة»
لها لحم كلَمس القطْن والنشّافِ و «الليِّقَة»

---

(1) نعم سيدتي.
(2) مقبعة
(3) معمم.
(4) الكروسة هي العربة المجرورة التي تستخدم في حمل الناس.

حـــرارتهـا كمثــلِ الفــرن لــكـنْ غـيــر مـحـــروقـة

فلو أبصــرتَنـا في الفــرش مــلصــوقــاً بـمــلـصــوقـة

لــدينـا كــل مــا نحتــاجُ مــن طـبــلٍ وطـبــلـوقـة

لأمـسـيــتَ من الـحـيــرة فــي غــمٍّ وفــي ضـيــقـة

قال دوارة بن عصبان:

ورجعت بالمرأة إلى الدار، وتزوجتها منعاً للفضيحة والعار، وإذا كان في العمر بقية، فسأطلقها وأتزوج بفرنسية، أو مالطية، ما تشتهيه نفسي ويقتضيه أنسي، وقد عاهدت الله من اليوم أن أضحك الناس وأفرحهم بعدما كنت أحزنهم وأدفنهم.

جريدة (الشباب) 29 أكتوبر 1936

نقابة المروقية ترشح الشيخ دوارة للمجلس الكبير

خطبة الرئيس:

«الحمد لله الذي شرف الموت على الحياة، وجعل الحديد أقوى من الحجر، وجعل النار أقوى من الحديد. ثم أهلك النار بالماء. وأهلك الماء بالبخار والهواء. وهو الذي أعلى مقامكم أيها المروقية، فأحوج الناس إليكم وأغناكم عنهم، وله الحمد إذ خلقكم وفطركم على تقواه، ورزقكم من الصياح بالأفواه.

أما بعد فقد جمعتكم أيها المشايخ الغطاريف في هذه الجلسة المستعجلة قبل حلول الدورة الانتخابية للمجلس الكبير، لتنتخبوا منكم عضواً أو عضوين يمثلانكم في هذا المجلس مثل بقية الطوائف والبلدان، فادخلوا في المناقشة واعرضوا أفكاركم في هذا الاقتراح الوطني.

الشيخ «مهراس»: اقتراح بَاهِي أمّا اللي يحب يعمل نائب في (المجلس الكبير) يلزمه يكون غني وقاري بالعربـي وبالسوري[1]، وحْنا كيفما تعرف يوم نلقى الماكلة وعشر لا.

الشيخ «دبلوقة» للشيخ مهراس:

ــ إش كون قال لك إحنا فقَرا؟ إن فوقي خمسة آلاف فرنك، وكيف تشد القلم وتحسب تلقاني أغنى من أكبر غني في (المجلس الكبير)، على خاطر اللي عنده منهم مليون عليه ثلاثة ملايين دين معناها ما زال مطلوب في زُوْز ملايِنْ.. أما القراية والكتابة ما هيش مهمة لا بالعربـي ولا بالسوري ها هم كانوا جايبين راجل بدوي من سوق الخميس ببلغته وعكازه وعاملينه «مقرر»

(1) الفرنسية.

تعرف إشنوة المقرر يا سي الشيخ مهراس؟ الانقليز كيف يحطوا مقرر في برلمانهم اللي هو كيف مجلسنا الكبير يحطوا المستر ايدن هاكْ الوزير اللي قاعد اليوم يحرك في الدنيا. والفرنساويين يحطوا واحد كيف الموسيو هريو والا د الْنُوس. أمال لما ندخل أنا وإلا أنت في بقعة البدوي هذا نولوا كيف الشيخ جمال الدين الأفغاني. أما يلزمكم حاجتين اثنين باشْ تولُوا أعضاء في (المجلس الكبير). «بروباقاندة»، وبرنامج، والبروباقاندة معناها نعملوا موكب كبير بالموزيكا والطبل والإعلانات حمرًا وخضرا يفرقها واحد راكب في كروسة باهية، وتقولوا فيها انتخبوا الوطني الغيور البارع الأمثل الشيخ (عتوقة) وإلا الشيخ (عصبان) فيسمع الناس تتبع الطبل والزكر، ويمشوا لمشيخة المدينة ويعطوكم أصواتهم. وما يخصكم كان أربعة أو خمسة من الناس اللي عاملين الانتخابات تجارة يتعيشوا منها تعشُّوهم في معطم باهي، وتُعطوا كل واحد عشرين فرنك وهم يلمُّوا لكم بقية الناس.

الشيخ «دقاش»: فاشْ جَا نعشوهم ونعطوهم فلوس، ها هو حَنا ما شاء الله كيف الرمل والحصاء، الموكب نعمله بأرواحنا وحْنا اللي نفرق الإعلانات واحنا اللي ننشدو الأناشيد وحنا اللي. . .

الشيخ «عتوقة» الرئيس:

ــ ما تتعاركوش على المسائل الفرعية خليكم في الموضوع ذاته.

الشيخ «دبلوقة»: أنا توه شرحت لكم «البروبَّاقَانْدة». وحبّيت نشرح لكم البرنامج، أما نحب الساعة نسمع رأيكم بالْكِش عندكم برنامج خير من برنامجي.

الشيخ «صفارة»: أنا كيف عرفت أن هذا الاجتماع خاص بترشيح المروقية للمجلس الكبير حضرت برنامج هايل وإذا سمحتم نعرضه عليكم.

الجميع: سمعنا برنامجك.

الشيخ «صفارة»: لكي ننجح في الانتخابات يلزمنا إظهار الغيرة على مصالح الشعب بالصورة الآتية:

أولاً: إلغاء الأوامر التي أصدرناها في جلسة قبل هذه والتي تقضي على أصحاب الأموات بتقديم الكسكسي بلحم العلوش والمقرونة بلحم الدجاج، وجعل الفرق فرقين أو ثلاثة وقفل المستشفيات ورفع ثمن الأدوية إلخ . . .

ثانياً: تتعهد نقابة المروقية بأن تنقل وتكفن وتدفن على نفقاتها الخاصة الأشخاص الآتي بيانهم:

- المسلم الذي يدهمه الترامواي.
- المسلمة التي تموت في الولادة.
- الأعراب الذين يموتون جوعاً في الشوارع.
- أعضاء المجلس الكبير ومن يتبعهم من «شُوفيرات»[1] وشواش وعائلاتهم، وذلك على سبيل الإكرام لا على سبيل المساعدة.

ولتنفيذ هذه المبرة يجب على نقابة المروقية إنشاء مخزن على طراز صحي عصري يحتوي على ما يلزم من النعوش والأكفان والحناء والزعفران وزيت الورد.

ثالثاً: «البَلْدية» المتوسطين وصغار الموظفين يمكن تشييع جنازتهم وتقديم الأشياء اللازمة بالطلوق لمدة ستة شهور وبموجب «كمبيالة» بسيطة.

رابعاً: المسلمون الذين يتوفاهم الله في رمضان والعيدين تحتفل النقابة بدفنهم بموكب فخم تمشي فيه أبناء الطرق بالاعلام والمباخر، ويمكن أن يتمتع بهذا الامتياز وزراء الدولة ورؤساء الأقسام.

هذا برنامجي أيها الأخوان فإذا كانت عندكم اعتراضات أو ملاحظات فقدموها.

الجميع: نوافق على هذا البرنامج.

الشيخ «عتوقة» الرئيس: لي عندكم اقتراح واحد أرجوكم الموافقة عليه.

إن الشيخ (دوارة بن عصبان) الذي انشق علينا وخرج من النقابة رجل

---

(1) سواق.

من أكفاء المروقية وأعلمهم بالصناعة، فضلاً عن أنه كاتب شاعر ناظم ناثر، ويعلم الله أن خروجه من النقابة رفع مقامه في عيني لأنه رجل حر يقول ما يعتقده. وأرى من الصواب أن نرشحه للعضوية عن نقابة المروقيـة في (المجلس الكبير) ننتفع بكفاءته ونتقي شر مقاومته لنا فإنه رجل شديد البطش. وما دامت غايتنا الأصلية خدمة الأمة وتشريف قدر النقابة فلا فرق أن يكون المرشح «دوارة» أو «مهراس» أو رئيسكم الذي يتكلم.

الجميع: وافقنا على ترشيح الشيخ دوارة بن عصبان.

قال دوارة بن عصبان: فبينما أنا في عز اليوم، دق على بابـي القوم. قالوا: أبشر أيها النحرير. فقد انتخبناك نائباً للمروقية في (المجلس الكبير). قلت لا فظت غير أفواهكم، ولا قطعت غير ألسنتكم، حسبتكم وأنتم داخلون مهللين مكبرين قد جئتم لي بعلوش مصلي أو أرنب مقلي، أو طاجين لحم بالبطاطا، أو علبة «شيكولاطا». فإذا بكم تقدمون لي هدية لا يسعى إليها إلا مفلس مديون، وأمي مأفون. والله ان النـوم بجانب هذه المـرأة المتختخة المبرومة، تساوي عندي ملك كسرى. اخرجوا لا رجعتم إلا محمولين أجمعين.

جريدة (الشباب) 5 نوفمبر 1936

نقابة المروقية تضرب عن العمل

حدثنا دوارة بن عصبان قال:

لما طردت وفد نقابة المروقية الذي جاء يرشحن للمجالس النيابية، جاء عندي بعد يومين، رجل منهم يدعى الشيخ «بُوذْنَين»[1]، وقال:

ـ أنا أعلم أنك منشق، ولكنك على حق، لأن المروقيين ليسوا بمشايخ يعرفون، ولا «بلْدِية»[2] يفهمون، ولا عمال يوصفون.

إن وجودهم يا سيدي في طائفة المشايخ يعرّ أصحاب العمم، ووجودهم في تونس يجعلها ضحكة بين الأمم. ووالله لقد استصوبت فعلك وجئت لأقبل يدك ورجلك، وأخبرك بما يأتي:

إن المروقية عندما رفضت الوكالة عنهم في (المجلس الكبير)، عزموا على أمر خطير، وهو الإضراب عن العمل، ولا يخفى عليك أن إضراب المروقية أشد ضرراً على الناس من إضراب عمال «الترام»، وخدمة الرصيف، وأنت أعلم بما أقول.

ولقد عزموا على إخلاء «الجبانة»[3]، ليمنعوا كل ميت من الدفن ولو كان ذبّانة وسينفذون في الصباح خطتهم الملعونة، فبادر رحمك الله وأنقذ أموات المسلمين من العفونة.

---

(1) أبو الأذنين.

(2) من سكان العاصمة المتحضرين.

(3) المقبرة

قال دوارة بن عصبان: فلما قص الشيخ هذا الخبر النفيس، جلس ينتظر الأجر والجزاء كما يفعل الجواسيس، وكان يظن أنني سأعطيه ورقة بخمسين، أو أفطره «بعلوش»[1] سمين، ولكني قدمت له «حكة النفة»[2]، وأعطيته لقيْمات كانت عندي في قفة، فانصرف شاكراً، شكراً ظاهراً.

وقلت في نفسي حان وقت الانتقام من أولئك الأماجد الأعلام... هذا المسيو فلان القوميسار، يأتي لزيارتي في الدار، وهو للصداقة التي بيني وبينه يتمنى أن يقوم لي بخدمة، بل يتمنى أن يلبس مثلي الجبة والعمة. فلا بد أن أخبره بأمرهم، وما دبروه من مكرهم. وخاطبته بالتلفون فحضر، ورويت له الخبر، فقال سأرسل لهم في الصباح قوّتين، واحدة في «الجبانة»، والثانية في (الحلفاوين)، فمن احتل قبراً دفنّاه فيه، ودفنا زميله في الذي يليه.

قال ابن عصبان: وفي الصباح كنت هناك، أتفرج على مشتهاي ومشتهاك.

فالشيخ «مهراس»:

عندما أبصرُوه في القبر جسماً خارجاً منه نصفه، أدخلوه

والشيخ «دبلوقة»:

ربطوه بالحبل ربطاً وثيقاً مثلَ قرد وهكذا كركرُوه

والشيخ «فنجال»:

ضربوه بالسوط في القبر حتّى قال: «حسْبي» وليتَهم دفنوه

والشيخ «عصيدة»:

قد تولّوا أباه باللعن حتّى سمع اللعنَ في التراب أبوه

(1) حروف.

(2) علبة النشوق.

والشيخ «سفرجل»:

قال واللّـهِ إنّني لست منهم قلتُ هـذا رئيسهم فخُذوه

وأبصرت الشيخ «بووذنين» واقفاً يتفرج، فقلت «للبرقادي»[1]: لا تترك هذا اللعين لكي يظن أنه عمل فينا مزية، أو قدم خدمة للبوليسية[2]، وأحسن الطرق لمعاملة الواشي الجاسوس أن تستخدمه، وتعدمه، خذه قبلهم فإنه إذا قعد سيطالبني بفرنك أو رغيف، وربما طمع في زواجه ووظيف.

قال بن عصبان: وفي نصف ساعة تفرق المتصبون، قائلين إنا لله وإنا إليه راجعون قلت سترجعون إلى جهنم، يا شر من قرأ وتكلم.

هذا وبعد أن تبددت العصابة، وانحلت النقابة رجعت إلى منزلي فوجدت جناب «القوميسار» في انتظاري، في داري، فقلت بارك الله فيك، وبلغك أمانيك، أنت من اليوم صديقي الصدوق، وخدني المرموق، وصاحبي المعشوق، بيتي بيتك، وطنجرتي طنجرتك، وفراشي فراشك:

وليتَ الـذي بين وبينك عـامرٌ وبيني وبين العـامريـنَ خـرابُ

جريدة (الشباب) 12 نوفمبر 1936

---

(1) مأمور الشرطة.

(2) الشرطة.

المروقي المنشق يحترف الأعمال الحرة

الدهر يوم لك ويوم عليك. (قال دوارة بن عصبان)، ومرة فوقك ومرة تحت قدميك، فأنا منذ احترفت صناعة «الدقازة»[1] والتنجيم، في خير عظيم، ولكن تأتي أوقات، على جميع الصناعات، تسوء فيها الحالة، ويكسد التبن والنخالة، وقد مضى علينا أسبوع ملعون، لم يدخل علينا فيه حريف أو زبون، وأخبرتني زوجتي «السيسليانية»[2] أن جرة الزيت فرغت، وصندوق «المقرونة» انتهى، وشكارة الفحم انطوت، وحكة الفلفل صفَرت، فقلت لها: إن الرزق بحسب الحركة، ويباركه الله لو كان بين شركة، وإن أنجح الأعمال، هو الذي يشترك فيه النساء والرجال، التفتي واسمعي، وقومي الآن معي، لنجلس في شارع (باب بنات) بجانب «الدقازين والدقازات»، أنت بالفستان «والبرطلة»[3]، وأنا بعمامتي التي تفوق «القرطلة»[4]، وباجتماعنا نحن الاثنين تجتمع علينا أمم الثقلين.

قال داود بن عصبان:

ولما جلسنا في شارع (باب بنات)، وفرشنا الرمل والحصباء على «المحرمة» البيضاء، وقفت أقول والناس تنظر إلينا في ذهول:

أيها العاثرُ في أذيالكا   والضاربُ الأخماس في أسداسكا

---

(1) التنجيم.

(2) الإيطالية.

(3) القبعة.

(4) القفة الكبيرة.

إنْ كنتَ في مشكَّة في أمركا أوضاعَ شيء فاخرٌ من مالكا
وغاب عنك غائبٌ من أهلكا ولا ترى إلا ظلاماً حالكا
تعالَ واجلس عندنا نقل لكَا بالصدق عن ماضيكَ أو أمامكا
كذَا نريك الطُّرقَ والمسالكا كأنها مفتوحةٌ قدامكا

فاستفتحنا برجل من «جرزيس»[1]، عليه حرام نفيس، ولكنه مهموم، وكان يقعد ويقوم، فعلمت أن عنده مصيبة، في «التريبونال» أو «الدريبة»[2]، فقلت له:

«أمامك ظلام، ومنصة قومها حكام، وحولها أخصام، ولكنك سوف لا تباليهم لأن يد الله فوق أيديهم، وستعود بالسلامة، إلى بلدك، وبلغتك من الفرحة في يدك. . .».

وجاء بعده عدل له رقبة كرقبة الحصان، وصدر كأنه باب دكان، وقد زخرف لحيته بالمقص، ولبس خاتماً فيه أكبر فص، وجلس كالخجول ليستمع ما أقول فعلمت أنه عاشق، فقلت له:

تريد سلوى ولكنْ السَّهمُ في القلب سَاكن

«صبر طويل ووعد مطول فيها حسرة للعاشقين إذا قضوا العمر بين الرجاء والأنين، اذهب أيها العاشق السقيم وخذ حفنة من تراب قبر قديم، واجعله في كيس صغير، من جلد ذنب البعير واحمله تحت إبطك، ثم اكتب لها مكتوباً بخط يدك تأتك منقادة، وترتمي أمامك على الوسادة».

وجاء بعده فتى من العصريين المتمدنين، في صدره «منقالة»[3] وفي إصبعه خاتم، وتدل ثيابه على النعمة، ولكن وجهه يدل على الغيظ والنقمة، فعلمت أنه فتى ينتظر موت والده، ليستولي على طارفِه وتالده، فقلت له:

---

(1) بلدة في الجنوب الشرقي من تونس.

(2) مكانان للتقاضي.

(3) يعني ساعة لأن العادة في القديم أن توضع الساعة في جيب الصدار. . .

«أرى ضيقاً بعد فسحة، وحرماناً بعد منحة، وستمشي في جنازة، تخرج منها إلى جوازة».

ثم جاءت امرأة عجوز يدها كيدِ المهراس، و«حرقوصها» يراه الناس، وقعدت وهي تلتفت وتتكتم، كأنها تخجل أن تتكلم، فعلمت أن قلبها خافق ضارب، وأن زوجها رجل هارب، فقلت:

«القلب مشغول بذكر من الذكور حفظناه فضيّعنا، ورفعناه فقطعنا، لم نفته في البحر، ففاتنا في البر، ولن نبعه بالتبر فباعنا بالتبن، ولكنه سيطوف الكون، ويجرب بنات حواء من كل جنس ولون، ثم يعود إلى حبيب القلب، وهو كالكلب».

هذا والناس تسمع وتتعجب، وتتجمع وتتكوكب، وكل من كان في نيته أن يجود بفرنك جاد بعشرة، حتى جمعنا من الفرنكات ألفين، يكفينا لمدة شهرين.

وبينما أنا أقرر الإيراد وأعده، وأضع كل صنف من النقود وحده، أبصرت الشيخ عتوقة رئيس نقابة المروقية مقبلاً مهرولاً يحسب أن الناس مجتمعين على قصعة «قديد»، أو قتيل جديد، فلما أبصرني انبهر، واخضر وجهه واصفرْ، وقال ماذا تفعل هنا، يا رفيق الهناء، فقلت لا تسل، عما أفعل، أنا هنا في ميدان الجهاد والعمل، أسلب فلوس الأحياء، ولا أستجدي مثلكم فلوس الأموات والفقراء، أذهب من قدامي، أيها الحرامي، وإلا فأنت تعلم أن «القوميسار» صاحبي، أنا والمدام التي بجانبي.

جريدة (الشباب) 19 نوفمبر 1936

مؤامرات المروقية

يقول الشيخ دوارة بن عصبان: إنك كلما احتقرت الخسيس ازداد بك تعلقاً وأشبعك مُداهنة وتملقاً.

فارقت المروقية وقاطعتهم، بعد أن بصقت عليهم وطردتهم، ولكنهم كانوا يهجمون علي كالذباب، وكلهم يطلب الصفح والأمان، وانظر كيف كانوا يتحككون:

الشيخ «مهراس» يأتيني بوشاية، لأعشية «كمونية» أو «قلاية»[1].

والشيخ «زلاط»[2] يدعي أنه أصبح من صحبـي، والتابعين لمذهبـي.

والشيخ «بورتوفوي»[3] يدخل لي بنصيحة، ويشير علي بمؤامرة قبيحة.

والشيخ «دبلوقة» يزعم لي أنه بـي مستهام، ويراني كل ليلة في المنام، ثم يجلس عندي إلى الصباح، بعد أن يقلقني بالعطاس، والسعال والبصاق، والصياح.

وكلهم أعاذكم الله، يدخل بيتي ليبلغ من المرأة مشتهاه.

شيخ يراها مقبلة فيبتسم.

وشيخ يراها مدبرة فيهيج ويغتلم.

---

(1) مآكل تونسية.

(2) هراوة.

(3) حافظة نقود والكلمة فرنسية.

وشيخ ينظر إليها ويتحرق وبذلك يكون قد تظافر على أمر.

وشيخ يسألها متى يؤون الأوان؟

وشيخ يقول لها أنا خير من دوارة بن عصبان.

وهكذا إلى آخر طباع السفلة، وأخلاق الفعلة، الذين يؤذون الأعداء والأحباب، ويأكلون كالمنشار في الذهاب والإياب. قلت لزوجتي اضربـي لهم موعداً، واحداً واحداً، فإذا دخل الأول فأكرميه، وقبل أن تقلعي ملابسك قلعيه، فإذا جاء الثاني فاخفي الأول في الصندوق، فإذا جاء الثالث فأدخلي الثاني في أحد الشقوق، فإذا جاء الرابع ضعي الثالث في الخزانة، فإذا جاء الخامس أدخلي الرابع في الأبخانة «المرحاض».

فإذا كنت الأخير، فأدخلي آخرهم تحت السرير.

قال دوارة بن عصبان: وفي ليلة الموعد وقفت بعيداً عن الدار أراقبهم. فلما دخلوا أجمعين، قلت الحمد لله رب العالمين، سأعلمهم الشرف والأمانة وأريهم مكري ومكر «السيسليانة»، ودخلت داري كالغافل الخلّي، وأنني ولا علم لي، قلت هاتي العشاء فقدمت لي «كوستيليا» اشتراها لها الشيخ «مهراس»، ودجاجة قدمها لها الشيخ «زلاط»، ثم تفكهنا بما أحضروه من دقلة وجوز، وأنجاص، وموز، وكنا نأكل مثاكلهم وهم ينظرون، ونلعن آباءهم وأجدادهم وهم يسمعون، وقد أطلنا السمر والسهرة، لكي نطيل عليهم الغم والحسرة، ثم نكيل لهم العذاب ليتعلموا الآداب.

فقلت للمرأة بعد أن دقت الساعة العاشرة: «إن البراغيث أهلكتني بالأمس، وأضرت بـي ولا ضرر البرد والشمس، وقد وصف لي أحد الأذكياء تبخير البيت بعشرين قرن فلفل، ثم أسده وأقفل، وها هو الفلفل عندك في القفة، فأشعلي «الكانون» وطبقي الوصفة، ولنستعد للخروج من الآن، قبل أن يتصاعد الدخان.

قال ابن عصبان فلما أطلقنا البخور أغلقنا الباب من الخارج بمزلاج وقفل

وحابور، وذهبنا إلى السينما ثم جلسنا في القهاوي «السوري»[1]، وتنزهنا في شارع (جول فيري). ولما رجعنا إلى الدار فتحت الباب بيدي، ودخلت عليهم وحدي، فرأيتهم كومة كالفيران المسمومة، فألقيت بهم على المدرج ولا حرج، وصبرنا حتى ذهبت الرائحة الخانقة ودخلنا بيتنا للمضاجعة والمعانقة.

جريدة (الشباب) 26 نوفمبر 1936

(1) العصرية الأجنبية.

سقوط دولـــة المروقية

قال دوارة بن عصبان: لقد تعس من كفر بالله، وحسب أن النعيم خالد غير متناه، كنت أحسب أن المروقية وحدهم أساطين الموائد، وغيلان الثرائد والعصائد، حتى ابتلاني الله في شهر رمضان بالمروقي الأعظم الذي سبق في الأكل من تأخر وتقدم، وها أنا أخبركم كيف جاء هذا الوباء:

قالت لي زوجتي «السيسيليانية»، لقد انفتح قلبـي للإسلام وعزمت مثلكم على الصيام، فعلّمتها الشهادتين، وكيف تصلي الركعتين، فما صامت في اليوم الأول، وأحست بالجوع كجميع الصائمين حتى أخذت تفنن في ما لذ وطاب من محشو ومقلو وكباب، فكانت ليالي رمضان عندنا كأنها أعراس، لأننا نأكل بعيداً عن الناس.

وفي يـوم الأحد خـرجت أنا والمـرأة إلى فندق «الغلة»[1] فـاشترينـا «بورية»[2]:

كأنها دمية من فضة سبَكتْ — في سالفيْها من المرجان شِنْفان

واشترينا «كوستيليا»[3]:

أهلّة العيدِ في التقْويس تحسدها — تكاد تأكلَهـا من غير نيـران

---

(1) سوق الخضار.

(2) نوع من الأسماك.

(3) شريحة لحم.

واشترينا دجاجة:

أغلى فتاةٍ من الحمام خارجة منتوفة مثلها في رفْعة الشأن

واشترينا «سباقيتي»:

كأنها العـاجُ معجونـاً تمدِّده تلك«المكينةُ»في أشكال قضبان

واشترينا «شيكوريا»:

لو أن خضرتها تبقى لها أمداً بيعَ الزمـرُّد في ميزان تبَّـان

واشترينا رمَّاناً:

فصُوصه مثلُ عرف الديك منتصباً والحبُّ ياقوتة في سمط هقَّان

واشترينا أنجاصاً:

كأن «كعبته»[1] في الكفِّ قبلته وحشوها من أجاجِ النحل رطْلان

ودخلنا الدار نسمط ونغلي، ونشوي ونقلي، وكلما اقترب ميعاد الفطور، شعرنا بالفرح والسرور، وهذا جزاء الصائمين، عند رب العالمين. ولكن الباب انفتح واندفع، قبل ضرب المدفع، وظهر منه رجل عليه وقار وعظمة، كأنه حمار ببرذعة ورشمة، فإذا هو الشيخ عزرائيل الذي يعيش منذ جيل. قال:

ـ لقد توحشناك.

قلت:

ـ مرحباً.

ـ قال:

ـ وقد جئناك.

قلت:

ـ أهلاً وسهلاً.

---

(1) الواحدة منه.

قال:

ــ وقد فرحت لك بالزواج.

قلت:

ــ العاقبة عندكم.

قال:

ــ وجئت لأهنيك.

قلت:

الدار داركم وأصحابها خدمكم اجلس لا جلست إلا مقعداً، وكلْ لا أكلت إلا جلمداً، جعلها الله لك آخر زيارة، وعوضنا خيراً عن الخسارة.

ثم قمت للمرأة في «الكوجينة»[1] وقلت لها هذا رجل محترم، يجب أن يكرم ويعظم، ومن شروط إكرامه أن تتركي له «الحوتة» وتكتفي برأسها، وتقدمي له الدجاجة ونقتسم أنا وأنت جناحيها وعنقها، فإذا جاء دور الفواكه فاحلفي عليه بالمذاهب الأربعة، أن يأكل بدل الكمية عشرة.

قال ابن عصبان:

ولكن المرأة عندما سمعت هذا الكلام ركبها الغضب وضربها ــ كما يقولون ــ العصب، وارتمت على الفراش غضبي وهو ينظر ويرى.

قال: ما الخبر؟ قلت: خير لا شر، قال: هل أذّن المغرب، قلت: نعم فتقدم أنت واقترب.

فعكف الشيخ عزرائيل على تلك المآكل المعتبرة كما يعكف «الحلوف»[2] على العذرة وجعل يهبر ويمزق، ويلف ويلزق، ويبتلع ويلتقم، ويقضم ويخضم، وكان إذا أنشب في الصحن يديه يمد إلى الآخر عينيه، يريد أن يعرف أيها أشهى طعمًا، ليلتهمه مقدماً.

(1) المطبخ.

(2) الخنزير.

وبينما كانت تارة أجالسه لأظهر له الأنس والحبور، وتارة أقوم للمرأة فأعالجها بالأثير والكافور، حتى صارت المائدة مثل كومة الزبلة: عظاماً مكسرة، وقشوراً مبعثرة وبقايا متفولة، ولقيمات مبلولة. قال الحمد لله؛ اعطوني سجادة الصلاة، لأصلي الآن وأدعو لها بالشفاء والأمان.

قلت له:

ــ أما تدجيلك فقد قبلناه، لكن لا نقبل تدجيلك على الله. إن خير المصلين في هذا الزمن من صلىٌ منفرداً، لا يراه أحداً. قال: سأذهب إذن وأصلي في الجامع، وأقابل إخواني في الديار والمجامع. قلت اذهب بلا عودة ولا رجوع، أهلكك الله بالشبع فهو شر من هلاك الجوع، وبعد خروجه ذهبت إلى أكبر المطابع، وطبعت منشوراً وزعته على المروقية أمام جامع «صاحب الطابع»[1] هذا نصه:

«أبشروا أيها المروقية بانكسار شوكتكم، وزوال شهرتكم، فقد عاقبكم الله بأشعب الأشعبين، وإمام الملتقمين، فاليوم تسد الناس أبوابها وتكثر حجابها حتى لا يدخل عليهم فقير، ولا ذو بطن كبير لأن الغول حل بالعاصمة والسلام ختام».

جريدة (الشباب) 3 ديسمبر 1936

(1) أحد الجوامع المعروفة بحي باب سويقة بالعاصمة.



قصائده



محمد صلى الله عليه وسلم

اليومُ الأسعد مولده ... مصباحُ الدهر وسيده
البدر الباهرُ مطلعه ... والبحر السائغ مورده
شهدَ الإنجيل بمبعثه ... وعنِ التوراة يردده
واختال الدهر به عجبا ... وجلاَ للعالم سرمده
وتألق سمطُ نبوته ... ويتيم السمط محمَّده
وقضى أمرُ الرحمان بأن ... لا يرفع إلا مسجده
فدعَا في الناس يوحّدها ... صوب الديان توحده
العقلُ أساس شريعته ... والحق الأبلجُ مقصده
والحرب يسعّر غمْرتها ... ووطيسْ الغمرة يشهده
والعيش تخيَّر أخشنه ... في حين تمثَّل أرغده
وبه الموؤودة قد رحمت ... وحبت تتعهَّدها يده
ويرى المسكينَ فيكرمه ... ويرى الحيرانَ فيرشده
حتى خضع الثقلاَن له ... وأتَى أشقاه وأسعده
وحباهُ الله رعايته ... وبروح القدس يؤيده
وانحطَّ الفكر وظغمتُه ... وعلا الإيمانُ وفرقده
لبيك رسول الله لقد ... لبَّاك الصخر وجلمده

(آ) قيلت في مناسبة المولد النبوي الشريف لسنة 1353هـ.

وصرفتَ العرب عن الأوثا ن وعمَّا كانت تقصده

ولكمْ طولبت معجزةٍ فأتاك الحقُّ وأبنُده

لكتاب الله ترتله وبشرْع الله تُوطده

فمضى الكهّان بسجعهم وعكاظ أفحِم منشدُه

والناس منَ الجهل انتبهت ومضتْ للخالق تعبده

فاهتز العرش وقد سجدت لإلاه العرش تمجِّده

جريدة (الزمان) 2 جوان 1936

الصَّـــمــت

إنما الصمت مِقول وبيانُ	حين يودِي بالقائلين البيان
في سكونِ الأحياء قول بليغ	لـو تـأملتَ أيهـا الإنسـان
كلُّ حال لهـا لسان فصيح	إن تجافَى عن الكلام اللسان
يصمُت الطائر المغرِّد في الدو	ح إذا كـان تحتـُه ثعبـان
يفصح الصمت مثلما يفصح القو	ل وبالصّمت تفهم الأشجان
مثل صمْت الحبيب وهو كظيم	وكصمت العدوّ وهو جبـان
كم من الساكناتِ تبدي خفايا	هـذِه الناس حـولَها عميـان
أيُّها الراغب الكـلامَ أقلْني	فشهودي عـن السكوت العِيانُ

جريدة (الزمان) 9 ماي 1933

صـبـراً

يـا صبرُ أنت عـزائي حين يكمـدني
سيـر الأمـور على مـا لستُ أختـارُ
وأنت سيفي ودرعي إنْ خرجت إلى
عرض القفار وإنْ شـطت بـيَ الدار
وأنت أنتَ عـتـادي، كلمـا ذهـبت
بـمـا أدعّـم أنـواء واعـصَـار
لقـد صحبتـك كـرهـاً قبـل تجـربـة
والقـاعِـدون عن التجـريب أغـرار
علّمتَنِي نـسـج داوود وقـد بلغـت
من الحـديـدِ يـدِي ما تبلغ النـار
مـا دمتَ في صحبتي فالقفـر مأدبـةٌ
وصـلدُ أحـجـاره نـقـل ونـوار
مـا دمتَ أنت معي فـالسجن ملعبـة
فيهـا الأغـاريـد، والقضبـان أوتـارُ

جريدة (الزمان) 18 جويلية 1933

يــا مغيــث

قد دعاك المحـزون في غسقِ الليل
وقـد نـام كـلُّ حـيٍّ سـواكـا
ربِّ أنـت اللطيـف بـالبـر والـعـا
صِي مجيبٌ لـكـل عبـد دعـاكـا
لك لطْف في الخطب لو أنعم المحـ
ـزون فـي وقْعـه يـكـاد يـراكـا
أنـا مـسـتـعـصـم بحـبْلك فـي اليـمّ
إذا الـكـائـدون مـدُّوا الـشـراكـا
فـوق مـا دبـروا على الأرض كيـدٌ
كـيـد رب يـدبـر الأفـلاكـا

جريدة (الزمان) 23 ماي 1933

حمى المستنقعات

رحماك يا اللّهم يا للّهمَّا

حمّى ولا ينقص إلا الحمى

أرذل ضيف وافدٍ ألمَّا

مشؤومة الطلعة لا تُسمَّى

لم تبقِ لحمي وتريد العظما

أهولُ من جوفِ الأتون هضما

حمَّى ولا تترك إلا اليتما

وتترك الماء الزلال سمَّا

لشاربِيه، ومن استحمَّى

يا من تدك الشامخات الشما

وترفع الخطب إذا ادلهما

أزح عن العباد هذا الغمَّا

جريدة (الزمان) 23 جانفي 1933

المطر

سبحانَك اللهم أنزلت المطر

على الهضاب والوِهاد والمَدَر

النجمُ فيها واقفات والشجر

للسجدة الكبرى وقد نامَ البشر

عن شكرك اللَّهم، لكنَّ البقر

والمرهقات بالقُرون والوبر

وهي التي ترعى الحشيشَ والزهَر

تثني عليك، بينما الذي كفر

يبشم من ذاك الحليب والثمر

قد اكتفى وباعَ منه وادَّخر

ولا يزال ساخطاً على القدر

يستنزل الغيثَ وها الغيث انْهمر

لكنما أعمَى الفؤاد والبصرْ

يعمى إلى أن يختَفي عنه القَمر

والشمس قد يحسبها إحدَى الصُّرر

ونفسه يغيبَ منها ما حضَر

عن حسِّه، هل هي نفس أم حجر؟

جريدة (الزمان) 9 فيفري 1934

الـــربـــيـــع

الـعـبـاد تـلـتـطمُ والـربـيـعُ يـبـتـسـم
أرضُنـا التي هـرمتْ واسـتـشـفَّهـا الـهـرَم
لا تـزال ضـاحـكـةً لا يـكـيـدهـا ألَـم
عيـدهـا ومحـفلُهـا في الـربـيـع يـلـتـئم
هـذه أزاهـرُهـا كـلّ زهـرة عـلَـم
والـطيـور مـنـغـمـة حين يجمُـل الـنـغـم
يـا لـهـا مـزيـنـة بـالـعَـفـاف تـعـتـصم
في رياضها التحفتْ والـجـداول الـحُـرم
مـن رأى قـرنفـلهـا هـزَّ عـطفـه الـكـرم
أو رأَى بـنفـسـجـهـا حـلَّقت بـه الـهـمـم
حـفـلة تـقـاسَـمهـا الـحـميـرُ والـغـنـم
والعباد تلتطم
والعبادُ تختصم

جريدة (الزمان) 16 ماي 1933

لزوم مـــا لا يلزم

تبـــدَّل أهـــل الأرض من بعـــدِ آدم
إلـى فِـرق لا تستقيـمُ وأجنـــاس
وأعـجبـني الـمـوت البـصيــر لأنــه
يرى التاج مرفوعـاً على مثل كنَّـاس
فيــا أيهــا الــطيَّــار لا تـنس مــرة
إذا كنت في علياك فابصقْ على الناس

غـــيـــره

النـــاسُ أحقـر من بهـــائم سخِّـــرت
في هـــذه الـدنيـــا تـــذوقُ البـــاســـا
ودليــــلُ ذلـــك أنـهـم لـشـقـــائـهـم
وضعُـــوا على أبـوابهم تـــربـاســـا[1]
وأســـاءَ كـــلّ ظـــنـــه بـــقـــريـــنـــه
فـــلذاك يـلبس تـــكَّـــةً ولـبـــاســـا[2]

جريدة (السردوك) 14 أفريل 1937

(1) الترباس هنا هو المزلاج الذي يقفل به الباب.

(2) اللباس بمعنى السروال.

لزوم مـــا لا يلزم

قال أبو العلاء في قافية الراء والباء:

قمْ بـالوفـاء إذَا وعدت وإن تعـد أحداً على شربِ المدامة فاهرب
إن أنتَ ألقيت السلام على امرىء وارتـدَّ عن رد التحيـة فـاضـرب
والحنْ مـع الرجـل العظيم فـإنـه بك عارفٌ ومـع المغفل فـاعرب
وإذا اللئيـم دعـاكَ يـوم مجـاعـة فتغـذ وْيـك بحيَّـة أو عقـرب
إن الـلئـيـم إذا أصـابـكَ نـيـله فلقـد ظفرت بخلعـة من أجـرب

وقال (قافية الياء والشين المطلقة):

حكم الـزمان بـأنْ أعاقب بـالذي كسبت يـدي وأزامل الشـاويشا[1]
وأرى يـراعِي جـاريـا ويـراعـه في بلدة قـد شـوشت تشـويشـا
يـا ليتني قلَّدت نفـسي سـبحـة وعـبـاءةً ودخـلتـهـا درويـشـا

جريدة (الزمان) 20 جوان 1933

(1) يقصد بالشاويش الكاتب التونسي مصطفى بن شعبان لطول شاربيه.

أنـــا

أنا من إذا فسق العباد جميعهم ... أقبلتُ وحدي للعبادة أنسك
وإذا دعوا وتهجّدوا وتعبدوا ... أنا من يعربد ما يشاء ويفتك
ويسيل دمعي كلّما ضحك الورى ... فإذا الورى انتحبتْ فإنّي أضحك
ويلذّ لي يوم المصائب نومة ... ليلاً يبيت سريرها يتحرك
جدٌّ إذا الناس اطمأن مهادها ... فإذا بدا جدّ الأمور أفذلك
وترونني إن أعولت جيراننا ... جنْبي بجنب حليلتي يتحكحك
ومع السرور وأهله متجهم ... ومع الوقار وأهله متهتك
طبْعي ولا أرضى سواه غريزة ... هو من يخط لي الطريق وأسلُك
لا أرهب الأجلافَ أو شركاءهم ... ما دمت قط بخالقي لا أشرك
خابَ الذين إذا استحوْا من جهلهم ... سلكوا الضلال وبالهُراء تمسكوا
من ذا الذي والنار تلفح غيره ... لم يمسّ وهو «ممرقز»[1] «ومشكشك»[2]
يتوسط الوركيْن طيلة ليله ... والحول قد يمضي ولا يتورّك
فسلوا النساء عن الرجال يجبنكم ... إن الشكائم في المعامع تحبك
فدعوا الأنام لجدِّهم ومزاحهم ... والله يحفظ من يشاء ويهلك

جريدة (الزمان) 25 أفريل 1933

(1) يصبح مثل المرقاز أو النقانق والبسطرمة كما تسمى في المشرق العربي.

(2) يعني الشكشوكة وهي أكلة تونسية تصنع من البصل والطماطم والفلفل الحار والابزار.

صناعتي

إن كنتُ أنسج ثوبًا وأنت تقطع فرعا
وذاك يصطاد حوتًا وذاك يزرع قرعا

وهؤلاء نيامٌ وآخرون سكارى
ومعشر يتصدّى وآخر يتوارى

فمن بربِّك قلْ لي يشاهِدُ الأكوانا
من الصباح ويمسِي يسبّح الرحمانا

* * *

هذا بساطٌ مديد من النبات مزوَّق
وشمس (مارس) تزهو خلفَ السحاب الممزق

ماذا تَرى من شفاه بالابتسام تحلَّت
ومن عناقيدِ شعْر على النحور تدلت

ومن قَوام رشيق قمْ ويح أمك وانظر
لله كيف يسوِّي «موديله». ويصور

* * *

لـمـوقـع الـخـال عـفـوًا فـي الـوجْنـة الـسـمـحـاء
روع يـمـيـت ويـرمـي بـالـقـلبِ فـي صـحـراء

تـدرون يـا مـنْ خـلقـتـم لـلـمـضْـغِ والابـتـلاع
بـيـن الـعـيـون وبـيـن الـقـلـوب أيّ صـراع؟

كـلُوا الـلحـوم وروحـوا بـالـفـأس والـمـنـشـار
إنـي أعـيـش وأحـيـا بـهـذه الأشـعـار

جريدة (الزمان) 18 فيفري 1936

شـــاعـــرُ المقهَى

يجدُ المدينةَ في الصباح ... ويـا لَـهَـا مـن بـاهـره
في روعةِ الحِصن المدَّجج ... والـفـتـاةِ الـطاهـره

الـفـجـر أقـبـل دافـقـاً ... والـلـيـل مـاضٍ هـارب
والـطـيـر فـي عـلـيـائـها ... مـن عـاصـمٍ تـتـجـاوبُ

ويـرى شـوارعَهـا الفِساح ... نـظـيـفـةً كـالـمـسـجـد
سكبت عليها الشمس ذوباً ... مـن شـعـاعِ الـعـسـجـدَ

هـاتِ الفنـاجينَ الصغيـرة ... يـا غـلام مـنـضَّـدة
يـا ليت سـاعـات الشروقِ ... عـلى الـزمـان مـخـلَّدة

هـي سـاعـة عن مثلهـا ... غـفـل الكُـسـالى الـنـوَّم
لا يـستفيـق لهـا من الا ... حْـيـاء إلا الـمـرغـم

يـرنـو لـسـاقـي خـادم ... يـسـاقُـهـا مـا تـحـمـل
فيعكـر الحلمَ الجميـل ... عـلـيـه شـيـخٌ يـسـعـل

وبـدتْ تـلامـذة المدارس ... بـوركـو مـن مـعـشـر

من عــاثــرٍ بــحــذائــه ومشيــع «بــالبــربــري»[1]
يــتلفــتــون مــحــمــلقــيــن إلــيــه كــيــف يــدخــن
يــا قــوم هــل مستحسَن مــرآه أم مــســتــهــجــن

امشــوا ذهــابــاً أو إيــابــاً هــا هــنــا هــو قــاعــد
يُحصِي ويــنــظم مــا يحس فــؤادُه ويــشــاهِــد

ولــقــد تــقــلصــت الــظــلال وشــب قــيظُ الــتــاســعــة
يــا ويــح مــا يلقى خــراش مــن الــضــبــاء الــراتــعــة

ويــرى خــراشُ الغيــدَ من كــرســيــه مــســتــفــسِــرًا
مــا أبــدع الــرحــمنُ مــن أجــســامِــهــن وصــوَّرا

مــن كــل غــانــيــة كــمــا شــاءَ الــهــوى تــتــبــرَّج
لــلقــادريــن عــلى الــهــوى وهــو الــذي يــتــفــرَّج

جريدة (الزمان) 19 نوفمبر 1935
جريدة (الشباب) 5 مارس 1937

(1) يقصد الشاعر من معنى التشييع «بالبربري» أي باللهجة المستعملة في شمال أفريقيا هو المصاحبة وليس الوداع الأخير كما تفيد بذلك الكلمة في معناها الفصيح.

الشعـــر الجـَـديد

الكـــون:

من بعـد ما أبصـرتُهُ متيقناً   أيقنتُ أن الكون في نفسي أنا

الكون عيناي اللتان بلاهما

لا أبصر النوَّار

أو بهجة الأشجار

في دكنة الغبراء

من فوقها الزرقاء

هـل يبصـر الأعمى القمـرْ   مـن خلفِ أوراق الـشجـر

كـنـحـرْ ظـبـي أغـيـد   مـن خـلفِ عـقـد أسـود

هـل يـبصر الأعـمـى السـماء وحـليـهـا في صـدرهـا

خلعتـه عنهـا الشمس قبـل مغيبهـا في جُحـرهـا

(2)

سمعي ولولا مسمعي ما نغمةُ ال:

وترِ الحنون

ونقرةُ الدف المحرِّك للشجون

ولكنت أجهل ما المحيط الهادر

والعندليب الصافر

أو ضجة الشلال إذ يتدفق

أورنة الخلخال وهو معلق

ولكانت الدنيا بما تحويهِ من عرباتها «وترامها»

وأناسها وديوكِها خرساء أو هي خافتٌ في خافت

أو كالشريط الصامت

إني ولولا الأنف عندي لاستوى أل

الفجل والريحان

المسك والدخان

اللحم والألبان

ولغشني السماك في سوق الخضار وباعني الجزار

لحماً منتناً. . . ،

الكون في أنفي أنا. . . ،

(4 ـ 5)

ذوقي ومالي غيره إن لم أذق ما أشتهيه، وألمس الشيء

الذي اختاره، فقل العفاء على البرية كلها:

زيد، وعمرو، والكميتُ وخالد وبني أبيهم أجمعين

فإنما الدنيا أنا

* * *

وهي الحواس الخمس

لولاها لكان الرمسُ ـ كالقصر

وكان الفجر ـ كالظهر

وكان الهذر ـ كالشعر

شاعر جديد

جريدة (الزمان) 16 جانفي 1933

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحب

أحبُّ المرأة العورا وأعشق طول منخرها
لألقى الله مأجوراً على تقبيل ما كِرها

* * *

وتعجبني التي تعْرج أو تمشِي بعكّاز
لأندبَ دولة للحسنِ طاحتْ بعد اعْزاز

وذات البدن الشاحب تحت المئزرِ البالي
وددت بأنّها والله في بيتِي وفي آلي

وأنت ألاّ تحبين من الذكران فحّاما
دميماً، أرمصَ الجنبين أو ينطق تمتاما

وهل يعجبك (العامل) أي كـ ريمة كنتِ
بطلعة وجهِه المغبر من جيرٍ واسمنت

بلى والله تهوينَ ولكنْ تقبح النجوى
لأنا قد تواطأنا على كتمان ما نهْوى

جريدة (الزمان) 12 نوفمبر 1935

لا تفزعي

لا تفزعي من نظرتي
وأنا إليك أحملِق
خلف الذي أنكرتِ منّي
مهجةٌ تتمزق
لك طلعة منها القلوبُ
بغير سلك تصعق
فيحملق الرجل الصدوق
ويعرض المتحذلق

* * *

أبصرت في المرآة شخصَكِ
من هناك ومن هنا
وعلمت كم يشْبِي قوامك
إنْ مشى وإن انثنى
وخرجتِ تختبرين كيفَ
تفاجئين الأعينا
فنجَا الذين عمُوا وطاح السّهم في قلبِي أنا

جريدة (الزمان) 10 مارس 1936

مـــدام (صمبصون)[1]

رأيتـــكِ صـــورة نشـــرت فـكـــادت
قـبيـــلَ العيـن تقـــرؤهـــا الـشّـفـــاه

جـمـــال تـخـشـــع الأبـصـــار مـنـــه
حـيـــاء أو تـــخـــر لـــه الـــجـــبـــاه

ولـســتُ بـمـنـكـــر إن طـــاح تـــاج
أريـكـتـــه الـبـســـيـــطةُ والـمـــيـــاه

فـــذاك الـمُـلْك تـنـشئـــه الـبـــرايـــا
وهـــذا الـــمـــلـــك أنـــشـــأه الإلـــه

جريدة (الشباب) 10 ديسمبر 1936

(1) هي بواليس صمبصون، الغانية الأمريكية المطلقة التي وقع في حبها أدوار الثامن ولي عهد بريطانيا في عهد جورج الخامس وفضل الاقتران بها على تولي الحكم عندما خير بين الاثنين.. وكانت من الحوادث التي اشتهرت آنذاك.. فأوحت لبيرم بأن يكتب هذه الأبيات وقد نشرت إلى جانب صورة بواليس التي توفيت خلال شهر ماي 1986.

سجَى الليل[1]

— I —

سجى الليل ألاّ يُرجى   لهذا الليلِ من آخرْ
سواد يحجب الحق   كقلب الجاحِد الكافر
إذا ما انطمس النَّجم   فأنّى يهتدِ السائر؟
وهذا الكفَنُ الأسود   بين القبر والقابر

— II —

يلوح النور خدّاعاً   كلون الضاحك الغابر
ضياء يرسل الشك   لقلب الجَازع الصابر
فما هو ظاهِرُ الخير   ولا الشرُّ به ظاهر
رأيت اليأسَ خيراً من   شكوكٍ تُحزن الناظر

— III —

بدا الصبح وفي الصبح   تجلى روضها الزاهر
وقال الورد في الخدَّيـ   ـن غُضّوا عن دمي الطاهر
سأحييكم حياة الخلد   إنْ عفت يدُ الباثر
وإن ظلماؤكم غابت   ولم يبق لها دابِر

(1) ظهرت هذه القصيدة مجسمة برسوم من إبداع الفنان التونسي علي الدوعاجي تظهر أطوار التحرر من الحجاب.

— IV —

وفي الشمس ترى الدنيا جميعاً حسنُها باهر
يرتل كلُّ ذي صوتِ ثناءَ المبدع القادر
ويعلم كلُّ ذي عينـ ـين ما الحسناءُ بالعاهر
هنالك تحكمُ الأفها مُ بين العف والفاجِر

جريدة (الزمان) 21 فيفري 1933

أعـــوذُ بالله

أعــوذ بـــالله مــن وجــوهٍ يـخلقـهـا نفسُـه تعـالى
لحكمــةٍ لا تــزال غيبــاً على البــرايـا ولـنْ تــزالا
سـواحـلُ البحــر لا تبـالِي كم تقـذف الهمَّ والـوبـالا
من كلِّ شوهـاءَ ذات ردف قـد ارتخى خلفهـا وسـالا
وكــل زرقــاء ذات أنــف إنْ لم يكن أفطس استطالا
ومـن لهـا شـاربٌ طـري ولحيـةٌ تخجل الـرجـالا
وهــذه عــاقـرٌ عـجـوز وبطنها فـرجةُ الحبـالى
وتلك صفــراء قــد ألاطتْ بكلسهـا الـوجـهَ والمبـالا
يمشين في الطرق سائحاتٍ عُجْباً على الناس واختيـالا
يحسبن من مسِّهن كـفـراً مغـازلاً يطلُب الـوصـالا
كـأنمـا النـاس في اشتيـاق لكـل من بـال واستبـالا
إن المــراحيض لا تبــالي أن تبعـث النـتنَ والـتفـالا

جريدة (الزمان) 13 فيفري 1933

الحفلة الكبرى لتأبين الشابـي [1]

أرى غـابـةً طيرهـا صـادح يـردّ عـلى جـوْذَرٍ بـاغِـم
أرى شـفقـاً زنـده قـادح على بحـر أخضـر قـاتم
أرى جـدولا حوتُـه سابح يحـاذِر من طيـره العـائم
وهذي الربـى بالزهور اكتست ولستَ هنا يا أبـا القـاسم

* * *

أنـاديـكَ من محفـل بينه وبينـك شامخـةٌ من تـراب
بكـوك بـدمـع يـريقـونَـه غزيراً نهار المنايا الصحاب
يمـوتُ الفـتى ويـحيُّـونـه إذا ما غدًا مستحيلُ الاياب
ليبكُـوا ولكنْ بسيل الـدماء وان أعـوزتهُمْ فهـذَا دمِي

* * *

لعلك كنت تـطيـلُ المقـام كباقِي الكهولِ وأهل المشيب
أو أنـك لما عَـراك السَّقام تعـرّيتَ فيه بنجـوى حبيب
ولكنْ ظهـرت هلالاً وغبتَ كـأنك لم تـكُ في العـالم

* * *

تـجـرعْتَهـا أكؤسـاً داهقـات من الصَّاب في بسمات الصِّغر

(1) القصيدة الذي شارك بها بيرم في أربعينية الشاعر أبـي القاسم الشابـي.

وسرتَ على أرجلٍ داميات　　　سواء لديها الحصَى والوبر

وكافأت عن هذه النائبات　　　بشعر يحنّ حنين الوتر

فلم تدر من أنت حتى مررت　　　مرور النسيم على النّائم

* * *

حياتك كانت بقاءً لنا　　　وبالموت أنتَ ورثت البقا

يرفرف روحك من فوقنا　　　ومثلك إنْ مات قيل ارتقى

وإن أنت بالشخص فارقتنا　　　إلى حفرةٍ، فإلى الملتقى

وبورك في عمرك المنقضِي　　　وبورك في عمركَ القادم

جريدة (الزمان) 27 نوفمبر 1934

نـــشـــيـــد

مرفوع إلى الأعتاب الملكية نظمه الأستاذ محمود بيرم يحيي به تونس وشعبها في شخص مليكها المحبوب.

يـا مـليـكَ الـخـضـراء والـمـروج الـغـنـاء
سـالـمتْـك الـنعْـمـاء واتـقـتـك الـحـدثـان

* * *

سـالـمـتـك الأيـام فـوق عـرش قـد قـام
مـن فـخـارِ الإسـلام أو تـراث الـرومـان

* * *

أنـت مـلْك مـخـتـار مـن تـقـاةٍ أبـرار
أرخـتْـك الأسـفـار مـن حـمـاة الـقـرآن

* * *

فـي حـمـاكِ الـمـأمـون عـيشُ سـلم مـكـنـون
تـحت غـصـنِ الـزيـتـون حـيـث يـحـيـي الإنـسـان

* * *

لـك شـمسٌ تـهـتـاجْ بـالـنـضـار الـوهَّـاج
فـوق هـذي الأمـواج كـلُّ صـب فـنـان

* * *

والكنار الصداح بلغاتِ الأرواح
في أعالي الأدواح لك يهدي الألحان

* * *

يا وليّ الخضراء والبتول الحسناء
تِه جلالا ما شاء مجتلاها الفتان

* * *

عش سعيداً بهنيك حب شعب يوليك
كل فرض يرضيك أنتَ بعد الرحمان

جريدة (الزمان) 2 جانفي 1933

النيابة

مـا للنيابـة لم تبـذل مـطارفهـا
لكـلّ جلف عـظيمِ الأنف منفـوخ
وكـلّ مـمتلىء عـلمـاً ومعـرفـة
يمشي بـوجه كـأست القـرد مسلوخ
وبـائـع الخبـز والمـرهـون بـرنسـه
وسارق (البذر) و(الدلال) و(البوخي)[1]
هبّوا على نغمة المـزمار تحفـزهمْ
ثم انثنـوا بين مصْقُـوع ومشـدوخ
لكـلّ عضـو من الأصـوات أربعـة
كـأنّ أسـعـارهـم أسـعـارُ بـطيـخ
كفـاكم الغنمْ منجـاكم بـأنفسِكم
مثـل الكـرام بـلا ضـربٍ وتـوبيـخ
والله أكـرم أنْ يـرمـي خـليـقـتـه
لنـاهشِ اللحم نيئـاً غيـر مـطبـوخ

جريدة (الزمان) 20 مارس 1934

(1) بائع البوخة، وهي نوع من الكحول.

إرادة الله . . .

يا عصبة أخفقت في كل نازلة ... إلا الشحاذة والتدجيل واعجبا

تهوى الأكف على أقْفاء سادتها ... فترقص الناس من إيقاعها طربًا

في (القيروان) إذا ساداتهم رجمت ... قامت (صفاقس) تلقي فوقهم حطبًا

كأنهم كرة الميدان تركلها ... أقدام قوم تبارت تتقي الغلبا

فلا أحاديث إلا أنهم ضربوا ... ولا تشوق إلا للذي ، ضربا

ولا حكاية إلا أنهم نهبوا ... وليس يحصر غير الله ما نهبا

جاؤوا البلاد ليختاروا وينتخبوا ... يا ضيعة الناس منخوباً ومنتخبا

ذلّ التسول، ذل ليس يرفعه ... قس الفصاحة إن في خطبهم خطبا

قالوا «انسحبنا» فقلنَا أي قادتكم ... رأى الدخان على بعد ومَا انسحبا

ميدانكم فندق فيه بقفته ... زعيمكم يجمع «الكرموس»[1] والعنبا

ومن تصدت لأخذ «الفلس» راحته ... وجاء يطلب «صوتاً» عز ما طلبا

إرادةُ الله تخزيكم، وتخذلكم ... إرادة الشعب فانجوا ويحكم هربًا

جريدة (الزمان) 30 جانفي 1934

(1) التين.

النتيـــجـــة

أســدلَ المجلس الكبيــر سجــوفــاً

حــصّــنــتــه مــن أعــيــن الأحــلاف

واكتفَى الشعب بـالـذين اصـطفـاهُم

مــن فــحــولِ أمــاجــدٍ أشـــراف

أي خـطب يكون لـو نجح «الثور»

لــدى حــمــله عــلى الأكــتــاف

يــا لقــومي أيحمــل النـاس «فيــلاً»

فــوق مــا يـحمـلون من تَـعســاف

وتـــرى «الفقحــة» الفـضيـعــة تعـلو

فــوق هــام «المثقفـين» الـضِّعــاف

«أيـهـاذا» الــمــثــقــفــون تــعــزوا

بــالــذي نــالكم مــن الأجــحــاف

إن لله فــي الــمــصــائــب لــطفــا

لــو فــطنتم من أظــرفِ الألــطاف

جريدة (الزمان) 3 افريل 1934

حفلـة ابتهـاج

احتفل فريق من علية القوم في العاصمة بتاريخ ثلاثة من حضرات النواب هم الحكيم محمد التلاتلي والسيد محمد المقدم المحامي، والسيد المنصف العقبي المحامي بمناسبة فوزهم في النيابة عن الأمة بالمجلس الكبير، وقد التأم جمعهم الذي يبلغ السبعين شخصاً بمقصف بغداد الجميل، وبعد أن تناولوا طعام العشاء ألقيت الخطب والقصائد إلى نصف الليل، ثم تفرقوا والسرور يملأ قلوبهم. وقد ألقى محرر هذه الجريدة في مفتتح الحفلة القصيدة التالية:

سادتي هذه سويعة أنْس ... طالما رمْتُها وقلبي اشتهاها
ساعة من صميم عمري تمضي ... أتمنّى بأن يطول مدَاها
لأرى اللطف والمحاسنَ والظرف ... وهذي الوجوه ما أبهاها
كل فحل وكل شهم كريم ... أكثرَ الله منكم الأشباهَا
كي يدومَ السرور في كل حفل ... يتحلّى بكم ولا يتباهى
سادتي ذا مكانكم بعد حرب ... دار في الانتخاب صوت رحاها
وهي حرب ليس الغنيمة منها ... تجلب الفوز للذي يلقاها
لا ولا حسرة الهزيمة فيها ... تجلِب العار للذي يصلاها
انها حرب أمة تتبارى ... كيْ تولّي قيادها أقواهَا
كيما تمضي وتنجلي بسلام ... ويداوي سليمها جرحاها
سادتي (المجلس الكبير) كبير ... إن كبرنا، وإن صغرنا فواها
تونس هذه التي وقفت حيرى ... ترجّى غوثَ السماء يداها

مَنْ لها؟ مَنْ لها؟ إذا جدَّ خطب   غير أبنائها وذوبِ حشاها
ليس غير الخضراء أم بنوها   يستحلون ذبحها من قفاها
آنشلوها من الشقاء برفق   بلغوها مرادَها ومناها
واجعلُوها فوق الخصومة والحقدِ   لئلا تضاعفوا بلواها
واغفروا للذين عاثوا فسادا   لتراعي قلوبهم تقواها
خلق الله بعضَ قوم قلوبا   عامراتٍ وبعضهم «أفواها»
سادتي كل ما لكم من جهود   اجعلوها لتونس لا سواها

جريدة (الزمان) 17 افريل 1934

في كلّ دارٍ أقيمَ عُرس

تهتزُّ بالفرحة القلوب[1] | يهزُّها المشهَد المَهيب
أكبادُ شَعب تقدُّ منه | ثم لأحشائِهَا تؤوب
في كلِّ دار أقيم عرس | وكانَ يعلو بهَا النحيب
يا أيها المشتكي سقاما | مهلاً فقد جاءك «الطبيب»[2]
وأنت يا من شكوتَ هجراً | يهنيك قد جاءك «الحبيب»[3]
عادوا لأفلاكهم بُدورًا | جانبَها الخسف والمغيب
يا ساكني «البرجِ» خبرونَا | بالله هل عيشه يطيب
الماء من بَردِه جليد | والصخر من حرِّه يذوب
عشيركم في النهار ضبٌّ | وخدنكم في المساء ذِيب
في مثل هذا العناءِ كنتم | وكلّكم ضاحكٌ طروب
أكرم بهاتيك من وجوه | بدَّلها اللفحُ واللهيب
تحمل فوق الجباهِ سيمَا | يحملها السَّاجد المنيب
اليوم نجزَى بها نعيما | خلَّفه أمسُنا العصيب

جريدة (الزمان) 26 ماي 1936

---

(1) قيلت بمناسبة الافراج عن الزعماء التونسيين الذين أبعدوا إلى (برج البوف) وأفرج عنهم في شهر فيفري 1936. وقد نشرت بالصفحة الأولى للجريدة مع صور الزعماء: الحبيب بورقيبة، محمود الماطري، الطاهر صفر، صالح بن يوسف البحري قيقة، محي الدين القليبـي.

(2) يقصد بالطبيب الدكتور محمود الماطري.

(3) يعني الحبيب بورقيبة.

من شعر محمود بيرم[1]

1 ـ تحت صورة بورقيبة (9 جوان 1936):

تجلك أمّــة أيقـظتَ فيهــا مشـاعرهـا بهمّتـك الكبيـرة
ولا تنسى جهادك في رِضاها ولا منفاك في (برج القصيرة)

2 ـ تحت صورة الطاهر صفر (16 جوان 1936):

عـظمتْ خطوب في البـلاد وأنــتَ مــنــهــا أعــظم
رابــطت في بـرج الجحيم وجئـتَـنــا تــتـبــسَّــم

3 ـ صورة بورقيبة (8 سبتمبر 1936):

خرجتَ كالليث للأشبال منتجعا وجئتَ بالصيد للأشبال موفورا
ادخلْ عرينك واهجع فيه آونة صـدى زئيرك رددنـاه تكبيرا

(1) قيلت هذه الأبيات في مدح الزعماء التونسيين الذي عادوا من منفاهم في (برج القصيرة) الذي سمي الآن (برج بورقيبة) بالجنوب التونسي وقد نشرت في التواريخ المشار إليها بجريدة (الزمان).

الاشــتراكيــة

كان شاعر الزمان قد نظم هذه القصيدة يحيِّ بها الاشتراكية التي صعد نجمها اليوم. وقد وافق تاريخ نشرها قدوم مسيو قيون، ممثل فرنسا في مساءِ هذا اليوم، وهذا توفيق حسن وفأل سعيد:

أقمنَــا في الحمــايــةِ نصف قــرن
نــســائلهــا إلى أينَ الـمـصـيـر؟
نــســائلهــا وقــد نُـصـبـت عـلـيـنـا
«متَى يستكمــل الـرشــد الصغيـر؟»
ومــدت فــوقـنــا ظــلاً جـهـلـنـا
أنــحـن بـــه وقــوف أم نــســيــر؟
نـــســائــلهــا بــأيْــدٍ ضــارعــات
وألــســنــةٍ تــمـلـكـهـا الـقـصـور
وتـنـظر من عــلٍ فـتــرى بنيـهَــا
هُــزَالى تـبـتـغِي لـهـم الـقـبـور
إذا نــاغــتـهُــم، فــرحــوا ولــبَّى
هنــالــك شــاكــرٌ، وهنــا صبــور

* * *

(1) قيلت بمناسة تولي حكومة الواجهة الشعبية بفرنسا السلطة، وكان الشاعر يطمح بأن تغير هذه الحكومة أسلوب إدارة مستعمراتها فيها وراء البحار لكن ظنه خاب، وكان من صحايا هده الحكومة

فـيـا حـزبـاً تـولاهـا بـحـقٍ
وأمـله الـمـعـنّـى والـفـقـيـر
يـنـاديكـم من الـخـضـراء شعـبٌ
ضـعـيـف بـالاخـوَّةِ يـسـتـجـيـر
تـنـاسـتْـه الـمـروءة، ثـم ألـقـتْ
عـليـه كـلَّ خـسـتـهـا الـدهـور
تـنـظر ريـحـكـم فـي الـيـوم أنّـى
تـهـب ونـجـم دولـتـكـم يـدور
لـيـشـرككـم، ولـكـن فـي ديـارٍ
تـمـلك أرضـهـا ولـهَـا أمـيـر
مـشـاركـة ونشـكـر لـو أبـيـحـت
لـكـمُ أثـمـارهـا ولـنَـا الـقـشـور
ونـرضـى أن يـكـون إذا اقـتـسـمـنـا
نـصـيبُ أكـيـلـنـا الـقـدر الـوفـيـر
وتـكـفـيـنـا الـمـودة والـتـصـافـي
وأن تـخـلُو مـن الأحـن الـصـدور
إذا سـدنـا – ونسـبـتـنـا إلـيـكـم
فـكـلكـم بـسـؤددنـا فـخـور
وإن خـبـنـا ونـحـن لـكـم حـلـيـفٌ
يـقـم جـسـمـكـم عـضـو كـبـيـر
ومـا هـذا الـتـفـاوت والـتَّـعـالِي
وفـوقَ رؤوسـنـا ربٌّ كـبـيـر؟

جريدة (الزمان) 23 جوان 1936

(قويون)

(قويون) قد أبصرتُ شكلك
فنسِيت من أبصرتُ قبلك

لك بسمة جذَّابة
تدنِي إلى الأبصار نبلك

أشرقت والنبأ الجليل
على البلاد فما أجلَّك

ولقيتَ شعباً في سويدا
ء الحشاشة قد أحلَّك

شعباً وفيًّا شاكرا
ما دام فوق الأرض فضلك

جريدة (الزمان) 14 جويلية 1936

---

(1) هو (أرمان قيون) المقيم العام الذي جاء ببعض الإصلاحات ومنها حرية الصحافة لِما وراء البحار وهذه الأبيات قيلت فيه مناسبة إعلانه عن القانون الجديد لحرية الصحافة.

الكاتدرال التونسية

شاعر (الزمان) يرى هذه (الكاتدرال) كل يوم وفيها أكثر من حفلة عرس، بينما المدينة العربية تعلوها الكآبة والحزن، ولا يسمع فيها زغردة عرس وإعلان زواج إلا في القليل النادر فيقول باكياً:

يا ربَّة الناقوس والأرغن ... أهجْتِ بلبالي وأكْمَدتني
ما بال أفراحك لا تنقضِي ... وسترْك الأحمر لا ينثني
في كل يوم عرسٌ حافل ... بحاملاتِ الورد والسَّوسن
والندّ والشمع مشير إلى ... بخوره المنعقد الأدكن
وكم على بابك منْ موكب ... تسيرُ ذكراه على الألسن
لهفي على قومِي أقاموا على ... عيشٍ كئيب الوجْه مخشوشن
تباع للدائن أملاكهم ... ويقتني الدائن ما يقتني
فتاتهم إنْ راهقتْ عانس ... وإن تبدَّى حسنها تسجن
أما فتاهم فهو في غمَّة ... تذيقه ما ليس بالهين
كأنما قومي قد أبطلت ... أفراحهم من زمن «المعطن»[1]
يا لوعةً للقلب لا تنقضي ... وحسرةً تقعد للأعين

جريدة (الزمان) 2 ماري 1933

(1) المعطن: كان للمعتمد بن عباد ملك اشبيلية زوجة عزيزة عليه تدعى الرميكية أبصرت من قصرها الجواري يملأن الجرار من النهر وأرجلهن تغوص في الطين فاشتهت أن تكون مثلهن، فأمر المعتمد بقناطي المسك تعجن بماء الورد لتكون كالوحل الذي تطأه الجواري وأجرى فيه الماء، ونزلت الرميكية تملأ أناءها من الماء وتخوض في هذا المسك الذي يدعى المعطن وعرف بذلك (تعليق الشاعر).

الشعـرُ القـديم

ألاَ عِم صباحاً أيها الطلل البالي وجلّ البلايا أن يحييك أمثالي
وقفت على رغمي «بباب سويقة»[1] كما وقف المعقور في وسط أوحال
أشاهد من قومي وأبناء جلدتي هياكلَ من عظم مغطّى بأسمال
نيام على «المادات»[2] صرعى كأنهم سكارى من الخمر العتيق بأرطال
وما هي إلا سكرة الجوع إنها لأفتكُ بالأرواح والبدن الغالي
ومن واقفٍ حافٍ كتمثال آدم وليس له في العينِ قيمةُ تمثالِ
ولما بلغنا «الحلفاوين»[3] وأهلها أعيذك من هول هناك وأهوالِ
ديار بناهَا مقعَد وهو جالس إذا قورنت بالقبر كان هو العالي
ويا ربَّ حانوت عليه مظلةٌ من الخيشِ لم يفضل بها غير أنسَال
كأنسال مفتول القطائف تحتها فهذا لأكّال وتلك لقتال
يقوم عليها عامل فوق جسمه ملابس كسّاح المراحيض زبّال
ومن حوله «المقروض»[4] باتت تجره من الفأرِ أسرابٌ بأيدٍ وأذيال
وأصبح والذبان يهزج فوقَه يلحن به يرثى لأول أكّال
ويا رب طود شامخ من كناسةٍ تحاوطه شتى هضاب وأتلال
ولو كان ذو القرنين أبصر بعضه بنَى السد منه مرتبك البَال

جريدة (الزمان) 16 جانفي 1933

(1) حي من أحياء العاصمة التونسية.
(2) الأرصفة.
(3) حي من أحياء العاصمة.
(4) لون من الحلويات التونسية.

(لـيـون)[1]

يـا شقـائِي ولـوعتِي إن تـذكَّـر | تُ ليـالي الخـريف في (بَلكُـور)
حين يكسو الغمام عاصمة (الرُّو | ن) بـأبهى من داكنـات الحـريـر
حين تبـدو دمْيـاتُـهـا كعـذارى | وسْط عـرس معـوَّذ بـالبـخـور
وتـهشّ النفـوس للقـرب لـمـا | يـرعـد البـرق عـاريـات الصـدور
والـدوالـي أوراقُـهـا هـاويـات | كـرقـاع تسـاقـطتْ من خـدور
وتـرى النـاسَ يقعـدون فـرادَى | ويقـومـون أذرعـاً في خـصـور
كـل خـلّيْن يـبـدآن التـنـاجي | بين عـزف الأبـواق والـطنبـور
لا أرى الآن غير ظلمةِ (سوق التر | ك)[2] مشفـوعـةً بـوجـه الخفيـر

جريدة (الزمان) 8 أوت 1933

---

(1) إحدى المدن التي عاش فيها بيرم بفرنسا وكتب عنها في بعض مذكراته.

(2) أحد الأسواق الشعبية بالعاصمة.

عريضة لإدارة المال

إدارة المال قد «غبَّـرتُ»[1] هنشيري — والحرثَ طولا وعرضاً «بالتراكتور»[2]

وجئتُ بالبذر من فولٍ ومن عدسٍ — لا سلفةً. بل شراء «بالفـواتير»[3]

ولم أَدَعْ عـودَ زيتـون بحـالتـه — كـلًّا، ولا عود تـوت غير مـزْبور

خمسون شخصاً جلبناهم بنسوتهم — بـالأجـر جـاءُوا لتـطهيـر وتبخيـر

وقلتُ للسحب صبّـي وامطري كرمًا — لكنهـا لم تـجـد إلا بتـقـطيـر

أضحَى الحشيش لنار الشمس تأكلُه — والحبَّ رزقـا حـلالا للعصـافيـر

لم يبق في الأرض من عودٍ لماشية — لَـمَّـا تجـرد من وشي الأزاهيـر

وجاء في موكب يسعَى «خليفتُكم»[4] — ليقبض المـالَ من عبـد ومـأمـور

قلت المنـاجـل لم تـظفـرْ بسنبلة — حتى لقد صدئت في مخزن (الكور)[5]

فقـال أخفيتُمُ المحصـولَ أجمعـه — والقمـحَ هـربتمـوه بـالقنـاطيـر

قلت ادخل الدار وانزلْ في دوامسها — ومـا تـراه فخـذه غيـر مـأزور

فقال آخذ من حقي المضاع على — ما عندكم من صحُون أو «مواجير»[6]

---

(1) أي وضع له السماد والغبار في المعنى العامي التونسي فواضل الحيوانات وغيرها.

(2) آلة الحراثة وهي من الفرنسي الدخيل.

(3) التكلفة.

(4) ممثل السلطة الجهوية ويسمى الخليفة.

(5) المستودع.

(6) مواعين.

فقلت هــاذى عليهــا عقلةٌ سبقت   إلى مراب عظيم البطن «بنْكير»[1]
فقــال لي بــاحتقــار، رافعــاً يــده   مهدّداً: «أنت يا فلاح دستوري»[2]

جريدة (الشباب) 19 نوفمبر 1936

(1) من رجال البنوك.
(2) منتسب إلى الحزب الدستوري التونسي.

مــدافع العيــد

لا مرحباً بمحيا العيد ان طلعتْ منه على الناس أرزاءٌ وأحــزان

ولا تبــاركَ يـوم فيــهِ يـزعجنـا صوتُ المدافع والإسلامُ خَـزيان

عيـد كوجـه طفيليٍّ أتَى عـرضـا فــلا يقــابلُه بــالبشــر إنســان

نشــرُ البشائـر بشــرَى لا تـذكـرنـا بــالعــز إلا ودمــعُ العين هتَّــان

يا أيها الناس ما ابيضتْ ملابسكم في العيـد إلا كمَا تبيضُّ أكفـان

لا تحسبوا أن يكون الميْتُ مضطجعا في قبره، ربَّ ميتٍ وهو يقضـان

مشتَّتــون فــرادى ليس يجمعكـم ديـنٌ ولا لغــة فـصحى وقــرآن

بكى اليهــود (ببــرلين) فســاعفهم من شعبهم في جميع الأرض تَحنان

تــطور الناس حتى في جَـوارحهم ومسلم اليـوم أمسى وهـو قـرنـان

يا قوم لا تنحروا الأنعام صـاغرةً باغِينَ في نحرهـا فالبغي عـدوان

رفقــاً بــأغنــامكم أبنـاءِ جلدتكم فالظلم أن يذبحَ الخرفان خـرفان

جريدة (الزمان) 4 افريل 1933

الإمام يحيى

الخطب فيك أقلّ من أن تُنتضى ... فيه اليراعة أو يقول القائِل

والله يعلم أنَّ قلبي مشفقٌ ... كي لا تقوم طوائفٌ وقبائل

خَلِّ الجزيرة تحت قيْل واحد ... كي لا تقوم طوائف وقبائل

قد وحدتْها الآن حرب فذّة ... نعم القتيل بها ونعم القاتل

ما كنت يا ابن حميد إلا أكلة ... يمشي بلا جهد إليها الآكل

إن لم يكن عبدالعزيز فدونه ... من خلف ظهرك أخطبوطٌ هائل

جريدة (الزمان) 15 ماي 1934

تحت الحجاب

قصة رجزية:

حسناء ذات منظر جميل ... تزوّجت من أعور بخيل

صيَّره البخل مع العباد ... توصلاً لعيشه الزهاد

بيَّض فعل الصالحات مفرقه ... من كل ما يُحسن إلا الصدقة

إن عرضت بالتّين أو بالموز ... أو قالت اليوم أوانُ اللوز

يقول: هذا مأكل النصارَى ... وبعض أهلِ ديننا السكارى

وسوف تأكلين في الجنان ... فاكهة تعطى بلا أَثمان

فأكْثِري من الصلاة واركعِي ... لتأكلي منها غداً وتشبعي

ومن تجافى عن لذيذ العاجلة ... أثابه الله بخيْر الآجلة

فرأت الحجة منه دامغة ... ويئست من خيرِ عين فارغة

وفكَّرت في حيلة عجيبة ... كانت على أعورها مصيبة

قامت إلى الدواة والقرطاس ... وكتبتْ تطلب بعض الناس

فتىً تعشَّقته من قديم ... وهو بوجه أزهر وسيم

فجاءها الفتى مع الصباح ... باللحم والنبيذِ والتفَّاح

وأفرطا في الانبساط لا تسلْ: ... الجوع والبخل يبيحان الخطل

وسمعوا الباب الكبيرَ ينقر ... إذ أقبل الظهر وجاءَ الأعور

فذعر العاشق، قالت: لا تخفْ ... وفتحت قائلة للزوج قِف

كنْ خارج الباب فعندي جاره ... جاءت لتقضي واجبَ الزيارة

وليس شيء عنـدنا منَ القِـرى ولا بجنب الـدار شيء يُشتَـرى

وهـي التـي تـوسعني إكـرامـاً في بيتهـا إن زرتـهـا لمـامـا

أحضـر لنـا نـاشـدتـك النصيحة شيئـاً يقينـا العـار والفضيـحـة

فآحضر المطلوب من غير سرفْ وقـال سلّمي عليهـا وانـصـرف

جريدة (الزمان) 20 جوان 1933

ذئبٌ في الجنَّة

رؤْيـا قضت بـالعجبِ العُجـاب أقـصُّـهـا الآن بـلا إسـهـاب
رأيـتـنـي أمس بـلا ارتـيَـاب في جنـة الـمهيمن الـوهـاب
ذاتِ المـروج الخضْـر والقبـاب رأيـتـهـا واسـعـة الـرحَـاب
أعـدهـا مـسيِّـر الـسـحـاب لـكـل عـبـد صـالـحٍ أوَّاب
وفي جبـال المسْـك والهضـاب أبـصـرتُ ذئبـاً أزرق الأنـيـاب
يسكن قصـراً شـاهـقَ الأبـواب مـمـوَّه الـذروة والأعـتـاب
قـد ارتـدى من أفخـر الثيـابِ ونـام فـوق الـخـزِّ والـرزابـي
غـذاؤهُ مـن كـلِّ مـسـتـطَاب من بـاسقـاتِ النخـل والأعنـاب
فكـان هـذا مـوضـعَ استغـرابـي هـل صـارت الجنَّـة للذئـاب
أم أصـبـحـت داراً بـلا أبـواب نـعـم أرتْـنـا أسـطرُ الـكـتـاب
كلبـاً أتى في سـالف الأحقـاب كـانَ لأهـل الكهف كـالبـوَّاب
يـدخـل هـا هنا بـلا كِـذاب ومـن لـهـذا الـغـادر الـوثـاب
مختـطِف الشـاة من الـحـلاَّب أن يحتـبـي بـالخيْـر والثـواب
فضحك «السّرحان»[1] من خطابـي وقـال لـي بـأفصـح الـجـواب
غـفلت يـا فـتى عـن الأسبـاب والله مـا جـوزيـتُ بـالمثَـاب
إلا بـأقصى الخـطـطِ الصعـاب أسهل منها النسكُ في المحراب

---

(1) لقب السرحان كان يطلقه بيرم على الشيخ مصطفى بن شعبان أحد قادة الحزب الدستوري القديم.

والصـومُ طـوعـاً في خـلال آب وذاك أنّـي زمـن الـشـبـاب
في العـالـم الـموعـود بـالخَـراب بـقـرت بـالـمخلب والأنـيـاب
أحـشـاءَ قـاض أحمـر الاهـاب شـربـت كـلَّ دمِـه المنسـاب
وبعـد أَكـل اللحم والأعصـاب ألـقـيـتُ بـالـعـظام لـلـكـلاب
وجئتُ في الحشـر إلى الثـواب واحضـروا القـاضِي بـلا جلبـاب
وقـيـل لـلذي عـلى الـعَـذاب يـا مـلكُ اقـذفـه ولا تُـحَـابـي
ودلَّـه فـي قـعـرهـا الـلـهـاب معتصمـاً بـالـجـاه والحـجـاب
وكـان في العبـاد كـالقـصَّـاب مـسـاومـاً في ثـمـن الـرقـاب
وجيءَ بـالخيـل وبـالـركـاب وقيـل لي اركب يـا أبـا الأذنـاب

إلى نعيم الـملك التـواب

جريدة (الزمان) 13 جوان 1933

قصيدة قبر أمّ التونسيين

تباكى بمنديل على قبر أمّه[1] ... فأضحك من أضْحى على القبر باكيا

فيا قبرُ قد واريتَ طهراً وعفة ... وخلفتَ عاراً فوق ظهرك باديا

ويا قبر هلاَّ كنتَ أوسع منزلا ... فواريتَه في الجنبْ وهي كما هيا

ويا أمَّه جئت الجنان فريدةً ... وخلفته عن رحمةِ الله نائيا

ويا أمّه من ذا يكفكف دمعه ... إذا الصفح وافى صدغه متتاليا

سيبكي (حسين) لا لصفع قذاله ... ولكن سيبكي إذا أضاع المواسيا

سألت لك الغفرانَ والله غافر ... بمقدارِ ما آذى ابنُك الناس عاتيًا

جريدة (الزمان) 28 فيفري 1933

(1) كتب محمود بيرم هذه القصيدة للسخرية من الشاعر التونسي حسين الجزيري حين نشر صورة له وهو يبكي على قبر أمه مع قصيدة بالمناسبة.

تخميس قصيدة قبر أم التونسيين

وأحمق مشغـوف بتسـطيـر ذمـه　　ولـو كـان يـأتي في أبيـه وعمّـه
فلمّـا رأى الأقـلام ضنّت بشتمـه　　(تبـاكي بمنـديـل على قبـر أمـه
فأضحك من أضحى على القبر باكيا)

أكـان غبـاءً ذاك أم كـان خفـةً　　لعمـرك لم ندرك لحـاليْـه وصفـةً
سوى أنه اختـار الصحافة حرفـةً　　(فيـا قبر قـد واريتَ طهراً وعفـة
وخلّفت عـاراً فـوق ظهـرك باديـا)

وأوليتَ هذا العار صخـراً وجندلاً　　فأصبح فـرداً في الخلائق معـوِلا
يـطوف فلا يلقَى خـلافك مؤئـلا　　(ويا قبرُ هـلّا كنت أوسع منـزلا)
فـواريتَه في الجنب وهي كما هيا)

أعـد لـذم المسلمين حـريـدةً　　تـطاردهم حيناً فصـار طـريـدة
يـود لـو ان النّـار تحميـه حقبـة　　(ويا أمّـه جئت الجنـان فـريـدة
وخلّفتـه عن رحمـة اللّـه نـائيـا)

هي الأمُ من توحي إلى الطفل طبعَه　　ومنـطقُها في البـدء يقـرع سمعَـه
لقـد علمتـه مـا يسبّب صفْعَـه　　(ويـا أمـه مَن ذا يخفف دمعَـه
إذا الصفـعُ والَى صـدْغَـه متتاليـا)

لقد صفعُوه في قبيحِ فِعَالِه كما صفعُوه في سخيفِ مقَالِه
ولا مَنْ يؤاسي أو يرق لحالِه (سيبكي حسينٌ لا لِصفْعِ قذالِه
ولكنْ سيبكي إذا أضاع المؤاسيا)

حسين يسبّ العِرض والعرض طاهرٌ وفي كلّ بلوى شامتٌ أو مشاطر
وأنتِ التي راعيته وهو سادر (سألتِ لك الغفران واللّه غافر
بمقدارِ ما آذى باتك الناس عاتيا)

(الزمان) 21 مارس 1933

تشطير قصيدة قبر أم التونسيين

(تباكى بمنديـل على قبـر أمّه) فويلاه قد صارَ الرجال غوانيا
تباكى ليستجدي الدموعَ لخطبه (فأضحك من أضحى على القبر باكيا)
(فيا قبر قد واريتَ طهراً وعفة) فحيّيتَ من قبـر وطبْت مـواريـا
على رغم أرجاس عليك تركتَها (وخلفت عاراً فوق ظهرك باديا)
ويا قبر هلا كنت أوسع منزلا لخلين قد عاشا السنين الخواليا
ويا أمه جئت الجنان فريدة مطهرة يلقاك رضوانُ راضيا
وابنك موكُوس العباد نسيته (وخلفته عن رحمة اللّه نائيا)
(ويا أمه من ذا يجفف دمعه) كما كنت تسترضينه متباكيا
سيبكي (حسين) بعد موتك صادقاً (إذا الصفع والى صدغه متتاليا)
(سيبكي (حسين) لا لصفع قذاله) فذاك مناه يافعاً ومناغيا
وهو لا يبكي للعصي تناله (ولكن سيبكي إذا إذ أضاع المؤانسا)
(سألت لك الغفران واللّه غافر) مساويء يضحكن الجبال الرواسيا
بهذا ستعتاضين عفواً ورحمة (بمقدار ما آذى ابنك الناس عاتيا)

جريدة (الزمان) 28 مارس 1933

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة
ـ هذا التراث وأهميته	5
مقالاته السياسية:	
ـ من (الشباب) إلى الشباب	13
ـ البرلمان التونسي	15
ـ مجلس السواقر والسيقار.. والقهوة	20
ـ خطبة (السردوك)	23
ـ تونس القديمة	24
ـ حطوا الكلب في الحبس	26
ـ نحن لا نعيش في القرون الوسطى	28
ـ تونس تحتل إسبانيا	30
ـ جريمة «المتلوي»	32
ـ بين اللين والشدة تظهر الحقائق	34
ـ «كرميس» السفارة الخيري	37
ـ فرنسا أمام الميكرفون	41
ـ في الموسم الأسود	43
ـ أهلاً وسهلاً	45
ـ مسيو «فيينو» يتفرج في صندوق العجائب	47
ـ الموظفون الفرنسيون يتظاهرون	49
ـ الحزب الدستوري المخيف	52
ـ أحزب أم عصابة	54

الموضوع	الصفحة

ـ قدماء بني آدم 56
ـ رواية 58
ـ ضلال الأحزاب في الشرق 62
ـ الزعامة في الشرق 64
ـ الذكرى السادسة لزعيم مصر 67
ـ النهضة الاقتصادية في مصر 77
ـ مصير عصبة الأمم 79
ـ مؤتمر السمك 82
ـ وصايا الفاشيست العشر 86

مقالاته الفكرية:

ـ الإسلام شجرة مباركة 89
ـ محمد صلى الله ليه وسلم 91
ـ الإسلام يتمطى 93
ـ الإسلام البريء 95
ـ العام الجديد 97
ـ تجار الصلاة 99
ـ الحمد لله 101
ـ هل تحترمون دينكم 104
ـ عاشوراء 107
ـ البؤس في المدينة المنورة 110
ـ الشمائل التونسية في نظر الغريب 112
ـ تونس في الليل 115
ـ عاصمة بلا بوليس 117
ـ مدينة بلا حراسة 119
ـ مستقبل المرأة التونسية 121
ـ السيدة ناجية رضي الله عنها 124
ـ «الهروين» في الحمام 127
ـ تونس تعيش في الأحلام 129

الموضوع	الصفحة
ـ مكافحة التسوّل	132
ـ حديث مع متسول	135
ـ من المنظار	138
ـ الجمعيات الخيرية في تونس	140
ـ كرنفال 1937	142
ـ السياحة في تونس	144
ـ المجرم المنفلت (1)	147
ـ المجرم المنفلت (2)	151
ـ (الزمان) يضحك (1)	155
ـ (الزمان) يضحك (2)	157
ـ مدينة الشتائم	159
ـ اليانصيب الخيري	161
ـ خراب النفوس	163
ـ أنا وهو	165
ـ وحي الزمان	169
ـ العاهات الأخلاقية	170
ـ الذوق (1)	172
ـ الذوق (2)	174
ـ الاتحاد والمحبة	176
ـ المدح والذم سواء	178
ـ الحب والزواج	180
ـ العائلة	183
ـ والأكل	185
ـ عصا المعلم	187
ـ صدق وصراحة	189
ـ استمع لما يقال	192
ـ السلاح الذي يقتل صاحبه	194
ـ من المنظار	197
ـ سلطة الموظف	199

الموضوع	الصفحة

ـ حلاق النسوان 201
ـ السيجارة 204
ـ الربا 206
ـ البصاق 208
ـ الأمراض 210
ـ أدوات الموت تتجدد 213
ـ نفسية الجبان 216
ـ السرقة فضيلة 218
ـ في عالم اللصوصية 220
ـ الهروين والتكروري 224
ـ الاتجار بالنساء 228
ـ الدعارة السرية 231
ـ الشرق الساحر 234
ـ المرأة المصرية 236
ـ الزار في مصر 239
ـ الوجوه 243
ـ كيفية السلام عند الشعوب 244
ـ واخجلاه 246
ـ الأمم الصغيرة 248
ـ في الجلاز 251

مقالاته الأدبية :

ـ كيف ننظر إلى الأدب 259
ـ الفن القصصي 262
ـ الشعر المسرحي 265
ـ كتاب (عنوان الأريب. .) (1) 268
ـ كتاب (عنوان الأريب. . .) (2) 279
ـ حرية النقد 283
ـ (أطياف الربيع) لأبي شادي 286

الموضوع	الصفحة

ـ شعر المصريين 289
ـ في حفلة أبـي القاسم الشابـي 291
ـ هل توجد موسيقى تونسية 293
ـ التخت المصري 295
ـ المسرح المزيف 298
ـ الموسم التمثيلي 301
ـ يا للنساء من الرجال 303
ـ لا رجاء في نهوض المسرح 307
ـ اللغة العربية مفتاح الدين الإسلامي 309
ـ اللهجة العربية التونسية 311
ـ تونس تندب لغتها العربية 314
ـ الفنون الجميلة في تونس 317
ـ الخط العربـي في تونس 319
ـ اقتلوا الأمية 321
ـ سيد درويش 324
ـ أم كلثوم 331
ـ سامي الشوا 335
ـ كتاب الفكاهة في اللغة العربية 338
ـ إمام العبد 342
ـ مصر تبحث عن قبر ابن خلدون 346
ـ المتنبـي 350
ـ هذا عهد الله 353
ـ كيف تكون صحفياً في تونس 355
ـ صاحبة الجلالة 358
ـ (الزمان) في السنة الخامسة 360
ـ حرية الصحافة 362
ـ المؤتمر الصحافي الدولي 365
ـ الأمة التونسية تحتفل 368
ـ الموت 370

الموضوع	الصفحة

الأبطال بالريشة والقلم:

- الأستاذ الصادق التلاتلي 375
- «الميتر» نعمان 378
- الأستاذ زين العابدين السنوسي 380
- «الميتر» الظاهر الصافي 383
- السيد محمد الرصاع 388
- حمودة بوسن 392
- شيخ الحصافة الأستاذ محمد الجعايبي 395
- الأستاذ محمد الورتتاني 398
- الشاذلي السنوسي 403
- الشيخ التبريزي بن عزوز 408
- الشيخ سليمان الجادوي 414
- الأستاذ عثمان الكعاك 418
- الأستاذ الشاذلي خيرالله 423
- الأستاذ المنصف العقبي 427
- الأستاذ محمود بورقيبة 430
- السيد محمود العيوني 435
- الأستاذ حسين الجزيري 439
- الأستاذ الصادق الزمرلي 443
- الأستاذ عبدالعزيز العروي 446
- السيد محمد الأمين الكتبي 450
- البطل المجهول 454
- الحبيب المانع 456
- البطل المجهول 460
- البطل المجهول 463

قصصه:

- رسالة الغفران 469
- العقاقير 485
- القاضي الصغير 490

الموضوع	الصفحة

- بعد الميعاد 495
- دعوة القبطي 499
- بركة البوم 503
- حدائق شارع باريس 508
- زنوج باريس 512
- «أوتيل» أبـي القاسم 517
- الجارة المجهولة 523
- السكران 527
- الانتقام 530
- الأحباب 535
- الصديق الرذل 539
- المرأة القبيحة 543
- المرأة العاشرة 548
- دبوزة (فين) 551
- الأميرة التركية 555
- المهدي أو الصوت القاتل 560
- القواد النزيه 563
- الألماسة المزيفة 566
- حماس ساعة 569
- العشاء 572
- الحب الهمجي 576
- الكهرباجي 579
- الدّريبة 588
- عم علي الرايس 594
- طاحونة الأمس وطاحونة اليوم 600
- الحاج الكيلاني الجزار 604
- تذكرة «الترام» 609
- كبش العيد 614
- تونس تغني 619

الموضوع	الصفحة

مقـامـاتـه:

- المقامة السودانية 627
- المقامة الفنيكية 630
- المقامة السطوحية 633
- المقامة الفرنكية 639
- المقامة الأرديفرية 939
- المقامة الإسفنجية 642
- المقامة الليفية 644
- المقامة البشكيرية 646
- المقامة الصوردية 648
- المقامة الخلنجانية 650
- المقامة الأملكارية 654
- المقامة العفريتية 657
- المقامة السينمائية 660
- المروقي المنشق عن النقابة 662
- نقابة المروقية ترشح 665
- نقابة المروقية تضرب عن العمل 669
- المروقي المنشق يحترف الأعمال الحرة 672
- مؤامرات المروقية 675
- سقوط دولة المروقية 679

قصـائـده:

- محمد صلى الله عليه وسلم 685
- الصمت 687
- صبراً 688
- يا مغيث 689
- حمّى المستنقعات 690
- المطر 691
- الربيع 692

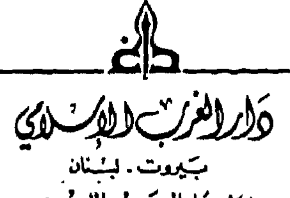
الموضوع	الصفحة

ــ لزوم ما لا يلزم	693
ــ لزوم ما لا يلزم	694
ــ أنا	695
ــ صناعتي	636
ــ شاعر المقهى	698
ــ الشعر الجديد	700
ــ أحبّ	702
ــ لا تفزعي	703
ــ مدام (صامبصون)	704
ــ سجى الليل	705
ــ أعوذ بالله	707
ــ الحفلة الكبرى	708
ــ نشيد	710
ــ النيابة	712
ــ إرادة الله	713
ــ النتيجة	714
ــ حفلة ابتهاج	715
ــ في كل دار أقيم عرس	717
ــ من شعر محمود بيرم	718
ــ الاشتراكية	719
ــ «قويون»	721
ــ الكاتدرال التونسية	722
ــ الشعر القديم	723
ــ ليون	724
ــ عريضة لإدارة المال	725
ــ مدافع العيد	727
ــ الإمام يحيى	728
ــ تحت الحجاب	729
ــ ذئب في الجنة	731

الموضوع	الصفحة

ـ قصيدة قبر أم التونسيين................................ 733
ـ تخميس قصيدة قبر أم التونسيين............................ 734
ـ تشطير قصيدة قبر أم التونسيين 736

□ □ □



شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1987/1/3000/104

التنضيد: أبجد غرافيكس

الطباعة : مؤسسة جواد - بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

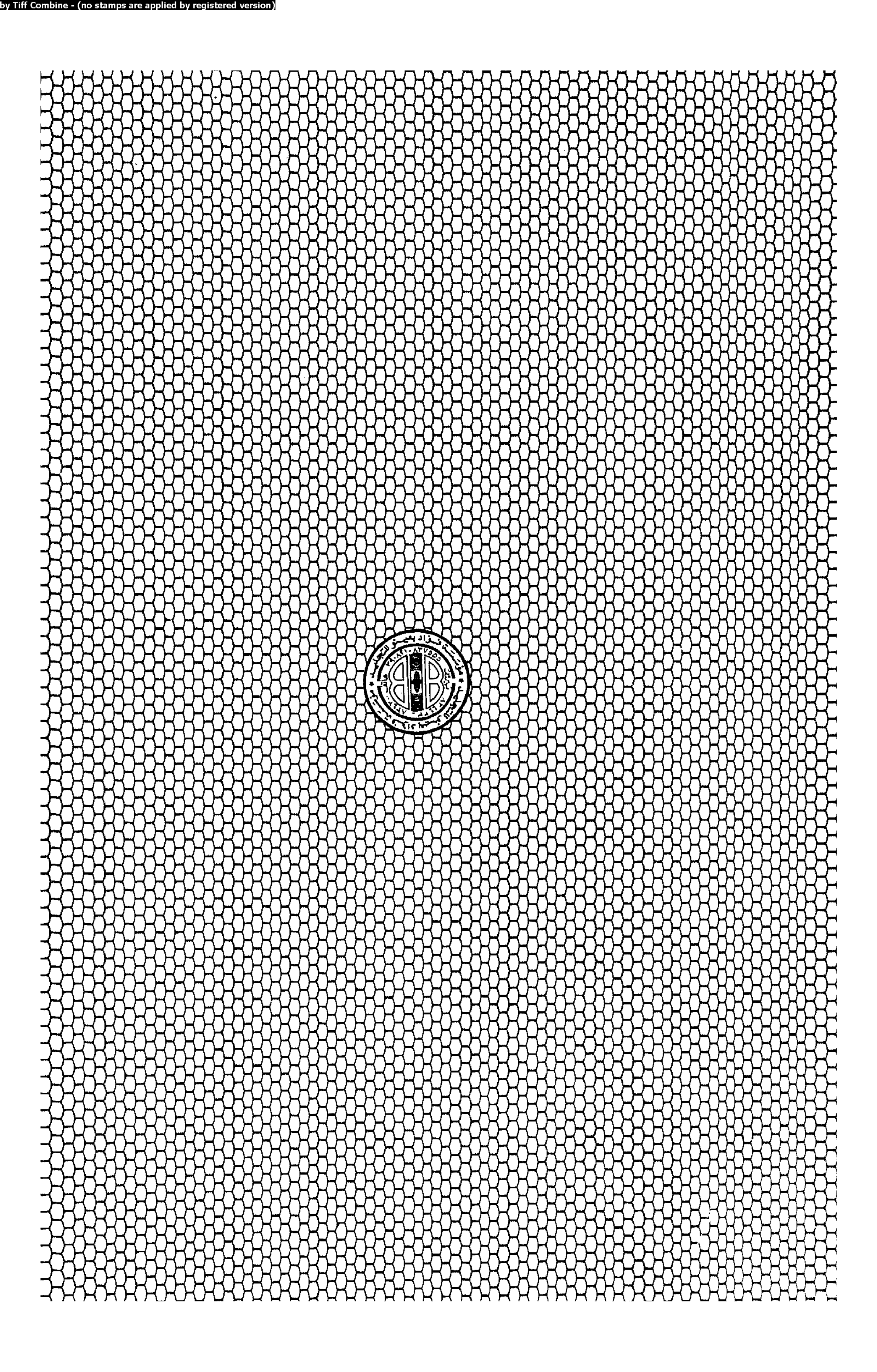












التوزيع في مصر

مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - العجوزة - القاهرة - سجل تجاري ٦٢٢٢١
195 26 JULY St. AGOUZA - Reg,Com: 62221